

أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ والتراث الجهوي
تحت عنوان:

**المخزن وتدبير المجال التادلي
في النصف الثاني من القرن التاسع عشر
من خلال الأرشيف المخزني
مقاربة تاريخية**

بإشراف:
الدكتورة سعاد بلحسين

اعداد الطالب الباحث:
محمد عبد الحكيم أبو اليتيم
رقم الطالب: 06/16PHR

السنة الجامعية: 2021 / 2022

إهداء :

إلى روح والدي،
إلى والدي وأفراد أسرتي وعائلتي،
أهدي هذا العمل المتواضع.

المختصرات والرموز المستعملة في هوامش البحث

خ.م.ر: الخزانة الملكية بالرباط.

م.و.م.ر.ح: مديرية الوثائق الملكية بالرباط حسان.

مخ.س: مخطوط سابق.

م.س: مصدر سابق.

م.ر.س: مرجع سابق.

هـ: السنة الهجرية.

م: السنة الميلادية.

« كل النصوص المدرجة بين علامة التنصيص » : مستخرجة من وثائق الارشيف المخزني.

" كل النصوص المدرجة بين علامة مزدوجتين " : مستخرجة من الكتابات المصدرية.

[...] : كما هو معلوم، يرمز بالقوسين المستطيلين داخلهما ثلاث نقط، الى حذف مقصود لكتابة نصية.

* : يشار بالنجمة، الى توضيح فكرة أو معلومة أو تفسير لإشارة وردت في نص.

شكر وتقدير

أتوجه بالشكر الجزيل وخالص الثناء والتقدير للأستاذة المقفطرة المشرفة الدكتورة سعاد بلحسين، التي تابعت أطوار إنجاز البحث منذ بدايته الى متمه، فما انقطع دعمها وما فترت همتها في التوجيه والتصويب والتشجيع. لقد مثلت فعلا النموذج الأمثل للأستاذة المشرفة التي تدلل الصعاب وتنير دروب المعرفة وترشد الى مصادر ومكامن الاعتراف العلمي، والتنبيه الدائم بضرورة الاهتمام بدراسة التاريخ والتراث الجهوي والتفريد بشروطه الاكاديمية والعلمية، ومقارنته بالوسائل المنهجية الممكنة من زوايا وخيارات مختلفة. وما إصرارها بالانفتاح على باقي العلوم المساعدة وعدم التردد في اختبار عطاءاتها في ميدان العلوم الانسانية، الا دليل على مساهمتها الفعالة في الانخراط في هذا المشروع الحدائي واثمينه والسعي لتطويره. لقد وقع الاختيار وبتوجيه من الاستاذة الفاضلة مشكورة، من أجل مقارنة موضوع تدبير المخزن للمجال التادلي بمكوناته القبلية المستقرة بالسهل والدير والجل بالاعتماد وثائق ومستندات الارشيف المخزني كمصدر أساس لتناول الإشكالية ومحاولة الإجابة عن مجموعة من تساؤلاتها الفرعية. فالفضل كل الفضل يعود اليها بعد الله. لقد كان فعلا لمجهودها ومتابعتها أكبر الأثر في إنجاز هذا العمل المتواضع فتستحق مني كل الإشادة والثناء.

كما أتوجه بالشكر الجزيل إلى كل الاساتذة الأفاضل الأجلاء، في شعبة التاريخ والتراث بكلية الآداب والعلوم الانسانية ببني ملال. وأخص منهم بالذكر الاستاذ الدكتور محمد العاملي عميد كلية الآداب والعلوم الانسانية، ورئيس شعبة التاريخ والتراث الجهوي، ومسلك الماستر لنفس التخصص، لما أسداه من جليل أعماله وتوجيهاته النيرة لإتمام هذا البحث

كما أعبر عن شكري وتقديري للدكتور أحمد شوقي بنين، مدير الخزنة الملكية بالرباط وللدكتورة بهيجة السيمو، مديرة مديرية الوثائق الملكية بالرباط، وللدكتور جامع بيضا مدير الارشيف المغربي، وكافة موظفي هذه المؤسسات الكبيرة، موئل البحث ومنبع المعرفة، لمدهم لي يد المساعدة والعون خلال مراجعاتي المتكررة لهذه المرافق العلمية.

التنويه والامتنان والشكر الخالص واللامحدود، لكل أفراد عائلتي من آل أبواليتيم الممتدة داخل الوطن وخارجه ، وكذا لأفراد أسرتي الصغيرة على مؤازرتهم وتشجيعهم المتواصل طيلة مسيرة إنجاز هذا البحث، فضلا عن كل من كانت له يد بيضاء على حسن الصنيع ودعم ومساعدة لم ينقطع خاصة من طرف موظفات وموظفي إدارة كلية الآداب والعلوم الانسانية ببني ملال وافراد من حفدة سيدي احمد او علي الملياني مرابط سابق.

مقدمة

يواجه الباحث في تاريخ أوجه وأنظمة تدبير السلطة لمجتمع محلي لفترة ما قبل الحماية، في محاولة لرصد تطور العلاقة بين هذين المكونين إشكالين جوهريين. ويتعلق الأول منهما باختيار وتحديد الوسائل والأدوات البحثية التي يمكن من خلالها التعرف على طبيعة هذه العلاقة، ومدى إمكانية تلك الوسائل والأدوات، سواء أكانت وثائق ومستندات تاريخية، رسمية أو خاصة، مؤلفات مصدرية أو كتابات متنوعة المشارب والاهتمامات خاصة منها ذات البعد الاقتصادي والاجتماعي، في مد الباحث بالإجابات وعديد من المعطيات التي تمكنه من الوقوف على طبيعة تلك العلاقة وفهمها وتفسيرها. وبالتالي عليه ان يختبر مدى استيفائها لشروط خياراته المنهجية وقدرتها على استجلاء مستويات من التفاعل والتقابل بين المكونين المذكورين كبنيتين متباينتين، تقومان على حد بين الائتلاف والاختلاف¹. واحدة منهما تقوم على أنظمة من العلاقات الاجتماعية والاقتصادية بتمظهر قبلي وبمستويات أنماط عيش ووسائل إنتاج تكاد تكون متشابهة في عموم البوادي. مع طغيان سمته المميزة بالاكتماء واقتصاد القلة، ضمن مجالات بيئية، لا يفسر حجم تلبية هذه الاخيرة لحاجيات السكان المعيشية، الا بمقدار ما يتأتى من وسائل استغلالها، ومجابهة تحدياتها. بنية لا تخرج عن نطاق نظام تقليدي متوارث، وفق إطارات من الثقافة والأعراف والتقاليد محلية. والثانية تقوم على أسس من أنظمة قانونية وضوابط شرعية في تدبير وتصريف شؤون وأحوال المجتمع، بواسطة أجهزة محلية، تجعل من استتباب الأمن وإشاعة الحضور المخزني وإنفاذ الأحكام وتحصيل الضرائب الشرعية والمستحدثة من بين أهم أسسها وبما توفر لديها من سلطة وسند مركزي.

وإذا كان البحث في التاريخ يستهدف تعقب الحقيقة، مع إدراك كل باحث عنها استحالة الإمساك بها مهما بلغت مستويات استجلابه لما يعزز قناعاته واستنتاجاته من خلاصات متحصلة لديه من آليات علمية، تدعم مسار انشغاله، ورصده لمستويات التداخل لمجموع العناصر المؤثرة بين البنيتين المشار إليهما اعلاه، باعتبارهما تعكسان ملمحا عاما للخصوصية المغربية، ومهما تعددت وسائله وتنوعت منهجياته في تناول القضايا التاريخية من زواياها الأفقية أو أبعادها العمودية في إطار من التحليل والتفكيك والتركيب، فإنه لا يمكنه بأي حال من الأحوال

¹ في تفسيره لطبيعة اختلاف البنيتين من وجهة سياسية، يتحدث المؤرخ جرمان عياش في كتابه حرب الريف ص 101: انه في المغرب، "وجدت سلطتان سياسيتان متعارضتان، يتوقف عليهما في الواقع مصير القبيلة. السلطة الاولى وهي محلية محضة تتبع من القاعدة، اما الثانية واردة من الخارج لمقابلتها فتصدر عن المخزن أي عن الدولة. اما الائتحام بين السلطين فيتم في شخص القائد".

الاستغناء عن الوثيقة بمختلف أصنافها وأشكالها وأنواعها كسند مادي ومصدر أساسي تتحدد بموجبها جملة معطيات بمستطاعها الاستجابة لعناصر وزخم الاسئلة المطروحة كلما تم تفكيك حملتها، وحسنت قراءتها ودقت مسائلتها².

لكن الإشكال هنا يبقى قائما، يستوجب معه طرح السؤال التالي: ماهي الوسيلة أو الاداة التي يمكن اللجوء إليها واعتمادها في طرق موضوع يرتبط أوثق ارتباط بالمكون المخزني بصفته إطارا عاما للسلطة يحتج آليات تدبيرية للمجتمع المحلي؟ ثم ما هي المعايير التي تم الارتكاز عليها في اختيار تلك الأدوات، وهي على أية حال لا تخرج عن نطاق الوثائق المكتوبة باعتبارها وسائل مصدري وثيقة الصلة بالواقع المادي وبالحياة العامة لذلك المجتمع من ناحية، وبالعقل السياسي والتدبري المنتج لها من ناحية أخرى؟

أما ثاني الإشكاليين، فيتعلق بميدان الدراسة. ونعني به الانسان ضمن إطار بيئته الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والمجالية. هل سيقع على مجال تتوسطه حاضرة كبيرة أو عاصمة سلطانية قد تساعد أهمية إشعاعها وفاعلية موقعها على إمكانية توفر المادة المصدريّة، ومن ثمة تسهيل اقتحام وسبر أغوار التجربة التاريخية لمجتمعها المحلي والقبلي؟ أم أن الضرورة العلمية والمنهجية التي تقضي بالاهتمام أكثر بالتاريخ والتراث الجهويين خاصة بالمناطق الطرفية التي كانت لا زالت تكتنف حركة مجتمعها كثيرا من الضبابية والغموض يتعين معه سلك تجربة بحثية بإمكانها ملامسة على الأقل جوانب معينة من تلك الحركة؟

لقد بدت قناعتنا واضحة بكون البحث في التاريخ الجهوي يمثل حقيقة خطأ تثويريا، وعنوانا نهضويا بالتاريخ والتراث المحلي، وإطارا جادا تفتح بموجبه ابوابا عدة في اختيار المقاربات وأصناف الاهتمامات والاتجاهات المستوحاة من العلوم الانسانية بإمكانها تعميق المعرفة التاريخية الجهوية، فنحتاج بذلك الى مزيد من التنقيب والبحث. ما هذا بنا الى الانخراط في هذا المشروع الجديد والمتجدد والادلاء بدلونا من خلال المساهمة بهذه الدراسة المتواضعة.

1. أهمية الموضوع:

لعل تدبير المخزن المركزي لقضايا وشؤون المجتمع كانت من اهم المهام التي اضطلع بها لتنظيم الحياة العامة والقيام بالمسؤوليات الملقاة على عاتقه لما لعامل التدبير والتدبر من

² يعث عبد الله العروي الوثيقة بالشهادة ، مؤكدا انه لا وجود للمؤرخ المطلق كما لا وجود للوثيقة المجردة . كل ما يوجد هو وثيقة متميزة يستعملها باحث متخصص ...لا تاريخ بدون وثيقة ، و الوثيقة هي الوسيلة الموضوعية. مفهوم التاريخ الالفاظ و المذاهب ط.4 . 1905 . المركز الثقافي العربي صص 80 و 260.

وجه اتصال مباشر في تنفيذ سياسة الدولة بواسطة اجهزته المحلية والقائمين على تصريف احوال المجتمع وتيسير النظام العام وفق المنظور الذي يرسمه و يحدده المركز نفسه.

وقد اهتمت كثيرا من الدراسات و البحوث و الأطاريح الجامعية بموضوع علاقة السلطة بالمجتمع حتى كادت لا تخلو اية واحدة منها تناولت قضايا المجتمع المغربي عبر مسيرته التاريخية الطويلة من مقاربتها لتلك العلاقة، سواء تناولت ذلك من منظور التاريخ الشمولي او تجزيئي جهوي او اقتصرت على المبحثات و المونوغرافيات، او اندرج اتجاهها ضمن التاريخ المقارن. بيد ان قلة منها ذات توجه اكايمي انبرت لتخصيص فصول منها في مقاربة تلك العلاقة و ان كانت ضمن اطار مونوغرافي محدد في المكان. لذلك انبرى اهتمامنا الى محاولة توسيع البحث ليشمل كافة الاقليم لرسم معالم من تلك العلاقة تأسيسا على وثائق ومستندات هي من صميم التصور والانتاج والفعل المخزني ذاته.

وبما ان صيغ واشكال التدبير المخزني للقضايا المحلية للمجتمع التادلي و قد افصحت عنها بكل جلاء تلك الوثائق، فان مضامينها لم تكن في حقيقة الامر غير تجل لحركة المجتمع المستمرة في انفعاله مع السلطة المحلية و هي تنفذ ما تتوصل به من المركز مع تجاوزها في كثير من الاحيان لما هو موكول للقائمين عليها. انفعال المجتمع المحلي وطبيعة تجاوبه مع الحضور المخزني هو بالضبط ما اعطى لتلك الوثائق من منظورها التاريخي زخمها وقوتها في الافصاح عن جوانب من تلك العلاقة. وفي نفس الوقت منحتنا فرصة لإمكانية تحليل تلك المواقف وتفسيرها ضمن رؤية تراعي الإطار العام الذي تتحكم فيه السياسة التدبيرية للمخزن المركزي.

والحقيقة، ان أهمية الموضوع وهو يقارب صيغا تدبيرية لشؤون المجتمع المحلي لا يتوقف فقط على رصد ملامح من سيرة المخزن في حياة المجتمع المحلي بناء على ما تحصل بين ايدينا من وثائق الارشيف المخزني، بل كان لابد من الاستعانة بالمصادر التقليدية لسد بعض الثغرات التي نواجهها في الوثائق. غير أن التأليف التقليدية التي واكبت فترة النصف الثاني من القرن التاسع عشر، ورغم تناولها لبعض قضايا المجتمع المحلي بالإقليم التادلي وجواره من قبائل الدير والجبل في علاقته بالسلطتين المركزية والمحلية، لم يتجاوز اهتمامها ملامسة الا بعض الوقائع والاحداث التاريخية من طبيعة ظرفية وطارئة، ارتبطت في الغالب بحضور الحركات المخزنية والمحلات السلطانية ومتابعة ركبها وسط القبائل وما كان يواكب أعمالها من تفقد لأحوال الناس و القبائل زجر للمتمردين والمتعاصين عن أداء الضرائب أو بتعقب الثائرين على حاكم مخزني ما. لكن التاريخ المحلي لم يكن بالضرورة تجليا لمظاهر العنف يتحتم النظر اليه فقط من زاوية ما ينظر اليه

مؤرخون يمشون تحت ركاب السلطان فيعطون خلاصات عن تغلب المخزن ورصد حركته بعد أن تكون نتائجها قد حسمت وسمحت لهم الفرصة بعد ذلك للإشادة بسيرته في القبائل.

2. دوافع اختيار موضوع البحث وتحديد فترة دراسته:

سعيًا من خلال تقديم هذه الأطروحة البحثية في موضوع المخزن وتدبير المجال التادلي في النصف الثاني من القرن 19 بمقاربة تاريخية اعتمادًا على ما تحصل بين أيدينا من وثائق ومستندات الارشيف المخزني، الى الوقوف على جوانب من تاريخ علاقة المكون المخزني المركزي والمحلي بالمجتمع التادلي، وابرار مقومات آلياته ووسائله التي اعتمدها في تدبير قضاياها المحلية، اقتصادية واجتماعية وسياسية، ورصد كفاءات عمل أجهزته المحلية في تعاطيها لانفاذ وتحقيق مطالب المركز للسكان، من بينها استخلاص الجبايات والواجبات الشرعية والمستحدثة وسائر التوظيفات والكلف، وتوضيح جوانب معينة من المقاربات التي سلتها اجهزته التمثيلية بصفتها معبرة عن السياسة العامة التي سلكها المخزن في تدبير شؤون الاقليم الامنية، وكذا الوفاء بالالتزامات لضمان الاستقرار الاجتماعي وحفظ التوازنات القبلية من خلال تعزيز تنظيماته الادارية والعسكرية لما يفرضه واقع التدبير المجالي.

بيد ان اختيارنا للموضوع جاء استجابة لما قدرناه من أن تاريخ علاقة المجتمع المحلي بالمخزن لم يحظ الا بنزر يسير من اهتمام الدارسين والباحثين، بل لم يكد يستوف حقه من الالمام بمستويات وأشكال تجاوب وانفعال المجموعات السكانية سواء القاطنة بالجبل والدير او بالسهل مع خيارات المخزن التدبيرية في تحقيق سياساته الجبائية والامنية. وإذ رما في هذا البحث الكشف عن جوانب محددة من مظاهر تلك العلاقة، فإنه في حقيقة الأمر لم يكن الا مساهمة منا متواضعة، تتغيا الانخراط في بناء معرفة أستمولوجية من خلال سلك منهجية تقوم على تحليل الخطاب المخزني باعتباره مُعبّرًا عن تلك العلاقة مع تفكيك ما تصورناه جملة مضمرات تخللت احداثا تاريخية مواكبة، مع الاخذ في الحساب ان رعم شروط الخطاب الظرفية وقدرة المخزن التنظيمية على التجاوب مع الوقائع الطارئة، الا ان بعده التدبيري لم يكن الا انعكاسا لتمظهرات بنية اجتماعية تسيير نحو التحول عرفه المجتمع التادلي كما تجلت ملامحه خلال الفترة المدروسة.

ومن نافل القول، ان التنظيمات السكانية المستوطنة بالإقليم التادلي وما تحاذيه من مناطق الدير والجبل، تعتبر واحدة من المجتمعات التي انبرت تشكيلاتها البشرية والقبيلة في الانخراط ضمن حركة التاريخ الكبرى. لقد فرضت عليها حتمية الواقع الجغرافي المتنوع والمجال الممتد، انفتاحا ليس فقط على باقي المكونات السكانية والقبلية المحيطة بالإقليم، بل أيضا على موجات

بشرية طارئة قدمت واستجلبت من الآفاق تباعا، استوعبتها أرض الاقليم الشاسعة واحتضنتها قيم وأعراف أهله. ليتشكل بذلك مزيجا بشريا متجددا حافلا بالتنوع الثقافي واللغوي ضمن وحدة من الاهداف والمصير المشترك. ومن الواضح ان يكون لهذه الخصائص تأثير في رسم علاقة مع انظمة حكم الدول المتعاقبة تمكنت بموجبها قبائل الاقليم الوسطية منها والظرفية من صياغة واحدا من اهم فصول مسيرتها التاريخية في ارتباط وثيق مع الفعل التدبيري للمخزن حيال مجموعاتها افصحت عنها ما تخلف من وثائق ارشيفه الرسمي.

وبما ان الوسائل والادوات البحثية المذكورة التي رما توصلها واعتمادها في محاولة منا لتحري وتتبع طبيعة تلك العلاقة واستجلاء جوانبها السياسية والاقتصادية والاجتماعية، فإنها قد مثلت بالنسبة الينا حافزا كبيرا ودافعا وجيها لإنجاز بحث أكاديمي يتناول بالدراسة لما حفلت به معطياتها من دقة في المعلومات وشاهدة على عصرها فيما اعتوره من أحداث ووقائع ما اضى عليها قيمة علمية ومصداقية تاريخية. فتم العزم بعون الله لان تكون المصدر الاساس الذي يمدنا بما يفيد في الاجابة عن الاشكالية المطروحة.

وغير خاف أيضا، أن المجتمع التادلي قد عرف مدنا ومراكز حضرية استروح إشعاعها بين التمدد والتقلص عبر العصور والحقب. تعددت فيه الزوايا ومدارس التعليم بمجالسها العلمية والصوفية، وتوزعت بمجاله تجمعات سكانية بين حواضر وقرى، وتنوعت وسائل ومصادر عيشها بين انتاج حضري مدني وانتاج زراعي ورعوي ونمط عيش بدوي. ومن ثمة يمكن الجزم انه ليس من الجائز الادعاء بخلو حركة مجتمعه في رحلته التاريخية الطويلة من اية آثار تخلد لماضيه، او تخلفه عن الاستجابة لمسايرة ركب الانتاجات الفكرية، والعلمية والفقهية والصوفية. وبما أن الباب لا زال مواربا أمام الباحثين والدارسين لتاريخ المجتمع التادلي في التنقيب والبحث في استخراج مزيد من المخطوطات وتصيد الوثائق وكشف انتاجاته الفكرية سواء القابعة بالمكتبات الخاصة او بمحفوظات الزوايا او لدى بعض حفدة الاولياء والمرابطين، فإن تجربتنا البحثية في هذه الدراسة اقتصرت على وثائق ومستندات ليست أقل قيمة مما ذكرناه، بل نرى ان أهميتها وتفرداها يكمن في بعدين أساسيين : بعد ابستمولوجي جعلنا نقف على حياة المجتمع المحلي و معرفة جوانب من طبيعة علاقته مع المكون المخزني، وبعد إجرائي كونها تعكس خطابا هو نفسه يمثل تمظهرات الفعل التدبيري الذي سلكه المخزن مع السكان، وعبرها تبلورت الكيفيات التي رامها لتحقيق مطالبه المتزايدة من خلال حضوره بالمجال عبر ممثليه واجهزته المحلية ومستويات

إنفادها لجملة اجراءات ومقتضيات يحددها المركز في اطار من مكتسبات ومشروعية الدولة.
ويحق لنا في هذا الصدد الاجابة عن دوافع اختيارنا لهذا الصنف المصدري؟

- الدافع الأول: أن جل الكتابات المصدرية والتأليف التاريخية التقليدية على أهميتها، لم يأخذ فيها التاريخ المحلي وقضايا سكانه من اهتمام أصحابها الشيء الكثير. بينما قادتنا استبارات واستقرارات وثائق الارشيف المخزني الى الوقوف على جوانب كثيرة من تاريخه خلال الفترة المدروسة وهوما لم نجده في غيرها من المصادر.

- الدافع الثاني: ان الوثائق والمستندات المعتمدة، ورغم خطابها الرسمي وما يتضمنه من وجهة نظر تعكس رأي وتصور الدولة في تعاطي جهازها لشؤون وقضايا المجتمع المحلي، الا انها كوسيلة مصدرية تبقى غاية في الاهمية، كونها تمنح للدارس كما هائلا من المعطيات يمكن توظيفها منهجيا في التحليل والتفسير والتأويل لمقاربة موضوعه البحثي.

أما عن دافع حصر الموضوع في فترة المنتصف الثاني للقرن التاسع عشر فنجزها في
النقط التالية:

- كون هذه الفترة هي الأكثر سيولة وصيبيا في الوثائق والمراسلات المخزنية، سواء الصادر منها عن المركز او الوارد إليه. فإذا كان المنشأ المبدئي لمقاربة الموضوع قد تم حسمه باعتماد وثائق الارشيف المخزني، فإن الامر يبدوا منطقيا بالتركيز أكثر على المرحلة التي تتسم بوفرة المادة المصدرية أكثر من غيرها من الفترات. صحيح ان مواضيع الوثائق كانت كثيرة ومتنوعة، وصحيح أيضا أنه كان لها تأثير في مقاربة تواريخ مناطق متعددة من الاقليم، لكن لا يعني ذلك انها تحكمت في توجهات البحث، إذ حافظنا قدر الامكان على اتخاذها وسيلة لتفسير وتحليل المعطيات الواردة بها.

- كون هذه الفترة قد شهدت حدثا تاريخيا، كان له تأثير بالغ على حياة السكان في عموم البلاد وعلى المخزن ذاته، وهو الهزيمة العسكرية لجند السلطان في معركة ايسلي سنة 1844 م. وقد انعكست اثار ذلك على علاقة السكان بالمخزن المحلي وبين هذا الأخير والمركز.

- أنه من بداية هذه الفترة الى حدود نهاية القرن شهد التدبير المخزني لشؤون الاقليم التادلي وما اليه من قبائل الدير والجل تطورات وتحولات نوعية. تحكمت فيها عوامل خارجية وداخلية سنتعرف عليها في أطوار البحث.

فما هو موضوع الإشكالية بالضبط وما أهمية المادة المصدرية المعتمد؟

3. الإشكالية:

وعيا منا بأن الإشكالية البحثية هي القلق العلمي الذي يساور الباحث في موضوع بحث معين. ولا يمكنه الاجابة عنه الا من خلال دراسة مستفيضة مستوجبة لكافة شروط البحث العلمي. وأدراكا منا لأهمية الموضوع الذي اخترناه لهذه الاطروحة الاكاديمية الجامعية، فقد صغنا إشكاليته البحثية بصيغة استفهامية وفق النحو التالي: كيف يمكن استثمار وتوظيف وثائق ومستندات الارشيف المخزني - وما اليها من بيانات ومعلومات مصدرية - لمقاربة نظم وآليات الحكم التي سلكها المخزن في تدبير قضايا المجتمع المحلي بالإقليم التادلي وجواره من قبائل الدير والجبل خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر؟

وقد عززنا هذه الاشكالية البحثية بجملة من الاسئلة الفرعية على شكل فرضيات اختبرناها في متن العمل، منها:

- ما طبيعة النظام الاداري المخزني في شقه التراسلي الذي اعتمده المخزن باعتباره وسيلة من بين عدة وسائل مكنته من بلورة توجهاته السياسية بواسطة الخطاب لتحقيق تواصل مع ممثليه بالأطراف وتأطيرهم المباشر بما يخدم ويحقق مساعيه التدييرية؟

- هل كان جهازه المركزي رغم تقليديته يخضع لمعايير محددة ويتبع انساقا معلومة باشراف وتدبير سلطاني، أم يمكن اعتباره واحدا من الحنطات المخزنية التقليدية لا تستجيب بنيته لأية مبادرة للتحديث تحمله على مواكبة التحولات؟ ثم ما هي القيمة الاجرائية لمضمون الخطاب المركزي الموجه للممثلين المحليين للإقليم في تنفيذ احكامه واوامره، وكيف استطاع الآخرون تجويد نظام التراسل مع المركز؟

- ما هي اهم المراحل التي عرفها تطور الجهاز المخزني بالإقليم التادلي والآليات التدييرية التي انتهجها المركز لتجاوز الازمات الاجتماعية والسياسية قبل وخلال عهد السلطان المولى عبد الرحمن؟

- هل يمكن الحديث، عند رصدنا للمقاربات التدييرية لشؤون المجتمع المحلي بالإقليم التي سلكها المخزن على العهد الحسني، عن حصول طفرة نوعية في توسيع النفوذ المخزني بالمجال الجبلي خلال هذه المرحلة وقضت بإعادة ادماج قبائله ضمن نسق علائقي مع المخزن؟ وهل كان لتجديد النخب الادارية والجبائية وتعزيزها بقوة مادية ورمزية، من عامل ايجابي في استيفاء مطالبه وإشاعة المنطقة بأسباب الاستقرار وتأمين الحياة العامة؟

- هل كان لبعض المرجعيات الرمزية المحسوبة على الحقل الشرعي واخرى على الميدان العرفي سلكها المخزن كإطارات ووسائل تدبيرية لحلحلة النزاعات واشكال الصراعات المحلية، من دور فعال من شأنها ان تساعد على تخفيف مظاهر التوتر الاجتماعي؟ أم أن استفحال جور العمال واشتطاطهم وظلمهم للسكان، وتظافر حدة الأزمات البيئية والاقتصادية التي عرفها الاقليم مع تزايد مطالب المركز من الجبايات لسد احتياجاته امام الضغوط الخارجية والداخلية ادى الى تسريع وثيرة تداعي الحالة الامنية، وعمق من مظاهر الأزمة وحدتها فألقت بظلال نتائجها وآثارها على واقع اجتماعي متردي ستظهر تجلياته بشكل واضح متم القرن؟

- كيف يمكن لوثائق الارشيف المخزني ان تجيب مضامينها على جملة تساؤلات رمنا من خلال طرحها تفكيك اشكالية المعنى السياسي والدور الاجرائي الذي تغياه السلطان بتجريده للمحلات السلطانية بربوع الاقليم التادلي؟ إنها جملة أسئلة حاولنا قدر المستطاع الاجابة عنها داخل المتن.

لقد راهنا منذ البداية على مواجهة مجموعة من التحديات والصعوبات التي قد تعترض سير بحثنا. أولى هذه العقبات هو تحديد الإقليم مجاليا بما يعبر عنه واقعه ومضمونه القبلي، إذ يبدو من الصعب التسليم بتحديد مميز للإقليم، في وقت لم تكن التقسيمات الادارية الجهوية والاقليمية المعتمدة من طرف المخزن تحدد الا باعتبارها مضامين تحمل دلالات قبلية وأحيانا جغرافية مناطقية لغايات عسكرية وجبائية. إذ ترد في الوثائق أسماء جهات من قبيل الحوز، والغرب، وسوس وتافيلالت. بينما أدرجت تادلا من بين الجهات الخمسة عشر خلال القرن التاسع عشر وفق تصنيفات إثنوغرافية³.

والبين ان معيار التصنيف الاخير لا يخلو من لبس كما وصف ذلك العروي. فالإقليم التادلي على سبيل المثال، يضم قبائل منها من تتحدث اللسان العربي ومنها من تتحدث اللسان الامازيغي، بمعنى ان هناك تنوعا ثقافيا وتنظيمات مؤسساتية لدى كل منها يجب أخذه بعين الاعتبار. هذا من جانب، ومن جانب آخر فإن التداخلات التي كانت تشغلها حركة تلك القبائل ضمن حيز ترابي ومكاني واسع، فإنه يمكن الاقرار بأن الروابط الاجتماعية والاقتصادية التي ميزت العلاقات بين تلك القبائل وتقارب مسيرتها التاريخية ومصيرها المشترك جعل من الصعب إعطاء تصنيف مميز لا يأخذ بعين الاعتبار هذا الإشكال.

³ العروي عبد الله: الاصول الاجتماعية و الثقافية للوطنية المغربية، تعريب محمد حاتمي و محمد جادور المركز الثقافي العربي ط1 2016 ص 211 .

احالتنا هذه الملاحظة إلى مواجهة إشكال آخر. هو لماذا نميز على سبيل المثال بين قبائل الشاوية ابوني مسكين او السراغنة عن التادلية، رغم تقاربها المجالي واللغوي والثقافي، بينما لا نستطيع فصل قبائل آيت سري وآيت سخمان وآيت عتاب وآيت بوزيد عن تادلا رغم تباين قسّمات وحداتهما الترابية، طوبوغرافيا وجغرافيا، واختلافهما اللغوي وأحيانا المؤسساتي من منظوره القبلي وبعده التنظيمي؟

والواقع، أن القبائل الكبرى التي أسست لنفسها هوية ميزتها عن غيرها منذ القدم استقرت في مكان ما، ثم تفرعت عنها فرق وفخذات، ودافعت عن هويتها وحافظت على كيانها، وتقلبت على رياستها زعامات اشتهرت بأسماء اصطبغت بهوية قبائلها، هو بالذات ما أكسبها مشروعيتها التاريخية وخذ اسمها في انصهار مع كيانها ومضمونها القبلي بالمجال الذي عرفت به. لذلك كانت الوجهة الطبيعية لساكنة تادلا هو الدير و الجبل و القاسم التاريخي المشترك بين الجهتين هو عنصر الاندماج و الروابط الاقتصادية و الاجتماعية، اما التباين الثقافي او اللغوي فلم يكن الا مظهرا لبنية اقتضى الوازع الديني و الارتباط التاريخي من تجاوزهما بانسيابية، بدليل ان مجموعات سكانية مرتحلة بالجبل لازالت تحافظ الى اليوم على لسانها العربي بينما بالسهل نعثر على كثير الفخذات تحمل اسماء من اصولها الجبلية.

أما العقبة الثانية، وتتعلق هذه المرة بصعوبة تغطية البحث لكامل المجال التادلي بمفهومه الاجتماعي والاقتصادي والسياسي. لكن هذه العقبات التي تبدو حاملة لإشكالات عميقة لم ييسر تخطيها ويمهد التغلب عليها في اعتقادنا إلا عنصرين أساسيين:

العنصر الاول: ما تحصل بين ايدينا من وثائق ومستندات مستخرجة من الارشيف المخزني. لقد أدركنا ان تعدد وتشعب مواضيعها تفسره انشغالات الخطاب المخزني واشرافه العام على تدبير المجال، من خلال تكاثف الاحداث وتداخلها وزخم الوقائع التي تعكسها مضامين الوثائق. لكنها بدت في حد ذاتها عائقا أمامنا إذا لم يتم سبكها في قالب محدد المعالم والأهداف ورؤية تخدم تفكيك الاشكالية وتجب على جملة من الاسئلة تناولنا طرحها داخل المتن.

العنصر الثاني: هو الخيار المنهجي الذي اتبعناه في تناول موضوعات تلك الوثائق. إذ لم يغب عن وعينا منذ الوهلة الاولى ان صياغتنا للإشكالية هومن حسم في موضوع اختيارنا للوثائق والتنقيب بين ثناياها مكنتنا مضامينها دون شك في الاجابة عن ما ساورنا من هواجس حول عدة اسئلة تخص استفهامات فرعية ضمن الاشكالية العامة. وحتى نعطي لهذه الاسئلة تبريراتها العلمية ومضمونها الأبيستمولوجي المحايث للمعرفة التاريخية في اطارها الجهوي، فانه كان لابد من

الاستعانة في مقاربات البحث وتحليلاته، بحقول معرفية اخرى مساعدة من قبيل تفسيرات توخينا استلهاهما من حقل السوسولوجيا واخرى من الانثروبولوجيا مع ادراج معطيات حسابية وتكميميات ارفقناها بجداول احصائية قربتنا قدر الامكان من فهم وتفسير بعض الظواهر الاجتماعية والتقديرات الجبائية وغيرها. وحتى نقف على نموذج من الاجابات امدتنا بها الوثائق المخزنية عند طرح فرضية انتساب قبائل الدير والجبل للإقليم التادلي على سبيل المثال، نتبرر بها صحة الحاقها بالدراسة باعتبارها من بين مكونات الاقليم، فوقفنا على النتيجة التالية:

أنه إذا كانت غاية الخطاب والفعل التدبيري لدى المخزن المركزي بينينان في المجمل على تحقيق هدفين أساسيين: هما حفظ الأمن وإنفاذ الأحكام، ثم الجبايات وتحقيق تحصيلها دونما نقصان أو تأخير، فكيف تسنى لنا التحقق من أن المخزن كان يدخل قبائل الدير والجبل في سياسته التدبيرية ضمن المجال التادلي؟

إن ورود أسماء عدة قبائل سهلية وديرية وجبالية في المراسلات المخزنية ودعوة عمالها وقوادها وأعيانها في خطابه الصادر إليهم من منطلق أنها قبائل تادلية لتنفيذ أمر ما، من قبيل التخييم بإزاء محلة خليفية مرابطة بالقصبة الزيدانية أو المشاركة في حركة عسكرية أو استنهاضها لملاقاة محلة سلطانية أو القيام بدفع بما يلزمها من واجبات ضريبية أو كلف مخزنية، هو بالضبط ما منحنا تبريرا موضوعيا ومستندا إجرائيا اعتمده كمحدد جوهرى جعل من الاقليم التادلي مُعبّرا عن مجموعات قبلية مرتبطة مع بعضها البعض. ونسوق من ذلك نموذج رسالة حسنية في دعوته لكافة عماله على المناطق الجبلية والديرية وخص منهم بالذكر موحى اوحمو الزيانى ومحمد ولد عائشة السخمانى، وقواد قبائل آيت بوزيد وآيت عطا وآيت سري وآيت هودي وأم البخت، لاستنهاضهم في أن يهبوا بخيلهم وإخوانهم للتخييم بالقصبة الزيدانية الى جانب المحلة الخليفية بقيادة المولى عثمان: «أمرنا سائر أهل دير تادلا وأهل تادلا بالنزول بحركتهم بالقصبة المذكورة مع المحلة المذكورة»⁴.

4. المصادر والمراجع المعتمدة في البحث:

رغم تخصيصنا للفصل الاول من البحث للحديث عن اهمية الوثائق المخزنية بتناولنا اياها كمادة مصدرية ومحدد رئيس للتوسل بها في مقاربة موضوعنا بتقديرنا ان حملتها هي من صميم المخزن ذاته وتعبّر تجلياتها عن فعله التدبيري، فلا مندوحة من التطرق بشكل مقتضب في هذه المقدمة لمصادر ومراجع اخرى ساعدت على تأطير بحثنا توضيحا لأهميتها وفائدتها. في توسيع نطاق البحث وتعميق مستواه المعرفي فقد حاولنا الاستعانة ببعض خلاصات واستنتاجات لدراسات

⁴ خ.م. ر : كناش 162 صص 60 و 61 ، مختصر رسالتين سلطانتين بتاريخ 20 جمادى الثانية عام 1307 هـ

وبحوث ومقالات سابقة عليها تغني الدراسة أكثر، لذلك اتجه اهتمامنا إلى تناول ما استطعنا الاطلاع عليه من المصادر والمراجع التالية:

- المراجع الاجنبية:

شهد النصف الثاني من القرن 19 وما تلاه توافد اعداد متزايدة من الباحثين والدارسين الاجانب انصبت اهتماماتهم بقضايا واحوال المجتمع المغربي خاصة منهم الالمان والإنجليز والفرنسيين قبل ان يتطور الحال الى ارسال بعثات منظمة. فكان من جملتهم من ينتمي الى المتروبول الباريسي ومنهم من ينتمي للمدرسة الجزائرية وحقولها السوسولوجية والانثروبولوجية وغيرها. وقد اتت كما هو معلوم تلك البعثات في إطار مقدمات تمهيدية ترتب للمشروع الاستعماري الاوروبي، حيث تمخضت انتاجاتها عن دراسات وتآليف بمنهجيات مختلفة ومضامين متنوعة. فمنها تآليف ذات توجه استخباري واستعلامي، وأخرى رحلية واستكشافية، ومنها دراسات ميدانية انصب اهتمامها على ما هو محلي مونوغرافي، وما هو سوسولوجي او انثروبولوجي أو تراثي. كما توجه اهتمام الاجانب الى دراسة التراث المغربي وانتاجات نخبه الفكرية ومؤلفاتهم العلمية و الادبية التي عثروا عليها بجامعة القرويين و مقار الزوايا والمدارس العتيقة وغيرها. فتمت ترجمة البعض منها وتحقيق البعض الاخر، قبل تجميعها في مصنفات أطلق عليها اسم "الأرشيف المغربي" و"الأرشيف البربري" افادت دون شك المشروع الاستعماري. وانسجاما مع موضوع بحثنا حاولنا الاطلاع على بعض تلك التآليف اخترنا منها العناوين التالية: le Maroc d'Aujourd'hui او "مغرب اليوم" للفرنسي AUBIN EUGENE، و يعتبر من بين اهم المؤلفات الاجنبية لمرحلة ما قبل الحماية . تناول فيه النظام المخزني المغربي ومؤسساته الادارية والعسكرية، ونظم تدبير شؤون الحكم و كيفية اشتغال خدام الدولة من وزراء و كتاب و رؤساء الحناطي، وعلاقة المخزن بالقواد والقبائل و طرق الاستجباء ووسائلها الى غير ذلك مما ميز الحياة الاجتماعية والثقافية للمجتمع المغربي سواء في الحواضر أو بالبوادي خلال العشرية الاخيرة من القرن 19 ومستهل القرن 20. وتعود أهمية محتوى الكتاب الى دقة معلوماته وتعقبها من مصادرها الموثوقة حسب افادت المؤلف، مع استعانته بمخبرين من الجزائر لهم دراية باللغة العربية وثقافات المجتمع المحلية.

اما ثاني المرجعين فيعود اصداره لفرنسي آخر جاء في مهمة عسكرية تطيرية و تدريبية من الجزائر استجابة لدعوة ورغبة السلطان الحسن الاول الرامية لتحديث الجيش المغربي، وهو القبطان JULES ERCKMANN. وعلى هامش مهمته الرسمية توجه اهتمامه الى تأليف كتاب له

حمل عنوان: le Maroc moderne او "المغرب الحديث"، و هو كما نلاحظ من عنوانه - الذي يذكرنا بعنوان آخر للطبيب وايسبرجر لكتابه يحمل عنوان "على عتبة المغرب الحديث" - ، أن مضمونه وتوجهه النظري والايديولوجي مشابه لمؤلف مغرب اليوم . أي ان رصدهما لجوانب من الحياة العامة للمجتمع وللواقع المغربيين، انما يحيلان عن مضمرات تشي بإرهاصات لمرحلة قادمة سيعرفها المغرب تفصل بين عهدين: عهد تقليدي وآخر حدائي ستقوده فرنسا. وقد تطرق ايركمان في فصول الكتاب الى عدة مواضيع تحدث فيها بعد تنقله عبر عدة مدن وبوادي مغربية كما سيفعل اوبان من بعده، عن البنيات التقليدية لقبائل المغرب وأحوالها الاقتصادية والاجتماعية وبعض اعرافها وتقاليدها، وعلاقة المخزن بالمجتمع والقوانين المؤطرة لحياته العامة، بالإضافة الى حديثه عن بنية التنظيم المخزني واطره الادارية و العسكرية و تحركات المحلات السلطانية افادتنا معطياتها في البحث.

مؤلف أجنبي آخر تمت مراجعته له صلة بالمجال التادلي، و يدخل ضمن التأليف الرحلية لكتابه الماركيز دوسيكونزاك عنوانه ب" Au cœur de l'Atlas ,mission au Maroc " او في قلب الاطلس مهمة بالمغرب 1905/1904". جاب خلالها الماركيز عدة مناطق بالمغرب انطلاقا من الجنوب بمعية مرابط ومخبر أجنبي من مستعمرة الجزائر. وقد شملت رحلته أجزاء من القسم الجبلي للإقليم التادلي - ويدخل ضمن مجال دراستنا-، ابتدأها من مدينة دمنات مرورا بزواوية أحنصال، ثم آيت عبيدي فأغبالة، قبل ان يغادر الجبل السخماني باتجاه ملوية ثم ناحية الجنوب الشرقي. وتجدر الإشارة في هذا الصدد انه اذا كان مسار رحلة الفرنسي شارل دوفوكو سنة 1884/1883م قد شمل أجزاء من منطقة زيان، و السهل التادلي انطلاقا من ابي الجعد مرورا بتادلة و فشتالة ثم بني ملال فأقسام من ديره الجنوبي منها واويزغت و ايت بوزيد، فان ابانها كان صيفا و بداية الخريف ، بينما صادف وقت رحلة الماركيز للجبل فصل الشتاء و تهاطل الثلوج ،رغم ادراكه المسبق ما سيعانيه ورفاقه من مشاق أثناء الرحلة . ونفهم من ذلك ان تغطيتهما الوصفية والاستخبارية للمجال التادلي كانت منتظمة وغير اعتباطية، روعيت فيها الجوانب الايكولوجية والظروف المناخية . لكن رغم ذلك جاءت ملاحظات ومشاهدات الماركيز غاية في الدقة ، تناول فيها اوصاف عن طوبوغرافية المجال الجبلي وغطاء النباتي ، وطبيعة حياة سكانه ونمط عيشهم وطبيعة مساكنهم ومعتقداتهم ، وبعض انتظاماتهم القبلية مستعينا في ذلك بما زوده به مرابطين كبيرين لهما حظوة ومكانة لدى السكان هما مرابط زواوية احنصال و المرابط علي امهاوش . وقد تحصل لدينا من الكتاب معلومات قيمة لا يستهان بها.

ولم تقتصر في مراجعتنا لتأليف و دراسات المرحلة الكولونيالية فقط على ما له علاقة بالميدان الوصفي للمجال التادلي كما هو حال التأليفين السابقين ، بل اعتمنا ايضا على دراسات مرتبطة بالحقل السوسولوجي و الانثروبولوجي و الديني من قبيل الدراسة الميدانية التي قام بها كلا من الفرنسي روبير مونطاني تحت اسم : Les berbères et le makhzen dans le sud du Maroc او البربر والمخزن بجنوب المغرب ، و مؤلف Les Saints de L'Atlas أوصلحاء الاطلس للانثروبولوجي ارنيست كيلنير , و دراسة جورج سبيلمان الذي يحمل ايضا اسم جورج دراك حول : Esquisse d'histoire religieuse du Maroc , confréries et Zaouïas او موجز من التاريخ الديني بالمغرب ، رباطات و زوايا " ، استقيننا منهما ما افادنا في البحث.

اما المرجع الرابع و هو دراسة مونوغرافية حول ام البخت مكونة من 100 صفحة صدرت ضمن منشورات H.E.A.M.C بارشيف المغرب قام بها الفرنسي شانشير مستهل العشرية الثانية من القرن 20 . و اذا كان تاريخ انجاز المونوغرافية لا يتوافق و فترة بحثنا، الا ان جانبها السوسولوجي و طبيعة انتظام مشيخات و فخذات قبيلة ايت ام البخت و تقاليدھا و اعرافھا المتبعة التي سجلھا شانشير و افادتنا في البحث، كانت لاتزال مرتبطة في خطھا الزمني الممتد الى ما قبل فترة الحماية.

- المصادر و المراجع المغربية:

ليس من شك في ان تاريخ علاقة المخزن و انظمتھ المتعاقبة بالاقليم التادلي و ما اليه من قبائل الدير و الجبل كان من بين الاوفر الاقاليم ذكرا في المصادر التاريخية التقليدية بما وسمت به من تلك العلاقة من تأرجح بين المهادنة و الولاء احيانا، و اخرى بحركات عنف و تمرد و عدم تجاوب وحدات من قبائله الطوعية مع مطالب المخزن الجبائية ، ما جعل من ديناميته التاريخية مادة خصبة للمؤرخين و كتاب البلاط ، وان اقتصر اتجاههم السردي فقط على ما له بصلة بتحريك المخزن دون النفاد الى باقي بنيات المجتمع المحلية. و بما ان المجال هاهنا لا يتسع بتعدد عناوين المصادر على كثرتها فقد ارجأنا الافصاح عنها فيما يناسب موقعها في الاحالات. اما اهم المراجع التي عنيت بالاقليم التادلي راهنيا فهي محسوبة على رؤوس الاقلام لم نطالع منها غير مونوغرافية اينولتان لاحمد التوفيق و أخرى للبشير بوسلام حول قبيلة بني ملال ، بالإضافة الى مواضيع ذات

الصلة صادرة عن مجلة الكلية و مجلات اخرى ، وقعت الاحالة عليها في مواضيع محددة و مناسبة .

5. الجديد في الدراسة:

لا يستقيم عمل اية دراسة او بحث خاصة اذا كان من حجم اطروحة للدكتوراه، ما لم يتوفر فيه شرط الجودة بما يشكله من قيمة مضافة الى الحقل المعرفي و للبحث الاكاديمي الجامعي. وغني عن البيان ان كثيرا من الدراسات والبحوث الاكاديمية بالمغرب المعاصر قد تناولت اشكالاتها قضايا متعددة ومتنوعة تهتم علاقة السلطة بالمجتمع والمخزن بالقبائل. بيد ان الدراسة التي بين ايدينا، وبصرف النظر عن ادواتها المعتمدة في البحث وعن اشكالياتها المطروحة التي قدمنا فيها غير قليل من المستجدات عبر آلية طرح السؤال الذي توخينا منه قدر الاستطاعة الاجابة بمستويات متواضعة من التحليل والتفسير والتركيب، فان غايتنا الموازية التي رافقتنا طيلة اطوار البحث هي الوقوف على بعض القضايا التاريخية واعادة قراءتها بتصور نقدي مختلف. ونظرا لضيق المجال نقتصر فقط على ايراد اربعة نماذج منها بشكل مقتضب :

1- طرح صيغة الفصل بالتحليل و التفسير باعتباره واحدا من الاليات التي تنتمي للحقل المعرفي اعتمده المخزن ضمن سياسته التدبيرية لحل قضايا خلافية محلية داخل المجتمع، وتشجيعه بالعمل بمقتضاه كوسيلة لإيقاع التسويات و التراضي تجنباً لحالات الثأر والانتقام وتفادي توسيع دائرة الصراع .

2- اعادة قراءة تاريخية في موضوع التراجع الذي عرفته القصة التادلية باعتبارها من اهم المراكز العسكرية بالاقليم وما طال دورها الطلائعي السابق من ارتداد بداية من ثمانينيات القرن 19 ، غداة تعيين المخزن لموحي اوحم الزباني وموحي اوسعيد اليراي في منصب القيادة على ايالتهما .حيث اضطلعوا بمهمة حصار قبائل آيت سخمان و تطويع أخرى كزيان و آيت سري ومحاولة المخزن إعادة ادماجها ضمن نسقه التدبيري بعد غياب طويل ، بمقتضى توجه سياسي جديد رام من خلاله المخزن حلحلة و معالجة جملة قضايا كانت مستعصية سابقا ، لكن هذه المرة من داخل القبائل نفسها وليس من خارجها وهو ما ادى الى تراجع الدور العسكري للقصة المذكورة .

3- وفي مقاربتنا لظاهرة تجريد المحلات السلطانية بربوع الاقليم، تناولنا واحدة منها صادف تسييرها سنة 1300هـ الموافق لسنة 1883م . وقد تمت متابعة تنفيذ برنامجها التدبيري للمجال التادلي بدقة وتفصيل حسب ما محصلة استباراتنا لوثائق الارشيف المخزني. علما ان نشاط المحلة

السلطانية المذكورة لم نعثر له على ذكر، لا في الكتابات المصدرية الا من اشارات عابرة، و لا في الدراسات المعاصرة المهتمة بموضوع الحركات السلطانية .

4- انسحب نفس الامر على موضوع الحركة الحسنية التي تم تجريدها متم سنة 1307 هـ، وكانت ذات طابع عسكري ضد قبيلة آيت سخمان . و الحقيقة ان وقائع الحملة و احداثها لم يكن الكشف عنها بالامر اليسير، ما لم يتبع في ذلك منهجية صارمة تتوخى دقة المعلومة و الحفاظ على التسلسل الزمني للوقائع، من جهة، و عدم إغفال اية مراسلة او وثيقة مخزنية ذات الصلة. بل الاكثر من ذلك تمت مراعاة الإطار العام الذي تحركت فيه السياسة المركزية في تدبير أطوار معارك الجبل السخماني.

6. الهيكل العام للبحث :

حتم علينا موضوع الدراسة ان نسلك عدة خطوات توجهنا بها الى تقسم العمل الى ابواب، والابواب الى فصول، والفصول الى مباحث. جاءت مواد البحثية كالآتي :

تطرقنا في الباب الأول الى الحديث عن روابط الاقليم التادلي الجغرافية والتاريخية، ثم اتبعناه بالإطار المصدري للبحث والتعريف بأصنافه ومميزات محتوياته وقيمه العلمية والتراثية وبالبنية المساهمة في انتاجه. وفي الباب الثاني انصب اهتمامنا على رصد تطور الجهاز المخزني بالإقليم والاليات الي اعتمدها في تدبير شؤون الاقليم. أما في الباب الثالث فقد تعرفنا على جانب من فترة حكم المخزن الحسني وتطور بنياته وتجدد آلياته التدبيرية في علاقته بالمجتمعات المحلية والقبلية بتادلا . بينما في الباب الرابع تم التطرق الى نماذج من مرجعيات التدبير المخزني لبعض قضايا المجتمع المحلي اخترنا منها نموذجي الشفاعة والفصال مع محاولة لاختبار نمذجة لظاهرة اللف بالاقليم مقارنة مع اشكال تنظيماها بالجنوب المغربي ومقاربة ما تحدثه بنيتها الفوقية الكامنة من اشكال التضامن والتنافر القبلي اذا ما استثيرت من طرف الحكام المحليين مع تحديد موقف المخزن منها. أما في الباب الخامس، فقد تعرفنا على واحدة من المحلات السلطانية التي جسد حضورها بالاقليم واحدة من اهم المحلات الحسنية، وقد اخترناها نموذجا للدراسة اسعفتنا كثيرا في الامام بجوانب من طرق التدبير السلطاني المباشر لقضايا المجتمع المحلية. بينما تطرقنا في الباب السادس لنموذج مختلف من اشكال التدبير المركزي وتعاطيه مع مناطق الاقليم الطرفية، ويتعلق الامر تحديدا بحملة عسكرية تأديبية على آيت سخمان.

الباب الأول

جوانب من كيفية تدبير المخزن للشأن التادلي خلال النصف الثاني

من القرن 19 ، آليات ومقاربات .

الفصل الاول ، مميزات الاقليم الطبيعية و عمق تاريخها القبلي .

الفصل الثاني ، الإطار المصدري للبحث.

الفصل الثالث ، المراسلات المخزنية بين وسيلة للتواصل ووظيفة للتوجيه.

الفصل الرابع ، علاقة قواد الاقليم بالجهاز الإداري المركزي .

الفصل الاول : مميزات الاقليم الطبيعية :

- المبحث الاول : لمحة عامة حول الاطار الجغرافي و التوطن القبلي .
- المبحث الثاني: خصائص الاقليم المسالكية و النهرية و الديموغرافية .

الفصل الأول

مميزات الاقليم الطبيعية

المبحث الأول: لمحة عامة حول الإطار الجغرافي والتوطن القبلي :

غني عن البيان، أن الاقليم التادلي نال قسطا من اهتمام الرحالة المسلمين منذ القرن الثاني عشر الميلادي، كان من أبرز هؤلاء الشريف الإدريسي. أمدنا بملاحظات جد قيمة عن سكانه وحاضرتيه "[...] وبين داي وتادلة مرحلة، ومدينة داي في أسفل جبل خارج من جبل درن وهي مدينة بها معدن النحاس الخالص الذي لا يعدله غيره من النحاس بمشارك الارض ومغاربها، وهو نحاس حلو لونه، إلى بياض، يتحمل التزويج ويدخل في لحام الفضة[...]. ومدينة داي صغيرة، لكنها كثيرة العامر، والقوافل عليها واردة وصادرة، ويزرع بها وبأرضها كثير من القطن، ولكنه بمدينة تادلة يزرع أكثر مما يزرع بمدينة داي. ومن مدينة تادلة يخرج القطن كثيرا ويسافر به الى كل الجهات، ومنه كل ما يعمل من الثياب القطنية * ببلاد المغرب الأقصى[...]. وبهاتين البلديتين أرزاق ومعايش وخصب ونعم شتى. وأهلها أخلاط من البربر. وفي شرقي تادلة وداي من البربر بنووليم، وبني وزكون، ومنداسة. ويسكن بهذا الجبل النازل إلى داي قوم من صنهاجة يقال لهم املو. "5

يظهر النص الذي سقناه رغم طوله، مدى الدينامية التي كان يعرفها المجتمع المحلي بتادلا وتفاعله مع بيئته ومحيطه منذ أمد بعيد. سواء في تعاطيه للتجارة والصناعة، أو في قدرته على استغلال مقدرات أرضه في الميدان الفلاحي. وأيضا ما يمكن استنتاجه من تعدد وحداته السكانية بالمجال المكونة من قبائل شتى، مع الإشارة هنا الى الملاحظات التالية:

- ورود إسم صنهاجة أملو التي يرجح أن المقصود بها قبيلة أومالو وهي المعروفة بصنهاجة الظل المطلة على السفح الغربي من الأطلس المتوسط.

- اختفاء قبائل أخرى ولم يعد لها من ذكر في الازمنة اللاحقة. فهل كان ذلك بسبب تغير طال فقط أسمائها؟ ام لطارئ حل بها، من قبيل إقدام أهلها على الهجرة لسبب من الاسباب؟ أم اختلطت أنسابها

* من المفارقة التاريخية ان بمدينة قصب تادلة ظلت الى حدود تسعينيات القرن العشرين تستقبل وحداتها الانتاجية قيل تفكيك مصنعها الذي كان يحمل اسم " ايكوز" لحج محاصيل القطن المستقدمة من حقول سهل بني عمير، حيث اعتبرت فصيلة تيلته المصدر منها الى الخارج من بين أجود الأنواع في العالم .

5 الشريف الإدريسي : المغرب و أرض السودان و مصر و الاندلس ، مأخوذ من كتاب نزهة المشتاق في اختراق الأفاق من تحقيق المستشرقين DE GOEJE.M.J et DOZY.R طبع في مدينة ليدن بمطبع بريل سنة 1866م

وتلاشت ضمن امشاج قبائل أخرى؟ فساكن مدينة داي على سبيل المثال قد عرفوا مباشرة بعد الرخاء والاستقرار الذي تحدث عنه الشريف الادريسي، جلاء عن مدينتهم سنة 559 هـ وهي نفس السنة التي غادر فيها الرحالة الى دار البقاء.

ويجدر التنويه بهذا الصدد أن الاقليم التادلي ينقسم في عمومته الى ثلاث وحدات تضاريسية أساسية: سهل ودير وجبل، سيكون بدون شك لواقعها البيئي تأثير على حياة السكان.

فالجانب السهلي منه يشغل مساحة شاسعة تمتد انطلاقا من قدم الدير الى الشريط الحدودي لواد العبيد جنوبا الذي يفصله عن السراغنة، تستوطنه بحدوده من جهة الغرب قبائل بني مسكين ثم الشاوية ناحية الشمال، ومن جهة الشمال الشرقي قبائل زعير وزمور الشلح. يخترقه نهر ام الربيع انطلاقا من الشمال باتجاه الجنوب. وقد عُرف السهل في الوثائق المخزنية "بالقطر المديد والصقع البعيد" وأحيانا تصفه المراسلات بالبيداء والصفير، كون أرضه تقع على هضبة تدعى في وقتنا الحاضر ب "الفوسفاطية"، وهي معطشة يطغى على ملامح اديمها الجفاف بتربة بيضاء قليلة الخصوبة. وهكذا تبدو على الجانب الايمن من ضفة النهر فيافي جرداء شاسعة تتخللها اقسام من تربة محجورة لا تذر الا نتاجا ضئيلا بقدر ما تنعدم بها المنابع والمجاري النهرية، ما كان يدفع بالسكان الى احتقار الآبار لكن تعمقها الشديد غالبا ما يتسبب لهم في ضنك كبير إذا ما عزموا على تعديدها. اما الغطاء النباتي لهذا الجانب من السهل حتما يصير غير كثيف، الا من شجيرات السدره والطلح القصيرة ونبات العليق والدوم تتحمل فصائلها الجفاف وقساوة المناخ. كما تشهد فيه درجات حرارة جد مرتفعة طيلة فصل الصيف. بينما الجانب الأيسر من النهر فيظهر أكثر خصوبة ويعرف كثافة نسبية في غطائه النباتي خاصة على الشريط الديرى حيث تتفجر منابع العيون وصبيب جداول نهريّة متفرعة عن نهر درنة نتيجة ارتباط فرشته المائية بما يمده ذوبان الثلوج بالمرتفعات الجبلية للأطلس المتوسط من كميات مائية تمنح للسكان فرصة استغلالها في الغراسة وسقي المزرعات والحقول على طول الشريط الديرى وما تحاذيه من مساحات خصبة.

تستوطن بالمجال السهلي قبائل بني موسى بالجنوب وبني عمير بشقيها الغربي والشرقي وقبائل آيت الربع بالوسط. أما بالشمال فتمتد قبائله الرتمية وهي بني خيران وورديغة والسمايلة وبني زمور محاذية للأقسام الجنوبية لقبائل الشاوية، تلهج كلها باللسان العربي وتتقاسم على ترابه أسباب العيش التي يقوم نمطه الانتاجي على الرعي والزراعات المعاشية وانتاجات من الحبوب قليلة، خاصة منها القمح والشعير.

أما من جهة الجنوب الشرقي فيضم مجاله الجغرافي المنطقة الديرية انطلاقاً من مركز بزووما يليه لتشمل أيضاً قبائل هرفالة، وهنتيفة، وآيت عتاب، وآيت بوزيد، وأقسام من آيت عطا نومالو (نسبة إلى عطا الظل، تميزها لها عن آيت عطا الصحراء بالسفح الشرقي)، ويستمر الإتصال صعوداً بالأقسام الجبلية للأطلس المتوسط، حيث تستقر قبائل آيت مساض وآيت اصحا فأيت عبدي بقسميها الجنوبي والشمالي وآيت داوود او علي وآيت سخمان الممتدة على مجال حوض واد العبيد ليس بعيداً عن ملوية من جهة الشرق، ثم آيت سعيد او علي الديرية المطلة مباشرة على المنبسط السهلي، وتستمر الكتلة الديرية في الامتداد إلى غاية أقسام الوحدات القبلية لآيت سري وآيت هودي شمالاً. وترتبط هذه الأخيرة بالمجال الجبلي لشقيرن وزيان حيث يخترق هذه الأخيرة نهر أم الربيع منحدرًا من منابعه بالمرتفعات الأطلسية بالشمال الشرقي في اتجاه المنخفض التادلي ليلتقي بواد العبيد جنوباً. وإذا كان الأصل في تسمية تادلا قد اقتصر منذ أمد بعيد على قبائل المنطقة السهلية المستقرة على ضفتي أم الربيع، اتخذت من القصة المشتهرة بهذا الاسم قاعدة لها منذ أمد. وعلى الرغم من صعوبة إيجاد تفسير لهذا الاسم ولا مدلوله، وهل كان مقصده بالتخصيص عن مجموعات بشرية على غرار إسم الشاوية والرحامنة وبني مسكين، أم إلى الموطن أم هما معا؟ إلا أن المؤكد أن أهمية وواسطية الإقليم مكن قبائل أخرى طارئة سترث وتحمل نفس الإسم من الانخراط في حركة تاريخية وثيقة مع قبائل الدير والجبل على الأقل منذ القرن الحادي عشر الميلادي وما يليه. والشاهد على ذلك ما جاء على لسان ابن خلدون: « [...] ثم تحيز بنوجابر هؤلاء من أحياء جشم على سفح الجبل بتادلا وما إليها، يجاورون هناك صناكة الساكنين بقننه وهضابه من البربر فيسهلون إلى البسيط تارة ويأوون في حلف البربر وجوارهم أخرى إذا داهمتهم مخافة من السلطان أوزي غلبة »⁶.

إن مجاورة بنوجابر لسكان الجبل وهضابه، والمقصود بها منطقة الدير، جعل من تشابه في مستويات العيش وأنماط الإنتاج ومحدودية وسائله من رعي وزراعة وحياة الانتجاع، عاملاً مساعداً في امتزاج وتقارب اجتماعي واقتصادي بين سكان كل هذه المناطق. بل كان هذا الارتباط يذهب أحياناً إلى عقد ضرب من التحالفات السياسية. ومن ذلك ما وقع بين السلطان المريني ابوسالم والوزير الفودودي المستقر بمراكش، من خلاف ألباً هذا الأخير إلى الاحتماء بأهل

⁶ ابن خلدون عبد الرحمن : ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر و من عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر دار الفكر 1996 بيروت ج 6 ط 3 ،ص 6
*لابد من التمييز هنا بين لفظ تادلا و يقصد به بلاد و كافة قبائل الاقليم، و بين لفظ تادلة و يشار به تحديدا إلى اسم تادلة القصبية او الحاضرة، و ان كان اللفظ لا يأتي دائما منسجما مع هذا التمييز لدى كتبة الرسائل المخزنية.

تادلا "[...]فتلقاه بنوجابر من عرب جشم وأجاروه واعصوبوا عليه [...]وانشمر الحسن بن عمر الفودودي الى الجبل بها، فاعتصم به ومعه كبير بني جابر الحسن بن علي الوردغي."⁷

وقد أحق الرحالة المغربي حسن الوزان عند زيارته للإقليم جبل سكيم بتادلا* . ويغلب على الظن أن المقصود به جبل سخمان: "ولأنه ينظر الى الجنوب يعتبر مع ذلك من جبال تادلا"⁸ . وظلت علاقة سكانه في اتصال مباشر بسكان تادلا ولم يكن يعكر من صفوها الا بعض الاحداث والمحاولات المتكررة لدولة بني وطاس للسيطرة على قبائله المجبولة عن النأي بنفسها عن سلطة المخزن: "حقا إن أهل هذه البلاد لم يجرؤوا على الذهاب الى تادلا منذ هذا الحادث "⁹ .

وتطالعنا جل المصادر التاريخية في تناولها لتاريخ الزاوية الدلائية، ان المجال التادلي كان تابعا للإمارة الدلائية، بل أكثر من ذلك تمكن احمد الدلائي في محاولته استرجاع ملك أسلافه بعد انقراط عقد دولتهم، أن يتخذ من الاقليم التادلي مرتكزا لحركته: " فدخل الى المغرب في اوائل عام 1088 هـ / 1677 م وقصد الدلاء، وهناك التف حوله برابرة الاطلس المتوسط وملكوا بلاد تادلا بعد ان هزموا المخازنية ومن معهم من الأعراب المناصرين للعلويين "¹⁰. فلم يكن لخطة احمد بن عبد الله الدلائي في محاولته السيطرة على "بلاد تادلة" من هدف الا سعيه لضمان قاعدة مجالية وكتلة بشرية موالية له بديرها وجبلها لانطلاق ثورته واسترجاع مجد أسلافه.

ورغم قضاء المولى اسماعيل على هذه الثورة وعلى فلول مناصريها من قبائل صنهاجة وفرار احمد الدلائي الى آيت سري، فإن الحنصاليين من ورثة النزوعات الدلائية ظلت عيونهم شاخصة على تادلا، مستغلين فترة ضعف المخزن المركزي بعد وفاة السلطان المذكور حيث شكل الدير التادلي منطقة مغرية لهم باعتبارها نقطة تماس بينها وبين السهل¹¹ .

وبقصة تادلة استطاع السلطان سيدي محمد بن عبد الله تجميع قبيلة آيت ايمور الناغلة للإيقاع بها ومن تمة تغريب معظم سكانها الى جبل سلفات من احواز فاس بينما فر الباقر الى جبل آيت سري¹² .

⁷ الناصري أحمد : الاستقصا لأخبار دول المغرب الاقصى دار الكتاب 1997 ، ج4 ، ص 32

⁸ الوزان حسن : وصف افريقيا ترجمة محمد حجي و محمد الاخضر دار الفكر الاسلامي تونس 1983 ط 2 ص 186

⁹ الوزان حسن : (ن.م). ص 186

¹⁰ حجي محمد : الزاوية الدلائية و دورها الديني و العلمي و السياسي .مطبعة النجاح الجديدة، 1988، ط 2 ص 262

¹¹ حمودي عبد الله : الانقسامية و التراتب الاجتماعي و السلطة السياسية و القداسة ، ملاحظات حول اطروحة كلنير عن كتاب الانثروبولوجيا و التاريخ ترجمة عبد الاحد السبتي و عبد اللطيف الفلق دار توبقال للنشر ، 2007 ، ط2، ص 68 .

¹² الناصري أحمد : م.س. ، ج 8 ، صص 27 و 28 .

كما ان الحركات السلطانية للمولى سليمان لم تكن تستثني من خططها الجبائية المناطق الجبلية والديرية على غرار السهلية كلما حلت واستقرت بصخرة الدجاجة، الموضع الاثير للسلطين العلويين طيلة القرن التاسع عشر، بل جعل من الاقليم التادلي قاعدة لانطلاق الجيوش الحوزية عندما استقر رأيه على مهاجمة قبائل الجبل بآيت سخمان وزيان¹³.

وتطالعنا رسالة السلطان الحسن الاول في دعوته لكافة عماله على المناطق الجبلية والديرية وخص منهم بالذكر موحى اوحمو الزباني ومحمد ولد عائشة السخماني، وقواد آيت بوزيد وآيت عطا وآيت سري وآيت هودي وأم البخت، لاستنهاضهم في أن يهبوا بخيلهم وإخوانهم للتخيم بالقصبة الزيدانية الى جانب المحلة الخليفية بقيادة المولى عثمان: «أمرنا سائر أهل دير تادلا وأهل تادلا بالنزول بحركتهم بالقصبة المذكورة مع المحلة المذكورة»¹⁴.

يتضح من كل ما سردناه من إشارات وارده بالمصادر التاريخية ومراسلات سلطانية، ان القبائل المتاخمة لتادلا الديرية منها والجبلية، ارتبطت بالاقليم ارتباطا وثيقا. فكان رعاتها يدفعون بقطعانهم عبر مسارات المنحدر الديرية الى حدود ضفاف أم الربيع بالشمال التادلي في رحلة انتجاعية تدوم طيلة فصل الربيع ولا تعود أدراجها الى الجبل الا بعد ذوبان الثلوج مع بداية الصيف. ولم يكن يعيق من ترحال أهل الجبل الا فترات تشديد الحصار المضروب عليهم جراء علاقتهم المتوترة مع المخزن وإصرارهم بأن تبقى بمنأى عن أحكام المخزن.

المبحث الثاني، خصائص الاقليم المسالكية و النهرية و الديموغرافية :

المطلب الاول، وظيفة المسلك وحيوية الاتصال:

يحتل الموقع الجغرافي لتادلا مركزا وسطيا بين العاصمتين فاس ومراكش. فعبره تمر أقصر الطرق مسافة بينهما. بيد ان قطع مسالكة السهلية ومفازاته الجبلية لم يكن بالأمر اليسير لذلك شكل عنصر استدماج المجال التادلي ضمن خريطة المسالك الطرقية الرابطة بين العاصمتين احد انشغالات السلطة من أجل تيسير عبور الحركات والفرق العسكرية وتسهيل حركة النقل البضائعي والتجاري وكذلك البريد. فكان لابد من حماية حركة المرور هاته والتنقل لفائدة الدولة اولا ثم للسكان ثانيا. وهذا مثل في حد ذاته هاجسا امنيا للمخزن جعله لا يتوانى في تخصيص الاموال من خزينة

¹³ الرباطي الضعيف: الدولة السعيدة ، تحقيق احمد العماري ، دار المأثورات الرباط 1986، ط1 ، صص 332، 346، 347،

376.

¹⁴ خ.م. ر: كناش 162 صص 60 و 61 ، مختصر رسالتين سلطانيتين بتاريخ 20 جمادى الثانية عام 1307 هـ.

بيت المال لصرفها على ما يؤمن مصالحها ويضمن حيوية التنقل¹⁵. فلا يمكن تفسير تعديد تجريد المحلات السلطانية ذهابا وايابا عبر الإقليم التادلي طيلة القرن التاسع عشر الا برغبة المخزن في استمرار ادماج الإقليم التادلي ضمن النسق التدييري المخزني من خلال سياسة احتواء المجال بفرض سلطته الادارية والعسكرية.

وإذا ما استطعنا تدقيق النظر في خريطة المسالك الطرقية الرابطة رأسا بين مراكش وفاس عبر تادلة اوتلك الواصلة بين المراكز السكانية بحواضر الاقليم التادلي وقصبتها، فإنه لا تسعنا الاحاطة بتفاصيل مواقعها ومراحلها وترابطات نقطها ومدد زمن قطع مسافتها الا بالرجوع الى ما خلفته المصادر والوثائق من معلومات ارتبطت بمجملها بملاحظات كتابها الذين كانوا يمشون في ركاب المحلات السلطانية.

إذ تشير كثير من الرسائل، انه عندما تأخذ المحلات اهبتها للسفر، كان السلطان حريصا على بعث رسائله الى ممثلي المخزن الواقعة اياتهم على خط المسير السلطاني، بغرض تمهيد الطريق وتحسس المواقع وتيسير العبور: « وفيما يتوقف عليه الامر في المراحل وترتيبها ومواضع المياه وقرب المراحل وبعدها والسهل من الطريق ووعرها »¹⁶.

وقد تمكن الضابط الفرنسي "جيل ايركمان" من رسم خريطة لشبكة المواصلات الطرقية مستغلا مرافقته للمحلة السلطانية، حدد بموجبها المسالك الاكثر استعمالا بالإقليم التادلي وحتى الثانوية منها¹⁷ فكانت متوافقة تماما مع المسار الطريقي الذي واكبته المراسلات المخزنية ابان التنقل السلطاني سنة 1883، وكذا مع التقارير الرحلية التي دونها مجهول في كتابه المتضمن لمراحل الرحلات الحسنية¹⁸. وتجدر الاشارة الى ان هذا الاخير لم يكتف بتدويناته الرسمية لتلك المراحل، فقد استوقفنا اجتهادات منه تفيد بوجود مسالك اخرى هامشية تربط بين المداشر والقرى والقصبات ودور القواد كون هذه الاخيرة كانت تحاذيها نزالات ومبائن يقصدها التجار والمسافرون. وقد حفل المصدر ببيانات حول المدد الزمنية لقطع المسافات بين مدن الاقليم وقراه. وتشير كثافة ودقة المعلومات الى حدوث طفرة نوعية في الاستعمالات التقنية لدى فقهاء النصف الثاني من القرن التاسع عشر، من أهمها شيوع استعمال الساعة اليدوية في القياس الزمني لقطع المسافات سيرا خلافا لما كان سائدا في السابق في تحديدها جزافيا كمراحل. وهو ما صادفناه ايضا من استعمال لدى ابن

¹⁵ الى حدود نهاية الفترة الحسنية كانت مرتبات الجند ومؤنهم ترسل بانتظام من خزينة الدولة الى الايالات المتمركزة بقصبي ايت الربع وخنيفرة .

¹⁶ خ . م . ر : ملخص رسالة سلطانية كناش 172 ص 58

¹⁷ Erckmann Jules : Le Maroc Moderne . Challamel . Paris 1885 . Carte du Maroc Occidental.

¹⁸ مجهول ،خ.م.ر : كناش مراحل محلات السلطان المولى الحسن مسجل تحت رقم 12059 . ورقات 6، 7، 8 .

ابراهيم السباعي الذي رافق المحلة الحسنية في حركته ما قبل الاخيرة الى تافيلالت سنة 1311 هـ¹⁹.

وإجمالاً يمكن القول ان تعدد المسالك الطرقية وتشعب شبكة المواصلات وهي تؤدي وظيفتها الاجتماعية والاقتصادية بالإقليم، لتظهر بحق مدى دينامية المجتمع المحلي، لم يتمثلها الرحالة دوفوكو²⁰، في وقت كان تأمين الطرق والخطوط القوافلية وتعدد مرور المحلات السلطانية والحركات الجبائية والتواصل البريدي بطرقه التقليدية، عوامل حاسمة جعلت من الحضور المخزني ومراقبته للمجال رهانا يصعب التفريط فيه.

المطلب الثاني، أم الربيع، علامة فارقة بين مجالين:

في الغالب تتأثر البنيات الاقتصادية والاجتماعية للقبايل بوسطها الايكولوجي والطبيعي. فهل يحق لنا الادعاء ان نهر ام الربيع كان له فعلا تأثير على هذا المستوى؟ أم أنه ليس أكثر من مجرى مائي يخترق المجال لم تستقر علامته في الاذهان الا كوشم احتفرتة نزوعات القادة على جسم التاريخ السياسي لمغرب يسير في تحول مستمر؟

لقد طبع اختراق هذا النهر الكبير للمجال التادلي بمميزات طبيعية بارزة المعالم، ارتسمت في وجدان السكان برمزية قوته وهيبته جبروته أكثر منه موردا حيويا لم تمكنهم قوة العزم وضرورة الحزم الى استغلاله في الري والزراعة. لذلك لم تعرف ضفافه الا تقنيات بدائية في الاستغلال الزراعي وأغلب عوائده الانتفاعية كانت تتأتى من الرعي.

ينحدر نهر أم الربيع نزولا من عمق الجبل الزياني بالشمال الشرقي مناسبا بصيب مائي هادر وبتعمق واضح نحو السهل التادلي، في مسار متعرج نحو جنوبه ليلتقي بنهر واد العبيد، ويتابع مجراه الى مصبه بالمحيط ناحية الغرب²¹. وقد مثل جريانه على الدوام حاجزا يعيق تحركات السكان إلا بما جادت به الطبيعة من مغازات ومشارع تتيح لهم العبور بين ضفتيه. فقد أشار عليه الشريف الإدريسي بالتعريف التالي: "وأم الربيع على واد كبير خرار، يجاز بالمراكب، سريع الجري، كثير الانحدار، كبير الصخور والجنادل"²²، كما تحدث عنه ابن خلدون بالقول " ويمر فيه النهر العظيم المعروف بوادي أم الربيع، وهو نهر عظيم يمتنع عبوره أيام الامطار لاتساعه [...]".

¹⁹ منذ ما يزيد عن سبعين سنة قبل هذه الفترة كان الرحالة الجاسوس علي باي العباسي يستعين في اطار رحلته داخل المغرب سنة 1803 بمعدات ذات استعمالات لأغراض فلكية و لقياس درجات الحرارة و الرطوبة و كان شديد الحرص على اخفائها عن عيون مرافقيه من المغاربة. هذا ما استنتجناه من قراءتنا لمؤلفه عن رحلته الشهيرة

²⁰ دوفوكو شارل : (مرس) ص 85 .

²¹ عياد مصطفى : معلمة المغرب ج 3 ص 783

²² الشريف الإدريسي : المغرب و ارض السودان و مصر و الاندلس ، مأخوذ من كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق نسخة محققة من طرف المستشرقين : DOZY et DEGOEJE.M.J. طبع في مدينة ليدن بمطبع برييل سنة 1866.

ويتساهل الى بسيط المغرب²³ كما عبر عن ذلك صاحب الابتسام بقوله: « [...] وهذا الوادي من أعظم أودية المغرب عمقا واتساعا، وحقه أن تكون له القناطر المقصودة للسفار»²⁴.

وعلى الرغم من ان المخزن ولأسباب أمنية لم تكن لديه الرغبة في تعديد بناء قناطر على ضفتي الوادي، الا انه كان له الفضل في تشييد القنطرة الاسماعيلية الشهيرة بقصبة تادلة، وكذا قنطرة ادشر الواد قرب زاوية الشيخ، وربما كان ذلك لغايات ولضرورات عسكرية أكثر من أي شيء آخر. فقد كان لعبور هذه القناطر تهيب لدى الناس ولم تكن أثيرة لديهم، تجنبنا للتفتيش وتحوطا من بطش الجند وحرس الإدالة التادلية. الا انه على غرار باقي المجتمعات التقليدية فقد تأسست على جنبات الوادي دشرات وقصبات ستنتع وتمتد مع مرور الوقت لتصبح حواضر اقليمية متسعة العمران والعمارة.

لكن ما هو البعد السياسي والوظيفي الذي تأسست عليه مواقف السلطة المركزية إزاء ظاهرة أم الربيع باعتباره الحاجز/ الواصل بين مجالين كبيرين، أي بين ما سمي تقليديا في الأدبيات الإدارية المخزنية " بالغرب والحوز" وجغرافيا بين شمال المغرب بعاصمته فاس وجنوبه وعاصمته مراكش؟²⁵

لقد فرض هذا الشريط المائي نفسه وهو يحتقر التراب ومنه يتهيب الناس على الجغرافيا السياسية منذ الإرهاصات الاولى لتشكل الوعي بالحدود الترابية للمغرب²⁶. وأصبح يسترشد به للتمييز الجغرافي والاداري بين ناحيتي الحوز والغرب، دون أن يكون لهذا التمييز في جوهره أي مدلول على الواقع الاجتماعي والمعيشي للقبائل المستوطنة على ضفتيه، بقدر ما كان لخصيسته الرمزية الدالة ليس فقط على هيبته وأسطوريته في الموروث الثقافي للمجتمع المحلي، بل في معناه "الجيوسياسي" كعلامة مادية تشطر البلاد نصفين : " [...]ولما رأى الناس ما وقع بين السلطانين المريني وبين عباس الاعرج من التهالك على الملك والتقاتل عليه، وفناء الخلق بينهما، دخلوا بينهما بالصلح والتراضي على قسمة البلاد [...]على ان للأشراف من تادالا الى السوس، وللمريني من تادالا للمغرب الأوسط." ²⁷ هنا يظهر نهر أم الربيع كمعيار تتحدد من خلاله المعالم الحدودية

²³ ابن خلدون عبد الرحمن: (م.س)، ج 6. 1996. ص 133

²⁴ ابي العلاء ادريس: مخطوط سابق ورقة 118

²⁵ لمزيد من تحري المعلومات والتحليلات حول محورية نهر ام الربيع في رهان التقاطب بين الغرب والحوز، انظر اطروحة عبد الاحد السبتي تحت عنوان: بين الزطاط وقاطع الطريق، دار توبقال 2009 ص 247 وما يليها.

²⁶ المقصود بهذه الفترة هي زمن الحكم المريني.

²⁷ الوفراني محمد الصغير: نزهة الحادي بإخبار ملوك القرن الحالي تصحيح هوداس، وطبع بأنجي على يد بردين سنة 1888

ص 21.

لسلطتين متنافرتين، كما يظهر حضور البعد المحوري لبلاد تادلا في السياسة التدبيرية للمخزن، وإن كان التقسيم الوهمي لتراب البلاد على ذلك العهد، لا يمكن تفسيره إلا بعثرة تاريخية في ظرفية محدودة أملت لها دسائس السياسة تحت ذريعة حقن الدماء. فمعاهدة أنماي²⁸ القرية المتاخمة للجنوب التادلي لم يمتد مفعولها إلا لسنوات معدودة، بينما استمرت ثنائية التقسيم حوز/غرب ضمن المفعول التدبيري، وظل الفاصل النهري لأم الربيع مميزا "بروتوكوليا" لمجالين شمالي وجنوبي. كما ظلت القبائل الجيشية منها والنائبة وخدام الدولة المنتمون لكلا المجالين يحملون جملة، الصفة الإسمية المميزة لانتمائهم. إذ نعثر في المراسلات المخزنية على لفظتي "القبائل الحوزية وقبائل الغرب". كما كان من عادة الوفود الرسمية لأهل فاس استقبال السلطان على الضفة اليمنى للنهر بمجرد عبوره ضفته اليسرى²⁹.

واستمر العمل باستقبال وملاقة السلطان على هذا المنوال والشاكلة، فكانت في العهد الحسني تتم وفق نظام مضبوط تراعى فيه رمزية ثنائية التقسيم نفسه³⁰.

وإذا ما تجاوزنا ظاهرة النهر ورمزيته في التراث المحلي³¹، فإن مدلوله الجغرافي ارتبط بشكل واضح على مستوى التمثل السياسي وحتى على مستوى النسق الإداري الجهوي بالمغرب التقليدي بمنطقتين متباينتين: إحداهما شمالية ترتبط بعلاقات تجارية وثقافية وحضارية مستمرة ودؤوبة مع بلدان البحر الأبيض المتوسط عبر موانئ الشمال ومرافي الصحراء سبلماسة، ومسالك الشرق مرورا بباب تازة، بينما بدا جنوبه مشدودا لعمق ثقافي وتجاري صحراوي بدنامية غير مستقرة وبمسالك قوافلية تتغير حيويتها بحسب الوضعية السياسية لعاصمته مراكش³².

وإذا ما وضعنا أيضا تيمة أم الربيع فيما للنهر من معاني رمزية ومدلولات التقسيم الإداري جانبا، فإنه يحق لنا القول أن ضفافه ظلت على مر الزمن الطويل تمثل تجسيدا لمعنى التعايش القبلي ضمن نمط اقتصادي رعوي، دونما أن تلحق بهم آلية التقسيم الإداري ما يؤثر على البنيات التقليدية للقبائل المحيطة به والمنفعة من جريانه. ما عدى ما فرضته تحديات تباين المواقف بين قبائل جبلية لا تصلها أحكام المخزن وأخرى طاعة بالسهل تكفلت فرقا الجيشية الأربعة لآيت الربع وإدالة

²⁸ أنماي، تعرف حاليا بسبيدي رحال و بها ضريح مشهور باقليم السراغنة اخذت اسمها عنه.

²⁹ الفشتالي عبد العزيز: مصدر سابق ص 98

³⁰ ابن زيدان مصدر سابق جزء 2 ص 606

³¹ تذهب بعض الاساطير في نعث ام الربيع بام الاربعين اي انه يجرف سنويا اربعين شخصا ويقضون نجبهم في مياهه خاصة وان

قترت الفيض بداية فصل الربيع

³² بيجين هوبير: تنظيم المجال المغربي عبر التاريخ، المجلة المغربية لعلم الاجتماع السياسي عدد 2 صيف 1988، ص 44 و ما يليها.

قصبته بفرض حصار طويل الأمد كان يعيق نزول رعاة ومواشي الجبل نحو ضفافه الواطئة، وربما سلكوا في ذلك بالتسلل إليها طرقا وأساليب ملتوية.

لقد بقي المجال التادلي على امتداد تاريخه الحديث وعلى مستوى مضمونه القبلي مشدودا في عمقه الجغرافي والتاريخي والثقافي والإداري الى الحوز. فلا ينتسب ممثل وسلطة المخزن المحليون ولا أعيانه وقبائله الا تحت هذه الصفة.

إن تراكم كل هذه الخصائص وتداخلها، بما وسم به الإقليم التادلي من مميزات إثنية متمازجة واستراتيجية عسكرية ومسالكية ومن تنوع طبيعي زاخر قد أكسبته بالقوة والفعل أهمية فريدة. دفعت حكام المركز الى تكريس جهودهم في دعم حضور سلطتهم محليا بأدوات وأجهزة تمثيلية وحرصهم على تمكينها من شروط القوة والفاعلية، لتحقيق التغلب واحتواء القبائل، ليس بهدف كسرها، بل بكسبها.

وإجمالا يمكن القول، أن بسيطة مثل منذ القديم معبرا مهما للمحلات السلطانية، كانت متقطعة ومتباعدة على عهد المنصور الذهبي³³ بينما بلغت حدا من التواتر والتراقص ذهابا وإيابا خلال القرن التاسع عشر خاصة على عهدي السلطانين المولى سليمان والحسن الاول عبر عن رحلات الاخير الفقيه ابن ابراهيم السباعي بالقول: " ثم لما فرغ من ذلك ظعن وفي نحور بلاد زعير وتادلا بتلك الجيوش طعن، يكرر المرور فيها ويعيد"³⁴.

أما جانبه الطرفي من الجبل، حيث عُسُر على المخزن احتواء سكانه منذ وقعة ظيان، فإنه بالرغم من ذلك لم يكن اقل حضورا على مسرح التاريخ من نظيره السهلي. فمن بين ثنايا ومفازات جبل زيان انطلقت صوب مراكش أولى المحلات السلطانية على العهد العلوي بعد أن اكتمل مشروع المرحلة الاولى من النهوض على إثر توحيد منطقة الغرب بالقضاء على الدلاء، وعبر مفازات الجبل نفسه صاغ التمثيل المخزني المحلي إحدى نجاحاته الوظيفية بتقلده مهمة خفر آخر المحلات السلطانية التقليدية والبلوغ بها بأمان الى مدينة فاس لتمكين علمائها وأعيانها ونخبها من أداء البيعة للمولى عبد الحفيظ.³⁵

³³ يذكر الوراق في المصدر المشار اليه سابقا : « أن المنصور كان قليل الاسفار ، وإنما سافر لفاس مرتين لا غير ». ص 120

³⁴ السباعي بن ابراهيم : (مخ.س) ، ورقة 308.

³⁵ لأسباب أمنية تمكنت المحلة السلطانية الحفيظية من شق طريق به وعر مرورا من الشمال التادلي في اتجاه فاس عبر زيان حيث تكفل القائد موحى اوحمو بمعية الايدالة المخزنية المتمركزة بمدينة خنيفرة من خفر المحلة الى حين وصولها للعاصمة فاس .

المطلب الثالث، السكان:

1- ديموغرافية المجال و العوامل المتحكمة في التطور السكاني:

بيدوان المجال التادلي كان من بين أكثر مجالات المغرب تعميرا للسكان بالنظر الى خصائصه الطبيعية المتميزة وموقعه الواسطي بين مناطق الدفع البشري، سواء من جهة الجبل ومفازاته المنفتحة على من لطق الصحراء الشرقية الى حدود درعة، أو من ناحية السهول الاطلسية، أو حتى من جهته الجنوبية المنفتحة على أعغات. لذلك عرف مند القديم نصف استقرار للسكان بالجبل، واستقرارا دائما ببعض المراكز على طول الشريط الديرى المتسم بتعدد منابع عيونه ومجاريه النهريّة. كما تأسست به حاضرة على مجرى ام الربيع ستعرف بتادلة. غير ان المتتبع لتطور الاستقرار البشري والنمو الديموغرافي بالإقليم سيواجه بكل تأكيد صعوبات الوقوف بدقة على ظاهرة الانتشار البشري بالإقليم. وتتمثل من جهة في تعذر تحديد البؤر الاستيطانية وطبيعة الخريطة السكانية ومواضع الاستقرار البشري بالإقليم لما كان يطول المنطقة من تغيرات بسبب من عوامل طبيعية مثل الاوبئة والمجاعات والهجرات في المقام الأول ثم بشرية وسياسية كما سلف الذكر من قبيل إنزال سكان طارئون، ومن جهة ثانية لغياب اي مستند علمي وثائقي يمكن اعتماده في اعطاء تصور ولو تقريبي عن التطور السكاني ومناطق الاحتكاك البشري.

ورغم ذلك يمكن تلمس بعض الاشارات من مصادر تاريخية اهتمت بالشأن التادلي من قبيل مؤلف التشوف الى رجال التصوف لابي يعقوب بن يحيى التادلي المعروف بالزيات إذ يمكن الوقوف على بعض المؤشرات بمواضع سكانية حيث اعتاد ان يقيم بها بعض الصلاح والمتصوفة وكانوا في الغالب يؤثرون الاستقرار بجانب المنابع والمجاري النهريّة. الا أن محاولة تدقيق بعض أنسابهم وأصولهم من قبيل "سيدي عبد الحليم الصديني" نموذجاً، فظهر من نسبه أنه ينتمي لقبيلة "صدينة" المجاورة لمدينة فاس، ما يزيد الامر تعقيدا في تتبع طبيعة الامتزاج البشري الذي عرفه الاقليم. وبالتالي التحقق من مستويات ذوبان نسغ بشري في آخر، وكيف حصل ذلك، وما العوامل التي تسببت في طرد قبيل وإحلال آخر محله. ومهما يكن من أمر فإن كتابات ومصادر تاريخية أخرى ذات طبيعة رحلية مثل ما سجله الشريف الادريسي والبكري أكدت كلها على ان الاقليم شهد مراكز سكانية ذات بعد حضري مثل داي وقصبة تادلة اشتغل أهلها على الحرف والصناعات اليدوية منها المعدنية، والتجارة والزراعة. وبما أن كل حاضرة ومركز سكاني لابد أن تحيط به مجموعات بشرية أخرى تختار لنمط عيشها الفلاحة والرعي والتبادل البضائعي، فإن أعداد ضواحيها ستكون بنسب معتبرة، بل يزداد نموها او ينقص بشكل طردي في العلاقة مع طبيعة الاستقرار

والنمو بتلك الحواضر. أما ابن خلدون فلم يزد في ملاحظته حول ذلك أكثر مما قال: وبقيت البسائط من الغرب مثل أزغار تامسنا وتادالا ودكالة، واعتمرها الطواعن من البربر الطارئین عليه من جشم ورياح³⁶.

ومن بين أهم المصادر التي عنيت بإعطاء ارقام وأعداد معينة للسكان ما سجله الرحالة المغربي الحسن الوزان أثناء مروره عبر التراب التادلي وإقامته المؤقتة ببعض المركز مثل فشتالة وبزو وفم الجمعة. وكون هذا الرحالة كان من اسرة مخزنية على العهد الوطاسي اهتمت بشؤون الحسابات والاوزان، فكثيرا ما كان يلفت الانتباه الى حجم السكان بتلك المراكز فيذكر عن ذلك ان بقم الجمعة يسكن عدد وافر من الصناع، وأن سكان تفزة (فشتالة) كثيرون أثرياء وفيها نحو مائتين دار لليهود، أما أفزا المدينة الصغيرة بجوارها فتشتمل على قرابة خمسمائة كانون بينما آيت عياض يقطنها نحو من ثلاثمائة كانون، أما آيت عتاب فكثيرة السكان عامرة بالنبلاء والفرسان³⁷ وتعكس هذه المعطيات مستوى معين من الاستقرار في عدد السكان واشتغالهم الى ذلك العهد بحياة اقتصادية وتجارية وزراعية أرخت بظلالها في ظل شروط هذا الاستقرار على نمو طبيعي في أعدادهم بعيدا عن مآلات ما كان يلحق الحكم المركزي بفاس من تداعيات وأسباب الأفلول.

غير ان ما يتوجب الإشارة اليه، ملاحظتين أساسيتين:

- أن نسبة النمو السكاني بالإقليم التادلي كانت تخضع لمنطق التاريخ والبيئة ايضا، حيث وسمت بنية الأول بالتحول السياسي وعدم الاستقرار، بما يؤثر ذلك على تطور او تراجع في اعداد السكان، والثاني من عوامل طبيعية ومتغيرات مناخية تعمل بدورها على التأثير المباشر على زيادة أو النقصان في الاعداد السكانية. فكلما شهد الاقليم استقرارا طبيعيا يرتبط بالأساس بمواسم فلاحية جيدة وتباعدت عنه فترات المسغبة وتباطأت دورات الجفاف واجتياح الجراد، وكلما خلا المجال من الأوبئة والطواعين، كلما ازدادت وتيرة اعداد السكان ونمت الى جانبهم قطعان المواشي وأعداد المطايا والدواب باعتبارها من بين وسائل الانتاج، فيتزايد استغلال المزارع وتتوسع مساحات الاشجار المثمرة وتتضاعف غلالها وتنظم أساليب السقي وشق الترعر واستصلاح المروج، كما كان عليه حال الاقليم زمن حسن الوزان. وقد يوازي استقرار السكان محليا حضور رموز الدولة من زعامات وأشياخ وإعمار المراكز العسكرية بالقصبات والحصون. بينما في حالة حدوث عكس ذلك لا محالة سترتد اعدادهم الى نقصان، فنتراجع الى درجة من النكوص رهيبية. فتخلو الديار

³⁶ ابن خلدون عبد الرحمن : المقدمة ، دار الفكر بيروت 1996 ط3، ص 133.

³⁷ الوزان حسن : ن. مص ، صص 168 و ما يليها .

والقرى ويطلال المدن خراب عظيم ويهجر من بقي من الناس مواطنهم وتأذن حياتهم بالفناء في اقل القليل من الزمن. علما أن استعادة الناس عافيتهم بعد انجلاء وطأة الاوبئة والطواعين يتطلب دهرا طويلا سواء في تجدد النسغ*³⁸ البشري اوفي نمو الوسائل التي يحتاجها الانسان.

- أن البحث المضمني من أجل الحصول على أعداد تقريبية في عدد السكان بالاقليم من خلال توسيع قاعدة الرصيد الوثائقي ولوعلى سبيل المقارنة ربما لن يقود الى نتائج حاسمة ومعلومات دقيقة يمكن اعتمادها في بناء تصور عن ظاهرة السكان، نظرا لغياب سياسة إحصائية للدول المتعاقبة، التي كان المركز لا ينشغل في ضوء تدبيره للقضايا المحلية بغير ما ترد في وثائقه الرسمية وكنانيشه وسجلاته من احتساب كوانين المجموعات القبلية ودواويرها الديوانية الخاضعة لنظام الجباية، وتكون في الغالب تحت مجال نفوذ سلطته، بينما تغيب تلك الاعداد في عتمة المجهول بالمناطق التي لا تطالها الجباية رغم ان سكانها ليسوا بأقل من الأولى وربما أوفر عددا لبعدهم عن مؤثرات الاوبئة كما هو الحال بالمناطق الجبلية النائية.

- أن الجوائح الطبيعية من مجاعات وجراد وأوبئة وطواعين وأمراض معدية هي اهم العوامل وأخطرها فتكا بحياة السكان، واستشرائها أشد وطأة في نسب تراجع وارتداد اعدادهم سواء في البوادي او الحواضر. وهذا المعطى يجب ان يأخذ بعين الاعتبار وإعطائه الاسبقية في رصد ظاهرة النمو السكاني بالاقليم او زيادة او نقصانا على ما عداه من عوامل أخرى، ونعني بذلك عدم الاستقرار السياسي والحروب. فمهما اشتدت وطأة العنصر الاخير وتمكن آثاره من كبس الحياة العامة للسكان بالحواضر والقرى، فإن تأثيره في تراجع عدد السكان بالنسبة لحالات متعددة بالمغرب يبقى ضعيفا مقارنة مع العوامل الأولى، وإذا ما استثنينا واقعة معركة العقاب التي جرت اطوارها بالاندلس وما احدثته من رجة وعواقب جد وخيمة على البنية الديموغرافية بالمغرب زمانئذ، فإن أقصى درجات ما تحدثه الحروب المحلية اوالبين قبلية فضلا عن بضعة ضحايا ومشردين، هو جلاء السكان أولجوتهم للهجرة الى أماكن أقل عنفا والنجاة بحياتهم وممتلكاتهم، كما حصل حسب ما ورد في مؤلف التشوف في إشارة جد مقتضبة عن جلاء سكان مدينة داي على العهد الموحي سنة 559 هـ³⁹.

³⁸ نقصد بالنسغ، تجدد النسل و عدم انقطاع جذره . و كما في لسان العرب ، يقال أنسغت الشجرة أي نبتت بعد القطع .
³⁹ ابن ازيات ابي يعقوب بن يحيى التادلي: التشوف الى رجال التصوف و اخبار ابي العباس السبتي، تحقيق احمد التوفيق منشورات ك.أ.ع. أ. الرباط سلسلة نصوص و وثائق 4 م. النجاح الدار البيضاء ط.3 ص466 .

2- التعداد الرسمي الاول على عهد الحماية :

إن الملاحظات الواردة أعلاه لم نتوخ من إثارتها غير أن تكون توطئة لما سندلي به من معطيات حول اعداد السكان وانتشارهم ببعض مناطق المجال التادلي. لكن الاعتماد في ذلك لن يكون هذه المرة لا على لوائح جبائية ولا على سجلات مخزنية، كوننا لم نتوفق في الحصول عليها رغم الاقرار بوجود نماذج منها بالخرانة الملكية، وكان بإمكانها على الاقل ان تمنحنا معطياتها الحسابية في ضوء اعداد الملزمين بالدفع الجبائي مؤشرات نسبية عن أعدادهم واستقرار قبائلهم بأماكن محددة. لكن لم تمنعنا الرغبة في دعم منهجية البحث والدراسة بما يظهر أهمية العنصر البشري وقيمه على سلم اهتمامات التدبير المخزني لشأن المجتمع بالاقليم التادلي وجواره من قبائل الدير والجبل، كونه العنصر الأهم والمحرك الأساس للتاريخ المحلي. فماهي الوسيلة المصدرية المعتمدة التي بإمكانها أن تقربنا بشكل نسبي من ظاهرة السكان وأعدادهم بالمجال التادلي فترة المنتصف الثاني للقرن التاسع عشر ؟

لقد خَمْنَا منذ البداية ان الحصول على معطيات حول السكان بتادلا يبقى أمرا عسير المنال ويتطلب جهدا مضنيا ووقتا طويلا، لذلك وقع الاختيار على النباش في وثائق أرشيف المغرب كما خلفته الدراسات الميدانية وبرامج تعداد السكان بداية الحماية بتادلا. فتم العثور على محفظة تحمل رقم B11 بها وثائق رسمية موقعة وتحمل طابع مكتب الاستعلامات الفرنسي بمركز مدينة تادلة تحمل عنوان: "Dénombrement de 1921"، ويعني اقتصار العملية على تعداد السكان عن سنة 1921 وليست إحصاء شاملا، وأكثر تطورا ودقة مثلما تحصل من احصاء بداية ثلاثينيات القرن وما بعدها.

وإذا كانت عملية تعداد السكان التي طالت مجموعات سكانية ومراكز حضرية بتادلا قد حصلت مستهل العشرية الثانية من القرن العشرين، أي في مدة لم تتجاوز اربع او خمس سنوات بعد هيمنة قوات الحماية على الاقليم واستقرارها به، علما أن الفترة الزمنية المشمولة بالدراسة هي المنتصف الثاني من القرن التاسع عشر، فهل ستكون لمقاربة علمية نحاول من ورائها الخروج بخلاصات تقريبية عن عدد سكان الاقليم من خلال معطيات وثائق ارشيف المغرب تأسست على مساحة زمنية تقارب عقدين من الزمن تفصلها عن فترة الدراسة من جدوى؟ أم انها تبقى حكرا ومقصورة على فترة إنجازها وبالتالي لا تستجيب الا لمقتضيات عصرها ومن ثمة يتعذر اسقاطها على امتداد زمني تراجع لتشمّل سكان منتصف القرن ما قبل الماضي؟

وغير خاف، أن هاجس كل باحث في موضوع التطور السكاني وأعدادهم وظاهرة تدبب نسبة نموهم والعوامل المؤثرة في ذلك، هو التحلي بقدر كبير من الموضوعية والحيطة والحذر في الجزم بأي نتيجة حاسمة يتقرر من ورائها الخروج بأرقام محددة سواء على المستوى الوطني او الجهوي لما قبل الحماية للأسباب السالف ذكرها، فإن الحامل على ذلك هو محاولتنا أولاً، نقل محصلة تلك المعطيات باعتبارها تمثل مؤشرات يمكن الاستئناس بها في حالة المقارنة، وإخراجها في شكل جداول كما تم توطينها، وثانياً، ما تم استنتاجه من كون محصلاتها العددية لم يطرأ عليها متغيرات كبيرة ولا تباعدا شاسعا في الزمن القصير إذا ما تم اختبار مقارنتها بأرقام تقديرية أخرى ثمانينيات القرن التاسع عشر، أي ما يقارب من مدة جيل كامل. والشاهد ما ندرجه في المثالين التاليين :

- عند زيارته لمدينة قسبة تادلة قدر الرحالة شارل دوفوكو ان عدد سكانها يبلغ ما بين 1100 و1200 نسمة ضمنهم ما بين 100 و120 من اليهود⁴⁰. وهذه الأرقام هي فقط محمولة على التخمين والتقدير الجرافي، إذ الراجح ان الرحالة تغافل عن شريحة أخرى من السكان فلم يكن بمقدوره تعيين عددهم رغم أخذه بالحسبان وجودهم، من بينهم النساء القابعات في بيوتهن فضلا عن أعداد الاطفال والعجزة. بينما نعثر فيما تحصل من عملية التعداد السابق ذكرها على الأرقام التالية: عدد المنازل 537 عدد المسلمين 2634 وعدد اليهود 245 نسمة. والنتائج تقريبا هو مقدار الضعف.

- وعند حلوله بمدينة بني ملال سجل الرحالة الملاحظة التالية: بني ملال مدينة صغيرة عدد سكانها 3000 نسمة تقريبا من بينهم 300 يهودي⁴¹. بينما أفضى تعداد الحماية الى النتائج التالية: قرية بني ملال تضم 5046 نسمة من بينهم: 3916 مسلما. و1106 من اليهود. و42 اوروبي من بينهم 34 فرنسي. بمعنى ان الفارق السكاني لا يزيد عن 2004 نسمة عما سجله دو فوكو ثمانينيات القرن التاسع عشر.

وما نسجله من هاذين المثالين هو الاتي:

- أنه رغم مرور أربعين سنة بين تقدير الرحالة الفرنسي لعدد السكان بالحاضرتين ومحصلة التعداد الفرنسي مستهل العشرية الثانية من القرن العشرين لم تشهد نسبة النمو السكاني تطورا

⁴⁰ دوفوكو شارل : (م.س) ص 78 .

⁴¹ دوفوكو شارل : نفسه ص 83 .

كبيراً. علماً أن المدينتين لم يشهدا هجرات للسكان ولم يلحقهما وباء الطاعون إلا من فترات جفاف ونقص في الثمرات وانحسار المطر على العهد الحسني وبداية العهد العزيمي.

- ان نسبة مهمة من السكان وطيلة المساحة الزمنية المشار إليها أعلاه كانوا لا يزالون على قيد الحياة ويمارسون انشطتهم المعتادة.

- أن نسبة عدد السكان لما قبل زيارة الرحالة الفرنسي التي تفصلها ثلاثين سنة عن بداية المنتصف الثاني من القرن التاسع عشر، يغلب على الظن وبناء على ما يمكن مقارنته بنسبة عددهم في المدة الفاصلة بين ثمانينيات القرن والعشرية الأولى من الذي تلاه، لم تعرف فارقاً كبيراً في اعدادهم، كون نمط الحياة ومستوى العيش لدى السكان بقي في حالة سكون يراوح مكانه دون ان تطال بنيته تطوراً جوهرياً، ولا بحدوث أية رجة او واقعة من مستوى ما يؤثر بشكل عاصف على نسبة أعداد السكان، ما عدى ما لحق الاقليم كسائر البوادي من ازمان بيئية وجوائح طبيعية. لكن الظاهر انها لم تصل الى الحد الذي جعل الديار خالية ولا المدن والقرى هشيماً.

جدول 1 تعداد سكان مدينتي بني ملال وقصبة تادلة لسنة

المدينة	عدد الدور	الرجال	النساء	الاطفال	الاناث	المجموع
قصبة تادلة	464	560	710	737	627	2334
بني ملال	938	3.916		عدد اليهود: 1106		4022

جدول 2 يتضمن محصلة تعداد السكان سنة 1921 بقبائل آيت الربيع

الفخدة	عدد الخيام او الدور	عدد الرجال	عدد النساء	عدد الاطفال	عدد الاناث	المجموع	المجموع العام
بني ملال							
أولاد امبارك	150	304	286	145	141	876	
أولاد بوبكر	120	241	237	83	43	604	
أولاد موسى	250	414	397	284	226	1321	
أولاد عياد	105	181	180	115	92	568	
أولاد حمدان	153	246	221	112	111	690	
الصومعة	73	85	91	61	52	289	

22.709	541	107	98	184	152	111	مغيلة
	بني معدان						
	1762	278	274	583	627	361	اولاد سعيد
	1614	264	212	543	595	350	أولاد اسماعيل
	1265	219	251	392	403	220	البزازة
	2530	452	468	819	791	485	اولاد يوسف
	2407	404	424	797	782	430	اولاد ايعيش
	2519	459	438	827	795	472	الزواير
	كطاية						
	1675	279	292	615	489	374	آيت كركايت
	2906	564	538	921	883	550	آيت يحيى
	سمكت						
	1142	260	282	365	235	213	-

جدول 3 تعداد سكان حسب ما أورده المركز الاستعلامي لدار ولد زيدوح لسنة

المجموع	عدد السكان	عدد الدور او الخيام	القبيلة او الفرقة
93.946	29.038	4819	بني عمير الشرقيين
	13.220	2302	بني عمير الغربيين
	13.195	1576	اولاد عريف
	14.391	1732	اولاد بوموسى
	24.112	3175	بني وجين

المجموع	الاناث	الأطفال	النساء	الرجال	المركز
165	16	24	40	85	زاوية الشيخ

1075	199	236	368	272	غرم العلام / تاكزيرت
------	-----	-----	-----	-----	----------------------

جدول 4 تعداد سكان زاوية الشيخ واغرم العلام/ تاكزيرت لسنة 1921

الفصل الثاني ، الإطار المصدري للبحث .

- المبحث الاول، مدلول لفظ الأرشيف المخزني .
- المبحث الثاني، المواد المصدرية التي تم التوسل بها .
- المبحث الثالث ، الكنايش مكنز وثائقي .
- المبحث الرابع ، المخطوطات .
- المبحث الخامس ، مصادر الاستوغرافيا التقليدية .
- المبحث السادس ،دراسات اجنبية حول بعض قبائل الاقليم ومشاهداتهم رحلية .

الفصل الثاني

الإطار المصدري للبحث:

يرتكز بحثنا حول الاجابة عن سؤال جوهرى: ما هي المقاربات التدبيرية التي سلكها المخزن في تنظيم الحياة العامة للمجتمع التادلي سواء القاطن بالسهل منه أو الديرى والجبلى وما هي آلياته المعتمدة في ذلك ؟ ثم كيف سارت علاقة ممثلوه المحليون، مع مكونات المجتمع وطرق تدبيرهم لقضاياه المحلية باعتبارهم اداة ووسيلة تجسد سلطة الدولة؟ وهل بالإمكان الوقوف على ذلك وفهمه وتفسيره وتحليله اذا ما سلكنا خيار الاعتماد على واحدة أخرى من آلياته كان يباشرها في تحقيق أهدافه التدبيرية الا وهي الوثائق والمستندات الصادرة عن المخزن نفسه؟

والحقيقة ان الاعتماد على وثائق من الأرشيف المخزنى كمادة مصدريّة أساسية، بأصنافها المتعددة والمتنوعة من مراسلات، وتقارير إخبارية، ومستندات وقوائم حسابية، سيكون لها دورا محوريا في الدراسة، ستقربنا بكل تأكيد من مصدر القرار، وتعكس بكل جلاء منهجية المخزن في تناوله للقضايا المحلية على مستوى كافة الصعيد. علما ان هذه الوثائق والمستندات تتأسس من حيث الجوهر على المكتوب من الخطاب المخزنى الذي هو خطاب الدولة الرسمى، وبوصفها قناة من بين عدة قنوات للتواصل ووسيلة معتمدة تربط المركز المخزنى بكافة الأطراف والجهات.

لقد انصب اهتمامنا في استبارة وثائق الأرشيف المخزنى لما تنطوي عليه من ذاكرة تاريخية تكشف مضامينها عن جوانب من علاقة المخزن بالمجتمع المحلى، وتفصح عن دور وسائله البشرية وآلياته التدبيرية في ربط المحلى بالمركزي من خلال نظام إدارى يسعى بواسطته من تحقيق أهداف وغايات يتداخل فيها الجانب الأمنى والعسكرى والسياسى والاقتصادى.

وإذا كانت وثائق الأرشيف المخزنى في شقها التواصلى، بما تتضمنه من إفادات عن أحوال وقضايا المجتمع المحلى، قد مثلت مادتها الادبية ومضمونها التاريخى المصدر الأساس فى هذه الدراسة، فإن الوارد منها من لدن ممثلى المخزن المحليون وسائر القائمين على خدمته قد مكن المخزن من ضمان تواصله الاستخبارى بشكل وازن، إذا ما اقتنعنا ان فحوى الصادر منها عن المركز لا يأخذ الا على سبيل الأجراء والتنفيذ لأوامره بناء على تقديراته لما يجرى على المستوى

المحلي. ذلك ان وقع خطابها في نفوس ممثليه المحليين، لما لأثر مدلوله ومعناه من رمزية السمو والتوقير فإن مبناه يلزمهم أمر مضمونه بالتنفيذ المستعجل⁴².

وليس من شك في أن نظام التراسل كان يخضع لترتيب دقيق، ولمنهجية في الصياغة والتخاطب معلومة، تراعي النموذج المخزني التقليدي.

فالمخزن كان يستحضر في مراسلاته خصوصية كل إقليم وجهة، ويأخذ بعين الاعتبار تنوع مقدراته ومقوماته، وأشكال انتظاماته القبلية، وعلى دراية بطبائع السكان وأمزجتهم، ومستويات علاقتهم بالمركز، خضوعاً أو تنطعاً. الطبع من القبائل والعاصية. وطبيعة انفعالها في مواجهة الامر بتنفيذ الأحكام إزاء عمليات استخلاص الضرائب من واجبات الأعشار والزكاة وسائر الكلف والتوظيفات. إلا أنه كان يدرك في نفس الوقت، أن الإقليم التادلي كانت تجتمع فيه كل هذه المؤشرات. يتوزع سكانه بين مناطق جبلية وعرة التضاريس وصعبة الاقتحام لا تنال بعضهم الأحكام، منكفئين على أنفسهم ولا يُبدون أي استعداد للدخول تحت مظلة ممثلي المخزن. وأخرى سهلية وديرية تخترق مجالها الطريق السلطاني، أمكن احتواؤها، لكن لا تخلوا سيرة بعض فرقها وفخذاتها من تمردات وفورات بين الحين والآخر. بينما أخرى ملحقة في عداد القبائل الجيشية، تساهم في خدمة المخزن داخل وخارج الإقليم. ومن ثمة نلاحظ أن الخطاب المخزني الموجه لعماله وقواده لم يكن نمطياً، ولا يقوم على صيغة واحدة. فما نلمسه من خطاب الكياسة والمسايرة على العهد الحسني يوجه لموحى أوحموالزياني على سبيل المثال، غير ما نسجله من صرامة وشدة لقواد السهل. نسوق منها النماذج التالية:

« [...] وبعد، وصل كتابك بأن سيدنا دام علاه أمر خديمه القائد محمد بن حم الزياني بالكلام معنا فيما يرجع لايت سخمان وان نقابل الوارد علينا من عنده بالبرور والاعتناء، ثم إن اشار بما فيه مصلحة ظاهرة مسلمة نساعده عليها »⁴³. « [...] وبعد، وصلنا كتابك ذكرت ان مولانا نصره الله أمر خديمه القائد محمد بن حم الزياني بالمصارفة معنا [...] وحسن المصارفة معه والبشاشة »⁴⁴.

⁴² تطالعنا بهذا الصدد عدد من الرسائل الموجهة من طرف القواد الى المركز جوابا على امر ما ، حرصهم على تدبيح رسائلهم بالتعبيرات التالية: « و بعد وصلنا كتاب سيدنا فقبلناه و على الرأس و العين وضعناه ». أو : « وصلنا كتاب سيدنا الشريف بعد تقبيله و فهمنا منه ما امرنا سيدنا ».

⁴³ خ.م.ر : كناش 634 ص 12.

⁴⁴ خ.م.ر : نفس الكناش و الصفحة

بينما يواجه عمال السهل إذا ما ظهر منهم تباطؤ أو تكاسل في تنفيذ امر ما باللفظ التالي: «فإذا به ظهر من خللكم أنكم لم تفهموا ذلك [...] وقد بينا وبلغنا فانظروا في أمركم [...] وافعلوا لرؤوسكم ما ترون فيه نفعكم»⁴⁵

والحقيقة أن اجتراح تفكيك إشكالية النظام التدبيري المخزني للمجال التادلي وجواره من قبائل الدير والجبل من خلال وثائق الأرشيف المخزني، هو رهين بمدى الكشف على قدر معين ومناسب من هذه الوثائق واطلاع متأن على نصوصها وتحليل خطابها المتصل بالوقائع في اطار من خط زمني تسلسلي مضبوط. فاستقراء لنماذج متعددة من التقارير والمراسلات لا يتم فقط تناول موضوعاتها من زاوية حملتها الرسمية ومضمونها الإجرائي، بقدر ما يتعين ضبط عناصر خطابها من منظور شمولي، بعين فاحصة لما يكتنف محتواها من مظان تعبير عن جوانب متعددة من واقع المجتمع المحلي، وبمدى تفاعل السكان مع ما يمور بمحيطهم، وتعاطيهم مع كل مستجد يمثل المخزن وممثلوه المحليون العنصر المؤثر فيه.

وبذلك فإن دراسة تلك الوثائق والمستندات قادتنا لملاحظة أساسية:

- أنه إذا كان محتوى الرسائل المخزنية، خاصة منه ما تعلق موضوعاته بتوجيهات وأوامر مركزية، وبما يعبر عنه من قيمة تاريخية، فإن معظمه يعكس مظانا تمنحنا تصورا عن أشكال تدبير المخزن لقضايا شؤون المجتمع المحلي، ويفيدنا كذلك في الوقوف على استنتاجات عمقت لدينا وعيا بأهمية تلك الوثائق في اعتمادها كمادة مصدريّة لا محيد عنها في أية مقارنة تاريخية تروم دراسة علاقة السلطة بالمجتمع المحلي التادلي.

وبالموازاة مع ذلك، فإن دراسة مقارنة بين المضمون الوثائقي والكتابات المصدريّة وبين التأليف التقليديّة للإخباريين⁴⁶، مكنتنا بقناعة أخرى مفادها: أن اهتمامات تلك التأليف في تناول تاريخ المنطقة بالرغم من تأكيدنا على أهميتها وضرورتها، أنه من خلال معطياتها المقتضبة، لم تكن في الواقع جاعلة من تاريخ المجتمع المحلي مقصدا لها ولا من تحركات قبائله وكشف تناقضاتها البارزة في علاقتها مع المخزن هدفا لها. فلا تظهر فيها الأحداث إلا كردود أفعال تبرز على السطح كلما داهمت المحلة السلطانية المجال، وما يصادفه كتابها من متابعتهم لتلك الحركات أو ما يتناهى الى مسامعهم من أعمال جبائية أو إخماد لتمرادت قبلية، وكأن التاريخ المحلي لا تدب فيه

⁴⁵خ.م.ر : كناش 353 ص168

⁴⁶ لا يجد الاخباريون غضاضة في نقل عدد من الأحداث والايخبار عن مؤلفات سابقهم دون تذكيرهم بمصدرها ، وقد لاحظنا ورود تشابه البعض منها و كأنها اقتطعت اقتطعا من مؤلف لآخر . و قد أثار هذه الملاحظة المستشرق ليفي بروفنسال في كتابه مؤرخو الشرفاء . ترجمة عبد القادر الخلافي مطبوعات دار المغرب للتأليف 1977 . ص.142 .

الحياة و لا الحركة إلا تحت أنظارهم ومسامعهم ثم لا يلبث المجتمع أن يعود إلى هامشيته حالما يغادر أصحاب تلك التأليف المجال التادلي سائرين خلف المحلة السلطانية.⁴⁷

ومهما يكن من أمر، فإن الضرورة المنهجية تقتضي تحري كلا المصدرين، كون بناء الدراسة لا يقوم إلا على تكامل منهجي بينهما. فالمعطيات المصدرية رغم عموميتها واقتضابها تبقى لها قيمتها ومصادقيتها على مستوى المعرفة التاريخية، بل أكثر من ذلك مثلت على الدوام مقوما فكريا وأدبيا عبر عن الدينامية الثقافية للنخب التقليدية في اهتمامها بتاريخ وطنها.

ما نستنتجه من كل هذا، أنه بقدر ما تضيق مساحة اهتمامات التأليف المصدرية بشؤون المجتمع المحلي وعلاقته بالسلطتين المركزية والمحلية، بقدر ما تتسع وتتشعب الاحداث والوقائع في الوثائق الرسمية والخطابات المخزنية. فالإستكناه الدقيق والمجهرى الذي يفرضه تتبع سيرة هذه العلاقة حسبما ما تنطوي عليه حمولتها المصدرية، سيجعلنا نقف على محك اختبار فعاليتها لصياغة جانب من تاريخ علاقة السلطة بالمجتمع فترة النصف الثاني من القرن التاسع عشر. مع الأخذ بعين الاعتبار من كون دراسة التاريخ الحديث لا تستقيم منهجيا إلا بمقاربة تروم التفكيك والتحليل وصياغتها من منظور استشكالي.

وقد يطرح علينا بهذا الصدد سؤال إشكالي آخر، يستفسر عن جدوى التنقيب في وثائق الارشيف المخزني، وعن مدى فعالية حمولتها التاريخية والغاية من تناول محصلتها المعرفية ما دامت لا تعكس في حقيقة الأمر إلا وجهة نظر رسمية للمخزن؟ وأن مضمونها التدبيرى قد يتغافل عما اعتور المجتمع المحلي من هامشية* وحياة بئيسة وضنك في العيش، بسبب من وطأة المخزن نفسه وقساوة دورات الطبيعة وضعف وسائل الانتاج وضيق في ذات اليد. فلا يكاد يلتفت محتواها لغير ما يصبو اليه المركز من حمل القبائل على الطاعة، ودعوة ممثليه لضمان الأمن الطرقي، وتتبع أطوار جباية الضرائب وتحصيل الواجبات الشرعية منها والمستحدثة*.

⁴⁷ كان في أغلب الاحوال من بينهم اكنسوس صاحب الجيش العرمرم وابن ابراهيم السباعي مؤلف البستان الجامع. * ما نود التنويه اليه بلفظ مجتمع هامشي او منطقة هامشية التي ترد في الدراسة، لا نعني بها انها تعكس واقعا متعمدا لفعل التهميش فرضه المركز على مجتمع محلي ما و كأنه بذلك نهج سياسة تمييزية او انتقائية يقرب بموجبها جهات و يهمل أخرى . فقد حاول المركز في كثير من المحطات التاريخية ادماج على سبيل المثال، المناطق الجبلية بجنوب الاطلس المتوسط المتاخمة لتادالا ضمن نسقه التدبيرى، و سعى إلى الزام قبائلها بما يتوجب عليها إزاء مطالبه الجبائية شأنها شأن باقي المناطق، الا انها كانت تتعاصى و ترفض الانخراط لأسباب تنظيمية و مؤسساتية محلية ، و أخرى ثقافية و تاريخية و أحيانا مطلبية. علما أن الحصار الاقتصادي الذي فرض على قبائل آيت سخمان و ما اليها لم يكن إلا إجراء تدبيريا سياسيا كان المخزن يروم من ورائه الضغط عليها و إنهاكها اقتصاديا لحملها على الطاعة و تجنيب القبائل السهلية المجاورة عدوى الاقتداء بها.

* لقد آثرنا استعمال لفظ الضرائب المستحدثة بدل "غير الشرعية" التي نعثر عليها في كثير من الدراسات، كون الثانية تحيل على معنى ديني لا يقر بها الشرع و من تمة تظهر و كأنها تعبر عن موقف الباحث بعدم احقيتها ولا مشروعيتها، بينما قدرنا ان الاولى تعبر عن كونها ضرائب تدخل ضمن الواجبات التي تفرضها الوضعية الاقتصادية لمواجهة الاختلالات المالية و الازمات الاقتصادية الناجمة عن الضغوط الخارجية ،و بما تلزمه موجبات التقدير المخزني للحالة حرصا على إحداث توازنات بين مصاريف الدولة المتزايدة خاصة منها أداء غرامات مجففة و متتالية للإسبان و الوفاء بالديون للانجليز و بين مداخيل لموارد ضئيلة و متناقصة.

والحقيقة أن المكاتبات والمراسلات وكل ما يمت بصلة للمكتوب الرسمي في علاقته بالتدبير الإداري للشأن المحلي بالإقليم، تعتبر من المصادر التي لا غنى عنها في مجال التوثيق التاريخي، إذ لا تكمن أهميتها فقط اعتبارها نتاجا لما اضطلعت به دواليب الادارة المخزنية التقليدية خلال الفترة المدروسة من مقاربة للشؤون التدبيرية للمجتمع والمجال، ولا بما تحفل به حملتها التاريخية من معلومات عن قضايا متنوعة ومتعددة، بقدر ما تكمن أهميتها أيضا في اتصالها المباشر بمفاعيل الأحداث وتتبعها لسير الوقائع، وقدرتها الى حد ما على رتق وسد فراغات عديدة حول قضايا تاريخية لا نعثر على كثير منها في المصادر التقليدية التي تكتفي بمعلومات مختصرة تبقى على كل حال في حاجة إلى ما يعزز من شهاداتها ويدعم رصيدها.

بيد أنه ينبغي التنويه بهذا الخصوص، أنه ليس من المنطقي الجزم في الاعتداد فقط بالوثائق المخزنية من كونها المصدر الوحيد على سلم البحث التاريخي لقضايا المجتمع المحلي في علاقته مع المخزن. فهناك مخطوطات ومسودات ووثائق وحتى ظهائر سلطانية وعقود ورسوم وغيرها لا زالت في حوزة بعض الزوايا ولدى حفدة المرابطين والشرفاء وأبناء الفقهاء، المكتشف منها وغير المكتشف، كما أن هناك كثيرا من التراجم لأعلام تادلية، فضلا عن نوازل فقهية يمكن للدارس ان ينهل من محتوياتها ويستنبط من قضاياها لفهم جوانب من التاريخ المحلي. لكن في حدود علمنا فإنه لازال في حكم المجهول وجود مخطوطات أو مسودات اعتنت واهتمت بأحوال المجتمع خلال الفترة المدروسة من مستوى منهج وثراء ودقة معلومات وردت في مؤلف التسلي للجدامي⁴⁸ على سبيل المثال أو القول الجامع لابن ابراهيم الدمناتي⁴⁹، من شأنها أن تغني وتثري الدراسات وتلقي على الاقل بعض الاضواء على التاريخ المحلي.

فما هي مقومات وثنائق الأرشيف المخزني المتحصل عليها وما حدود مضانها التي ستسعفنا في تتبع جوانب من تاريخ المجتمع المحلي وعلاقته بالتدبير المجالي للمخزن؟ وهل يقتصر فحواها فقط على الابلاغ بالتصريف اليومي للقضايا المحلية من أمن واقتصاد واستخبار، أم هي تعبير عن تجليات لبنية إدارية وتنظيمية تكشف عن مفهوم أصيل لجهاز دولة تحكمه قوانين ونظم وتتبع ومراقبة.

⁴⁸ التوفيق أحمد: المجتمع المغربي في القرن التاسع عشر. جامعة محمد الخامس منشورات كلية. أ.ع. الرباط سلسلة اطروحات جامعية رقم 63 2011. ط3 ص 33 و ما يليها.

⁴⁹ الدمناتي أحمد بن ابراهيم: القول الجامع في تاريخ دمنات و ما وقع فيها من الوقائع. تحقيق احمد بن محمد عمالك المطبعة و الوراقة الوطنية .

وقبل التطرق إلى ذلك فيما سيأتي من فصول الدراسة، علينا أولاً التعريف بالأرشفة المخزنية، وبمحتوياته الوثائقية التي باشرنا التنقيب فيها. بعدها سنتعرف على أشكال النظم الإدارية التي انتجت محتويات ما اعتمدنا عليه. وبفئات الكتاب سواء منهم الذين اضطلعوا بمهامهم داخل دار المخزن، أو ممن اعتمدتهم العمال والقواد في صياغة خطاباتهم ومراسلاتهم إلى المركز حتى نتمكن من أخذ فكرة عن منابع الخطاب المخزني.

- المبحث الأول، مدلول لفظ الأرشفة المخزنية:

يحيل مصطلح الأرشفة المخزنية في مدلوله العام، على مجموع الوثائق والتأليف والكنائش والرسائل المستقلة، وكل المخطوطات والذخائر والنفائس من كل أصناف العلوم دينية، ولغوية، وفقهية، وطبية، وجغرافية، ورياضية، وفلسفية وتاريخية، وكتب الرحلات والاجازات والتراجم وغيرها كثير جداً، هي من صميم التراث الوطني. فخضعت للحفظ والتخزين تحت إشراف وعناية مؤسسات مختصة تابعة للدولة، مثل الخزانة الملكية والمكتبة الوطنية ومديرية الوثائق الملكية بالرباط، يشرف عليها مدراء يعينون بظهير شريف، على أن تبقى رهن إشارة الباحثين والدارسين والمهتمين

ويتكون المصطلح من لفظين: أرشفة ومخزنية. فإذا كان الأول يخضع في التعريف حسب قانون رقم 99-66⁵⁰ من كونه مجموع الوثائق كيفما كان تاريخها وشكلها يتم حفظها للصالح العام رعيًا لما تستلزمه الحاجة إلى التدبير والبحث العلمي ولما تقتضيه صيانة التراث الوطني⁵¹، فهو مرتبط بالثاني وملازم له بالضرورة ومقترن به، بقدر ما هو نتاج له ومبرر لمعناه. فلفظ "أرشفة" مصطلح ينتمي للحقل اللغوي المعاصر، خاضع لمنطق الترجمة ولواقعة الحداثة والتغير. لكن الثاني الذي هو "مخزنية" ويتبعه في السياق اللفظي، فإنه يتسم بالأصالة والثبات بما عرف به كجهاز للدولة تطور في سيرورته التاريخية منذ العهد المرابطي والموحدي، لكنه حافظ على حمولته التقليدية مع قدرته على الاستجابة والتكيف مع شروط التحول التاريخي. غير أن مضمونها يبقى واحداً، ما دام اللفظ الأول يمثل الوعاء المؤسساتي الذي آلت إليه الوثائق والمستندات التراثية والتاريخية، فالثاني يعتبر الأساس والمصدر والمنبع لتلك الوثائق، خاصة منها ما يتصل بدراستنا بما تتضمنه من خطاب مكتوب اقتضى الحال أن تكون من إنتاج التدبير المخزني ذاته، ومن صياغة ورسم أطره الإدارية.

⁵⁰ ظهير شريف رقم 167.107 الصادر في 2007/11/30 بتنفيذه ونشره بالجريدة الرسمية.

⁵¹ المادة الأولى من القانون المشار إليه اعلاه .

وبما أن كل مستندات الأرشيف المخزني، تعود ملكيتها للدولة وتوضع رهن إشارة الدارسين والباحثين ليس فقط من داخل المغرب، بل تسعى مؤسساته المعنية إلى أن تكون محتوياتها أيضا في متناول الدارسين الأجانب لإغناء بحوثهم الأكاديمية بما يُعرف بالتراث والتاريخ المغربيين، فإنه كان لزاما عليها أن ترعى هذه المستندات، وتعمل على صيانتها وترميمها وحفظها من التلف، وفهرستها لما يقتضيه واجب صيانة التراث الوطني والارتقاء بمكانته وقيمه المادية والتاريخية⁵².

وقد خضعت كل تلك الوثائق والمستندات وباقي الأصول بجميع تفرعاتها وأصنافها، للنظام الرقمنة المعلوماتي، أساسه ترتيب وتصنيف محتويات الأرشيف، حتى يسهل أمر استخراج ونسخ وتصوير المحتويات المرغوب فيها. كما تخضع بشكل مستمر لعمليات الترميم والصيانة حسب الوسائل العلمية الحديثة، كون عدد منها طالته الخروم والتلاشي بفعل التقادم والرطوبة وطرق الحفظ التقليدية من جهة، ولتقلب أصناف منها بين أيدي الباحثين والدارسين المهتمين أصبحت معه معرضة أكثر للتلف من جهة أخرى. وقد وقفنا على حالة من ذلك على سبيل المثال فيما يرجع إلى الكناش رقم 47 بالخزانة الملكية، وهو على قدر كبير من الأهمية التاريخية، إذ تعود مختصرات رسائله إلى عهد السلطان سيدي محمد بن عبد الرحمن لم نتمكن من الاستفادة منه، كونه وحسب إفادة القائمين على الخزانة يخضع لعملية ترميم منذ مدة ولم تطله بعد عملية الرقمنة. ومن خلال مراجعاتنا المتكررة للخزانة الملكية، اتضح لنا أن كل الكناش والرسائل المستقلة والمؤلفات المخطوطة على غرار مؤلف الروضة السليمانية، والابتسام، والبستان الجامع، وكناشة مراحل السفرات الحسنية، قد تم ترتيبها وحفظها في رزم ومحفظات تحمل أرقاما تسلسلية مضبوطة ومسجلة للحفظ تحت أحرف ورموز معينة، تسهل أولا الاهتداء إليها واستخراجها من طرف الباحثين بواسطة الاطر الادارية المكلفة، يؤشر على أنها محفوظات رسمية تدخل ضمن إطار مؤسساتي وفق القانون المشار إليه أعلاه. وهذا يعني، أن كل الوثائق التاريخية والمصنفات الأخرى رغم أهميتها ومن كون بعضها من جنس ما هو مأرشف، فإنها لا تحظى بصفتها الرسمية ولا بانتمائها للأرشيف المخزني ما لم تخضع لنفس الإجراءات من المراجعة والتدقيق والترقيم من طرف لجنة علمية مختصة، قبل أن تعرف طريقها للحفظ تحت عناية رسمية وقانونية حتى لو كانت من إنتاج المخزن ذاته. علما أن هناك مكاتب خاصة كثيرة بالحوضر والزوايا لا زالت

⁵² بنين احمد شوقي : في تقديمه لكتاب فهارس الخزانة الحسنية الجزء الاول المطبعة الملكية الرباط 2000 .

تحتفظ بكم غير قليل من الوثائق المخزنية ومخطوطات ذات اتجاهات شتى لكنها لا تحسب على الأرشيف المخزني للأسباب السالف ذكرها.

ولا يقتصر الأمر على أهمية حفظ وصون الوثائق والمستندات والكتابات وغيرها من المخطوطات على الخزانة الملكية. فقد اضطلعت كذلك مديرية الوثائق الملكية بنفس الدور، وإن كانت جل محتوياتها إنما هي منتسخة عن أصولها التي بالخزانة الملكية لكنها أخذت أرقاما تسلسلية أخرى وفق النظام المعمول به بالمديرية. وقد تمت الاستفادة من محتويات المحفظة رقم Th-47 ومن كنانيش أخرى سنبينها لاحقا. دون إغفال الرصيد الوثائقي المحفوظ بالمكتبة الوطنية بالرباط.

فما هي وثائق الأرشيف المخزني التي تم الاطلاع عليها واعتمدها في الدراسة؟

- المبحث الثاني، المواد المصدرية التي تم التوصل بها:

المطلب الاول، الوثائق :

من خلال المراجعات المتكررة والمتعددة للخزانة الملكية ومديرية الوثائق الملكية بالرباط، تمكنا من الاطلاع على مجموعة معتبرة من الوثائق المصدرية المتضمنة لمعلومات ووقائع هي من صميم قضايا المجتمع المحلي بالإقليم التادلي وجواره من قبائل الدير والجبل، وقد تم نسخ معظمها للاستعانة بها، فتحصل لدينا منها ما يزيد عن 300 وثيقة تم تصنيفها وترتيبها بمقتضى سياقات موضوعاتها وتواريخها بما يناسب الدراسة.

ومن جملتها مجموعة رسائل سلطانية صادرة منذ عهد المولى عبد الرحمن وخليفته سيدي محمد وخلفه الحسن بن محمد إلى فترة المولى عبد العزيز، وأخرى مستقلة من نفس المدد الزمنية واردة من طرف الجهاز الاداري المحلي. وتتميز المجموعة الاولى بوضوح اللفظ وجودة الخط، وانسجام ومتانة التعبير⁵³. ويظهر من صياغتها أنها حررت من طرف كتاب متمرسين لديهم مستوى ثقافي رفيع ودربة كبيرة في بلورة مواضيعها في صيغ من الافكار والتعابير بقصد توصيل معناها الدقيق للمرسل إليهم. أما المجموعة الثانية وهي على شكل رسائل وتقارير ترد من ممثلي المخزن بالقبائل والبوادي، فرغم البون الواضح في مستوى صياغتها وتعبيراتها مقارنة مع تلك الصادرة عن المركز، إلا أن خطابها هو الآخر لا يعدمه الوضوح في توصيل المقصود بتعبير بسيط هو أقرب إلى الثقافة البدوية منه إلى الحضرية، كما تتضمن كثيرا من المعطيات التاريخية

⁵³ من خلال استقراء للرسائل السلطانية على عهد المولى الحسن و المولى عبد العزيز انها أشبه ما تكون بتقارير مفصلة عن أطوار الحركات السلطانية يتم إرسالها في الغالب الى خليفة السلطان المولى اسماعيل و إلى عامل سلا و تمثل عنصرا توثيقيا في غاية الأهمية .

وتكشف عن مظهرات التدبير المحلي وكل ما يشغل اهتمامات المركز من جوانب شؤون السكان وتتبع سيرة ممثليه بالمجال. وقد تحصل لدينا منها ما وقع الاختيار عليه بما تبين فيها من معالجة موضوعاتها لقضايا تتعلق بالفترة المدروسة انطلاقاً من أربعينيات القرن التاسع عشر إلى نهايته.

المطلب الثاني: مميزات الوثائق :

تتميز نصوص الوثائق والرسائل التي أطلعنا عليها لا سيما الوارد منها على المركز بخاصية فريدة وهي ما تمتلكه من صفة الوثوقية والمصدقية. والمقصود بوثوقيتها لا يرجع فقط إلى أهمية وظيفتها الاخبارية ولا لدقة المعلومات التي يقف عليها المرسلون رغم تقديرنا بأن العمال والقواد لم يكونوا ليجهروا بما تقترب أيديهم من الجور والتعسف، خاصة عندما يتعلق الأمر بتنفيذ تحصيل الجبايات والضرائب، لكن ما نعينه بها، هو حرص هؤلاء الممثلون في مراسلاتهم على تجنب الوقوع في منزلق إخباري غير صحيح أوزيغ أو تحريف لقضية معينة قد توقعهم في المحذور والمساءلة، لذلك يبقى التقيد بمعطى النص هو الأصل في الدراسة. وتجدر الإشارة الى أن إثارة هذه الملاحظة اختصت فقط بنصوص الوارد من الرسائل على المركز، أما الصادر منها إلى الأطراف فإن محتواها يبقى بالضرورة عاكسا للتوجه العام لسياسة المخزن المركزي إزاء الاقليم.

ولا تقتصر أهمية هذه الوثائق على جوانب الإخبار والإبلاغ بعروض حال لما يجري في إيالات العمال والقواد فحسب، بل يمكن الحديث أيضا عن مميزاتا وتفردها في مجموعة من الخصائص ذات طبيعية تاريخية. منها ما تفصح عنه بيانات القوائم الحسابية لمداخل الصنك لبعض الأسواق غير البعيدة عن الاقليم التادلي، منها دمنات. وكذلك بما تورده من بيانات عن مصاريف الادالات ومداخل الجبايات ومقادير كلف المئونة بالقبائل التادلية.

وبما أن المجال لا يتسع لتعداد كل أصناف ومحتويات الوثائق، فإنه يجدر الاكتفاء بالتنويه بمستوى صياغة الرسائل والدرية الفائقة التي كان يتحلى بها كتاب المركز، وهم في أغلبهم ممن كانوا من النخبة الذين نهلوا من الثقافة الأندلسية، منهم خريجي جامعة القرويين ينحدرون من أصول أندلسية⁵⁴ ومنهم وزراء وكتاب تأليف ومؤرخين⁵⁵ وناظمي شعر⁵⁶. لذلك جاءت كتاباتهم الإدارية غاية في دقة التعبير، مما أعطى لهذه الوثائق جاذبية أدبية خاصة، شريطة تمكن الباحث

⁵⁴ من جملتهم الكاتب عبد الرحمن الشرفي.

⁵⁵ من جملتهم أكنسوس والذي كان يصيغ رسائل سلطانية وعقود البيعة. ثم الحسين بن الطيب بن الماني بوعشرين، و ابن ابراهيم السباعي الذي ساهم بدوره في صياغة بيعة السلطان الحسن الاول .

⁵⁶ أحمد الكرودي وعبد الواحد بن المواز ومحمد غريط ، وردت أسماؤهم في مؤلف هذا الأخير بعنوان فواصل المجان في أنباء وزراء وكتاب هذا الزمان.

من ضبط كثير من الألفاظ التي لم تعد اليوم متداولة لانتفاء شروط دواعي استعمالها⁵⁷، بالإضافة الى القدرة على تحمل قراءة المخطوط كونه مكتوب بأدوات ومواد طبيعية بسيطة. وأحيانا قد تصادف بعض المفردات والكلمات يلف خطها بعض الغموض أو أصابها طلاء المداد مع أنها ربما تأتي في سياق جملة لها أهمية ما يوقع الباحث في إشكال استفهامي.

المطلب الثالث: عقود البيعة و الرسائل المستقلة :

1- عقود البيعة:

تم تناول ما تيسر الاطلاع عليه من عقود بيعة السلطان الحسن الاول وأخرى لبيعة قبائل بني موسى وبني عمير وبني ملال وآيت الربع وبني زمور والسمايلة ووردية للسلطان عبد العزيز ورسائل بعض عمال المدن للإبلاغ بعقد البيعة الصغرى بمدنهم.

2- الرسائل المستقلة:

يقصد بالرسائل المستقلة كوثائق تاريخية هي الرسائل المخزنية المنفردة غير المستخرجة من الكناشات المخزنية يحمل الصادر منها توقيعاً سلطانياً. أما الوارد فمن خليفة السلطان أو العمال أو القواد. بعضها أصلي محفوظ وفق ترتيب وترقيم تسلسلي بمحفظات الخزانة الملكية بالرباط وبعضها منتسخ مطابقة لأصلها ومحفوظة أيضاً بمحفظات بمديرية الوثائق الملكية. ومن ضمن ما تمت حيازة نسخ منها الآتي :

2.1 الرسائل السلطانية والخليفة :

من بين الوثائق التي تم الاطلاع عليها أيضاً ونسخها، رسائل تعود الى السلاطين المولى عبد الرحمن والحسن الأول والمولى عبد العزيز، فهي ذات قيمة تاريخية وتوثيقية أشبه ما تكون بتقارير مفصلة عن نشاطات المحلات السلطانية التي تم تجريدها الى الإقليم التادلي. وعلى الرغم من ورود عدد من الرسائل السلطانية تعود للعهد المذكور لدى المؤرخ ونقيب الشرفاء العلويين عبد الرحمن بن زيدان، إلا أن التي تم نسخها عنيت موضوعاتها بالإقليم التادلي تحديداً كما أنها لم ترد في كتابيه الصولة والاتحاف الذين اطلعنا عليهما.

أما الرسائل المستقلة لخليفة السلطان عبد الرحمن ونجله سيدي محمد فقد اهتمت بعلاقة قائدين قويين زمانئذ بالمجتمع المحلي لتادلة، وتناولت طبيعة الصراعات التي كانت محتدمة بين القائدين احمد بن القايد ومحمد بن الطالب النتيفي.

⁵⁷ وردت في هوامش كتاب العز والصولة لابن زيدان كثير من الأسماء والألفاظ كانت تستعمل في الخطاب المخزني فقام بتوضيح المبهم منها وتفسير مدلولاتها.

2.2 رسائل ممثلي المخزن بالإقليم:

هي مجموع رسائل مستقلة، تم الاطلاع عليها ونسخها بالخرانة الملكية ومديرية الوثائق الملكية وأغلبها صادر عن قواد الاقليم التادلي بداية من النصف الثاني للقرن التاسع عشر. وقد عنيت مواضيعها بالحالة الامنية والسياسية والاجتماعية لتلك الفترة.

المبحث الثالث: الكنايش مكنز وثائقي :

قبل التطرق إلى هذا الصنف المصدري الفائق الاهمية كذلك، يتعين بداية التمييز بين الكنايش التي تضم بين دفتيها مختصر الرسائل المخزنية، الصادر منها عن المركز والوارد من الآفاق، وبين الكناشات الخاصة. فما هو وجه الاختلاف بين الصنفين؟

المطلب الأول: الكناشات الخاصة:

هي مجموع المدونات والدفاتر التي كان يسجل فيها مثقفي زمانهم ما يرغبون في تدوينه وكتابته. وتأتي على شكل نصوص وفقرات متباينة ومختلفة ليس بينها رابط لكنها تكون مفيدة جدا. لأن بعضها يتوفر على معلومات ونصوص تاريخية وقف عليها مدونوها قد لا نجد لها أثرا في الأصول الاستغرافية التقليدية.

وقد عرف العلامة محمد المنوني الكناشات أنها مجموعة من المخطوطات تشبه المذكرات يسجل فيها المعتنون مختارات ما يقرأون أو ما يسمعون وأحيانا يضيفون لذلك انتاجاتهم ومشاهداتهم وما جرى مجرى ذلك⁵⁸. ومن خصائص هذا الصنف من المصادر التي تتوفر الخزانة الملكية على اعداد منها، أنها تنفرد بإفادات تاريخية غير معروفة، وعن أحداث ووقائع دونها صاحبها في كناشه. كما تتضمن أيضا بعضا من اقتباسات من مؤلفات صارت اليوم في حكم الضياع. وقد اعتمد كثير من المؤرخين على الكناشات الموثوق بصحتها لإثبات حقيقة أو دحض شبهة. من بينهم جرمان عياش الذي اعتمد في دراسته حول الأزمة المالية بالمغرب بعد الاحتلال الاسباني سنة 1860 والتطورات المترتبة عنها على كناشات الوزير الطيب بوعشرين. وتنبغي الإشارة هنا، وباستثناء كناشة تتبع سفرات المحلات الحسنية لمجهول، فإن هذا الصنف المصدري لم نتناوله بالمطالعة ولا وقع بين أيدينا نموذجا آخر منها رغم ما تحوجه الضرورة للإستزادة من معين الأرشيف المخزني.

⁵⁸ المنوني محمد: قيس من عطاء المخطوط المغربي: دار الفكر الإسلامي ببيروت 1999. المجلد الأول الطبعة الأولى، ص: 245.

المطلب الثاني، الكنائيش المخزنية:

تختلف الكنائيش المخزنية باعتبارها من انجاز اداري مخزني عن الأولى من حيث الشكل والجوهر. فهي سجلات إدارية لها صبغة رسمية صادر انتاجها عن الدولة ويعود إليها. إنها وسيلة وأداة إدارية تم استحداثها بغاية حفظ محتويات المعطيات والبيانات والرسائل وغيرها. وقد كان استحداث الكنائيش المخزنية من ضمن مشمولات البرنامج الإصلاحى الذي استهدف المخزن المركزي إنجازَه، بغية تطوير وتحسين الأداء الإداري الذي عرفه المغرب منذ عهد السلطان سيدي محمد بن عبد الله، حيث ترجع إلى عهده أقدم الكنائيش. وقد مثلت بذلك أولى عمليات حفظ المراسلات، إذ كانت في السابق تلف بأشرطة وتخزن حيثما اتفق⁵⁹. إذ جرت العادة أن تبقى الرسائل والوثائق الواردة بحوزة وزير اوقائد جيش او عامل مدينة او قائد قبيلة، يحملها معه ضمن أغراضه إذا انتهت ولايته، فتبقى عرضة للتلاشي والتلف ومن ثمة تعرف طريقها إلى الضياع وتصبح موضوعاتها في طي النسيان دون أن يبقى منها أثرا لنسخة مطابقة لدى الجهاز الاداري يمكن الرجوع اليها عند الاقتضاء.

وتداركا لهذا الخلل، ومع تواتر تطور الاحتكاك بالتجار والأجانب الوافدين، ونظرا لما أصبحت تقتضيه ضرورة المعاملات الإدارية وحاجة المخزن إلى ضبط الشؤون المالية والجمركية، ورصد الواردات والصادرات بالموائى وأبواب الأسواق على الأقل من جانبها المالي والجبائي، فإن الضرورة الحسابية أصبحت تقتضي الوقوف عليها والرجوع إليها عند المراقبة والتحري. عندها ازدادت حاجة المخزن الى الاهتمام بصون وحفظ كل المستندات والرسائل والتقارير واللوائح الحسابية والبيانات والعقود والرسوم والظواهر وغير ذلك من نشاطات الجهاز المخزني عن طريق تعديد نسخ تلك الوثائق والمستندات بشكل مختصر أو مطابق لأصولها. فبإشراك ذلك كتاب متمرسون من ذوي المهارات الخطية.

وبذلك اقتضى العمل باعتماد سجلات توثيقية ستحمل اسم كنائيش تم ترتيبها وتصنيفها حسب موضوعاتها قبل أن تحفظ بعناية ضمن باقي الوثائق بمكتبات دار المخزن.

وكل كناش من تلك الكنائيش يتضمن اتجاها موضوعاتيا محددًا ومخصوصًا. فمنها ما يتضمن بيانات عن الجبايات والرسوم وخرص الغلال، ومنها ما تتعلق موضوعاتها بمصاريف وصوائر بيت المال، وأخرى بمداخيله ومنها ما عنيت بأملاك المخزن من عقار وإيطان ودور

⁵⁹ EL Abbassi Ali-Bey : les voyages d'Ali bay el Abbassi en Afrique et en Asis. Tome Premier impremerie de P. didot l'Aine Paris P-28.

وفدادين وأمراس وسواقي وأعدرة ومواشي ودواب وغيرها. فيما اختصت أخرى بتعيينات العمال والقواد والامناء، إلى غير ذلك... لكن العدد الوفير منها ما يجمع بين دفتيه ملخصات المراسلات المخزنية مع تصنيف الصادر منها إلى الأطراف بتوقيع سلطاني، وأخرى خاصة بالوارد منها إلى المركز.

ويبلغ عدد هذه الكنائيش المحفوظة بالخزانة الملكية 825 كنانشا حسب إفادة القائمين على إدارة الخزانة الملكية.

والحقيقة أن هذه الكنائيش تمثل بحق أداة مصدريّة غاية في الأهمية. إذ عني العديد منها بالقضايا المحلية للأقاليم والجهات، نظرا لارتباط مواضيع نصوصها وخطابها الداخلي بشؤون السكان والقبائل وعلاقتهم بالممثلين المحليين للمخزن. وتعكس في نفس الوقت أشكال التدبير المخزني وأسلوب الحكم المركزي تجاه القبائل في كل ما يرتبط بالأمن الداخلي، وتنفيذ سياسة الدولة الجبائية، من استيفاء الواجبات الشرعية والضرائب المستحدثة والتسخيرات إلى غير ذلك من سائر التوظيفات والكلف. كما تزخر إلى جانب ذلك بمعطيات حول الشؤون المحلية تهم قضايا اجتماعية وسياسية وعسكرية وأخبار دقيقة عن تحركات المحلات السلطانية والحركات الخلفية لا نجدها في غيرها من المصادر التاريخية الأخرى.

ولئن كانت الكنائيش إجمالا قد عرفت تطورا في أعدادها، وتدرجا في كثافة انتاجها ونسخها، فإن قسطا كبيرا منها مع الاسف الشديد قد أصابه التلف والاندثار. فقد أورد ابن زيدان شهادة غاية في الأهمية بهذا الموضوع بقوله: "وما عندنا بالنسبة لما غاب عنا قل من كثير، فإن الكنائيش المعدة لتقييد ذلك وضبطه من العصر الاسماعيلي إلى آخر الدولة العزيرية فرقته أيدي سبأ، كم أوقدت به من فرن وسخنت به من حمامات الشيء الذي تخر له الجبال هذا".⁶⁰

وما بقي منها تواترت أعدادها منذ عهد المولى عبد الرحمن ثم تضاعف على عهد السلطان الحسن الاول، الذي ما انفك يحرص على تجميع البيانات والمعطيات والمعلومات المتعلقة بأنشطة الأمناء وحركة تعاملات ومداخل المجابي بالمراسي والأسواق والأبواب. على أن هذه المهمة لم تعهد إلا لنخبة من العرفاء والكتبة تم انتقاؤهم بعناية ممن اتصفت سيرتهم بالصدق وعملهم بالمهارة والحنكة. ولعل ما نتبينه من الرسالة التي بعث بها السلطان الحسن بهذا الشأن إلى قاضيين بفاس ما يحمل على التأكيد مدى العناية الخاصة التي أولاهها المخزن لموضوع الكنائيش جاء

⁶⁰ : ابن زيدان عبد الرحمن : إتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس . تحقيق علي عمر، مكتبة الثقافة الدينية القاهرة 2008 ج 2 ط 1 ص 627

فيها: «الفقيهين الأرضين الخيرين الناسكين القاضيين السيد أحمد بن عبد الرحمن والسيد حميد بناني سدكما الله وبعد، نأمركم أن تعينوا عدلين من الخيار أولي المعرفة والحدق والتحري والصدق لتقييد جميع ما بالبنيفة الشريفة تمة، من كنانيش الخدم الشريفة بالمراسي وغيرها، بأن يقيدوا مضمن كل كناش على حدته، داخلا وخارجا، والمدة والزمان والمكان، وأسماء الأمناء وتاريخ الخدمة بدءا وغاية. ويثبت الكل بكناش خاص، ويقفوا على تحويز الكنانيش كلها لخزانة الكتب السعيدة على يد الخديم الشامي والعدل البلغيثي، والإعلام بالمثل بعد الفراغ صحبة الكناش المقيد فيه الجميع ولا بد»⁶¹. لا مرأ في أن نص الرسالة السلطانية واضح. فهي تدعو الى تجميع محتويات عدة كنانيش مع تصنيف الصادر منها والوارد كل على حدة ضمن كناش خاص.

فإذا كانت هذه الرسالة تظهر مدى اعتناء المخزن المركزي بموضوع تسجيل البيانات وتوثيق المعطيات، وحفظها في سجلات وكنانيش وضمها بعد الانجاز إلى خزانة الكتب بدار المخزن، فإن هذا يعني أيضا تقدير السلطان لأهمية الأرشفة وحفظ مكاتيب الدولة للعودة إليها وقت ما دعت الضرورة إلى ذلك. لكن المثير أيضا للانتباه هو اهتمام السلطان بتحري الدقة في التوثيق وتبيين المعلومة قبل تسجيلها، ما جعل من الكنانيش فعلا كمادة مصدرية، مخزونا ومكنزا وثائقيا وموثوقا ذو أهمية تاريخية كبيرة.

وبذات السياق، علينا التنويه أيضا بملاحظة من الأهمية بمكان. ذلك أن هذه الكنانيش لم تخضع من حيث الترتيب العددي والتسلسل الرقمي لما يوافق التتابع الكرونولوجي والتاريخي المسماة للتمرحل الحدثي ولا للخط الزمني. فمن المعلوم أن نظام الأرشفة المعاصر يخضع لقانون ترتيب السجلات والملفات والوثائق أما كرونولوجيا او باعتماد الترتيب الابددي. بينما نجد في نظام ترتيب الكنانيش بالخزانة الملكية عدم توافق تسلسل ارقامها العددية مع تواريخ محتوياتها. واختلاف ذلك يقع لأسباب ربما تعود الى مسايرة نظام الأرشفة الأصلي. فنجد على سبيل المثال الكناش رقم 172 تتناول مختصرات رسائله أحداث سنتي 1308 هـ و1309 هـ، في حين نعثر في كناش رقم 353 يضم مختصر رسائل تهم أحداث سنة 1300 هـ. وكناش 299 يتناول بيانات وقضايا تهم الجيش زمن السلطان سيدي محمد بن عبد الرحمن. بينما كناش رقم 151 يتضمن تعيينات القواد على العهد الحسني.

⁶¹ خ. م. ر. : كناش رقم 364 ص 185 ، رسالة سلطانية بتاريخ 28 ذو القعدة عام 1302 هـ

المطلب الثالث، نظرة موجزة حول ما طوع من الكنائش:

من خلال اطلعنا على 29 كناشا تمت الاستفادة من 14 منها، يختلف حجم ومقدار حمولة نصوصها من المعلومات التي تعنى بقضايا الاقليم التادلي وجواره من قبائل الدير والجبل من كناش إلى آخر، إلا أن أهمها كما تبين لنا بعد التنقيب والتحري والتدقيق ما احتفظنا ببعض محتوياتها. فقمنا إما بنسخ الكناش المقصود كلية بواسطة نظام الرقمنة من طرف القائمين على شأن الخزانة مشكورين أو بنسخ صفحات معدودة التي لنصوص رسائلها كذلك علاقة بالبحث. نورد فيما يلي تعريفا مختصرا بمحتويات الكنائش المعنية بالدراسة:

1 - **كناش 626** : عدد أوراقه 27 عن الفترة المتراوحة بين 1296هـ و1302هـ. غير مرقمة ولا متجانسة، طالها الإهتراء وبعض الخروم. ومن بين ما تضمنه، بيانات عن مونة الإدالة المخزنية المرابطة بزيان عن سنة 1299هـ.

2 - **كناش 353**: ويتضمن خلاصات الرسائل الصادرة عن السلطان الى جهات مختلفة من البلاد من بينهم ممثلي المخزن المحليون من عمال وقواد وأمناء وأعيان القبائل التادلية ومرابطي الاقليم لسنة 1300 هـ. وعددها 1617 رسالة مختصرة في 140 ورقة، تم نسخه كاملا. وعنيت مواضيع جل تلك المراسلات بنشاط المحلة السلطانية التي كانت بصدد الحلول بالاقليم صيف نفس السنة. كما أفادنا هنا الكناش فيما اولاه السلطان أثناء حوله بالاقليم التادلي من تدبير لعدد من القضايا - وقد صادف الحال القبطان الفرنسي إيركمان المعروف من ضمن ركب هذه المحلة حيث سجل هو الآخر في كتابه المعنون "بالمغرب الحديث" الصادر سنة 1904 بعضا من ملاحظاته في كيفية تعامل السلطان مع القبائل المتمردة. وقد أعقب مرور هذه المحلة التاريخية مباشرة، زيارة الرحالة الشهير شارل دوفوكوإلى الإقليم التادلي بداية خريف نفس السنة. حيث مكنتنا ملاحظاته وما سجله في زيارته للمنطقة من المقارنة بين تاريخ محلي قوامه خطاب ونشاط رموز الدولة وبين موقف رحالة أجنبي كان يراهن على مرحلة تاريخية يفسر وقائعها من منظور استخباراتي لفائدة مخطط ومشروع بلده.

3- **كناش 364**: يشتمل هذا الكناش على نصوص لرسائل متنوعة صادرة عن السلطة المركزية إلى ممثليها بالاقليم سنة 1302، وتناولت قضايا جبائية وأمنية.

4- **كناش 154**: يتضمن رسائل واردة من مختلف مناطق البلاد لسنة 1306 هـ الموافق لسنة 1889 م. وقد صادف تاريخ هذه الفترة حالة من توتر في العلاقة بين موحى اوحموززياني وقبيلة

آيت هودي من جهة وصراعات بين قبائل آيت الربع وآيت سري من جهة أخرى، فكانت موضوعا لعدد من الرسائل الى المركز، افادتنا في البحث.

5- كناش رقم 162: يتضمن مراسلات من المركز الى عمال وقواد الاقليم التادلي وجواره من قبائل الدير والجبل تم استنساخ منها ما يتعلق باستنهاض عدد من القبائل للتخيم مع المحلة الخليفة التي رابطت بالقصبة الزيدانية ربيع سنة 1307 هـ موافق 1890م.

6 - كناش: 634: تم نسخه كاملا، ويتضمن هذا الكناش عددا من الرسائل يفوق 600 رسالة في 46 ورقة، تحتوي نصوصا مختصرة لرسائل وارده على المخزن المركزي تفيد النشاط الجبائي وتحصيل المئونة طيلة إقامة المحلة الخليفة بالقصبة الزيدانية ترأسها نجل السلطان المولى العباس بقيادة المولى عثمان فيما بين شهر رمضان إلى شهر ذوالقعدة من سنة 1308 هـ. وقد افادتنا مختصراتها في الوقوف على نموذج من نشاط محلة خليفة خلال إقامتها بالاقليم ورصد علاقتها فيما بينها وبين قواد المنطقة وبين قبائلهم. كما أمدنا الكناش بوثيقة غاية في الأهمية وتعلق بالتقسيم الإداري لقبائل تادلا من منظور جبائي ولائحة بأسماء قوادها خلال الفترة المذكورة.

7- كناش 172: يحتوي هذا الكناش على 136 ورقة، تضم 5027 مختصر مكاتيب التوقيع السلطاني، في المدة المتراوحة بين سنتي 1307 هـ و1308 هـ. تتطوي على موضوعات كثيرة ومتنوعة، أهمها مواكبة سير الحملة العسكرية التي باشرها السلطان تحت قيادة وزير الحرب محمد الصغير إلى جانب موحى اوحمو الزباني وابن المودن السراغني ضد قبائل آيت سخمان عقب وقعة الغدر بالشريف سرور. وقد مثلت رسائل الكناش مصدرا غاية في الأهمية تسمح بالوقوف على وقائع وأحداث تاريخية لم نعثر عليها في جل المصادر التاريخية. بالإضافة إلى التحركات الميدانية للمحلة الخليفة بالقصبة الزيدانية واستنهاض عمال وقواد القبائل الجيشية والنائبة للمشاركة في الحملة العسكرية.

8- كناش 151: يضم هذا الكناش بين دفتيه مجموعة من اللوائح بأسماء القواد المعنيين مع تحديد ايالاتهم ووحدات اقسامها وتاريخ التعيين أو تزكيتهم لمواصلة خدمتهم في الاعمال المخزانية فيما بين سنتي 1308 و1310، وقد همت تعيينات القواد عدد لا يستهان به من إيالات الاقليم التادلي سهلا وديرا وجبلا.

9- كناش 634: ويشتمل على ملخص لرسائل سلطانية الى مختلف الاقليم والجهات عن سنة 1308 هـ وقد همت قضايا متنوعة استفدنا منها في يتعلق بدعوة السلطان قواد القبائل التادلية الى

شد عضد بعضهم البعض بغاية جمع المونة لفائدة العسكر والجيش والاستعداد لاستقبال المحلة السلطانية القادمة في الاثر.

10- **كناش 468**: به كشف و خلاصة مكاتيب من توقيع السلطان في المدة المتراوحة بين سنتي 1308 و 1309. ويضم 5304 مراسلة في 183 ورقة. هذا الكناش عنيت جل رسائله بقضايا منطقة الريف والحيانية والتسول. لكنها تتضمن أيضا مختصر مراسلات كلا من القائد موحى اوحمو والقائد ابن هم اليراوي وموحى اوسعيد اليراوي بشأن علاقتهم مع قبائل آيت سخمان والوشايات والمنافكات الحاصلة بين الأخيرين.

11- **كناش 694** : يعتبر هذا الكناش من بين آخر الكناشات المنجزة على عهد السلطان الحسن الاول. يشتمل على 142 ورقة فيما لا يقل عن 5000 خلاصة لرسائل سلطانية صادرة الى جهات واقليم متعددة أواخر سنة 1311 هـ. من بينها ما هو موجه للقائد موحى اوحمو واخرى للقائد موحى اوسعيد اليراوي. ورسائل أخرى بشأن استخلاص المونة من قبائل تادالا.

12- **كناش B-011** ويعود لمديرية الوثائق الملكية بالرباط ويتضمن ملخص لرسائل سلطانية الى مختلف الجهات عن سنة 1301 هـ. أما رسائله المتعلقة بالإقليم التادلي فإنها قليلة العدد. فيها ما يخص ترحيل أسرة من أولاد زيدوح للسراغنة لقيام افرادها "بالخوض والوسوسة" ببني موسى، ومنها ما يتعلق بفرار من الخدمة الجيشية لبعض الافراد من آيت الربع.

13- **كناش 624**: يعود تاريخ ملخصات هذا الكناش الى سنة 1315 هـ الى فترة الحكم العزيزي يتضمن بيانات عن مساجين من بني موسى وآيت الربع الذين تم حبسهم أثناء الحركة العزيزية الى الاقليم التادلي نفس السنة. وقد تم استنساخ الورقات المتعلقة بلوائح أسمائهم وبيانات عن أوصافهم، والمتوفين منهم.

14- **كناش رقم 432**: يعود الى نفس الفترة أعلاه ويتضمن رسائل تتعلق بالإقليم التادلي بين سنتي 1315 هـ و 1316 وتمت صياغتها بنفس الطريقة التقليدية.

بقيت الاشارة الى أن الكناش رقم 298، عدد أوراقه 101 عن سنة 1284 و 1287 والكناش رقم 299، عدد أوراقه 173 عن سنوات 1284 و 1287 وتعنى بيانات هذا الاخير بشؤون الجيش على عهد السلطان سيدي محمد، وبعد مراجعته الا اننا لم نتمكن من العثور فيه على ما يفيد الاقليم التادلي.

المبحث الرابع، المخطوطات:

- مخطوط الروضة السليمانية للمؤرخ أبو القاسم الزياني: عاصرت أحداثه عهد السلطان سيدي محمد بن عبد الله وقسطا من عهد السلطان المولى سليمان. أصل لتاريخ كثير من الاحداث والوقائع وأحوال المجتمع المغربي على العهدين وأخذ عنه ليس قليل من مؤرخي القرن التاسع عشر.

- مخطوط الابتسام⁶² عن دولة ابن هشام وديوان العبر في أخبار الثالث عشر، مخطوط لا يحمل اسم مؤلفه وان كان يرجح أنه يعود لكاتب يحمل اسم إدريس أبي العلاء أحد كتبة الوزير محمد بن ادريس زمن المولى عبد الرحمن حسب دراسة واستنتاج ذ عبد الهادي التازي من دراسته للمخطوط⁶³. به معلومات تاريخية قيمة ومواضيع متنوعة تنتقل من أحداث تاريخية أواخر عهد المولى سليمان الى فترة حكم المولى عبد الرحمن، بل عايش كثيرا من الوقائع خاصة فيما يتعلق بالعلاقة مع الامير محيي الدين الجزائري وتدبير العلاقة مع فرنسا . كما تحدث فيه عن مسغبة شديدة عرفها المغرب سنة 1240 حيث غلت فيها أسعار الخبز والدقيق وصار " القمح يجلب من أرض مصر ومن بر إفريقية ومن الموسك "⁶⁴ أي ما يعرف بروسيا أو أوكرانيا حاليا. ثم عن تفاصيل رحلته من فاس إلى مصر عبر منائي طنجة ومالطة فجاءت مذكراته غاية في الأهمية والتشويق.

- مخطوط البستان الجامع، لابن ابراهيم السباعي: وهو مؤلف يتميز بمستوى ادبي ولغوي رفيع جدا، ويتأرجح تصنيفه بين الادب الرحلي والتوجه التاريخي. فقد عاصر العهد الحسني ورافقه في عدد من رحلاته وصاغ كثيرا من قصائد المدح للسلطان في مناسبات كثيرة منها تمهيده لبني مكيد وغيرها. بل كان يعتبر من بين النخب المقربة من الدوائر المركزية، ومن جملة الفقهاء الذين ساهموا في صياغة عقد بيعة السلطان المذكور. وله إشارات عديدة عن الاقليم التادلي.

- مخطوط رقم: 12059: هو كناش وان كان لا يدخل ضمن الكنايش الادارية المخزنية ولا علاقة له بقضايا التدبير الاداري ولا بسير النظام المخزني ولا يحمل حتى اسم صاحبه، بل يمكن تصنيفه ضمن التأليف الرحلية. وقد تطرق صاحبه في أوراقه المحسوبة على رؤوس الأصابع

⁶² ورد فيه : ان البرابر آيت ا ومالو وزيان و اشقيرن و بني مكيد سكنوا قواصي الجبال و قنعوا بقليل العيش فرارا من الجيش ورقة 68. وانه في عام 1242 ه كان من أخصب الأعوام وجاء بعد فترة جفاف ومسغبة ورقة 82.

⁶³ التازي عبد الهادي: (الابتسام عن دولة ابن هشام لابي العلاء ادريس) مجلة المناهل عدد 36 خاص بمؤرخي الدولة العلوية يوليو 1987 ص 91 و ما يليها .

⁶⁴ ابي العلاء إدريس: مخطوط الابتسام عن دولة ابن هشام أو ديوان العبر في اخبار الثالث عشر. المكتبة الوطنية H114، ورقة 81

وبشكل دقيق الى مراحل المحلات السلطانية ورصد المسافات الرابطة بين عدد كبير من المواقع والاماكن بالاقليم التادلي بالدقائق والساعات وليس بالقياسات المراحلية التقليدية، إلا أن معلوماته شكلت إضافات نوعية خاصة فيما يتعلق بالتقسيمات الادارية لعدد من الاقاليم منها التادلي.

- مخطوط مشتهى العقول ومنتهى المنقول وعناية الاستعانة في حكم التوظيف والمعونة

للفقيه، السملالي علي السوسي : إضافة الى تناول المخطوطات السابقة ذات الطابع التاريخي وما يتعلق بمساراته الحديثة بالدراسة والتنقيب علنا نعثر على ما يفيد منها بإشارات عن تاريخ المجتمع المحلي لتادلا، فان ورود المخطوط المذكور كانت له اهتمامات اخرى من نوع مختلف وتتعلق باجتهادات فقهية حول اهمية الجباية والمكوس والضرائب في تدبير شؤون الدولة. وقد تم تأليفه بناء على رغبة من السلطان الحسن الاول في ظل وضعية اقتصادية ومالية جد متأزمة وظرفية مع دول اوروبية متوترة. والحامل عليه اقناع العلماء والرعية بالتصور المخزني في معالجة قضاياها الجبائية وأنواع المكوس، ليمتد مفعول ذلك على باقي الاقاليم والحواضر.

المبحث الخامس، مصادر الاستوغرافيا التقليدية:

عنيت الكتابات التاريخية في جل المصادر والتأليف التقليدية في العصر الحديث اهتمامها بالحكم المخزني بالمغرب وعلاقته بالقبائل، وبالوسائل التي كانت تمكنه دوما من إخماد ثوراتها وتمرداتها واعادة ربط كياناتها باللحمة المجتمعية بالمغرب، وهي حركات نجدها تكرر في التاريخ بشكل رتيب في جل المصادر. بل كانت الوقائع احيانا تتردد في التأليف متشابهة ومن مؤرخ عن آخر. إلا أنه كان يجمعها قاسم مشترك هو انتماء مرجعية اصحابها الثقافية والذهنية لأهل الحضر والمدينة. لذلك عبرت إشاراتهم في مرات ليست قليلة عن موقفهم من حياة أهل البادية ووسمها بشظف العيش واقتصاد القلة والعنف والخشونة. وهو ما نجد صداه يتردد لدى أحد فقهاء الوقت من أهل الحضر المعروف بعلي السملالي السوسي حينما أورد في مؤلفه مشتهى العقول في فصله الثالث من الباب الثاني ما يلي: « [...]حكم قبائل الزمان وقبل هذا الزمان بكثير من الاوان، فهم فساد وسراق وغصاب وحامون وكاتمون للفساد وأهل اغتصاب»⁶⁵. لذلك نجد اهتمامهم بشؤون القبائل يكاد يكون ضئيل جدا، ولا يبرز ويطفو تاريخها وحياتها الا عند تجريد المحلات السلطانية الى مناطقها. حتى بات الملمح العام الذي انطبعت به حياة البوادي بالمغرب حسب متون المصادر التقليدية لا ترد سمتها الا بمسحة العنف والتمرد والتنطع. والحال أن جل

⁶⁵ السملالي علي السوسي : مخطوط مشتهى العقول ومنتهى المنقول و عناية الاستعانة في حكم التوظيف و المعونة . نسخة الكترونية مستخرجة من خزانة الملك سعود الدار البيضاء ورقة 4 .

الرسائل الصادرة عن المخزن المركزي قد انشغلت كبيرين بالجوانب التنظيمية والجبائية وتجميع المئونة وفرض الكلف وحشد محاربي القبائل بالبوادي.

إن الميولات الثقافية للمؤرخين في هذه الفترة، وانتقائهم من وقائع العنف والتمرد بالبوادي ما يصيغون بهم تلك الميولات، لا تجعلنا ننساق وراء هذا التوجه، فدفاع العالم المقنن الحسن اليوسي على سبيل المثال، عن ثقافته البدوية قد توفق بشكل كبير في إقناع أئداده من أهل الحضر المتربصين به الدوائر، في مدى ما يمكن أن تتجبه البوادي من علماء ومفكرين ويمنح خلاصة، أن تاريخ مجتمع البوادي غير مفارق ولا منفصل كلية عن الحواضر، بقدر ما كان تأثيرهما متبادلا ومتاخلا، إن لم يكن التقاف البادية بالحاضرة مثل الطوق أو التقاف السوار بالمعصم.

صحيح أن المصادر التاريخية لم يكن بإمكانها أن ترصد كل دقائق وتفاصيل الحياة المحلية للقبائل منها التادلية وعلاقتها بالمخزن. إذ تركزت غالبيتها على إثارة أحداث ارتبطت بالسياسة العامة للدولة، تجلى منها حركة التنقلات السلطانية عبر ترابه واستهدافها لقبائله طيلة القرن التاسع عشر. إلا أنه بات من الضروري الاعتماد على ما ورد فيها بل يمكن القول أنها كثيرا ما تسد بعض الفراغات والثغرات في مواجهة التقطعات الحاصلة في النصوص الوثائقية للإرشيف المخزني. وبناء على ذلك فإن المنهجية المعتمدة لتفكيك إشكالية البحث ورغم ارتكازها بالأساس على المادة المصدرية التي هي وثائق الإرشيف المخزني إلا أنها لا تستقيم دون استحضار متون المصادر التقليدية الوطنية.

لقد أدرك الباحثون والدارسون الأجانب ما للقيمة الفضلى لتلك المصادر للتعريف بتاريخ المغرب وبأحوال البلاد، وبتطور بنياته الاجتماعية ورموزه الفكرية والعلمية والأدبية منذ القديم. لذلك سعوا منذ البداية إلى تجميع كل ما طالت أيديهم منها. فعملوا على دراستها وترجمتها وحتى تحقيق بعضها، والاستفادة من نصوصها وتفكيكها وفق منهجية لم تكن معروفة إلى ذلك الحين لدى الفقهاء والعلماء بالمغرب.

المبحث السادس، دراسات اجنبية حول بعض قبائل الاقليم ومشاهداتهم رحلية :

لم يقتصر دور الاجانب من الباحثين على هذا الجانب من الكشف الاستوغرافي، بل تمكنوا من إنجاز دراسات ميدانية ومونوغرافيات بعدد من المناطق التادلية وتآليف رحلية سواء بالمناطق السهلية او الجبلية منذ المنتصف الثاني للقرن التاسع عشر وطيلة النصف الثاني من القرن العشرين

تحت غطاء أهداف تجارية أوطبية⁶⁶ أو استكشافية⁶⁷. فكان من أشهرهم ما سجله شارل دوفوكو والماركيز دي كونزاك وايدموند دوتي وهنري باسي وايميل لاووست، بل منهم من كان في مهمة دبلوماسية مثل ايتيان ريشي⁶⁸ الذي قام برحلة من طنجة الى مراكش عبر فاس ومكناس وتادلة.

لقد تحقق في المجمل على ايدي نخبة منهم كثيرا من الدراسات السوسولوجية كان من أبرز روادها الفرنسيين، إدوارد ميشوبيلير وجورج سالمون، حدث بهما الى تأسيس وترأس البعثة العلمية الفرنسية بمدينة طنجة سنة 1904م. حيث ضمت الى جانب تلك الدراسات تجميع عدد من البحوث والدراسات أطلق عليها اسم "الأرشيف البربري" و"أرشيف المغرب". وقد تم فتح مؤسسة وطنية حديثا بمدينة الرباط أطلق عليها أرشيف المغرب تضم كما هائلا من الوثائق والدراسات على عهد الفترة الكولونيالية منها مجلدات C.H.E.A.M⁶⁹ الى جانب ما تحتفظ به المؤسسة من الارشيفات والتقارير الادارية. والبحوث وكتب قيمة حول المغرب.

راجعنا مرات عديدة هذه المؤسسة، وتم الوقوف على كثير من الوثائق والدراسات منها ما تم استنساخه من قبيل مونوغرافية تهم قبيلة آيت أم البخت التي انجزها القبطان الفرنسي شانشير وبما أن موضوع الإشكالية التي نحن بصدد الإجابة عنها تتعلق أطوارها بمرحلة ما قبل الحماية، فان تحرياتنا المكتبية بارشيف المغرب انصبت فقط على ما يتعلق بعدد سكان الاقليم التادلي ونسبة كثافتهم الديموغرافية بالمجال مكنتنا من أخذ فكرة عن أعدادهم، وانتشارهم بمدنه وقراه وقبائله. وهوما تم الحصول عليه من خلال ما تخلف من عملية تعدادهم⁷⁰ من طرف الحماية بداية العشرينيات من القرن المنصرم.

وإذا كانت حصيلة عملية التعداد قامت على قاعدة بسيطة لا تتجاوز نسبة عدد الرجال والنساء والاطفال والمساكن، فإننا اعتمدناها في الدراسة نظرا لقرب هذه العملية زمانيا من فترة المنتصف الثاني للقرن التاسع عشر، وبالتالي فإن المتغير العددي للسكان لن يكون كبيرا.

⁶⁶ P. Chatinieres : Dans le grand atlas Marocain, Extraits du carnet de route d'un médecin d'assistance médicale indigène, 1912/1916 librairie plan , Paris .

⁶⁷ P. LOTI : AU MAROC , éditeur calmann levi .Paris

⁶⁸ Etienne Richet : Voilage au Maroc , edition LIGARAN 2015 ,chapitre 21, et pages suivantes

⁶⁹ Centre des hautes Etudes d'Administration Musulman .

⁷⁰ عثرنا في الوثائق المتعلقة بعدد سكان الاقليم التادلي فيما اطلقت عليه ادارة الحماية بعملية: « dénombrement de 1921 » اي تعداد، وليس إحصاء Recensement، لأن الأمر اقتصر فقط على تعداد السكان من حيث عدد الرجال و النساء و الاطفال و المساكن و عدد الاقليات اليهودية و الاجانب و بعض المهن دون التطرق الى باقي المكونات الاخرى من املاك و مساحات مزروعة و عقار و مواشي و مؤشرات مستويات الصحة و التعليم و العيش و الاستهلاك و تفاصيل أخرى .

نستخلص من كل ما سبق، أن بحثنا في موضوع التدبير المخزني للمجال التادلي وما اليه من قبائل الدير والجل فترة المنتصف الثاني من القرن التاسع عشر يتأسس في المقام الاول على ما اعتمده من وثائق الارشيف المخزني كمادة مصدرية لمقاربة الاشكالية، على ان تكون المصادر التقليدية وبعض مستندات ارشيف المغرب من بين مقومات المادة المصدرية. لكن علينا في البداية الاجابة عن السؤال التالي: ما هي الخصائص الاساسية التي قام عليها التدبير المخزني للمجال في تواصله مع ممثليه المحليون؟ و ماهو دور تلك الوسائل في تتبع شؤون الاقليم ومساهمتها في إنفاذ سياسته التدبيرية؟

الفصل الثالث، المراسلات المخزنية بين وسيلة للتواصل ووظيفة للتوجيه

- المبحث الاول، النخبة وإنشاء الخطاب.
- المبحث الثاني، مواصفات وخصائص مطلوبة في الكتاب.

الفصل الثالث

المراسلات المخزنية بين وسيلة للتواصل ووظيفة للتوجيه.

تتبدى كثافة الحضور المخزني بالإقليم التادلي وما إليه من قبائل الدير والجبل من خلال ما كان يعتمد عليه المركز من وسائل تكرر حضوره وتجسد نفوذه. وتتمفصل القيمة الاجرائية لهذه الوسائل والادوات فيما تكتسبه من دلالات القوة والفعل في إنفاذ خدام المخزن بالإقليم التادلي للأوامر والتوجيهات بما هو عنصر أساسي ووسيلة لا تعدمها أهمية، تمكن من ربط هؤلاء بالمخزن المركزي بوشائج من التواصل والتخاير لا تنقطع أبدا. ألا وهي الرسائل وتبادل الخطابات التي تتبلور عبرها انماط التدبير المجالي وتشد المحلي بالمركزي والعكس صحيح. وتمثل المراسلات إحدى أوجه وعلامات الحكم المخزني. إذ بواسطتها تنقل المعلومات، وعن طريقها يتم الفصل في القضايا المطروحة وعبرها يتم توجيه الاوامر والتعليمات، كما تدبر بموجبها الشؤون المحلية للقبائل بتوجيه مركزي خاصة في القضايا الكبرى. وتتحدد بهذا المعنى صورة الرسالة المخزنية كمفهوم يتجلى من خلال مسطورها، طرق التدبير ونمط الحكم، ومنهجية تسيير الامور وتقدير المواقف. انها وسيلة من وسائل الحكم المخزني، لها بالضرورة سلطة مادية ومعنوية. وظيفتها ربط الهوامش بالمركز والمركز بالهوامش.

على ان طابع مضمونها الإلزامي من لدن المركز، يحمل المرسل اليهم بالجهات والاقاليم على التنفيذ وتحويل مضمون خطابها الى الفعل. وتبقى لرمزية الخطاب بما هو صادر عن الجناح الشريف مسنودا على الدوام بدرجة من التقدير، فضلا عن أن توقيعها يمثل علامة تتخطى الحروف والكلمات. وتوضع الرسالة عادة في مقام التبجيل كونها صادرة عن السلطان الذي يخاطب القواد والمرسل إليهم بخدامنا الأرضون. والخديم في الخطاب المخزني هو من يقوم بوظيفة خدمة الدولة وينفذ الأوامر المخزنية. ففي جواب القائد احمد بن القايد السراغني الذي امتد نفوذه الى الاقليم التادلي ما ذبحه في إحدى رسالته الى السلطان « [...] وبعد، فقد ورد على الوصيف أمر مولاي الشريف أعزه الله وقبلته وعلى الرأس والعين وضعته...»⁷¹. وطقس تقبيل رسالة السلطان ووضعها على الرأس إنما هو دلالة رمزية تعبر عن مستوى الاحترام والتقدير لخطاب أمير

⁷¹ م. و. م. ر. ح : محفظة 47 TH رسالة غير مرقمة تحمل تاريخ 1850/08/01

المؤمنين ذو النسب الشريف⁷². وفي نفس الوقت إشارة على إظهار الولاء والطاعة وتنفيذ كل ما جاء في فحواه.

وإذا كان المركز المخزني حريصا اشد ما يكون الحرص على استدامة التراسل بينه وبين ممثليه بالأطراف، فإنما يعني ذلك توفره على جهاز اداري قوي، له وظائف ونظام ومهام منوطة به، ويكتسب آليات اشتغاله من النسق التدبيري المخزني في ارتباط وثيق في صيغ تخاطبه ومستويات عمله برأس هرم السلطة، لا يحيد قيد انملة عن مركزية القرار والتوجيه المباشر.

وقد عرف الجهاز الاداري تطورا بطيئا وبوتائر متفاوتة ومعه منسوب أعداد الرسائل. فالى بدايات القرن التاسع عشر، لم يكن يتخطى مكون الجهاز الاداري مجموعة قليلة جدا من الكتاب لا يملكون من أمر عملهم غير إعادة تحرير الرسائل السلطانية تبعث الى عمال الاقاليم. إذ لم يكن يضم الديوان من عدد الكتاب زمن المولى سليمان سوى سبعة⁷³.

ويعود سبب قلتهم، كون عدد العمال وزعامات الاقاليم والجهات الموجهة إليهم المراسلات من المركز لم يكن اعدادهم كبيرا. فالإقليم التادلي على شفاعته وتعدد قبائله على العهد السليمانى لم يكن إلا تحت نظر عامل واحد. فضلا عما يمكن استنتاجه من انفراد المولى سليمان ووقوفه الشخصي على توجيه خطاباته وإحاحه الصارم على تقيد الكتاب بالنقل الحرفي لرسائله التي يملئها او يخطها بنفسه، إنما يعود الى سياسته الاحترازية ومركزة قراراته السياسية على مستوى كل الدوائر المخزنية وبتوجيهه وإشرافه الشخصي، إمعانا منه في الحرص على حفظ المصالح العليا وضبط تصريف شؤون البلاد والسهر على تدبير أمورها وفق نظره.

وباستثناء حالة واحدة وقفنا عليها فيما ذكره الضعيف الرباطي حينما "وجه السلطان القائد ادريس بن الغازي واعطاه عدة من بطاقات الكاغيط مطبوعين بطابع السلطان من غير كتابة ليقضي بما ظهر له ويكتب تحت الطابع بما أراد، وذلك تفويضا من السلطان"⁷⁴. ومن أسباب ذلك هوأن القائد المذكور، كان أثيرا لدى السلطان الى المستوى الذي جعله يتحسر كثيرا على وفاته بوباء الطاعون. وذكر الضعيف "ان السلطان بكى عليه بالدموع"⁷⁵

وقد كتب المؤلف أبو العلاء إدريس في مخطوطه "الابتناسام" يصف فيه الإشراف الشخصي للسلطان على صياغة رسائله بالقول: " ويسود الرسائل بيده، ثم يدفعها للكتاب فيعيدونها بخطهم،

⁷² يقول عبد الله العروي في كتابه مفهوم الدولة ص 102: "امير المؤمنين بالمعنى التام هو الرجل الذي ينبذ الخمول والتراخي".

⁷³ Eugene Aubin : OP-CIT ; P ; 220

⁷⁴ الرباطي الضعيف : (م.س) ص 316

⁷⁵ الرباطي الضعيف: نفسه ص 317

ولا يستجري أحد منهم أن يزيد أو ينقص، حتى اذا وجدوا لحنًا أو تصحيفا تركوه خوفا منه، وتارة يطول في رسائله وتارة يقصر فيها ويختصرها، وذلك حسب حاله ونشاطه، وخطه صعب لا يكاد يقرأه غيره" ⁷⁶.

لقد اشتهر المولى سليمان بالسلطان العالم، وهذه الخصلة الفريدة كانت كفيلة بان تجعله في استغناء عن توسيع دائرة مساعديه خاصة منهم الكتاب. وقد أكد محمد غريط على ماجاء في الابتسام بقوله: "لم تكذ تظهر لوزير معه سياسة، ولا استقلال برياسة. حتى أنه كان يقيد المبيضات ببنانه فتكتب بمحضره على وفق نظره، ومن أتى بأيسر تغيير شدد عليه النكير" ⁷⁷.

ومن المناسب القول في هذا الصدد، ان الفضاء الذي كان يشتغل فيه الكتاب لم يكد يشهد تغييرا كبيرا منذ بداية القرن التاسع عشر الى العهد الرحماني. فقد لاحظ الرحالة علي باي العباسي أثناء إقامته القصيرة بمدينة طنجة سنة 1803، في وصفه المقتضب حول تجهيز مكتب القائد " [...] لا توجد بالمكتب طاولة ولا ربادئ أو أرشيف، ولا حتى سجلات تحفظ بها التعليمات المنقولة الى القائد، إلا من محبرة وأقلام من قصب وقصاصات أوراق صغيرة متناثرة " ⁷⁸.

وقد امتدت مركزة كتابة الرسائل الى عهد المولى عبد الرحمن وإن عرفت في أواخر عهد حكمه نوعا من التطور وكثافة في التحرير بالنظر الى تعدد القضايا داخليا وخارجيا. فقد اورد الكاتب أبو العلاء ادريس في نفس مؤلفه ما يؤكد على اقتصار كتابة الرسائل على الدائرة المقربة جدا من السلطان فيما ذكره عن وزيره ابن ادريس بالقول: "وما رأيت اصبر منه على الكتابة ولا أسرع منه في الانشاء. فإذا حدث له الامر من السلطان بكتاب، شرع في تبويضه فيسوده في أسرع حال، ثم يدفعه للكتاب فيعيدونه بخطهم [...] فيعرض على السلطان ما عنده من الشكايات والمطالب ويقيد الاوامر ويخرج للتنفيذ، ربما خرج بثلاثين كتابا او أزيد فيكتبها كلها ويدخل بها لتطبع، فلا يرد منها كتاب واحد." ⁷⁹

الا انه على العهد الحسني، سيعرف الجهاز الاداري طفرة نوعية، ليس فقط على مستوى تحسين أداء عمل الكتبة ومضاعفة أعدادهم، بل تساقق أيضا مع تزايد الاحتكاك مع الاجانب

⁷⁶ ادريس ابي العلاء : مخطوط سابق ورقة 17.

⁷⁷ غريط محمد : فواصل الجمال في انباء وزراء و كتاب الزمان ط1 المطبعة الجديدة فاس 1346 ص 08

⁷⁸ Abbassi Ali-Bey : les voyages d'ali baey el abbassi en afrique et en asie ; tome premier , imprimerie de p.didot l'aine, Paris

⁷⁹ ادريس ابي العلاء : (مخ س) ورقة 107.

* الباشادور لفظ يتردد كثيرا في المصادر التاريخية التقليدية و يطلق على موظفو الدول الاوروبية في تمثيلها بأعلا مستوى و يقابله في اللفظ الفرنسي : L'ambassadeur

الاوروبيين من باشادورات* وقناصلة وتجار من جهة، وبتزايد أعداد القواد مع ما صاحب ذلك من تقسيمات إدارية لإيالاتهم، فكان من المنطقي ان يؤول الجهد الإداري الى ارتفاع.

المبحث الاول، النخبة وإنشاء الخطاب:

المطلب الاول، ديوان الكتابة:

يصنف المؤرخ محمد أكنسوس، الكتابة بالدواوين السلطانية أنها من أشرف المراتب المخزنية، "توقف الجميع عليها وعدم قيام شيء منها بدونها"⁸⁰. كما جعل كاتب التدبير الذي هو كاتب السلطان في أعظم مراتب الكتاب، "وخطه الديوان لا خطة فوقها بعد الوزارة فهم لسان الدولة ويمينها وبهم تتم نخوتها وشهرتها وتفخيمها"⁸¹.

يفهم من هذا ان كتاب الديوان يعتبرون من النخب المخزنية، اعتمدهم المخزن كموظفين يضطلعون بمهام إدارية، من صياغة وتحرير للرسائل والتقارير وإعداد الاستدعاءات والتهنئات وغيرها، فتأتي إنشاءاتهم في أوضح بيان وأبلغ تعبير.

وإذا كان ديوان الكتاب، يندرج ضمن الجهاز الإداري المخزني، فإنه قد نال بدوره حظا من التطور والإصلاح في عهد السلطانين سيدي محمد وخلفه المولى الحسن. حيث عرفت الدواوين تطورا في أعداد الكتبة، لما أصبحت تفرضه مصلحة تدبير شؤون البلاد من ضرورة توسيع العمل الإداري، ليس فقط على مستوى تحرير الرسائل، بل تعداه الى مواكبة ما أصبحت تستوجبه ضرورة تنظيم وضبط الشؤون المالية من تسجيل للمستخلصات الجبائية ومداخل بيت المال من صاكة المراسي وأمكاس الأبواب، ومصاريف الدولة، ومستلزمات الجيش وغيرها. فبات من مهام الكتاب فضلا عن تحرير الرسائل على كثرتها وتنوع مواضيعها، تثبيت كل المعطيات من هذا القبيل وتسجيلها بكنائش وسجلات معدة لهذه الغاية بقصد الحفظ.

لكن ما هي الوسائل والأمكنة والظروف التي يشتغل فيها هؤلاء الكتبة؟

المطلب الثاني، البنيقة:

عرف ديوان الكتاب في الأدبيات المخزنية باسم البنيقة. وإذا لم يكن بوسعنا التحقق من أصل هذه التسمية، الا انها تدل في اللسان الدارج على المكان الضيق والقصي من البيت، ما يوحي انه لفظ قديم كان يعتبر فيه مكان الكتابة بدار المخزن، لا تمثل مكانة موقعه ضمن دوائر المخزن الا ثانويا مقارنة مع مواقع كبرى لباقي المؤسسات.

⁸⁰ الكنسوسي محمد: الجيش العرمرم في دولة اولاد مولانا علي السجلماسي. تحقيق احمد بن يوسف الكنسوسي ج 2، المكتبة الوطنية مراکش، ص 189

⁸¹ الطيب اليمني بوعشرين: التنبيه المعرب عما عليه الآن حال المغرب دار النشر للمدرسة ط 1 1994 ص 38

وحتى نقرب أكثر من معنى اللفظ العربي كما جاء في لسان العرب إذا ما رمنا مجاورة جذره للفظ المخزني التقليدي فإننا نعثر له على تعريف اشتقاقي وليس مكاني:

- بنق كلامه جمعه وسواه. ومنه بنائق القميص أي جمع شيئا إلى شيء.

- بنق كتابه إذا جوده وجمعه.

- والبنيق: رقعة تكون في الثوب كاللبنة ونحوها، كل رقعة تزداد في الثوب ليتسع. وإذا أريد ضمه ادخلت أزراره في بعضه وضم الصدر إلى النحر.

- والبنيقة طوق الثوب الذي يضم النحر وما حوله⁸².

يفهم من اللفظ عموما تجويد الشيء وضمه إلى بعضه البعض. على أن البنيقة كإسم مكان، فهي تشير إلى ما تختص به من شؤون الكتابة بدار المخزن. وأهي مجموع المكاتب التي تضم كتابا يخطون الرسائل الصادرة أو تلخيص الواردة منها من عمال الأقاليم مع الحرص على تحسين خطاباتها عند تثبيتها بالكنايش والسجلات الإدارية⁸³.

وتصنف مراتب الكتاب حسب مستوياتهم العلمية والمعرفية واكتسابهم لأساليب الكتابة ودراية بأسرار اللغة العربية ولآدابها. فمنهم من يقوم بصياغة الرسائل وفق نظام واسلوب مخزني متبع، ومنهم من يقوم بتلخيص وتجميع كل النسخ من الرسائل الصادرة والمكاتب الواردة من الأفاق وحفظها وفق نظام من الترتيب معلوم.

والشاهد أننا نعثر في وثائق الأرشيف المخزني على كثير من الأسماء المخزنية ذات معاني تقليدية هي من صميم الثقافة المغربية ارتبط تداولها ضمن البنية المخزنية. فبالإضافة إلى لفظ البنيقة، هناك أسماء تقليدية أخرى متداولة على نطاق واسع على مستوى الكتابات التاريخية والمصادر المغربية المعروفة. فنجد على سبيل المثال لا الحصر أسماء تطلق على كثير من الحنطات من قبيل موالين الفراش وهم الخدم الأقرب في عملهم من السلطان مهمتهم الاعتناء بأفرشة البلاط وترتيب وإحصاء كل الهدايا التي تصل إلى دار المخزن ويسهرون على تأييد قبة السلطان أثناء ظعنه. وموالين الأفراك، ومول أتاي، وموالين الماء الذين يقومون بتصفية وتقطير الماء الشروب، وموالين الوضوء وزربية الصلاة، وموالين المكحلة والمظل والخنجر إلى غير ذلك من أسماء الحنط. ومن ضمن هؤلاء نجد أصحاب الشكارة*، وهم الكتاب المرافقين للمحلة

⁸² ابن منصور : لسان العرب المجلد الأول ص ص 359-360

⁸³ لابد من الإشارة هنا ، إلى أن خطابات القواد المحليين بالأقاليم التادلي التي يتوصل بها ديوان دار المخزن غالبا ما لا ترقى إلى الأسلوب و المستوى الإداري المخزني الذي يوظف البنية الثقافية السائدة بالدواوين و كتابها . لذلك يعمد الكتاب حين تلخيصها بالكنايش إلى تحسين و تجويد ما جاء في مضمونها من تعبيرات .
*يطلق أيضا اسم اصحاب الشكارة على الامناء و المكلفين بشؤون المال دخلا او صائرا.

السلطانية اينما حلت وارتحلت يتمنطقون جرابا جلديا مزخرفا، به دواة وأقلام وأوراق للكتابة، " واما أهل الخطط الذين كانوا ملازمين لبابه فكثيرون وهم أصحاب الفراش وأصحاب الأتاي [...] ومنهم كاتب الحروف الحسن بن الطيب بن اليماني بوعشرين⁸⁴.

وعلى هذا العهد، أصبح الديوان يضم عددا من الكتاب أكبر من ذي قبل الحقوا ببنيقات الوزراء. فكل وزير منهم تقع تحت نظره مجموعة من الكتاب والطلبة، يلقي اليهم بالمكاتب فيدبجونها ويصيغونها ثم ترفع الى السلطان ليطلعها ويبيت فيها واحيانا يضيف فيها او يعيدها الى الوزير المعني لغاية ما، وبعد المصادقة والتدقيق يوضع الختم السلطاني وتبعث الى الحاجب الذي يسلمها بدوره الى أمين الرقاصين مؤكدا عليه بالوجهة المتعين على الرقاص او المساخري قصدها. ومن رجال المخزن الذين اشتهروا بترأسهم أقسام البنيقة، الحاجب السلطاني والفقيه المسفيوي وزير الشكايات، وغرنيط وزير الخارجية، وأمين الأمناء أي وزير المالية الذي يقع تحت نظره أمين الدخل وهومن يراقب مداخل بيت المال، وأمين الشكارة الذي يراقب المصاريف وحسابات الديون ثم أمين الحساب الذي يراقب مداخل الجبايات بالإضافة الى أمناء القبائل. ولم نجد في الاستغرافيا التقليدية من إشارة حول أعداد الكتاب أبلغ من تلك التي جاء بها محمد بن ابراهيم السباعي على العهد الحسني بقوله: " [...] منها ما كتبه بلغ الستين، ومنها ما بلغ العشرين، ومنها ما دون ذلك. والجميع في شغل شاغل مما يصدر لهم عن نظر السلطان ورأيه"⁸⁵.

إن توسيع مهام ديوان الكتاب على عهد الحسن الأول، ارتبط بظروف سياسية خارجية وأخرى داخلية، استوجب معها التجاوب مع كثافة وزخم التعامل الإداري والتراسل المخزني مع كافة الجهات والاقاليم من بينها الإقليم التادلي، الذي عرف في هذه المرحلة تعدد القواد وتقسيم إيالاتهم بغرض توسيع هامش الوعاء الضريبي والتحصيل الجبائي وزيادة مراقبة السكان. فحصل اضطراد في المراسلات بين الممثلين المحليين والمركز المخزني وهو ما استوجب عملا اصلاحيا للشؤون الادارية رام منه السلطان تحسين وتجويد الاداء الاداري.

وجدير بالملاحظة ان المشروع الاصلاحى الذى تبناه السلطان كانت إرصاصاته الاولى قد تبنت منذ عهد سيدي محمد.اذ شمل ايضا الجانب العسكري بعد أحداث حرب تطوان.الا ان

⁸⁴ بوعشرين الطيب بن اليماني : (مربس) ص 38 وقد كان من كتاب المخزن المرموقين
⁸⁵ السباعي محمد بن ابراهيم : مخطوط البستان الجامع المكتبة الوطنية D1346، ورقة 405

الإصلاح بقي في مضمونه محافظاً على البنية التقليدية العامة للنظام المخزني⁸⁶. فالبنية رغم تطور هيكلها وتعدد المشتغلين فيها ظلت على حالها كغرف بسيطة الأثاث والتجهيز. وإذا كان السلطان قد جدد من القواعد الإدارية وجعلها تقوم على التخصص وتوزيع المهام حتى يكون بمقدورها مواجهة تعقيدات المرحلة التاريخية داخلياً وخارجياً، فإن دور الكتاب لم يكن بمنأى عن هذه العملية الإصلاحية منهم الكتاب، وعدداً كبيراً من المكاتب تخص الوزراء فأصبح لكل وزير مجموعة من الكتاب والطلبة يقعون تحت امرته "ان في كل واحد منها رئيس له كتبة عدة نحو الستة مواضع". حسب ما ذكره السباعي.

لقد أصبح الديوان بمثابة خزان للنخب الإدارية المخزنية، يتم توظيفهم قبل تقلبهم في مراتب عليا، بعد ان يكونوا قد عرّكتهم تجربة العمل الإداري ضمن بنية مخزنية تقليدية⁸⁷. وتتمثل تقليدية عمل الكتابة بالبنية على مستوى الشكل تكاد تشبه الى حد ما، فيما كان سائداً بفضاء جامعة القرويين او بالمجالس العلمية اوحى بالمساجد. فقد ذكر الفرنسي ديسكوس ليون اوجين اوبان "أن عدد البنيات داخل دار المخزن لا يتجاوز التسعة، وهي عبارة عن قاعات كبيرة فارغة، داخل كل واحدة منها زربية ومكتب صغير للوزير ورفوف توضع عليها الكنائيش المعدة لنقل مختصر الرسائل من اجل الحفظ. وعلى جانبي الوزير يجلس كاتبان في الوضعية المعتادة للحظة. أما الكتاب الباقيين ليست لهم مهام في الكتابة محددة. وترفع الرسائل عند اكتمال صياغتها الى السلطان من أجل التوقيع"⁸⁸.

ونتحصل من ذلك أيضاً، وصفاً عن كيفية عمل الكتاب، فيما أورده المختار السوسي على لسان القائد الناجم في وصف طريقة عمل الكتاب بقوله: "فمثلنا بين يدي الوزير الكبير احمد بن موسى، فأمرنا أن نجلس أمامه في القبة التي يجلس فيها، وهي مكتظة بالكتاب عن يمينه وشماله على العادة، وكل واحد مكب على شغله في صمت وهدوء وكأنهم لا يتحركون"⁸⁹.

وكان الكتبة يسيرون في ركاب المحلات السلطانية في حال تجريدها، يدعون بأصحاب الشكارة، حاملين معهم أوراقهم وأقلامهم أينما حلت وارتحلت. يخصص لهم مكانهم بالقرب من خيام وزراءهم، وكل موظف منهم يلتحق بديوان وزيره بعد صلاة الفجر.

⁸⁶ تحدث عبد الله العروي في كتابه مفهوم الدولة ص 131، عن قضية الإصلاح بقوله: "ان الإصلاح بالنسبة للمخزن يعني تقوية السلطة التي يتمتع بها، متدرعا بلوازم مدافعة الاعداء. فيبدأ بتدريب الجيش وتسليحه بكيفية عصرية، في هذا الحال لا يمثل الإصلاح قطيعة مع الماضي، بل بالعكس تثبيت النظام القديم بمميزاته الجوهرية. فليس من الغريب ان تنتشر فكرة الاستبداد النير".⁸⁷ لمزيد من الاطلاع على اهم كتاب المخزن الذين شهد لهم بالكفاءة و النبوغ، انظر مؤلف فواصل الجمان لمحمد غريط.

⁸⁸ Eugene Aubain : op-cit p 205 .

⁸⁹ السوسي المختار : المعسول ج 20 ، مطبعة النجاح الدار البيضاء، 1961ص 28

ويفيدنا ما سجله الطبيب الفرنسي وايسجربر في وصفه لطريقة عملهم أثناء الظعن مع السلطان في المشهد التالي: " جلس (باحمد) مقعداً أريكة واطئة وقدامه ركام من الرسائل المطوية بالطول والمختومة بالشمع الاحمر. وإلى جواره جلس كاتبان جلسة القرفصاء. الكاتب الذي الى يمينه مكلف بشؤون الغرب والذي إلى شماله بشؤون الحوز. فكان الصدر الاعظم يتناول الرسائل واحدة واحدة، فيزيل عنها ختمها ويجيل فيها بصره بسرعة ويؤشر عليها بقلمه إشارات خاطفة، ثم يلقي بها أمام الكاتب الذي عن يمينه أو الكاتب الذي عن يساره تبعاً لمصدر كل رسالة"⁹⁰.

المطلب الثالث، الرسالة الرسمية:

ما يقصد بالرسائل الرسمية هي كل الخطابات المحررة سواء التي يبعث بها المركز المخزني وتحمل الطابع والختم السلطاني توجه الى الممثلين المخزنيين بالاقليم لتنفيذ أمر والقيام بما تحتوي عليه الرسالة، أو استفسار عن حالة أو تقييم وضعية الى غير ذلك من شؤون التدبير. أو تلك الواردة من القواد الى المركز وهي تحمل اجابات او تقارير او تفيد في إخبار وإحاطات عن وضع عام او محدد بايالة معينة أو تحمل جملة مطالب والتماسات تهم القبيلة مثل التشفعات او تأجيل سداد الواجبات إلى غير ذلك من تفاصيل الحياة المحلية موقع عليها باسمهم وتحمل في الغالب طابعا صغيرا دائري الشكل يحمل اسم القائد.

وإذا كانت الرسائل الصادرة عن المركز تقوم على خاصية كثافة السلطة المركزية وعلى صيغة من وضوح الخطاب وأيضا على مبدأ الانفاذ وتقيد المرسل اليهم بالاضطلاع بمسؤولياتهم فيما يرد عليهم من تعليمات وتنفيذ ما يتضمنه الامر من واجبات، فإن الرسائل الواردة من الآفاق، ورغم ما كان يكتنف بعضها أحيانا من غموض لجوانب من المعلومة فإنه كان يتحتم على القواد تحليلهم بوضوح النص والايجاز وإحاطة تقاريرهم بمعطيات مقنعة لا تترك ثغرات تعود عليهم بالمساءلة او احتمال ما قد يطالهم من التقرير والتوبيخ. وقد لا حظنا من خلال استقراءنا لعدد من أجوبة المراسلات الصادرة عن المركز الى قواد الاقليم التادلي عبارات تتكرر في كثير من الرسائل تشير الى وصول معلومة وأخذت موقعها من التلقي منها النماذج التالية: عمال بني عمير وبعد، وصل كتابكم جوابا عما أمرتم به [...] وصار بالباب

« قواد بني موسى كافة وبعد، وانا جوابكم عما امرتم به [...] وصار بالبال بالعمل على

ذلك»⁹¹.

⁹⁰ وايسجربر فريدريك : (مرس) ص 50
⁹¹ خ . م . ر . : كناش 364 ص ص 75-160

« محمد بن الطيب السرغيني وبعد، وصل كتابك مخبرا بإزعاج بني موسى لشن الغارات على فساد بني عمير [...] وصار بالبال»⁹².

وتؤكد وثائق الأرشيف المخزني، أن السلطان المولى الحسن استطاع خلق نموذج من التدبير الإداري الجديد يقوم على مركزية للقرار، والتوجيه الشخصي لدفة الحكم وهذا أمر وإن كان عادة مقررة صار عليها أسلافه، إلا أنه أمام ظرفية تاريخية حاسمة أضحت فيها أعين الدول الأوروبية شاخصة على المغرب وتتصيد الفرص للإيقاع به، فإن أي تصرف يقع عرضا يقوم به ممثل مخزني أو جماعة من السكان خارج نطاق تدبير وإشراف الدولة وله علاقة بحدود دولة متاخمة، فإنه من شأن ذلك أن يجر عليه تبعات غير متوقعة مثلما حصل سنة 1894 عندما هاجم سكان مجاورين لملييلية بعض الحراس من الإسبان وأوقعوا فيهم قتلى دون إذن من قوادهم، فصار الإسبان يطالبون بالتعويض وهوما جرّ على خزينة بيت المال ذعيرة أخرى حددت في أربعة ملايين ريال دية لقتلى الإسبان⁹³

ورغم البون الشاسع فيما تم استعراضه كمثال بين حيثيات هذه النازلة ضمن مجال يتقاطع مع أرض يحتلها أجنبي وبين تدبير الحياة العامة بالمجال التادلي، فإن مبدأ مركزية القرار والتدبير كانت تعم كل الجهات. ويغلق الباب على كل قائد أو ممثل للمخزن في تدبيره لمجال إيلته ما لم يتلق رسائل وتعليمات من المركز تعزز من هامش تحركه. وهذا ما نصادفه في كثير من الرسائل المخزنية تؤكد النماذج التالية:

فقد أبلغ القائد احمد بن العربي المشهوري عن اعتقال الأمين المكلف بفرض الواجب على قبيلة ورديفة بسبب ما ادعاه من الخوض في قبيلته فكان جواب السلطان التالي :

« القايد بن العربي المشهور وصل كتابك اخبرت فيه انك قبضت على محمد بن العربي المشهوري لأجل خوضه في القبيلة ووجهت الكتاب الذي الفيته عنده شاهدا على ذلك وصار بالبال، وقد أسأت في القبض عليه من غير إذن مع أنه أمين مكلف بأمورنا الشريفة وعليه سرحه بفور وصول قائد المائة وعشرة من الخيل موجهين اليك بقصد ذلك وادفع لهم سخاريهم»⁹⁴.

وفي أخرى من رئيس المحلة الخليفة بالقصبة الزيدانية جاء فيها:

⁹² خ . م . ر : كناش 364 ص 160

⁹³ الناصري أحمد (م.س) ج 7 ص 206

⁹⁴ خ . م . ر : كناش رقم 353 ملخص رسالة سلطانية بتاريخ 25 شعبان 1300 ص 74

« الحضرة العالية، أنهى لعلم مولانا أن التقييد المبين فيه العمال الحاركين مع المحلة السعيدة وجد شاملا لخدم مولانا القايد محمد بن الطيب السرخيني، وحيث قصدت المبيت عنده خرج للملاقة وسط إخوانه، وكلمته بالنهوض فأجاب بأنه لم يرد عليه الأمر الشريف بذلك»⁹⁵.

وفي مختصر الرسالة المرفوعة الى السلطان تستعرض طلب تقدم به محمد بن عبد الله النتيفي بشأن التماس الشفاعة في إطلاق سراح شقيقه المتهم بإتلاف عدة عسكرية جاء فيها: «[...] وأنه ورد عليه كتاب العلاف الكبير، يأمره بتوجيه أربعمئة وأربعين ريالاً ثمن العدة الضائعة. وقد وجهها متوقفاً في كون ذلك بإذن شريف أم لا. قال مولانا: نعم وهل يقدر أن يفعل ذلك بغير إذن؟»⁹⁶

المطلب الرابع، انتظام شكل الرسالة:

خضع نظام صياغة الرسائل المخزنية لقواعد من التجويد والترتيب والتنظيم لا تخرج عن النظم التقليدية لإشكال التحرير المستوحاة من ديوان الإنشاء منذ عهد الدولة السعيدية وحتى ما قبلها. إذ لم يخرج استهلال الرسائل قط عن قاعدة افتتاحها بالبسملة والحمدلة، تعقبها على يمين نفس السطر عبارة وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، على غرار ما دأب عليه كتاب ديوان الإنشاء زمن الاشراف السعديون⁹⁷. مع ترك فراغ بين لفظ الحمدلة ونص الرسالة بغاية إملائه بالطابع السلطاني وهو ما نجده فيما أكد عليه موسى بن أحمد في أول رسالة له الى السلطان الحسن عند توليته وهو لا يزال حاركا ببورقي بحاها بقوله: «[...] وهو أن يكتب سيدنا نصره الله بمجرد وصول هذا اليه لجميع المدن والقبائل والجيوش ويطلع بطابعه الشريف من أعلا الكتاب»⁹⁸.

وقد جرت العادة في صياغة الرسائل الصادرة عن المركز بمخاطبة الممثلين المحليين بلفظ خديما الأرضي، و الى أعيان القبائل وشيوخها بلفظ خدامنا الانجاد. اما الواردة عليه، فإن المرسلين من القواد والعمال وسائر أفراد جهازه المحلي كانوا حريصين اشد الحرص على صياغتهم لديباجة تكون في عمومها طويلة تنصدر الرسالة قبل الموضوع.

⁹⁵ خ . م . ر : كناش رقم 634 ملخص رسالة سلطانية بتاريخ شهر رمضان 1308

⁹⁶ خ . م . ر : كناش رقم 172 ملخص رسالة سلطانية بتاريخ ربيع الثاني 1308 ص 182

⁹⁷ ملين محمد نبيل : السلطان الشريف ، الجذور الدينية و السياسية للدولة المخزنية في المغرب . ترجمة عبد الحق الزموري و عادل عبد الله ، منشورات المعهد الجامعي للبحث العلمي جامعة محمد الخامس 2013 الرباط ص 251، 252، 253.

⁹⁸ م . و . م . ر . ح : رسالة مستقلة تحمل رقم 17002 - A بتاريخ 1873/09/12

عموما، يقف المتصفح للرسائل المصاغة من طرف كتاب الدواوين، على مقدار مبنائها البلاغي وحسبها الأدبي، و على رصانة حملتها اللغوية والبيانية. ما يفصح عن مستواهم التعليمي وتنشئتهم الفكرية. ما يجيز القول، ان المخزن كان ينتقي نخبه من موظفي الديوان، من بين صفوة الطلبة وخيرة اصحاب القلم، فضلا عن من ورثوا هذه المهنة عن آبائهم الذين تدرجوا في مكاتب البنيقات المخزنية.

وقد لاحظ بهذا الصدد الفرنسي اوجين اوبان خلال اقامته بالمغرب متم القرن التاسع عشر ان كل امناء البنيقة وجل كتابها، هم من أصول اندلسية ترعرعوا في الحواضر الكبرى كفاس، وتطوان والرباط، وسلا، واصفا اياهم أنهم يمثلون بقايا المجد الحضاري الاندلسي، وإن كانوا في ذات الوقت ينظرون إلى سكان البوادي بنوع من الازدراء⁹⁹.

كان التحرير الاداري وصياغة الرسائل بالبنيقة يقوم على ثقافة تراسلية وخطاب هومن صميم الأدبيات المخزنية العريقة. على الكاتب ان يجيد صنعتها ويخبر أسرارها، وان كان يبدو تأثرها واضحا بنمط صياغة العقود. فلا تفكير في نص الرسالة، ولا وجود لفواصل او نقط ولا أية علامات أخرى بين الجمل، اللهم الا ما نصادفه احيانا في ختام بعض العبارات لحرف الهاء ويرمز به الى نهاية الكلام اونقطة النهاية.

المطلب الخامس، النظام التراتبي في التراسل:

إذا كانت صيغة التراسل من المركز المخزني الى ممثليه تقضي بتوجيه الرسائل رأسا الى القواد المعنيين مباشرة، او بواسطة ممثل السلطان اذا كان على رأس محلة خليفية بالاقليم كما هو الشأن ما تبييناه من تبادل مراسلات بين هذا الاخير والمركز، فإنها تتباين عند الاصدار من المحلي الى المركزي من حيث ضرورة التمييز للمجه اليه تبعا لاختلاف مضمون محتواها بين القضايا الداخلية للمحلة وبين القضايا التي تتعلق بشؤون القبائل ومجريات أعمال المحلة من قبيل تحصيلات الواجب أو فيما يحدث من منازعات وأحداث خلال ذلك.

وقد أبلغ بهذا الخصوص، المولى عثمان رئيس محلة الزيدانية في رسالة إلى الوزير الصنهاجي بوصول كتابه حول ما أمر به السلطان في الموضوع جاء فيها : «وبعد»، وصلنا كتابك بان مولانا دام علاه أصدر أمره الشريف بأن الكتابة لجلالته الكريمة لا تكون إلا جوابا، وأن الحادثات

⁹⁹ Eugene Aubin : le Maroc d'aujourd'hui ; Librairie Armand colin Paris 1904 P 194.

الخارجية نكتب لك بها، والداخلية نكتب بها للفقير الحاجب السيد احمد* و علمناه فعلى ما أمر به العمل»¹⁰⁰

المبحث الثاني، مواصفات وخصائص مطلوبة في الكتاب:

المطلب الاول، اختيارهم من بين النخب:

يتلقى أغلب الكتاب تعليمهم بجامعة القرويين، أو على أيدي فقهاء وعلماء. وحينما تظهر ميزة التفوق على الطالب، سواء في جودة الخط أو من رصانة في التحرير وقوة البلاغة، فضلا عما يشترط فيه من دماثة الخلق وحسن السيرة والمروءة، فيتم استدعاه لالتحاق بديوان الكتاب بدار المخزن. وقد سبق ان أشار العلامة ابن خلدون بخصوص هذا الموضوع: " إن صاحب هذه الخطة لا بد من أن يتخير أرفع طبقات الناس وأهل المروءة والحشمة منهم، وزيادة العلم وعارضة البلاغة، فإنه معرض لأصول العلم لما يعرض في مجالس الملوك ومقاصد أحكامهم"¹⁰¹ ، مبينا أهمية تحكم الكاتب في اللغة والبيان " مع ما يضطر إليه في الترسيل وتطبيق مقاصد الكلام من البلاغة وأسرارها"¹⁰².

والحال ان انتقاء أفضل الكتاب وإدماجهم في خطة الكتابة كان دائما يصنف من المهام التي تدخل ضمن أشكال التدبير المخزني الرامي الى تحسينة تجويد شؤون جهازه الإداري، فقد اشار محمد غريط أنه " بقدر احتياج الملك الى الوزير، احتياجه هو الى كتابة هم أسباب بيت الوزارة، ونجوم فلك الإدارة وحفظة صحائف الأحكام وأنامل راحة النقض والإبرام"¹⁰³. مدرجا بذلك الكاتب في مستوى لا يقل عن الوزارة، " وكان لا يولي في الغالب هاتين الخطين وبيوت هاتين المنصتين الا من سبك في قالب التجريب أو أخذ من الأدب بنصيب"¹⁰⁴.

اما محمد بن ابراهيم السباعي فقد لخص صفات الكاتب من بينها ان يكون "صادق الحس لطيف المذهب حسن البيان. مضيئا أن كتاب الملوك عيونهم المصونة، وأذانهم الواعية، والسنتهم الناطقة"¹⁰⁵.

وإذا كنا ندرك سبب تعظيم هؤلاء المؤرخين والمفكرين، لفئة الكتاب و وضعهم في مكانة اعتبارية مرموقة على السلم الاجتماعي والمهني، فإن ذلك يرجع في اعتقادنا الى كونهم هم أنفسهم

¹⁰⁰ خ. م. ر. : كناش رقم 635 ملخص رسالة بتاريخ 12 رمضان عام 1308 ص 13

* المقصود بأحمد ، هو الحاجب احمد بن موسى الملقب ببا احمد .

¹⁰¹ ابن خلدون عبد الرحمان : المقدمة دار الفكر بيروت 1996 الطبعة الثالثة ص 307

¹⁰² ابن خلدون عبد الرحمان : نفس المصدر و الصفحة .

¹⁰³ غريط محمد : (مر.س) ص 04

¹⁰⁴ غريط محمد : نفسه .

¹⁰⁵ السباعي بن ابراهيم : (مخ.س) اوراق 50 و 56

قد تدرجوا في أسلاك نفس الوظيفة بالبلاطات السلطانية، علما ان الفرنسي اوجين اوبان، لم يصنفهم الا في مكانة ثانوية في الترتيب المخزني حسب ما لاحظته بشأن الموظفين جملة . إذ قسمهم الى فئتين: واحدة قارة وثابتة وهم الوزراء وكبار قواد الجيش والعسكر او من سماهم ابن ابراهيم السباعي بخاصة الخاصة¹⁰⁶، والثانية أفرادها مؤقتون، منهم الأمناء والكتاب من ذوي الاقلام الرفيعة¹⁰⁷.

والحقيقة ان خطة الكتابة قد طالها فعلا الإهمال زمن العهد العزيمي الذي صادف زيارة الفرنسي المذكور للمغرب. فلم نجد من تعبير يجسد هذه المعلومة ابلغ مما ذكره بن الطيب اليماني بقوله: "وقد أحنى الدهر اليوم على تلك الخطة الشريفة، وغازلها البؤس والكتابة المخيفة"¹⁰⁸.
المطلب الثاني، حفظ الأسرار:

حافظت بنية الجهاز الإداري المخزني على صلابتها ومقومات استمرارها بفضل حرص المخزن على سلك نظم محددة من الضبط والصرامة في حفظ العوائد والتقاليد المخزنية وتقيد القائمين عليه بالنظام الصارم الذي تلزمهم به طبيعة العمل. ومن جملة ذلك كتمان السر المهني. فالوثائق التي غدت اليوم متاحة امام الباحثين ومتيسرة لعدد الدارسين، إنما كانت في زمانها تدرج ضمن نظام مخزني صارم بما يتطلبه العمل الإداري من الحفاظ على سرية المكاتبات والصادر من القرارات والتدابير والتعليمات، وتحلي الكاتب بما تستوجبه ضرورة الكتمان بصفته مطلعاً على مضمونها. فما قيمة هذه الخاصية المؤطرة للجهاز الإداري المخزني؟ يتحدث ابي بكر محمد الطرطوشي في هذا الباب بقوله: "[...] وكاتب الملك مستقر أسرار، ولسانه الناطق عنه في آفاق مملكته، والكتابة قوام الخلافة وقرينة الرياسة وعمود المملكة"¹⁰⁹. مؤكداً على أن كتمان الاسرار من اللوازم في حقوق الملوك، وأن امناء الاسرار أشد تعذراً وأقل وجوداً من أمناء الأموال، وحفظ الأموال أيسر من كتم الاسرار"¹¹⁰ وفي رسالة خطها المولى سليمان الى خاله القايد عياد عشية انتفاضة أهل فاس ومحاولتهم بيعه ابراهيم بن اليزيد جاء

¹⁰⁶ السباعي بن ابراهيم : نفسه ورقة 378

¹⁰⁷ Eugene Aubin: op-cit, p 189

¹⁰⁸ بو عشرين الطيب بن اليماني (م.رس) ص 38

¹⁰⁹ الطرطوشي ابو بكر محمد : سراج الملوك ، تحقيق محمد فتحي ابو بكر ، المجلد الاول الطبعة الاولى الدار المصرية اللبنانية 1994 ص 293 .

¹¹⁰ الطرطوشي ابو بكر محمد : نفسه ص 513.

فيها « وهذا الكتاب عند نزولنا تادلا انشاء الله، اوجهه مع طالبك حتى يقرأه على محمد الشاهد، وأما اليوم فاكتمه وسر بما أنت سائر به »¹¹¹.

وقد أكد ابن خلدون على تحلي الكاتب بخصلة الائتمان والكتمان بالقول: "[...] وتعويل السلطان ووثوقه به واستئمانه في غالب أحواله إليه وتعويله عليه في أحوال البلاغة وتطبيق المقاصد وكتمان الأسرار"¹¹².

إن خصلة حفظ الأسرار تدخل من صميم العمل الإداري بحنطة ديوان الكتاب. والمخزن لم يكن يتساهل في الدفع بالتحلي بهذا الشرط. فمكاتيب الدولة لها نظمها وتدابيراتها، وأي إخلال بشرط كتمان السر وإفشائه سيؤدي لا محالة الى علة قد تعتور هدفا سياسيا، أو يخل ببرنامج تدبيري ربما كان السلطان يروم من ورائه الحسم في قضية ما.

ونصادف في أدبيات الاستغرافيا التقليدية ما نبه إليه الإخباريون من أهمية هذه الخصلة في حال الاشتغال في دواليب خطة الكتابة، هو ما ذكره الفقيه محمد بن ابراهيم السباعي على لسان الفقيه الطاهر بن جلون وكان من أخص الكتاب عند السيد محمد بن العربي الجامعي زمن وزارته، في واقعة طريفة نستحسن إدراجها ما دامت تدخل في نفس السياق. ذلك أن السلطان المولى الحسن كان في رحلة من مراكش الى فاس، "[...] فلما توسط الطريق (وربما يقصد تادلا)، أمر سرا بسير الخيل لدار عامل من عماله وأن يقبض عليه بعد ذلك. فلم يكن إلا يسيرا حتى جاء ذلك العامل بطلب يطلب ملاقة السلطان. فأذن له فلما تمثل بين يديه صار يقبل الأرض ويتملق ويتوجه ويتوسل للسلطان بأسلافه، قائلا لا تشف في أعدائي ولا تفضحني. فقال له السلطان ما هذا؟ فقال أن سيدي أمر بالمسير لداري وبالقبض علي. فتعجب السلطان وقال: من أنباك بهذا ! فقال أسيدي إن هذا لحق. فقال له حق، ولكن إن أخبرتني بمن أخبرك بهذا فلك الأمان، وإن لم تخبرني فإنه واقع لا محالة. فقال له أخبرني فلان من الكتبة فقال له السلطان: كذبت عليه ما الدليل؟ فأخرج له العامل خط يد المخبر بالإخبار. فلما رآه السلطان وتحققه، أمره بالقيام والكتمان، وترك العامل [...]. فإن من الأمور التي لا تغنر عند الملوك بوجه إفشاء السر"¹¹³. ويضيف أيضا، "إن الملوك كل شيء يتحملون صبره سوى ثلاثة منها إفشاء السر"¹¹⁴.

¹¹¹ غريب محمد (مر.س) ص 09

¹¹² ابن خلدون عبد الرحمان : (م.س) ص 307

¹¹³ السباعي بن ابراهيم : (مخ.س) اوراق 206-207

¹¹⁴ السباعي بن ابراهيم : نفسه ورقة 520

إن تقدير مسؤولية كتمان السر لدى الكتاب، لم تكن تقتصر فقط على خدام المخزن وموظفيه، بل كانت أيضا من بين الهواجس التي لا تفارق يقظة الممثلين المحليين بالأقاليم والجهات. فقد كتب القائد الهورضة المعين بالقصبة الزيدانية الى السلطة المركزية يطلب رجلا يقطن بقصبة بني ملال يكون له كاتبا ويياشر معه قراءة ما تحمله الرسائل الوافدة عليه ولا يريد ان يطلع عليها أحد» وكاتبنا يتخذه كتما للأسرار المولوية»¹¹⁵

وإذا كان المخزن المركزي قد أظهر على الدوام تفوقه على مستوى التنظيم الإداري وتمكن من تحسين منظومة الكتاب باستقطاب الطلبة والنخب الحضرية لتعزيز الجهاز الإداري، فكيف استطاع الممثلون المحليون للمخزن بالإقليم التادلي ان يواجهوا معضلة المكاتبات مع السلطة المركزية، علما ان أغلبهم لم يكن يحسن الكتابة ولا القراءة. وحتى من كان منهم على قدر من المعرفة بالكتابة أو من ساعدتهم الظروف على نيل حظ من حفظ ما تيسر من القرآن الكريم، فإنه لم يكن بمستطاعه تناول كتابة الرسائل الموجهة الى السلطان بما تقتضيه طريقة صياغتها من دربة تحكمها تقديرات أدبية ولغوية، وتمثلات ومعاني لغوية في مخاطبة السلطان. خاصة فيما يتعلق بانتقاء الالفاظ والتعبيرات تناسب مقام المرسل إليه؟

¹¹⁵ خ.م.ر : كناش رقم 172 ص 60 .

الفصل الرابع: آليات التراسل لدى قواد الاقليم التادلي :

- المبحث الاول ، كُتاب العمال والقواد .
- المبحث الثاني، الرقاص وصاحب البريد .
- المبحث الثالث، الكاغيد واللك .

الفصل الرابع

آليات التراسل لدى قواد الاقليم التادلي:

وقفنا على كثير من المراسلات لقواد الاقليم زمن السلطان المولى عبد الرحمن، يخاطبون فيها الوزير محمد ابن ادريس بالوالد. ويظهر من خلالها انهم كانوا يتوجهون اليه بخطاباتهم من أجل ان يوصل نيابة عنهم بعض القضايا والوقائع الى السلطان. ومن خلال استهلال المراسلات الموجهة الى الوزير نستشف من صيغتها، أنه كان يمثل قناة اخرى يلجؤون اليها في تواصلهم مع المخزن المركزي. قضايا ربما لم يكن يجرى القواد في مكاتبه السلطان بشأنها. لكن ديباجاتها التي يجهد كتاب القواد أنفسهم في صياغتها وأحيانا قد لا يكلفون أنفسهم أكثر من تكرارها بشكل نمطي، كانت في واقع الامر تعكس منطق الأبوية الذي دأب المخزن على ممارسته ليس فقط على القواد، بل على مطلق مكونات المجتمع، حكاما ومحكومين. نسوق من نماذجها الصيغة التالية: « محل والدنا وأخيار عباد الله الفقيه الاجل الخير المبجل البركة سيدي محمد بن ادريس [...] ونحب من كمال فضلكم تسند الامر على مولانا.»¹¹⁶

المبحث الاول، كُتَاب العمال والقواد:

المطلب الاول، اختيار الكتاب:

من الجلي ان خصيصة اكتساب القراءة والكتابة لم تكن بالضرورة شرطا من الشروط التي تقتضيها تولية القواد ببادية تادلة وما اليها من قبائل الدير والجبل. إذ يبقى الامتداد العائلي والجاه، والثروة، والكفاءة في التدبير، والاقدام في المعارك، والولاء للمخزن من اهم شروط التولية على القبيلة. فقد اظهرت التجربة في هذا الميدان أن اغلب القواد ممن اشتهروا بكفاءتهم وسطوتهم وحنكتهن العسكرية في دعم الحضور المخزني بالمجال التادلي لم تكن لديهم دراية لا بالقراءة ولا بالكتابة. ومن أشهرهم موحى اوحمو الزباني وموحى اوسعيد اليرايوي. فلم يكن امام قواد الاقليم غير الاستعانة بكتاب وطلبة يحررون لهم الرسائل وبما يطلعونه عليهم من أخبار ووقائع فيصيغونها بأسلوبهم في كتب وتقارير يبعثون بها الى المركز.

ونصادف من بين هؤلاء الكتاب الذين ارتقوا الى مناصب عليا في هرم الجهاز الاداري ممن كانوا على دراية بما يجري في الاقليم التادلي، كاتب كان يشتغل لدى احمد بن القايد محررا

¹¹⁶م.و.م.ر.ح: محفظة، Th-47 K رسالة مستقلة من القائد احمد ابن الطالب الى الوزير ابن ادريس غير مرقمة تحمل تاريخ 20 من رمضان 1262

لتقاريره ورسائله الاخبارية، إنه الكاتب أبو زيد عبد الرحمان بن محمد الشرفي. ينحدر من عائلة الشرفيون قدموا من الاندلس بعد هزيمة العقاب "واستقروا بفاس الى ان رُحِب بيتهم"¹¹⁷. وقد أدرج أبو العلاء ادريس¹¹⁸، جزءا من سيرته بالقول: " كان من طلبة العلم في القرويين، فاستكتبه القائد احمد بن القايد السراغني، فمكث عنده على ذلك سنتين او أكثر، ثم دعي للكتابة بباب الدار العالية. له خط عجيب الشكل لا يكاد يكون لغيره"¹¹⁹. ثم عين محتسبا بمدينة فاس في السنوات الاخيرة من عهد السلطان مولاي عبد الرحمان. وقد تصادف عمله هناك مع فترة ولاية محمد بن الطالب على المدينة، وهو القائد السابق لهنتيفة والخصم العنيد للقائد احمد بن القايد¹²⁰.

وإذا كان القائد احمد بن القايد قد صادف في عمله الإداري من يكفيه جهد التراسل مع المخزن ويضطلع بخطاب ساعده بكل تأكيد على تحسين صورة عمله الميداني لدى المخزن، فإن قواد آخرين كانوا يجدون صعوبة في إيجاد من يقوم بهذه المهمة.

فقد سبق التنويه لمدى احتياج القواد لمن يساعدهم على الكتابة. نسوق نموذجا من ذلك رسالة الى المركز بعث القائد الهورضة المكلف بأمراس القصة الزيدانية طالبا «إصدار الامر للقائد صالح بالتخلي له عن رجل من ايلته ليتخذه كاتباً كثماً للأسرار المولوية لفقده من يكتب ويقرأ له»¹²¹. وبعد تأخر الرد عما طلبه القائد، بعث برسالة أخرى: « بإعادة طلب الرجل الذي سماه من قصة بني ملال يكون كاتباً معه ويباشر له الاسرار التي لا يريد ان يطلع عليها احد طالبا صدور الامر لعامله بذلك لئلا تلحقه مضرة»¹²². ولم يكن تأخر تحقيق طلبه ناجم عن تغافل او تناس ما دام استكتاب الطالب سيكون بعلم المركز، بل يدخل فيما بين القواد المحليون من تنافر وتشاحن وشايات، فربما سعى القائد صالح العميري غريم الهورضة الى الإيعاز لقائد بني ملال ابعاد الطالب المرغوب، بسبب من وشاية سابقة تقدم بها الهورضة بشأن استيلاء قائد المدينة على كير حدادة ومواعين كانت من جملة الاغراض بالمحلة الخليفة بالزيدانية¹²³.

¹¹⁷ غريب محمد : (مر.س) ص 208

¹¹⁸ عبد الهادي التازي : مقال بعنوان : "حول مخطوط الابداسم عن دولة ابن هشام لابي العلاء ادريس" ، مجلة المناهل عدد 36 اصدرتها وزارة الشؤون الثقافية 1987 ص 91 . و قد اثبت الاستاذ التازي في هذه المقالة ان صاحب الكتاب الذي كانت الاحالة عليه في الدراسات تشير اليه بمجهول، كما هو الحال لدى العروي في اطروحاته الاصول الوطنية. انما هو ابو العلاء إدريس كاتب الوزير ابن ادريس على عهد السلطان عبد الرحمن .

¹¹⁹ ادريس ابي العلاء : (مخ.س) اوراق 101- 102 .

¹²⁰ غريب محمد : (مر.س) ص 211 .

¹²¹ خ . م . ر : مختصر رسالة كناش 172 ص 60 بتاريخ 29 ذو القعدة 1307

¹²² خ . م . ر : مختصر رسالة كناش 172 ص 106 بتاريخ ذو الحجة 1307

¹²³ خ . م . ر : مختصر رسالة كناش 172 ص 167 بتاريخ 29 صفر 1308

وليس من شك في ان الممثلون المحليون للمخزن بالاقليم التادلي، وبصرف النظر عن تباين معرفتهم بالقراءة وافتقارهم لمستوى تعليمي معين في بيئة بدوية بعيدة عن الحواضر، فإنهم يضطلعون بمهام كثيرة ومسؤوليات جمة لمقاة على عاتقهم يتعين عليهم تنفيذها وتدبرها وفق ما يتوصلون به من أوامر وتعليمات تصل إليهم باطراد من المركز. علما أنهم لم يكن يخامرهم شك في أنهم خاضعون لمراقبة غير مباشرة ومتابعة خفية لمهامهم، سيما وأن قبائل الاقليم كانت من بين القبائل الناعلة التي لا تستقر على حال. فكانت حركاتهم متعددة بأطراف إيالاتهم لتحصيل الضرائب والمؤن وفض المنازعات وفرض الأحكام الى غير ذلك. وحتى يمكنهم التغلب على معضلة ترجمة تحركاتهم الى رسائل وتقارير يبعثون بها الى المركز، لم يكن لديهم من خيار غير الاستعانة بكتاب يساعدهم على ذلك تخص نشاطاتهم تلك وبما أفضت اليه أعمالهم الجبائية وردود أفعال القبائل، بل كان الامر يتطلب منهم الابلاغ حتى عن سلوكات القواد من الجوار.

وحتى لو استطاع القائد استكتاب طالب أو فقيه، فإن عملية تحرير الرسائل لم تكن بالأمر الهين. فكان لزاما أن تكون لاختيار طلبة وكتاب لمرافقة القواد شروطا معينة، ليست على أية حال من مستوى شروط اختيار كتاب "دار المخزن"، لكن على الأقل يستحب من الشروط توفرهم على مستوى لغوي ودراية في انتقاء الالفاظ والكلمات لصياغة النص بأسلوب مخزني. أو تكون للواحد منهم خبرة في أساليب التراسل اكتسبها من إحدى المدارس العتيقة، من ضمنها كيفية تدبير الرسالة وافحام خطابها بمظاهر التعظيم ومعاني الولاء للسلطان والمخزن.

وكلما أتت الرسالة بحظ من عناصر بيانية، وبلغت تعبيراتها جملة من التلميحات، كلما نالت وبلغت من القائد مبلغ الرضى والارتياح. وقبل تناول نماذج من رسائل بعض قواد الاقليم لمقتطفات من نصوص تظهر لنا مدى تأثير كتاب القواد بالثقافة المخزنية في تحرير رسائلهم، ارتأينا إدراج نماذج من مراسلات لممثلين محليين حتى يتسنى لنا الوقوف على أشكال من المقارنة بين نصوص رسائل قواد ممن استفادوا من خدمات طلبة متمرسون ونصوص أخرى لرسائل صيغت من طرفهم شخصيا.

النموذج الاول:

في رسالة محمد بن اسماعيل خليفة بني موسى فترة نهاية أربعينيات المرحلة المدروسة الى خليفة السلطان، صاغها بنفسه أو ربما اعتمد فيها على طالب غير متمرس. وقد أبقينا على اللفظ والاختفاء اللغوية كما جاءت في الرسالة حتى نتبين المقارنة، جاء فيها: « ولد سيدنا نصره الله

الشريف سيدي محمد سلام الله على سيدنا ورحمة الله تعالى وبركاته أما بعد، نعم سيدنا بأخبار تدلية من موضع الى موضع، سيدنا أهل تدلية كانوا همدين خمدين في أيام الله وأيامكم وبعد ذلك تاقدموا ولد زيدوح من الجبال هبطوا عند بني موسى هما الأولين [...] الدنيا هانيا في هذه الناحية هاذة الساعة وأما سيدنا تدلية حمدا لله سوى يعمل فيها ولد زيدوح النميمة [...] واليوم سيدنا باقين تابعين الفساد لكن متبعهم أحد والحمد لله. خدمك محمد بن اسماعيل»¹²⁴ وعلى هامش الرسالة تمت إضافة العبارة التالية: « [...] وبعد سيدنا والله ثم والله الى زدنا ولا نقصنا عليك في خبار تدليه »¹²⁵.

ما نود توضيحه في هذا المقام ليس محتوى الرسالة، ولا سياقها التاريخي، إذ سنوضح ذلك فيما يناسب الفصول القادمة، بل ما يهم هو طابع صياغتها الذي يميل في مجمله الى خطاب ينهل من ثقافة بدوية محلية، يفتقر الى العالمية بكسر حرف اللام ويفتقد تقديمها نمط الديباجات المعهودة التي تناسب المقام السلطاني أو الخلفي، فضلا عن كثرة الاخطاء النحوية، (مع اعتبار ان إخفاء حرف الألف داخل بعض الكلمات كان أمرا متداولاً عند الطلبة) وخلوها من أي تناسق في اللفظ او حبكة في التعبير وحتى من تاريخ الرسالة التي جرت العادة في تذييله في آخر الكتاب. أما من حيث شكل الخط، فان رداءته وبنطه العريض يرجح انه قد خُطَّ بقلم القصب لم يبر بالشكل المناسب، ويغلب على الظن انه إنما كان يستعمل في الكتابة على الألواح المعدة لتحفيظ القرآن الكريم.

لذلك فان الكُتَاب المتمرسون على الكتابة، غالبا ما تكون لهم دراية وافية بتقنيات وأساليب وقواعد المهنة. وقد فصل الكنسوسي القول في كل ما يفيدهم في ميدان الكتابة، والمكتوب فيه والمكتوب له والمكتوب به¹²⁶.

وحتى نقف على مستوى البون الشاسع بين حالتين نسوق نموذجا مفارقا لنص رسالة بعث بها نفس خليفة القائد على بني موسى الى الوزير محمد ابن ادريس، وقد سطرت بخط مغربي جد متميز يرجح انها للكاتب عبد الرحمن الشرفي، على اعتبار ان ابن اسماعيل كان تحت إمرة القائد احمد بن القائد وحليفه الاثير، وان هذا الاخير كما سبقت الاشارة كان مستكثبا للكاتب المذكور ، كما جاءت ديباجتها وتعبيراتها وحسن انتقاء اللفظ واتساق المعنى وجودة الخط غاية في الدقة والحبكة.

¹²⁴ م . و . م . ر . ح : محفظة 47- Th رسالة مستقلة بدون ترقيم ولا تاريخ

¹²⁵ م . و . م . ر . ح : نفسها

¹²⁶ الكنسوسي محمد : (م.س) ج2 ص190 وما يليها .

النموذج الثاني :

« حفظ الله مقام سيدنا ووزير مولانا الاعظم، وحيد دهرنا وفريد عصرنا، الفقيه النبيه العالم العلامة، البحر الفهامة، ذو الاخلاق الطيبة سيدي محمد بن ادريس، أمك الله في عوننا وجعلنا وإياك من المستظلين تحت جناح لطفه وأمنه، وسلام على سيادتك ورحمة الله تعالى وبركاته وتحياته ورضوانه بوجود مولانا أيده الله وأدام لنا عزه وعلاه، وبعد فليكن في كريم علم سيدنا أنك رحمة لنا ولغيرنا في تلك الحضرة العالية بالله.»¹²⁷ .

لقد كان الكتاب يحفظون عن ظهر قلب صيغ متعددة للدبابيج ويوظفون كل واحدة في سياقاتها. لكن ما يهمنا من النص هو أن الكتاب كانوا أحياناً يقدمون خدماتهم لممثلي المخزن بالبوادي، ويتقاضون أجراً عن ذلك. وهذا ما نستشفه من طول ديباجة الرسالة. إلا أن الإطناب والتطويل في التراسل مع المركز لم يكن شرطاً يلزم به هذا الأخير القواد، فهي ليست الا شكلية من الشكليات الأدبية في نظام التراسل المخزني، فما يهم المركز هو المضمون والوقوف على الخبر، لكن الذي يهم الكاتب هو ما كانت تخلفه في نفس القائد تلك الدبابيج من معاني الولاء والتماس الرضى من المركز، يجعله يجزي له عطاء وهدايا تحفيزية.

- المطلب الثاني، تباين شكليات دبابيج الكتاب مناطياً :

لا تختلف كثيراً لغة الخطاب التراسلي من حيث الجوهر بين قواد المناطق التي تتحدث ساكنتها اللغة العربية عن التي يتحدث سكانها الامازيغية. فنصوص الرسائل التي اطلعنا عليها تكاد تتشابه من حيث الشكل وحتى في التقديم. وليس من شك ان أغلب كتاب تلك الرسائل هم من الطلبة وحفظه كتاب الله، لديهم رصيد لغوي ومعجمي يمكنهم من التعامل مع الكتابة بطريقة انسيابية حتى تؤدي المعنى، خاصة وأنها موجهة للمخزن المركزي. لكن من خلال تصفحنا لبعض مراسلات قواد ايت هودي وموحى اوسعيد اليراوي الى المخزن المركزي وقفنا على ملاحظات تشي بتباين واضح في شكليات وتعبيرات التراسل وهي لا تخرج عن نطاق الثقافة المحلية لمنطقة الدير نوردها كالاتي:

- ان ديباجاتها قصيرة جداً بالمقارنة مع تلك التي دأب كتاب قواد السهل على تحريرها، من بينها رسالة مشتركة بعث بها ثلاثة قواد من آيت هودي إلى السلطان جاء فيها: «بعد تقبيل حاشية البساط الشريف وما يجب لمولانا من الاجلال والتشريف، ننهي لكريم علم مولانا ان قبيلتنا أم

¹²⁷ م.و.م.ح.ر. : رسالة مستقلة غير مرقمة تحمل تاريخ جمادى الاولى 1263.

البخث كنا بين قبيلة آيت أومالو وآيت سري وكنا في السبية..»¹²⁸ وأيضاً ما عثرنا عليه في رسالة موحى أوسعيد الى السلطان الحسن الاول يعبر فيها عن ما خالج نفسه من إحباط بعد عدم توصله بالأسلحة التي طلبها في مواجهة تعديت آيت الربيع : جاء في مستهلها الاتي : « أسعد الله المقام العالي بالله وسلام على حضرة مولانا اعزه الله وبعد، [...]»¹²⁹.

- ان بعض الديباجات تصاغ بشكل نمطي، وأصبحت تنتقل بين كتبة القواد بالدير حتى بدا من بعضهم وكأنه لا يعرف حتى معناها. من بين ذلك ما عثرنا عليه في رسالتين مستقلتين واحدة موقعة باسم اربعة قواد من آيت ويرا للسلطان المولى الحسن والثانية من موحى أوسعيد الى السلطان المولى عبد العزيز، استهلها الاتي :

1 - « إلى من ابرزه الله رحمة للعباد واحيا به طريقة سيد المرسلين، ادام الله وجود سيدنا في ارتقاءه وصعوده وانجاز له من كل خير وعوده.»¹³⁰

2- «إلى من أبرزه الله رحمة للعباد وأحيا به الطريقة السيد المرسلين أمير المؤمنين السيد ومولانا عبد العزيز أمنك الله ورعاك وسلام الله شامل عليك وعلى من بك وعليك أصلح الله الجميع»¹³¹.

ان ما نستنتجه من مضمون المبحثين بإدراجهما ضمن دراستنا المتعلقة بتدبير المخزن لشؤون المجال التادلي وما اليه من قبائل الدير والجل، هو وقوفنا على مكون أساسي كان له دور في المنظومة المؤطرة لعلاقة التواصل بين الممثلين المحليين للمخزن والسلطة المركزية بالعاصمة السلطانية. وهم فئة الكتاب والطلبة، كون خدماتهم لم تكن تعدمها أهمية في رسم صورة تقريبيه عن الواقع الاجتماعي والاقتصادي للمجتمع المحلي، وما كان لتلك الصورة أن تتم لو اقتصر الأمر على التواصل بالمشافهة بواسطة من يؤتمن بهم، على اعتبار ان القواد ليست لهم معرفة بالقراءة ولا بالكتابة.

وفضلاً عن هذا وذاك، فان الميزة التي يجدر الاشارة إليها، هو أن الإرث الذي خلفته أقلامهم كان نابعا من الوسط التادلي، ويعكس إلى حد ما مستواه الحضاري ضمن إطار الثقافة العامة للمجتمع المغربي ككل. زيادة على ان السهل التادلي لم يكن قط من حظي بأكبر نصيب من ذلك التراث، على خلفية الادعاء أن جل قبائله كانت طاعة وأن استرسال تواصل قوادهم مع المركز كان كافياً لتبرير تراكم أكبر عدد من الوثائق والمراسلات، بل الحقيقة ربما تتجاوز بساطة

¹²⁸ م.و.م.ح.ر رسالة مستقلة من توقيع بو عزة اليهودي و باسو بالحاج اليهودي و بومزوغ اليهودي مسجلة تحت رقم 23979 بتاريخ

1309

¹²⁹ م.و.م.ح.ر : رسالة مستقلة مسجلة تحت رقم 23824 تحمل تاريخ 23 ذو القعدة عام 1309

¹³⁰ م. و. م. ح. ر : رسالة مستقلة مسجلة تحت رقم 19498 بتاريخ 6 صفر 1309

¹³¹ م. و. م. ح. ر : رسالة مستقلة مسجلة تحت 20336 تحمل تاريخ احدى و عشرين يوما من رمضان عام 1311.

هذا الطرح، وتؤكد ان تطور الأحداث وتسارع الوقائع وما حصل من متغيرات جعلت من تحول الثقل السياسي من الوسط التادلي زمن المولى عبد الرحمن الى المناطق الديرية والجبلية بالشمال التادلي عهد السلطان الحسن الاول، من ترجيح لكفة تزايد وتيرة التواصل بين القيادات المحلية بهذه المناطق والمركز وهوما نجد زخمه أكثر حضورا في الكنائش والرسائل المستقلة.

إن إدراجنا لهذه النماذج من الكتاب، سواء منهم كتبة البنيقة بدار المخزن أو طلبة القواد، إنما يعكس تطور بنية الجهاز الاداري وعلاقته بالتدبير المخزني. فلا غرو أن صار أرشيفه جراء ذلك بمثابة مفتاح مكن الدارسين والباحثين من ولوج ابواب عدة تنفتح مشرعة على جوانب من تاريخ الاقليم التادلي من خلال ما تركه هؤلاء من بصمة على هذا التراث التاريخي القيم.

المبحث الثاني، الرقاص وصاحب البريد:

المطلب الأول، اطلالة تاريخية سريعة عن سعاة البريد:

الرقاص في الاصطلاح التقليدي للكلمة هو حامل البريد او الأخبار الذي يذهب ويأب حاملا رسالة او خبرا من المرسل الى المرسل اليه. ونجد لها استعمالا لدى الاخباريين الأول، إذ يشير ابن القطان في كتابه نظم الجمان "أن عبد المومن بن علي وجه رقاصا للإمام المهدي بالخبر فاستجلاه وأعلمه بالحقيقة" أي حقيقة هزيمة الموحدين في معركة البحيرة. وكان الموحدون يبعثون برسلمهم الى الآفاق فسامهم عبد المومن بن علي بالرقاصون الذين يردون بالكتب ويصدرون ويمشون¹³². مضيفا ان الرقاصون استطاعوا في الزمن الاول من العهد الموحي فيما حكي عنهم، "من الإستقواء على الناس كونهم من خدام المخزن يستنيحون المخازن ويفرضون على الناس مؤناتهم ويتحكمون عليهم بحكم المعمر حتى أنهم لا يرضون في ضيافتهم الا بالسمن الجزر"¹³³.

واذ لم تتمكن من الوقوف على الكيفية التي تطور بها البريد بالمغرب ولا الاساليب التي كانت معتمدة في اوصول البريد في أقصر الآجال وآمن الأحوال، فإن المؤكد هوان البريد كجهاز تابع للدولة كان مؤتمنا على حمل الرسائل الصادر منها والوارد ويتبع مباشرة للبلاد السلطاني، ولا يحمل ويوزع من الرسائل الا تلك التي تعود لدواوين المخزن.

وقد استدعى توسع مجال الدولة السعدية وانتشار الحضور المخزني بالأطراف الى توظيف ساعات البريد "وهم فرسان يحملون الرسائل والاخبار في عربة مجرورة ويحملون قضيبا من حديد"

¹³² ابن القطان المراكشي : نظم الجمان لترتيب ما سلف من اخبار الزمان . تحقيق علي مكي . دار الغرب الاسلامي ط 2.

1990. ص 163

¹³³ ابن القطان المراكشي: نفسه ص 198 "و السمن الجزر ربما يقصد بها الخراف السمان القابلة للذبح"

¹³⁴، ونحن وإن كنا نشك في موضوع استعمال العربى بغير حمل البريد لمسافات بعيدة زمن السعديين كون طرق المواصلات لم تكن تناسب عربات الخيل، اللهم الا اذا كانت استعمالات هذه الاخيرة لا تتم الا في نطاق العاصمة مراكش في نقل لفائف البريد فيما بين القصر السلطاني وفرسان البريد او العكس. والفشتالي كان يصنف السعاة ضمن طائفة الشواش الذين يتولون حمل الكتب والرسائل الى الاقطار والجهات ويبلغون السلطان بأحوال الثغور والولاية¹³⁵.

وما من شك أن جهاز البريد لم يصل الى مستوى المؤسسة زمن الدولة العلوية الا في العهد الحسنى. إذ بقي في نطاقه التقليدي، يتولاه رقاوصون لديهم خبرة واسعة ودراية بالمسالك، وقدرات جسدية على المناورة وتحمل المشاق اثناء المسير بين المدن والاقاليم. فقد يتعرض بعضهم للنهب ومصادرة ما يحملون من طرف قطاع الطرق. إلا أنهم في أغلب الأحوال كانوا يخلصون نجياً الى ما يصادفونه في طريقهم من دار قائد أو نزلة قبل إتمام المسير. لكن تقليدية نظام التراسل لم يكن من العتاقة ما يجعلنا نفهم انه كان مهملًا غير خاضع للمراقبة والاشراف المخزنى، بل على العكس من ذلك، مهمة اىصال البريد موكلة الى امين الرقاوصين الذي عليه ان يختار افرادا ممن يوثق بهم ولهم دراية بأقصر المسالك ومسافات التنقل ربما لا تخبرها القوافل ولا السيارة.

وبالموازاة مع ذلك، حرص المخزن العلوي على تكليف فرسان من المسخرين *مدربين، لهم كفاءة عالية وإقدام كبير توكل لهم مهمة اىصال بريد يحظى بأهمية خاصة لولاية المدن وعمال الجهات والاقاليم. وقد شهد العصر الحديث أهم واقعة في تاريخ البريد بالمغرب لعب فيها المساخريّة دورا خطيرا في لحظة سياسية فارقة. تمثلت في حمل فارسين من المسخرين لرسالة من المولى سليمان بالعاصمة مراكش الى مدينة فاس تتضمن وصية بيعته للسلطان الجديد المولى عبد الرحمن بن هشام كتبها السلطان بنفسه وهو على فراش الاحتضار.

ونجد وصفا للقبطان إيركمان حول عمل الرقاوصين في ملاحظته: بانهم ينتقلون مشيا لا يحملون من الأمتعة غير جراب جلدي يتمنطقونه. في وسطه قماش يلفون به الإرساليات ويسافرون بشكل مذهل الى كل مكان. مضيفا أنهم منضون تحت إمرة أمين الرقاوصين الذي يسلمهم الرسائل لتوصيلها بإخلاص الى وجهتها، على ان لا تسلم إلا من اليد الى اليد. وفيما يتعلق بأجرتهم فقد ذكر القبطان، أنه من أجل 20 سنتيما أجرة له* كان بمستطاع الرقاوص أن يقطع مسافة 250 كلم

¹³⁴ ملين محمد نبيل : (مرس)، (عن دوكاستري SIHM . FRANC T I I P 216)

¹³⁵ الفشتالي عبد العزيز : مناهل الصفا في مآثر موالينا الشرفا تحقيق عبد الكريم كريم مطبوعات وزارة الوفاق والشؤون الإسلامية

ص 202

* يجدر التمييز هنا بين المسخرين او المساخريّة كجند اغلبهم خيالة لهم وظائف مخزنية ، يقدمون خدمات متعددة منها توفير الحماية الشخصية للسلطان اثناء ظعنه ، وبين الرقاوصون و تنحصر مهمتهم فقط في حمل البريد .

في ظرف ثلاثة ايام، ثم يستريح قبل عودته وأن مصاريف مونتته خلال هذه المدة لا تتجاوز 30 اوقية¹³⁶.

- المطلب الثاني، تطور جهاز البريد وعلاقة ممثلي المخزن المحليون بالرقاصة:

مع تزايد زخم العلاقات الدبلوماسية المغربية مع الدول الاوربية وتوسع نطاق المكاتبات بين المركز والاطراف وتحديدًا منها المناطق الساحلية، اقتضى نظر السلطان الحسن الاول وضع نظام لجهاز البريد أطلق عليه اسم "البوسطة" وهي مصلحة حديثة النشأة تأسست بتاريخ 02 جمادى الاولى 1310 هـ، وأصبح لها مراكز في أهم المدن الساحلية، انطلاقًا من طنجة الى العرائش ثم الرباط والجديدة فالصويرة وربط عملها بالعواصم السلطانية فاس ومراكش. وأصبح لسعاة البريد نظام يحدد عملهم وكيفيات اشتغالهم ومواقيت اسفارهم. كما خصصت لهم أجرة عملهم يتقاضونها من أمناء المراسي حسب ما هو مضمن بالظهير الشريف الصادر لهذه الغاية¹³⁷.

وفي علاقة قواد وممثلي المخزن بالإقليم التادلي بالرقاصين وسعاة البريد القادمين من المركز السلطاني وخاصة منهم اذا ما كانوا من الفرسان المسخرين، فقد كانوا يعاملونهم بكياسة وتوجس، فقد كانت الأوامر تقضي بتخصيص قدر من المال لهؤلاء مقابل خدمتهم: « عمال بني ملال كافة، وصل كتابكم بأن أمرنا الشريف قد توجه اليكم بإعطاء ما نابكم في المسخرين مع خدامنا ايت الربع، وقابلتم ذلك بالسمع والطاعة والامتثال»¹³⁸. ولم يكن القواد يترددون في استرضاء المسخرين والرقاصين بأجزل العطاء كونهم كانوا ينقلون الاخبار ايضا عند عودتهم الى المركز فيما يقع تحت انظارهم بالإيالات من أوضاع واحداث.

وليس من شك في ان الرقاصين لم يكن يستهان بخدماتهم رغم ما يلاقونه من مصاعب اثناء تأدية مهامهم. اذ يبق اضطلاعهم بمهمة حمل الرسائل من التحديات التي كانت تواجه عملية التراسل وهي تقوم على ركائز ثلاثة:

- توصيل الرسالة بأقصى سرعة ممكنة، سواء استعمل الرقاص في ذلك مطية أو كان راجلا.

- أن يصل الصادر منها الى هدفه المقصود. وهو ما كان يلح عليه دائما حاجب السلطان وهو يمد أمين الرقاصين بمجموع الرسائل ليوزعها بدوره على من هم تحت إمرته من الرقاصة¹³⁹.

¹³⁶ J.ERCKMANN : OP-CIT P 168

*اي ما يعادل 4 ريالات

¹³⁷ المنوني محمد: مظاهر يقظة المغرب ج 1. المدارس للنشر والتوزيع الدار البيضاء 1985 ص 123 وما يليها

¹³⁸ خ . م . ر. كناش رقم 353 ملخص رسالة بتاريخ 20 شعبان 1300 ص 110 .

¹³⁹ E. Aubin : OP-CIT ; P ; 221

أما الوارد منها فإن أجهزة الديوان يبقى لها النظر في توزيعه حسب مضمونها، أما إلى كاتب السلطان أو ديوان الشكايات ورد المظالم، أو إلى الحاجب نفسه.

- الائتمان على المحمول من الرسائل وكتمها وحفظها من التلف أو الضياع.

المبحث الثالث، الكاغيد واللك:

لم تخلف لنا حسب علمنا، وثائق الارشيف المخزني ولا المصادر التاريخية معلومات أو اشارات تفيدنا في معرفة كيفيات وطرق الحصول على معدات الكتابة فيما يتعلق بالرسائل والكتب ومن أهمها الأوراق أو ما يسمى في الوثائق الرسمية بالكاغيد، وهل كانت تتم صناعتها محليا أو تستورد من الخارج، وفي حالة حصول ذلك، من هي البلدان التي كانت تزود المغرب بما يحتاجه من كميات الاوراق وأثمانها.

أما ما يسمى باللك، وهو مادة شمعية بلون احمر لها استعمال خاص، إذ توضع على لفافة الرسالة حتى تشد بعضها ثم يدمغ فوقها بختم خاص في إشارة بأن لا تفتح الا من طرف المرسل اليه، فالراجح انه كان متوفرا كفاية.

إن معدات الكتابة وخاصة منها الكاغيد كان يطالها الخصاص لدى الجهاز الاداري المحلي. حدث ذلك بالمحلة الخليفة المستقرة بالقصبة الزيدانية سنة 1308 مما اضطر رئيسها إلى مكاتبة المركز في رسالة إلى حاجب السلطان يطلب فيها: «ما تيسر من الكاغيد واللك للكتابة لأن اليد فارغة منها»¹⁴⁰.

والظاهر ان الورق لم يكن متيسرا بالقدر المطلوب، لذلك نلاحظ أن جل الرسائل كانت تكتب على صفحة واحدة وإذا لم يكتمل الخطاب يضطر الكاتب إلى إتمام النص على هامش الصفحة بكلا الهامشين الأيمن والأيسر.

ومهما يكن من أمر فإن الرسائل الادارية كانت إلى حدود نهاية القرن التاسع عشر لا زالت تنتظم وفق شروط تقليدية وحافظت على ملامحها المخزنية وربما استمرت على نفس المنوال إلى ما بعد فترة الحماية بوقت قصير، وإن بدأ يدخل في نصوصها بعض المفردات والتعابير الحديثة لم تكن متبعة سابقا. على سبيل المثال من قبيل: « [...] ومنذ صعودنا على كرسي ملك أسلافنا

¹⁴⁰ خ . م . ر : كناش رقم 634 ملخص رسالة بتاريخ 11 ذو الحجة عام 1303 ص 39 . واللك: هو مادة من الشمع حمراء اللون توضع على تنبية الرسالة بعد طيها كعلامة ختم

المقدسين، سواء في سبيل الأمن العام والمحافظة على النظام وبهاتين النعمتين أمكن والحمد لله تنمية ما أوليه المغرب من الثروة الطبيعية وكلل النجاح مسعى الجميع بالرفاهية والفلاح»¹⁴¹.

خاتمة:

حاولنا من خلال ما سبق التطرق في حدود الامكان الى التعريف بمجال الدراسة واهم الخصائص المميزة للإقليم التادلي، وبالمصادر الاساسية التي اعتمدناها في تفكيك إشكالية البحث المتعلقة بالتدبير المخزني للمجال التادلي وجواره من قبائل الدير والجبل، وهي جملة وثائق ومراسلات مستقلة أو مختصرة بالكنائش وتمثل بحق ذخائر من التراث الوطني بالخرانة الملكية بالرباط. وهي وإن كانت تعبر من حيث المضمون والمحتوى عن وجهة نظر المخزن في تناوله لقضايا السكان في علاقتهم مع المخزن وضغوط تنفيذ احكامه بواسطة أجهزته المحلية، الا ان تناولها والبناء على فحواها لا تعدمه اهمية ليس فقط لأنها تمثل عنصرا بالغ الأهمية في سد الثغرات لما أغفلته المصادر التاريخية، بقدر ما نسجله بحق في وثوقيتها ومصداقية مضانها كونها ارتبطت بشكل وثيق بالتصريف العملي لشؤون المجتمع، رغم ما كان يكتنف الوارد على المركز من معطيات غير دقيقة صادرة عن العمال والقواد خاصة فيما يتعلق بمقدار متحصلات الجبايات والضرائب. بينما لم نعثر في مضامينها عما يشير من اهتمامها برصد تقلبات أحوال السكان ولا بالأسباب الحقيقية التي تدفعهم الى التمرد او التعاصي عن دفع الواجبات ولا بسلوكات الحكام واشتطاطهم الا من شكايات وتظلمات السكان أنفسهم.

كما تطرقنا الى الوسائل البشرية والمادية المساهمة في انتاج الخطاب المخزني، وألقينا نظرة مقتضبة عن تطور هذه الوسائل وتفاعل المركز مع المتغيرات التاريخية والتأثيرات الداخلية والخارجية المساهمة في ذلك.

بقيت إشارة يجدر التنويه بها، وهي أن حجم الرصيد الوثائقي لأرشيف المخزن في جانبه الاداري التراسلي، ومحصلات مستنداته وقوائمه الحسابية وكنائشه وما تمثله حمولاتها المعرفية والتاريخية، ليؤكد بالملمس أنها مثلت وسائل إدارية عبرت وظيفتها عن نموذج من النمط التدبيري للمخزن بمدى التطور الاداري والسياسي في مباشرة الحكم وتسيير دواليب الشأن المحلي الذي ميز الحكم بالمغرب عن باقي دول شمال افريقيا قبل استعمارها او فرض الحماية.

¹⁴¹ م.و.م.ر : مقتطف من رسالة السلطان المولى يوسف الى القائد احمد اعسو التداوي . مسجلة تحت رقم 31922 مؤرخة في 29 قعدة الحرام 1343 هـ.

الباب الثاني

مراحل تطور الجهاز المخزني المحلي

الفصل الأول ، تطور الجهاز المخزني المحلي وآلياته في تدبير المجال.

الفصل الثاني ، التمثيل المخزني بالإقليم التادلي على عهد المولى عبد الرحمن.

الفصل الأول، تطور الجهاز المخزني المحلي وآلياته في تدبير المجال التادلي

- المبحث الأول، تادلا وجوارها الطرفي، وهيمنة البعد الامني في سياسات الدول المتعاقبة .
- المبحث الثاني، المخزن المحلي، مقارنة أولية .
- المبحث الثالث، تطور الحكم المخزني .
- المبحث الرابع، المخزن في مواجهة العصبوية القبلية و نفوذ مرابط ابي الجعد .
- المبحث الخامس ، تجريد محلات سلطانية .

الفصل الأول

تطور الجهاز المخزني المحلي وآلياته في تدبير المجال التادلي :

نتوخى من هذه الدراسة إبراز جوانب من تدبير المخزن لقضايا المجتمع المحلي خلال المنتصف الثاني من القرن التاسع عشر، وبعضاً من تاريخ التمثيل المخزني بالمجال التادلي. وبما ان آلية هذا التمثيل يجسدها جهاز مخزني محلي يستمد قوته وسلطته من المركز، فإننا سنحاول رصد و ابراز بعضاً من ملامح ذلك الارتباط وقد ارتسمت بعض قضاياها في جملة من الوثائق والمستندات والتقارير هي من صلب الارشيف المخزني.

وحرى بنا التنويه بداية إلى أن أية مقارنة تاريخية في هذا الاتجاه تبغيا دراسة تلك العلاقة بما هي قائمة على نظام قايدي يتجسد دوره في ربط المجال بالمركز والسكان بالمخزن، سيكون من الصعب ان لم يكن من المتعذر تلمسها والالمام بها معرفياً، خارج نطاق ما تفصح عنه المستندات والوثائق الرسمية، بما هي مصادر مستخرجة من الأرشيف المخزني. ليس فقط لأنها تمثل المرتكز الأساس في دراسة البحث كما رمناه في هذا الفصل فحسب، بقدر ما كان يجسده مضاء فحوى تلك المراسلات وهي تصدر بإذن من السلطان من قيمة مرجعية وأساس قانوني يحتاج به كل من لديه تكليف أو أمر بتنفيذ فحواها، ممن له ارتباط بالنظام الإداري المحلي¹⁴².

ورغم وعينا من ناحية الضبط المنهجي، أن أي عمل بحثي إذا ما اقتصر النظر فيه فقط من زاوية الخطاب والمكتوب الرسمي، بأنه لا يمثل معياراً وحيداً وحصرياً يمكن أن تتحدد بموجبهما الإحاطة الشاملة بمستويات العلاقة الاجتماعية بالجهاز المذكور، إلا إن الثقل التاريخي والتراثي الذي ميز الرصيد الوثائقي وكل أصناف المكتوب خاصة منه الصادر عن المخزن المركزي يطلعنا على أشكال تصريف أعباء شؤون الدولة ومقتضيات الحكم قبل الحماية، فإن الامر يحتم علينا تقديره واعتبار مضمونه التاريخي خطاباً له مسؤولية في التدبير ومشروعية في القرار، ضمن نسق سياسي عام يسعى من خلاله المخزن الى تنظيم القضايا المحلية والشؤون القبلية.

إن من بين خصائص المكتوب المخزني، انضباطه لقواعد مخزنية وعوائد تقليدية معروفة كان على كل المرتبطين به من خدام الدولة أن يخبروها ويتقيدوا بها¹⁴³. فهو يخضع لنظام إداري

¹⁴² جرمان عياش : حرب الريف ص ص 352-353. و قد تمكن المؤلف المعروف في كتاباته بنزعه الوطنية ، من ابراز اهمية الوثائق الرسمية واعتماد الرباند والارشيفات المخزنية للتوسل بها في تعميق الدراسات والبحوث في تاريخ المغرب .

¹⁴³ EUGENE AUBIN : OP CIT P P 234-235

صارم كما سبقت الإشارة الى ذلك في الفصل الأول، وعلى محتواه أن يقابل بالجدية وقدر من حسن التدبير، ونعني بذلك الصادر من المركز. أما الوارد من المكاتبات عليه من تقارير وإحاطات ورسائل إخبارية فيشترط بلوغها قدر من الجدية والوثوقية.¹⁴⁴

وحتى نوافق بين هذا وذاك، ورعيا لتوخي جانب الدقة والتماس قدر من الموضوعية في مقارنة تحليل بعض المعطيات وتفسير جوانب من سياقات الأحداث والوقائع في ارتباطها بالواقع المحلي اجتماعيا واقتصاديا وحتى سياسيا. فإن شرط الكياسة في استغلال وثائق الأرشيف المخزني تصبح ضرورة ملحة، رغم ما يكتنفها من ثغرات وقطائع منهكة في تتبع مسارات الأحداث، وهذا بالضبط ما يدفعنا بين الحين والآخر إلى تلمس وتعقب الوقائع أيضا من بعض الكتابات المصدرية والتأليف التقليدية لرتق ما يمكن رتقه.

ومن ناقل القول، أن المخزن يعتبر العمال والقواد ركائزه الأساسية في تدبير شؤون المجتمع المحلي خارج نطاق المدن السلطانية، لما تحمله صفتهم التمثيلية المزدوجة من مشروعية عبر إقرارهم في مناصبهم من طرف السلطان بواسطة تعيين رسمي مسنود بظهير التولية، تقديرا لحجم المهام والمسؤوليات المتعين عليهم مباشرتها، واستجابة لشروط التأطير الإداري الذي تقتضيه ضرورات حضور سلطة الدولة بالمجال في تدبير قضايا السكان واعتمادهم صلة وصل بين القبائل والمركز.

فالأساس الذي تقوم عليه وظيفة الجهاز المخزني المحلي كثيرة ومتعددة منها ضمان الأمن والاستقرار في حدود إيالة كل عامل اوقائد أو خليفة قائد تحدد له سلفا. سواء أكانت ذات مضمون مجالي أو قبلي، والحرص على تيسير سبل التنقل السفاري والبضائعي والقدرة على تنفيذ توجيهات المركز، كاستيفاء الواجبات الضريبية من أعشار وزكاوات في ابانها. وكذا تجميع المون كلما دعت الضرورة الى ذلك، والوقوف على تنفيذ الكلف وإجراء الأحكام، وتتبع كل تفاصيل الحياة العامة بدائرة نفوذه. كما يجب أن تكون له دراية بالتقاليد والعادات سواء بقبيلته او من ما يكتسبه بالفطنة والبدئية في أمور المخزانية، خاصة فيما يتعلق بمراسيم استقبال المحلة السلطانية عند مرورها بالمجال ذهابا وايابا، او عند زيارته للمركز بموجب استدعاء او ملاقة بمناسبة تقديم هدايا الاعياد الثلاثة. وتلخص رسالة سلطانية المبادئ الأساسية التي يتعين على العمال والقواد العمل بها وهي تعكس في ذات الوقت التصور العام لوظائف ممثلي المخزن لدى القبائل المحلية جاء فيها: « [..]

¹⁴⁴ يعمل المخزن في غالب الاحيان الى ايفاد فرق يزيد او يقل عدد افرادها من الجند او المساخرية الى الاقليم بغية التحري في نازلة ما ، او الوقوف على بعض القضايا او المساعدة في حل الخلافات وهذا ما يدفع العمال والقواد الى توخي الحذر في ما يبلغون به من تقارير واحترازهم من مجانية الحقائق .

فالعامل إنما حسبه رد البال وتأمين الطرق وإجراء الأحكام وشد العضد على الصلاح والطاعة وحفظ النظام، وإجلال كل طائش عند حده وحمل كل واحد على اتباع معاشه»¹⁴⁵

ولئن كانت هذه الوظائف متعددة الأبعاد في إطار علاقات معقدة ترسمها طبيعة النموذج القبلي وتنوعه الثقافي واللغوي، فإنها تبقى في جميع الأحوال مرتبطة بالنسق السياسي الذي يحدده المخزن المركزي، ما يجعل جهازه المحلي خاضعا بالضرورة للمراقبة والمساءلة¹⁴⁶.

فمبادرات العمال والقواد العسكرية والتفاوضية على سبيل المثال، أثناء مواجهتهم لأحداث طارئة أو مفاجئة من صنف تمردات القبائل أو انتفاضة فخد ما، فإن فعاليتها تبقى دوما مؤطرة بتوجيهات المركز وبمقتضى ما تفرضه المصلحة العليا التي يحددها المركز.

إن ما أتيج لنا الاطلاع عليه من وثائق ومراسلات مخزنية، بما هي عناصر فعالة في الوصل بين المحلي والمركزي في مجال التخابر والاستخبار، قد منحنا القناعة بعد تعديد الاستبارات الوثائقية واستقراء محتويات مكتوبها وخطابها، ومحاولة رتق القطائع بما يتاح من إشارات في المصادر التاريخية، أن هامش استقلالية العمال والقواد في اتخاذ قرارات كبرى داخل إيالتهم أصبح يضيق أكثر فأكثر كلما ارتقينا صعودا عبر كرونولوجيا تواريخ الوثائق من منتصف القرن إلى نهايته.

فكيف يمكن مقارنة حضور هذا الجهاز، ورصد تطور مساره الوظيفي بتادلا إلى حدود نهاية القرن التاسع عشر؟ وما هي العوامل التي ساعدت على جعله أكثر فاعلية وتحقيقه لنقطة نوعية من خلال توسيعه للنفوذ المخزني ليطال مناطق جبلية كانت إلى عهد السلطان المولى عبد الرحمن عصية على المركز؟ ثم ما هي مستويات ودرجات النفوذ والسطوة التي اكتسبها قواد بعينهم دون غيرهم؟ وبمعنى آخر، هل يمكن أن نجد للعنف المشروع منه ما يستمدون مشروعيته من المركز ومنه ما يختلقونه ويبدعون فيه من ذات أنفسهم تبريرا يمنحهم منطقا لأحكام قبضتهم على الرقاب أم أنه كان سببا في إذكاء الخلافات مع القبائل وتأجيج أسباب الفتن والصراعات؟ .

ومهما يكن من أمر ومن خلال تتبعنا لسيرة الحضور المخزني بالوسط القبلي، فإن شساعة المجال التادلي، وتعدد قضاياها وتواتر أحداثه، اقتضت منا منهجية البحث إلى تقسيم رقعة المجال وفق مضمونه القبلي وخصوصياته الجغرافية في توافق مع توزيع حضور القواد المحليين بحدود

¹⁴⁵ غريط محمد : (مرس). من رسالة سلطانية للمولى عبد العزيز . ص 97

¹⁴⁶ لابد من الإشارة هنا إلى أن عملية مركزة السلطة والتتبع الدقيق لكل تفاصيل تحركات القواد وتوجيههم إنما ظهرت بصورة مكثفة على عهد السلطان الحسن بن محمد ، تعكسه ذلك مضامين عدد هائل من الرسائل والتقارير المستنسخة بالكانتاش أو الرسائل المستقلة المؤرشفة بالمحفظات بالخزانة الملكية بالرباط

ايالاتهم ومع التصنيفات الوثائقية التي تناسب مضامينها كل منطقة. لكن قبل ذلك لا نرى مندوحة في إلقاء نظرة عن الاقليم التادلي كما تجلت من منظور وتصور المخزن إزاءه بالقدر الذي ميز وضعه الجغرافي ومضمونه البشري من ثقل في السياسة التدبيرية للحكم بالمركز.

- المبحث الاول، تادلا وجوارها الطرفي، وهيمنة البعد الامني في سياسات الدول المتعاقبة:

المطلب الاول، تواتر الحكم المحلي بتادلة:

أدرك المرابطون منذ بداية اعتلائهم حكم المغرب أهمية الاقليم التادلي وبعده الاستراتيجي في استقرار المنطقة ونجاعة موقعه في ربط الشمال بالجنوب، سيما وأنه كان المجال الذي مرت منه جيوشهم باتجاه فتح مدينة فاس. ومن أجل تثبيت سلطتهم ودعم قوتهم بادروا الى تشييد حصون بتادلة "وتاكزورت وداي وتاكرارت"¹⁴⁷. كما سار على نهجهم الموحدون لكن بأسلوب مختلف، حيث عمدوا الى إعمارهم بمجموعات هلالية بهدف إقامة توازن بشري في مواجهة الجبل الصنهاجي¹⁴⁸. ثم أنشأ من بعدهم السعديون على عهد احمد المنصور الذهبي، القصبية الزيدانية لأسباب أمنية وجبائية. وعلى عهد المولى اسماعيل أعيد اعمار قصبية تادلة وتأهيل موقعها عسكريا لتمكين إدارتها من مراقبة تحركات قبائل الجبل الصنهاجية، مع تعزيزها بحصون فرعية تمتد على طول الشريط الديري منها من لا زال قائما الى اليوم بشمال قرية فشتالة. وفي العقد الاخيرين من القرن التاسع عشر فرضت دينامية قبائل الجبل عقب توسيع نشاطها التجاري والعسكري، بناء قصبتي خنيفرة بزيان وموحي اوسعيد بآيت ويرة¹⁴⁹.

لقد تجلت بحق أهمية الاقليم أمنيا واقتصاديا على سلم اولويات السياسة الجهوية للمخزن. ما جعله يقدم على تعيين حكام من دائرته الضيقة من أمراء وخلفاء عهد إليهم بتدبير شؤون المجتمع المحلي وتشديد المراقبة على مسالكه ومفازاته، تذكر المصادر التاريخية من بينهم "يدا لهم" على عهد علي بن يوسف بن تاشفين¹⁵⁰. والامير زيدان الذي سيصبح سلطانا ومن بعده شقيقه ابا الحسن من أبناء أحمد المنصور الذهبي¹⁵¹. ثم تولى على العهد العلوي المولى أحمد بن اسماعيل تدبير شؤون الاقليم بصفته خليفة السلطان الذي سيصبح بدوره سلطانا¹⁵². وشهدت قصبته إقامة السلطان

¹⁴⁷ البيدق ابو بكر الصنهاجي : اخبار المهدي بن تومرت وبداية دولة الموحدين . دار المنصور للطباعة الرباط 1971 ص 50 .

¹⁴⁸ ابن خلدون عبد الرحمن : (م.س) ط3 ص 38

¹⁴⁹ المنصور احمد : كباء العنبر من عظام زيان واطلس البربر، تحقيق محمد بن لحسن منشورات المندوبية السامية لقدماء

المقاومين . 2004، ط 1. ص ص 143، 144 .

¹⁵⁰ البيدق ابو بكر الصنهاجي : (م.س) ص 50 .

¹⁵¹ الفشتالي عبد العزيز : (م.س) ص 93 .

¹⁵² الزياتي ابو القاسم: البستان الطريف ص 179 .

محمد بن عبد الله لفترة قصيرة. بينما امتدت إقامة خليفة السلطان المولى الحسن لمدة ستة أشهر بمحلته على التخوم الشمالية لإقليم تادلة سنة قبل اعتلائه العرش خلفا لوالده سيدي محمد.¹⁵³

المطلب الثاني، المجال التادلي من منظور مخزني:

لا يمكن فهم وتقييم مكانة الحضور التادلي بالنسبة للمخزن الا برطه بما كان يمثلته من ثقل بشري وسياسي وعسكري وبعد استراتيجي تفسره بشكل واضح بما أولاه الحكام منذ القديم من عناية في ضبط مجاله وتعزيز نفوذ سلطته به من خلال تعديد إنشاء القصبات والحصون وامدادها بما يلزم من جند وحاميات عسكرية وسلاح.

لقد برزت أهمية الإقليم التادلي لدى الدول المتعاقبة على حكم المغرب، وتمكنت من تدعيم حضورها بما توفر لديها من وسائل وطرق تدبيرية، فكان أشبه ما يكون بالبوابة الكبرى التي تفتح على الجهتين الشمالية والجنوبية، وعلى الدولة التي ترغب في استمرار اسقرارها بالجهتين ان تديم تحكمها في أرضه. فكيف قاربت تلك الدول سياستها المجالية بالإقليم التادلي؟

المطلب الثالث، العصبية الصنهاجية هاجس أمني:

ليس من شك في أن العصبية الصنهاجية شكلت على الدوام هاجسا أمنيا وانشغالا سياسيا لدى الحكم المركزي. فقد أدرك المنصور الموحي وهو مؤازر بعصبية مصمودية خطورة الكتلة القبليّة الصنهاجية التي تحدث عنها ابن خلدون لاحقا بقوله: "ولصنهاجة هؤلاء بين قبائل المغرب أوفر عددا وشدة وبأس ومنعة، وأعزهم جانباً أهل الجبال المطلّة على تادلة"¹⁵⁴، فلم يرى من حل لحصر قوتها واندفاعها غير إعمار المناطق السهلية الوسطى بمجاميع وفرق هلالية بالسهل التادلي: "ومنها تدفق بني جابر الى سفح الجبل يجاورون هناك صناكة"¹⁵⁵.

وللضرورة السياسية والأمنية نفسها دفعت السلطان اسماعيل إلى استجلاب جماعات من الآفاق خاصة من الجنوب الشرقي، وتوطينهم بالأراضي الواطئة المتاخمة للجبل محدثا بذلك وضعا سكانيا جديدا¹⁵⁶ استهدف من ورائه إقامة توازن بشري بالمنطقة وكبس أي طموح صنهاجي. لقد كان المخزن يدرك أن أي ارتخاء في القبضة الأمنية أو تهاون في إحكام المراقبة للمجال التادلي ستكون له عواقب وخيمة قد تهدد أمن مكناس العاصمة نفسها.

فتقدير الوضع على هذا المستوى بما تلزمه الضرورة من نهج سياسة الاحتواء سيما وأن "لهم اعتزاز على الدولة ومنعة على الهزيمة والانقياد للمغرب"¹⁵⁷، دفع المخزن الاسماعيلي الى

¹⁵³ بن ابراهيم السباعي : (مخ.س) ورقة 134

¹⁵⁴ ابن خلدون عبد الرحمان : (م.س) ج 06 ص 274

¹⁵⁵ ابن خلدون عبد الرحمان : نفسه ص 42

¹⁵⁶ DE LA CHAPPELLE : archives Marocaines V X X III PARIS 1931 P P 37.38.39.40.41 .42

¹⁵⁷ ابن خلدون عبد الرحمان : نفسه ص 275

خيار الانزال العسكري بالقصبات ومدى شبكات تواصلية مع تحييده كل قوة مناوئة قد تظهر مجددا بالجبل. وتكفي هنا الإشارة الى النموذج الدلائي حيث ساهمت القبائل الصنهاجية مستفيدة من مجالها الطرفي شأنها شأن التجربة المرابطية والمصمودية وكذا الزناتية، في الارتقاء بطموحات الزاوية وتمكينها من تشكيل قاعدة بشرية صلبة لتأسيس إمارة بلغ إشعاعها التوسعي إلى حاضرة الشمال¹⁵⁸، إلا أن إيديولوجيتها القائمة على دعوة صلاحية وعصبية قبلية لم تسعفانها في الاستمرار مع سوء تدبير سياسي في مواجهة متغيرات وتحولات جوهرية كانت قد طالت النسق السياسي العام الذي انخرط فيه المجتمع المغربي منذ العهد السعودي الشرفاوي.

لقد عكس القضاء المبرم على طموحات الإمارة الدلائية الجاعلة من الاقليم التادلي وقصبتة مجالها الحيوي¹⁵⁹ وآل بها الأمر إلى الأفول، مدى حرص الدولة العلوية الناهضة من عمق الصحراء بالشرق المغربي، على استفادتها من تداعيات وعواقب أي اختلال وتغافل في تشديد المراقبة على المناطق الطرفية بالجبل، ما جعلها تعمل ما يسعها الإمكان على ربطها بالمركز.

وبينما كان المخزن المركزي يواصل ضغطه على هذا الجانب من الإقليم¹⁶⁰، فإن جذوة طموحات قبائله التي لف حياتها لدى الاخباريين نوعا من الضبابية، لم تكن قد خبت بعد في التطلع الى السلطة، أو على الأقل امتطاء جزء منها محليا، فحاولت إعادة انتاج نفس تجربة الدلاء، فترنحت حركتها بين الظهور والضمور منذ نهاية القرن الثامن عشر.

فقد التفت مرة أخرى واحتشدت منذ عهد السلطان اليزيد حول زعامة مرابطية من آل أمهاوش¹⁶¹، مهددة بذلك المخزن المركزي والمحلي طيلة القرن التاسع عشر¹⁶². فكان من الطبيعي على المخزن أن يدبر التناقض الحاصل بين مرابط تائر بالجبل ومرابط مهادن بالسهل بأبي الجعد.

- المبحث الثاني، المخزن المحلي، مقاربة أولية:

تسمح لنا الإشارة من حيث تعدد وظائف التمثيل المخزني بطرح السؤال التالي: هل سار نظام التمثيل المخزني بالاقليم التادلي وما إليه من قبائل الدير والجبل على نمط واحد؟ أم شهد

¹⁵⁸ حجي محمد : الزاوية الدلائية ودورها الديني والعلمي والسياسي مطبعة النجاح الجديدة 1988 ص 167 و ص ص 226-227
¹⁵⁹ تحدث بن الطيب القادري في كتابه نشر المثاني ، عن محاولة احمد الدلائي بن عبد الله بن محمد الدلائي استرجاع ملك اجداده سنة 1088 هـ ف وقعت معركة بين اتباعه وبين عرب تادلا فغلبوا عليهم و ملكوا تلك البلاد وحوزها واخذوا قصبته (ج 2 ص 229)
¹⁶⁰ الناصري أحمد : مصدر سابق ج 7 ص 80 / الزباني مصدر سابق ص 153
¹⁶¹ تفيد ملاحظات شارل دوفوكو حول اسماء بعض المواقع ، ان الجبل الواقع شمال شرق الدير التادلي كان يعرف بجبل امهاوش.
¹⁶² جاء في مخطوط الروضة السليمانية للزباني بالورقة 261 ما يلي : وحاصروا السلطان (المولى سليمان) بمكناسة واستمرت الحرب معهم ،واتوا بدجالهم مهاوش رأس ضلالهم ، اجتمعوا عليه وحزبوا الاحزاب ولا زال امير المؤمنين في رقع خرقهم تارة بالسلم، وتارة بالحرب ،اذ لا وفاء لهم ولا عهد لذمتهم .

مراحل متواترة تحكمت فيها ظروف تاريخية وأسباب سياسية وعوامل اقتصادية واجتماعية؟ وكيف يتسنى لنا بمقتضى ذلك فهم السياسة التدييرية للمخزن لشؤون القبائل في ظل المتغيرات التي عرفها المغرب خلال الفترة المدروسة خاصة أمام الضغوطات الاجنبية وتأثيرها على الواقع المحلي كما باقي عموم المجتمع المغربي؟

للتعرف على ذلك، ارتأينا بداية تتبع حضور التمثيل المخزني على المستوى المحلي عبر مسار زمني طويل يمتد استرجاعه من العهد الاسماعيلي الى نهاية القرن التاسع عشر، ذلك من أجل فهم مآلات ذلك الحضور الى نهاية القرن، فان لتاريخه امتدادات وترابطات ميكانيكية يشد بعضها بعضا. فليس من الجائز القفز عليها ما دامت الحياة القبلية بقيت جذوتها منفصلة مع أشكال ذلك الحضور. ولم يشهد تاريخها أي انقطاع أو انفصال يبرر إغفال دورها في رسم تطوير أشكال التدبير المخزني لشؤونها. لكن يتعين الاعتبار في نفس الوقت، أن ضرورة الاسترجاع هاته لا نسعى من توظيفها الا كمدخل منهجي نتوخى منه إبراز المرحلة الأساس التي هي المنتصف الثاني من القرن التاسع عشر نتيج لنا تفكيك الاجابة عن تساؤلاتنا والخروج باستنتاجات تركيبية لفهم المآلات التي انتهت اليها نتيجة التدبير المخزني والحكم القايدوي خلال الفترة المدروسة.

ولا ندعي ونحن نصيغ هذا الفصل أنه بإمكاننا التطرق لمقاربة شاملة لكل العناصر التي تتداخل في التركيب البنيوي المحدد لعلاقة التمثيل المخزني بالمجتمع المحلي وتفتيت مكونات منظومته وتحليلها بشكل اوفى. الا أنه بدى لنا من المتاح فيما نعتقده بإمكانية تناول هذه الاشكالية باعتمادنا على مقاربة ما ارتكز عليه حضور سلطة جهاز المخزن بالمجال بما تحمله صفته التمثيلية تلك من طابع المشروعية مسنود بتوجيه ومراقبة المركز، وبما توفر لهذا الجهاز من إمكانات ذاتية وموارد محلية مكنته من الاستمرار في التأطير الاداري والاضطلاع بوظيفته في التدبير وبالإبلاغ بكل ما يمور في الوسط القبلي عبر وسائط متعددة للتواصل من اهمها تبادل الخطاب والرسائل والمبعوثين.

وقد مكننا الاطلاع ودراسة وثائق الارشيف المخزني، من الاحاطة بجوانب متعددة من حركية ودينامية الحضور المخزني طيلة النصف الثاني من القرن التاسع عشر. ورصد أشكال تدبيره للتناقضات الحاصلة بالمجتمع المحلي بما تفرضه مهامه الوظيفية، سواء في تنفيذ مطالب المركز بما فيها التحصيل الجبائي وحيازة المونة، ومن تسخيرات وتوظيفات مالية وعينية، أو فيما يتعلق بتدبير الصراعات والخلافات المحلية الناجمة عن ردود فعل السكان في مواجهة الضغوطات

الجبائية، تعود دوافعها وأسبابها في الغالب إلى محدودية الانتاج والكفاف الاقتصادي لا يتجاوز نسبه في حدوده العامة سد الضروري والحاجي من عيش السكان.

ولئن كانت تحركات ونشاطات الجهاز المحلي تسيير وفق نسق تدييري من المركز خاضعا بذلك لمراقبة وإشراف مباشرين، فان مساحة تحركه تبقى ذات هامش يتسع ويضيق بمقدار ضعف او قوة سلطة المركز، وحسب طبيعة الحكم الذي يتجدد باستمرار وفق انماط تخضع لشروط الظرفية التاريخية ولمتغيرات المرحلة، دون ان يطال ذلك جوهر ومرتكزات المخزن التقليدية¹⁶³. إذ يتحدث الكنسوسي عن ذلك بقوله: " وكانت مخالفة السلطان لسلطة سلفه إنما هو لمصلحة أوجب اعتبارها"¹⁶⁴.

وإذ نحاول التطرق الى العلاقة التدييرية للسلطة بالمجتمع المحلي بالإقليم التادلي كما تجلت مضامينها في الوثائق المخزنية الرسمية، ومقاربة فاعلية الجهاز الاداري المخزني كأداة داعمة للحضور المخزني بالمجال، فإنه تنبغي الاشارة إلى أن التمثيل المخزني المحلي له خصائص متعددة، وحاملا لأوجه متنوعة لمصادر السلطة. ليس فقط من زاوية سلطة البعد الدنيوي ومدى احتكارها للعنف المشروع في التعاطي لتديير القضايا المحلية، بل يستند المركز المخزني أيضا على آليات أخرى ذات مرجعية دينية واعتبارية تحظى بالقبول لدى القبائل بالسهل والدير والجبل، بما أكسبها رأسمالها الرمزي والروحي من تقدير واحترام. إنهم الشرفاء والمرابطون الذين تتحقق على أيديهم أشكال من التوازن والاستقرار وتماسك في النسيج الاجتماعي والقبلي، مسدين بذلك خدمات جلى لفائدة المركز¹⁶⁵.

فما هي المحصلات المعرفية التي امكن استشفافها من مستقرات الوثائق المخزنية وافادتنا به اقتحام هذه المقاربة التحليلية في رصد علاقة التمثيل المخزني المحلي بالمكونات القبلية بالإقليم التادلي؟ ثم ما هي مصادر القوة التي قامت عليها منظومة الجهاز المخزني في إطار من تعدد الوظائف المخزنية في ارتباطها مع اشكال تديير قضايا وشؤون السكان؟ ثم ما هي العوامل التي ساعدت على تطوير آليات هذا الجهاز وجعلته أكثر فاعلية في توسيع النفوذ المخزني فترة العهد الحسني ليطال مناطق جبلية كانت الى عهد قريب عصية على المركز¹⁶⁶

¹⁶³ رغم طابع الاستمرارية الذي ميز جوهر الحكم المخزني فانه لم يكن يتوانى في اعادة تجديد اجهزة حكمه المحلية بتولية قواد جدد واعفاء اخرين من مناصبهم عقب كل تولية جديدة للسلطان

¹⁶⁴ الكنسوسي ابي عبد الله محمد (م.س) ج 2 ص 64

¹⁶⁵ نعث في بعض المستندات ووثائق الارشيف المخزني على كثير من الرسائل المتبادلة بشكل مباشر بين نقيب شرفاء اقليم تادلا وكذا سيدي بن داود مرابط ابي الجعد وبين السلطان في قضايا لها صلة بتأطير المجتمع .

¹⁶⁶ اليماني الطيب بوعشرين (م.رس) ص 27

المبحث الثالث، تطور الحكم المخزني:

المطلب الاول، فترة الحكم الأميري:

في السنة الاخيرة من القرن السابع عشر أشار السلطان اسماعيل باستخلاف ولده احمد على تادلة وإنزاله بقصبتها ومعه ثلاثة آلاف من وصفاته، وأمره أن يزيد في تلك القصبه. فبنى قصبه جديدة وبنى قصره فيها وبنى مسجدا أعظم من مسجد والده واستقر بها¹⁶⁷. بل مكث في خلافة السلطان على الاقليم لأكثر من ثمانية وعشرين سنة، لكن تحت مرجعية حكم مركزي قوي وتدابير محلي قوامه التفوق العسكري على القبائل بهدف المراقبة وجباية الضرائب وفرض الكلف بمساعدة الأشياخ والاعيان المحليون. حتى امتلأت مخازن وامراس القصبه بنتاج الحبوب. وتغنينا إشارة الزياني عن تفصيل ذلك بقوله: " والعمال تجبي الأموال والرعايا تدفع بلا حساب، وصار أهل المغرب كفلاحي أهل مصر يخدمون ويدفعون في كل جمعة"¹⁶⁸.

حافظ خليفة السلطان على الاستقرار الأمني بالإقليم التادلي طيلة فترة تقلده المسؤولية مستفيدا في ذلك من عاملين اثنين:

- شيوع حالة من الهدوء الاجتماعي والتوجس القبلي، عبر عنها الزياني بقوله: " ولم يبق بأرض المغرب سارق ولا قاطع، ومن ظهر عليه شيء وهرب يأخذ في كل قبيلة مر بها وفي كل قرية، وكل من باث مجهول الحال بحلة أو قرية يتقف بها الى ان تتبين براءته، وإن تركوه فإنهم يؤاخذون به ويؤدون ما سرقه واقترفه من الجرائم كالقتل وغيره"¹⁶⁹. وما ذكره كذلك ابن ابراهيم السباعي: "[...]تخرج المرأة والذمي من وجدة الى وادي نول فلا يجدان من يسألهما من أين وإلى أين". وتهافت مثل هذه الروايات التي يفهم منها تمكن المخزن على هذا العهد من "إحياء بوسائله المتوفرة المغرب التاريخي ونجاحه في خطته بتوحيده المغرب وإخماد الثورات" حسب استنتاج المؤرخ عبد الله العروي¹⁷⁰، فان ذلك يسمح لنا بطرح السؤال التالي، هل كان لمعالجة القضايا الامنية بالمجتمع تقتضي من المخزن تعاطيها بمزيد من القوة أو ما يعرف بالعنف المشروع بالمفهوم "الفيبري" مثل فعلا سببا في استقرار وهدوء قبائل الاقليم التادلي كما باقي الأقاليم مرحلة حكم السلطان المولى إسماعيل؟ أم كان نتيجة لعوامل أخرى من بينها ما فرضه المخزن من خيار أدى الى استعادة

¹⁶⁷ الزياني ابو القاسم : البستان الظريف ص 180

¹⁶⁸ الزياني ابو القاسم : نفس المصدر ص 185

¹⁶⁹ الزياني ابو القاسم : نفسه ص 185

¹⁷⁰ العروي عبد الله : مجمل تاريخ المغرب ، المركز الثقافي العربي ط 2 ج 3 2004 ص 87.

تشكيل المجتمع المغربي على نمطه المعتاد¹⁷¹؟. ومهما يكن فإن نجل السلطان مارس سلطته ضمن مرجعية مركزية، وظل هو نفسه تحت مراقبة أعين والده " فقد عزل السلطان أولاده من الأعمال كلها، ولم يُبق إلا على ولي العهد بتأدلة وعبد الملك بسوس"¹⁷².

- تحديد المناطق الجبلية بشرق وشمال تادلا بعد إخضاع سكانها بحد السيف، وصدّهم عن طريق تادلا ولم يترك السلطان اسماعيل لقبائلها خيلا ولا سلاحا¹⁷³. كما كان لتولية قائد ايت ايمور علي اوبركا¹⁷⁴ المعروف بسطوته، مع إمداده بالجند والسلاح بعد تشييد قصبات بزيان وتيغساليين وآيت اسحاق، أثرا حاسما في إبقاء إرهابات التمرد في حالة كمون. واستطاع هذا القائد من مد نفوذ سلطته الى حدود الأزغار بالشمال السخماني ومناطق الدير الشمالي لتادلا، كما كانت له يد في إحداث فرع للزاوية الناصرية بايت هودي ستعرف لاحقا بزاوية الشيخ مقتطعا لها أرضا من عزبانه المنتشرة بالمنطقة لتمكينها من موارد ذاتية¹⁷⁵.

هذا على مستوى منطقة الجبل بالشمال والشمال الشرقي لتادلة، فكيف كانت علاقة الخليفة مع الزعامات المرابطية لآيت أحنصال التي كانت ترنو وتتطلع الى السهل التادلي ومن ورائها القبائل العطوية الملتهبة تحذوها الرغبة في الاستقرار على السفح الشمالي للأطلس الاوسط؟ لا تفيدنا كثيرا كتب الاخباريين حول ما كانت عليه علاقة الخليفة مع مرابطي حنصالة بالتدقيق، الا من إشارات مضمنة بوثائق تم الكشف عنها بزاوية تناغملت وهي حسب ما كشف عنه عبد الله حمودي بأنها على شكل رسائل تتحدث واحدة منها سبق أن بعث بها السلطان الى نجله احمد على خلفية زيارة وفد مرابطي حنصالة لمكناس بقوله: "أثنوا عليك بخير ودعوا لك بخير وذكروا لنا إحسانك إليهم"¹⁷⁶

إن حسن سيرة الخليفة احمد الذي سيلقب بالذهبي عند اعتلائه العرش، في علاقته بمرابطي آل أبي عثمان سعيد أحنصال ستفيده كثيرا فيما بعد. وقد شفعت له في ذلك عند مؤازرة مرابط

¹⁷¹ فيما يتعلق بمسألة الصراع الذي ينشأ حول احتكار العنف الرمزي المشروع يذكر السوسولوجي الفرنسي في مؤلفه الرمز و السلطة: "ان الطبقة السائدة تشكل مكان صراع من أجل فرض مراتب لمبادئ التراتب الاجتماعي. فالفئات السائدة التي تتركز سلطتها على رأس مالها الاقتصادي، ترمي الى فرض مشروعية سيادتها إما عن طريق انتاجها الرمزي، او بفعل اولئك الذين يدافعون عن ايديولوجيا المحافظة" ص ترجمة عبد السلام بنعبد العالي، دار توبقال للنشر ط 2007 ص 51.

¹⁷² الزباني ابو القاسم: م. ص 185

¹⁷³ الزباني ابو القاسم: نفسه ص 185

¹⁷⁴ تم اغتيال علي اوبركا في ظروف غامضة بجبل ايشقيرن بالشمال التادلي.

¹⁷⁵ cdt CHANCHIS : Monographie oum el bakht C.H.E.H.A.M. doc N° 224. ARCHIVES MAROC p 8

¹⁷⁶ حمودي عبد الله: الانقسامية والترتب الاجتماعي و السلطة السياسية والقداسة. عن كتاب الأنثروبولوجيا والتاريخ، ترجمة عبد الاحد السبتي وعبد اللطيف الفلق. دار توبقال للنشر ط 2007 ص 76.

الزاوية في محنته بعد عزله عن الحكم ومبايعة اخيه عبد الملك عندما التجأ الى " قيم الزاوية اذ ذلك ولده أبو يعقوب يوسف بن سعيد فأخبره برجوعه لملكه وعود الامور إليه" ¹⁷⁷.

ظلت الحاضرة التادلية في عهد الخليفة مركزا حيويا للإقليم " وتزاحمت على أبوابها جماعات المرابطين والتجار والمسافرين وأصحاب الشكايات والمظالم" ¹⁷⁸ وانبرى مساعده من الخلفاء في تنفيذ الأوامر الخليفة من قبض للجبايات ومراقبة الاسواق والطرق وتأمين الراحلة. وقد أجزل الامير العطاء للمرابطين ولكل من له قوة الكلمة في قبيلته، ووقوف وصفاته من جند إدالته عند اشارته وبمقتضى إرادته، مسنودا بهيبة والده ومن مرحلة حكم مركزي اتسمت بهدوء عام بما فرضته قوة المخزن المفرطة من كبس شديد على القبائل وضغط عسكري على كل الاطراف حتى باتت ذهنية العامة تهيمن عليها سيكولوجية الخوف والتماس اسباب البقاء والنجاة.

المطلب الثاني، فترة الزعامات ذات النزوعات الاستقلالية: إطلالة سريعة على واقع محلي غير مستقر:
بات من الجلي ان نظام الحكم المحلي بتادلة تحت نفوذ خليفة السلطان قد عرف من الهدوء بصيغة في التدبير تراوحت بين الدبلوماسية والشدة في ارتباط غير مباشر ببنية الحكم المركزي، ما يصح معه القول ان قوة وتماسك بنية الحكم على هذا العهد كان لها تأثير واضح على الحياة العامة للقبائل.

إلا ان الانعطافة التاريخية الخطيرة التي عرفتھا الحياة السياسية والاجتماعية في عموم المغرب عقب وفاة السلطان اسماعيل كانت لها تداعيات وخيمة على استقرار البلاد من جملتها الاقليم التالي.

لقد ادى الاختلال الذي طال الحكم المركزي وانفجار تناقضاته الداخلية، وتدخل المكون العسكري واركان واعمدة جيوش القبائل من بخاري واودية، و"قواد ريوهم" في الحياة السياسية وشؤون البلاط الى انفلات الوضع الأمني، وأصبح المخزن في هذه المرحلة غير قادر على ضبط الحكم "وسقطت هيبة الخلافة وانحل نظام الدولة بالمرّة" ¹⁷⁹. فانتشرت مظاهر التسيب والسلب والنهب والتعديات في كل مكان، ودخل المتنافسون من قادة الجيش في دوامة من الدسائس تسابقا على الجاه والسلطة، وانقلب حينها تهيب القبائل من السلطة الى تنطع عليها، وانبرت كل جماعة

¹⁷⁷ ابن زيدان عبد الرحمان : الاتحاف ج 1 ص 330

¹⁷⁸ ابن زيدان عبد الرحمان (م.س). نفس الصفحة

¹⁷⁹ الناصري خالد مصدر سابق ج 7 ص 117

وعشيرة الى الدود عن نفسها او الحاق الاذى بغيرها "وعادت قبائل البربر التي كانت في اقماع النحاس، قاموا لاقتناء الخيل والسلاح والتوافل والرماح"¹⁸⁰.

فلم يسلم بدوره الاقليم التادلي من اهتزاز الوضع الامني بالبلاد. فرغم احتماء القصبية التادلية بأسوارها وبعمقها القبلي لعرب تادلة، الا ان سهلها بات مرتعا لغارات وهجومات متكررة من جانب آيت ايمور وصنهاجة الجبل، " فأوقدوا فيها نار الفتنة ولم يستطع المخزن لعنفهم وتحديدهم دفعه"¹⁸¹ إلا بعد تغريب السلطان محمد بن عبد الله لمعظم القبيلة الاخيرة الى جبل سلفات بأحواز فاس، ثم ارجاعه بعد ذلك لقسم منهم الى تادلة وانقل كطاية وسمكت ومجاط الى الغرب¹⁸². بعد ثورتهم على قائد تادلة.

اتضحت الصورة بجلاء لما وصل إليه مستوى الهشاشة الامنية وضعف الاستقرار الذي كان يضمه في السابق الحضور المخزني وتنتظم تحت كنفه الحياة الاجتماعية والاقتصادية. فلم يتبق من ملاذ لدى السكان غير الزاوية الشرقاوية والتطلع لزعاماتها الدينية التي كان عليها لملمة شؤون القبائل والتخفيف من حدة التوترات الداخلية.

لقد فرض أمر الواقع على الزاوية عقب تراجع نفوذ السلطة ودخول القبائل في نزاعات بينية، لأن تهتبل فرصة القيام بدورها الاجتماعي اعتمادا على رمزيها الدينية ومكانتها الاعتبارية، فأضحت ملاذا لكل خائف ومستجير فصاغت بذلك لنفسها تبريرا موضوعيا لتجاوز المرحلة جعل الناس يلتفون حولها. فالزاوية على هذا المستوى ستصير منافسا حقيقيا في المجال. فكان مؤشرا واضحا لا يمكن للمخزن الا أن يضعه في التقدير والحسبان.

المطلب الثالث، الحضور المخزني بتادلة بين عهدي محمد بن عبد الله والمولى سليمان:

لا تفيدنا كثيرا المصادر التاريخية في تتبع وتبين بدقة طبيعة الحكم المحلي بالإقليم التادلي منذ وفاة السلطان المولى اسماعيل، فما نعثر عليه من اسماء القواد والزعامات المحلية وتحركاتهم لدى كل من الضعيف الرباطي والزباني المجاليلين لهذه لمرحلة لا تأتي أخبارهم الا عرضا في سياق الأحداث العامة، اما بالتعيين او العزل وبتدخل شخصي من السلطان. الا ان الخلاصات العامة التي أمكن استنتاجها من مصادر المؤرخين افصحت عن ملامح لمتغيرات متواترة طالت حكم الزعامات المحلية والتمثيل المخزني أملتها شروط الظرفية التاريخية غير المستقرة بالإقليم بما شهده من تدافع قبلي وتهرب جبائي واستفحال للضرورة الاجتماعية والامنية. ما حتم على المخزن

¹⁸⁰ الزباني ابو القاسم مخطوط الروضة السليمانية ورقة 299

¹⁸¹ لمزيد من التفاصيل انظر كتاب الاستفصال ج 7 ص 135 وما يليها

¹⁸² الزباني ابو القاسم (مخ.س) ورقة 169

الى مد جسوره مع القوى الفاعلة والمؤثرة بالإقليم بهدف استقطابها وإعادة ترتيب العلاقة بينها وبين الحكم المركزي بما يخدم الاستقرار العام ويضمن للدولة استعادة هيبتها.

فرغم انشغالات المخزن بقضايا كبرى تهم شؤون البلاد محليا وخارجيا، وبعد استعادته لزام أمور الجيش وإعادة هيكلة أركانه وإصلاح بنياته العسكرية والمالية¹⁸³. فانه لم يتغافل عما كان يجري بالإقليم التادلي، بل كان يدرك أنه إذا لم يتدارك الموقف بما تمليه عليه مواقف الحزم والشدة، فان استفحال الوضع ستترب عنه عواقب أشد وطأة على استقرار المنطقة.

ومن خلال تتبع نهج السلطان سيدي محمد بن عبد الله وخلفه المولى سليمان فيما أولياه من اهتمام بقصد معالجة الوضع الامني بالإقليم، فانه إن صح القول انهما ارتكزا على بعدين سياسيين في التدبير المجالي، اولهما محاولة تجديد النخب الحاكمة محليا وثانيهما اعادة صياغة العلاقة مع مرابط ابي الجعد.

- المبحث الرابع، المخزن في مواجهة العصبوية القبلية ونفوذ مرابط ابي الجعد:

المطلب الاول، تجديد الأطر والنخب الادارية:

اقتضت رؤية المخزن في موضوع التعامل مع الأزمة التي بات يعيشها الاقليم التادلي بما هو مجال تترنح قبائله بين عصية بالسهل وأخرى عاصية استحكمت فيها نعمة عصبية تستقوي بفرن جبالها، فاقتضت سياسة المخزن ان يتولى حكم الاقليم قادة ينتسبون الى الدائرة المركزية بإمكانهم تشديد القبضة على قبائله الثائرة حتى لا يتسع الخرق على الراقع " فالسلطان عازم على تولية المناصب من أهل الكفاءة والجد¹⁸⁴ " فقام سيدي محمد بن عبد الله بعزل قائد من قبيلة ورديفة وتعيين الوزير محمد بن حدو الدكالي وهوركن من أركان المخزن آنئذ وإشرافه على تدبير شؤون الاقليم بالإضافة الى ما تحت يده من بلاد دكالة، قبل ان يعيد تقليص مجال قيادته وحصرها على إخوانه فقط وتعيين بدلا عنه ولد الراضي الوردغي¹⁸⁵. ويولي بعده المولى إدريس بن المنتصر¹⁸⁶.

وهكذا توالى حالات عزل وتعيين القواد والعمال، فقد ولى من بعده المولى سليمان اخويه بالتتابع المولى الطيب ثم مولاي موسى بعد وفاة الاول بالطاعون مع تعزيزه "بأربعة آلاف جندي

¹⁸³ الناصري أحمد : (م.س) ج 8 ص ص 15-16 و 61

¹⁸⁴ الزباني ابو القاسم البستان الطريف ص 391

¹⁸⁵ الزباني ابو القاسم : نفسه ص 410

¹⁸⁶ ابن زيدان عبد الرحمان الاتحاف ج 3 ص 403

لمحاربة ولد امهاوش¹⁸⁷. ثم ولى بعدهم كلا من ولده مولاي امحمد، وصهره الحبيب البلغيتي ثم الحاج سليمان من عبيد الوداية¹⁸⁸.

إن توالي التعيينات والعزل في صفوف العمال على الاقليم التادلي لم تكن الا استجابة لظرفية أملت ضرورتها على المخزن لمواجهة حالة عدم الاستقرار، ومداراة لواقع الهشاشة الأمنية التي وسمت مجتمع القسم الشمالي بتادلة. مع الاشارة هنا، الى ان زخم الاحداث الحاصلة كانت أشد وطأة وتركزا فيما بين قصبة تادلة الى حدود الشاوية وهي المنطقة التي كان فيها تأثير مرابط زاوية ابي الجعد واضحا على القبائل هناك.

وقد يكون لعامل التأثير هذا دافعا غير مباشر حوّل اهتمام الناس الى دفع واجب الاعشار والزكوات والهدايا والزيارات للمرابط عن طواعية وطيب خاطر، مما زاد من حجم مداخيل الزاوية ومن تقوية نفوذها، بينما كان المخزن يجد صعوبات جمة في استخلاص الضرائب، بل أكثر من ذلك كان يلقي مقاومة وصدا من طرف القبائل فكان لزاما على القائد أن يكون جابيا ومحاربا في نفس الوقت.

المطلب الثاني، إعادة رسم حدود العلاقة بين المخزن ومرابط الزاوية الشرقاوية:

من الملفت للانتباه ان تمطط الزاوية مجاليا بالإقليم التادلي وما إليه من قبائل الشاوية شمالا أصبح واقعا تسير بذكره ركبان الاتباع والزوار، بل تعداه الى المناطق الديرية والجبل شرقا. فأمام تراجع سلطة المخزن غداة وفاة المولى اسماعيل، لوحظ نهوض الزاوية لتتملأ الفراغ وتقوم بوظائفها الاجتماعية وبأدوار الوساطات والتحكيم، ليس فقط بين الزعامات والقبائل المتناحرة محليا، بل نجحت في وساطات على مستوى هرم السلطة وبالبيت السلطاني نفسه، من خلال سعي مرابطها للصلح فيما بين السلطان سيدي محمد وابنه اليزيد. مكرسا بذلك سلطته الرمزية وتأثيره على مجرى الاحداث. بل تجاوز الامر حدود وظائفه ومكانته الروحية الى ابعد من ذلك. حيث لم يخف جهره بالموالاة السياسية لطرف دون آخر. ففي الوقت الذي كان الصراع محتدما بين السلطان مولاي سليمان، الذي أخذ البيعة من أهل فاس، كان الشيخ محمد العربي يميل بثقله الى جانب المولى هشام. ولم يقتصر الامر على ذلك، بل صار تزايد نفوذه وحظوته لدى القبائل يطرح أكثر من استفهام لدى المخزن. ففي الوقت الذي أصبح يجد فيه صعوبة في النفاذ الى الجسم القبلي كان محيط ابي الجعد بالكاد تسع مساحاته جموع الوافدين من كل حدب وصوب، وأصبح للمرابط

¹⁸⁷ الرباطي الضعيف : (م.س) ص 318

¹⁸⁸ الرباطي الضعيف نفسه ص ص 329-332-333

صوتا لا يعلوه صوت بالإقليم. فلا يكاد العامل الجديد يستقر به المقام في منصبه ويشرع في ترتيب الأمور وتنفيذ الأحكام واستخلاص الواجبات واستيفائها كاملة، حتى تواجهه القبائل بالإعراض أو بالاعتراض أحيانا فلم يعد يستطيع لغوائها ردعا، ولا لئفيرا تهدئة. بينما كانت الزاوية قد انتبذت لنفسها المكانة لأن تصير ملجأ لكل هارب أو مستجير، " فملأوا بجعد رجالا ونساء وصبيانا وهم حفاة عراة يتكفون الناس " 189 .

لقد تنامى نفوذ الزاوية. وغدت منافسا حقيقيا للحضور المخزني في المجال. فلم يكن أمام المخزن من خيار آخر غير حسم الموقف قبل استفحال الوضع، وذلك بإعادة تشكيل علاقة جديدة بالمرابط على أساس التبعية للمركز لا على ندية ممثليه. فبعد التحذير والإنذار ثم التوبيخ للمرابط الذي لم يستوعب كثيرا مغزى ومعنى الخطاب. قرر المخزن في النهاية هدم الزاوية وتغريب أهلها، وقد كان لهذا الإجراء الحاسم دلالاته المعنوية ورمزيته السيكولوجية أكثر منه فعلا إغائيا.

حصل هذا زمن السلطان سيدي محمد بن عبد الله، ثم تلاه تغريب آخر لأهلها زمن خلفه السلطان مولاي سليمان. ويجدر التنويه هنا أن نكبة الزاوية على العهدين لم يكن يتوخى القصد منه استئصال شأفة الزاوية كما حصل للدلاء، بقدر ما كان يسعى الى إعادة بناء ضوابط جديدة في العلاقة بين الزاوية والسلطة وبينها وبين المجتمع. أي أن وظائف الزاوية المعهودة تقليديا، يجب ان لا يقتصر امرها فقط على تقديم الخدمات الاجتماعية بين القبائل بقدر ما عليها ان تركز خدماتها أيضا بما يناسب توجهات المخزن، وان لا يكون الولاء ولا التطلع الا الى الدولة وليس لغيرها. وهو ما حدا بالسلطانيين الى الاحتفاظ بالمرابط رهن الإقامة الاجبارية الى حين انجلاء الامور. ويطالعنا خطاب أحد مؤرخي الدولة العلوية الذين عاصروا هذه الاحداث وكانوا فاعلين فيها وهو أبو القاسم الزياني الذي واجه صعوبات جمة عند توليته لمنصب الولاية على الإقليم التادلي. وهو خطاب نتحسس من الفاظه ومعانيه وقد صيغ بعناية بشأن نكبة السلطانيين للزاوية مدى موقف الزياني من المرابط وهو موقف يظهر انه لم يكن على وفاق معه. " [...] بوبع ولده هشام بمراكش فرده من تلك القرية وعادوا لعلهم الذميمة وسعيهم القديم وعنى كبيرهم واستكبر، وتطور على غير منهاجه العتيد ويتزي بزي الامراء، ونبذ عنه طريق أسفلائه الفقراء [...] ولا زال يخب في الفساد ويضع، وتارة يرفع (السلطان) عنه وتارة له يردع، وبعد أن أنقله من تلك الهاوية لفاس، وانقطعت عنه الهدايا وأموال الناس [...] ضاق حاله حتى كان قريبا من الإفلاس، ثم خدعه ببهتانه وجعل

189 الرباطي الضعيف : نفسه ص 308

يتشفع ويتملق، وبرجال أهل الدولة يتعلق، فعفى عنه السلطان الجليل برده لبلاده ولم يبق له ذكر ولا صيت فحين بلغها دخل في غمده وخاف إن عاد من عوده " 190 .

وإذا أخذنا بظاهر الكلام مما ورد في آخر ما ذكره الزباني، بأن المرابط لم يبق له ذكر ولا صيت، فلا يمكن الأخذ بذلك إلا على سبيل المبالغة¹⁹¹. والحال أن باطنه يدفع الى الاعتقاد أن التحول الذي سيعرفه مسار الزاوية في علاقتها مع المخزن مباشرة بعد الحادث سيكون عميقا. فزعيم أبي الجعد لم يعد لديه من شك في أن استمرار مكانته مرتين بمراعاة ضوابط ومصالح يرسمها المخزن، وأن الانضواء تحت لوائه بالمعيار الذي يحدده، هو السبيل الوحيد للحفاظ على تلك المكانة¹⁹².

المطلب الثالث، تجدد مظاهر الأزمة:

ومن دون شك، أن حدة الأزمة واستفحالها كانت شديدة الوطأة على السكان وعلى المخزن على حد سواء. بل يمكن القول انها تعمقت الى المدى الذي جعل منها أن تأخذ بعدا بنويويا. فأمام توالي الكوارث الطبيعية على عهد المولى سليمان: " [...] وفي أيامه حدث الطاعون الكبير فعم البوادي والأمصار وخت بسببه الخيام والديار " 193 . " [...] ثم سنة أربعة وثلاثين ومائتين وألف فكانت فيه الموت وهذا الثاني كان قبله بسنة جراد عم جميع البلاد، فأفسد على الناس زروعهم وثمارهم فقلت الأقوات وغلت الأسعار " 194 .

وأمام تقلص موارد الدولة من عوائد مداخيل الجمرک وانحصار التجارة الخارجية عن الموانئ نتيجة سياسة الاحتراز في التعامل مع الدول الأوروبية التي سنها السلطان المولى سليمان، وتركيز الدولة في سياستها الضريبية الجديدة بدلا من ذلك على الداخل لتغذية بيت المال، نجم عن ذلك إثقال كاهل القبائل بأعبائها، ليس من جراء أداء الواجبات والضرائب فحسب، بل بفعل تشديد العمال والقواد خاصة منهم المنتسبين لبيت آل الرضي من ورديغة الخناق على القبائل، جعل من تظافر هذه الازمة المركبة ان يضاعف من حدة التناقضات الاجتماعية. فبرزت إلى السطح مظاهر

¹⁹⁰ الزباني ابوالقاسم : مخطوط سابق ورقة 198 . (و بغض النظر عن تقييم مستويات الموضوعية والذاتية في سرد الزباني للحادث ومقارنة موقفه مع المؤرخ أكنسوس الذي اظهر تعاطفه مع المرابط، فان هذا الاخير وحسب رأي ليفي بروفنسال الذي اورده بكتابه مؤرخو الشرفاء: " لم يكن بالنسبة لسابقه الا مؤرخا باهت اللون متحذلقا في كتاباته وخصوصا التاريخية منها وانه لم يكتب التاريخ الا للمدح و التزلف " ص 136 . كما ان بن ابراهيم السباعي لم يسلم من سهامه في فصل خصه فيه بالنقد . انظر البستان الجامع ص ص 258 وما يليها).

¹⁹¹ بعد عفو السلطان عن المرابط وتسريحه تم تمتعه بهدايا اشتملت على 81 بغلة لحمل أثقاله (الضعيف الرباطي ص 348)

¹⁹² اثبتت الوقائع التاريخية أن الزاوية الدلائية لم تكن في بدايتها الا نواة جنينية لمشروع زاوية على عهد الامبراطورية السعدية ثم لما تهيأت لها الاسباب أصبحت أمارة وتمكنت، وعلى الارض التادلية من العصف بدولة الاشراف. أما المولى اسماعيل فلم يجد أي غضاضة في جلب مرابطي الزوايا بالبوادي وإسكانهم بعاصمة ملكه مكناس.

¹⁹³ طال وباء الطاعون الجيش السلطاني نفسه فكان ذلك من بين الاسباب التي ادت به الى الوقوع في انكسارات عسكرية.

¹⁹⁴ ابي العلاء ادريس مخطوط سابق ورقة 05

العنف القبلي وباتت كل مجموعة تحشد قواها لمحاربة رموز السلطة، فظهر بعض العمال في موقف العاجز عن ضبط القبائل التادلية الناعلة بينما لم تشفع للزياني حنكته الدبلوماسية ولا دربته السياسية وتقلبه في مناصب ولائيه شتى في ان ينفذ الامر السلطاني¹⁹⁵ في حين اظهر قائد الشاوية الغازي بن المدني عجزه عن حكم تادلة: "فلم يقدر عليها واعصوبوا عليه"¹⁹⁶.

لكن بالرغم من ذلك، فانه يلزم التنويه هنا ان مقاصد السلطانيين من خلال تعديدهما توليات العمال وعزلهم بوتائر زمنية قصيرة لم تكن غايتها الدفع بأجهزته وإدارته المخزنية من أجل تمثيل شكلي للمخزن، حتى وان اتسم حضورهم بضمور واضح على مستوى قوتهم العسكرية التي يفترض ان تكون في حجم تحديات تمردات القبائل، بل مثل حضورهم عاملا أساسيا في حفظ التوازنات القبلية حتى وهي في حالة تمرد. بمعنى أن رمزية وجود المخزن في خضم الصراعات القبلية، جسد في حد ذاته شكلا من أشكال تدبير العنف في الاتجاه الذي يسمح بإنهاء القوى المتصارعة وتداعيتها في النهاية الى الجنوح للتهدة والسلم.

وبغض النظر عن محدودية قوة السلطة التي ظهر بها هؤلاء الممثلين والتغييرات التي طالت تسميتهم في كل مرة على رأس الاقليم وتحديدًا منهم غير المنتسبين للتشكيلات القبلية المحلية، وعن عدم قدرتهم على حسم مادة النزاع القبلي، فإن الثابت لدى السياسة المخزنية لحلحة مثل هذه القضايا هو تجريد المخزن المركزي للمحلات السلطانية رغم تكاليفها الباهظة، جاعلة من الارتحال والظعن الى الاقليم التادلي¹⁹⁷ رهان يتوجب تحديه، ليس من أجل شن الحروب والفتك بالسكان وتشريدهم كما دأبت على ذلك التأويلات الأجنبية، بل بالسعي الى إجراء الاحكام وشد عضد الجهاز المحلي ومباشرة السلطان لوظائفه من خلال انتشار محلاته بالمجال، سواء بالتحكيم والفصل في الشكايات او بالقصاص من المعتدين والزعار وفق الشرع الاسلامي.

المبحث الخامس، تجريد محلات سلطانية:

أمام استفحال الازمات بالإقليم التادلي، وهي خاصية لم ينفرد بها لوحده، بل وسمت تاريخ القبائل بالمغرب طيلة العقد الأخير من القرن الثامن عشر وبداية القرن الذي تلاه، اتجهت سياسة السلطان المولى سليمان الى تدعيم الحضور المخزني بالإقليم بشكل شخصي بما يعنيه ذلك من

¹⁹⁵ فبعد محاولته القبض على ولد الرازي رغم كونه قائدا من ورديعة فتعصبت عليه قبيلته واطلقوه من يد بلقاسم الزياني بالسيف وكرها منه (الرباطي 320)

¹⁹⁶ الرباطي الضعيف : (م.س) ص ص 316, 323

¹⁹⁷ الرباطي الضعيف (م.س) ص 162 . يقول في هذا الصدد "وفي عام 1183 ، حركة السلطان لتادلة لفساد اهلها واشتغالهم بالحروب بينهم فنهب اموالهم وبدد شملهم وولى عليهم صالح ولد الرضي فاستصفى اموالهم وتركهم عيالا لا يقدررون على الانتقال من محل لأخر من قلة الظهر والكرع".

إظهار قوة المخزن بهدف استرجاع هيئته بين القبائل وإعادة ربط الطرفي بالمركزي. وتتمثل في تجريد محلات سلطانية تجوب ربوع البلاد بشكل مكثف ومتواتر. متفقدًا أحوال القبائل، يضبط أمنها ويستخلص منها ما حرم الله ويفرض على المتنطعة منها المغارم والوظائف. متجشما عناء السفر وعت الطريق ومكابدة المخاطر. بل لم يثنه المرض أحيانا في الاصرار على تسيير المحلات بين القبائل والحواضر¹⁹⁸.

وعلى الرغم من التكاليف الباهظة التي كانت تقوّم بها تنقلات المحلات، والتوجسات المحدقة بحياة السلطان نفسه¹⁹⁹. فان سياسة تسيير المحلات وتعدد تنقلاتها أصبح وسيلة لا تعدمها ضرورة، غايتها الاتصال المباشر بسكان البوادي وكسر شوكة المتمردين ومعاقبة العصاة وتكون مناسبة أيضا لعزل القواد الذين خرموا مقاصد الحكم والسلطة، وأظهروا من العسف والاستبداد والجور على الناس وعدم القيام بالواجب المخزني كما يجب، ما اقتضى الامر تنحيهم وتعويضهم بأخرين²⁰⁰.

وإذا كان المجال لا يتسع هنا للتطرق الى تفاصيل الاحداث والوقائع والتدابير التي اتخذها السلطان خلال تنقلاته العديدة عبر التراب التادلي فانه يجدر التنويه ان الحركات التي كان يجردها المخزن كانت تتم وفق برامج محددة واهداف مخصوصة تستهدف في المقام الاول القبائل الناعلة والمتمردة التي انتشرت بين جماعاتها مظاهر التسيب وقطع الطرقات والتملص من خدمة المخزن، فيتسلف زروعها ويعتقل رؤوس الفتنة، ويصادر ممتلكات الزعار منهم تحت مصوغ استخراج حق الله وتبيضا لصحائفهم وتذعيرا لما تسنموه من العقوق وما كانوا فيه من سبب في دفع الامام الى الخروج اليهم فيأخذ منهم ما جهز به الجيش وكلفته المحلة عموما.

¹⁹⁸ الزباني ابوالقاسم : مخطوط سابق ص 259

¹⁹⁹ الضعيف الرباطي : (م.س) ص 338 . اثناء تنقل السلطان وهو في حالة مرض من مراكش الى الرباط غير بعيد عن الاقليم التادلي : نغله الشواية وقالوا ما رأينا غير المحفة ، اردنا ان ننظر ذات السلطان وانه محمول على المحفة ميتا ، ثم خرج السلطان من محفته وركب الفرس وتوجه ناحية الرباط .

²⁰⁰ حسب رواية الضعيف الرباطي في كتابه الدولة السعيدة ص 354، فان المحلة السلطانية تعرضت للنهب من طرف زمر الشلح وعند مبيت السلطان بصخرة الدجاجة كان في غاية الخوف متقلدا سيفه ومكلمته .

جدول 5 حول المحلات السلطانية التي مرت بالإقليم التادلي

المصدر	مختصر مهمة المحلة	القبائل المستهدفة	وجهتها	تاريخ مرور المحلة السلطانية بالإقليم التادلي
ص304	تعيين مولاي الطيب عاملا على تادلا واعفاء عبد المالك الوريكي وبعد وفاته بالطاعون سيعين مكانه اخ السلطان م موسى	ورديغة	من مراكش الى فاس	26 شعبان 1212هـ
ص 320	تعيين أبو القاسم الزياني وبعده الغازي بالمواق	بني موسى	من فاس الى مراكش	ربيع الثاني 1215هـ
ص333	تعيين صهر السلطان الحبيب البلغيثي ثم عزله وعين مكانه سليمان الودي سنة 1219	ورديغة	من فاس الى مراكش	شوال 1218 هـ
ص 346	تعيين الغازي الشاوي عامل تامسنا والشاوية، على تادلا ايضا	ورديغة	من مراكش الى مكناس	صفر 1220 هـ
ص347	نزل بقصبة تادلة ووقع بالسماعلة وبني خيران	ورديغة وتسيير صوكات الى بني عياط وهنتيفة وآيت سري	من مكناس الى مراكش	ربيع الاول 1224هـ
ص 347	قطع واد العبيد ومر على بني موسى	-	من مراكش الى فاس	جمادى الثانية 1224
ص 354	تعيين صالح ولد الرضي الوردغي مكان الغازي الشاوي	قبائل تادلا	من فاس الى مراكش	عام 1225 هـ
ص 376	نزل بقصبة تادلة	قبائل تادلا وزيان	من فاس الى مراكش	محرم 1228 هـ
ص 395	نزل بأبي الجعد وأوقع بورديغة	ورديغة	من مراكش الى فاس	عام 1231 هـ

ملحوظة: كل تواريخ وأحداث التنقلات السلطانية تم استخراجها من مؤلف الدولة السعيدة للضعيف الرباطي.

وإذا كان الجانب المضموني للسياسة التديبيرية المجالية يتجسد في تمكن المخزن المركزي من استعادة المبادرة، وإعادة ربط علاقة المجال بالمركز، والحضور المباشر للسلطان للنظر في قضايا المجتمع المحلي بعين المكان، من خلال تجريد محلات سلطانية لتادلة، وبتفاعله مع زخم الوقائع والأحداث الملهبة خاصة بمناطقه الشمالية على الحدود مع الشاوية، والحسم في موضوع الزاوية الشرقاوية، فإنه يتعين القول أن الخيارات الإجرائية التي أطرت الفعل المخزني في مواجهة التمردات القبلية المتكررة على الدوام لم تكن نابعة من رغبته في مواجهة ندية من قبله مع القبائل وكأن الأخيرة تمثل أمرا واقعا بإمكانها أن تستقل عن سلطة ممثليه المحليون. ولا أن نفهم أن تعديل حالات العزل والتوليات في صفوف العمال والقواد، انها ناتجة عن عجز السلطة المركزية في تثبيت وجودها بالقوة والفعل، بقدر ما يفيدنا التحليل إذا توخينا استعارة الجانب السوسيلوجي بطرح فرضية مفادها، أن الأمر يتعلق بمنظومتين متقابلتين : الأولى يقدم فيها رموزها وزعاماتها أنفسهم - تحت أي صفة كانت روحية أو قبلية - على أنه بإمكانهم تصريف شؤونهم بعيدا عن سلطة المخزن، بما أكسبتهم تلك الصفة من مكانة دينية و من امتداد قبلي من مشروعية، تدفع الى الاعتقاد أن الوقوف أمام ممثلي المخزن هو بمثابة رد فعل يدفع المركز الى الاعتراف بهم. وبين منظومة مخزنية متكاملة لها مشروعيتها التاريخية، مسنودة بإشراف وتسيير سلطاني، تروم الحفاظ على هيبة الدولة وضمان الأمن والسلم الاجتماعيين، وإقامة توازنات قبلية حقنا للدماء واحتواء الفوضى، من خلال العمل على إعادة ادماج المجال التادلي ضمن النسق العام لمنظومة المخزن المؤسساتية. فإلى أي حد سيتمكن المخزن المركزي من تخطي الأزمة وتداركه لامكانية تجاوز سياسة تولية العامل الواحد على المجال الواسع ؟ وهل ستمثل سياسة تعديل القواد وتولييتهم على الوحدات والاقسام القبلية عاملا حاسما للحد من ظاهرة تمردات القبائل في اطار تقسيم إداري ومجال سلطوي جديد متحكم فيه ؟. هذا ما سنتناوله بالبحث في الفصل الموالي.

الفصل الثاني، التمثيل المخزني بالإقليم عهد السلطان المولى عبد الرحمن

- المبحث الاول، استخلاف نجل السلطان محمد بن عبد الرحمن .
- المبحث الثاني، الجباية وسيرة قائدين قويين .
- المبحث الثالث، تادلة العليا وآثار الضغط الجبائي في ظل صراعات قبلية وضعف الحضور المخزني.
- المبحث الرابع، الجنوب التادلي بين الصراعات القبلية وموقف المخزن .
- المبحث الخامس، القايد محمد بن الطالب النتيفي و دوره في تدبير الصراعات .

الفصل الثاني

التمثيل المخزني بالإقليم عهد السلطان المولى عبد الرحمن:

من غير شك ان التمثيل المحلي بالإقليم التادلي كما في باقي الاقليم والحوضر كان يطبع في الغالب بسميزات فترة حكم سلطان الوقت ونموذج تصوراته ومنهجه في التدبير.

وقد تميز الحضور المخزني خلال هذه الفترة التي امتدت من فترة حكم المولى عبد الرحمان بن هشام الى العهد الحسني بثلاثة خصائص:

- تحييد دور الزاوية الشرقاوية والحد من تدخلاتها في الشؤون المحلية ذات العلاقة بالفعل السياسي والجبائي.

- انكفاء أهل الجبل بمجالهم وتوجسهم خيفة من ردود فعل الحكم المخزني بعد وقعة ظيان.
- تحول ثقل الحكم القايدوي الذي خضع له الاقليم اما من قيادات محلية او التي كانت تمارس نفوذها من جهة الساحل الغربي او من تلك المنتمية للجهاز المركزي، الى قيادات حوزية يمتد نفوذها انطلاقا من الجنوب.

وقد استفاد السلطان مولاي عبد الرحمان بهذا الخصوص من سياسة سلفه المولى سليمان بشأن إعادة ترتيب العلاقة بين المخزن والزاوية الشرقاوية على اساس الانصياع لإرادة المخزن، وتسخير جهودها لتقديم خدماتها والمساعدة في تأطير المجتمع المحلي وفق رؤية يحددها المخزن نفسه.

فقد تولى زعامة الزاوية على هذا العهد، المرابط سيدي بن داوود خلفا لوالده العربي بن المعطي، وأبدى امتثاله ورغبته في بذل كل طاقته في توظيف رأس ماله الرمزي لخدمة المخزن. وبالمقابل كافأه المخزن بالرفع من مقامه بالإنعام عليه بتجديد ظهائر التوقير والاحترام ورعاية مصالحه وعزائه المنتشرة بالإقليم، مع توليته خطة النظر على المسجد الجامع الكائن بمدينة ابي الجعد ومنحه الدار المحسوبة لجانب سلفه المولى سليمان على وجه التصرف دون ان ينازعه فيها أحد²⁰¹. وبذلك تم تحييد دور الزاوية سياسيا الذي كان له تأثير على الوضع العام للشمال التادلي.

²⁰¹ جاء في كتاب بمثابة ظهير شريف للسلطان مولاي عبد الرحمان لسيدي بن داوود تتوفر على نسخة منه ما يلي : الحمد لله وصلى الله على سيدنا محمد واله وصحبه وسلم تسليمًا. الطابع الشريف وبداخله اسم السلطان : ولينا بحول الله وقوته وشامل يمنه ومنته الفقيه المرابط الأرضي البركة المرتضى، سيدي بن داود بن الولي الصالح سيدي المعطي بن صالح نفع الله بهم أمين ، خطة النظر على المسجد الجامع العتيق، الكائن بحرم أبي الجعد، المنسوب لسيدي محمد الشرقي نفع الله به. واسندنا اليه أموره الخاصة والعامة، وبسطنا له اليد على التصرف في أوقافه ومصالحه و متعلقاته أجمع. يولي من شاء به واختاره للإمامة والخطابة، ويعزل من شاء. وأبقيناه على ما أنعم عليه به سيدنا العم قدس الله روحه، من الدار المعروفة للجانب العلي بالله بأبي الجعد، يتصرف فيها من غير منازع=

وبعد الهدوء النسبي الذي عرفته المنطقة، واطمئنان المخزن على سيرة المرابط الجديد بين القبائل، استعادت القصة التبادلية دورها من جديد في حراسة قدم الجبل وتنفيذ خطة المخزن بإبقاء القبائل الجبلية لايت سخمان وزيان تحت طائلة الحصار، وتشديد الطوق على تحركاتها في اتجاه المراعي على ضفاف نهر ام الربيع، فانكفأت القبائل الصنهاجية داخل مجالها الجبلي ملتفة حول نظمها التقليدية، تدبر تحالفاتها، وصراعاتها وفق اعرافها وتقاليدها.

وعرف الحضور المخزني على عهد المولى عبد الرحمن تدرجا ملحوظا. إذ شهد العمال والقواد في زمنه نوعا من الاستقرار في مناصبهم. كما اتسمت هذه المرحلة بتعيين قواد على قبائل ينتسبون إليها، وانخراطهم في خدمة الدولة بمنظومة تدييرية جديدة قوامها ولاء للمخزن لا يفتر من جهة، وأخذهم في الحساب امتداداتهم القبلية وقيامهم بدورهم الوظيفي المزدوج في تجسير علاقتهم بالمخزن المركزي من جهة ثانية. وخلافا للعهد السابق فان تدبير قضايا وشؤون المجتمع المحلي تركزت من حيث الضبط والإشراف على عنصرين اساسيين:

- تولية ابن السلطان خليفة على الاقليم وامداده بما يلزم من أسباب القوة وآليات التفويض السياسي والإداري ومراقبته المباشرة للمجال خاصة متابعة تحرك القواد ورصد علاقتهم بالقبائل.

- فتح قنوات للتواصل فيما بين المركز والقواد وإجراء نظام تراسلي وتخطبي استعلامي مسترسل مكن المخزن من الاضطلاع عن كئيب بكل ما يجري بالإقليم، واتخاذ القرارات والإجراءات المناسبة بناء على ذلك.

كل هذه الاجراءات مكنت المخزن المركزي من تعزيز سلطته والتحكم في مفاصل الاقليم وسمحت في نفس الوقت وخلافا لتجربة العهد السابق من تركيب الجهاز الاداري المركزي لتجربته في ميدان التواصل التراسلي.

المبحث الاول، استخلاف نجل السلطان محمد بن عبد الرحمن:

إذا كان الاقليم التادلي يقع من الناحية الادارية ضمن منطقة الحوز فان هذا التقسيم جعله يتبع من الناحية الادارية الى العاصمة مراكش. وكما تم استخلاف الامير سيدي محمد على فاس ومنطقة الغرب، فإنه استخلف أيضا على كافة مناطق الحوز، ومن ضمنها قبائل السراغنة، وبني مسكين، ودمنات، وكلاوة، وفتواكة وغيرها، جاعلا من قصبة تادلة قاعدة لحكمه على الإقليم التادلي وجواره من قبائل الدير والجبل مسنودا بإدالة عسكرية لمراقبة الجبل.

=ولا معارض ولا مدافع ولا مداحض. والواقف عليه، يعمل به ولا يحد عن كريمة مذهبه، والسلام. صدر به أمرنا المولوي الشريف العلوي في : 03 شوال الأبرك عام 1238 هـ. (المصدر: مديرية الوثائق الملكية الرباط حسان، مسجلة تحت رقم 317)

صحيح أن خليفة السلطان لم يكن دائم الحضور بالقصبة التادلية كما لم تكن إقامته بعاصمة الحوز متواصلة، إلا أن " العادة جرت بينه وبين والده انه إذا كان السلطان بمراكش نهض هو برفقة حاشيته وبلاطه للقيام بأعباء الخلافة بمكناس وفاس والعكس"²⁰². ويتجسم مقدار المسؤولية الملقاة على عاتق خليفة السلطان في ان المهام الموكلة اليه تركزت أساسا في تخفيف العبء التدبيري المجالي عن الدائرة السلطانية. منها الحرص على ضمان الاستقرار السياسي بالإقليم وحفظ أمنه الطرقي واستخلاص الجبايات وسائر الكلف في إبانها، فضلا عن فض المنازعات والشكايات المطروحة امامه واستدامة ربط التواصل مع ممثلي السلطة المحليين ومراقبة أعمالهم وتحركاتهم. حزمة المهام هاته المنوطة بخليفة السلطان وتمكنه من القيام بمأموريته على الوجه المطلوب، زاد من مكانته لدى والده فجعلته يفوض له كثيرا من المسؤوليات " فلم يستثن عليه شيئا منها. فاتخذ العساكر وجند الجند وأمر ونهى وولى وعزل وقدم وأخر"²⁰³. بل أصبح بمستطاعه تجديد الظواهر الشريفة ويختمها من أسفل بختم نقش عليه محمد بن امير المؤمنين وفقه الله²⁰⁴. كما انبرى الى استقبال الجماعات القادمة اليه إما للتهنئة او طرح شكاياتهم وتظلماتهم أمامه وفض المنازعات التي تحدث بين القواد. نستشف ذلك من نص رسالة القائد محمد ابن الطالب قائد هنتيفة الى الوزير محمد بن ادريس جاء فيها: « [...] أن أهل تادلة بالغوا في التعدي والظلم على إخواننا، فقد ضربوا عليهم وتركوا أولادهم للجوع، وما وجدوا ما يؤدون به ما وظف عليهم في الزكاوات والاعشار، وجهنا المضروب عليهم في العيد يقابلون ابن القايد والبعض من أهل تادلة إذ كانوا معهم بحضرة مولانا الخليفة أعزه الله، وشكوا أمامه وأهل تادلة حاضرون [...] وتحقق مولانا الخليفة بوضوح النازلة.»²⁰⁵

وفي وقت لم تتمكن فيه القبائل التادلية من ترشيح لزعامتها أي قائد قوي من صنف من يحصل على تزكية من الخليفة وتعيينا من السلطان في مستوى من قدم خدمة جلية للمخزن المركزي على شاكلة القايد ولد محمد بن الصغير²⁰⁶، فإن شؤونها كانت تُسِير تحت نظر حكام من درجة خليفة قائد. إلا أن حجم سلطتهم كانت أقل مما كان لدى قائدين كبيرين، هما أحمد بالقايد عامل السراغنة ومحمد بن الطالب قائد هنتيفة اللذان كان يعهد إليهما تجريد حركات جبائية على امتداد الاقليم. فمن هما هذين القائدين وما درجة نفوذهما بين القبائل؟

²⁰² ابن زيدان عبد الرحمان (م.س) ج 3 ص 429

²⁰³ ابن زيدان عبد الرحمان : نفسه 428

²⁰⁴ تتوفر على نسخة من ظهير شريف باسم الخليفة بشأن تجديد التقدير والاحترام لفائدة مرابطي أهل سبلك جوار بني ملال .

²⁰⁵ م . و . م . ح : رسالة مستقلة من القايد بن الطالب غير مرقمة بتاريخ 24 محرم 1265

²⁰⁶ الضعيف الرباطي : (م.س) ص ص 347 . 354

المبحث الثاني، الجباية وسيرة قائدين قويين :

يجدر التأكيد بداية أن تصنيفنا لكل من احمد بن القايد ومحمد بن الطالب الننيقي بالقائدين القويين لم يكن تصنيفا انتقائيا. وإنما استندنا في ذلك الى خلاصات واستنتاجات من المراسلات المخزنية التي واكبت تحركاتهما من جهة، وعلى ما ورد لدى الاخباريين بشأن سيرتهما وعلاقتها بالمخزن المركزي من جهة اخرى.

وغايتنا من اختيار هاذين القائدين كونهما مثلا في حياة القبائل التادلية نموذجا للسلطة واحتجان السلطة والولاء للمركز، جاء في إطار تطور التمثيل المخزني بالإقليم على عهد المولى عبد الرحمن وعلاقة ذلك بجوانب من حياة المجتمع المحلي وقضاياه الاقتصادية والاجتماعية خاصة فيما يتعلق بالجبائيات.

المطلب الاول، سيرة القائد أحمد بن القايد وحركته الجبائية:

ينتمي القائد المذكور، لأسرة مخزنية تولت مهام قيادية منذ عهد السلطان محمد بن عبد الله ثم على عهد المولى سليمان²⁰⁷. واستمرت في حكم السراغنة بالتوارث الى متم الستينيات من القرن الثالث عشر الهجري (حدود منتصف القرن 19). وقد تمكن أحمد بن محمد بن القايد حفيد بن الصغير منذ تعيينه بداية العهد الرحماني من إظهار كفاءته في الخدمة المخزنية وحنكة في التدبير، وحصافة الرأي عند المشورة. فقد اطلعنا عبد الرحمن بن زيدان عن حدث تاريخي ظهر فيه القائد بمظهر المستشار الحاذق للسلطان: "[...]ولما وجهه والده (المولى عبد الرحمن) لناحية وجدة وجرت على جيشه الهزيمة الشهيرة بوادي ايسلي في شعبان 1260هـ ورجع لفاص، فحجب عنه وجه رضاه، واستشار الوزير الصدر في شأنه فأشار عليه بعزله من الخلافة وتولية أحد إخوته، فلم يعمل بإشارته. ثم استشار عامل السراغنة السيد أحمد بن القايد في شأنه أيضا، فأشار عليه بإقراره على الخلافة وقال له إن ما وقع من انكسار الجيش لا عهدة عليه فيه [...] وإذا عزلته فربما يظن الاجانب أن عزله كان لأجل ما ضاع من المال والأخبية والآلات فأعمل رأييه وأقره على الخلافة وعزل الفقيه بوعشرين عن وزارته ونكبه"²⁰⁸. كما أتى على ذكره مجهول في كتابه الابتسام في سياق حديثه عن مدد سنوات حكم القواد على عهد المولى عبد الرحمن بالقول: "ثم القايد السراغني لا زال واليا على إخوانه منذ إثني عشر سنة"²⁰⁹.

²⁰⁷ الدمناتي الحاج احمد نجيب (م.س) ص32

²⁰⁸ ابن زيدان عبد الرحمن (م.س) ج 3 ص 428

²⁰⁹ ابي العلاء ادريس (مخ.س) ورقة 217

ورغم المكانة التي كان يحظى بها القائد لدى المخزن ووضعه فيها موضع المستشار، فإنه كان يدرك في قرارة نفسه أن حظوته لن تشفع له في شيء إذا ما ظهر منه تقصير في عمله أو أبدى تراخيا في مهامه، فإنه لا محالة سيعرض نفسه للمساءلة. ونستشف ذلك من خطابه في مراسلاته إلى المركز وهو منشغل بحركاته الجبائية بتادلا من قبيل: « [...] ولم ينلنا سيدنا تقصير، وما مقصود وصيف سيدنا الا نفع بيت مال المسلمين»²¹⁰. وفي رسالة أخرى جاء فيها: [...] وما أتانا أمر سيدنا في شيء إلا وبنجزه بسرعة من غير مهلة ولا تماطل»²¹¹

امتد نفوذ أحمد بن القائد على رقعة جغرافية واسعة شملت بالإضافة إلى قاعدته بالسراغنة دمنات، وهنتيفة، وبني موسى، وبني عمير. وكان بإمكانه أن يجرّد حركات معتبرة من حيث عدد الفرسان والرجال، وصل قوامها في إحداها إلى ثمانمائة فارس مع تموينها بالزاد والعلف والسقاية وإمداد أفرادها بمقادير مالية تسمى السخرة، ويجبي الزكاوة والاعشار، يساعده في ذلك أشياخ القبائل وأعيانها فضلا عن خلفائه بالإقليم مثل بن اسماعيل ببني موسى. نتبين ذلك من خلال نص الرسالة التي بعث بها إلى السلطان جوابا على كتاب سلطاني جاء فيها: « [...] ووجدت فيه سيدي يأمر وصيفه بالقيام بالحركة لتادلة، فليعلم سيدنا انني قمت على ساق الجد بعون الله بالحركة وأمدني نجل مولانا سيدي محمد حفظه الله بمدده المنصور بالله ثمانمائة وازيد فيما بين عسكر وجيش وكبير المحلة القائد محمد بن عبد الكريم ولد اب محمد.»²¹²

ومن خلال التقارير التي كان يبعث بها القائد المذكور إلى المركز بشأن حركاته الجبائية بربروع الاقليم، أمكننا الوقوف على واحدة منها ترأسها سنة 1262 هـ وافقت صيف 1846 م، اخترناها كنموذج من بين عدة حركات بإمكانها ان تقربنا من استجلاء جوانب من علاقات المجتمع المحلي بالسلطة.

طفقت الحركة تجوب الاقليم التادلي انطلاقا من بني موسى بالجنوب إلى شماله بورديغة بداية من شهر ماي إلى غاية شهر شنتبر، مسجلا ابن القايد في تقاريره المتواترة أطوار تحركها ومقادير الأموال المجباة من القبائل، ومشاقها والاعتراضات التي واجهتها من طرف بعض ممثلي المخزن وانعكاسات الضغط الجبائي على الوحدات القبلية. وندرج في هذا الشأن مقتطفات لنصوص من تلك التقارير حسب تسلسلها الزمني.

²¹⁰ م. و. م. : رسالة مستقلة بتاريخ جمادى الثانية 1261

²¹¹ م. و. م. : رسالة مستقلة بتاريخ 25 ربيع الاول عام 1263

²¹² م. و. م. : محفظة Th-47 رسالة مستقلة من احمد بن القائد إلى السلطان غير مرقمة بتاريخ 22 رمضان عام 1266 هـ

النص الأول:

« [...] وحيث حللنا بتبادلة ورد علينا البعض من البربر ليعاين ما معنا من جيش مولانا، ولما عين ذلك أخذته والله أعلم رعب ورهبة [...] وذهب جاد السير على ما سمعنا، وبمجرد وصوله للقبيلة، فروا وتفرقوا وكل واحد راجع لمحله بالجبل، وآيت الربع رجعوا لمحلهم ومواطنهم [...] وجيش مولانا السعيد لأبأس عنده وقد فرقنا منهم عددا على أهل تادلة لقبض واجب الزكاة والاعشار. »²¹³.

ما نستخلصه من هذا النص، ان احمد بالقايد كان يترأس شخصيا الحركات الجبائية للإقليم التادلي بغية تحصيل واجب الاعشار والزكاوات في بداية موسم الحصاد الذي يبدوا في هذا العام انه كان ذا محصول جيد في الزرع والمواشي. وانطلاقا من الدشرة قريبا من الضفة اليسرى لواد العبيد، شرع هذا الأخير في إرسال الفرق العسكرية في كل الاتجاهات من الاقليم التادلي لتسريع عملية التحصيل. غير ان ما يثير الانتباه من معطيات النص، أن المجموعات الجبلية النازلة بالسهل، كانوا يستغلون مساحات صغرى على طول الشريط المحاذي لقدم الدير للزراعة والاشتغال على الرعي بتواطئ مع بعض مجموعات آيت الربع المتاخمين للدير²¹⁴، حتى إذا ما داهمتهم الصوكات والحركات المخزنية مستهل موسم الحصاد على العادة يكون بإمكانهم حصادها بسرعة والإفلات بالمحاصيل صوب الجبل. لذلك كانوا شديدي الحذر والاحتراز من تحركات المخزن في اتجاه هذه المنطقة. فيعمدون الى ايفاد فرد او أكثر من بينهم، توجسا لاستقصاء وتحسس الاخبار، ورصد أي تحرك للفرق العسكرية بمعايير واد العبيد في هذا الوقت المعلوم من كل سنة. فيسارع المخبر لإبلاغ تلك المجموعات بوصول الحركة على مشارف الاقليم فتكون المساحة الزمنية الفاصلة بينهم وبين وصول الحركة كافية ليخلصوا نجيا بقطعانهم ومحاصيلهم داخل الجبل خوفا من مصادرة مواشيهم وزروعهم فلا تكاد يد المخزن تنالهم.

²¹³ م . و . م . ح : رسالة مستقلة من القايد احمد بن القايد غير مرقمة بتاريخ 11 جمادى الاولى 1262 موافق 7 مايو 1846
²¹⁴ عثرنا على عدد من نصوص رسائل و وثائق المخزنة تتحدث عن ظاهرة تواطئ بعض الجماعات من قبيلة ايت الربع مع سكان الجبل في السماح لهم بالرعي و هي إشارات تؤكد تساهلهم بشأن الحصار الذي يفرضه المخزن على قبائل الجبل.
*يساوي المبلغ المذكور حوالي 1500 ريال. و المقارنة هنا اقمناها على نموذج المثال التالي: فقد ذكر الضعيف الرباطي في مصدر له سابق ص (368) ان مرابط ابي الجعد اهدى للسلطان المولى سليمان فرسا اشتراها ب100 مثقال. و بما ثمن الفرس بلغ ثمانينيات نفس القرن ما بين 50 و60 ريال، فان قسمة 3000 على 50 تمنح المبلغ المذكور بالريال اي 1500 مع اعتبار حصول انخفاض كبير في سعر النقد بين الفترتين. و غاية المقابلة هو الوقوف على المقدار التقريبي للكتلة الضريبية المفروضة على سكان كل قبيلة.

النص الثاني:

« [...] وبعد، فليكن في علم مولانا اننا لازلنا ببلد بني عمير عند بن اسماعيل مدة من نحو عشرين يوما، وها نحن نعالج الامور وقد سهلها الله بحوله وقوته، وكل واحد من تادلة شرع في دفع واجبه. فابن اسماعيل تحصل تحت يده ما يزيد على ثلاثة آلاف*، وابن العربي العميري مجد في القبض كذلك، وسر القلب والحمد لله على ذلك. فلما عين عب أدادس ذلك اغتاز لما هو مصر عليه، وأمر إخوانه ومن معه من فاسدي بني عمير وبني موسى الذين يكذب عليهم ويقول لهم ان سيدنا كتب لي بتحريركم. وسيدنا يعلم عقول العامة وانطماس بصيرتهم لاسيما حين سمعوا هاذه المقالة [...] حتى تطاولت أعناق أهل الزيغ والفساد [...] وبفضل من مولانا يأمره بالإقلاع عما هو عليه ويزجره كي يترك الناس يشغلون بصلاح أنفسهم، وان كان لمولانا غرض في دفع شيء له يأمرنا نمكنه له من مال سيدنا ويترك عنه الخوض وقلة العقل.»²¹⁵ .

نستنتج من هذه الرسالة ان الحركة الجبائية التي سيرها القائد المذكور، كانت تسيير وفق خطة منتظمة في جباية الأعتشار والزكوات، وتنتقل من قبيلة الى أخرى، يواكب ذلك رفع ابن القايد تقارير الى المركز عن المقادير المجباة يتضح من النص أنها كانت في هذه المرحلة التاريخية تجبى نقدا لأننا لم نجد في هذا التقرير ما يشير إلى المتحصلات العينية من الزكوات ويبقى هنا السؤال مطروحا : هل كانت المحاصيل المقدر جبايتها على الزراع وملاك المواشي والأنعام تباع في الاسواق فيجمع المتحصل منها مئاقل وأموالا سائلة يسهل حيازتها وتمكن من تغطية مصاريف الجند بدلا من ابقائها عينا تصعب مراقبته والتنتقل به مع المحلة من مكان الى آخر علما أن سيولة الكتلة النقدية بالبوادى كانت أقل بكثير مما هي عليه بالحواضر؟ أم أن الأمر يتعلق فقط بصيغة إخبارية حصرية أعطى من خلالها القائد أهمية للمال الناض أكثر من باقي المتحصلات؟

بيد أن المثير في التقرير بشأن هذه الحركة، هو محاولة عرقلة مهامها وإرباك عملها ليس من طرف القبائل الملزمة بالواجبات، بل حصل ذلك من جانب ممثل محلي للمخزن، هو عبد الله أدادس، شيخ قبائل آيت الربع القوي، الذي ادعى حسب ما ورد بنص الوثيقة أنه توصل بكتاب سلطاني يحزر بموجبه إخوانه وبني عمير وبني موسى من الجباية. وهوما شجع عددا من السكان على التردد في الدفع، ما أدى الى تباطؤ عمل الحركة لبعض الوقت وأخر من برنامجها في استكمال التحصيل، زيادة على ما يثقل كاهل السكان من مصاريف وتكاليف تموينها.

²¹⁵ م . و . م . ح : رسالة مستقلة من القايد احمد بن القايد الى السلطان غير مرقمة بتاريخ 24 جمادى الاولى 1262 الموافق 20 مايو 1846

وحتى يتمكن القائد من تنفيذ "كلمة" المخزن على الوجه المطلوب، التمس من السلطان إيقاف الشيخ الربيعي عن حده، « والكف عن تشويش العامة عليه » وإن اقتضى الحال إمداده ببعض مال المخزن كون هذا الأخير دأب على تلقي قبيلته مساعدات منه.

وإذا لم يكن من المتيسر لنا الوقوف على حقيقة ادعاء بالقايد بشأن الشيخ عبد الله اداس بمسألة إقرار المخزن تحرير القبيلتين من الدفع. وذلك راجع الى الثغرات الكثيرة التي واجهناها في التسلسل الوثائقي والقطائع في استرسال الوقائع، يجعل من تتبع الأحداث أمرا صعبا للغاية. ما حتم طرح استفهام عن سبب محاولة شيخ آيت الربع عرقلة عمل الحركة الجبائية. هل يعود إلى عدم تنسيق العمل لما فيه مصلحة المخزن بين هذا الأخير والقائد أحمد بالقايد؟ أم أن المحصول بتلك الناحية بالضبط كان ضعيفا ما استوجب معه تحرير المخزن لقبيلتي بني موسى وبني عمير من الدفع دون علم بالقايد؟. مع العلم أن قبيلة آيت الربع كانت تعيش في هذا الوقت حالة صراع مع قبائل الدير والجبل في إطار تنفيذها لسياسة المخزن القاضية بمواصلة الحصار المضروب عليها منذ أمد. وأن تكاليف مواجهاتها كانت تثقل كاهل وأعباء القبيلة الجياشة مما دفع المخزن إلى إلزام ورديفة بدفع المونة لهذه القبائل، « عمال ورديفة كافة وبعد، فنأمركم أن تدفعوا لقواد كطاية وسمغت وبني ملال والمعدان مثل ما تدفعونه لغيرهم في المونة من جملة الجيش»²¹⁶. أم أن ذلك لم يكن إلا مجرد ذريعة حبكها الشيخ الربيعي لإفساد مهمة بالقايد على خلفية ما تعرفه العلاقة بينهما من منافكات شديدة ومنافسات وهوما عبر عنه بالقايد في رسالته: « وقلبه يالعياذ بالله مصر على الضغينة والحقد والحسد»²¹⁷. لقد بات من المؤكد أن هذا الأخير كان هو المكلف الرئيس أمام المخزن فيما يتعلق بالتحصيل الجبائي لموسم سنة 1262هـ، وكان بمستطاعه أن يفرض كلمة المخزن على باقي الممثلين المحليين وعلى كافة القبائل، ولا عذر لديه في التقصير في مهمته تحت طائلة أي عائق كان. وبينما كان بصدد صياغة رسالته أعلاه إلى السلطان بشأن تصرف عبد الله اداس مشتكيا من تحركاته ضده، عمد الأخير بيوم واحد قبل ذلك إلى بعث رسالة إلى المركز جاء فيها: « [...] نعلم به سيدنا في شأن زرع البرابر انقطع أثره بالأكل كله [...] فنحجب من سيدنا يعزم لحضرتنا ويطلع على الزرع من ناحيتنا إلى بني ملال ويرى بعينيه ان لم يبق فيه أثر »²¹⁸. بينما

²¹⁶ خ . م . ر . : كناش رقم 364 ص 46 مختصر رسالة سلطانية بتاريخ 16 رمضان 1302

²¹⁷ نفس رسالة بالقايد

²¹⁸ م . و . م . ح . : محفظة Th 47 رسالة مستقلة غير مرقمة بتاريخ 23 جمادى الاولى 1262.

أكد بالقايد في ختام رسالته أن عبد أدادس: «اشتغل بما هو دأبه وعادته من أكل زرع البربر
ظنا منه أنها فائدة وذلك لا يجدي شيئا»²¹⁹.

ومهما يكن، فإن مسألة التحرير الجبائي التي كان يخص بها السلطان أفرادا وجماعات
بعينهم من قبيل الشرفاء والمرابطين وأرباب الزوايا وطلبة العلم وحفظة القرآن الكريم بواسطة
ظهائر، هي في الجوهر لا تمثل إعفاء من فريضة الزكاة والاعشار. كونها لا تسقط شرعا عن أي
مسلم بالغ، بقدر ما يتوخى منها في أن تؤول عائداتها إلى يعيل به أنفسهم القائمين على الزوايا
والملتجئين إليها من الأتباع وكذا لتدبير شؤون المدارس التعليمية بها. وقد عثرنا على نسخة من
ظهير شريف من توقيع خليفة السلطان على الإقليم التادلي موجه إلى مرابطي زاوية سابق غير
البعيدة عن مدينة بني ملال جاء فيه: « يعلم من هذا أننا بحول الله ثم من وجود مولانا أدام الله تأييده
ونصره وعلاه، جددنا لحملته المرابطين الأخيار أولاد سيدي احمد أو علي من أهل سابق لما
تضمنه ظهير أسلاف سيدنا الكرام الذي بيدهم من التوقير والاحترام والرعي الجميل المستدام
وصرف زكاتهم وأعشارهم على زاويتهم»²²⁰.

والواضح أن المخزن المركزي كان يدرك مدى أهمية حراسة السفح الجبلي من شمال بني
ملال إلى حدود آيت ويرا الملقاة على عاتق قبائل آيت الربع الجياشة. وكان تشديد الحصار على
سكان الجبل يؤدي بهم إلى الدخول في حروب طاحنة بينهم: «والرؤوس التي كنا قطعنا وأشرنا
لسيدنا في شأنهم نوجههم لحضرتكم»²²¹.

ومن آيت الربع بعثت جماعة منهم، نيابة عن كافة القبيلة برسالة إلى السلطان جاء فيها:
«من كافة آيت الربع كبيرا وصغيرا أما بعد، بما نخبر به سيدنا، إعلموا أننا حين ورد علينا كتابك
العزيز على تضعيف آيت اسري، نهضنا إليهم بلا تراخ وخيما إلى فساد زرعهم بمالنا وأولادنا،
وأكلنا زرع آيت عبد اللولي ولم يقدرنا على محاربتنا من بركة سيدنا. ورحلنا أيضا إلى زرع آيت
امحمد وأكلناه أيضا، ورحلنا إلى زرع آيت ويرة وبتنا فيه بطلتنا، وذهبوا إلى أمهاوش²²² وأتوا
إليهم بالإعانة من كل ناحية، والتقينا معهم جميعا، وهزمناهم وبقيت موتاهم في يدنا من بركة سيدنا
[...] ورجعنا إليهم لأكل الزرع لأننا أردنا تكذيب أمهاوش، لأنه يدعي بالصلاح والولاية. والآن

²¹⁹ م . و . م . ح : نفس رسالة بالقايد .

²²⁰ نسخة من ظهير شريف موقع عليه من طرف الخليفة سيدي محمد بتاريخ 8 شوال عام 1268، وقد تم التوصل به من طرف السيد
مولود عاقل يبلغ من العمر ستين سنة وهو حسب تصريحه من حفدة الولي الصالح سيدي احمد او علي المعروف باحمد الصغير

²²¹ م . و . م . ح : نفس الرسالة السابقة لعبد الله أدادس

²²² يمكن أن نفهم من سياق إدراج اسم أمهاوش ان المقصود به هو أنذ هو المرابط ابن طلحة أمهاوش الذي اظهر نشاطا تمرديا خلال
الفترة المدروسة.

أردنا من سيدنا الإعانة على ضعفهم (إضعافهم) لأنهم ردوا (جمعوا) تلك الصابة التي عندهم وطغوا، والذي فيه نية أمهاوش زاد فيه أكثر مما كان، ونحن لم نرجوا الإعانة إلا من الله ومنك»²²³.

واعتبارا لوقوف القبيلة بالخدمة المخزانية على الوجه المطلوب - ما يرجح فرضية تحريرهم من الجباية في تلك السنة -، فإن السلطان المولى عبد الرحمان ما فتى يوجه القائد احمد بالقايد إلى تحري الإحسان إلى القبيلة وإلى شيخها عبد الله أدادس. وهذا ما نستنتج من جواب القائد في رسالته المؤرخة في 11 من شهر رمضان الكريم عام 1262 هـ « [...] فلينه الوصيف لكريم علم سيدنا أن جيش سيدنا السعيد والمحلة كلها بخير لله الحمد. هذا وقد ورد علينا أمر مولانا الشريف على يد خديم سيدنا عب بن أدادس بعد أن فتحه وعلم ما فيه، يأمرنا فيه مولانا بالإحسان إليه [...] وما فعلنا مع عب وآيت الربع من الإحسان لا يكاد العقل يحصله ويضبطه. لأن كل ما فضل تحت أيدينا من الخيل دفعناه لهم، وكذا دفعنا لهم الدراهم والكساوي، وما قصرنا سيدي معهم ولا مع غيرهم من الرعية، لأن المقصود هو إصلاح رعية مولانا»²²⁴.

النص الثالث :

« وبعد، فلينه الوصيف لكريم علم مولانا، أننا خرجنا من بلد بني عمير وحللنا قرب ولي الله سيدي محمد بن عبد الله بين بني عمير وبين وريغة. ولا زلنا نعالج أمرهم [...] لأن البعض من أشياخهم قد شرع في قبض الواجب واشتغلوا بما يعينهم. وقد ورد علينا البعض من أعيانهم وكلمناهم بما يناسب المقام [...] أن مونة أصحاب سيدنا هذه المدة التي حللنا فيها قرب الولي المذكور، دقيقا وشعيرا تأتينا عشرة أجمال دقيقا في كل يوم من بلد السراغنة وكذا الشعير من عندهم ومن متاع سيدنا، وما قصرنا مع جيش سيدنا في شيء لأنهم توصلوا بسخاريهم كلهم حيث كنا ببلد بني عمير، ومنهم من تسخر مرتين ومنهم ثلاثة»²²⁵.

ونتبين من قراءة نص هذه الوثيقة الذي يبدو واضحا، أنه ينطوي على كثير من المعطيات التي ينبغي تحليلها نسوقها حسب ما يلي:

- أن الحركة الجبائية بقيادة بالقايد، ما فتأت تواصل أعمالها وفق برنامجها المحدد، وأنها أصبحت في بداية الخريف وهي تجتاز ببداء قاحلة بمحاذاة ضريح سيدي محمد بن عبد الله دفين بني وكيل

²²³ م . و . م . ح : رسالة مستقلة لا تحمل ترقيما ، مختومة بتوقيعات تشبه الى حد كبير توقيعات العدول بتاريخ 3 جمادى الاولى عام 1262.

²²⁴ م . و . م . ح : محفظة Th 47 رسالة مستقلة غير مرقمة بالتاريخ اعلاه.

²²⁵ م . و . م . ح : رسالة مستقلة من القايد المذكور الى السلطان غير مرقمة بتاريخ 16 رمضان 1262 ل 7 شتنبر 1846

تشرئب أعناق جندها الى قبائل ورديفة. فقد طالت بها فترة الإستجباء، وتباطأ بها الحال بالقسم الاوسط بالمجال التادلي. فما بين شهري ماي وشتنبر مدة زمنية ليست بالقصيرة ما ضاعف من أعباء وتكاليف الحركة بما تتوجب به مدتها من تغطية مصاريف الحراك المشاركين، ليس فقط من الرصيد المالي الناتج عن الجباية، بل أيضا مما يرد على الحركة من دقيق وشعير من "متاع المخزن" وأيضا مما تتحمله القبائل من مونة الإيدام والزيت والسمن لإعالة الوحدات العسكرية ومن شعير وتين لدوابهم.

أن الحركة واجهت صعوبات وهي بصدد مطالبة قبائل الجنوب والوسط بواجب الأعشار والزكاوات. ومحاولة بعض السكان التملص من أدائها بعد علمهم من ممثل المخزن من آيت الربع أن السلطان حررهم من الأداء، وطفقوا يحرضون ويعنفون بعضهم البعض، من أجل تني الراغبين في الدفع: « [...] سيما حيث سمعوا هذه المقالة فركبوا وغاروا على البعض من بني موسى أهل الصلاح ونهبوا لهم ما يزيد على مائة من البقر وقالوا إن الفاسد صار صالحا والعكس بالعكس»

226

يفصح النص هنا عن حالة من الالتباس لا بد من إثارتها، فبين حركة جبائية قوامها ما يزيد عن 500 فارس تواصل عملها رغم الظروف الصعبة وتباطئ عملها وما يواكب ذلك من أعباء وتكاليف، وبين وحدات قبلية تحجم عن أداء الواجب بحجة تحريرهم من الأداء. والتحرير لا يصدر في كل الاحوال الا عن السلطان وبمقتضى ظهير شريف لفائدة فئات معلومة باعتبارهم فئة موقرة من الكلف والأعباء كما أنها لا تمارس أي عمل انتاجي.

وإذا افترضنا أن التحرير من الواجب كان يقتصر به على قبائل آيت الربع الجيشية، بمقتضى ما يقابل ذلك من أعباء يتولونها في مواجهة قبائل الجبل ومحاصرتهم، فما هو إذن مبرر تحرير قبائل بني موسى وبني عمير إذا لم يكن الامر برمته ناجم إما عن سوء تفاهم أو محاولة لعرقلة أعمال المحلة؟

المطلب الثاني، بينة المجال ومضاعفة تكاليف الإستجباء:

« [...] ويعلم مولانا اننا بقصد التوجه لطرف بلد ورديفة، حيث يكمل الغرض إنشاء الله من هذه القبيلة العميرية قاصدين النزول بإزائهم. وهالنا الأمر من كثرة العطش لأن هذه البلدة خصها الله فيه من قلة الماء. فالمحل الذي اردنا النزول به الآن ما فيه إلا الآبار»²²⁷. هذا ما كتبه بالقائد إلى

²²⁶ نفس رسالة بالقائد المؤرخة في 24 جمادى الاولى 1262

²²⁷ نفس رسالة بالقائد بتاريخ 15 رجب 1262

المركز بشأن الصعوبات التي عرفتتها حركته الجبائية من عنت تنقلاتها عبر ربوع المجال التادلي، لاسيما وأن الفصل كان صيفا، حيث ترتفع درجات الحرارة بهذه المنطقة النائية ويصبح الجيش بفرسانه وخيله وكل مطايه في أمس الحاجة إلى الماء الشروب، وقد بدا بهذه الناحية عزيز المنال. فلم تكن من ضرورة ملحة تدعوا القائد إلى إبلاغ مركز بما واجهته حركته من صعوبة في الحصول على الماء لولا شدة وطأة العطش ومكابدة الحراك صعوبات ومعاناة في الحصول على ما يرتوون به. ومن غير المستبعد أن تكون كلفة جلبه من الآبار النائية قد زاد من أعباء مصاريف قائد الحركة وأثقل من كاهل متحصله الجبائي وهو ما سيؤكد عليه مرة أخرى وقد انتصف شهر رمضان الفضيل: « [...]وها نحن سيدنا حالين الساعة بأرض فلاة لا نبات بها ولا شجر [...] حتى شراب الخيل نكتري عليه بالثمن.»²²⁸

والمقصود بالمكان حسب النص هو المنطقة الفاصلة بين بني عمير وورديفة الموجودة على امتداد الهضبة الفوسفاتية ذات التربة غير الخصبة والموسومة بضعف الغطاء النباتي ولا توجد بها منابع عيون ولا مجاري نهريّة كما هو شأن ضفاف أم الربيع. ونعتقد أنها حتى من ناحية الانتاج الزراعي ما عدى المواشي كان ضعيفا. وهذا مؤشر آخر يحيل على فهم مدى الصعوبات التي واجهتها الحركة الجبائية التي لم يكن لها من هدف غير التحصيل الجبائي بمنطقة قليلة السكان ضعيفة الانتاج.

المطلب الثالث، إعالة الحركة بين ضعف المدخول الجبائي وثقل الصائر:

ليس من شك، في أن سائر الجبايات والضرائب وأصناف المتمولات والتسخيرات والكلف سواء أكانت شرعية أم مستحدثة يبقى تحصيلها وجمعها من ملزميها أمرا ضروريا لتعزيز مالية الدولة وقيام المخزن بأعبائه المنوطة به، ومن ثمة يصير العمل الإستجبايي الذي يأمر به المخزن في أوقات محددة من السنة - وهو يصادف في العادة فترات جمع المحصول والحصاد - إجراء إلزاميا يمثل تحقيقه وضبطه تحت طائلة المشروعية الدينية وبقوة الإنفاذ بوسائل متعددة، من الوظائف الأساسية التي تلقى على عاتق كافة ممثلي المخزن لدى القبائل.

بيد أن هذا الإجراء المعتاد يبقى عملا يلاقي فيه القائمون على الجباية كثيرا من الصعوبات والتعقيدات، إذا لم ترافقه قوة عسكرية يسمون بالحُرّاك، يبعث بهم المركز لشد عضد القائد ودعم مجهوده في استيفاء المقادير المقررة، وعليها في نفس الوقت أن تظهر من البأس والشدة ومن رموز المخزن وقوة الدولة ما يشيع بين القبائل نوعا من التهيب، من أن فترة وأوان واجب الزكاة

²²⁸ رسالة بالقائد بتاريخ 11 رمضان 1262

والأعشار قد حل أصحابه من الجباة بين ظهرانيهم، وليس لديهم من خيار غير الانصياع. فمن تخلف منهم أو التمس الأعذار أو لاذ بالفرار تملصا من الأداء، فمصيره السجن زيادة على حيازة ما ضبط في يده من منقول ومركوب.

المطلب الرابع، نظام السخرة:

تخضع الوحدة العسكرية الموفدة من المركز بهدف شد عضد القائد في الجباية لإمرة قائد عسكري من حيث التنظيم والانضباط وهذا الأخير يقع تحت إمرة قائد الجباية أحمد بالقائد من حيث التوجيه والإشراف العام، ويخول المخزن المركزي لأفراد الحركة الاستفادة من حقوقهم في التعويض عن تنقلهم ومهامهم وهوما يسمى بالسخرة، أي المقابل الذي يؤديه القائد أو الممثل المحلي لكل مبعوث من المركز سواء أكان رقاصا أو مخازنيا أو عسكريا أفرادا أو جماعات مقابل مهمتهم التي أتوا من أجلها. وفي الغالب كان مقدار السخرة يحدد سلفا من طرف المخزن بواسطة كتاب يحمله معه المبعوث: " نأمر أخانا مولاي عثمان أن يدفع لأخينا مولاي المأمون مائة ريال سخرته "229.

فضلا عن توفير المونة اليومية من دقيق وسمن وزيت ولحم وشعير، والعلف، والتبن لأفراسهم ودوابهم. وإذا كان نص الرسالة لم يفصح عن عدد أفراد الجيش فإنه أشار إلى مقدار الدقيق المجلوب من قلعة السراغنة وهو عشرة أحمال على الجمال تفد يوميا، ما يعكس نسبيا عدد أفراد الجيش. وإذا تصورنا أن كل حمل يكون بمقدار قنطارين وهو الوزن الذي قد لا يتحمل البعير أكثر منه خاصة وأن المسافة بين قلعة السراغنة وبني وكيل تعتبر مسافة بعيدة نسبيا، فإن مجموع الواصل من الدقيق هو عشرين قنطارا في اليوم. وإذا احتسبنا وزن رطل العطارين المعمول به بمنطقة الحوز المقدر وزنه في 500 غرام²³⁰، فإن القنطار الواحد من الدقيق يزن 50 رطلا. فيكون مجموع حمولة الدقيق الواردة على المحلة يوميا حسب النص هو:

50 رطل × 4 اكياس لكل جمل = 200 رطلا × 10 أحمال جمال = 2000 رطلا²³¹. وإذا ما تم توزيع رطلان لكل حارك أي ما يوازي 4 خبزات في اليوم²³². فإن قياس الاستهلاك عدد مجموع

²²⁹ خ . م . ر : كناش 353 ص 53 رسالة السلطان المولى الحسن بتاريخ 3 شعبان 1303 هـ

²³⁰ ميز القبطان ايركمان اوزان الارطال في المغرب سنوات الثمانيات من القرن التاسع عشر كالاتي :

الرطل الكبير: 850 غرام . رطل العطارين : 500 غرام و القنطار : 100 رطل . بينما القنطار نقدا هو 100 مثقال .(المغرب المعاصر ، صص 160/161)

²³¹ في محاولة اختبارنا لهذا النوع من المقايسة ، اعتمدنا على نماذج من مراسلات مخزنية تحدد مقدار وزن الخروبة من بينها النص التالي و هو رسالة من قائد مكلف بشؤون القصبية الزيدانية على عهد الحسن الاول ، جاء فيها: « الهورضة عما أمر به صحبة القائد الحافظي و من معه من دفعه الخرايب التي ذكرها ، بأنه لم يرد عليه عدى 286 جملا . فمكثهم من 389 خرايب بحسب خروبة و نصف للجمل « كناش 172 ص 152. و في نص آخر نتلمس فيه وزن الخروبة . «ان الزرع الذي حازه من إخوانه اولاد

افراد الوحدة العسكرية المرافقة للقائد قد تصل تقريبا الى ما بين 500 و600 فارس مع إبخار الباقي، وهذا يقارب عدد افراد حركة نفس القائد الى الإقليم التادلي عام 1266 هـ الموافق لشهر غشت 1850²³³. إلا أن مونة جيش الحركة لم تقتصر موادها على الدقيق فحسب، بل ستزداد تكاليف المونة خاصة وان الشهر شهر رمضان: «وصائر المحلة من شعير وسمن وأكباش كله بالشراء»²³⁴. يضاف الى ذلك كله تكاليف السخرة التي يتلقاها كل أفراد الجيش فضلا عن قائدهم والتي وصلت حسب نص الرسالة إلى سخرتان وثلاثة، فإن مداخيل الجباية ستتأثر دون شك من ذلك. ما دفع القائد ينهي إلى المركز: [...] «أن سيدنا يعلم حال المحلة وما ينوبها في كل يوم من الصائر، ولوبقي الأمر هكذا، فإن كل ما قبض يدفع لها، ما حصلت على طائل»²³⁵ ورغم كل ذلك، فإن الحركة الجبائية كان عليها أن تقوم بمهامها مهما كلف الأمر لأن تحصيل الضريبة والواجب من الزكاة والاعشار مثل ضرورة ليس فقط لأنه واجب شرعي بقدر ما تمثله من مقوم اساسي لاستمرار نظام الدولة. صحيح انه يمكن تأخيرها أو إرجاء استخلاصها لضرورة ترتبط بعوامل بيئية وطبيعية. لكن لا يمكن تعطيلها باي حال من الأحوال²³⁶.

لقد كان المخزن المركزي يتابع أطوار الحركة الجبائية أولا بأول، عبر ما يتوصل به من تقارير ومراسلات وحتى من مقادير الأستجباء وتكاليف الحركة. لقد كان القائد مطالب بكشف الحساب في نهاية العملية حين اشار هذا الاخير: «[...] حيث نرد على حضرة مولانا العالية بالله يقف سيدنا على زمام الصائر»²³⁷.

وتجدر الإشارة هنا ان بن القائد لم يكن يعتمد فقط على القوة العسكرية لحركته في عملية التحصيل، فضغطها وحده لم يكن كافيا لإجبار الناس على الوفاء بالواجب المحدد لهم مقداره. فقد

عبد الله و اولاد بن سالم فعشر عبرات في كل خروبة « نفس الصفحة . علما ان كتلة مادة الدقيق تكون اكثر تركزا من الحبوب غير المطحونة .

²³² م . و . م . ر . ح : رسالة مستقلة تحمل رقم A 15-018-004 ، من ابراهيم بن عبد الله بمراكش الى الوزير بن ادريس بتاريخ محرم 1261 جاء فيها ما يلي «[...] والخبزة بنصف مزونة ميزانها نصف ارطل طابية ». ويتضح من كلام المرسل هنا، هبوط في اسعار المواد الغذائية نتيجة سنة فلاحية جيدة بينما بلغ سعر الخبزة سنة 1263 مزونة واحدة و 25 فلسا حسب افادة مصطفى الشابي في مقالته تحت عنوان الاثمنة والاجور في مغرب القرن التاسع عشر ص 103 و ما يليها . (ندوة بعنوان وقفات في تاريخ المغرب، منشورات كلية الآداب الرباط سلسلة بحوث و دراسات عدد 27)

²³³ م . و . م . ر . ح : رسالة مستقلة بدون ترقيم مؤرخة في 22 رمضان 1266 بعث بها احمد بالقائد الى السلطان . ومن خلالها تبين ان الانتاج الفلاحي كان ضعيفا جدا في تلك السنة بسبب تأخر الامطار مبلغا أنه : " يلزمني في اليوم مونة لها (الحركة) ثلاثمائة مثقال وازيد من كثرة الغلاء فالزرع وصلت قيمته عندنا في البلاد في ابان الصيف ثلاثة عشر مثقال للصاع (الصاع يقدر بحوالي 15 كلغ)

²³⁴ نفس رسالة بالقائد بتاريخ 11 رمضان 1262

²³⁵ نفس رسالة بالقائد مؤرخة في 24 جمادى الاولى 1262

²³⁶ خ . م . ر . : كناش 353 ص 83 . وقع ذلك حينما امر السلطان بتاريخ 15 شعبان 1300 هـ باستيفاء الواجبات الشرعية من قبائل: بني زمرور و ورديغة و بني خيران و السماعلة عن نصف المدة من التأخير الذي دام 12 سنة .

²³⁷ نفس رسالة ابن القائد

التمس من السلطان في رسالته في شهر رجب وهو على مشارف ورديفة: « [...] والمسؤول من مولانا ان يكتب كتابا مستقلا لسيدي بن داوود يأمره مولانا فيه بالوقوف وشد العضد لانهم يسمعون له»²³⁸.

والظاهر أن تجريد المخزن لحركات سنوية معززة بجند نظامي وبمساخرية ومخازنية باتجاه الاقليم التادلي كما غيره من الاقاليم كان يدخل ضمن سياسة تدييرية اعتمدها كوسيلة لإقرار الحضور المركزي بالمجال على اعتبار ان قائد الجيش الموكلة اليه مهمة شد عضد القائد تبقى له أيضا مهمة الابلاغ عما يمور بالمنطقة، لذلك كان الاستنهاض المستمر لفرق الجيش والعسكر، واستنفار القوى المحلية من قواد وأشياخ وأعيان، كلها وسائل يتم تسخيرها بغاية استحضر سلطة الدولة لضمان استخلاص أموال الجبايات واستيفاء الذعائر وسائر الموارد من مؤن وتسخيرات، التي يظهر ان الدولة أصبحت في حاجة الى مزيد من متمولاتها أكثر من اي وقت مضى جراء إقدامها على إصلاحات عسكرية تداركا لعواقب صدمة هزيمة إيسلي.

فليس من توقيت يتبرر به إيقاظ سريرة الناس بهيبة المخزن، ولا من مناسبة شرطها لازم يمكن استغلالها انسب من وقت الجباية وتحصيلها في ابانها.

صحيح أن حالة من الاستنفار ستعم كافة القبائل، وتهيأت بعض جماعات من وحدات قبلية الى سلك سبل الفرار أو التخفي بمناطق نائية تجنبا لوطأة الحركات، وصحيح أيضا ان دواوين المخزن المركزي وكافة البنيفات ستعيش حالة من اليقظة ونشاط إداري مكثف لمواجهة مستجدات المحلة الجبائية بما يكفي من الجهد لمواكبة أطوارها في تلقي والرد على المكاتبات الواردة من الآفاق، لكن جباية الأموال تبقى لها أهمية قصوى لدى المخزن مهما خلفته من آثار اجتماعية وأحدثته من إرباك في الحياة العامة.

المبحث الثالث، تادلة العليا تحت آثار ضغط جبائي وصراعات قبلية مع ضعف حضور مخزني:

حينما تجرد الحركة او المحلة المخزنية في مهمة للجباية، فإن قائدها وهو مسنود بأمر سلطاني يكون قد وضع نصب عينه تنفيذ الأمر السلطاني والدفع بكل المناطق المعنية بالجباية الى الخضوع لعملية التحصيل. فتكون أشبه باكتساح ممنهج للمجال تنطلق في العادة من الجنوب بقبائل بني موسى وبني عمير قبل ان تتجه شمالا نحو ورديفة وبني زمور والسمايلة وبني خيران بعد أن تكون قد استوفت من الجباية ما استطاعت اليه سبيلا من قبائل الدير. مع الاشارة في هذا الصدد انه رغم الموقف الذي ابداه قائد الحركة من المشاكسات التي صدرت عن الشيخ عب بن أاداس بأيت

²³⁸ نفس رسالة ابن القائد بتاريخ 15 رجب 1262.

الربع ومحاولته التهوين من مجابته لقبائل الجبل ووصف ابن القايد لعب بان أكله لزرع البربر لا يجدي نفعاً، إلا انه في حركته الجبائية في السنة الموالية اي 1263هـ، خصص وقتاً كافياً لانتساف محاصيل أهل الدير انطلاقاً من بني ملال الى آيت اسري وأفلح في نهاية المطاف في تحصيل ما تيسر له من قبائل تلك النواحي. ففي تقريره عقب ذلك الى المركز أبلغ فيه : « [...] وهاده المدة التي نحن سيدنا بالقصبة الكوشية في كل يوم تخرج المحلة نحوزرع الفاسدين، فمنه من أكلته المحلة ومنه من حصد ومنه من حرق، وليس زرعه سيدنا بكبير فائدة لانهم لا يستكثرون الحرث بالوطا خوفاً من مثل هذه المسألة وجل حرثهم، بالأماكن التي لا يصلها احد بالجبل. فلما عاينا سيدنا ذلك عملنا مع البعض منهم يعني المتحصنين بالجبل ان يدفعوا لنا شيئاً لبيت المال، فهذا السبب في قبض البقر منهم ويرد على حضرة مولانا العالية بالله عدة بقر، ثورا هذا 99 إناثا هذا16. »²³⁹

ونستنج من هذا النص نقطتان أساسيتان:

- ان الحركة الجبائية لم يكن هدفها الأوحد هو جباية قبائل الطاعة بالسهل فقط، بقدر ما كانت تحاول جهد المستطاع تحصيلها حتى من المنطقة المتاخمة للسهل، وكان بوسعها أتلاف محاصيل الخارجين عن الطاعة، أي المتعاصين عن دفع الواجب منهم، فإن وضع هؤلاء السكان الواقعين على خط التماس مع بلاد المخزن لم يكن لديهم من خيار غير الرضوخ لمطالب الحركة.

- أن سكان الجبل بالرغم من الحصار المضروب عليهم كان بمقدورهم استغلال المساحات الزراعية بالوطا ولوعلى مساحات محدودة وضيقة، وهذا يظهر كمون مستويات من الوفاق يتدبرونها مع سكان الجوار وهم آيت الربع، وهوما كان المخزن في الغالب يغض عنه الطرف ما دام قسماً من انتاجهم سيؤول في النهاية الى بيت المال.

وبالعودة الى حركة سنة 1262 فإنها بعد ان امضت مدة عملها بقبائل الجنوب والوسط التادليين لما يزيد عن اربعة اشهر، أناخت بكلكلها على قبائل الشمال لتحت الرحال على تخوم ورديفة ونهياً ابن القائد لإيفاد فرق من الجيش لدى قواد المنطقة لاستنهاض قبائلهم لدفع الواجب ويراسل المركز عن مستجدات ذلك وفق برنامج معلوم. لولا ما كان يتناهى إلى مسامعه من أصداء حول ما تقدم عليه بعض الدواوير من الفرار أمام وجه الحركة. وهوما جعله يلتمس من السلطان [...]» بأن يكتب كتاباً للحاج المعطي بن خمليش يأمره فيه بقبض من فر لناحية منهم

²³⁹ م . و . م . ر . ح : رسالة مستقلة غير مرقمة بتاريخ 21 جمادى الثانية عام 1263 الموافق ل 6 يونيو 1847

وبتوجيه ما له لدينا لانهم لما سمعوا بتوجهنا لناحياتهم ضاق بهم الحال وصار البعض منهم يفر»²⁴⁰. وابن خلميش هذا، هو أحد قواد المنطقة الجنوبية للشاوية متاخمة قيادته للقبايل الرتمية من تادلا.

المطلب الاول، ظاهرة الفُرار:

في عهد السلطان عبد الرحمان بن هشام، لم يكن نظام الجبايات والتحصيل الضريبي في البوادي قد عرف طريقه الى الاصلاح بعد. اذ كان عمل تحصيلها لا يزال يسير وفق اسلوبه التقليدي المتمثل في إنزال قوة المخزن بمنطقة ما، فيتم التحصيل على مقدار الانتاج الفلاحي من حبوب ومواشي. يطوف خلالها أشياخ القبائل والجرايا على القرى والدواوير فيعدون المقادير إما على العيان أو مما تأتي لديهم من معلومات حول حجم ومقدار محصول كل كانون أو اسرة أو خيمة، فيستخرج بمقتضاه النصاب الشرعي المتعين عليهم. والحال ان هذه العملية لم تكن في مستواها التقليدي قد خضعت بعد لشروط الضغط الخارجي لما بعد حرب تطوان وما سيعرفه النظام الجباي على العهد الحسني من تطور نوعي. من قبيل الإحصاء المسبق لعدد الخيام والكوانين الملزمة بالأداء، وهو إجراء قد نجح على الأقل في حصر قوائم الملزمين ومن ثمة وضعهم أمام الأمر الواقع، بل أكثر من ذلك أصبح المخزن قبل متم القرن التاسع عشر يجبي الأموال ليس على نسبة مقدار الانتاج ولا وفق ضوابط ومقتضيات يصوغها ما يحدده الواجب الشرعي، بل أصبحت تجبي إما مالا أو عينا بتعيين مقدار جزافي يفرض على القبيلة جملة، وذلك بفعل ما اقتضته ضرورة الوقت، خاصة بعد تزايد احتياج الدولة للمال، نتيجة تفاقم الضغوطات الاجنبية وتبعات تسديد غرامة حرب تطوان.

وبذلك كانت الطريقة التقليدية في الجباية في الفترة التي نحن بصدها هي أن يدفع كل رب أسرة، اوكانون ما فرض عليه بشكل شخصي. وهذا كان يغري بعض الأفراد والجماعات بتحيين الفرصة للإفلات من الجباية حالما يتناها الى مسامعهم بان الحركة المخزنية آتية لا محالة. فيعمدوا الى لملمة أمتعتهم وما طالت أيديهم من محصولهم الضئيل من زرع وسمن ومواشي وأصواف، ويفروا بها تاركين أسرهم وخيامهم قاعا صنفصفا إلا ما يسدون به رمقهم، متوارين عن الانظار بأماكن بعيدة الى حين انتهاء حملة الحركة.

وفور توصل المركز بتقرير احمد بالقائد بوقوع حالات فرار جماعات من قبيلة ورديفة، بادر إلى بعث رسائله الى قواد الشاوية يحثهم على رصد الطرقات واعتراض سبيلهم. ونقرأ في

²⁴⁰ م.وم : محفظة Th-47 رسالة مستقلة من احمد بن القايد الى السلطان .

الرسالة الجوابية لقائد من قواد امزاب بالشاوية بعث بها الى المخزن المركزي بهذا الشأن ما يلي: « [...] وبعد، فقد بلغني كتاب سيدي صحبة أبناء عم خديم سيدي، القائد احمد بالقائد السرغيني يأمرنا فيه بالقبض على ورديغة المتوجهين للغرب فرارا من أداء الواجب. فبوصول كتاب سيدي قمت قيام حزم وجد، وجعلت الأرصاد بالدار البيضاء والطريقة الجادة فقبضت على اثنين وستين رجلا [...] وحزت ما وجدت عند الأناس المذكورين من الإبل ثلاثة عشر جملا، ومن الخيل خمسة عشر فرسا، ومن الدواب ثلاثون ومن أحمال الصوفة عشرة، والدرهم مائة وثلاثة وتسعون ريالاً كبيرة صرفها سبعة عشر اوقية في كل ريال، الجميع هاهم تحت يدي»²⁴¹.

هكذا انبرى هذا القائد في سعي جاد لتنفيذ أوامر المخزن بمحاصرة وترصد كل المنافذ والطرق التي يمكن ان يسلكها الفرار هرباً من أداء الجباية. بيد أن النتيجة التي يمكن استخلاصها من هذا التدخل، هو ازدياد مردود دخل بيت المال الناتج عن مصادرة مثل هذا القدر الهائل من المحجوزات، والذي يمكن اعتباره نوعاً من الغنيمة يفوق مقدارها ما كان سيحتسب لو قدر عليهم ما يستوجب النصاب الشرعي من الأعشار و الزكوات. إلا أنه في المقابل أجرى ذلك مأساة حقيقية على هؤلاء الفرار. فإذا جاز لنا التخمين في إمكانية تتبع ورصد تبعات هذه الواقعة التي تمثل نموذجاً ينسحب على مجموعات أخرى مماثلة، كي ننتقل حجم ووطأة مصادرة أملاك هؤلاء الناس، والمعاناة التي سيكابونها وهم يرمقون تحت ثقل أغلال الحديد، بتلاشي أموالهم وأمتعتهم من بين أيديهم وقد أناخ عليهم الهوان بكله دون رحمة، فإنه يمكن القول أن تلك المجموعة ممن ينتمي أفرادها لقبيلة ورديغة ويبلغ عددهم حسب الرسالة 49 نفرًا، وإذا ما استثنينا من العدد الإجمالي الذي هو 62 رجلاً 13 شخصاً طارناً على القبيلة، فإن الظن يغلب على أن الموقوفين هم من أرباب أسر وأصحاب خيام من دوار واحد أو أكثر، قد تمكنوا من جمع أمتعتهم وأموالهم الظاهرة قصد نقلها الى الآفاق البعيدة لإخفائها عن عيون القائد وحركته. ما يمكن معه القول أيضاً ان الظاهرة كانت سلوكاً اجتماعياً معتاداً للجماعات من القبائل، فمنهم من يقبل على مضض في دفع "ما حرم الله" ومنهم من يفر الى قبيلة مجاورة للخلاص مما يعتبروه جوراً وتعسفا يلحقهم من القائد.

وإذ لا يمكن فهم دوافع مثل هذه الفئات بسلكها لخيار الفرار إذا لم نحدد طبيعة علاقتها بالممثلين المحليين للمخزن. فمن دون شك ان القواد كانوا في الغالب يصطنعون لهم اتباعاً

²⁴¹ م . و . م . ح . ر . : محفظة 47 - TH رسالة مستقلة غير مرقمة بتاريخ 09 شعبان 1262 الموافق ل 02 غشت 1846

ويكسبون موالين يستغل بعضهم في أعمال السخرة وخدمة مصالحهم الخاصة، وبعضهم الآخر يتدلل بالهدايا والعطايا تهيبا من سطوتهم. بينما الفئات المستبعدة لسبب او لآخر غالبا ما كانت تدرك أن الإنزال الجبائي ليس إلا فرصة سانحة للقائد وأتباعه يتحينونها لتصفية الحساب معهم بالمغلاة عليهم في التقدير الجبائي، ومن ثمة فليس من وسيلة تنجيهم من تعسفهم وكيدهم غير الفرار الى حين انجلاء الأمور.

إن الاموال المحتجزة وباقي الممتلكات التي عدتها الوثيقة الرسمية كانت تمثل ثروة حقيقية لأصحابها. وإذا ما تم تقييمها في المجلد بأسعار تناسبية بحساب تلك الفترة وتحويل مقدار الأموال منها عينا، والعين منها أموالا بشكل تقريبي ومقارن سنخلص الى النتيجة التالية:

جدول 6 بياني يرصد قيمة المواد المصادرة من الفرار عينا ونقدا

المصدر	ما يعادلها عينا من الشعير المادة الأكثر استهلاكاً	تفكيكها نقداً: ريال = 17 مزونة	الاموال المصادرة
- تم اعتماد هذه الاسعار والمقادير التناسبية على احالة سابقة لمصطفى الشابي. - م. وم. ر. ح : محفظة 1 وثيقة رقم 2069 بتاريخ رمضان 1263	3281 تعادل حوالي 328 متقال. 1 مثال = 10 اواق مد شعير = 12 اوقية المد يساوي 16 كلغ 3281 اوقية = 273 مد من الشعير. 273 × 16 كلغ = 4375 كلغ	193 × 17 اوقية = 3281	193 ريالة كبيرة

حاولنا من خلال هذا الجدول، إعطاء تصور تقريبي عن مقدار ما يمكن ان تعادله الأموال المصادرة من فرار قبيلة ورديفة المبينة بنص الرسالة، فيما يقابلها من سعر مادة الشعير الاكثر استهلاكاً بالبادية. وكان علينا في هذه الحالة البحث في مقدار السعر الاستدلالي للريال ثم المتقال فالأوقية فترة مستهل العشرية السادسة من القرن التاسع عشر. إلا أن صعوبة أي تحديد مضبوط لأسعار المواد والمنتجات يبقى أمراً صعباً. إذ لا يقتصر الأمر فقط على مستوى تباين مؤشرات الأسعار والمكاييل بين الحواضر والجهات، بل تكمن أيضاً فيما واجهناه من إغفال كتاب الرسائل في تدقيق المعلومة عن ذلك. وهو ما زاد الامر تعقيدا وصعوبة بالغة في تحديد القيم الاستدلالية بين مقدار السعر وماهيته وبين الوزن وطبيعة مقداره. وحتى يتم تجاوز هذه الصعوبة نسبياً، كان لابد من المقارنة مع نصوص أخرى وردت في نفس الفترة، تعبر عن منطقة حوز مراكش. علما أنها

تشتغل بنفس المقادير والمكايل بتادلا. فندرج مثلا على ذلك مقتظفا من رسالة مؤرخة في 06 محرم 1261 جاء فيها: « [...]واعلم سيدي أن هذه النواحي بخير، والمطر كثير، والاسعار رخيصة والحمد لله، القمح بالرحبة من 12 الى 13 الى 14 النهاية فيه، والشعير من 07 الى 06 والسمن بودراع 200 والمذوب 250 والزيت كانت وصلت الى 40 ورجعت اليوم الى 30 [...] والخيرات بسطة»²⁴²

وبالعودة الى نص الوثيقة الاولى، فإن أعداد الفرار من ورديفة وحجم ممتلكاتهم المصادرة هم فقط ممن اقر بهم القائد الخليلي في نص رسالته بعد أن تسنى له القبض عليهم، بينما يمكن افتراض أن أعدادا أخرى قد تكون سبلا أخرى أكثر وعورة من غير طريق الغرب للإفلات من الملاحقة فتبقى أعدادهم وأمتعتهم في حكم المجهول. على أن المحصلة التي تم ضبطها في فترة زمنية جد محدودة لا تعكس في الحقيقة إلا صدى ما ثبت في الوثيقتين فقط. فالراجح أن الضغط الجبائي بورديغة ربما طال فئات اجتماعية اوسع.

وتدقيقا لحصيلة ما تمت حيازته من أعداد المواشي والدواب والأحمال المصادرة، وحتى لا يطال إحصاءها أي لبس من عبث العابثين، فإن القواد الملقاة على عاتقهم هذه المهمة وبمقتضى مسؤولياتهم، كانوا يعمدون إلى تسجيل كل المقبوض عليهم بحضور قاضي وعدلين وتحت أنظار الشهود. فمن أجل إخلاء ذمته تابع المعطي الخليلي تقريره بالقول: « [...]فاحضرنا جميع المسجونين أمام وصيف سيدنا القايد عمر بن رزوق وبمحضر عدلين والقاضي، وسألوهم واحدا واحدا، فأشهدوهم أنهم لم يقع لهم شيء لا عندنا ولا عند الاخوان الذين وُكلنا بقبضهم. والآن من حين وقع بهم ذلك خشوا من هيبه سيدنا وسطوته، وهاذا ما يناسب لهم ولأمثالهم فلا زلت جادا في القبض من ظهر منهم الى الآن»²⁴³.

²⁴² م . و م: رسالة مستقلة مسجلة تحت رقم 12610106 A15-018-004 بتاريخ 6 محرم عام 1261 هـ
²⁴³ م . و م: نفس رسالة القايد الخليلي .

جدول 7 بمحصلة اعداد الفرار وأمتعتهم من وريغة خلا أسبوع

المصدر	احمال الصوف والغلل والقمح	الاكباش	الدواب	الثيران	الجمال	الخيول	الاموال المصادرة بالريال	الفرار الموقوفين	
رسالة القايد ولد المجاطية بتاريخ 9 شعبان 1261	10	--	30	--	13	15	193	49	
نص رسالة القايد بن خمليش بتاريخ 16 شعبان 1261	17	367	15	17	27	02	--	23	
---	27	367	45	17	40	17	3281/193 اوقية	72	المجموع

المطلب الثاني، تادلا الرتمية، بين الصراعات القبلية وموقف المخزن:

لم تكن الأخبار عن الاحوال الاجتماعية والعلاقات القبلية بتادلة الرتمية تأتي إلا متفرقة ومتباعدة عبر مراسلات مخزنية ترد على المركز من قواد الشاوية المتاخمة إيالاتهم للشمال التادلي او من ممثلي المخزن بتادلة السفلى أو السراغنة، فصعب علينا تتبع ما يجري بذلك الصقع بشكل دقيق ومتواتر. لكن مع ذلك أمكن رصد بعضا من ملامح تلك العلاقة من خلال ما توفر لدينا من وثائق.

والبين أن قبيلة وريغة التي حافظت على اسمها بانتسابها للجد الأعلى وريغ أووردغ قد استقرت بالسهل التادلي ضمن حركة الدفع البشري التي عرفتها قبائل جشم بتامسنا "فتحيز بطن بني جابر الى سفح الجبل بتادلة يجاورون هناك صناكة"، ويبدو ان الجموع البشرية لبني جابر قد انتظمت ضمن اطار مؤسسة قبلية كبرى لها زعامة تدبر شؤونها ما دامت " الرياسة فيهم لهذه العصور في وريغة "244 ونتيجة لعامل التطور الديمغرافي وما يرافقه من تنامي حاجيات السكان

²⁴⁴ ابن خلدون عبد الرحمان : مصدر سابق ج 6 ص 42

من تنوع لوسائل ومتطلبات العيش التي تلائم أنماطهم الانتاجية القائمة على الرعي والزراعة، يبقون في ارتباط بالحيز المكاني. وعندما لم يعد للمكان من كفاية لاستيعاب مزيد من تنامي أعداد بشرية ضمن نطاقات ضيقة لتجمع سكاني، فإن حتمية الانشطار السلالي وتناثر الأفخاذ والعشائر تصبح في هذه الحالة ضرورة اجتماعية واقتصادية، بل طبيعية لا يمكنها الا ان تستجيب لحركة التطور التاريخي الذي عرفته القبائل التبادلية. وهكذا استطاب الأمر لورديغة بالاستيطان بالهضبة الوسطى، بينما شغل بطني بني عمير وبني موسى المناطق الجنوبية لتادلة.

ولئن كانت حركة الانشطار السلالي قد عمت كل القبائل من بينها ورديغة، فلان ما خلفه جدهم الأعلى من الأولاد قد ساهم في تحديد طبيعة ما تمخض عنه هذا الانشطار من عدد القبائل المتفرعة. وحسب ما أورده عبد الوهاب بن المنصور، " فإن جابر الرتمي الجد الأعلى للقبائل التبادلية قد خلف من بين الأبناء "علي وردغ"، وهذا الأخير خلف من الأولاد أربعة، وهم بحر الكبير وبحر الصغير²⁴⁵. وقد استمر نسلهما يحمل نفس اسم ورديغة. أما الآخران اسماعيل وخيران فقد انحاز كل قبيل منهما لناحيته، مستمدا هويته من انتسابه السلالي وهما السماعلة وبني خيران. والانقسام هنا لا يؤدي بالضرورة الى قطيعة اجتماعية أو تاريخية بين مكونات تلك الوحدات. فوشائج القرابة كانت ما تزال مهيمنة على مشهد استغلال المجال ما سيؤثر على طبيعة العلاقة نفسها، ويخلف حركة من التدافع تتخللها في الغالب مظاهر من العنف الطردي.

وهكذا عرفت ورديغة قبل متم المنتصف الأول من القرن التاسع عشر سلسلة من الصراعات، داخلية أحيانا فيما بينها وبين وحدات الجوار من أبناء العمومة، وأحيانا بين جيرانها من قبائل الشاوية بالشمال، بقيت تجلياتها قائمة الى حدود نهاية القرن خاصة مع قبيلة الاعشاش.

ونقرأ في رسالة وجهها قائد من قواد الشاوية الى الوزير العربي بن المختار الجامعي الذي حل محل الوزير بن ادريس ما يلي: « [...] وبعد فليكن في كريم علمك ان هذه النواحي كلها في غاية ما يكون الهناء والصلاح والطاعة، والسبل مموله ماعدا فسدة ورديغة مدة هاذه وهم مشتغلون بغيهم وفسادهم واتفقوا مع بعضهم وتحاموا على فريق منهم يقال لهم السماعلة وغلّبوا عليهم واخرجوهم من بلادهم وطردهم منها، وفرّوا بحتهم ليلا ونزلوا ببلاد بني خيران بين اولاد امحمد وزعير وبين اخلف من ورديغة وهم أكثر من إيالتنا»²⁴⁶.

²⁴⁵ بنمنصور عبد الوهاب : معلمة المغرب ص 7572

²⁴⁶ م . و . م . ح . ر : محفظة TH-47 رسالة مستقلة غير مرقمة موجهة باسم القايد العربي الجليلي المعروف في من الشاوية بتاريخ 24 جمادى الثاني عام 1265

إن عملية الطرد والاحراج من البلاد الواردة في النص تحيل على طبيعة وأسباب النزاع الذي كان لازال مستشرى بالمجال الوردغي، وقد تحددت هنا حول الارض والاستيطان. وإذا كان النص لم يوضح حجم الكتلة البشرية المقصودة بالطرد من ورديغة، هل يعني بالسماعة كل قبيلهم، أم فقط جماعة منهم معينة أو عشيرة أو مجموعة دواوير منتسبة إليهم ؟ غير أن المؤكد أن قسما من السماعة المطرودين الذين وقع عليهم كبس من جانب زيان وزعير والتغلب من جانب ورديغة، قد نزلوا بدورهم على قبيل آخر مجاور لهم ومن بني عمومتهم وهم بني خيران قصد التوطن عنوة . فقد كتب نفس القائد الى المركز رسالة أخرى يتابع فيها بنفس ما زكى به استقرار قبيلته كما بالرسالة الاولى لما حصل بعد ذلك بمدة قصيرة : « [...] وبعد، فليكن في كريم علم سدنا ان هذه النواحي كلها في غاية ما يكون من الهناء والصلاح والطاعة والخدمة والانقياد، والسبل ممونة لابأس ولا ما يشوش البال لله الحمد وله المنة، ما عدا هؤلاء السماعة الذين غلبوا على بني خيران وأخرجوهم من بلادهم وسكنوا بها، كما أعلمنا سيدنا قبل. فلم يظهر فيهم صلاح ولا عندهم من يتحدث بالمخزن، وقد اشتغلوا بقطع الطريق بيننا وبينهم وأكل السبل وسفك الدماء. وقد تحيرنا في أمرهم ولا عرفنا ما نفعل معهم.»²⁴⁷

لقد أظهرت طبيعة الصراعات بين قبائل الشمال التادلي، أن كل وحدة قبلية منها، أصبحت تمثل كيانا مستقلا بذاته. فبالرغم من وحدة انتسابها السلالي لجدها المشترك، الا ان تفككها وانشطارها عن القبيلة الام يحيل في نفس الوقت الى ما يجسده نسبها الى الجد الاعلى ويعبر في ذات الان عن وحدتها القبلية، انجالت صورتها على واقع تقسيمي سيعتمده المخزن عند تولية ممثليه، فيخاطب بموجبه قوادها بعمال ورديغة كافة، او عمال السماعة كافة، أو أعيان زمر كافة في إشارة إلى أن كل من ينضوي تحت لواء القبيلة حتى وإن كان يستوطن على أطرافها أو على هوامش قبيلة أخرى.

وهكذا استمرت حالة من عدم الاستقرار بتادلة العليا، وتوالت حركة التغالب طرادا بين الوحدات السكانية من أبناء العمومة على الهوامش، وشكلت الارض والموطن ابرز عنصر دينامية هذا الصراع. فقد تحول استغلال المسارح التي ظلت منذ القديم اطارا مشتركا للرعي لكافة الاطر القبلية تحولت مع مرور الزمن بفعل التدافع والتوسع الاستيطاني الى أرض منتسبة لهوية قاطنيها. وغدا الدفاع عن تملكها وضمها امر لا يتحقق هدفه الا بالعنف والطرد ثم التوطن بالقوة.

²⁴⁷ م . و . م . ح . ر : محفظة TH-47 رسالة مستقلة غير مرقمة موجهة باسم القايد العربي الجيلالي المعروف من الشاوية الى السلطان المولى عبد الرحمان بتاريخ 29 رجب عام 1265

في خضم صراع هذه الاطراف لم نستطع تبين دور المرابط عقب هذه الاحداث ولا الكشف عن تدخلاته للفصل بينهم عن طريق التحكيم والتسويات البيئية، لتجنيب المجتمع المحلي مزيد من الصراعات حول الاحقية في استغلال الارض، لكن من غير المستبعد ان أي سلطة محلية قادرة على ضبط الامن والنظام لم تكن حاضرة بشكل وازن إن لم نقل دورها لم يكن فاعلا بالشكل المطلوب. لذلك بدت المفارقة واضحة من خلال الصيغة التقديمية الواردة في رسائل قائد الشاوية في التمييز بين منطقة مأطرة بالحضور المخزني واخرى تكاد تكون شاغرة.

فقبائل الشاوية من منظور حكامها، تظهر في غاية ما يكون الهناء والصلاح والطاعة والخدمة والانقياد. هذه المفردات المنتقاة بعناية كلها تحيل على معنى واحد يتوخاه المخزن من ممثليه، وهو ضمان الامن واستيفاء الواجب. لكن هذه الخصيصة بدت غائبة عن أطراف معينة من قبائل تادالا الرتمية. وتداركها من طرف المخزن أصبح شديد الإلحاح ليس فقط في الحاجة الى اختصار المسافات الزمنية ومشاق الطريق التي تقطعها الحركة الجبائية بقيادة احمد بالقائد، بل ايضا لما يشكله ضعف الحضور المخزني بالقبيلة من تفاقم أسباب الصراعات وتهديد الأمن الطرقي والقوافلي خاصة فيما بين تادالا في اتجاه ميناء الدار البيضاء حيث يوسق القمح والأصواف الى الخارج. وقد التمس من المركز في هذا الشأن نفس القائد في رسالته على لسان اسماعلة بتولية قائد عليهم يكون سندا لهم ويتحدث باسمهم أمام المخزن « [...] وطلبوا منا ان نعلم سيدنا بأحوالهم على ان يولي عليهم احد منهم مثل المعطي بن السربوت فهم عند كلمة سيدنا. »²⁴⁸.

لقد سبق أن تطرقنا إلى ورود طلب على المخزن المركزي تقدم به كل من ولاد ابحر الكبار واولاد ابحر الصغار بورديغة الى السلطان المولى عبد الرحمان قصد تولية احمد بالعربي قائدا عليهم وبني زمرور والسماعلة بتولية محمد ولد السربوت وموافقة المخزن على تعيين الرجلين بعد تزكيتهما من طرف المرابط سيدي بن داود وخليفة السلطان²⁴⁹ على أن ارتضاءهما يبقى دائما حجة على القبيلتين، فشرط الانقياد لقائد من أهل القبيلة وتيسير انفاذ احكام المخزن هي من الضرورات الملزمة للجماعات والقبائل ولا عذر لمن خالف ذلك.

بيد ان ممارسة مهمة القيادة على أية قبيلة أو فخذ تعسر في الغالب على من يتحمل وزرها في أداء دوره على الوجه المطلوب في الضبط وتأمين السبل وتنفيذ أوامر المركز وبسط سلطة النظام ما لم يكن مؤازرا ومحفوقا بجانب من أدوات القوة التي يعززها المخزن اما بإزالة عسكرية

²⁴⁸ م . و . م . ح . ر : نفس رسالة القايد العربي بن الجليلي بتاريخ 24 جمادى 2 عام 1265
²⁴⁹ م . و . م . ر . ح : رسالة مستقلة من نجل السلطان سيدي محمد الو المولى عبد الرحمن مسجلة تحت رقم 17552 بتاريخ 25 رمضان عام 1261

او ببضعة مخازنية، او على الاقل برموز مخزانية تدعم مكانته مثل الفرس والقبة والطابع، فضلا عما تمده به عشيرته وامتداده العائلي وما يكتسبه من مال وجاه من أسباب الدعم المادي والمعنوي تساعد على ممارسة مهامه على الوجه المطلوب. ويظهر من خلال الرسالتين ان مظهر الحضور المخزني لم يكن على هذا العهد بالكثافة والقوة بتادلة الرتمية وهو ما نستشفه من رسائل طلبات التولية التي يبدوان اقتصار القبيلتين على تزكية تولية العربي ومحمد من آل السربوت فقط يجسد مدى قلة نسبة عدد الوجهاء والاعيان في المنافسة على من يتولى مهمة القيادة لديها مقارنة لما هو عليه الحال بمناطق السفح والجنوب التادليين، ما يعني ان المخزن كان يولي أهمية اكبر للجانب الامني وكثافة حضوره بناحية الجنوب اكثر مما اولاه لما عداها من مناطق اخرى بالإقليم. بينما كان مؤملا من السلطان أن يزكي طلبات القبائل الرتمية باقتراحها قائدين يولي عليها ويصبح فيها من " يتحدث بالمخزن " .

ومن خلال تتبعنا لحالة أسرة مخزانية من أولاد السربوت بالسماعة وحسب ما توفر لدينا من وثائق رسمية فإن القيادة استمرت فيها بالتوارث منذ عهد المولى عبد الرحمن الى غاية حكم المولى الحسن. فبعد تولية القايد محمد تم اقرار شقيقه المعطي بن السربوت مكانه الى حين وفاته ثم تولى من بعده القيادة ابن القائد الاول محمد بن محمد ولد السربوت²⁵⁰ بينما تشيخ ابن الثاني المسمى عبد القادر بالمعطي على اولاد ديك بالسماعة²⁵¹.

وقد ميز المخزن عند تعيين هذا الاخير عن باقي الاشياخ لهذا المنصب بالعبارة التالية: «اولاد ديك من السماعة تشيخ عليهم الشيخ عبد القادر بن المعطي السماعلي منه للمخزن لا دخل للعمال في إخوانه»²⁵².

وتتيح لنا هذه العبارة الوقوف على اختلاف واضح عند تولية أفراد من القبيلة في مهمة المشيخة وهي أدنى في الترتيب من منصب القائد،رفيما بين الذي جرت العادة به في اختيارهم من طرف القائد يصطنعهم اصطناعا ويقع أحيانا اقتراحهم من طرف الجماعة لمكانة لديهم أوجاه يحظون به كونهم في الغالب من الاعيان، وبين من يعينهم ويشكل الشيوخ في الحالة الاولى احدى الدعامات الاساسية في تمثيل السلطة على المستوى الأفقي نظرا لعدد انتشارهم في الفخذ او القبيلة ويعتبرون صلة الوصل بين افخاذهم والقائد بحكم الانتماء والارتباط بهم، ينقلون اليه المستجد من

²⁵⁰ خ . م . ر . : كناش 151 بدون تصفيح بتاريخ 1308

²⁵¹ خ . م . ر . : كناش 151 بدون تصفيح

²⁵² خ . م . ر . : كناش 151 بدون تصفيح

* بالقبائل غير الخاضعة لسلطة المخزن و هي في الغالب الاعم تقع بالمناطق الجبلية و الديرية ، يوجد ما يسمى بشيخ الربيع كما هو حال قبائل آيت سري و آيت سخمان .

الأخبار ويحضرون معه الاجتماعات ويعملون على تنفيذ أوامره والقيام بالواجبات المخزنية، خاصة عند حلول محلة سلطانية أو حركة جبائية. وتتحدد فعالية الأشياخ* هنا في شغلهم وظيفية الاشراف على شؤون مشيختهم وتسييرها وفق الاعراف المتبعة، والفصل في القضايا الطارئة بين الافراد والجماعات، لندرك في المجمل مدى نفاذ الحضور المخزني الى مستويات أدنى من التقسيم بالوحدات الاجتماعية. وبصرف النظر عن مدى قوة حضورهم وحجم امتداهم العائلي داخل حدود نفوذهم، فإن عليهم الحفاظ على ما يقربهم من القائد بوشائج الملاقة والهدايا لنيل نصيبه من الخطوة، بينما ينزل الشيوخ الذين يتم تعيينهم مباشرة من المخزن المركزي بهذه الصفة بين منزلتين. فهم من ناحية يستمدون سلطتهم من مشروعية إنفاذ الاحكام التي يمدهم بها المخزن وتخابرهم معه بنفس الوسائل والطرق والنسق التراتبي، ويتحملون نفس المهام ويخضعون للمساءلة والعقاب والجزاء الذي ينسحب على باقي القواد²⁵³. إلا أنهم لا يحضون بالترقية وبالتسمية لذات المنصب إلا بعد أن يظهروا من الكفاءة والحزم وحسن ضبط الايالة وتحليهم بشروط وبصفات الاستمرار في القدرة على تحمل الخدمة المخزانية بما يؤهلهم لذلك.

وقد سبق ان تعرفنا على جانب من سيرة عبد الله اداس شيخ آيت الربع. وكيف كان يأتّم مباشرة من المركز ويبعث بتقاريره ويفصل الحديث عن حروبه مع قبائل الدير والجبل، بل كان المخزن لا يتوانى في دعمه ومساندته في مهمته تلك ويدعو الى مؤازرته من طرف الحركات المخزنية الوافدة من العاصمة. واستمر في مشيخته على قبيلته منذ هذا العهد إلى حين وفاته وإقرار ابنه علال قائد رحا على قواد آيت الربع على العهد الحسني²⁵⁴. وقد عثرنا على رسائل أخرى تشير الى استمرار الخدمة المخزنية في أسرته الا أنها لم تدم طويلا بسبب اشتداد التوتر داخل هذا القبيل وتغير الولاءات الناجمة عن احتدام الصراعات القبلية.

ويمكن إدراك حجم سلطة المخزن داخل القبيلة من خلال ما تعكسه قوة القائد ومدى تمكنه من إنفاذ الاحكام والمطالب المخزنية بالقبيلة. فلم يكن يتقاضى راتبا لقاء النهوض بما تقتضيه واجبات القيادة من مهام وأعباء وإنما كان يتمتع بامتيازات تسمح له بتسخير فئة من العامة لأشغال الفلاحة والرعي ورعاية أراضي الشاسعة، فضلا عما يحتججه لنفسه من منافع مادية ومنافع مالية وعينية يكتسبها مما يفرضه على العامة من زيادات في نسب الجبايات على غير المحدد له من

²⁵³ يقصد بالجزاء هنا ، تسلم القائد لخم التراسل وقبة وفرس واحيانا بندقية من المخزن وكلها تمثل رموزا مخزنية كانت تضي على القائد مكانة معينة وسط القبيلة .

²⁵⁴ خ . م . ر : كناش 353 ص 88 مختصر رسالة سلطانية الى كافة قبائل ايت الربع بتاريخ 12 شعبان عام 1300 هـ

المركز، فيؤول الفائض منها لخزائنه وأمراسه وزرائبه، بينما يكون المتحصل الرسمي قد عرف طريقه الى المركز.

المبحث الرابع، الجنوب التادلي بين صراعات قبلية وموقف المخزن :

في الجنوب من الاقليم التادلي كان الوضع الى هذا التاريخ مختلف تماما من حيث الحضور المخزني. فإذا كانت القبائل الرتمية وفي ظل ضعف التمثيل المخزني بها ان لم يكن شغورا واضحا، تتصارع مع بعضها البعض من أجل حيازة الارض وتشهد انتشارا لمظاهر التسبب وقطع الطرقات والتعديات على السابلة، واستفزازاتهم المتكررة لجوارهم من قبائل الشاوية، فإن قبائل الجنوب التادلي، خاصة منها الواقعة على الجانب الديري منه، كانت تشهد صراعات من نوع آخر أبطاله هذه المرة ليس من عموم الناس، بل الممثلون المحليون للمخزن الواقعة تحت نفوذهم تلك القبائل. وعلى رأسها قبيلة هنتيفة ذات الشوكة والمنعة واحتدام خلافاتهم مع من إليهم من القبائل المتاخمة، منها آيت عتاب، وبني عياط وايت عطا وأخرى بالمنطقة السهلية كبني موسى.

والمثير في أسباب هذه الصراعات، حسب مضامين المراسلات المخزية التي واكبت تحركاتهم، أن عناصر متعددة الابعاد اجتمعت فيها لتزيد من حدتها واستمرارها لمدة ليست بالقصيرة، منها ما له علاقة بدوافع عصبية يدفع الى تحشيد قواها ضد بعضها البعض، ومنها ما يدخل في اشتداد المنافسة والصراع بين قائدين قويين، واحد منهما تقع هنتيفة تحت نظره. فماذا كان موقف المخزن المركزي من تطور الاحداث بهذه المنطقة؟ وما هي المقاربة الأمنية التي سلكها في احتواء تلك الصراعات؟ لكن قبل التطرق الى ذلك، ارتأينا إلقاء نظرة موجزة عن قبيلة هنتيفة حتى يمكن تقريب تصورنا وفهمنا لما تفصح عنه الوثائق المخزنية .

المطلب الاول، هنتيفة تحت وطأة قائد قوي وصراعات بين قبائل الجنوب:

أولا، الموقع:

شكل موقع هنتيفة نموذجا للقبيلة التي فرض عليها المنطق الجغرافي والتاريخي لان يتعايش سكانها ضمن مزيج إثني وتنوع بيئي.

فهي تحتل مجالا متنوع التضاريس بين جبل ودير، تتخلل مساحاتها بعض المنبسطات المتقطعة تتوزع هنا وهناك على شكل شرائط ضيقة، وتمتد في اقسام منها على ضفاف واد العبيد الذي ساهم اختراقه لأرضها في تشكل تجمعات سكانية منتشرة على ضفتيه، يستغلون مياهه في سقي المزروعات والأغراس. ما عدا ذلك وباستثناء مساحاتها الجنوبية التي تستغل في زراعة

القمح فان باقي مناطقها الشمالية، فهي إما محجورة يتخللها انتشار واسع لنبات الزكوم وهو من فصيلة الصباريات تنمو على تيجانه زهيرات صغيرة تعتبر غذاء مفضلا للنحل، ومن غطاء نباتي ضعيف يسد بالكاد نهم القطعان المتنقلة على الدوام، أو مناطق جبلية حافظت على مشهدها الغابوي، ترتاده تلك القطعان في أوقات من السنة معلومة.

تجاور قبيلة هنتيفة مجالات أخرى لا تختلف عنها كثيرا من حيث المشهد البيئي، وان تميزت بوقوع قبائل السراغنة الناطقة باللغة العربية على حدودها الجنوبية وعن شمالها قبيلة بني موسى في مشهد طبوغرافي مختلف. بينما تقع قبائل ايت ايتاب على جهتها الشرقية وقبائل ايت مصاد الجبلية ودمنات من ناحية الجنوب.

يتحدث جل سكانها اللغة الامازيغية، وقد فرض عليها العامل الجغرافي، حتمية التداخل والاحتكاك البشري بينها وبين الجوار، مسهما في تنوعها الثقافي واللغوي وانفتاحا تجاريا على المحيط لتصريف منتجاتها من الحبوب والفواكه وخاصة رؤوس المواشي.

ثانيا، دلالة الاسم:

إن محاولة البحث في مدلول إسم قبيلة ما لا تعدمه أهمية في التحقق من تاريخها وكل ما يفيد في تتبع أصولها وتنقلها وارتحالها قبل أن يطيب لها المقام النهائي والاستقرار في حدودها الترابية.

وإذا كانت قبيلة هنتيفة لم يعرف لها استقرار بالمنطقة يضرب بجذوره في عمق التاريخ، إذ لا تفيدنا المصادر التاريخية بما يغني كثيرا في تتبع تطور اقسامها ووحداتها، الا بما اورده عنها ابن خلدون من كونها بطن من بطون هسكورة ربما امتزج اصلهم بين مصمودي وصنهاجي وتمتد مواطن بطونها المتعددة "من درن الى تادلا". مضييفا أن "[...]بطون هسكورة هؤلاء متعددون، فمنهم مصطاوة وغدامة وزمراوة و**انتيفت** وبنونفال..."²⁵⁵. وحسب نفس الافادة فان بطن انتيفت كما باقي البطون الهسكورية كان لها اعتزاز على الدولتين الموحدية والمرينية ولا تنقاد لمغرم دفع بالقبيلة الى ان تصير، " ملجأ النازعين عن الطاعة من عرب جشم ومأوى للثائرين منهم "²⁵⁶ وهو ما ينسجم كثيرا مع افادة له سابقة حول ايواء الجبل الصنهاجي للوزير

²⁵⁵ ابن خلدون عبد الرحمن : (م.س) ج 6 ص 271 .

²⁵⁶ ابن خلدون عبد الرحمن : نفسه ج 6 ص 271 .

المتنرد الفدودي زمن بني مرين، قبل ان ان يستقيم امرها في النهاية "[...]وتذعن لاداء الضرائب والمغارم وجبايتها من قومهم والخوف الى العسكرة مع السلطان" 257 .

غير ان لفظ انتيفت الذي يظهر بشكل واضح ان اسم هنتيفة مشتق منه، لا تعود دلالاته حسب اعتقادنا الى ما يرمز الى اسم جد مشترك. فقد ذهب التاويل في بعض الدراسات، انه استمد مدلوله فيما يتصل بظاهرة ايكولوجية تحيل على ما يميز المنطقة من بنية انتاجية تعرف بالشح المطري وقلة الغطاء النباتي، وان جذره يتصل بالمصدر الاشتقاقي لفعل "نتف" أي جذب واجتث والقصد به الزرع وقت الحصاد باليد بدلا من آلة المنجل، نتيجة قصر سيقان السنابل، يمكن المزارع في نفس الوقت بفعل عامل الندرة من الاحتفاظ بأغلب القش وتخزينه كلاً للمواشي.

بيد ان تأويلا في هذا الاتجاه يبقى مجرد فرضية محمولة على الظن وهو يستند في تعليقه الاسقاطي على قاعدة، أن الطبيعة الايكولوجية لمجال القبيلة تتسم بندرة المياه وضعف المحاصيل الزراعية. والحال ان ظاهرة قلة المنتج الزراعي وشظف عيش السكان لم تكن الى هذا العهد حكرا على هنتيفة وحدها، بل طالت جل القبائل المحيطة بها. وظل الكسب والرعي هو النمط الانتاجي الاكثر اعتمادا لدى السكان في مجموع القبائل التادلية وديرها. فاجتثات السنابل اوقات الحصاد، انما كان سمة طاغية لدى الفلاحين بكل المناطق المجاورة في السنوات التي تعرف شحا في الأمطار.

بيد أن أصل التسمية، لا ينبغي أن يزيغ عن منبعه التاريخي رغم حصول تحريف طفيف يرجع سببه ربما الى طبيعة التداول في اللهجة المحلية وربما امتزج باللسان العربي فاضيف الى اوله أهل انتيفة اي ذوي انتيفة قبل ان يضغم في الاخير فصارت التسمية تنطق ب: هنتيفة. ومهما يكن من أمر فان المرجعية الرسمية لاسم قبيلة انتيفة/ هنتيفة، وجدت استمرارها في الوثائق الرسمية والمراسلات المخزنية وظل يرسم بنفس اللفظ اي هنتيفة.

ثالثا، دينامية القبيلة:

امدتنا شهادة الرحالة المغربي حسن الوزان بمعلومات عن ابزو وفم الجمعة كمركزين تجاريين وحرفيين بهنتيفة. متحدثا بإسهاب عن تطور صناعاتهما اليدوية من حياكة وحدادة وسراجة ودباغة وتجفيف الفواكه، ما جعلهما يمثلان سوقا تجارية حافلة بالتبادل البضائعي

²⁵⁷ابن خلدون عبد الرحمن : نفسه ج 6 ص 271 .

وتصريف المنتوجات المحلية الى الصحراء جنوبا وفاس شمالا. ولم يفت الرحالة في التعبير عن إعجابه بمقدراتهما الفلاحية وانتشار الاشجار المثمرة والزروع بمحيط المركزين²⁵⁸.

وإذا كانت شهادة الرحالة المغربي قد منحنا صورة عن مستوى عيش السكان بمرکزي القبيلة بما منحه لهما عوامل الطبيعة من مظاهر الاستقرار والاستمرار خاصة وانهما يوجدان بمحاذاة النهر، فان معلومات عن مناطق أخرى من هنتيفة من هذا القبيل يمكن التماسها في المصادر التاريخية تبقى غميسة ومن ثمة صار مزيد من الأخبار عنها في حكم العتمة.

الا ان الفرنسي هنري باسي، عند زيارته للمنطقة صيف 1916، قد أفادنا فيما ضمنه بمحتوى تقريره الوصفي عن تلك الزيارة، ببعض المعطيات القيمة عن المجال الهنتيفي، وبيئته وطبيعة تربته، ومياهه وتنوع تضاريسه. مع بعض التوضيحات حول مساكن السكان وبعض عاداتهم وتقاليدهم²⁵⁹، دون ان نعثر في غير ذلك، على ما يفيد واقعهم السوسولوجي ولا عن انتظامات مجموعاتهم القبلية وتقسيمات وحداتها السياسية، على غرار ما سجله دوسيكونزك في مؤلفه مهمة في المغرب.

ويتبرر ذلك بحسب اعتقادنا الى قصر المدة الزمنية التي قضاها بالمنطقة، فلم تسعفه الرحلة المستعجلة في تعميق دراسته حول القبيلة.

والواقع، أنه يمكن استنتاج حتى فيما أورده من ملاحظات اذا ما تم عزلها عن جانبها التقريري، فإن ملاحظاته تبقى معالمها موسومة بخاصية مركزية وتضخيم الذات الاوروبية حيال الامم الاخرى. منها ما أورده من أن أهل انتيفة بعيدون عن الحضارة²⁶⁰ بينما وقف مشدوها

²⁵⁸ الوزان حسن : (م.س) ص ص 168-169-170

²⁵⁹ Basset Henri : Rapport sur une mission chez les Ntifa , archives berbères , volume II fascicule 2 , année 1917, pp de 97 à 122.

²⁶⁰ نعثر في كتابات بعض الرحالة الفرنسيين ممن زاروا المغرب في المنتصف الثاني من القرن التاسع عشر تعبيرات مبطنة تؤكد ذلك، من جملتهم ما سجله الاديب بيير لوتي: Pierre loti 1850-1923 . في كتابه AU MAROC صص 100 و 101 اثناء رحلته لزيارة قبيلة بني احسن قادما اليها من مدينة فاس سنة 1870، وبعد استقباله من طرف قائد القبيلة بحفاوة و حسن الاستقبال مع استقدامه لبعض الخيالة للعب البارود على طريقة اهل المغرب فكان تعبيره مقابل ذلك كالآتي: "[...]وجبة الغذاء لدى هذا الزعيم الكهل همجية (sauvage) ، مثلها مثل مجاله و قبيلته . فعلى منبسط فسيح حيث تنتشر ازهار صفراء قدم لنا الكسكس الاسود (الراجح ان مكونه دقيق الشعير او ما يسمى بالبلبولة) الى جانب خراف كاملة مشوية تم وضعها على صحون من خشب ، و بينما كنا نسحب قطع اللحم بأيدينا من الشواء المقرف او البشع (monstrueux rôtis هكذا)، حل أناس ملتسمون بشاة تم ذبحها..." وقد دفعنا مثل هذه الانطباعات الى تحري مستوى الواقع المعيشي لبلده فرنسا خلال المنتصف الثاني من نفس القرن فهالنا مما عاشته العاصمة باريس من جراء حصار طويل للقوات البروسية و اسرهل للملك نابليون الثالث . وقد الجأ الحصار السكان الى اكل القطط و الكلاب و اضطرار القائمين على شأن المدينة الى سحب عظام رفاة اجدادهم من باطن الكنائس و طحنها و مزجها بالدقيق و قدمت غذاء للسكان تجنبا لهلاكهم العام .

ومتعجبا من قدرة صمود قنطرة العثامنة القائمة منذ عهد السلطان اسماعيل على واد العبيد وقدرتها على تحمل لعدة عقود وأجيال قوة مياه النهر الجارفة²⁶¹.

وعلى اية حال فان هنتيفة قد نالت من اهتمام الباحثين الاجانب لتمييز مكانتها بين القبائل واستطاعت دراساتهم لجوانب من حياة سكانها ان تخلف أجزاء من بقايا تراث القبيلة يستحق الاهتمام، خاصة منه ما قدمه اميل لاووست في مؤلفه كلمات وأشياء بربرية فضلا عن كتابه القيم حكايات بربرية بالمغرب الذي خصص جل فصوله حول اساطير وحكايات مستمدة من التراث والثقافة المحليين.²⁶²

رابعا، الروابط الاجتماعية للقبيلة:

يشكل عامل الترابط الاجتماعي والاختلاط بين مكونات اعضاء المجموعات القبلية ضمن مجال ترابي مشترك من بين اهم العناصر التي تعمل على صمود القبيلة واستمرارها. كما ان شعور الافراد والجماعات بالانتماء لقبيلتهم يصير حافظا له صفة الدوام، ما داموا منخرطين في إطارها واكتسبوا من عادات قبيلتهم واعرافها وارتبطت حياتهم كلية بمصير القبيلة بصرف النظر عن قاسمهم المشترك في النسب. فقد يتباعد الزمن بالانتماء لجد مشترك وتتفرع الانساب ويتعدد انقسام المجموعات، وقد يحل وافدون جدد ويرتحل آخرون حتى تغدو مرجعية الانتساب اليه في حكم التلاشي، ولا يحتفظ بعدئذ الا بمدلوله الرمزي دون التخلي عن قيمته الاعتبارية.

ومن غير شك ان مستوى ونمط العيش المتسم باقتصاد الكفاف وإنتاج القلة وقدرة السكان على التأقلم مع واقعهم البيئي، يعتبر من القواسم المشتركة بين الافراد والجماعات التي تدمهم بأسباب الترابط والتلاحم باعتبارها عناصر مشتركة تلزمهم التضامن والتآزر فيما بينهم للتغلب على ما يهدد وجودهم بالقدر الذي يدعم مصيرهم للبقاء. كل ذلك قد ساعد البنية السكانية على الصمود امام العوائد وآثار اقتصاد القلة وتجاوز حدة شح الطبيعة. فعلى الرغم من تذبذب أعداد السكان وتراجعها بفعل النوائب وأزمات القحوط المتكررة كما هو حال باقي القبائل، فإن البنية الديمغرافية لا تلبث أن تنشط من جديد وتتغلب على مثل تلك العوائق بحكم تجدد النسغ البشري من جهة وقدرة السكان على تجاوز الظروف العصيبة بما اكتسبوه من قوة على تحمل المشاق والمدافعة عن كيانهم والدود عن موطنهم من جهة ثانية. وهذا بالضبط ما جعل وحداتها القبلية تنحو في

²⁶¹ Basset Henri : op.cit, pp114- 115-116

²⁶² Emile Laoust : Contes Berbères du Maroc ,F.L.S.H Rabat N° 13 1^{er} Édition 2012 .

الغالب الى خيار الالتحام التضامني وانتظام مجموعاتها المتشابهة ضمن أحلاف لفية لتدراً عن نفسها مخاطر تعديات قبائل الجوار.

وليس من وصف يغنيا أكثر عن التعبير بشأن واقعه القبلي، أدق وأبلغ مما تحدثنا به إشارة وردت برسالة المولى عبد الرحمن: « [...] هنتيفة من أكبر قبائل الدير وأقواها شوكة »²⁶³ توصيف السلطان للقبيلة يذكرنا بما أوضحه ابن خلدون أيضاً في موضوع القبائل من أهل العصبية بقوله: " ولا يصدق دفاعهم وديادهم الا إذا كانوا عصبية [...] لأنهم بذلك تشتد شوكتهم ويخشى جانبهم "264.

إن إقرار المخزن بقوة شوكة هنتيفة واشتداد وازع العصبية لديها، لا يمكن ان نفهمه إلا في إطار إدراكه لضرورة تكثيف الحضور المخزني بهذه المنطقة. وهذا لا يعني أنها كانت خارجة على سلطة المخزن أو أن تلاحم أفخاذها كان ينسحب على مجموع القبيلة. بل يمكن القول أن طبيعة التلاحم كانت تعكس في الغالب توافقات المجالس الجماعية. وبما أن أشياخ هذه الأخيرة كانوا إلى نظر إيالة أحمد بالقايد السرخيني، وهم من كبار أعيان القبيلة، أضحت تمثيليتهم بهذه المجالس لها تأثير قوي في إصدار القرارات وعمل المنضوين تحت لوائهم بمقتضاها. فسعى المخزن بذلك الى تعيين القائد محمد بن الطالب حتى يتسنى التخفيف من حدة المضمون العصبوي للقبيلة واحتوائها وإخضاعها للنظم الجبائية والكلف المخزنية بشكل اوسع وفعالية أكبر.

ولن يتأتى ذلك إلا بدعم مركزي لهذا القائد وتهيئ أسباب القوة له، وشد عضده بالسلاح والعسكر ومساعدته فيما يقترحه من أشكال التدبير بما يخدم المصلحة المخزنية. ويقربنا استقراء رسالة من الارشيف المخزني من إدراك قوة المجالس المحلية لهنتيفة عند مناقشة أعضائها لقضية من القضايا أو واقعة من الوقائع التي تحصل داخل القبيلة ونفاذ مخرجات تقريرهم في مصيرها.

ففي رسالة على سبيل المثال، بعث بها القائد عبد الله بن الحسن النتيفي الى المركز يجيب من خلالها عن الظروف والملابسات المحيطة بواقعة وفاة اليهودي يعقوب دريان بإيالته وموقف أهل القبيلة من سلوكه المشين²⁶⁵. مهديين القائد بعواقب وخيمة في حالة عدم انصافهم من الذمي:

²⁶³ م.و.م.ر.ح: رسالة مستقلة للسلطان المولى عبد الرحمن بتاريخ 05 محرم 1262 مسجلة تحت عدد

852/852019302.8520

²⁶⁴ ابن خلدون عبدالرحمان: المقدمة ص 159

²⁶⁵ اتهم اليهودي المقتول حسب التقرير بالتهمة التالية: "انه حاز في سنة مسغبة، امرأة مسلمة شابة على وجه الفساد مدة من نحو سنة ونصف، حتى أحملها من الزنى فشاع ذلك في قبيلة انتتيفة فلم يرضوا بذلك وقدموا علينا وذكروا لنا ذلك وهموا بأكل الملايح (جمع ملاح) باسرها، وقاموا وقعدوا والزموا اخراج اهل الذمة من القبيلة لكونهم لم تبق لهم بذمة." (مقتطف من الرسالة اسفله).

ب« أنه سيقع منا ما لا يعجب ». واحترازا من تحزب القبيلة مع آيت مصاد وآيت اعتاب وتادلة، وتحسبا من إقدامهم على تنفيذ وعيدهم في أكل الملايح برر القائد الضرورة الامنية التي دفعته الى الركون الى ما اوعز به المجلس الجماعي له مستعلما المخزن بقوته الضاغطة بقوله: « [...] وكما يعلم سيدي أيدك الله أنك كنت حاركا بقبيلة هنتيفة وعرفت أحوال البلد وقانونها وحكمها، وأن العامل إذا كان منها لا يحكم الا بالجماعة كل وقت تعين احدا يكون مع العامل، ولا يحكم الا بموافقتهم. وإذا كان العامل أجنبيا فلا حكم له بدون تلك الجماعة. وأنا سيدي كنت واحدا من تلك الجماعة قبل، كما لا يخفى عن مولانا أيده الله، ولذلك سعدنا في قبض الذمي سدا للذريعة وتخميذا للروعة»²⁶⁶.

كان المخزن يدرك مكامن قوة هنتيفة من خلال اجتماع مجالسها على كلمة واحدة، فتقرر تعيين قائد من رحمها يقوم بتوظيف سلطته العسكرية والسياسية على مجموع القبيلة ومن ثمة استغلال سطوته المستمدة من دعم المخزن في تنظيم حركات جبائية وضمان التنقل الطرقي وحث القبيلة على الاستمرار في التزام طاعة المخزن من جهة، ومن جهة اخرى عليه قدر الامكان الحد من سلطة مجالس القبيلة وتوجيه أحكامها في الاتجاه الذي يقصر مهامها على تنظيم الحياة المحلية من تدبير للمنافع العامة وتصريف شؤونها الداخلية بالصيغ التقليدية المتوارثة، مع إبقاء الاستفادة بالنصيب الشرعي من عوائد انتاج القبيلة لفائدة المخزن وحده واحتكاره العنف بما لديه من سند مخزني.

فمن هو محمد بن الطالب هذا؟ وكيف كانت علاقته بالمخزن وسيرته بقبيلته هنتيفة ثم كيف انتهت حياته؟

المبحث الخامس، القايد محمد بن الطالب النتيفي ودوره في تدبير الصراعات:

المطلب الاول، علاقة بالمركز وسيرة في القبيلة:

سعى المخزن من خلال سياسته التدبيرية للمجال على عهد السلطان المولى عبد الرحمان الى تحقيق نوع من التوازن على مستوى النفوذ الترابي الذي تؤول قبائله الى حكم كل قائد. مع أخذه بعين الاعتبار معيار المضمون القبلي والبعد الجغرافي، دون ان يخضع نظام التوازن لأي تقسيم إداري دقيق أو لحدود ومعالم جغرافية مضبوطة.

²⁶⁶ م . و . ر . ح : رسالة مستقلة مسجلة تحت 24351 من القائد النتيفي عبد الله الى السلطان مولاي الحسن بتاريخ 16 رمضان

ونتيجة لإرهاصات تحركات مجتمعية بدأت معالمها تظهر على هذا العهد لدى قبيلة هنتيفة من خلال تحركات سكانية مشوبة أحيانا بالعنف والتوتر، تنحو لتحقيق رغبتها في التحلل من سطوة قائد السراغنة القوي احمد بن القايد غير المنتسب لمجتمعها المحلي، على غرار ما حصل من أحداث عنف بدمنات ضد القائد نفسه ²⁶⁷.

والحقيقة، أن المخزن لم يكن يمانع في ظهور قيادات ومساندتها اذا ما أنس لها قدرة على ضبط وحداتها القبلية واكتسابها لشروط التولية، كالولاء وحصافة الرأي والاقدام، مع قبوله من طرف المجتمع المحلي، تدعم حظوظه في تزكية المخزن المركزي وتعيينه في منصب القيادة. وهكذا، وبينما كان احمد بالقايد يتجهز كالمعتاد منتصف العشرية الرابعة من القرن التاسع عشر استعدادا لقيادة حركته الجبائية لتادلة، كانت قبيلة هنتيفة الواقعة بشمال إيالته تتحين الفرص للتخلص من سلطته. فتهيأت الأسباب لزعامة محلية في تولى قيادتها وإدارة شؤونها خلفا لقائد السراغنة.

ينتمي ابن الطالب لبيت من بيوتات قبيلة هنتيفة المخزانية. اذ شغل والده ابراهيم بن الطالب مهمة خليفة عامل السراغنة على قبيلته قبل ان يتم إقرار ابنه محمد قائدا من طرف السلطان سنة 1261 / 1846. فانفصلت هنتيفة ومعها ارفالة عن حكم بالقايد وآل تدبير امورها الجبائية والامنية وقضاياها الاجتماعية للقائد الجديد. ومن حينها طفق هذا الاخير يجرّد حركاته الجبائية ويستأذن في تحركاته العسكرية المخزن المركزي ويرفع تقاريره مبلغا بتفاصيل بكل ما يمور من وقائع واحداث داخل وخارج قبيلته ويتوصل بدوره برسائل من المركز.

وقد كان لخروج قبيلته من تحت سلطة بالقايد حدثا سياسيا توصل به عن طريق ما ابلغه به الوزير ابن ادريس: «[...] ولما أخرجنا مولانا من ولاية ابن القايد عرفت ذلك من فضل الله وفضلك ورضى سيدنا اعزه الله» ²⁶⁸.

وقد كان لهذا القائد حظوة ومكانة لدى السلطان. فليس من شهادة أوضح للتدليل على ذلك أكثر مما جاء في نص الرسالة السلطانية بشأنه الى خليفته على الاقليم جاء فيها : « ولدنا الأبر الأرضي سيدي محمد، أصلحك الله وسلام عليك ورحمة الله تعالى وبركاته وبعد، فإن قبيلة هنتيفة من أكبر قبائل الدير وأقواها شوكة، ولم يضبط أمرها ويحسم مادة الفساد منهم ومن جوارهم الا ابراهيم بن الطالب. وقد اقتفى ولده الطالب محمد أثره وحفظ رسوم الخدمة بعده وهو ووالده قبله

²⁶⁷ الدمناتي احمد نجيب : (مرس) ص 32

²⁶⁸ م . و . م . ح . ر . : محظنة 47- TH رسالة مستقلة مرقمة موجهة تحت عدد 22982 بعث بها ابن الطالب الى الوزير محمد بن ادريس بتاريخ 22 محرم 1261

خدم مع ابن القايد الخدمة الحسنة مع حذرهما منه على عادة البربر في الحذر. ويكفيه شاهدا على حزمه وضبطه سكون قبيلته مع تزلزل جيرانها. فلا بد استوص به خيرا، وعامله بما يسكن جأشه ويؤمن سربه، فإنك تجد فيه من الصدق والنصيحة والوقوف ما لا تجده في غيره. وان احتجته لمهمة قام بأعبائها وساعده على ما يشير به من أمور صلاح قبيلته، فإنه أعرف بما تحدس به خدمتها ويستقيم به أمرها، ولا تسمع فيه كلام أحد خصوصا أعدائه»²⁶⁹

هكذا كان موقف المخزن المركزي من ابن الطالب بعد إقراره قائدا على هنتيفة بناء على مؤشرات تقييمية حول كفاءته وموهبته القيادية. وهي في اعتقادنا انما تدخل في إطار استراتيجية مخزنية تروم تهيئ صيغة نموذجية لمواصفات القيادات التي يتعين تأهيلها للاضطلاع بمهام تدبير شؤون القبائل وتطويع السائب منها. وهذا بالضبط ما سيحصل على عهد المولى الحسن في اختياره تولية كلا من موحى اوحمو الزباني وموحى اوسعيد اليراي.

ويفيدنا نص الرسالة كذلك، ان ابن الطالب كان يساعد والده في مهامه كخليفة للقايد السرغيني. وليس ببعيد ان تكون تجربته مع والده قد افادته كثيرا في كيفية التعامل مع الأمور المحلية ودرسته في حفظ رسوم الخدمة المخزانية. فكان له من الولاء وسداد الرأي والاستعداد لتحمل اوزار مهام السلطة وإحداث توازن على مستوى الحضور المخزني في منطقة عرفت توترات وتجاذبات بين كياناتها، ما أهله لأن يحظى بما ناله من ثقة السلطان.

فلم يكد يمضي على توليته حولا كاملا حتى توجه على العادة بهداياه الى المركز بمناسبة الاعياد الثلاثة - كما هوشأن باقي القواد - فكانت تلاقي استحسانا من لدن السلطان. ونستشف ذلك من الخطاب الجوابي عن ورود هديته بمناسبة عيد الاضحى لخليفته جاء فيها: « ولدنا الأبر الأرضى سيدي محمد أصلحك الله وبعد، فقد وصلنا كتابك صحبة عيادة هنتيفة الواردين على حضرتنا الشريفة مع أخ عاملهم الطالب محمد بن الطالب، وأدوا الهدية المذكورة في كتابه، كثر الله خيرهم أمين. فادفع لأخيه المذكور كسوة بقفطان جيد وسلهام ملف جيد، والأربعة الذين معه خمسة وعشرون دراعا من كتان مقصور للواحد»²⁷⁰.

وإذا كان مقدار الهدية لم يحدد في الرسالة، فإن العادة كانت تقضي ان يبعث القائد بفرس في كل عيد من الاعياد الثلاثة، الأضحى والفطر والمولد النبوي الشريف، ومعها هدية القبيلة

²⁶⁹ م . و . م . ر . ح : محفظة TH47 رسالة سلطانية مستقلة مسجلة تحت رقم 19302 بتاريخ 5 محرم 1262 موافق 3 يناير 1846
²⁷⁰ م . و . م . ر . ح : محفظة Th47 رسالة سلطانية مستقلة مسجلة تحت رقم 22725 بتاريخ 21 ذو الحجة 1261 هـ .

صحبة أعيان يختارهم القائد، ويطلق عليهم في خطاب الوثائق المخزنية بالهَديايا اوالعيادة اي من يتولون تقديم الهدية ويحضررون مراسيم احتفال العيد بالمشور.

وبحكم انتماء محمد بن الطالب لقبيلته وله امتدادات عائلية وعشائرية، فضلا عن كونه من الناحية الرسمية ممثلا مخزنيا فانه يقوم ايضا بوظيفة تمثيل القبيلة لدى المخزن، والتعبير عن مطالبها اذا ما لحقها مكروه اوتعديات من طرف قبائل الجوار، اوبالتشفع والوساطة لدى السلطان لفائدة مسجونى القبيلة الممتنعين عن الاذعان لمطالب المخزن واقترافهم لأفعال تستوجب السجن.

هذه الوظائف المزروجة التي غدا يضطلع بها محمد بن الطالب والمتمثلة في اقتناع المخزن بقدرته على تطويع القبيلة وجوارها من هرفالة وايت اعتاب وبكفاءته في مد اواصر التحالف مع بعض المكونات القبلية بتادلة من قبيل ايت الربع وفخذ آيت زيدوح من جهة وفي قدرته على اقناعه للقبيلة ومجالسها في دفاعه عن مصالحهم امام المخزن، كل ذلك جعله في الموقف الذي اضحى من خلاله يمثل الرجل الانسب من طرف المخزن. يتوصل برسائله وينفذ اوامره بالسرعة والكفاءة المطلوبين ويبعث من جانبه بتقارير ورسائل الى المركز للإخبار عن كل ما يجري في تلك القبيلة وحتى بأطرافها، ويتتبع تحركات قواد الجوار، ولا يستتكمف التدخل بحركاته ضد القبائل المتاخمة وشن الغارات عليها بسبب الخلافات المزمنة مع قوادها وهي في الغالب تكون من تحريض احمد بالقايد المنافس والخصم اللدود له. فكيف نستطيع فهم جانب من أسباب هذه الصراعات وتتبعها من خلال الوثائق الارشيفية، وما علاقة ذلك مع ممثلي المخزن حيث تقع على عاتقهم مسؤولية تدبير شؤون قبائلهم؟ ثم ما هو موقف المخزن من تلك الصراعات، وهي تتطور الى معارك ضارية تسفك فيها الدماء ويقبض ويعتقل فيها المجاريح والمساجين، ويكثر من جرائمها الفرار؟ ثم ما هي السبل والخيارات التي نهجها المخزن في تدبير الخلافات بينهم، وهل تمكن فعلا من حصرها والحد من أسباب استمرارها؟

المطلب الثاني، طبيعة الصراعات وجوانب من أسبابها:

كما سبقت الإشارة، من كون المخزن كان على اطلاع بما يمور وسط قبائل الطاعة خاصة في صفوف عمالها. فإنه ينبغي التأكيد ايضا أن جل الرسائل الواردة على المركز التي يبعثها القواد وخلفاؤهم بالجنوب التادلي ومن ابرزهم محمد بن الطالب، كانت تحمل في طياتها أخبارا و تقارير عن نشوب معارك وصراعات من مستوى قبلي .

وإذا توفقتنا في الحصول على نماذج منها، فإن تصنيفها وترتيبها كرونولوجيا وموضوعاتيا وفق الحالات المطروحة، قد أفادنا في الخلوص الى تحديد طبيعة تلك الصراعات و من ثمة حاولنا تصنيفها الى مستويين : أفقي وعمودي.

- أفقيا: صراعات بين قبلية:

مثل تمنع قبائل الجبل المجاورة لهنتيفة عن أداء الجبايات وتهربها من الكلف وعدم الخضوع للجهاز المخزني المحلي في الجنوب التادلي أحد أبرز أوجه أسباب الصراع المحتدم في الجنوب التادلي منتصف القرن التاسع عشر. منحت لقادة قبائل الطاعة مشروعية مهاجمة العاصية بين الحين والآخر لحملها على أداء الواجبات، ليأخذ النزاع على إثرها بعدا أفقيا، أي بين قبلي سيمند طويلا. وقد شكل تحالف القبائل المتمنعة جبهة لا يستهان بها على مساحة جغرافية واسعة تتسم بالوعورة والتعقيد المورفولوجي امتدت من نفوذ قبيلة آيت عطا الجبلي وأجزاء من مرتفعات آيت اعتاب شرقا وما يحاديها من قبائل أهل الواد والجبالة من هرفالة شمالا الى آيت مصاد ناحية الجنوب، ما صعب على محمد بن الطالب ورماة من قبيلته مهمة مجابتهها. ومن أجل دعمه وشد عضده تعين على المخزن تجريد حركة عسكرية مجهزة بالمدافع والمهاريس مع الاستعانة بما لدى قائد دمنات علي اوحودو²⁷¹ من رماة وخيل لإخضاع هذه القبائل. وقد مكنتنا رسالة محمد بن الطالب بعث بها الى السلطان، من الحصول على معطيات بشأن ذلك جاء فيها: «وبعد، ليكن في كريم علم سيدنا أني نزلت مع خديم سيدنا الطالب علي بن حدو بإزاء أهل الواد، فوجدنا بلد الفاسدين أكلت الحركة أزرعهم وخرّبوا ديارهم وقطعوا أشجارهم وتحصنوا في بعض قصورهم المانعة. وضربهم الحاج احمد التّجّام بالمدافع والمهاريس، فلم يقض فيهم شيئا، ولما نظرتة كاد أن يفسد الإقامة من غير فائدة. فلذلك طلبت من سيدنا وجود علي بمهراس آخر، وزوج مدافع، وما يكفي من الإقامة التي تناسب إليهم. ويبعث لنا سيدنا الطنجي الحاج احمد الجزيري ومعلم آخر يماثله يكون ماهرا في الرماية، يتعاونوا على مصلحة سيدنا، فإن العامة إن ما حل بها ضيقا تتجسر على المخزانية»²⁷². ويفهم من تقرير القائد أن الفرقة العسكرية الموفدة من المركز ورغم تعزيزها بمعدات وآلات حربية لا توجد لدى القبائل المناوئة مسنودة بقوة قبلية من دمنات وهنتيفة، قد واجهت صعوبات جمة في اختراق جموع المتمردين المتحصنين بقصورهم وموانع الجبال وصياصيتها. واذ يلتبس القائد من السلطان إيفاد مزيد من المدافع والمهاريس والإقامة معززين

²⁷¹ اورد احمد التوفيق في مونوغرافيته، المجتمع المغربي في القرن التاسع عشر ص 146 : ان الطالب علي اوحودو تولى قيادة دمنات سنة 1264 هـ بينما تسجل الوثيقة اعلاه انه كان يمارس مهامه قبل ذلك التاريخ بسنة .

²⁷² م . و . م . ر . ح : رسالة مستقلة غير مرقمة تحمل تاريخ 03 ربيع الثاني 1263

بالطبجية وخبراء الرماية، فإن ذلك يعني أن العملية العسكرية برمتها أصبحت على المحك، فلم يعد بإمكان الحركة بما ترمز إليه من هيبة المركز أن تتراجع أو تنسحب تحت أي ظرف كان، خاصة وأن القائد أكد على ان العامة، والمقصود بهم جموع المتمردين من برابر الجبل إذا ما حل بهم ضيقاً (اي تشديد المطالب عليهم لأداء الكلف والضرائب)، فانهم يتجاسروا على المخزانية والمقصود بذلك حسب سياق الكلام تماديهم في التنصل من اداء الواجب وتطولهم في عدم الانصياع للاحكام المخزنية. وتضيف نفس الرسالة: « [...] وإن قضى الله غرض سيدنا في أهل الواد تنسد الأبواب على آيت عطا وغيرهم من الجباله»²⁷³.

لقد سعى بن الطالب من خلال توقعه لنتائج التدخل العسكري بالمنطقة الجبلية المجاورة لهنتيفة الى تحقيق هدف أساسي: ويتمثل في عزل برابرة أهل الوادي و خاصة الجباله منهم عن امتداداتهم المجالية لقبائل الجبل الاخرى من جهة ، وكسر شوكة التحالف بينهم الذي يرقى الى التضامن اللفوفي من ناحية أخرى.

وقد ساير المخزن المركزي القائد في مسعاه، الذي هو في نفس الوقت مطلب يتوخى المخزن تحقيقه. إذ سُجّلت ملاحظة خطّت على هامش تقرير بن الطالب، وهي في الغالب إشارة من السلطان جاء فيها: « الجزيري الذي طلبه إن صح، يتوجه بالمدافع والمهراس ». فهل ستصمد خطة محمد بن الطالب الرامية الى إضعاف حركة التمرد لبرابرة الجبل امام استمرار آلية التضامن وفعالية التعاضد فيما بينهم في الافلات من ذلك ، وهي تمثل على أية حال نوعاً من التضامن ، تحدد مظهراتها بنية عصبوية قبلية تمتح من مائة الانتظامات السياسية وأشكال التضامن الاجتماعية المهيمنة بشدة على المناطق الهامشية بجبل الجنوب الشرقي لتادلاً.

في رسالة بعث بها القائد بن الطالب الى السلطان وهي مفعمة بمعان الاشادة والثناء والشكر على ما أمده به خليفة السلطان من قوة عسكرية عززت من تدخله العسكري تمكن بموجبها من تشتيت فلول المتمردين وصددهم على أعقابهم، جاء فيها « وبعد، مولانا الخليفة حفظه الله وأدام لنا خلافته، فإنه أوضح طرق البر عند إنهاجها وأمات رسم المظالم بعد حياتها، فقد أمدنا إمدادا عزيزا على الفساد، أمده الله برضاه ورضى مولانا أعزه الله وأمدنا حتى من جيشه ومن الحوزية كزمران وأهل دمنات، وإن كان ولاية السيد علي اوحداوالمناطي في غاية الرخوة وعدم النصيحة ولكن أصلح الله الخليفة وأيده أغنانا عنهم من جيشه وحسن تدبره [...] وما أضرننا غاية سوى تعقب الهاريين من آيت اعتاب الساكنين في بني اعياض [...] وكذلك هاربي بني مصاد لكونهم لما رأوا

²⁷³ م . و . م . ر . ح : نفسها .

عطا الذين يشدون عضدهم دخلهم الفشل وساروا يهربون لبني عياض لما رأوا من نجاة سكانهم، ولا زال الأعز سيدي محمد حفظه الله يوجه أصحابه للوقوف على الحدود، ولكن إن لم يمكنهم الضرّ نهارا يضرّون ليلا»²⁷⁴.

تؤكد هذه الرسالة ان علاقة الوحدات القبلية بالمنطقة الجبلية المحيطة بهنتيفة إذا ما تم ربطها ببعد مخزني يمكن تعليلها بعلاقة شد وجذب بين قبائل طاعة وقبائل ظلت تتأى بنفسها عن أحكام المخزن. لكن ما يستفاد من محتوى الرسالة نفسها فإن المحاولات المتكررة لقادة قبائل الطاعة المعززين بقوة عسكرية مخزنية لمحاصرة المتمردين من جهة الجنوب والشرق بدعم من وحدات قبلية من دمنات بقيادة علي اوحده، لم تسفر عن نتيجة حاسمة. إذ تبين أن رماة دمنات لم يظهروا حماسة كبيرة في معركتهم ضد سكان تربطهم علاقات اقتصادية وتجارية بحاضرتهن دمنات، كما أن قائد هذه الاخيرة "الذي كان في غاية الرخوة" ربما لم يكن يرغب في إهداء نصر لفائدة محمد ولد الطالب سيزيد من سطوته، بينما كان هذا الأخير يتحسب تعزيزا من جهة الغرب لما توخاه من دعم الوحدات الجيشية لأيت الربع الا انه تعذر عليهم المشاركة في الهجوم نتيجة انشغالهم في نزاعات داخلية بينهم وبين بني معدان²⁷⁵.

بيد أنه بالرغم من كل ذلك، لم تتمكن خطط المخزن العسكرية النمطية من إخضاع زعماء التمرد، الذين أبانوا عن موقف عنيد ورد عنيف، ولا من الحد من المناوشات البين قبلية من حسم النتيجة لفائدة المخزن. فقد راوحت حالة الحذر مكانها دون أن ترقى الى مستويات من القطيعة تدفع القبائل الى ان تعيش وضعية استنفار حاد. بل استمرت على العكس من ذلك الأسواق تنشط بشكل اعتيادي دون انقطاع. كما أن السبل والمراعي لم يطلها أي انحباس، ما يدفع الى الاعتقاد أن دواعي المنازعات والصراعات ليست بالضرورة تعبيرا عن اختلافات بنيوية وجوهرية تفصل بن طرفين متناقضين وغير متجانسين من حيث المحتوى الاجتماعي والاقتصادي والثقافي، كما لا يفهم منها انها كانت صراعات ضد السلطان او المخزن المركزي، بقدر ما هو إصرار من جانب قبائل تروم الحفاظ على استقلالها وتدفع عن نفسها أي احتواء وسيطرة لممثل مخزني ، وبين قائد حاول تسخير سلطته لخلخلة انتظامات وتضامات متجذرة على مستوى القواعد القبلية ورغبته في إضعاف هيمنة الزعامات المحلية لتلك المناطق الطرفية المستفيديون من مواردها المحلية، وإصراره وتحويل عوائد الفائض الانتاجي للسكان الى بيت المال تحت مصوغ الالزام الجبائي.

²⁷⁴ م . و . م . ر . ح : رسالة مستقلة بدون ترقيم من محمد بن الطالب الى المولى عبد الرحمان بتاريخ 20 رمضان 1265
²⁷⁵ م . و . م . ر . ح : نفس الرسالة

وإذا ما تحقق له ذلك فإن قيمة إضافية سنكسبه لا محالة مكانة لدى المخزن المركزي، وهو ما لم تكن تقبله الزعامات المحلية ذات النزوعات الاستقلالية.

عموديا، صراعات بين قواد القبائل:

لم تكن غاية المخزن المركزي من شدة لعضد قائد هنتيفة وقبيلته بحركات عسكرية ضد متمردي قبائل الجوار التنكيل بالأخيرين أو القضاء عليهم قضاء مبرما. بل ما يمكن ان نفهمه من تجارب سابقة بهذا الخصوص هو رغبته في إعادة إدماج المنظومة القبلية الطرفية ضمن نسق تدييري مخزني وإحلال القانون والنظام محل الفوضى والعيش على الطبيعة بغض النظر عما قد ينجم عن هذا الإحتواء من تزايد في أعباء وتكاليف تنظيمية، بسبب من تعقيدات تعرفها الحياة الاجتماعية للتشكيلات القبلية بالجل. بيد أنه وعلى العكس مما تم الخلوص اليه من مخرجات يرومها المخزن من تحقيق اختراق للمجال الجبلي وإخضاع قبائله للطاعة، فإن الصراعات القبلية من الصنف الثاني قد أخذت منحى آخر في تطورها حيث طبعت فصولها أشكالاً من العنف وسفك الدماء وظهور صيغ إنقسامية على ملامح المجتمع المحلي بالجنوب التادلي خلال هذه المرحلة.

فلم يكن من مبرر موضوعي أو تاريخي لتفسير حدة صراعات ونزاعات دموية بين قبلية غير ما يقده قواد المنطقة المحليون من شرارات تذكي لهيب التنارع بين فرق وأفخاذ القبائل. فبدت في ظاهرها وكأنها مواجهات يتغيا من أهدافها تطبيق الأحكام وتحقيق الأمن وضمان تنفيذ توجيهات المركز وترسيخ نظام المخزانية ، بينما تخفي في بواطنها دوافع من تنافس بين هؤلاء الممثلين بهدف إحكام سيطرتهم على المجال والناس والتهافت على احتجان الثروة بالقوة وشدة البأس. فجنح بهم الطغيان والتعسف والجور الى استغلال وظيفة انتماءهم الى المخزن وخدمة الدولة في البحث عن تسلق المراتب والتقرب من دائرة المركز لتعزيز الحظوة والجاه. فأحدث التنافس على ذلك فيما بينهم حالة من الصراع أخذ بعدا عموديا أي بين القيادات المخزنية نفسها، تجلت مظاهره فيما يبعثون به من تقارير ومراسلات الى المركز يشتكون فيها من بعضهم البعض، مغرضين في الوشايات والادعاءات، ويدروون عن أنفسهم التهم، ويبررون فيما يفعلون بسعيهم لمحاربة الفساد وإخماد الفتن ورد المظالم.

وألن كانت سلطة الحكم المحلي التي يتمتع بها القائد بن الطالب وكذا المنافسين من أنداده، تعبر عن تجليات الحكم المخزني ببادية الجنوب التادلي وعن أشكال التدبير التي يرسمها ويدعوا الى تنفيذها عبر أجهزته المحلية، فإن هذه الاخيرة كانت بدورها تنسج علاقات ليس فقط ضمن

حدود قبائلها ونفوذ إيلاتها، بل تجاوزت في علاقاتها الى اصطناع تحالفات مع تشكيلات وزعامات قبلية أخرى، تطبعها المنافع والمصالح.

كان هدف المخزن هو الحفاظ على التوازنات القبلية، يراقب مجريات الأمور عن كثب، ويتوصل بالأخبار باستمرار ودون انقطاع، كما يأخذ علما بمستويات نفاذ الحكم المخزني بهذا الجسم القبلي أو ذلك، ولا يتوانى في مساندة وشد عضد هذا القائد لإنفاذ الحكم المخزني بهذه القبيلة أو تلك ومغالبة لقبيلة ضد أخرى بما يرى فيه موجبا لذلك. مع حرص شديد في أن لا يقع الاصطدام المباشر بين قائدين متنافسين.

وحتى تتبدى لنا الصورة بشكل أوضح، ونمنح هذه التحليلات والتفسيرات خلاصات تبررها مرجعية تاريخية تمتح من وقائع وأحداث يتردد صداها في تقارير ومراسلات قواد الجنوب التادلي وعلى رأسهم محمد بن الطالب النتيفي وغريمه أحمد بن القائد السريغيني، فإننا لا نرى مندوحة في متابعة أطوار تلك الصراعات من خلال إدراج نماذج من نصوصها.

ففي تقرير توصل به الوزير محمد ابن دريس من القائد محمد بن الطالب جاء فيه ما يلي :

« وبعد، لما وجهت إليك الكتاب الأول والثاني والثالث إعلاما بطلوع أهل تادلة لبلدة هرفالة، قصدوا تضييع الهداية من هرفالة المتوجهون لحضرة سيدنا وأكلهم، واستغاثوا بجيرانهم هنتيفة كما تقدم قبل، وبعثت لهم عدد الرماة دفعا عنهم وعن اولادهم، فلما نظرهم خليفة بني موسى صاك لهم وماتوا من طوافتنا ما بينته لك قبل هذا، وترامى في مال اولاد سيدي عبد الحق أخذه ظلما وتعديا وهم زاويتنا ومن جملتنا [...] وجمع بني موسى وسار بأجمال بني موسى وبني عمير ينقل زرع أرفاله بما يزيد على ثلاثة مائة جمل وأمرهم بالرحيل عنده. كل قصر عين له دوار يدفع لهم متاعهم، وسار يقبض في الذين أتوه إخوانهم عند سيدنا ويهدم في أديارهم. وآيت اعتاب الهاربين بهرفالة أمرهم بالرحيل عنده وحاز مالهم. ولما نهفته تعرض لكلمة سيدنا جهلا منه، واشتغل بهواء(هوى) نفسه، وقامت صبحية هنتيفة وتلاطموا مع أهل تادلة، ووجدوا بني عياط دخلوا قصور هرفالة، ورماة بني موسى. وانكسروا أهل تادلة وبني عياط كسرة بالغة، فقتلوا منهم هنتيفة كثير الاعداد وقطعوا منهم تسعة عشر رأسا، وسعوا لهم عدة كثيرة من غير عدد. وداروا بالقصر الذي فيه بني عياط دخلوها عنهم وقبضوا نحو أربعة وعشرين مسجوناً من داخل القصر ببني عياط، وثمانية مساحين من بني موسى قبضوهم بالقصر وانهزموا أهل تادلة من فضل الله، وبني عياط حتى لم يظهرون [...] وهذا أمر عظيم كتبه الله ونحن لم نغيب على سيدنا مسألة ومشورتنا أسندناها لسيدنا [...] فإن كان صوابا نبعث الرؤوس التي قطعوا هنتيفة مختلطين من

هرفالة الذين خلفوا، وبني عياط الذين عندهم طافوا وأهل تادلة، فلم أعرف هذا من هذا، والله العظيم إلى أوقفت عنهم المساجين المقبوضين في القصور والكصرة وسألتهم عنهم ولم يعرفوهم. إن أذنتني بتوجيههم فيه ونعم، وإن كان إبقاؤهم فعلى ما ذكر سيدنا العمل. وكذلك المساجين ومتاعهم، إن كان صوابا نبعثهم لسيدنا فأعلمني. وهرفالة الذين بقوا في بلادهم قدموا علي وعينت لهم أشياخهم، والذين نزلوا لبني موسى لا زالوا عندهم حتى يحصل لهم الأمان. ونحن عند خاطر سيدنا وما أمرنا به عليه العمل»²⁷⁶.

تقوم الوثيقة التاريخية التي بين أيدينا شاهدا على نموذج من واقعة تاريخية تجسد واقع الصراع المستحكم بين ممثليين محليين للمخزن بالدير الجنوبي من تادلا. أحدهما يوجد على رأس قبيلة هنتيفة وتمتد إيالته ونفوذ سلطته لتشمل أيضا قبيلة هرفالة المتصلة شمالا بقبيلة ايت اعتاب وبني عياط وهو محمد بن الطالب الذي اتخذناه نموذجا في هذه الدراسة، وبين محمد بن اسماعيل وتقع تحت نفوذ حكمه أجزاء من قبيلة بني موسى وبني عمير، لكنه يأتى بأمر القائد احمد بن القايد بصفته خليفة له. مع الإشارة إلى أن سيطرته على قبيلتي بني موسى وبني عمير لم تكن تامة، فالجانب الغربي من الأولى كان لا يزال خاضعا لنفوذ آل زيدوح المناوئين له، أما الجانب الشمالي للثانية فهو يعيش حالة من الصراع مع أيت الربع. وتستوقفنا عدة معطيات وردت في نص التقرير على لسان صاحبها، سنحاول قدر المستطاع تحليل سياقاتها التاريخية مع إمكانية عزل جانب الوشاية والتحامل فيها، وهو ما ركز عليه القايد بن الطالب ضد منافسه محمد بن اسماعيل للإيقاع به وتحميله مسؤولية لما حدث.

فبعدهما استهل تقريره بإبراز ما اقترفه أتباع ابن اسماعيل من عمل شائن يمس بمصلحة من مصالح المخزن ألا وهو نهبهم لقافلة تحمل هدية عيد الفطر حسب عادة القبيلة في هذه المناسبة الدينية بعث بها بن الطالب الى الجنب السلطاني، وقتلهم لعدد من الطوافة وهم الحراس المرافقين للهداية "معترضا لكلمة سيدنا جهلا منه واشتغالا بهوى نفسه"، أي أنه مستبد في تصرفه وليس له من سند مرجعي وجه أفعاله، ملمحا في ذلك بمسؤولية خليفة بني موسى في إشعال فتيل نزاع دامي استهدف المس بخدمة المخزن وكانت هرفالة مسرحا له.

²⁷⁶ م . و . م . ر . ح : محفظة رقم 47- th رسالة مستقلة بدون ترقيم بعث بها القايد بن الطالب الى الوزير بن دريس بتاريخ 15 رمضان 1262 الموافق ل 06 شتنبر 1846

وتجاوزا لما يمكن ان نعتبره توصيفات كالحا القائد لغريمه وهي تدخل ضمن حالة من التنازع والشايات بينهما فإن العناصر الكامنة بين طيات التقرير هي ما يمكن أن توجهنا لفهم أسباب النزاع وهوما سنحاول استجلاءه من خلال تفكيك أهمها.

لم تكن الهجمة التي شنها خليفة بني موسى على هرفالة انطلاقا من قبيلته تستهدف نهب القافلة المحملة بهدايا العيد الى العاصمة السلطانية كما أشار ابن الطالب. فربما لم يكن لديه علما بحمولتها لكنه جعل من هذه الغارة ذريعة وسببا في استجابته لاستغاثة أهل قبيلة هرفالة مستعينا برماة ومحاربين من قبيلته في صد إخوان ابن اسماعيل.

وتنقلنا معطيات التقرير مباشرة إلى اختراق ابن اسماعيل لمجال هرفالة وتراميه على أموال زاوية اولاد سيدي عبد الحق بن عبد الرحمان الواقعة بين آيت اعتاب وهنتيفة²⁷⁷.

وهذا المعطى الثاني لا يمكن أن نفهمه إلا في إطار محاولة بن الطالب تأليب المركز على ابن اسماعيل من كون انتهاكه للحرمة كان مضاعفا، مرة مست جانب المخزن والثانية مست حرمة المقدس وهو التعدي على ممتلكات الزاوية. بيد أن المستهدف من صوكة²⁷⁸ ابن اسماعيل وهوما أخفاه القائد يتمثل في ترحيل مجموعات سكانية من هرفالة يتضح من معطيات نجدها في تقارير لاحقة أنهم يعانون من تعسف القائد. فلم يظهروا من جهتهم أي تمنع او اعتراض او مقاومة في ترحيلهم لبني موسى مستهدفا ايضا مجموعات سكانية من آيت اعتاب. وقد وظف الأخير لهذه الغاية 300 من الجمال لحمل أمتعة الناس وزروعهم ومؤونهم ما يظهر أن العدد كان هائلا من السكان المرحلين.

لم يترك محمد بن الطالب هذه الواقعة تمر دون أن يرد الفعل، وهو المعروف بسطوته والمنافع عن مجال إيلته. إذ اهتبل الفرصة وبادر إلى استنهاض رجال من قبيلته ومن رماتها مباغتا المهاجمين المنشغلين بجمع الامتعة من داخل قصور هرفالة، حيث كان الرد عنيفا ودمويا أسفر عن عدد كبير من القتلى والجرحى والمقبوضين كما اوضح التقرير ذلك.

ورغم إقراره بتدخله ومدافعته عن موقفه من كونه الطرف المعتدى عليه وعلى حوزة إيلته من هرفالة وآيت اعتاب وزاويتها، فإنه أدرك في نفس الوقت جسامة ما حصل. وبحكم أن الواقعة حدثت ضمن منطقة نفوذه الترابي، وأنه يمثل سلطة المخزن والقانون، فإنه لم يكن بوسع التصرف

²⁷⁷ توجد بحوزتنا نسخة من ظهير سلطاني يجدد فيه التوقير والاحترام لحفدة مرابط الزاوية الكائنة بالموقع اعلاه

²⁷⁸ الصوكة هنا تحمل معنى تنفيذ امر عسكري تباشرها فرقة مخزنية مسلحة ضد مجموعات قبلية، يسوقون أمامهم كل ما طال يدها من رجال ونساء وأطفال و مواشي الى موضع الاحتجاز. وبما أن اللفظ يحمل معنى إجلاء الناس من مكان الى آخر، فإنه يذكرنا بما يتداول في دارج القول : "ساك" الراعي مواشيه، أي دفعها أمامه. وقد قام عبد الرحمان المودن بتفسير اوفى للفظ في كتابه البوادي المغربية قبل الاستعمار ص 313.

في جثث القتلى ولا في مصير السجناء دون الرجوع الى ما يأذن به المركز فيما يجب عليه القيام به إزاء ما تحت يده منهم وانتظاره التوجيهات.

وإذا رمنا تفكيك جانب من معطيات التقرير المتحصلة من واقعة العنف الدموي المنتشب بين بن اسماعيل ومحاربيه من بني موسى من جهة وابن الطالب ورماته من هنتيفة من جانب آخر نتبينه كالآتي :

- أن من تحكم في مجريات الأحداث وأخذ بناصية وقائع العنف هما ممثلا المخزن بالمنطقة. بمعنى أن مبررات النزاع ودوافعه لم تكن من نتاج قبلي تفسره في الغالب تجاذب المجموعات البشرية، من قبيل طموحات التوسع الترابي اوالتدافع الاقتصادي لجلب منافع أودفع أضرار، بل الاستفادة على هذا المستوى كانت من نصيب المجموعات المرحلة من الجبل والدير الى السهل وهو ما سنكشف عنه في مراسلات لاحقة.

- بما أن درجات النزاع والصراع البيئي لم ترق إلى ما يهدد الامن العام بالإقليم التادلي فإن الموقف المخزني الذي تردد صداه عبر مراسلات الطرفين المتنازعين، لم يكن متسرعاً بالميل في قراراته لهذا الجانب على حساب الآخر ما دام النزاع لم يخرج عن طوعه وأن حركته تبقى من صميم التدافع والتنافس النمطيين التي اعتاد حصولهما بين أجهزته بالمناطق الطرفية. فكيف كانت ردة فعل المخزن بعد أخذه علماً بوقائع النزاع؟ وهل توقف الصدام عند هذا الحد ام استمرت حالة التوتر بين بن الطالب من جهة وبن اسماعيل ومن ورائه حليفه احمد بالقايد عامل السراغنة؟

المطلب الثالث، موقف المخزن:

لم يسعفنا التنقيب والبحث في الوثائق المخزنية في العثور على رسائل صادرة عن المركز بإمكاننا الاستدلال بها على الموقف المباشر للمخزن في تدبير النزاع بين الطرفين. فقد اقتصر أمر متابعتنا لهذه الوقائع فيما كان يرد من تقارير للمثليه، بل أن ما وفرت لنا معطياتها لم تكن إلا ارتدادات عن طبيعة الاجراءات والقرارات التي اتخذها المخزن إزاء النازلة.

ففي جوابه عن رسالة سلطانية حول الموضوع حاول عامل السراغنة احمد بن القايد بصفته المخاطب المباشر الذي تقع على عاتقه مسؤولية الاشراف على خليفة بني موسى، التنصل من معرفته لما حدث، جاء فيها: « وبعد فلينبهي الوصيف لكريم علم مولانا أننا ورد علينا أمر مولانا صحبة حامله صاحب سيدنا في شان ابن اسماعيل يأمره سيدنا فيه بترك هرفالة. فلما وصلنا حامله وجدنا نازلين قرب ورديغة، فوجهناه له بنفسه وبيده الامر المولوي حتى قرأه عليه بداره، لأن هاذه

مدة من ثلاثة أشهر وهو لم يصلنا الى المحلة ولازم داره [...] وما معنا إلا ولده ومعه خيلهم، ونحن لا علم عندنا سيدنا بشيء مما فعل ولا شعور لنا به.»²⁷⁹

يتضح بجلاء من خلال مضمون رسالة قائد السراغنة أن تعليمات سلطانية صارمة صدرت في شأن ابن اسماعيل بتركه لهرفالة وكفه عن كل تدخل في شؤون القبيلة، وما مدافعة بالقايد عن نفسه وإخلاء مسؤوليته عما وقع الا دليلا على ان المخزن المركزي لم يكن راضيا عن كل ما حصل.

وإذا كان من الصعب تصديق بالقايد فيما ادعاه بإنكاره لما قام به ابن اسماعيل، إذ من المستبعد لهذا الاخير وهو يقع تحت إمرته أن يقوم بعملية كبيرة من مستوى ترحيل مجموعات سكانية من هرفالة وآيت اعتاب إلى قبيلة بني موسى وما يترتب عن ذلك من تأثير على مستوى تغير البنية الديموغرافية بالوسط السهلي والديري على السواء، دون استشارة وموافقة ابن القايد، فإن هذا الاخير وحتى نتبين موقفه العدائي من منافسه ابن الطالب، فإنه حاول إظهاره في نفس الرسالة بمظهر المستبد والطاغية المتجبر: « وليكن في كريم علم سيدنا ان ولد بن الطالب عرض خيله للطرقا وكلم من ووجه عميري أوربعي أوورديغي أووساوي أوسرغيني إلا ويقبضونه ويذهبون لديه بسجنه [...] وها رؤساء المحلة خدام مولانا وقيادها معنا فليسألهم سيدنا عن هذا كله، وكذا آيت الربع ومرابطي تادلة كلهم شهداء (شهود)، ويوم الكتاب أتانا الخبر أنه ربط بثلاثة مواضع، فبالفضل من مولانا يأمره سيدنا بالكف لأنه طغى وتجبر وقطع الرؤوس ونهب الأموال»²⁸⁰.

من المؤكد أن المخزن كان يدرك عمق وطبيعة الصراعات المحتدمة بين ممثليه ومن خلفهم قبائل المنطقة. فضلا عما كان يبعث به خليفة السلطان ونجله سيدي محمد من تقارير تقييمية حول ما كان يجري وما أسفرت عنه التدبيرات والتدخلات التي باشرها لفض النزاعات وحفظ توازن قوى المجموعات المتصارعة. وإذا ما اسعفتنا بعض رسائل ابن الطالب في العثور على معلومات قليلة حول موقف المخزن من الحادث الدموي بين المتصارعين، فإنه أمكن الوقوف على إشارة نفهم منها اقتناع المخزن بمظلومية الاخير، كما عبر عنها في جوابه الى الوزير بن ادريس: «

²⁷⁹ م . و . م . ر . ح : محفظة رقم 47- Th رسالة مستقلة بدون ترقيم بعث بها القائد احمد بالقايد الى السلطان المولى عبد الرحمان بتاريخ 18 رمضان 1262 الموافق ل 09 شتنبر 1846

²⁸⁰ نفس رسالة بالقايد

[...] وأخبرتتنا أن سيدنا ذكر أنني مظلوم.²⁸¹ بيد أن التقرير الرسمي للمركز وقراراته العملية لم تكن لتحد عن تشديده على ضمان أمن المنطقة إذا ما تجاوزت المنازعات حدودها الجغرافية، فالأمر سيفضي الى توسيع رقعة الخلافات بين القبائل، وهو ما يكلف المخزن لإخمادها مصاريف جانبية تنجم عن تسيير حركات عسكرية لا طائل من ورائها. خاصة وأن الضغوطات الاجنبية والازمات الاقتصادية المتفاقمة لم تترك له من هامش لخيارات أخرى غير تكريس سياسة إطالة الرسن لاستنفاد قوة الحمية العصبية الكامنة في القبائل يستنفرها قوادها وإنهاك بعضهم البعض ليلتجئوا في الأخير وقد أصابهم الوهن الى التحكيم السلطاني. فماذا كان جواب المخزن بشأن تساؤل ابن الطالب عن مصير جثث القتلى ومآل المساجين؟

« [...] وصلني كتابك الأعز جوابا على مساجين بني عياط وأهل تادلة وعلى الرؤوس. فأبقيت المساجين تحت يدي كما أمر سيدنا، وأذنت بدفن الرؤوس فدفنوا»²⁸².

المطلب الرابع، السجناء وعلاقتهم بالقواد:

ما يعنينا من لفظ السجناء الذي نصادفه في الوثائق الرسمية، يتعلق بمجموعة من أفراد القبائل تم اعتقالهم وحبسهم من طرف الأجهزة المخزنية سواء سلطة إدارية محلية يمثلها القائد أو عسكرية خاصة عند حلول المحلة السلطانية بربوع الاقليم، جراء ما اقترفوه من أفعال في خضم مواجهة القبائل المنتفضة والمتمردة²⁸³. فيساقون في جل الأحوال انطلاقا من أماكن اعتقالهم الى أقرب السجون، إما الذي بمراكش ويسمى سجن مصباح، أو سجن الصويرة أو الرباط أو فاس، بينما يقبع البعض في سجون ومعتقلات محلية لدى القواد في انتظار ما يؤمرون به في شأنهم.

وإذا لم يكن لهؤلاء أي مسوغ شرعي يمنحهم التصرف في مصائرهم الا بمقتضى ما يشير به المخزن المركزي، فإن اعتقالهم مثل شكلا من أشكال الضغط والردع لحمل القبائل على الانصياع والخضوع للسلطة القائمة.

وقد تطرق المؤرخ عبد الرحمن بن زيدان لموضوع نظام السجون والمساجين في مؤلفه الصولة مدرجا لنموذج يتعلق بطريقة تسجيل السجناء في سجلات وكنائش فيكتب "اسمه ونسبه

²⁸¹ م . و . م . ر . ح : محفظة رقم 47- Th رسالة مستقلة بدون ترقيم بعث بها محمد بن الطالبالي الوزير بن ادريس بتاريخ 20

رمضان 1262 الموافق ل 11 شتنبر 1846

²⁸² م . و . م . ر . ح : نفسها .

²⁸³ نحتفظ بنسخ من رسائل سلطانية تتضمن وقائع متعددة بشأن اعتقال وسجن متمردين على سلطة المخزن.

وفرقتة وقبيلته والقائد الذي سجنه ووصفه الكاشف والتاريخ الذي سجن فيه ونوع الجريمة وفي آخر الصحيفة يجمه عدد السجناء "284

ومن خلال عملية استيارة لبعض الوثائق المخزنية، تحصل لدينا منها معلومات عن طريقة تسجيل البيانات المتعلقة بهذه الفئة. إذ وردت فيها أسمائهم وأوصافهم ولون بشرتهم وأوشامهم وأذانهم المشرومة وطريقة حلق رؤوسهم، ثم التهمة التي حبسوا من أجلها ومدة اعتقالهم ومن توفى منهم رهن الاعتقال الى غير ذلك من المعطيات الدقيقة. وقد تفيد كثيرا هذه المعلومات وتغني البحوث والدراسات في الحقل الانثروبولوجي لرصد شكل بنية جسم الفرد وقوامه الجسدي، وما كانت تمثله أوزار وإكراهات الضغوط البيئية ومظاهر الفقر وقلة التغذية من تأثير على جسم الفرد بالاقليم . ونسوق بهذا الخصوص نموذجا عن حالة سجناء آيت الربع وبني موسى خلال العشرية الاخيرة من القرن التاسع عشر تم حبسهم عقب حركة مخزنية على الاقليم التادلي بقيادة الامير مولاي حفيد* بداية العهد العزيري، لاعطاء تصور عام حول ظاهرة السجناء:» بيان مساجين بني موسى الباقيين في السلسلة بعد نقل مساجين بني عمير ومن معهم :المعطي بن عب المساوي، ربعة، رطب العينين شيئا ما أزرقهما، عار العارضين ضامر.موسى بن المعطي النسب، ربعة، خفيف الاتصال، مثقوب الاذن اليمنى رقيق الوجه. القايد ادريس بن العنزي الشكدالي الرقيعي، طويل نحيف منتظم، بارز نابي الفك الاعلا، خفيف العارضين. حمادي بن الغازي الاقطاي المحلي، ربعة، رقيق الوجه، موشوم الارنية، على عينيه اليمنى بياض، مشروم الاذن اليمنى [...] وفي يوم الخميس 23 جمادى ورد مساجين على يد كبير المحلة السعيدة على شان "الريتول" وهم محمد بن لحسن الدرعي صاحب ولد سيدي محمد الصادق طويل، كبير، حديث النبات [...] العربي بن الطيب المحمدي الموساوي الزيركي، عاري العارضين،خفيف الذقن،به أثر جذري. المعطي بن بو عبيد المحمدي، طويل، متصل، مجذور، مثقوب الاذن اليمنى. الطيب بن الجيلالي النسب، ربعة، متصل، أشيب، مجروح الخد الأيسر وبه أثر بارود.»²⁸⁵ ونستنتج من أوصاف السجناء الواردة اسمائهم بهذه اللائحة بعض العلامات الظاهرة على قسمات وملامح وجوههم وهم من عامة الناس، ان اغلبهم مثقوب او مشروم الاذن، وأن بعضهم كانت عليه بعض الاوشام وآثار لمرض الجذري.

²⁸⁴ ابن زيدان عبد الرحمن: العز و الصولة في معالم نظم الدولة ج2، المطبعة الملكية 1962. ص114 و ما يليها .

* هكذا تم رسم الاسم حسب ما ورد في رسالة عزيرية .

²⁸⁵ خ.م.ر : كناش رقم 624 غير مرقم .و يضم لوائح باسمااء سجناء اعتقلوا في اعقاب حركة السلطان عبد العزيز لتادلا سنة 1315

²⁸⁵ هـ. حفلت كتابات المصادر التاريخية خلال القرن التاسع عشر بمعلومات كثيرة حول موضوع سجناء القبائل .

وقد جرت العادة حسب ما نعثر عليه في الرسائل المخزنية وما تواتر في الكتابات التاريخية²⁸⁶ من أحداث ووقائع مرتبطة بموضوع السجناء، من أن هذه الفئة بما أنهم منتسبون لقبائلهم وتختلف مراتبهم الاجتماعية بين أعيان وسواد فإنه إخوانهم وذويهم يضطرون في الغالب الالتجاء الى القائد المحلي يلتمسون لهم الشفاعة بإطلاق سراحهم والإنابة عنهم في التوبة وأداء الغرامات مع ما يصاحب ذلك من تقديم الذبائح والعارات.

بيد أن واقعة بني موسى تادلا /هرفالة وآيت اعتاب التي نحن بصدد الحديث عن أبعادها الاجتماعية وتتبع مآل من قبض على مساجينهم، تختلف من حيث كيفية تناول المخزن المحلي والمركزي لهذه القضية مقارنة مع ما سلف ذكره. ويكمن الاختلاف هنا من طبيعة الواقعة نفسها. فكما سبقت الإشارة، فإن الصراع المحتدم بين طرفي النزاع من كونهم جزءا من التمثيل المخزني المحلي، إنما كانوا يسعون بذلك الى توظيف سلطتهم من أجل توسيع دائرة التقاطب القبلي، ومن ثمة تعزيز مكانتهم لدى دوائر المخزن المركزي. وانطلاقا من هذه الزاوية، فإن تبعات اعتقال هؤلاء السجناء كانت تقع من حيث المبدأ تحت مسؤولية الجهاز المحلي نفسه. فهومن بادر في دعوته لأفراد من قبائله لخوض هذا النزاع، كما أن المقبوض عليهم لم يكن لهم من دافع ذي بعد تمردى او انتفاضة قبلية تهدد سلطة الدولة. الشيء الذي انتفت معه أية قابلية موضوعية تسمح لذويهم من فخذات القبائل التقدم إلى القائد الندي لإطلاق سراح أبنائهم. وبذلك ظل مصيرهم مقيدا بقرار المركز مباشرة. فماذا كان موقف المخزن المركزي من قضيتهم؟.

في رسالة بعث بها القائد محمد بن الطالب الى السلطان المولى عبد الرحمان جاء فيها: « [...] وبعد، وصلني كتاب مولانا الشريف، العلي القدر المنيف، يأمرني سيدنا نوجه لحضرته السعيدة ما تحت يدي من مساجين بني موسى وبني عياط في أكبالهم صحبة من يتحفظ عليهم في الطريق، ويحرصهم حتى يصلوا لدى سيدنا، فها أنا وجهت الكل على أمر سيدي كما بزمام بطيه فلانا بإسمه وبينت من قبض بقصور هر فالة كما تقدم لمولانا امرهم قبل ومن قبض على السرقة [...] وأخبرني مولاي أن كتابه الشريف توجه لابن القايد على مساجين بني اعتاب من إيالة الذين عند الموساوي بن اسماعيل لبيعهم لسيدي. فلما سمع بذلك تحقق لنا أنه سرح بعضهم

خائفا يخرجون من تحت يده ولم يرجعوا لديه. وله الغرض يبقون ببلده ليسكتوا على ما أخذ لهم غصبا»²⁸⁷.

من الواضح، أن السجناء الذين بقوا في ذمة قائد هنتيفة وهم من بني موسى وبني عياط، قد مكثوا في سجنه لمدة 9 أشهر قبل أن يأتيه الأمر السلطاني بجلبهم للعاصمة صحبة لائحة بأسمائهم مضمنة بجريرة ما اقترفوه. ومن الجلي أيضا أن نفس الامر السلطاني قد صدر لابن اسماعيل الموسوي يقضي بإرسال من لديه من سجناء آيت اعتاب وهرفالة. ما يفهم منه ان كل واحد من المتنازعين القائد والخليفة كانا يحتفظان بسجناء من قبائل بعضهما البعض. إلا أن ما يثير الانتباه أن ابن الطالب الذي سعى جاهدا بعد تذكره لما وقع، الى توريط غريمه بن اسماعيل في الحادث معتبرا أن كل أفراد المجموعات المرحلة إلى إيالته هم أيضا مساجين يتعين على المخزن التعامل معهم على هذا الاساس، بينما نجده يوقع نفسه في تناقض من القول: « [...] وكنت أخبرت سيدنا ان بني اعتاب كسبوا بتادلة وسكنوا وحرثوا ما يزيد على اثني عشرة مائة من عام الأول (الماضي) حيث انكسروا بكلمة سيدنا وبركاته من بلدهم، من غير من انضم اليهم من جباله أهل الواد وكذلك من هرفالة. ومن سكن عنده أحد في بني موسى ضمنه ان لا يطلع بماله وأولاده لبلده. وكل شيخ من بني موسى تحمل بالذي ساكنا عنده بزمام. وحيث أراد أحد يرجع يخبرون ابن اسماعيل ويسجنه ويأكل متاعه [...] وإن نكر على سيدنا ابن القايد وخليفته، يبعث سيدي من يوثق به حتى ينظر بعينه فإننا جيرانا [...] فان ظهر لسيدي أن يبقى مساجين بني عياط وبني موسى بسجن سيدنا، ويكلفهم مولاي (بالقايد وابن اسماعيل) يقبض بني اعتاب وهرفالة وغيرهم الذين ببلده تأتي أموالهم لبيت المال ورقابهم لسجن سيدنا [...] فان امتثلوا فذاك صلاح المخزن في الجبال وسهولها»²⁸⁸.

لقد اتضح بصورة جلية من فحوى هذه الرسالة ان موقف ابن الطالب من المجموعات المرحلة هو رغبته في إلحاقهم بمجموعة السجناء من المتورطين في الواقعة واقتيادهم الى سجون المخزن مع مصادرة أموالهم. ومن هنا ندرك أنه لا يعتبرهم ضحايا، بل فرارا وفسادا يثيرون القلاقل والفتن: « فكل فساد الجبل هبطوا لبني موسى بمالهم وأولادهم كسبوا وحرثوا وانتفعوا،

²⁸⁷ م . و . م . ر . ح : محظفة رقم 47- Th رسالة مستقلة بدون ترقيم بعث بها محمد بن الطالب الى السلطان بتاريخ 10 جمادى الاولى 1263 .

²⁸⁸ نفس رسالة بالقايد بتاريخ 10 جمادى الاولى 1263

فهم ما بلغ متاعهم لسيدي ولا تركوا الخواض والفتن»²⁸⁹. بينما عبر بن القايد حليف بن اسماعيل عن شكواه الى السلطان من تعسفات بن الطالب في اعتقاله دون موجب حق لعدد من افراد قبائل تادلة من ضمنهم بني عمير وبني موسى والسراغنة. مواقف متعارضة نلمسها بين الجانبين. فالواحد منهما ينصب نفسه مدافعا عن مصالح المخزن بتشيده الخناق على رقاب مجموعات قبلية لاستيفاء الواجبات وضمان الاستقرار بالدير والجبل، والآخر يروم استغلال حالة التناقض داخل قبائل الجبل وتشنج العلاقة بين افخاذها بالتحريض ودفعهم في الاتجاه الذي يقبلون فيه الارتحال من خلال منحه لهم استغلال مساحة من الارض بالوطا تكون لهم مأوى يكسبون فيها ويفلحون. فهل كان ابن اسماعيل يهدف من وراء ذلك تحقيق مكاسب معينة ينال بها رضى المخزن؟ أم كان يسعى فقط الى إرباك تطلعات وطموحات ابن الطالب ومحاصرة تمدد سلطة نفوذه؟ خاصة وان هذا الاخير يحتفظ بعلاقة جيدة مع ممثلين آخرين لا يخفى استعدادهما لابن القايد ولا يقلان شراسة عنه، وهما عبد الله بن اداس وولد زيدوح فلا تكاد تنقطع بينهم المكاتبات²⁹⁰. علما أنه لم يخف اقراره بوجود خلافات بين سكان طرفي المجال، الوطا من ناحية والدير والجبل من ناحية أخرى.

إن عملية استتارة لمجموعة من رسائل الحليفين، بالقايد وبن اسماعيل الموجهة الى المخزن المركزي مكنتنا من استكشاف بعض الاشارات قد تقربنا من بعض عناصر الجواب عن هذه الاسئلة من خلال نصي الرسالتين التاليتين :

الأول من بالقايد الى السلطان: « [...] وليكن في كريم علم مولانا أن بن اسماعيل طلب منا توجه ولده لحضرة مولانا العالية بالله، فها هو وجهناه للحضرة الشريفة وببده هدية خمسمائة مثقال. وقد استجرنا لمولانا بالله وجدك رسول الله صلى الله عليه وسلم، الى ما توسع سيدنا خاطرك عليه وتباشره، وتقبل عليه لأنه صبي صغير وسيدنا يعلم حال مساعدتنا معهم (اهل تادلة) وغض الطرف عنهم حتى يحصل الغرض. ها كتاب بن اسماعيل يوافي حضرة مولانا صحبة كتابنا ». ونفهم من مضمون الرسالة أن خليفة بني موسى بإرساله لهدية الملاقاة كما جرت العادة بذلك لدى كل ممثل مخزني مع إيفاد ابنه نيابة عنه، إنما كان يسعى من وراء ذلك تثبيت مركزه بالقبيلة، فضلا عما يتوق اليه من إمكانية استخلاف ابنه لمنصبه في حالة الوفاة

²⁸⁹ م . و . م . ر . ح : محفظة رقم 47- Th رسالة مستقلة بدون ترقيم بعث بها محمد بن الطالب الى الوزير بن ادريس بتاريخ 15 جمادى الأولى سنة 1262 الموافق ل 01 مايو 1847 وقد تزامنت من حيث التوقيت مع الرسالة المرفوعة جناب السلطان .
²⁹⁰ م . و . م . ر . ح : محفظة رقم 47- Th رسالة مستقلة بدون ترقيم بعث بها محمد بن القايد الى السلطان بتاريخ 24 ربيع الثاني سنة 1263 الموافق ل 11 ابريل 1847 .

أما بشأن الاستفهام الثاني فيجيبنا ابن اسماعيل في النص التالي: «[...] فإذا بولد بن الطالب كثر الكذب علينا، وقوله سيدنا هدمت دارا لآيت اعتاب من إيلاته، فبالله الذي لا إله إلا هو ما وطأت الجبل برجلي ولا أمرت بهدمها[...]» وأما نحن سيدنا فلا نفتري على الله كذبا، إن قلت قلوبنا صافيين من ناحية البرابر، أسلافنا أعداء مع أسلافهم منذ جاوروهم وكذا والله أعلم كل قبيلة من غيرنا. وتعلم سيدنا في السنة الفارطة لا غير كان مد احمد ولد زيدوح بشرنمة من هنتيفة رماة حداءنا (بالقرب منا) بيننا وبينهم نحوالميل أوميلا ونصف، مدة وهم جالسين عنده وقاتلونا وقاتلناهم ولا زلنا سيدنا متشوفين للبرابر بحركتنا بين بني موسى وبني ملال»²⁹¹.

كان هذا جواب خليفة بني موسى ورده على اتهامات بن الطالب. محاولا تبرير أسباب الصراع تحت ذريعة عداوات تاريخية من طبيعة إثنية، بينما الواقع يشي بمضمرات سياسية لم يفلح في الافصاح عنها. لكن ما نستشفه من فحوى التقارير والرسائل الصادرة عن تلك الزعامات المتناحرة انهم لم يخطرأوا في أي صدام اونزاع فيما بينهم بشكل مباشر. فمن غير الجائز أمنيا ولا المقبول سياسيا أن يورط الانداد أنفسهم في حروب بقيادات مباشرة وهم مخزن وفي صلب قبائل الطاعة. ومن هنا ندرك لماذا اوكل بن الطالب لحليفه احمد ولد زيدوح التصدي لابن موسى وتعزيزه برماة من قبيلة هنتيفة بينما كان بن اسماعيل حاركا لناحية آيت اسري كما جاء على لسانه في نفس الرسالة: « [...]فاعلم سيدنا ان البرابر آيت اسري وغيرهم من البرابر الفاسدين توجهوا نحوآيت الربع وأمرنا خديم سيدنا القايد احمد بالقايد بالتوجه إليهم فامتثلنا لأمره »²⁹².

لم تكن لكل هذه التقارير المتضاربة والمتهاقنة حول تبريرات القواد في إخلاء ساحة كل طرف لمسؤوليته عما حدث في المنطقة من تأثير على الموقف العام للمخزن في الانحياز لهذا الطرف اوذاك.فهي تفاصيل وجزئيات، له بها علم ودراية بالقدر الذي تصل إليه أخبارها بانتظام، ويدرك أيضا أن مثل هذه الصراعات هي من صميم طبيعة التدافع القبلي القائمة على التنافر والتحرز أحيانا والتضامن والتواطؤ أحيانا أخرى.

فلا غرو، أن يكون للتبصر المخزني وتأنيه معنى تدبيريا محايدا إزاء هذه الصراعات ما لم تصل فيها مستويات النزاع إلى درجة تحرق بها حدود المعقول لشروط الأمن والاستقرار. فقد بقي القائد بن الطالب يعبر في مكاتباته عن مظلوميته وشعوره بنوع من المرارة، كون المجموعات المرحلة هي تابعة لنفوذه الترابي، وله عليهم سلطة بموجب ظهير التولية وأن محاولة خصومه في

²⁹¹ م. و. م. ر. ح : محفظة رقم 47- Th رسالة مستقلة بدون ترقيم بعث بها ابن اسماعيل الى الوزير محمد بن ادريس بتاريخ 10 جمادى الاولى سنة 1263 . تزامنت مع رسالتي محمد بن الطالب الى السلطان والوزير محمد بن ادريس.
²⁹² نفس رسالة بن اسماعيل بتاريخ 10جمادى الاولى 1263

النيل من مكانته بالتحريض والتشويش عليه هو بمثابة عرقلة صريحة لمهامه في حفظ النظام العام وتعطيل مصالح المخزن. وهذا ما نستشفه من خطابه في نفس رسالته الى الوزير بن ادريس وقد تخللته نبرة من الأسى واليأس: « [...] فالعمال الذين قبل هذه الساعة لم يتعاموا لظالم ولا لسارق يتحصن بلوطاً، وإن (واذا) فروا لشوايق الجبال، يتبعونهم بالكلمة الى ان يحصلوا (يضبطوا)، وصلحت الجبال وسهولها. والآن زماننا هذا ما شاء الله المخزن للجبال منه يفرون أهل الضلال والفساد، ويستوطنون ببلد المخزن ما شاء الله. فمن بني اعتاب نحو اثني عشر مائة هبطت للوطا بتادلة [...] فلوكانت الكلمة مضبوطة لصلحت الجبال ونواحيها من التعب والحروك، والقتل بين الاسلام، وتضييع الأموال لم ينتفع المسلمون بذلك ولا بلغ الى بيت المال، وذلك كله من ابن القايد وخليفته»²⁹³.

المطلب الخامس، نهاية ابن الطالب:

سبق الحديث عن اختيار السلطان توليته لابن الطالب قائداً على قبيلته هنتيفة التي اجتازت من نفوذ بالقايد السرعيني، وعن مكانته وحظوته لدى المخزن المركزي خاصة فترة وزارة محمد بن ادريس. لما عرف عنه من صرامة وكفاءة في ضبط وتدبير مجال نفوذه. وقد تمكن فعلاً هذا القائد من إسداء خدمات مخزنية تحسب له. منها وقوفه على إجراء الاحكام واستخلاص الجبايات ومشاركته الى جانب رماة قبيلته ومحاربيها في حركات عسكرية موفقة سواء بقبائل الجبل أو مؤازرته لقبائل الطاعة في تخليص القصة الكوشية من قبضة اتباع طلحة امهاوش²⁹⁴.

إن حظوته ومكانته فيما أسداه من خدمات لفائدة المخزن وقيامه بما كان يرتقبا منه، كل ذلك ظهر أمام انتفاضته المباغثة - وان لم يكن استثناء في تاريخ قواد المخزن²⁹⁵ -، فقد تزعم القائد حركة تمردية نعتقد أنها كانت بمثابة رد فعل ليس الا. ما يثير أكثر من تساؤل عن أسبابها ودوافعها.

وعدا ما يمكن أن نبرر به من عدم تمكننا في العثور على ما يدلنا عن معرفة تلك الأسباب، لا في المصادر التقليدية ولا في الارشيف المخزني، فإن ما أفادنا به مؤلف فواصل الجمان لكاتب من عائلات مخزنية عريقة هو محمد غريظ من معلومات قليلة قد منحتنا على الأقل بعض

²⁹³ نفس رسالة بن الطالب بتاريخ 15 جمادى الاولى سنة 1262

²⁹⁴ م. و. م. ر. ح : محفظة رقم 47- Th رسالة مستقلة بدون ترقيم بعث بها القائد محمد بن احمد الموساوي الى السلطان مولا عبد الرحمان مؤرخة بتاريخ 18 شوال سنة 1267 الموافق ل 16 غشت 1851 في اعقاب حركته العسكرية ضد استيلاء انصار المرابط طلحة امهاوش على القصة الكوشية جاء فيها : «...فجعلوا بضربون من السور ، فضاع من خيل سيدنا ايت الربع نحو الاربعين فرسا ومن اخواننا بني موسى وبني عمير واخوان خديم سيدنا القايد محمد بن الطالب الهنتيفي كذلك... ».

²⁹⁵ المشرفي محمد (م.س) صص 126،127 : حول حادثة القبض على القايد محمد بالبشر بوجدة بعد شكاية القواد به بنبذ للأوامر المخزنية .

المؤشرات لم تعد لها فائدة حول الموضوع، جاء فيه : "[...] وكان هذا العامل جمع جموعا كثيفة وخرج عن الطاعة بقبيلته هنتيفة، وتمنع واعصوب وقتل وغصب. ففوض السلطان المقدس مولانا عبد الرحمان النظر لولده المقدس سيدي محمد في حسم مادة عدوانه وسيق أسيرا الى حضرته. "296. معلومات مقتضبة لم نستشف منها ما يطلعنا عن أسباب ودوافع ابن الطالب في انتفاضته مع من تعصب معه من أهل قبيلته، ولا عن تاريخ هذه الحركة. وإذا رمنا محاولة الفهم ولو بابتداع جانب افتراضي في تفسير واقعة خروج القائد عن طاعة المخزن بسرعة غير متوقعة، كون حركته لم يكن لها من ترتيب مسبق كما انها لم تكن قائمة على بعد استقلالي فضلا عما يمكن تخمينه من أن انتفاضته لم تكن تعبيرا صريحا يمكن أن يبلغ به مستوى من العصيان والتمرد العنيف ضد الحكم المركزي، وهو أدري من غيره بما سيلحقه بصنيع فعله اذا ما انتهك شروط الولاء او خلع البيعة عن عنقه. ومنه نرى ان أي تبرير لتمرده لا يمكن وضعه إلا في اطار الاستفهامات التالية:

- هل كان تعبيرا عن ردة فعل، أو تصريح لمرارة نتيجة إحباط من جراء ما لحقه من ضيم او تعديات قواد الجوار له لم يستطع لهم دفعا؟

- هل كان بسبب عدم مجارة المركز له في قضية ما، كان يرى أن فيها مصلحة له وللمخزن؟

- هل كانت لديه طموحات اوسع يتوق الى تحقيقها ولم يستطع إليها سبيلا.

ومهما يكن، فإن نزوعاته الاستبدادية، وتصوراته في ممارسة السلطة، الطافحة بها ملامح من خطابات رسائله ورسائل غرمانه، هي نفس السيرة والسلوك اللذان دأب على انتهاجهما حتى بعد أن تجاوز السلطان عن كبوته وعينه لمنصب أعلا مما كان فيه، أي عاملا على مدينة فاس.

إن تعيين ابن الطالب مرة أخرى وفي هذا المنصب بالذات بالعاصمة السلطانية، هي خلاصة كفيلة بأن تمنحنا أن تمرده لم يرقى إلى مستوى الانشقاق. "[...] ثم ولاه السلطان عمالة فاس فحكم فيها بما استشهى [...] وسلط أصحابه على الرعية حتى أفضى الحال بمن خالطهم من تجار فاس إلى الفقر والافلاس "297.

منهجيا لم تعد من ضرورة تدفعنا إلى متابعة سيرة ابن الطالب وقد أصبح الآن خارج دائرة تاريخ الإقليم التادلي بعد انتهاء فترة حكمه بقبيلة هنتيفة. لكن يجرنا الحديث الى استحضار واقعة لها صلة بماضيه السلطوي، ارتأينا ربطها بسيرته وهو الآن عامل على فاس، سيكون لها تأثير

296 غريب محمد : (مرس) ص 210.

297 غريب محمد : نفس المرجع ص 211

على مستقبل سلطته بالمدينة. ويتعلق الأمر حسب رواية صاحب فواصل الجمان بإقدامه على اعتقال محتسب المدينة. ولم يكن هذا الأخير غير عبد الرحمان بن محمد الشرفي، وهو كما تقدم شغل مهمة كاتب لدى نده السابق القائد محمد بالقائد، وكان له دور في تجويد مستوى رسائله وتقاريره الى المركز. ومن غير المستبعد أن يكون ابن الطالب موضوعا لإحداها كمشتكى به. وقد ساقط ظروفًا معينة ذلك المحتسب إلى تورطه في نازلة اعتبر العامل أن كيفية معالجته إياها طالها نوعًا من التقصير والتهاون. فاعتقله بعد الوشاية والتكيل به، لولا أن شفعه فيه لدى السلطان صديقه الوزير غرنيط.

لم يتسن لنا تفسير الدوافع الحقيقية التي حدثت بابن الطالب على اعتقال محتسب المدينة رغم أهمية منصبه يسمح له بتنفيذ مبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لكن ما يتعين تسجيله من ملاحظة بعد تناولنا لما تتضمنه توصيفات المؤلف للعامل المذكور، منكرًا عليه سلوكه ومسفها أفعاله بالقول: "وكان أجراً من خاصي أسد على إذاية من صلح ومن فسد، يسير في الحاضرة سيره في البادية من التجبر ومدّ اليد العادية"²⁹⁸.

يعبر موقف الكاتب هنا بوضوح عن تحيزه الثقافي المديني وانتصاره لأهل الحضر، بالقدر الذي لا يخفي فيه تشنيعه بصلف العامل وبدأوته، وبإحاقه الأذى برموز البورجوازية الفاسية وهم تجار المدينة. ولا يتردد بالجهر بما يميز أهل البادية من جفاء وخشونة إذا ما تحكّموا في رقاب أهل المدينة، وتعكس مدى تباين عوائد وثقافات كل جانب حسب التوصيف الخلدوني²⁹⁹، وهونفس الموقف الذي عبر عنه حينما تم تعيين الحسين بن محمد احم الزياني باشا على مدينة فاس على عهد السلطان المولى عبد الحفيظ بقوله: "أصبح أعلام الفقهاء تحت أحكام السفهاء"³⁰⁰ ظل بن الطالب عاملاً على فاس إلى أن توفي السلطان المولى عبد الرحمان، ومبايعة خلفه سيدي محمد، وحانت لحظة مكاشفة لأفعاله، فكانت نهايته كما رواها المؤلف: "وبويع ولده سيدي محمد فحذر العامل أن يكون حذفه الإبتداء [...] إذ كان أسلف إلى السلطان المبايع ما أسلف من سوء الأدب وقلة المبالاة وهو مستخلف، فخامرته الخوف حتى اشتدت به السوداء [...] ثم أحس بحتفه فأمر بإحضار مكحلته وسيفه وجعل يرطن ببربريته ويلعن بأن العدو طرقه بسيرته ولم يزل يخلط في مقوله حتى سقط من طوله"³⁰¹.

²⁹⁸ غرنيط محمد: نفسه ص 210

²⁹⁹ ابن خلدون عبد الرحمان: المقدمة ص 155

³⁰⁰ غرنيط محمد نفسه ص 104

³⁰¹ غرنيط محمد: نفسه ص 211

خاتمة:

وقفنا فيما سبق على بعض النصوص من الرسائل والتقارير المخزنية them بعض قضايا الشأن المحلي والقبلي بأجزاء واسعة من الاقليم التادلي. وقد تمحورت جل مضامينها حول نقطتان أساسيتان: استخلاص الجبايات، وتدبير الصراعات والخلافات. وإذ تعكس هذه الخلاصة مضمون مرحلة تاريخية دقيقة بات يمر منها المجتمع المحلي كما باقي المجتمع المغربي عنوانها بواد وإرهاصات لتحول عميق ستعرفه البلاد بفعل إكراهات عسكرية وسياسية واقتصادية ناجمة عن ضغوطات أجنبية وانعكاس تأثيرها على الواقع الداخلي، فإن المخزن المركزي أخذ على عاتقه مواجهة الموقف على الأقل للتخفيف من أثارها، من خلال تقوية نفوذ أجهزته المحلية بما يضمن استيفاء أكبر قدر ممكن من الواجبات الضريبية والإلزامات الجبائية والكلف المخزنية المفروضة على القبائل وضمان الاستقرار والامن بالمجال³⁰².

ومن أجل بلوغ تحقيق هذه الغاية، استطاع المخزن دعم أجهزته المحلية وتحديدًا منهم قواد كبار وسمت تجربتهم في ممارسة السلطة بالثدة والقوة. شد عضدهم ودعمهم بالعسكر والسلاح سواء في فترة الحركات الجبائية أو أثناء حملات إخضاع المتمردين وتسكين روع المنتفضين من سكان الجبل. وقد برز في هذه المرحلة قائدين كبيرين تم إدراج سيرتهما في الدراسة نموذجًا. ليس فقط لأن عددا من المراسلات والتقارير كانت تبعث باسمهما ساعدتنا في استنتاج ذلك، بل لأنهما من بيوتات مخزنية استطاعا أن يوظفا رصيدهما العصوي لفائدة تدعيم الحضور المخزني بالإقليم التادلي. وقد بات واضحا أن نهج المخزن في تدبير المجال أخذ يتحول بالتدريج إلى تقليص نفوذ القواد وحصر سلطتهم على إيالة محدودة المجال في معناه الجغرافي ومضمونه القبلي. ساهمت الى حد ما في تقليص مساحة تحرك القواد، ما سمح لهم بتوسيع هامش تأطيرهم وإمكانية إحاطتهم بتفاصيل ما يطور داخل إيالتهم. وبذلك أصبح القائد أكثر اطلاعا على أحوال المجال وعلى ساكنته سواء من الناحية الامنية والاستخبارية أو من ناحية القدرة على استكمال التحصيل الضريبي أو بالوقوف على تجنيد المحاربين من قبائل النوايب. لكن رغم اضطلاع القواد بكل هذه الوظائف وانشغالهم المستمرة في تدبير الصراعات البين قبلية، وتجاوب لفوف هذه الاخيرة لخوض نزاعات متفرقة، وأهبتهم الدائمة للاحتراب بإذكاء صريح أو خفي من القواد أنفسهم، فإن من شأن ذلك أن

³⁰² لقد مثلت المداخل الجمركية وتممولات لحناطي والمكوس الحضرية والضرائب والكلف المفروضة على البوادي أهم مداخل بيت المال

يبقى حالة التوتر قائمة مادامت أسبابها لم تنتف قط، وهو بالتالي ما كان يضعف من صورة المخزن المحلي وينال من هيئته لدى القبائل.

إن الميل لطرح هذه الخلاصة لم يتأسس تعليقه على حالة عابرة أول ظرف طارئ، بل ما نستشفه من تواتر الاحداث والوقائع، في ان التمرد ومظاهر العنف كانت من السلوكات المستمرة في تاريخ القبائل التادلية ومجتمعها المحلي. فالظاهر منها كان يفضي إلى مهاجمة القواد والتعرض لهم وأحياناً إلى اغتيال بعضهم كما هو حال محمد بن زيدوح³⁰³. أما الكامن فيها هو ما كان يطفوا على السطح بين الفينة والآخرى خاصة في فترات الإعلان عن وفاة سلطان.

وهذا بالذات ما كان يدركه المخزن ويتوجس من حصوله رغم ثقل الحضور الفعلي لممثليه. ويتبرر المعطى الأخير من خلال ثلاثة نماذج لوقائع تاريخية عرفها الاقليم التادلي فترة النصف الثاني للقرن التاسع عشر نسوقها كالآتي:

-الحدث الاول:

بعد وفاة السلطان مولاي عبد الرحمان، وتعزيزا للحضور المخزني المحلي، واحترازا لوقوع ردود أفعال غير محسوبة بادر خلفه السلطان سيدي محمد الى توجيه إدالة عسكرية أوكل لها مهمة الحراسة بالقبصة التادلية وتنفيذ المهام الأمنية المنوطة بها، لكن عند دخولها المجال التادلي اعترض سبيلها مجموعة من متمردى قبيلة بني عمير، وحاولوا سلبها والتنكيل بها مستغلين فترة عدم الاستقرار وتراجع دور قواد المنطقة : " وهناك القى (السلطان سيدي محمد) القبض على طائفة من بني عمير كانوا حاولوا الاستيلاء على الادالة التي كان وجهها السلطان سيدي محمد عسة بقصبة ايت الربع، وهناك تعاهدوا وتظافروا على الايقاع بها وتمزيقها كل ممزق لما بلغهم نعي السلطان (مولاي عبد الرحمان)"³⁰⁴.

- الحدث الثاني :

ويتصل بوفاة السلطان سيدي محمد بن عبد الرحمن. ولم نجد أبلغ تعبير عن تلك اللحظة الدقيقة والحاسمة ادق مما ورد في وثيقة تاريخية، وهي على شكل رسالة من الحاجب احمد بن موسى بعث بها الى المولى الحسن عندما بلغه نعي والده وهولا زال بمحلته ببوريقي اقليم حاحا يبلغه فيها بما يلي : « بعد تقبيل الارض بين يدي مولانا الامام الهمام، أن العبد ظهر بما هو عليه من المحبة، أن يشير على سيدنا بما يهجس في خاطره وإن كان رأيه أعلا وأجل وعقله

³⁰³ الناصري خالد : (م.س) ج 9 ص 123

³⁰⁴ زيدان بن عبد الرحمان : الاتحاف ج 2 ص 200

أكمل وأفضل وهو أن يكتب سيدنا نصره الله بمجرد وصول هذا اليه لجميع المدن والقبائل والجيوش، ويطلع بطابعه الشريف من أعلى الكتاب يخبرهم بما سنى الله تعالى من اجتماع كلمة المسلمين على بيعته [...] وكذلك يكتب لمولاي اسماعيل ويلين له القول [...] ويأمره بقراءة المكاتيب على أهل فاس وأعيان الجيوش وكذلك لمولاي عبد الله بتادلا يأمره بلزوم محله وإظهار الثبات وكذلك للقواد الذين معه مثل ذلك [...] وقد كتبنا لمولاي عبد الله بأن يثبت بمحله من قصبه تادلة هو ومن معه حتى يأتيه أمر سيدي بما يكون عليه العمل، خشية أن يقع منهم تزلزل أو شبهه كما كتبنا لفاس ومكناس وجميع المدن والقبائل أخبرناهم فيها بوفاة مولانا المقدس بالله وانعقاد البيعة لسيدنا ايده الله»³⁰⁵ والظاهر أن الفقيه أحمد بن موسى وهو يبوح ما بخاطره للسلطان أن تلك اللحظة الحاسمة كانت تقتضي مواجهة الموقف بما يلزم من الحزم والثبات، وإظهار رباطة الجأش أمام توجسات القبائل وردود أفعالها حال سماعهم نعي السلطان. وما يهمنا من نص الرسالة أن القبائل التبادلية التي خصها بالذكر والتحديد أحمد بن موسى، وهوركن من أركان المخزن وقتئذ، كانت على رأس قائمة القبائل التي قد يؤدي انفعالها مع الحدث الى التمرد وإثارة الفوضى " وخشية ان يقع منهم تزلزل أو شبهة " توجب توجيه الامر لممثل السلطان بالقصبه التبادلية المولى عبد الله بأن يحافظ على ثباته وعلى نظام جند إدالته وان يلزم مكانه ويؤمن موقعه دون ما أي تحرك أو انتشار داخل المجال التادلي ما قد يصعد من أسباب إثارة القبائل.

- الحدث الثالث :

ويرتبط هذه المرة أيضا بوفاة السلطان المولى الحسن الذي وافته المنية بدار ولد زيدوح بتادلا وإخفاء الحاجب باحماد ذلك. وقد ألزمته الظرفية الحرجة بالمسير بالمحلة السلطانية خارج الاقليم، ولم يتمكن من نعي السلطان الا وهو بمحل البروج من قبيلة بني مسكين : " [...] فأمنوا فيه على أنفسهم من أهل تادلة الذين تناهوا في الصعود والعروج إلى أن مالت بهم السروج" ³⁰⁶ .

وتطالعنا رسالة السلطان المولى عبد العزيز الى خليفة القائد عبد الله بن سعيد السلاوي ما نصه: « [...] وبلغ شريف علمنا ما عليه قبيلة بني عمير من التمرد عن أداء الواجب عليهم، وما هم عليه من البغي في ذلك الصفير، زيادة على ما ارتكبه عند وفاة سيدنا المقدس من مد يد

³⁰⁵ م . و . م . ر . ح : رسالة مستقلة مسجلة تحت رقم A-17-002 ، من احمد بنموسى الملقب بياحماد الى السلطان المولى الحسن بتاريخ 19 رجب 1290 الموافق ل 12 شتنبر 1873
³⁰⁶ يوعشرين بن الطيب باليمني (مرس) ص 33 .

العداء في المدد الذي كان عندهم ونهب كل من يمر من القوافل حذوهم لم يمكن التغاضي عنهم وتركهم على ما هم عليه من الضلال حتى يتسع لهم المجال»³⁰⁷.

كيف عالج المخزن تمردات قبائل الوسط التادلي ودبر الامور لتجاوز مثل هذه الحالات الطارئة والمزمنة في آن، وإعادة تسكينه وترتيبه للوضع الأمني بعد جنوح قسم منه الى إثارة الفوضى؟ من خلال استعراضنا لنماذج الاحداث الثلاثة أمكننا الخروج باستنتاجين إثنين :

- **الأول** : أن المخزن لم يكن ليترك فورات القبائل التادلية المجبولة * على التمرد تمر دون تأديب وعقاب. وحتى يكون لهذا الإجراء ما يبرره وحتى لا يؤخذ على مظنة الانتقام، فإنه يلجأ إلى استعمال وسائله المركزية. فيترأس السلطان شخصيا حملة ضخمة يجردها بآلاف الجنود وعشرات الآلات الحربية³⁰⁸.

نلمس هذا فضلا عن حركة السلطان سيدي محمد، في ما سجله إبراهيم السباعي عقب تسيير حركة السلطان المولى الحسن في شوال من سنة 1294 بقوله: " فتوجهت الجيوش لمراكش خائضة بلاد تادلة ولما توسطتها الجيوش توجهت السياسة لجمع أعيان أهل الفساد منهم حتى اجتمع منهم جمع غفير، فقبض منهم كثير وقتل منهم كثير، ضربهم العسكر في آن واحد برعد من البارود، فصارت الواقعة الى الآن تسمى بعام طرقة، ويعنون بطرقة في لغة العامة اجتماع صوت الضرب في آن واحد ومتتابع بلا فصل، وصفدت منها مساجين ووجهت لسجن مصباح بمراكش وقبض إذ ذاك على القايد عبد النبي العميري لما ظهر منه مما استوجب به ذلك"³⁰⁹.

- **الثاني** : أن عصيان القبائل وتمردا عقب كل وفاة سلطان، لم تكن في مضمونها وأهدافها تعبيراً ضد السلطان الجديد ولا رفضاً لبيعتة، بقدر ما كانت تعكس حقيقة الأزمة وعمقها في الوسط الاجتماعي القبلي تؤشر عليها تداعي حالات التفجير والتغلب التي كان ينهاجها القواد. فبين الضغوط الجبائية وتعدد أصناف الكلف والتسخيرات وبين إكراهات اقتصاد القلة وتوالي فترات الجفاف وضغط المجاعات، تولدت من جرائها مظاهر البؤس واليأس ألقت بردائها على كواهل الناس طيلة

³⁰⁷ م . و . م . ر . ح : رسالة مستقلة مسجلة تحت رقم 28682 ، بتاريخ 15 جمادى الاولى 1315 الموافق ل 12 اكتوبر 1897

³⁰⁸ في غالب الاحوال كان المخزن يربحاً حملاته ضد القبائل التادلية إلى أن يحين الطرف الملائم، وقد يمتد الامهال الى عدة سنوات. * ما نعنيه بجبلية التمرد لدى القبائل التادلية ليس نعنا من نزعة تمييزية او إحالة على وجدان فطري وسم به السكان، بقدر ما يذهب بنا الاعتقاد في ارتباط القبائل التادلية من ورثة التغريبة الهلالية بحياة البداوة و ثقافة الحمية و النزوع الى القتال ، بينما لا يعكس ذلك الا مظهرا خارجيا يعبر عما يعتدل في ذاكرتهم الجمعية من حالة نفسية عميقة .³⁰⁹ السباعي بن ابراهيم : (مخ.س) ورفقات 228 ، 299 .

سنوات، ولم يعد لديهم من سبيل للخلاص من ظلم واستبداد هؤلاء القواد غير التعبير عن رفضهم وإبعادهم في لحظة فارقة بين عهدين³¹⁰.

فهل كانت الحركات المخزنية تمنح فعلا أسباب الأمن وتضمن السلم للقبائل وتشجع لديهم مظاهر الإستقرار والرخاء؟ أم كانت غايتها فقط تقوية سلطة ودعم نفوذ ممثليه الجدد بعد استبعاد القدماء أو اعتقال بعضهم³¹¹؟

وكما سبقت الإشارة إلى ذلك، فإن المخزن أدرك أهمية تحجيم دائرة نفوذ حكم القواد لما له من دوافع ومبررات تنظيمية، واستعلامية، واستجباية، ومن رغبة في التحكم أكثر في ما يجري داخل القبيلة. إلا أن المرحلة الدقيقة التي بات يعيشها المجتمع المغربي بعد حرب تطوان وتهافت القوى الأجنبية وتزايد تدخلاتها في شؤونه السياسية والاقتصادية، ومحاولة إقتال كاهله بالمديونية والمنافسة البضائية، أصبح لزاما على المخزن المركزي ان يطرق سبلا اخرى في تدبير وسائل التحصيل الضريبي وتحسين مداخيل بيت المال. وبما ان البوادي تشكل مصدرا من بين أهم مصادر مداخيل ميزانية الدولة رغم شدة عنت التحصيل واتعابه المضنية وكذا وطأته على السكان وتأثيره على واقعهم الاجتماعي. وأمام الضغوطات الأجنبية وتقلص هامش المناورة للمخزن بعد توقيعه على معاهدات دولية تلزمه بمزيد انفتاح على الخارج، كما فرضت عليه ضمان حماية القنصليات والاجانب ورعاية مصالحهم وممتلكاتهم، و بضرورة إصلاح بنياته الادارية والاقتصادية، استهلتها بريطانيا بمعاهدة 1856 التي تحولت الى ما يشبه "السرطان سيفضي الى تفتيت بنيات المغرب الاقتصادية والسياسية والاجتماعية العتيقة"³¹². فاتجهت سياسة الدولة لمواجهة المرحلة إلى مباشرة عملية اصلاح مست الجانب الجبائي والضريبي عموما وهو ما يسمى بالترتيب إلا أن هذا الإجراء ووجه بعراقيل ولم يكتب له النجاح:" رغم هذا الترتيب العجيب [...] يحصل به الرفق للرعية وتنحسم مادة جور العمال بالكلية، فاستحسن ذلك وان لم يعم لكنه انخرم ولم يدم³¹³.

اقتضى الامر محليا، الأخذ بإجراء آخر لتعزير وسائل الإستجابة، وتمثل هذه المرة في تعيين أمناء جدد بكافة الاقاليم والبوادي المغربية ومنها الأقاليم التادلي لضبط المداخيل وتحسين

³¹⁰ ينبري بعض الاعيان وهم الفئة الاكثر تضررا من تسلط القواد لكونهم يمثلون ثقلا اسريا وعائليا واقتصاديا ينوبون عنهم في اكثر الحالات في أداء الواجبات والكلف، الى التحريض عن التمرد "توجهت السياسة لجمع اعيان اهل الفساد منهم (ابراهيم السباعي نفس صفحة المصدر السابق)

³¹¹ من نموذج ذلك اعتقال القائد عيد النبي العميري خلال حركة السلطان مولاي الحسن سنة 1294 المسماة بعام طريقة

³¹² بن الصغير خالد : المغرب وبريطانيا العظمى في القرن التاسع عشر سلسلة رسائل واطروحات رقم 34 منشورات كلية الآداب والعلوم الانسانية بالرباط 1979 ص281 .

³¹³ السباعي ابراهيم (مخ.س) ورفقات 315 ، 316

مردوديتها وتدقيق مداخيلها، موازنة مع الدفع بإعداد إضافية من القواد يشدون عضدهم ويسهرون على تيسير مهماتهم. لكن هؤلاء الأخيرون لم تكن مكانتهم عند المخزن على مقام واحد ولا تحمل مسؤولية الاعباء وإسداء الخدمات للمركز على درجة متساوية. فكيف نميز بين مستويات عمل هذه الفئة سواء لدى المخزن المركزي اولدى القبائل ؟ ذلك ما سنتعرض له في الباب الموالي.

الباب الثالث، المخزن المحلي في العهد الحسني وتدبير المجال :

الفصل الاول، المخزن الحسني و تجديد إطارات التمثيل المحلي لتدبير المجال .

الفصل الثاني ، القبائل السهلية بين التقسيم الاداري وتعدد القواد.

الفصل الثالث، قنوات موازية للتمثيل المخزني بالإقليم .

الفصل الأول، المخزن الحسني و تجديد إطارات التمثيل المحلي لتدبير المجال

- المبحث الأول، قبائل طرفية بالجبل والدير التادليين واستحداث خيارات جديدة لتدبير قضاياها
- المبحث الثاني، الجهاز المحلي في العهد الحسني.
- المبحث الثالث، مآل الدور العسكري لقصة تادلة في ظل بروز دور القاندين.

الفصل الأول

المخزن الحسني وتجديد إطرارات التمثيل المحلي لتدبير المجال:

تميز الحضور المخزني وتدبيره³¹⁴ للمجال التادلي على العهد الحسني بخاصية فريدة في تاريخ التأطير الإداري للمجتمع المحلي. وتمثلت هذه الخاصية في تولية قواد اقوياء³¹⁵ على قبائل زيان والقسم الشمالي للدير التادلي مع إمدادهم بما يلزم من العسكر والسلاح والتمويل، تلاهم تعيين قواد آخرين على القسم السخماني. أما بالجانب السهلي فقد تم الرفع من أعداد القواد وتكثيف حضورهم بالوحدات والأقسام القبلية مع ما واكب ذلك من إجراء استهدف تقليص دوائر نفوذهم الترابي حتى بات الواحد منهم لا تتجاوز سلطة حكمه بضعة دواوير.

فما هي دواعي تلك الإجراءات؟ وما غاياتها التدييرية ضمن نسق مخزني يتجدد باستمرار بإطرارات تقليدانية؟ ثم كيف استطاع المخزن الحسني حلحلة النموذج التقليدي القديم نفسه في تعاطيه مع المناطق الطرفية بالجبل، وتمكنه من استعادة المبادرة في إدماج قبائلها المجبولة على التمرد ضمن منظومة قبائل الطاعة؟

أسئلة تطرح نفسها بإلحاح، سنحاول تحليل بعض عناصر إجابتها حسب ما كشفت عنه وثائق ونصوص رسائل الأرشيف المخزني. لكن قبل ذلك نتعرف بداية على المنطقة الطرفية بالجبل والدير.

المبحث الأول، قبائل طرفية بالجبل والدير التادليين واستحداث خيارات جديدة لتدبير قضاياها:

ظلت قبائل الجبل التادلي منذ وقعة ظيان، في حكم المناطق الطرفية التي لم تكن تجري عليها أحكام المخزن. وبقي سكان هذه المناطق يلف تاريخ حياتهم نوعا من الضبابية والغموض حتى على مستوى المصادر التاريخية التقليدية³¹⁶. وأصبح من العسير والحالة هاته الاطلاع على تاريخ وحياتة سكان هذه المناطق، والوقوف على تنظيماتهم القبلية بالدقة المطلوبة. لكن عتمة

³¹⁴ يعرف ابن منظور اللفظ كالتالي: دبر الامر و تدبره : نظر في عاقبته . و استدبره : رأى في عاقبته ما لم ير في صدره . والتدبير في الامر ان تنظر الى ما تنول إليه عاقبته . و التدبر :التفكر فيه (لسان العرب المجلد الثاني مكتبة نور دار المعارف ص 1321).

³¹⁵ لقد تمكن المولى اسماعيل من تولية القائد علي اوبركا على قبائل ايت أومالو بالجبل و قد عرف هذا الاخير بقوة شكيمته و سطوته على المنطقة بلغت الى حدود الدير بزواوية الشيخ و أم البخت من ايت هودي ، و تمكنه من حصر تمدد القبائل صنهاجة الى السهل. لكن توليته لم تدم طويلا ، إذ تم اغتياله بمنطقة ايشقيرن في ظروف غامضة ولم يتول بعده اي قائد من مستوى طينته الا في عهد السلطان الحسن بعد تعيينه للزياني . ويبقى القاسم المشترك بينهما سياسيا هو العداء للأسرة المرابطية من آل أمهاوش ، ويشك في ان اغتيال الأول كان بإيعاز من مرابط الوقت .

³¹⁶ دأبت جل كتابات الاخباريين على تناول الأحداث والوقائع التاريخية بالقبائل الطرفية مقرونة دائما اما بمعاركها مع المخزن او بحلول المحلات السلطانية بترابها . عدا ما كشف عنه بعض الدارسين والباحثين الاجانب خلال فترة الاستعمار عن بعض الوثائق والمخطوطات التي كانت لا تزال محفوظة بالزوايا أو عند بعض الأسر العريقة.

وغياب كثير من المعطيات التاريخية عن هذه القبائل خلال الفترة المدروسة لم يمنعنا من الوقوف على بعض الحقائق الجغرافية والبشرية والتاريخية عن المنطقة حتى يمكننا ربط واقعها منهجيا بحدث تولية قواد بالمنطقة:

المطلب الاول، الموقع الجغرافي للجبل والدير وخصائصهما الطبيعية:

تستوطن قبائل آيت سخمان وآيت سري وزيان وايشقيرن وآيت هودي جملة، في المنطقة الواقعة بالجزء الشمالي والشمال الشرقي من الإقليم التديلي. وتمتد مجاليا على قسم كبير من التراب الجبلي وجزء من الدير. ويقع طرفها الشرقي على الحد الفاصل بين الاطلس الاوسط الكبير والاطلس المتوسط، بينما تحده من جهة الغرب المنحدر الدير في اتجاه ما يسميه أهل المنطقة بالأزغار والسهل ويشهد وسطها الطوبوغرافي ارتفاعات جبلية ووعورة تضاريسية الى حد التطرف، تمثلها صعوبة في المسالك وقلة في المفازات.

المطلب الثاني، الوسط الطبيعي:

يبقى المشهد الطبيعي للمنطقة عموما حالة متفردة في جغرافية المغرب. فهي تمثل منبعاً ومصدراً لانهار ثلاثة على قدر كبير من الأهمية في حياة السكان الاقتصادية والاجتماعية. ينطلق الأكبر منهم وهوام الربيع من منابع الاطلس المتوسط ليس بعيداً عن ادخسان شمالاً، ويخترق المجال التادلي في اتجاه مصبه بالمحيط. بينما يحتفر واد العبيد التراب السخماني شرقاً وينحدر جنوباً مروراً بتاكلفت وواويزغت ليلتقي بالأول على تراب الاقليم. وانطلاقاً من منابعه جنوب الاطلس المتوسط على الجانب الشرقي من الكتلة الجبلية التي يميل انحدارها في الاتجاه المقابل وهي ذات ارتفاعات شاهقة ينحدر نهر ملوية متفرعاً الى مجريين: واحد شمالاً في اتجاه مصبه بالمتوسط والثاني يتجه شرقاً نحو ميدلت قبل ان يصير متقطعاً نحو الصحراء. وتتغذى كل هذه الانهار من كميات الثلوج المتساقطة على المرتفعات الجبلية ويزيد صبيبها من جراء ذوبان الثلوج انطلاقاً من فصل الربيع ومستهل فصل الصيف، ما يفسر طغيان غطاء نباتي كثيف في هذه المنطقة خاصة بالأودية والمسارح بالجانب الظليل وانتشار الغابات وتنوع الأشجار ذات النوع النادر والثمين من قبيل العرعر الفواح وشجر الأرز.

المطلب الثالث، السكان واقتصاد الجبل:

إن هذه المقدرات الطبيعية سيكون لها تأثير واضح على تطور النمو الديمغرافي للسكان حيث عرف استقراراً وأحياناً يعرف اضطراباً. فقبيلة آيت سخمان وحدها تتكون حسب افادة كيوم 4000 عائلة، وايشقيرن حوالي 1200. أما زيان فيبلغ عدد عوائلها حوالي 6000، بينما استقر

مجموع عدد عائلات آيت سري بين 5000 و 2600 عائلة موزعة على قبيلتي أم البخت وآيت اسحاق³¹⁷. والعائلة هنا التي اعتمدها كيوم كوحدة إحصائية لا ينبغي ان نفهم منها انها توافق مفهوم الكانون لدى قبائل الطاعة، فالأخير كان يحتسب كوحدة جباية تضم رب الأسرة وزوجته وأبنائه ممن لا زالوا تحت نفقته حتى وإن كانوا متزوجين مع تحملهم الاعباء على حد سواء، بينما في منطقة الجبل حيث كانت تنعدم الجباية اوتكاد فان العائلة هناك حسب تقدير كيوم تحمل مفهوم ملتبسا وتبقى بذلك غير محددة العدد ولا نعلم من مكوناتها ما يفيد في احتساب ارقام محددة.

ومهما يكن من امر، فان هذا الإحصاء المحمول على التقريب أكثر مما ترومه الدقة العلمية، فان هذه الأعداد حتى وإن سجلت في مرحلة بداية الاحتلال الفرنسي، إلا أنها تبقى مع ذلك محمولة على وجه التقريب اذا ما سلمنا أنها لا تبعد كثيرا عن فترة المنتصف الثاني للقرن التاسع عشر.

فلما كان المحيط البيئي لهؤلاء السكان يتسم كذلك بمناخ بارد شتاء ومعتدل صيفا وبوفرة المياه وإمكانية استغلالها بوسائل تقليدية متبعة، وفق أعرافهم وثقافتهم المتوارثة في تعاطي الانتاج، فان انكفائهم بأوعار مناطقهم الطرفية ضمن تنظيماتهم القبلية، سمحت لهم في ان يكونوا أبعد من أن تدركهم جوائح الطاعون والابوئة، أو تطالهم الكوارث البيئية من جفاف وجراد الا في أعوام متباعدة، خلافا للمناطق السهلية والساحلية. اللهم الا فيما يلحق المرتفعات موسميا من تهاطل لكميات معتبرة من الثلوج، فتنسد أمامهم مؤقتا أوجه التواصل وسبل التنقل. بل يدفعهم ضغط الطبيعة الى التماس السهل.

خصائص طبيعية وبيئية، سيشكل واقعها تأثيرا كبيرا على حياة السكان وعلى نمط عيشهم وسبل انتاجهم. فرغم ضيق الأراضي الواطئة وتقلص المساحات الزراعية كوسيلة انتاج، فإن محاصيلها في كل الاحوال كانت تكفيهم ذاتيا للعيش، وقد يفضل عنهم فائض يقومون بتسويقه للجوار. كما يشكل الرعي والكسب أحد أبرز مصادر العيش لديهم. " لان جبلهم ينتج كمية كبيرة من الشعير والماشية كثيرة جدا، وعيون الماء أكثر من الدور عددا"³¹⁸

لقد انسحب تأثير الوسط الطبيعي على واقع طبيعة العلاقات الاجتماعية وسلوك السكان لخيرهم طريق التوافقات القبلية. فلم يكن لهم من محيد في تشاركتهم استغلال المسارح والمراعي باعتبارها اراضي جماعية مفتوحة، ذات طبيعة تسمح باقتسام استغلالها في الرعي بداية من فصل

³¹⁷ كيوم ليون أوغسطين : البربر المغاربة وتهدة الاطلس المركزي ، ترجمة ذ محمد العروصي، ط 1، ص 72 وما يليها .
³¹⁸ الوزان حسن : (م.س) ص 186 .

الربيع حيث يدفع السكان بقطعانهم اليها بالسفوح الشرقية، او يسوقونها في اتجاه الأزغار شمالا، او بمحاذاة ضفاف نهر ام الربيع غربا إذا ما وجدوا لذلك من سبيل.

المطلب الرابع، الأصل ومسألة استمرار أسماء القبائل:

لم تحتفظ المصادر التاريخية³¹⁹ حسب علمنا بكثير من المعلومات تسمح لنا في التعرف على تاريخ استيطان القبائل الديرية والجبلية المتاخمة للسهل التادلي، ولا حتى إشارات عن أسباب ودوافع استقرارهم بهذه المنطقة القصية ذات المشهد التضاريسي المعقد والعنيف. ولا منشئهم الأصلي قبل اندفاعهم الى مجالهم الحالي الذي يظهر انه يرتبط أكثر بمناطق الجنوب الشرقي عبر مفازات ومسالك تذكرنا بعبور موجات بشرية لما قبل التاريخ عبر ممر تيزي نتركاست بجبل غات بآيت بولي على أطراف حدود الجنوب الشرقي المتصلة بإقليم وارزات خلفت آثارها نقائش صخرية بالموقع الشهير³²⁰.

وإذا ما أجلنا النظر في تأويل الأسطورة ورواياتها الشائعة بين السكان، فهي على اية حال تبقى نابعة من الثقافة المحلية لكن لا تدعمها فائدة³²¹، فان الإتجاه العام الذي سار عليه جل المؤرخين والدارسين يؤكد أن أصلهم صنهاجي ينحدرون من آيت اومالو القبيلة المستوطنة منذ زمن غير معروف بالسفح الظليل لجبل فزاز، قبل ان تتفرع عنها كل الوحدات القبلية الاخرى ليعم نسغها كافة التراب الجبلي والديري بالمنطقة وينحاز كل نسل الى أصوله القرابية والدموية وفق ناموس التدافع البشري.

وعودة الى تخمين فرضية أسطورة الجد المشترك، فإن الملاحظ أن كل المناطق التي استوطنت بها وحدات قبلية متفرعة عن جدها الأعلى بهويات أسماء ابنائه المنحدرين عنه شجريا. ما يفهم من مضمونها انهم يشتركون من حيث النسب لذلك الجد. لذلك نجد لدى القبائل الديرية أسماء تحيل ضمنا على ارتباط نسبي مشترك انقسمت بموجبه كل قبيلة على حدا، والتفت به حول نفسها. من مثل آيت سري، وآيت ويرا، وآيت هودي. ولدى قبائل آيت سخمان ايضا نعثر على

³¹⁹ تم البحث في عدة مصادر منها : التشوف إلى رجال التصوف لابن الزيات ومفاخر البربر لمجهول ، وتاريخ بن خلدون ، وقبائل المغرب لعبد الوهاب بن منصور، دون ان تمدنا بما يشفي الغليل في التعرف على الاصول الاولى لسكان المنطقة المذكورة .

³²⁰ في إطار التعرف على هذا الموقع الحافل بالنقائش الصخرية ، قمت بزيارته بمعية مجموعة طلابية بتأطير الاستاذة المشرفة و تلة من اساتذة التاريخ القديم ..

³²¹ تحيل اسطورة النسب كما هو شان كل القبائل الى تحدر كل قبيلة من تلك القبائل من اسم الجد الاول فتستمد منه القبيلة اسمها حسب خطها النسبي او الجينيالوجي: مثلا قبيلتي ايت داود او علي و ايت سعيد او علي ، ينحدران من الجد الاول الذي هو علي قبل ان ينشطرا .و ايت عبيد بالشمال و ايت عبيد كوسر بالجنوب الخ..

اسماء ايت حمامة وآيت عبدي الواد وآيت عبدي كوسر وآيت داود او علي ونظيرتها آيت سعيد او علي³²².

وفي الشمال احتفظت قبيلة اشقيرن التي كانت الى حدود القرن 15 م تستقر بالمنحدر الجنوبي لجبل العياشي³²³، بأسماء من قبيل آيت يعقوب او عيسى وآيت احمد وعيسى وايت إسحاق. اما بزيان فإن وحداتها وأقسام فخذاتها لا تخرج عن هذه القاعدة. مثل آيت امحزان وآيت معمي وآيت بوحدو وآيت بوحسوسن، الخ.

ومجمل القول، فان قبائل المنطقة قد عرفت استقرارا منذ أمد بعيد قد يمتد الى أبعد من القرن الثاني عشر. فعند زيارة الرحالة حسن الوزان لجبل سكيم وهو اسم ربما محرف عن اسم سخمان لاحظ أن سكانه ينعمون بحظ من الاستقرار، ولهم دراية بالإنتاج الفلاحي، ويتميزون بتضامن اجتماعي مكنهم من الدفاع عن أنفسهم وعن أرضهم من كل محاولات المخزن لاختراق مجالهم الجبلي³²⁴.

وإذا كان الاستشهاد بوثائق تاريخية كفيلا للتحقق من مدى احتفاظ هذه القبائل بأسمائها واستمرارها في الزمن وهي تحيل على انسابهم ، فيكفينا شاهدا على ذلك مما تفصح عنه وثيقة تعود الى منتصف القرن السابع عشر وهي في صيغة عقد من عقود التكفل تم تحريرها بزواوية أبي يعقوب بن عبد الله أمغار بأسول من جبل دادس، بمحضر العالم الشهير لحسن اليوسي وفقهاء من الزاوية الدلائية الى جانب يوسف الحنصالي واسماعيل الحنصالي³²⁵. اعتمدها ايضا الراحل العربي مزين حول إسهامه في دراسة منطقة تافيلالت بين القرنين السادس عشر والتاسع عشر وتمكن من تفكيكها باقتدار تفكيكا بنيويا³²⁶.

تضمن العقد المذكور تكفل رؤساء القبائل الجبلية والديرية بأولاد وحفدة الولي الصالح المذكور، ورعايتهم وتأمينهم على أنفسهم وأموالهم، ومقابلتهم بما يلزم من مظاهر التوقير والاحترام. ومن بين القبائل التادلية المعنية بالتكفل، نسوق نماذج من بعضها كما وردت أسمائها في العقد: اشقيرن، آيت يعقوب او عيسى آيت اسحاق وآيت هودي وآيت سري اري وإمهواش وآيت أم

³²² Spillmann George : Esquisse d'histoire religieuse du Maroc confréries et zaouïas . PUB, f.l.s.h. Rabat , série :les trésors de la bibliothèque° 7 .edt 2011 , p p 148.149.

³²³ Spillmann George : op-cit p 150

³²⁴ الوزان حسن : (م.س) ص 186 .

³²⁵ Roger Henry : Notes sur les Ait Bouyaqoub , document vertes CHEAM N°45 archive du Maroc Rabat

³²⁶ MEZZINE Larbi : LA TATILALT, Contribution à l'histoire du Maroc aux XVII^e et XVIII^e siècles, publication de la faculte l.s.h Rabat serie N° 13.1987 ,P101 ET SUIT.

البحث وآيت عبد النور وآيت اشظيف وآيت بورغ وآيت داود أو علي وآيت سخمان وآيت أبراش وآيت عبدي وغيرها. وهنا تتضح مطابقتها جميعا لأسماء القبائل وهي ما تزال مستمرة الى اليوم. وتؤكد الوثيقة في نفس الوقت إرتباط هذه المجموعات بأصولها النسبية واحتفاظها على قوة انتمائها القرايبي، مما يتيح لنا القول أن تنظيماتها القبلية التقليدية كانت من المتانة والترابط ما جعلها تحافظ على كيانها والدفاع عنه ما دامت روح العصبية كانت لا تزال متقدة في وجدانهم.

ويستوقفنا هنا سؤال جوهري: هل حمية التضامن لدى قبائل الجبل التادلي هي ما جعلنا نفهم انها إنما تميزت بخاصية الاحتراب والمدافعة عن نفسها وترابها وصد اي محاولة لاختراق الحركات المخزنية لمجالها منذ عهد بني الوطاس الى حدود العهد الحسني يعود فعلا الى حضور عنصر العصبية لديها؟ أم أن بنيتها التقليدية وحرصهم على مرجعية اصلهم النسبي واستمراريته والاعتداد بأسماء أجدادهم الأوائل وكأنها صكوك يثبتون بها حيازة الارض والتوطن، لا تعكس إلا نتيجة تاريخية لها أسباب قادتهم الى خوض صراعات مستمرة فيما بينهم كان التوسع الترابي من بين تجلياته الرئيسية³²⁷؟

إن الجزم بأي تفسير يحيل على نفي او إقرار لكلا الطرفين يبقى من باب المجازفة وحتى مجانبة موضوعية التحليل. لكن الموضوع لا يمنع الاستفهام بطرح الفرضية التالية : إن انحياش هذه القبائل الى بعضها واستمرارها في مهاجمة المخزن تارة بايعاز مرابطي من آل امهاوش³²⁸، او بالدفاع عن أنفسهم وإلحاق هزائم تاريخية بالجيش المخزني، واحيان كثيرة يخوضون فيما بينهم حروبا طاحنة³²⁹، لا يعود الامر في ذلك بالأساس الى صلابة تنظيماتهم القبلية والاجتماعية، بقدر ما يعود الدافع الى موقف املته الضرورة التاريخية والحتمية الجغرافية، ساهمت في توجيه المجتمع المحلي الى تبني خيار عقد تضامانات لفوفية، كانت جماعاتها تدرك ان هشاشة وجودها القائم على الانقسامية والانشطار وهي تحارب الدخيل منفردة قد يهدد كيانها، فسارت جبلتهم تنفر من أي اختراق خارجي قد يهدد تنظيماتها ويصبح عنصرا منافسا لزعاماتها المحلية، هذا من جانب، ومن جانب آخر إلى منعة ووعورة مجالهم حيث أنسوا لمرتفعاته ملاذا لهم، يلوذون بقننه في حالة الانكسار.

³²⁷ تذكرنا هذه الحالة بما كان العرب الرحل قديما يحرصون فيه على انسابهم قدر حرصهم على استمرار وجودهم و نمط عيشهم وسط الصحراء.

³²⁸ تمكن المرابط ابوبكر امهاوش من تزعم حركة تمردية و هدد اتباعه من صنهاجة مدينة مكناس على عهد السلطان المولى سليمان ³²⁹ يؤكد القبطان ابركمان ان الجماعات بالجبل كانت في صراع مع بعضها البعض وقد ينتقل النزاع و الخصام من قرية الى اخرى و أحيانا من بيت الى آخر.

لكن هل استمر واقعهم الهامشي على هذا الحال؟ أم سيكون للتحويلات التاريخية التي بات يشهدها المجتمع المغربي بداية من منتصف القرن التاسع عشر تأثيرا واضحا ساهم في انقذافهم في التاريخ واستعادت مرة أخرى على أثره أقلام الكتاب اهتمامها بهذه المنطقة، وأصبح المجال الديري والجبلي موضوعا لكثير من التقارير والمراسلات المخزنية؟

المبحث الثاني، الجهاز المحلي في العهد الحسني:

نالت الظاهرة القايدية وجهاز المخزن المحلي عموما، كثيرا من الاهتمام لدى الباحثين والدارسين في تاريخ المجتمع المغربي الحديث³³⁰. كونه ارتبط بالنسيج الاجتماعي وربطه الصلة بين القبائل والمركز وقدم فصلا من أهم فصول تاريخ تدبير شؤون المجتمع المحلي. على أن كثافة حضوره وهو ينيخ بثقله على جسم القبائل، كان من شأنه أن يفرز تناقضات تعكسها حالة التنافر والتجاذب بين القوى المجتمعية والجهاز المحلي الحاكم.

والتناقضات هنا تفسرها مظاهر الاختلاف وتضارب المواقف بين المكونين الرئيسيين قوامها، مجتمع محلي يروم تحقيق حد أدنى من الاستقلالية ويحاول الحفاظ على منظومته التقليدية وتدبير شؤونه الذاتية بنفسه، وبين نظام مخزني يشتغل وفق منظومة مؤسساتية تستمد أصولها من الشرع الاسلامي، و من امتداداته التاريخية، يسعى للحفاظ على تماسك المجتمع ووحدة نظامه وقيمته ضمن تسيير إداري غير مباشر³³¹، بواسطة جهاز يمثل الوجه الظاهر لتنفيذ إرادة الدولة، كون مقتضياته التدبيرية ومباشرته الحكم وأساليبه التي يسلكها، تقوم في جوهرها على سلطة الإكراه. فكان من أبرز قياداته بالجل و الدير كلا من موحى اوحم الزياني، و موحى اوسعيد اليرايوي.

المطلب الاول، تعيين موحى اوحمو على قبائل زيان:

يعتبر القايد موحى وحمو الزياني من بين أهم القواد الكبار الذين اهتمت الكتابات الأجنبية والوطنية بدراسة سيرتهم وتتبع فصول حياتهم. فقد عده الأخوين طاروسيدا من أسياذ الأطلس³³²، وكتب عن سيرة حياته وبطولات معاركه ومقاومته الاستعمار الفرنسي فرانسوا بيرجي³³³.

³³⁰ لا تكاد جل البحوث والأطاريح الاكاديمية والعلمية المهمة بتاريخ مغرب القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين تخلوا من دراسة للبنية القايدية وتطورها بالمجتمع المغربي ورصدها لعلاقة الجهاز المحلي المخزني بالقبائل ودوره الاساسي في دعم سياسة الدولة التدبيرية بالمجال . واذا كان المجال لا يتسع لإدراج كل عناوين تلك الدراسات فإننا نكتفي بذكر بعضها مما يتيح لنا الاطلاع عليه .

³³¹ العروي عبد الله : مرجع سابق ص 223

³³² Jerom et Jena Thareaud : Marrakech ou les Seigneurs de l'Atlas . dar al aman Rabat 2012 p p 34-35
³³³ فرانسوا بيرجي : موحى وحمو الزياني . ترجمة محمد بوسنة ، مطبعة انفو يرانت فاس ، الطبعة الاولى 1999

كما تناولته الاقلام الوطنية بنوع من التقدير لاسهامه في التصدي ومقاومة الاحتلال الفرنسي بمجاله القبلي والحاقه هزائم مؤلمة لهم، مدافعا عن زعامته وقبيلته وتاريخه وهويته، ومثل نموذجا للمقاومة وحرب العصابات الى أن استشهد وهو على صهوة جواده³³⁴.
أما الفقيه أحمد المنصوري فقد وفى في سيرة حياته القول، وأزاح عنا كل غموض ولبس، فوالده كان من جملة قادة الإزالة المخزنية التي رابطت تحت إمرة موحى وحمو بمدينة خنيفرة³³⁵.
كما أن قربه من الأحداث والمشاركة فيها سمح للفقيه بان يتعرف عن قرب بالقائد من خلال روايات والده .

بوسعنا القول، أن إدراجنا لشخصية موحى اوحمو الزياني، كنموذج لقائد من القواد الأقوياء الكبار. ليس الغاية منه تكرار النباش في سيرته الذاتية، ولا استجلاء ما خفي من أخباره. فقد اغنتنا المراجع والدراسات عن ذلك. بقدر ما سنتطرق الى سيرته بوصفه قائدا هب لنصرة المخزن في منطقة عرفت غيابا لجهازه حيننا من الدهر. وبقدرته على تحقيق مكاسب عسكرية، وإسداءه خدمات جليلة لفائدة المخزن، من خلال ما أفصحت عنه عديد الوثائق والمراسلات المخزنية، سنحت لنا الاطلاع على بعض نصوصها ومحتوياتها فرصة للوقوف على تحركاته ودوره الفعال في دعم المخزن على اخضاع المناطق الجبلية العصية وادماجها ضمن نظام الجباية وإنفاذ الاحكام المخزنية.

1- ظروف تولية موحى اوحمو الزياني :

لفهم أسباب اختيار وتولية موحى وحمو الزياني من طرف الحسن الاول، علينا بداية التطرق الى السياق التاريخي لهذه المرحلة.

فقد تمت بيعة السلطان بمدينة مراكش خلفا لوالده سيدي محمد في ظرف عرف فيه المغرب تحديات كبيرة، أهمها بلوغ حجم الضغوط الاجنبية الى مستويات جعلت قنصلها يتدخلون في شؤون البلد وباتت دولهم من موقف المتغلب، تفرض على المخزن ضرورة انخراطه في عمليات إصلاحية ليس بهدف انتشاله من زواجع الازمات، او انقاذه من مثالب تعديات وتهافت أنداده المتنافسين، بقدر ما كانت من أجل إضعافه وتسريع وتيرة انهيار منظومة حكمه وسيادته.

³³⁴ الجامعي خالد : موحى وحمو الزياني. مذكرات من التراث المغربي الجزء الخامس ص ص 128.. 133.
³³⁵ المنصوري احمد : مصدر سابق صص 126 و ما يليها..

دوافع سياسة الأجنبي الاوروبي سيكون لها بدون شك وقع على الواقع الاقتصادي والاجتماعي طفحت معالمها على مستوى العلاقات بين المخزن وتلك القوى. أما على المستوى المعيشي فقد باتت السوق المحلية غير قادرة على مواجهة منافسة غير متكافئة للمنتجات الأوربية. ورغم التداعيات السلبية التي خلفتها حرب تطوان وافراغ مالية الدولة من رصيدها من الذهب والفضة في اعقاب ما فرض على البلاد من اداء غرامة خسائر الحرب لفائدة الاسبان، فإن السلطان الحسن الاول ورث عن والده ميزانية محترمة حسب تقييم د. العروي، مكنته من تدبير شؤون البلد ومواجهة التحديات المفروضة. ومن أهم تلك التحديات ما اصبحت تفرضه الضرورة من استعادة هيبة الدولة التي كادت تنخرم بفعل الضغط الاجنبي، وما تقتضيه الظرفية من تدارك لاسترجاع المبادرة في إشاعة الامن وأسباب الاستقرار في ربوع المغرب واحتواء اثار الازمة التي كان من شأن تفاقمها أن يضاعف من أسباب تمردات القبائل. ولم يكن ذلك ليتحقق لولا ما تحلى به السلطان الجديد من حنكة وقوة الشكيمة، وقدرة فائقة على التنظيم وبإقباله على التجديد وسن عمليات إصلاحية مست المكون العسكري ودواليب الجهاز الاداري، واعتماده آليات اكثر فاعلية في التدبير والحضور المستمر في المجالات القبلية من خلال تجريد المحلات ذهابا وايابا بين العواصم التقليدية الثلاثة.

وتجدر الإشارة بهذا الخصوص أن الطريق السلطاني الشهير الذي يمر منه عبر تادلة كان أثيرا لديه. ونعثر بكتابات التآليف المصدرية أوصافا بهذا الخصوص، تشيد بشخصيته ويقرنونها بشخصية السلطان اسماعيل الى درجة انه كان يسلك في مسير محلاته نفس طريق الاخير، كما يحدث هو نفسه عن ذلك: « فإننا لما نهضنا بحول الله من حضرتنا مراكش بقصد تفقد أحوال الرعية العربية والبربرية اقتفينا طريق جدنا السلطان الجليل أبي الافلاك مولانا اسماعيل [...] فكان أول مسيرنا على بلاد آيت اعتاب وهم للقبائل الجبلية التادلية أول باب »³³⁶.

في هذه الأثناء بينما كان السلطان حاركا من مراكش الى فاس كانت القبائل الزيانية لا تزال تعيش حالة من الفوضى والتطاحن مع بعضها البعض. وطفقت بعض زعامات وحداتها القبلية تجوب الارض الزيانية تشعل بين افخاذه ووحدات قبائله حروبا ومعاركا لا تنتهي من اجل السيطرة وإخضاع المنافسين، غايتهم من ذلك تحقيق الاستفادة من المنافع الاقتصادية من رسوم عبور القوافل التجارية والسفارية وغيرها من مداخيل الرّطاطة³³⁷.

³³⁶ م.و.م.ر.ح : مقتطف من رسالة سلطانية مستقلة مسجلة تحت رقم 28661 بتاريخ 23 جمادى الاولى عام 1296
³³⁷ دفوكو شارل (م.س)ص 59

لم تكن هذه الأخبار والتحركات العنيفة التي تجري وسط هذه القبائل غائبة عن السلطان، وهو يدرك ان تمادي هذه القبائل فيما هي عليه من التسبب والفتان واستفادة زعاماتها من مكاسب مادية سيغريها بالتطاول على الجيران، وقد تمتد أيديهم الى قبائل الطاعة.

2 - موحى وحمو بمؤهلات قيادية ووظائف متعددة:

لم تسعفنا المصادر ولا الوثائق المخزنية في العثور على تاريخ تولية السلطان الحسن لموحى اوحمو على قبائل زيان ولا حتى عن تاريخ اللقاء الأول الذي جمع الزياني بالسلطان. وإذ لا يسعفنا اي الدليل في تخمين تاريخ اللقاء سواء أثناء مرور الحركة السلطانية المتحدث عنها أعلاه أم عقب عودتها من فاس، فان المؤكد هو أن المرابط سيدي بن دواد يعود اليه الفضل في تقديم الزياني للمثول بين يدي السلطان واهتبال الزياني الفرصة لتقديم التماس امام السلطان من اجل إعانته بقوة ضاربة تساعد على استعادة الاستقرار للمنطقة. وبحكم انحداره من أسرة معروفة بولائها للمخزن شهدت عليه وقعة زيان. ولديه امتداد عشائري وعائلي كبير. وله من النفوذ على رجاله وتمتعه بشبكة علاقات محلية، ما كان يسمح له بعقد تحالفات مع افخاذ وقبائل اخرى خاصة من الجانب المكيدي سيساعده على توسيع دائرة سيطرته على المجال، قراءة سريعة لسيرة الزياني في اهله وقبيلته جعلت السلطان يبادر الى منحه ظهيرا شريفا برسم توليته كقائد على قبائل زيان، مع إمداده بفرقة عسكرية لدعم تحركه وتثبيت مركزه كممثل محلي للمخزن بالمنطقة. ويحدثنا عبد الرحمان بن زيدان بهذا الشأن بقوله : " وكان إذ ذاك حمو والد محمد الزياني من أنصار السلطان الذين بالغوا في الدفاع عنه حتى مات عدد عديد من قبيله في نصره السلطان (المولى سليمان) وتخليصه فصادف من الجلالة الحسنية قبولا لرغبته، وأعد له جيشا عظيما وعسكرا جرارا، وزوده من الذخائر الحربية والعدة والعدد ما فيه مقتع، وإرغاما لأنوف أهل الزيغ الذين كانوا يقولون نحن أولوا قوة وأولوا بأس شديد، فمن أشد منا قوة".³³⁸

لقد كان موحى وحمو يقدر فعلا من جانبه، ان المفتاح الذي سيمكنه من فتح كل المغالِق التي تعسرت عليه لبلوغ زعامة زيان هو التحاقه بركب المخزن. فلم يكن يكفيه ما يتحلى به من مواصفات الزعامة والدهاء السياسي والحكمة العسكرية والاقدام والشجاعة، بل عليه اولا نيل الرضى السلطاني ومباركته ودعم مخزني، وذلك ما حضي به بالفعل. فكيف استطاع موحى وحمو الوفاء بحسن الظن عند السلطان وبقدرته على التفاني في خدمة وتمثيل المخزن على كافة منطقة زيان وأن ينال ثقة ويصبح من القواد الاقوياء المقربين من المخزن ؟

³³⁸ ابن زيدان عبد الرحمان : مصدر سابق. ج 5 ص 617

لمرافقة هذا القائد في رحلته وتحركاته من خلال ما تحصل بين يدينا من مستندات ومراسلات مخزنية، فقد اخترنا أن نقسم هذه الرحلة الى ثلاثة اتجاهات اومستويات : منها العسكري والأمني ثم الجبائي :

1.2 - المستوى العسكري:

إن أول ما يلفت الانتباه من خلال تتبع نصوص الوثائق، هو الدينامية العسكرية وسرعة تحرك هذا القائد في الميادين التي يجب ان يكون فيها. ولم تتأتى له هذه الدينامية الى بفضل القوة العسكرية التي وفرها له المخزن المركزي.

وتطالعنا تلك الوثائق والمستندات بنماذج مما تضمنته امدادات المركز من جيش وعسكر لدعم مكانة موحى وحمو بين القبائل، بالإضافة الى ما كان يتوصل به من مخصصات مالية كتعويضات لصرفها على الإدالة وطبجيتها³³⁹. ومن جملة هذه المستندات ما عثرنا عليه بأحد كنانيش الارشيف المخزني بالخرانة الملكية بالرباط مسجل تحت رقم 626 وعدد أوراقه 27 تتراوح مدة تواريخهم ما بين 1296هـ و1302هـ وهي مجموعة أوراق منفردة غير مرقمة أصابها الاهتراء والتقدم، وقد اعتمدنا على واحدة منها. وهي نفس الوثيقة التي كشف عنها كلا من المؤرخ الكبير عبد الرحمان بن زيدان³⁴⁰، وصاحب كباء العنبر الفقيه احمد المنصوري³⁴¹ في توضيح مكونات الإدالة المخزنية المتمركزة بخنيفرة سنة 1299. وتتضمن هذه الوثيقة بيانات إحصائية بعدد فرق القبائل الجيشية وبأسماء رؤسائها المعدودين ضمن القوة العسكرية المحسوبة على القبائل الجيشية التالية: المغافرة، والمنابهة، وحر بيل، وتكنة واولاد دليم، وذوبلال، وعبدية ومجاط وبتراسهم القايد مبارك الدوبلاي. أما الفرق المعدودة من جانب العسكر والطبجية فقد ترأسها قادة لهم خبرة ودراية في المجال الحربي وهم على التوالي : القايد المومني والقايد الزروالي والقايد بالفايدة بالإضافة الى فرقة الطبجية. كما تضمنت الوثيقة تقسيم مخصصات المونة موزعة على كلا الفيالقين عن شهر محرم 1299 هـ.

جدول 8 مختصر لتوضيح عدد أفراد الجيش والعسكر والمخصصات المالية التي يتلقونها من المركز عن مدة شهر واحد نموذجاً:

فيلق :	عدد فرقه	عدد افراده	المبلغ	بالريال
الجيش	13	1455	43665	545
العسكر والطبجية	4	2760	82800	1035
المجموع	17	4215	126465	1580

³³⁹ الطبجية لفظ تركي عثماني، شاع تداوله في الخطاب المخزني، و يطلق على مجموع المهندسين والتقنيين الساهرين على استعمال المدافع في اوقات الحرب وصيانتها في اوقات السلم و لديهم خبرة و تقنيات في مباشرة مهامهم .

³⁴⁰ ابن زيدان عبد الرحمان : مصدر سابق جزء 5 ص 619

³⁴¹ احمد المنصوري : مصدر سابق ص ص 136-137

*ملحوظة: للحصول على المبلغ بالريال تم اقتسام المبلغ على عدد 80 للوحدة النقدية

وإذا كانت فيالق إدالة مركز خنيفرة قد أكسبت القائد المذكور من قوة، ومهدت له من أسباب السيطرة والزعامة على قبائل الزيان، ما مكنه لأن يصبح نموذجاً للقائد القوي الذي بمستطاعه تدبير شؤون السكان ونيابته عن المركز في تحقيق مشروعه الأمني بمنطقة عرفت لأمد طويل شغورا في سلطة الدولة، فإن المخزن خصص ميزانية معتبرة لتمويل الإدالة وصرف مرتبات لجندھا تصلهم إما على رأس كل شهر أو شهرين ونصف، أوستة أشهر³⁴². ما يظهر بما لا يدع مجالاً للشك ان السلطان قد سعى الى تمهيد المنطقة وإخراجها من عزلتها وإعادة إدماجها ضمن إرادة الدولة ومؤسسة حضورها الدائم. لكن كيف كانت الأموال والمخصصات تصل الى موحى وحمو؟.

2. 1.1 - تأمين وصول مؤن ومرتبات الجند:

تسمى اموال الصائر التي كان يبعث بها المركز الى جند إدالة خنيفرة وغيرها من الفيالق المنبثة بمراكزها بالجبل في الوثائق المخزنية بالمونة، وهي بمثابة تعويضات عن الإقامة خارج الحاضرة السلطانية. وكانت تلك الاموال لا تصرف الى وجهتها الا بعد التأشير عليها من طرف أمناء الصائر بالبنيقة المراكشية بعد صدور الأمر السلطاني بذلك³⁴³. وكان على القائد أن يبلغ بين الفينة والأخرى بنفاذ أموال المونة السابقة حتى يتمكن من التوصل بالجديد منها. وقد يحدث أحيانا ان يلحق السهو بالأمناء فلا تصله المونة الا بعد تذكيره بذلك، كما حصل من تأخير لفرقة عسكرية مرابطة باشقيرن، دفع بقائدها الى بعث رسالة الى المركز جاء فيها: « بأن العسكر الذي عنده بقي للضياع من قلة المونة مدة من ثلاثة أشهر ويطلب الإنعام عليه بها»³⁴⁴. وفي نص رسالة أخرى: « احم الزيني بأن مونة العسكر التي عندهم كملت ب 3 أيام، ويطلب الانعام بمؤونة 6 أشهر أخرى على العادة»³⁴⁵

واعتبارا للعلاقة الوطيدة التي كانت تجمع بين محمد بن حمو الزياني بالمرابط سيدي بن داود، فان هذا الاخير وبتكليف من السلطان كان يمثل الوساطة المؤتمنة في إيصال المبالغ المالية إليه مع ما يواكب ذلك من رسائل مخزنية لمتابعة هذه المهمة. ففي رسالة سلطانية الى المرابط:

³⁴² خ. م. ر. : نسخة من وثيقة بكناش غير مرقم تتضمن مخصصات الجند عن مدة 84 يوم تبدأ من 15 جمادى الاولى وتنتهي

في 10 من شعبان عام 1302

³⁴³ خ. م. ر. : كناش رقم 353 ص 210

³⁴⁴ خ. م. ر. : كناش رقم 172 ص 167. تضمنت ردا سلطانيا كالاتي: "قال مولانا: وهل لم توجه له نعلم فورا ج."

³⁴⁵ خ.م.ر. : كناش 172 ص 78 بتاريخ 16 حجة 1307هـ

« سيدي بن داود فيوافيك على يد الخديم ابن الموزن السرغيني سبعة آلاف ريال وثلاثمائة وثلاثون ريالا وزيادة ثلاثين أوقية ونصف أوقية، لتوجهها لخديمتنا محمد أحم الزياني مع من فيهم الكفاية على العادة»³⁴⁶ ثم تلتها رسالة أخرى الى الزياني يعلمه بإرسال نفس المبلغ « على يد سيدي بنداود، وذلك عن مونة ستة أشهر أولها منتصف جمادى مواليا لتاريخه وآخرها منتصف شوال الآتي بعده»³⁴⁷.

كما كان على الزياني الإبلاغ بوصول القدر المعلوم بالتمام والكمال³⁴⁸. وفي حالة عدم موافقة المبلغ المتعين إرساله مع ما توصل به لسبب يرتبط بعمل أمين الصائر فإنه لا يتوانى بإنهاء الخبر الى المركز بذلك. فقد جاء في مختصر رسالته ما يلي: « بأن مبلغ 7319 ريال الموجه لمونة العسكر السعيد لم يصله منه إلا 5947 ريالا، قال مولانا : الأمين، ونعلم. ولا بد ثم ج»³⁴⁹. ونستشف من موقف السلطان حين بلغه تأخير المونة أو حصول نقص أو خصاص فيها، اهتمامه بضرورة ضمان توصل فيالق الجيش والعسكر بأموال مونتهم وذلك بهدف القيام بمهمتهم في ظروف مواتية نظرا لصعوبة المهام التي تباشرها الإدالة في تلك الجبال الباردة القصية.

ومن جملة ما نستشفه من تزايد رعاية السلطان لإدالة خنيفة، حرصه على تزويد أفرادها ليس فقط بالمال والسلاح³⁵⁰، بل كان يهتم أيضا بهندام الجند العسكري. فكان يأمر بإرسال "الكساوي" على مراحل ودفعات بغاية إضفاء الطابع الرسمي على الهيئة العسكرية وأهبتهم لتنفيذ الاوامر بالهندام اللائق، ما يرفع من معنوياتهم أمام القبائل. وقد أبلغ بذلك في رسالته الى الزياني جاء فيها « وبعد، فيصلك على يد محبنا المرابط البركة سيدي بنداود سبعمائة كسوة عسكرية فيها ستمائة كسوة وعشرون كسوة لمطلق العسكر وعشرون كسوة بسر اويل الملف لقواد الميين وستون كسوة للمقدمين. فنأمرك تحضرهم كافة وتسردهم* وتدفع لكل كسوته في يده بمحضر قائد والامين واجعل الجميع في عهدة قوادهم يتحفظوا عليها ويردوا البال اليها»³⁵¹

³⁴⁶ م. و. م. ر. ح كناش : رقم 2 .00 B 1 . ص 27 عن سنة 1301

³⁴⁷ م. و. م. ر. ح كناش : رقم 2 .00 B 1 . ص 44 عن سنة 1301

³⁴⁸ خ. م. ر. : كناش رقم 172 ص 107

³⁴⁹ خ. م. ر. : كناش رقم 172 ص 167 . و ترد كثيرا بعض الحروف في ختام نص الرسالة الوافدة على المركز من قبيل ص و تعني صار بالبال و ج و تعني نريد الجواب . وقد فصل ذلك ابن زيدان في كتابه الصولة .

³⁵⁰ كان موحي وحمو يطلب باستمرار و حسب الوثائق المخزنية مده بالمزيد من الخرطوس والمكايل كلما اراد التوجه لخوض معاركه مع اشقيرن وايت سخمان ، ما يفهم منه ان المخزن عند تدبيره لمسألة امداد قواده بالسلاح بالمناطق الطرفية و لاسباب امنية و احترازية كان حريصا على ان لا يمدهم بها الا بمقدار و لا تزيد كمياتها عن الحاجة .

* عملية تسراد الجيش في الخطاب العسكري المخزني، يعني القيام باستعراض للوحدات العسكرية على الضابط العسكري المعروف

³⁵¹ خ. م. ر. : كناش 353 ص 210 مختصر رسالة ملكية بتاريخ 14 رمضان سنة 1300 هـ

وسيرا على نمط النظام العسكري الحديث أمر السلطان بمنح عطل للجند ورؤسائهم الذي طال غيابهم عن ذويهم وأهليهم، فقد وجه بهذا الخصوص رسالة الى موحى وحم يقول فيها: « نأمرك ان توجه لحضرتنا العالية بالله القائد امبارك بن علي الدوبلاي ومن معه من المخازنية بقصد إبدالهم بغيرهم من العسكر لصلاحيته في ذلك المحل لا بقصد خلو المحل منهم وعدم ردهم»

352

إن سعيانا من خلال طرح نماذج من نصوص هذه الرسائل، هو الوقوف على تصور عام عن العناية التي خص بها السلطان والمخزن المركزي لشؤون الادالة المرابطة بزيان وتدبير شؤونها تحت رعاية القائد الزياني. والجدير بالذكر أن الادالة كانت تزود مراكز اخرى بأعداد من جندها بايت اسحاق زيادة على تمركز إدالة أخرى أقل حجما وعددا تحت راسة القائد موحى اوسعيد اليرايوي الذي ابلى البلاء الحسن في معاركه ضد آيت سخمان. وكان على الزياني مراقبتها ومعاينة احوالها باستمرار. وإذا ما ظهر من أحد أفرادها او قوادها ما يخالف صرامة النظام العسكري أو الإخلال بقواعده المهنية، فانه لا يخفي ذلك على المركز ليتخذ في حقه ما يلزم. فقد ورد في مختصر رسالة بشأن أحد الأغوات* المخالفين ما يلي: « يخبر محمد احم الزياني ومن معه من قواد ايت اسحاق في شأن الأغا القائد محمد السحيمي الدكالي النازل بالزاوية الاسحاقية، سعى فيها بالغي والفساد، واضر بأعيان القبيلة ما شرحوه من عدم حسن سيرته وهاده مدة وهم يلاطفونه، والآن يأملون من مولانا ابداله»³⁵³. كما راسل بهذا الصدد قائد آيت اسحاق ومن معه من قواد العسكر الذين معه: «بتشكيهم من الآغا بوعزة بن المكي المزابي»³⁵⁴.

فكان "توقيع السلطان بإبداله".

وإذ حاولنا، إعطاء لمحة موجزة عن هذه الإدالة من حيث فرقها وقوادها ونظام تمويلها وعناية المخزن بهندام جنودها العسكري ومراقبة قوادها وتدبير شؤونها عامة، فإن غايتنا من ذلك تأكيد فرضية ان المخزن كان حريصا على إيلائه لمدى أهمية حضوره بالمنطقة على المستوى الاداري. أولا، تدعمه إدالة عسكرية باعتبارها عنصر تحفيز لتحقيق الغايات المؤملة من هذا الحضور من خلال بسط سيطرته على كافة المجال الجبلي العصي، واخضاع قبائله وإنفاذ أحكامه وجباية وتحصيل كافة أنواع الضرائب والكلف. وثانيا، ربط الدولة لتحقيق هذا المسعى بالظرافية

³⁵² خ . م . ر . : كناش 353 ص 199 مختصر رسالة ملكية بتاريخ 13 رمضان سنة 1300 هـ * الأغا ، لفظ عسكري مخزني مقتبس من أسماء مراتب الجيش العثماني ، و هو رتبة عسكرية رفيعة بالجيش المخزني..

³⁵³ خ . م . ر . : كناش 172 ص 113 بتاريخ 12 محرم سنة 1308 هـ

³⁵⁴ خ . م . ر . : كناش 154 ص 145 بتاريخ 20 رمضان عام 1306 هـ

التاريخية والاقتصادية المتأزمة التي بات يمر منها المغرب في ظل نذر تهديدات أجنبية وتهافت قوى أجنبية بإقدامها على إنهاكه اقتصاديا بمزاحمة أسواقه التقليدية بمنتجات اوروبية لم تستطع الصمود امام منافستها فضلا عما عانتها القيمة النقدية من تراجع وانخفاض مضطرد: " فتعطل المعاش ولحق الناس ضرر كبير"³⁵⁵ وإضعافه سياسيا بالتدخل في شؤونه الداخلية، تمهيدا لتحقيق مخططاتها البادية في الافق فأصبحت الاسعار وقيمة النقد في ارتباط متزايد بالنظام الرأسمالي الدخيل "وأن السكة والاسعار لا تزال في الزيادة ما دامت المخالطة مع الفرنج تكثر بكثرتها وتقل بقلتها"³⁵⁶.

أمام هذه الوضعية فإن قبائل الجبل التادلي بات يتعين عليها هي الأخرى تحمل أوزار الأزمة على غرار قبائل الطاعة بالمغرب وبضرورة مساهمتها في إنعاش بيت المال بمداخل ومقدرات انتاجها من المواشي والحبوب والأصواف وبالتالي لم يعد هناك من موجب لبقاء هؤلاء السكان خارج دائرة الحكم المخزني³⁵⁷. بل يمكن اعتبار أن تولية الزياني على قبائل زيان ربما أتت ضمن رؤية شاملة للمخزن لتحقيق ما تشوفه. ولن يتأت له ذلك إلا بحضور فيالق عسكرية مدربة لديها حنكة في مواجهة قبائل طالما خبرت معارك الجبل وعلى دراية بتضاريسه وتفاصيل جغرافيته.

2. 1. 2 - مساهمته في حركة بني مكيك وآيت سخمان :

لن نفصل القول والحديث عن الصعوبات الجمة التي كانت تلاقيها جيوش السلاطين طيلة القرن الثامن عشر وبداية التاسع عشر عند محاولاتهم إخضاع قبائل جبل فازان منها زيان وآيت سخمان. فقد تناولت ذلك كفاية المصادر التقليدية بما فيها البستان الطريف والجيش العرمرم والحل البهية والاتحاف والاستقصاء وغيرها ما يغنينا عن التطرق لوقائعها. أما التقارير العسكرية اليومية التي كانت ترسل تباعا من مواقع المعارك بالجبل بداية الاحتلال الفرنسي قبل الإعلان عن التهدة مستهل الثلاثينيات بالإضافة الى الدراسات المعاصرة، أكدت جميعها أن قوات الاحتلال واجهت عند محاولتها اختراق الاطلس صعوبات جمة رغم ما تتوفر عليه من معدات عسكرية غير متكافئة وقوة جوية ضاربة ودعم لوجيستي غير محدود³⁵⁸.

³⁵⁵ الناصري خالد مصدر سابق ج 9 ص 163

³⁵⁶ الناصري خالد : (م.س) ج 9 ، نفس الصفحة

³⁵⁷ الواقع ان هؤلاء السكان لم تكن لديهم دراية بحجم مصاريف الدولة على الجيش ومرتباتهم وشراء الاسلحة وتجهز البنيات

العمرانية ومصاريف الحركات والمعطيات والهدايا وبكل ما يمت لشؤون تصريف امور الدولة بصلة

³⁵⁸ كيوم ليون أوغسطين : مرجع سابق ، و قد تحدث فيه الجنرال عن معارك طاحنة بين السكان و قوات الاحتلال بكافة الاطلس المتوسط و ما اليه من المناطق الاخرى .

وتعود هذه الصعوبات بالأساس الى تعقد البنية التضاريسية للمنطقة ساهم في اكتساب السكان قدرة فائقة على استغلال هذه المعطى وأخذهم في الاعتبار بأن أية مواجهة مع الدخيل لا يمكن كسبها الا بالتحكم الجيد في المواقع والممرات والمرتفعات المناسبة.

ونطالع في المصادر التاريخية، ان تجريد المولى الحسن لمحلة سلطانية لتمهيد قبائل بني مكيلد ومحاولة لم تكتمل فصولها لإخضاع آيت سخمان سنة 1305 هـ كان حدثا بارزا ومختلفا في تاريخ الحركات السلطانية منذ عهد المولى اسماعيل " فمنذ هجم عليهم في بلادهم ابتداء بإيصاله لهم جميع مكائدهم، فمهما عزموا على ان يكيّدوا بالاجتماع في أحسن واوعر بلادهم، وجدوه سبقهم بنفسه في ذلك المحل الصعب لإفساد صنيعهم ومرادهم فلن ينفعهم الا غاية الاذعان والقاء السلاح والتطارح" ³⁵⁹.

ورغم المتاعب والمصاعب الجمة التي لقيها الجيش السلطاني المعزز ايضا "بألف فارس من إخوان موحى وحمو الزياني" ³⁶⁰ أمام مواجهات عنيفة ابدتها القبائل المكيديّة فإن الجيش الحسني تمكن من هزمهم والإستيلاء على أموالهم وخيلهم وأسلحتهم بملوية وفرار المهزومين إلى صياصي الجبال. وبصرف النظر عن كل تفاصيل عملية "فتح" ³⁶¹ بني مكيلد، فقد اسهب المؤرخون في ذكر مكاسبها وانكسار القبائل المكيديّة التي اتبعت في مقاومة جيش الحركة طرقها التقليدية في الكر والفر، وتنكيله بمن تم قبضهم ممن شارك في قتل المولى سرور غيلة داخل التراب السخماني والمتضامنين معهم من ايت يعقوب وعيسى واشقرن، وإقامة السلطان في طريق عودته الى مكناس سنة عيد الاضحى بدار موحى احم الزياني بإدخسان، فإن هذه الحركة التي ساهم فيها أيضا الاخير بجند إدالته لم تكن الا توطئة لمشروع حسني توخى منه إخضاع كل قبائل الجبل من خلال اعتزامه تجريد حركة أخرى سنة 1307 هـ، تستهدف هذه المرة بالتحديد قبيلة آيت سخمان، ليس فقط لاستعادة هيبة المخزن ومعاقبة قاتلي ابن عم السلطان الذي خلفت حادثه اغتياله في نفسه أسا عميقا، بل تدخل أيضا في سياق إتمام ذلك المشروع. مع الاشارة ان السلطان لم تكن في نيته ابدأ لتحقيق هذه الغاية استعمال العنف اوتحريك الالة العسكرية للبطش بالقبائل "ولم يكن لنا غرض في قتالهم [...] لولا ابتدائهم به" ³⁶².

³⁵⁹ السباعي بن ابراهيم : (مخ.س) ورقة 333

³⁶⁰ زيدان بن عبد الرحمان (س) ج 02 ص 293

³⁶¹ لفظة "فتح" جاءت على لسان السلطان في رسالة الى خليفته اسماعيل بمكناس لإعلامه بإخضاع بني مكيلد (الاتحاف ج 02 ص

(298

³⁶² زيدان بن عبد الرحمان (م.س) ج 2 ص 298 : من رسالة السلطان الى خليفته اسماعيل بفاس .

ومهما يكن فإن تحركات القائد الزياني سيكون لها دورا كبيرا في إعادة تحريك دور المخزن بالمنطقة واصبحت الظهائر السلطانية تصدر تباعا لتولية قواد جدد على افخاذها. وفي إجبار القبائل السخمانية على تغيير موقفها الراض لاي تدخل مخزني في ترابها وهوما سنبحث فيه بتفصيل في فصل لاحق.

3. المستوى الأمني:

بات من المؤكد ان فرض القايد موحى وحمو الزياني سلطته وكلمته على كل قبائل زيان واقسام من اشقرين محسوما، بل امتدت يده الى تخوم آيت حديدو شرقا، وايت هودي وام البخت غربا. في رسالة بعث بها الزياني الى المركز اكد فيها على دعوته لقبائل ايت حديدو لانخراطها في الخدمة المخزنية وأنه قام « بتوجيه 8 كساوي لأعيان آيت حديدو[...] وبأنه كان كتب لهم على الصلاح وضرب ظالمي أنفسهم ». وقد وقع السلطان في رده على ما اورده القائد بالقول: « فليزد ويؤكد »³⁶³.

أما في علاقته مع قبائل بني مكيلد فإنه كان يتوجس من سوء عواقب سلوك القائد محمد اليوسي المتماذي وبات يخشى من قلبهم ظهر المجن، ويشكلوا تحالفا فيما بين فرقاتها ضد المخزن. فانبرى الى سلك طريق دبلوماسي بتأليف قلوبهم بعقد الأخوة بينهم حتى يبقي الخاصرة الشرقية الهشة في مأمن من غائلة أي تهديد محتمل. ثم بعث برسالة الى المركز يخبر بما حصل جاء فيها: « بأن سبب الخلاف الواقع بين بني مجيلد هو ولد الطالب محمد اليوسي. ولما عاين ذلك أمن بني مجيلد وعقد الأخوة معهم ليتوصل لقضاء غرض سيدنا، فكانوا عوننا له على فساد آيت يعقوب او عيسى»³⁶⁴. بعدها طفق القائد يجوب المجال الزياني بتنسيق محكم مع قادة إدالة مركز خنيفرة، ويدخل في مناوشات عسكرية بينه وبين القبائل العصية منذ حادثة اغتيال ابن عم السلطان، مستغلا تبعاتها لتبرير توسيع نفوذه المجالي.

فباعتماده على طوابير إدالة جيدة التسليح، سريعة التحرك منضبطة لأوامر قادتها، في سابقة لم تعهدها قبائل صنهاجة منذ عهد المولى اسماعيل، وأصبح يحسب لها ألف حساب. فلم تفتقر شهوة القائد في استزادته من السلاح ولوازمه مكررا لطلباته للمركز بإمداده منه فقد « طلب إعانتته

³⁶³ خ. م. ر : كناش 172 ص 112 بتاريخ 14 محرم 1308 هـ

³⁶⁴ خ. م. ر : كناش 172 ص 24 بتاريخ 03 ذو القعدة 1307 هـ

بشيء من القرطوس لنفاذ ما كان عنده في حركة آيت يعقوب او عيسى وآيت احمد وكذا الإنعام عليه بما تيسر من القرطوس للمكاحل الخمسة عشر التي كان أنعم بها عليه مولانا»³⁶⁵.

وقد حاول التضييق أكثر على قبائل آيت سخمان وحصر تهديدهم المستمر لقبائل آيت الربع الجيشية، وإشاعة الاستقرار الأمني بمنطقة الدير شمالا، وضمان المرور القوافلي والسفاري بالمنطقة، وحث زعاماتها بالوقوف على الخدمة وتنفيذ المطالب المخزنية. ويؤكد في هذا الصدد ما جاء في خطاب رسالة تقدم بها قواد آيت هودي الى السلطان عن إذعانهم لسلطة الزياني والتماسهم منه التوسط لهم لدى المركز لإقرارهم على ولاية قبيلتهم ونجاحه في ذلك جاء فيها: «
ننهي لكريم علم مولانا، أن قبيلتنا آيت أم البخت، كنا بين قبيلة آيت اومالو وآيت اسري، وكنا في السبية كعادة البربر قبل. وحين سعدنا سيدنا بالقائد محمد بن حم الزياني بالولاية وكان جعلنا من جملة أعدائه. وكنا نطلب منه العفو، ولا يقبل منا الا الدخول في الخدمة الشريفة، وبعد ذلك إنحزنا عليه وطلبنا الولاية على يده، فساعده مولانا لذلك، وشرط علينا القائد محمد بن حم الخدمة والوقوف على أمور المخزنية»³⁶⁶.

ونتيجة لتمكن الزياني من سيطرته على مناطق نفوذه وإخضاع قبائلها للأحكام المخزنية³⁶⁷ أصبحت قوته العسكرية ونفاذ كلمته تطال حتى المناطق الواطئة³⁶⁸. ومن أجل استمالة القبائل الجياشة لآيت الربع الى جانبه لإحكام الطوق أكثر على قبائل الجبل، تمكن من المؤاخاة³⁶⁹ معها حسب الأعراف المتبعة لتحقيق تعاون أمني وشد عضد بعضهم البعض. وقد جاء في رسالته الى السلطان تم اختصارها حسب طريقة كتاب الكنانيش كما يلي: « وآيت الربع الذين تواخى

³⁶⁵ خ. م. ر. : كناش 172 ص 24 بتاريخ 03 ذو القعدة 1307 هـ

³⁶⁶ م . و . م . ر . ح : رسالة مستقلة مسجلة تحت رقم 23979 بعث بها قواد ايت هودي وام البخت : بوعزة الهودي وباسو بن الحاج هودي ومحمد بومزوغ هودي بتاريخ 03 ذو الحجة عام 1309

³⁶⁷ خ . م . ر . : كناش 172 ص 113 .

³⁶⁸ يذكر لويس أرنو في كتابه زمن المحلات السلطانية على لسان مخبره الحاج سالم العبدى ص 57 ، ان موحي وحمو بإمكانه ان يصف في السهل 18000 فارس مسلح ومستعد للحرب. ولا ندري كيف توافق هذا العدد مع مذكره شارل دفوكو في كتابه التعرف على المغرب ص 64 عند مروره بزيان بقوله : اذا تجمعت هذه القبائل الأربعة : بني حسوسن وايت حركات واحبارن وآيت سيدي علي ابراهيم قد يكون في إمكانهم تجهيز 18000 فارس . فهل كان أرنو يعزز شهادة مخبره مع ما يوافق المعطيات التي ذكرها دو فوكو لا سيتبعد اطلاعه عليها ؟

³⁶⁹ طقس التأخي فيما بين الافراد و الجماعة الواحدة، او بين الجماعات فيما بينها ، او فيما بين القبائل ، هو من العادات الشائعة . وغالبا ما تتم المعاهدة بينهم بطريقة "تاضا" المعروفة أو بتبادل الشيوخ السلاحيم فيما بينهم كفعل رمزي على المؤاخاة و النود عن بعضهم البعض و تكون شروط التاضا ملزمة للجميع . ويشيع استعمال هذه العادة كثيرا في الوسط القبلي الناطق أهله باللغة الامازيغية

معهم على الخدمة الشريفة وعلى التعاون على آيت هودي وإمهواش وآيت يعقوب اوعيسى وآيت سخمان فاطمأن لذلك وذهب خوفه»³⁷⁰.

المطلب الثاني، تعيين موحى اوسعيد اليراي :

كان لتولية موحى اوحمو كما سبقت الاشارة، تأثيرا ملموسا في التحول الأمني الذي طال المنطقة الجبلية، وساهم نشاطه العسكري وحضوره الأمني في شيوع تقبل الوسط القبلي وذهنية السكان على حضور رموز مخزنية بين ظهرانيهم إما عبر جند الادالة او عبر ممثلون له جدد. وقد حدا هذا الرهان بالمخزن الى تولية قائد آخر جديد لا يقل أهمية عن الاول وهو موحى اوسعيد اليراي.

لم تسعفنا تحريات البحث في وثائق الارشيف المخزني في العثور على ظهير تولية موحى اوسعيد، إلا انه من خلال تواتر المراسلات فيما بينه وبين المركز يُرجح التخمين أنه كان في السنة الاخيرة من تسعينيات القرن الثالث عشر الهجري. زاول نشاطه القايدوي بقبيلته آيت سري، وفي السنة الموالية تم توسيع دائرة نفوذه لتشمل فخذات آيت عبد اللولي وآيت حبيبي من تاكزيرت³⁷¹. ثم بعد ذلك على كافة قبائل آيت سري وجزء من المجال التقليدي لايت سخمان الواقع بناحية الشرق من آيت الربع. ولم تكد تحل سنة 1308 هـ حتى عمت التوليات أقساما أخرى من الجبل والدير، ما يفسر نجاح المخزن في اختراق المنظومة القبلية التقليدية بالمنطقة. اظهر موحى اوسعيد مهارة كبيرة في القتال ضد متمردي آيت سخمان. فرغم الصعوبات التي واجهت الحملة العسكرية التي جردها السلطان ضد القبيلة سنة 1307 هـ فإنه تمكن في السنة الموالية من إلحاق هزيمة بآيت داوود اوعلي وتمكن من ضم غريمتها آيت سعيد اوعلي ضمن اتحادية آيت سري. وظل منافحا عن موقف المخزن إزاء متمردي الجبل. ففي مختصر رسالة وردت بكناش رقم 468 بعث بها الى المخزن المركزي : « اسعيد اليرايو يتتبعهم آثار ايت سخمان من أسول وايت سري حتى انقطع أثرهم منها ولم يبق لهم ظهور فيها»³⁷². وعلى غرار القائد موحى اوحمو الزياتي فإنه كان يتتبع خطوات المرابط امهواش ويترصده اينما حل وارتحل للإبلاغ به. فقد ذكر في رسالة الى المركز:

³⁷⁰ بلغ عدد رؤوس المواشي حسب نفس الرسالة اربعة عشر الف كانت ترعى بالسهل التادلي وحده. و تظهر في نفس الوقت جانباً من الثراء و الغنى الذي تقلب فيه الزياتي.

³⁷¹ خ. م. ر. : كناش 353 ص 209. مختصر رسالة تعيين سلطانية الى آيت حبيبي بتاريخ 19 رمضان عام 1300 هـ.

³⁷² خ. م. ر. : كناش 468 ص 345. مختصر رسالة بتاريخ 3 جمادى الثانية عام 1309 هـ.

«ان المهاوشي لما بلغه قدومهم بالعسكر فر للصحراء للدرقاوي فبقى إثنان من إخوانه بدارهم ولما وجه لهما بعض العسكر بقصد القبض عليهما بلغهما ذلك وفرا»³⁷³.

جدول وقوائم بأسماء القواد الذين تم تعيينهم من طرف السلطان الحسن الأول على المناطق الجبلية والديرية

آيت سخمان :

المصدر	اسم القائد المولى عليها	الفخذ او القبيلة
كناش الخزانة الملكية بالرباط رقم 151 بدون ترقيم	حم امبارك	آيت عبدي
	حدا اعلي	آيت ويدير
	محمد أباسو	آيت حمي
	حم الباز	آيت عيسى
	محمد اوبناصر	لآيت عمرو إيشو
	محمد ولد الهيني	آيت إيشو- يحرير- اشركت - تسداد - طيط ابلال - تعدلونت
	محمد ولد عايشة او علي	على النصف الآخر من آيت سخمان

آيت امحمد :

كناش الخزانة الملكية بالرباط رقم 151 بدون ترقيم	مح وضيح المحمدي	آيت محمد
	مح وزايد المحمدي	

آيت سري :

المصدر	اسم القائد	القبيلة
كناش الخزانة الملكية بالرباط رقم 151 بدون ترقيم	محمد بن هم	آيت سري
	محمد بن حم ولد رح اكامل خلفا لزايد كامل اليسراوي المتوفى في وقعة لآيت سخمان	
	يخلف بن مزوز	
	احساين بن وسعة	
	الحسين اليراي	آيت ويرا
	محمد بن هم	
	مح اوسعيد اليراي	

³⁷³ خ. م. ر. : كناش 468 ص 339 مختصر رسالة بتاريخ 3 جمادى الثانية عام 1309 هـ

	والزين اليرايوي	
	يخلف بن مزوز	آيت سعيد
	بلعيد بن حسين السعيدي	
	حسين بن وسعة العبدلوي	آيت عبد اللوي
	مح بن رحوبن كامل العبدلوي	

المطلب الثالث، تطور المداخل الجبائية بالجبيل الزياني:

سبقت الإشارة الى أن القبائل الزيانية وجوارها من القبائل كآيت هودي وآيت سري وإشقين ظلت منذ عقود في منأى عن الإلزامات الضريبية والكلف، ولم تطلها أحكام المخزن. لكن خلال العقدين الأخيرين من القرن التاسع عشر وبعد تولية الزياني وابن سعيد اليرايوي على المنطقة وظهر صلاح خدمتهما مثل ذلك عنصرا مهما عمل على تغيير مستويات ومؤشرات مداخل الجبائية بالمنطقة. فبعد نجاح خطة المخزن في تثبيت حضوره بالمجال الزياني والديري، ورغم مناقشات متفرقة لا تقتر مع اتباع أمهاوش، فإن المخزن المركزي وتعزيزا لجهودهما، قام بتعيين قواد آخرين على إشقين وآيت سري وآيت هودي وحتى بآيت سخمان. وأصبحت الموارد الجبائية تعرف بالتدريج طريقها الى خزينة الدولة.

فقبيلة زيان على سبيل المثال وحسب إفادة الرحالة الفرنسي دوفوكو فإن أرضها "تغذي قطعانا وافرة الأعداد من الماعز والأغنام والإبل والخيول وخاصة قطعان الثيران ذات القامة اللافتة للنظر"³⁷⁴.

وإذا كان من باب المجازفة، حصر حجم معين لا نتأكد من مصدره، يمكن الاستدلال به على مقادير المداخل الجبائية التي باشر الزياني تحصيلها سنويا منذ أن تولى منصبه الى حدود نهاية القرن، فإنه يحق لنا الحديث واعتمادا على نصوص وثائقية عن المقدار التقريبي للجبائية السنوية، وبالتالي يمكن الركون اليه، واتخاذ مؤشرا يفيدنا في تقدير حجم تلك المداخل. ذلك ما يمدنا به مختصر من نص رسالة لخصها على العادة كتاب البنيقة بصيغة الضمير الغائب، بعث بها الزياني الى السلطان تتضمن مقدار ما استوفى من قبيلته: « بتوجيه صحبة أخيه والشبوكي 500 عروضاً (بقرا) و3000 من الغنم إذ استوفاه منهم وفق الامتثال»³⁷⁵.

³⁷⁴ دوفوكو شارل : (م.س) ص 64

³⁷⁵ خ . م . ر . : كناش 172 ص 24 بتاريخ 03 ذو القعدة 1307

وإذا ما استطعنا تقييم حجم الواجب المعين للزياني وتحويله نقداً، مع احتساب سومة رأس البقر عن تلك الفترة المقدر في 10 ريال، ورأس الغنم في 02 ريال. فإن مجموع ما أجباه الزياني خلال سنة بلغ 11.000 ريال. وهو قدر مالي يتجاوز بكثير مما هو معين لقبائل آيت سري أوبني عمير أوبني موسى. وإذا ما رمنا على سبيل المثال مقارنة حجم الواجب المفروض على آيت سري مع ما يجبيه الزياني، فإن رسالة بعث بها السلطان الى عمال قبيلة آيت سري ستكون خلاصتها جواباً مميزاً لفعل المقارنة: « قبيلة آيت سري كافة، أخص منهم عمالهم وأعيانهم وفقم الله وبعده، فنأمركم أن تدفعوا الواجب عليكم المعهود الذي تعودتموه من دفع رؤوس البقر كل سنة وعددها 500 رأس، ودفعها يعود عليكم بالخير والبركة»³⁷⁶.

والواجب المعين هنا على قبيلة آيت سري حسب ذات الوثيقة يمثل مقداره نسبة عشر الإنتاج السنوي من زكاة البقر، الذي يعبر عنه المقدار المزكى 5000 رأس على كل القبيلة وعشره يعادل 500 رأس. أي ما نسبته 5000 ريال. وقد استجابت قبائل آيت سري لدعوة السلطان بالوفاء فيما يلزمها من أداء واجب الاعشار السنوي وهو تجاوب يفسره التحاقها بركب قبائل الطاعة.

وتنويها بصلاح القبيلة على تجاوبها في خدمة المخزن وجه السلطان رسالة إلى قواد القبيلة جاء فيها: « عمال آيت سري كافة فقد أمرنا خديماً القايدين محيمين الدليمي* بأن يجريكم مجرى قبائل الطاعة وأهل الجد والنصيحة في خدمتنا الشريفة أن يعاملكم بما تعاملونه به وأن يراعيكم ويرفع عنكم يد العدا لكونكم انخرطتم في سلك الجماعة وأديتم ما عليكم من الواجب قدر الاستطاعة»³⁷⁷. كما كان بإمكان قواد آخرين عرف عنهم تحالف عسكري وسياسي مع موحى الزياني، ان يبعثوا بواجب الاعشار: مثل: ابن عمر اليوسفي الزياني عما وجه من واجب الزكاة الخارج فيه 286 رأس، بأنه كان وجه 350 رؤوسا والذي وجد خاصاً بها ضاع في الطريق بالموتى والسرقة³⁷⁸.

ان إدراج هذه النماذج عن مقدار الواجب المعين على قبائل زيان وآيت سري إنما رمنا بذلك اعطاء تصور عام عن مدى ما أصبحت تستفيد منه الدولة من مداخيل سنوية لفائدة بيت المال

³⁷⁶ خ. م. ر. : كناش 353 ص 58 ملخص رسالة سلطانية الى عمال قبيلة آيت سري بتاريخ 4 شعبان 1300 هـ * القايدين محيمين الدليمي من خدام المخزن المميزين بالمنطقة تمت توليته من خارج القبيلة في هذه الفترة على قبائل آيت سري قبل ان يحل مكانه موحى وسعيد اليراي .

³⁷⁷ خ. م. ر. : كناش 353 ص 141 مختصر رسالة سلطانية الى عمال قبيلة آيت سري بتاريخ 28 شعبان 1300 هـ
³⁷⁸ خ.م.ر: كناش 172 ص 109

كانت في حكم العدم قبل إجراء عملية تغيير منظومة التعامل المخزني مع المناطق الجبلية بالشرق من تادلة.

وأمام هذه المتغيرات الجديدة، وفي ظل استحداث علاقة جديدة بين المركز وقواد أقوياء ما فتأ يمدهم بالدعم المادي والمعنوي، وأبانت فعاليتهم عن قدر كبير في التحكم بمناطق نفوذهم أكثر مما كان عليه الحال سابقا، وبلوغ الحضور المخزني بهذه الاطراف حدا جعل من إمكانية إعادة إدماجها ضمن نسقه التدبيري امرا غير بعيد المنال، ظهر أمامنا ونحن نتعقب جوانب من أحوال المجال التادلي سهلا وجبلا، إشكالا آخر يطرح نفسه بالحاح. ويتعلق هذه المرة بمآل دور القصبية التادلية. هل مازالت تؤدي دورها التقليدي في المجال العسكري والأمني الذي كانت تلعبه وتشغل وظائفه منذ زمن طويل والمتمثل في حراسة السهل التادلي وتشديد الحصار على آيت سخمان، من تأثير وفعالية؟ أم أنها ستعرف تراجعا أمام المتغير الحاصل في السياسة التدبيرية للمجال التادلي أمام تحول الثقل العسكري وانتقاله الى الوسط الجبلي تحت قيادة الزياني وموحى اوسعيد؟

المبحث الثالث، مآل الدور العسكري لقصبية تادلة في ظل بروز دور القاندين:

عند زيارته السريعة لقصبية تادلة خريف سنة 1883، قدم شارل دفوكو وصفا حول حصن القصبية العسكرية بتادلة من كونه غير مأهول و أصبح في حالة خراب وبدا و كأنه بناية تم هجرها . مضيفا فيما سجله من ملاحظة بالقول: " لما زرت هذا الحصن لم أر إلا شخصا واحدا داخله، إنه رجل فقير بائس كان جالسا أمام باب دار المخزن [...] إنه القائد، هذا الرجل الحزين لا يجرؤ على الخروج من قصبته وحالما يخرج يتبعه الصياح"³⁷⁹.

ورغم الاقرار بالقيمة المعرفية لما سجله الرحالة الفرنسي من مشاهدات حول قصبية تادلة وسكانها وجوانب من معالمها المعمارية وعمرانها البشري، الا ان ما أبداه من ملاحظة بشأن الرجل يصعب علينا تصديقه لافتقاره الى الدقة والموضوعية. مع تقديرنا لما يمكن اعتباره أنه قد تحصل على معلومات غير صائبة من مخبره. والحال أن قائد القصبية، الجيلالي بن يعقوب، وهو من وصفان السلطان، من فئة عبيد البخاري، تم تعيينه وتكليفه بالقصبية من خارج القبائل التادلية، ويتقاضى مرتبه عن خدمته كسائر قواد القصبات العسكرية. يمثل المخزن على المدينة، وله مسؤولية مباشرة على إدالته العسكرية المعززة بالخييل والسلاح. لذلك فالوصف الذي أطلقه عليه الرحالة الفرنسي لا يمكن أن يطابق الهيئة التي يجب أن يكون عليها ممثلا محليا رفيعا عن المخزن. كما أن جلوسه على عتبة باب حصن الإدالة بتلك الصورة المتخاذلة التي رسمها الرحالة

³⁷⁹ دفوكو شارل : (م.س)ص 77

تتنافى مع منصبه كقائد له اعتبار وسط الجند والعامّة من الناس. والظاهر ان المعنى بذلك في غالب الأحوال لن يكون الا واحدا من خلفائه أو أعوانه الذين استخلفهم على حراسة القسبة الى حين عودته. فقد كانت من بين مهامه أيضا في هذه المدة الزمنية شد عضد قواد قبائل تادلة الرتمية إلى جانب جند إدالته في استيفاء الواجبات المفروضة عليها عقب حضور المحلة الحسنية بين ظهرانيهم، خاصة وأن ثقلها بدا واضحا على السكان كون السلطان ولأسباب تتعلق بنقص في الانتاج سبق أن أرجأ استيفاءها الى وقت مناسب ، فتراكم الواجب عنهم لمدة 12 سنة. لذلك تم استنفارهم بضرورة الأداء على إثر مرور الحركة بالمجال التادلي أسابيع فقط قبل حلول دوفوكو. فكان على ابن يعقوب أن يرافق المحلة والقيام بالمتعين عليه ضمن الفرق الحوزية الى أن يؤمروا بالعودة إلى أماكنهم. كما كان على قائد القسبة التادلية أن يقوم بهذه الوظيفة حتى من خارج الاقليم التادلي. ففي رسالة وجهها إليه المخزن بشأن القيام باستيفاء ما فرض على قبائل زعير جاء فيها: « الجيلالي بن يعقوب، فقد أصدرنا أمرنا الشريف لعمال الكفيان كافة من قبيلة زعير بالشروع في دفع الزكاة والأعشار المتخلدة بذمتهم عن سنتين و قدرها مائة ألف مثقال عن كل سنة بحساب ثلاثة مثاقيل وعشر موزونات للريال، وأذناهم بدفعها للأمين على يدك. فنأمرك أن تتوجه إليهم وأن تستوفيها منهم على الوجه المذكور»³⁸⁰.

ومهما يكن، فإن ما نستهدف من إثارة ملاحظة الرحالة ليس القائد بعينه، بل ما عبر عنه بشأن تحول معمار القسبة وحصنها العسكري الى خراب وإهمال. وهذه الملاحظة يمكن الأخذ بها كونها تعكس مضمونا ماديا بصورته الماثلة. أي أنها غير محمولة على الظن أو التاويل. والشاهد على ذلك ما عثرنا عليه في رسالة سلطانية الى قواد آيت الربع بشأن ما أصاب قسبة المخزن والدار التي بها من تصدعات في جدرانها وتداعي اسقفها جاء فيها: « قواد آيت الربع كافة، فنأمركم ان تقوموا على ساق الجد في إصلاح قسبة المخزن تمة ودار المخزن التي بها وتدارك ما هو مشرف على السقوط منها، كما نأمركم أن تكونوا على بال من المواد التي هناك ولا تقصروا من الاعتناء³⁸¹». وهذا مؤشر آخر له قرينة ومدلول رسمي، نفهم منه مدى تراجع الأهمية العسكرية للقسبة مقارنة مع ما كانت تضطلع به في السابق. وأصبح الدور الوظيفي لجند الإيدالة ليس الدود عن القبائل السهلية بشرق تادلة بل تحولت مهمتهم منذ الثمانينيات من

³⁸⁰ خ.م.ر : كناش 162. ص 63 بتاريخ متم رمضان 1307 هـ
³⁸¹ خ.م.ر : كناش 694 ص 110 بتاريخ 03 رمضان 1311

القرن التاسع عشر إلى شد عضد عمال تادلة في استيفاء الضرائب والزكوات والأعشار وسائر
فروض المخزن على القبائل³⁸²

كان إسم قصبه تادلة وقصبه آيت الربع يطلقان على نفس القصبه. ويحيل الثاني على مركزيتها
الإدارية والعسكرية للقبائل الأربعة المشكلة لآيت الربع. وبحكم وظيفتها تلك، فقد كان ابن يعقوب
البخاري بصفته قائدا مخزانيا، يباشر سلطته عليهم نيابة عن المركز. بيد أن قدرته العسكرية وحجم
إدالته لم يعودا يسعفانه في التحرك لبيسط سيطرته على القبائل الربعية، فأحرى أن تكون له القدرة
على مواجهة آيت سخمان وما إليها من قبائل عاصية. ففي رسالة وجهها القائد محمد بن سعيد
اليراوي الى السلطان في شأن تفاقم وتكرار تعديت آيت الربع على السكان من آيت سري وقطعهم
للطرقات ونهب متسوقي آيت ويرى بأسواق آيت الربع مبديا التماسه للسلطان بما اشار عليه من
اقتراح : « [...] ولا ما هم (آيت الربع) عليه من الفساد إلا من عدم من يزجرهم، يعني النظير
الذي وسطهم القايد الجليلي بن يعقوب، ولم يقدر على التكلم معهم، طالبا من كمال فضل سيدي أن
يأمر ببده، ويأتي نظيرا من غيره لكي يُصلح المخزانية ويظهر الصالح من الفاسد»³⁸³

ونستخلص من نص هذه الرسالة إجمالا مدى عجز قائدها عن مجابهة بعض فساد آيت
الربع، وأن تراجع رمزية قوة القصبه وخفوت توهج سمعتها العسكرية ومكانتها بما هي ميزة
اضطلعت بها منذ عهد السلطان المولى اسماعيل أصبح أمرا واقعا.

والتفسير الذي لا نراه مجانباً لواقع الحال، فيما يرجع الى ما آل إليه دور قصبه تادلة من
نكوص وارتداد منذ العقدين الاخيرين من القرن، أي منذ تولية الزياني واليراوي الى فترة
الاحتلال الفرنسي، وبما طال وظيفتها العسكرية من تراجع في المدافعة عن المجال الذي تأسست
من حيث المبدأ لأجله. يعود بالدرجة الاولى الى ما طرأ من تحول في الثقل الأمني في ممارسة
المخزن تديبراته للشأن العسكري والأمني في الاتجاه الذي يسمح بتوسيع مجال الحضور المخزني
بالجبل أكثر مما تقتضيه الضرورة الأمنية والعسكرية للسهل، ليس فقط بهدف منافحة القبائل
السخمانية وتشديد الحصار عليها، بقدر ما استهدف من سياسته الإجرائية الانتقال إلى خيار
الاحتواء للقبائل المتمنعة وتثبيت حضوره بالفعل والقوة داخل المجال الجبلي نفسه هذه المرة وليس
من خارجه. خاصة إذا ما أخذنا في الاعتبار ان تعيين المخزن لقواد أقوياء ثمانينيات القرن مشهود
لهم بالولاء و حسن تدبير قضاياهم المحلية وبالإقدام ونجاح تحركاتهم التفاوضية والعسكرية في كل

³⁸² خ. م. ر. : كناش 634 ص ص 22 و 23

³⁸³ م. و. م. ر. ح. : رسالة مستقلة مسجلة تحت رقم 23824 من القائد موحى وسعيد الى السلطان مؤرخة في 23 ذو القعدة عام

1309 الموافق ل 19 يونيو 1892

الاتجاهات معززين بايدالاتهم المخزنية وبفرسان ورماة قبائلهم، كان إجراء محفزا وعاملا حاسما في تحقيق نجاح تلك السياسة.

فإذا كان الزياني قد فتح جبهة عسكرية وأصبح يشدد الطوق على قبائل اشقيرن وآيت سخمان من ناحية الشمال التادلي بحركات لا تقتر أبدا، وموحى اوسعيد يصدها من ناحية الغرب³⁸⁴، فإن المخزن المركزي سعى أيضا الى تعزيز حضوره بالجبل والدير بواسطة ادالات عسكرية إضافية في كل من القصيبة وآيت اسحاق.

فبعد كل هذا، هل نحتاج الى تبرير إضافي يدعم هذا الطرح؟.

إن ما يركي فرضية تراجع دور القصبة التادلية، هو اتخاذ المخزن من القصبة الزيدانية مركزا لإقامة محلات خليفية على فترات طويلة الاولى منها تحت قيادة مولاي الامين سنة 1300 هـ والثانية تحت قيادة المولى عثمان سنة 1307 هـ والثالثة بقيادة نجل السلطان المولى العباس سنة 1308 هـ، حيث مثلت أمراسها مستودعا تجمع فيه كميات حبوب القمح والشعير المجابة من القبائل وتباشر مراقبتها تحت مسؤولية وصيف يدعى الهورضة، وآخر مخزني يدعى صالح احم العبدلي. ففي رسالة وجهها القائد حدو الركيك الربعي جاء فيها : « أن المحلة السعيدة لما حلت بالزيدانية وقع الهناء وخمدت الفتنة من تادلا، وقاموا بواجب الامتثال في الدفع كبنى موسى وبني عمير وغيرهم. وورد البرابر على مولاي عثمان بما تيسر من البقر على العادة. كل ذلك من السطوة العزيزة، وأما خدمة المصلحة فلم تكن فيهم من قديم. قال مولانا:» **وذلك المقصود من إحياء أثر الزيدانية** «³⁸⁵.

لقد أصبحت القصبة في هذه الاثناء محورا اقتصاديا للمخزن بالإقليم بما تشكله من مركز هام لتخزين مدخرات وعوائد حبوب الزكاة والاعشار، ومون الحركات السلطانية والخليفية، ثم وجهة للقبائل وقواد الاقليم، ومنها تنطلق الصوكات وفرق المخازنية ليس لحراسة الاطراف، بل فقط لشد عضد القواد في استيفاء الواجبات وفروض المون³⁸⁶. لذلك فان الزيدانية لم تكن على أية حال بديلا عسكريا عن القصبة التادلية. فبمجرد حلول قوى الاستعمار الفرنسي بالاقليم سنة 1913، حول الغزاة قصبة تادلة الى مركز قيادة عسكري محوري ينسق مع الإقامة العامة بالرباط، ويراقب كل التحركات والنشاطات الحربية في احتلال مزيد من أراضي ومواقع السهل

³⁸⁴ الملك المالكي : مقاومة ايت سخمان للغزو الفرنسي لجنوب الاطلس المتوسط . مجلة تاريخ المغرب العدد 5 ، 1994 ص ص

41-40

³⁸⁵ خ.م.ر : كناش 172 ص 97 بتاريخ 28 ذو الحجة 1307 هـ

³⁸⁶ خ . م . ر : كناش 634 ويتضمن مجموع أنشطة المحلة الخليفية بالقصبة الزيدانية طيلة سنة 1307 هـ

والجبل. ومنها تنطلق الجيوش وفيالق العسكر، وفيها تخزن المؤن والاسلحة، وكأنها بذلك قد استعادت مرة أخرى شرطها الوجودي من كون وظيفتها الأساس لا يمكن أن تكون الا عسكرية.

الفصل الثاني، القبائل السهلية: تقسيم إداري و حضور مركزي تمثله محلات خليفية.

- المبحث الاول، تقسيم إداري بمضمون قبلي وغايات جبائية .

- المبحث الثاني،دوافع تعديد القواد بالسهل التادلي .

- المبحث الثالث، شطط القواد وموقف المركز للحد منه

الفصل الثاني

القبائل السهلية، تقسيم إداري وحضور مركزي تمثله محلات خليفية:

المبحث الاول، تقسيم إداري بمضمون قبلي وغايات جبائية:

المطلب الاول، طبيعة التقسيم:

ورد في وثيقة مخزنية³⁸⁷ تقسيم إداري لقبائل الوسط التادلي مع تحديد النسب العددية من فرقها الواقعة تحت نفوذ قوادها، وقد جاء هذا التقسيم في سياق تجريد محلة خليفية تحت قيادة نجل السلطان واستقرارها بالقصبة الزيدانية طيلة مدة تحصيلها من المونة وواجب الاعشار والزكاوات. ونفهم من ذلك انه تقسيم جبائي يتحمل فيه كل قائد تنفيذ الامر السلطاني في تحصيل القدر المعين له من ذلك.

فكان التقسيم على الشكل التالي: النصف الاول من تادلا، ويشمل قسمه الجنوبي كلا من بني موسى وبني عمير وبني ملال وآيت الربع والنصف الثاني بالشمال وتعرف بالقبائل الرّتمية وتضم بني زمور وبني خيران والسماعلة ووردية، وكلها قبائل طاعة. كما تم تقسيم وحدات كل قبيلة الى دواوير ديوانية. فعلى سبيل المثال تشير الوثيقة الى عدد الدواوير الديوانية ببني موسى الى 24. وبلغ عددها ببني عمير 16. مع إلحاق فرقتي اولاد انجاع واولاد حسون من فخذ اولاد عبد الله منها في عداد الجيشية وإعفائهما من سائر الكلف كونهما مجاورتان وتتحملان بعض الاعباء المنوطة بهما لفائدة القصبة الزيدانية.

فيما يلي جداول اختزالية بأسماء الوحدات القبلية وقوادها حسب ما ورد في الوثيقة:

جدول 10 القسم الجنوبي من القبائل التادلية:

ملاحظات	النسبة العددية	أسماء قوادها	الوحدة القبلية
تضم 24 من الدواوير الديوانية مع عدم توضيح لمن آلت النسبة المتبقية	7/3	العربي بن عبد الله	بني موسى
	-	الصغير بن اسماعيل	
	1/3	احمد النماوي	
		علال المراحي	
	1/3	الشرقي الكرزوزي	

³⁸⁷ خ. م. ر : كناش 634 ص 4 . و هو نفس التقسيم تقريبا الوارد ايضا في مخطوط مراحل المحلات السلطانية لمجهول مسجل تحت رقم 12059 ص 10

تضم 16 من الدواوير الديوانية	-	علال بن عبد النبي.	بني عمير
	-	محمد بن الفقيه	
	-	والعربي ولد رقية.	
	1/6	.البوخدوي.	
	-	.محمد الماضي.	
	1/4	. علال الوكيلى.	
	-	.محمد ولد العنزي.	
	1/4	.الطاهر ليعيشي.	
	-	القواد الجياشة :	
	3/1	.صالح بن حموالعبدلي	
1/4	.بوعزة الحسوني		

قبائل آيت الربع الجياشة تحت قيادة الجيلالي بن يعقوب

أسماء قوادها	الوحدة القبلية
- حمادي عباس.	بني معدن
- الجيلالي البزازي.	
- حميدة بورويس.	
- محمد بن العربي.	
- صالح بن حدو الركيك .	كطاية
- مح او علي الرحيلي.	
- سعيد من آيت سي موزي	
- القايد ابراهيم	
- بوعزة وبخان.	سمكت
- القايد وجدات	
- الجيلالي بن الحسن البوبكري.	الغاية
- محمد بن ا معطي المباري	
- صالح بن ادريس.	قصابة بني ملال
جابر بن فارحة	

وبحكم وقوع هذه القبائل بالسهل التادلي، واسترواح الموكب السلطاني عبر ترابها ذهابا وإيابا الى العواصم مكناس وفاس ومراكش، لم يكن المخزن يجد صعوبة كبيرة في إخضاعها بوسائله العسكرية المحلية والمركزية.

وبصرف النظر عن حدود الروابط التي تتحكم في نوعية علاقة هذه القبائل بالمخزن جياشة كانت أم نائبة فإنها كانت في جميع الاحوال تؤدي واجباتها من الاعشار والزكاوات وان كانت في بعض الاحيان غير منتظمة بفعل اكراهات مناخية الا انها كانت تمثل مصدرا مهما لمداخل بيت المال في السنوات المطيرة والجيدة.

وتقديرا من المخزن لأهمية مقدرات وحجم الانتاج الفلاحي والزراعي لهذه القبائل في المواسم الفلاحية المعتبرة، فقد اتجهت سياسته الى فرض مقادير من المئونة على القبائل النائية كلما حلت حركة سلطانية او خليفية لإمداد العسكر والجيش بما يكفي من الطعام (دقيق - قمح - شعير - سمن - زيت - رؤوس أغنام). ورغم محاولات بعض الدواوير التهرب من هذا الالتزام وحدوث مناوشات هنا وهناك بين السكان وأعوان المخزن بسبب تأخرهم في الأداء، فان عملية الإستجابة لم تكن تعدمها الوسائل في التحصيل واستيفاء المطلوب.

وإذا أخذنا في الاعتبار تضافر عوامل بشرية وجغرافية وبيئية ملائمة، ومستوى حضور سلطة إدارية تأطر علاقة القبائل بممثليها، قائمة بالأساس على مضاء الاحكام، فإنه يمكن التأكيد أن القبائل السهلية مثلت على الدوام مخزونا جبائيا لا يستهان به اولاه المركز ما يستحقه من اهتمام. لكن امام كل هذه الخصائص والمعطيات ظل استفهام يطرح نفسه بغاية استجلاء غموض ارتبط بأسباب حصول عملية تعديد المخزن الحسني للقواد على القبائل المذكورة، وإلحاق أعداد متزايدة منهم بركب المخزن، علما أن محاذير أمنية أو مخافة حدوث تنطع قبلي على هذا العهد لم يكن هاجسا مطر وحاسيما وأن الشبكة الطرقية ومسالك الاقليم كانت على الدوام في حركة دؤوبة لرجال المخزن وفرق عسكرية ومساخرية وبريد بين الزيدانية ومراكش. سؤال يفرض نفسه بإلحاح يحتنا على القيام بمحاولة تفسير وإماطة اللثام عن تجليات ذلك من خلال ما نكتشفه من معطيات مصدرية مما ورد بالوثائق الرسمية. وستكون البداية من الإجراء الابرز والاسبقية من الناحية الزمنية.

من نافل القول، أن فترة العشرية الاولى من القرن الرابع العشر الهجري والثامنة من القرن التاسع عشر كانت فترة تجديد الفعل الحضوري للمخزن بوتيرة جد ملحوظة بالمجال التادلي، فبدا تكثيف تولية القواد وسط الاقسام القبالية وكأنه استجابة لمرحلة تاريخية جديدة.

فلما كان واقع هذه المرحلة يقتضي مواجهة بما يلزم من حنكة التدبر بما عرفه المغرب من تزايد مستويات الضغوطات الأجنبية ومن تنامي تغلغل الرأسمال الأجنبي، وظهر بضائع ومنتجات في الاسواق المحلية وتأثير الاساليب الرأسمالية الاوربية على الواقع التجاري، على خلفية ما تحصل عليه التجار الاوربيين من امتيازات عديدة، فضلا عن انهيار مستويات سعر النقد المحلي " فتعطلت المرافق او كادت ناهيك عن الجوائح وانتشار الاوبئة وتعدد المصائب والكروب³⁸⁸ ". فقد عرفت المرحلة المدروسة محطات صعبة جدا مست الاستقرار الطبيعي للسكان مثل ما حصل في السنوات التالية نموذجا:

- سنة 1266 هـ / 1850م، شهدت فيها البوادي حياة عصبية من خصائص في الطعام كبير ومسغبة.

- سنة 1269 هـ / 1853م، حل فيها وباء الطاعون بعدد من مناطق المغرب واشتد أكثر بالحواضر.

- سنة 1296 هـ / 1879 م، عرف فيها السكان انتشار عدوى الطاعون بشكل كبير خاصة بالمناطق الساحلية وكان لذلك تأثير كبير على البنية السكانية.

- سنة 1315 هـ / 1898م، شهد فيها المغرب مجاعة كبيرة، ونقص حاد في الحبوب جراء التصدير المفرط وجائحة الجراد.

فلا يكاد المجتمع يتعافى من كارثة طبيعية تمثل أخطرها ما تحدثه المجاعة وآثار المسغبة، حتى يصاب بانتكاسة أشد وقعا جراء وباء الطاعون، ثم تليه فترة جفاف وغلاء في الاسعار، يعقبه خصائص في الاقوات والغذاء نتيجة اجتياح الجراد الذي لا يبقي ولا يذر. وبين كارثة وأخرى لم يكن هناك فاصل زمني طويل يسمح باتخاذ الاحتياطات اللازمة أو محاذير لحفظ مخزون معتبر من الحبوب. ولم يكن يخفف نسبيًا من وطأة هذه الازمات غير إفلات بعض المناطق منها ونجاة سكانها من أهوالها. فقد تتهاطل الامطار على الجانب الساحلي بسهول سايس والغرب على سبيل المثال بينما تكون السهول التادلية قد تأخرت او انعدمت بها الامطار. وقد تصاب المناطق الساحلية وموانئها المحتكة دوماً بالاجانب والحجاج بالطاعون المنقول عبر السفن، بينما تظل المناطق الصحراوية ذات درجات الحرارة المرتفعة بمنأى عن الوباء. لكن بالرغم من كل هذا وذاك فان الوضع الاجتماعي العام كان شديد التأثير بالفصول الدرامية اعلاه، ستتضاف اليها وطأة مطالب

³⁸⁸ الناصري خالد (م.س) ج 09 ص ص 163،164
* المقصود به نجل السلطان المولى العباس رفقة المولى عثمان

المخزن من الكلف والزكاوات والأعشار وتزايد ضغوطه من أجل الوفاء بالتزاماته لتسديد الغرامات المفروضة عليه لفائدة الدولة الاسبانية، ساهمت دون شك في تفاقم مظاهر التوتر الاجتماعي وتهيأت الاسباب لشيوع ظاهرة تمرد البوادي منها تادلا واصبح انتشار السرقات والغارات الليلية لسرقة ما تبقى من رؤوس قطعان المواشي امرا مألوفا.

كل هذه العوامل وقد أناخت بثقلها على الواقع الاجتماعي، لم يكن من شك في ان تداعياتها كانت لها عواقب على استقرار الوضع الداخلي، منه الاقليم التادلي الذي لم يكن بعيدا عن مظاهرها ولا بمنئى عن انعكاساتها على مستوى معيشة سكانه اليومي. فكان لتحرك المخزن أمرا حتميا لمواجهة ذلك بما تقتضيه المصلحة العامة والعمل على سبل جديدة في التدبير على الاقل للتخفيف من تبعات هذه الازمة المشتدة عليه. فلم يكن لديه من خيار آخر لتقليص حدة العجز المالي وتناقص موارد الدولة رغم قساوة الظرفية وابتلاء الجميع بها، غير مضاعفة الضغط على السكان والقبائل لحملهم على تلبية احتياجاته من مداخيل مالية إما نقدا أو عينا ، وبالتالي التضيق عليهم من جهة أخرى للحيلولة دون أي تهرب أو تماطل في الأداء. فما هي الآلية التي اعتمدها المخزن تمهيدا لعملية تعديد القواد بالقبائل السهلية لتادلة؟

المطلب الثاني، تجريد محلات خليفية بقصد الاستجباء واستقرارها لمدد متفاوتة بالقصبة الزيدانية :

كان المقصود من حضور محلة يقودها خليفة مقرب من الدائرة السلطانية، هو استنهاض كل ممثلي المخزن المحليون في استيفاء الواجبات الضريبية من قبائلهم. وبدون شك فإن حضور المحلة سيكون حافزا أقوى على ضمان جمع أكبر قدر من تلك الواجبات بحكم رمزياتها وما تمثله من ضغط مباشر للمخزن المركزي، ليس فقط لدى القبائل، بل ايضا على مهام القواد في دفعهم الى إظهار سطوتهم وتفانيهم في الخدمة لاستيفار الواجب.

لقد فرض الواقع الاقتصادي العام على المخزن بتوسيع آلياته الاستجباية لسد احتياجاته المتزايدة للمال ضمن شروط صعبة منها:

- محدودية موارد الدولة. فلم تكن هناك نشاطات تجارية او صناعية واسعة يمكنها ان توازن من المداخيل لبيت المال فضلا عن ازدياد مصاريف الدولة إزاء التحديات العسكرية ومراقبة الثغور، فكان عليه ان يتدبرها بنوع من التقشف.

- اعتماد الدولة أكثر فأكثر على عائدات المنتج الفلاحي بالبوادي، علما هذه الاخير كانت محاصيلها مرتهنة بالظروف الطبيعية. فالتساقطات المطرية لم تكن منتظمة بالشكل الذي يضمن مداخل جيدة.

- ظلت وسائل الاستجاء تسير وفق نمط تقليدي وخضوع العملية برمتها لنوع من الالتباس وعدم التدقيق، كون القائمين عليها محليا يزاوجون في عملهم بين استغلال فرصتها لتحقيق مصالحهم الذاتية ثم خدمة المخزن.

- عدم توافق حجم متطلبات المخزن مع مداخل الاستجاء، ما دفع الى انتهاجه لسياسة الضغط الضريبي و تكثيف حجم متحصلاتها بسلك وسائل استجاء جديدة.

1.1- محلة المولى الامين سنة 1300هـ:

تجدر الاشارة بداية، أن تجريد المحلات الخليفة لم تكن أمرا مستحدثا في هذه الفترة، فقد سبق للامير المولى الحسن خلال السنة الاخيرة قبل وفاة والده ان أقام بمحلته مدة ستة أشهر بصخرة الدجاجة. الا ان تعديدها شهد تواترا في العقدين الاخيرين من القرن، اولها محلة ابن عم السلطان المولى الامين التي استقرت بالقصبة الزيدانية، واستهدف نشاطها عملية استجائية واسعة النطاق بالاقليم و ردع بعض متمردي المنطقة الشمالية لتادلا. فضلا عن الترتيب والاعداد لاستقبال المحلة السلطانية القادمة في الاثر.

2.1- محلة المولى عثمان الاولى سنة 1307هـ :

ترأس هذه الحركة المولى عثمان للمرابطة بالقصبة الزيدانية. وكان المركز يروم من وراء ذلك حسب ما توفر من وثائق :

- تحصيل المؤن المفروضة على الاقسام القبلية السبع، وفق تصنيف المخزن المركزي في مراسلات أخرى، لتموين جيش المحلة الخليفة المرابط لفترة ليست قصيرة، وجيش المحلة السلطانية القادمة في الاثر.

- استخلاص الواجبات السنوية المترتبة عليها من الأعشار والزكاوات.

3. 1، محلة المولى عثمان الثانية سنة 1307 / 1308 :

لم تتميز هذه المحلة من حيث المضمون و الاهداف عن سابقتها، فالهدف الاساس كان هو جباية الاموال و جمع المؤن و اسيفاء المتبقي من الواجبات و شد عضد القواد في استكمال مهامهم على الوجه المطلوب . لكن كانت لها مهام اخرى موازية و تتمثل في توظيفها لتعزيز فرق محاربة لقبائل نائية وجياشة و أهبتها لتكون رهن إشارة المخزن في مهمات عسكرية مختلف .

وقبل استقرارها بالزيدانية، بعث السلطان الى القواد المعتد بهم لإبلاغهم بما عزم عليه حتى يأخذوا أهبتهم ويقدموا لها ما استطاعوا من مساعدات، والعمل على استنهاض قبائلهم استعدادا لما هي مقبلة عليه. منها ما بعث به الى القائد موحى اوحمو الزباني جاء فيها: « [...] وبعد، فقد عزمنا بحول الله وقوته على توجيه مدد معتبر ومعهم من يعتد به من الأقارب كبيرا عليهم للتخيم بالزيدانية من بلاد تادلا. وأمرنا سائر اولائك القبائل مع اهل تادلا بالتخيم معهم هناك قبلنا. ذلك مقدمة لما نحن بصدده بحول الله. كما امرنا عمال آيت بوزيد وايت عطا ومالو وايت سري وآيت هودي بالتوجه للتخيم معهم ثمة بمجرد سماعهم بوصول العدد المذكور هناك. وعرفناهم بان من امتثل فقد ادى ما عليه ومن تأخر فهو ملحق بالفئة الفاسدة. واعلمناك لتكون على بال من ذلك»³⁸⁹.

ويفهم من فحوى الرسالة أيضا ان على القبائل بدورها ان تأخذ أهبتها والاستجابة لمطالب قائد المحلة من توفير المونة وتسليمها لقوادهم حسب الضابط المعلوم، وان اي تاخيرا وتماطل انما يفسر من جانب المخزن انه خروج عن الطاعة وعلى كل طرف ان يتحمل تبعات ذلك . كما بعث في هذا الصدد برسالة بنفس المحتوى الى كافة قواد المنطقة الديرية للالتحاق بالمحلة الخليفية وتنفيذ ما هم مطالبون به: « [...] كما امرنا سائر اهل دير تادلا واهل تادلا بالنزول بحركتهم بالقصبة المذكورة...»³⁹⁰

وحتى نقف على أهمية ما كان يتوخاه المخزن من مهام المحلة بالإقليم، ندرج لائحة بأسماء قواد القبائل الديرية ممن تمت دعوتهم الى المشاركة والمساهمة في أعمالها من قبض الواجب والمؤونة من السكان اعتمادا على نفس الكناش، وهم كالاتي:

جدول 11 عن القبيلة الديرية لآيت بوزيد

اسم القائد	ملاحظات
محمد بن علي التورغاسي	-
باسوبن حمو	-
حدوبن سعيد	-
محمد بن الهردة البوزيدي	-
محمد بن حمادي	تولى القيادة بعد وفاة البوزيدي
محمد بن احمد افروس	-

³⁸⁹ خ.م. ر : كناش 162 ص 61 ، ملخص رسالة سلطانية بتاريخ 14 جمادى الثانية عام 1307
³⁹⁰ خ.م.ر : كناش 162 ص 60 ، ملخص رسالة سلطانية بتاريخ 20 جمادى الثانية عام 1307 الموافق ل 11 فبراير 1890

جدول 12 عن القبيلة الديرية لأيت سري

اسم القائد	ملاحظات
زايد بن كامل	-
حساين بن سعيد	-
الحسين اليرايوي	-
محمد بن هم	-
يخلف بن مزوز	-

جدول 13 عن آيت هودي وأم البخت

اسم القائد	ملاحظات
بوعزة بن عب البختي	مديرية الوثائق الملكية الرباط حسان وثيقة رقم 23979 :
محمد بن مزوغ الهودي	
بوعزة او عب الهودي	
باسو بن الحاج الهودي	

جدول 14 عن زيان وآيت سخمان:

اسم القائد	ملاحظات
موحي اوحمو الزياني	تمت توليته او اخر العشرية السابعة من القرن التاسع عشر
محمد ولد عائشة علي السخماني	لم نتبين تاريخ توليته. شارك بفعالية كبيرة في معركة آيت سخمان الى جانب القائد بن المودن السرغيني سنة 1307 هـ

جدول 15 عن آيت عطا نومالو

اسم القائد	ملاحظات
محمد بن الحسن العطايوي	كناش الخزانة الملكية الرباط رقم 151.
محمد بن حم	
لحسن بن حم	
صالح وحسين العطايوي	

وبعد ان استقر الحال بالمحلة الخليفية بالزيدانية، بعث السلطان برسالة الى رئيسها المولى عثمان، يحدد له بموجبها مقادير المونة المفروضة على القبائل التادلية ويحثه على استيفائها كاملة وفق ترتيب ونظام معين، جاء فيها: « اخانا مولاي عثمان، فقد أمرنا عمال بني عمير، وبني موسى، وآيت سري، والسماعلة، وبني زمور، ووردیغة، وبني خيران بدفع إثنين وستين مداً دقيقاً وإثنين وسبعين رطلاً سمناً، وسبعة وخمسين كبشاً، ومائة مد وتسعة وسبعين مداً شعيراً مياومة مع امداد الشعير المذكورة. وإن لم تتيسر لهم المونة الطعامية ولتكن تحز من كل عامل ما تيسر له من المونة طعاماً اودراهم. وفرق ذلك على الجيش والعسكر السعيدين بما في القائمة طيه بعد ان تحوز واجبك فيها »³⁹¹

ونتبين من خطاب الرسالة السلطانية ان عملية تحصيل المونة قامت على اساس تقسيم الاقليم التادلي الى سبعة وحدات جبائية هذه المرة، مع اختلاف بسيط عن التقسيم الوارد بالوثيقة المبينة بالمصدر أعلاه بعد إضافة قبيلة آيت سري. والتقسيم يأتي متساوقاً مع الهدف المرسوم لعمل المحلة والمتعلق بالجباية وجمع المونة بينما نلاحظ استثناء ايت الربع لكونها قبيلة جيشية معفاة من كلف المونة. على ان يباشر كل قسم منها دفع ما تعين له مياومة إزاء باقي الأقسام الاخرى. اي ان كل قبيلة عليها ان تدفع حصتها من القدر المعلوم يوماً واحداً في الاسبوع خلفاً لمن سبقها وفق الطريقة المبينة بالجدول التالي :

جدول 16: واجب المؤونة على كل قبيلة مياومة على مدى شهر مع تحويل المقادير إلة وحدة الكلف

المقدار المعين لكل قبيلة على نسبة الدفع اربع مرات في الشهر.	ما يعادل المقدار بالكلف اوبالريال	مقدار الدفع مياومة لكل واحدة	القبائل التادلية السبع
3720 كلف	930 كلف	62 مد دقيق	بني موسى. بني عمير.
144 كلف	36 كلف	72 رطل سمن	السماعلة. بني زمور. وردیغة،
10740	2685 كلف	179 مد شعير	بني خيران. آيت سري
456 ريال	114 ريال	57 كبش	

لقد تم اعتماد قياس وزن المُد الصغير المعمول به بمنطقة الحوز بناء على ما أورده ايركمان³⁹² وهو ما يعادل 15 كلف. أما رطل السمن فمقداره نصف كلف³⁹³. وتجدر الإشارة في هذا

³⁹¹ خ.م.ر : كناش 162 ص 74 ، ملخص رسالة سلطانية بتاريخ 26 رجب عام 1307 الموافق ل 18 مارس 1890

³⁹²J. Erckmann . op-cit p 162

الصدد، ان مسألة الاوزان المعمول بها في منطقة الحوز تختلف عما هي عليه بمنطقة الغرب، بل يمكن التأكيد ان حتى هذه الاخيرة كان فيها اختلاف في التعامل بوزن المد الادريسي عن العرايشي. ففي رسالة بعث بها السلطان الى أمناء وأشياخ قبيلة الساحل جاء فيها: « وبعد، وصل كتابكم مخبرين أنكم دفعتم واجب خرص القمح والشعير بالمد الادريسي، وانكم لما رتمتم دفع واجب القطاني به، أبي أمناء المرسى إلا قبوله بالعرايشي»³⁹⁴

وإذا قمنا باحتساب مقادير دفع القبائل مما توجب عليها من المونة حسب الأمر السلطاني، طيلة فترة إقامة المحلة البالغ مدتها 4 أشهر أو يزيد قليلا. فان المجموع المفترض لكلفة المونة على كل قبيلة هو ما نختزله في الجدول التالي:

جدول 17: واجب المؤونة على كل قبيلة

المادة	مقدار المونة اسبوعيا بالكلغ	مقدارها في الشهر بالكلغ	مجموع المقادير المفترضة طيلة مدة الإقامة المقدرة ب 4 اشهر
دقيق	930	3720	14 طن و 800 كلغ
سمن	36	144	576 كلغ
شعير	2685	10740	42.960 كلغ
أكباش	57 رأس	228	912 رأس

شكل هذا الكم من مقادير المونة المستخرج من القبائل عامل إرهاب لقواها الاقتصادية والاجتماعية، خاصة اذا ما علمنا ان عمل المحلة لم يقتصر فقط على المونة، بل كان مناسبة لاستجاء الواجبات من الزكاة والاعشار. وبذلك كان على القبائل ان تتحمل العبء الضريبي بشكل مزدوج: الضرائب الشرعية وتبلغ في المجموع حوالي 5000 ريال في السنة. وأنواع الكلف بما هي ضرائب مستحدثة تفرض على شكل مونة لتوطين الجيش والعسكر. وعلى الرغم من ان نفقات ومرتبات الجيش ملقاة في العادة على كاهل الدولة، فان وجود تلك الفيالق على التراب التادلي، كان يقضي بأن هي من عليها تحمل مونتهم. وبذلك يكون المخزن قد سلك في ذلك تحقيق هدفين: جباية واجب الضرائب الشرعية، وتجميع مونة الجيش والعسكر من جهة، وربط المجال بالمركز بكون ثالث هذه المرة يتوسط الممثلين المحليين والمخزن المركزي وهو كما سبقت الاشارة الى ذلك

³⁹³ التوفيق احمد: (مرس)، ص 285

³⁹⁴ خ.م. ر: كناش 364 ص 175، ملخص رسالة سلطانية بتاريخ 21 ذو القعدة سنة 1302 هـ

المحلات الخليفية. فهل سار اشتغالها وفق الخطة المرسومة ؟ أم واجهت عراقيل وتحديات ستواجهها من طرف الفخذات والوحدات المستهدفة ؟.

في رسالة بعث بها عمال بني عمير بهذا الخصوص الى المركز جاء فيها : « انهم لما نزلت المحلة السعيدة ببلادهم قاموا على ساق الجد في مونتها عن 10 ايام بينهم وبين بني موسى، ثم بعد ذلك ترتب عليهم مونة 40 يوما مناصفة. فأدوا ما نابهم على يد كبير المحلة، وشرعوا في مونة 20 يوما أخرى. فمنهم من ادى ومنهم من تمرد وتكاسل وصار كبير المحلة يطالبهم بها »
395

والواقع انه إذا ما تتبعنا مسار عمل المحلة منذ أن استقر بها الحال بالقصبة الزيدانية وشروع قائدها في مباشرة تنفيذ الامر السلطاني، بواسطة تخابره مع المركز حسب عديد الوثائق من رسائل وتقارير متبادلة، فان الاستنتاج الذي أمكن الخروج به يتلخص في ان عملها لم يكن بالأمر اليسير. فتحصيل الجباية عموما تقوم على الاكراه والالزام. وإذا ما اعتبرنا ان المحصول المحلي من الحبوب تحديدا غالبا ما كانت تعتوره إكراهات بيئية وتقلص في الانتاج، ناهيك عن محدودية المساحات المحروثة التي يتطلب توسيعها وفرة في الوسائل. كون قسما منها كبير كانت لاتزال مغطاة بأغصان السدرة القصيرة وأشواك العليق ونبات الدوم يعسر كثيرا اجتثاثها*، منها مضاعفة أعداد زوجات الحرث، حتى يتسنى موافقة فترة عملية الحرث مع مدة الموسم المطير وهي في المجمل لا تتعدى 60 يوما³⁹⁶. وهذا لن يتأتى الا لعدد قليل من الاعيان وللقائد الذي يستغل منصبه وجاهه في استغلال اليد العاملة للفئة الأدنى من القبيلة. فكيف بذلك سيكون عليه حال باقي سكان القبيلة أمام ضعف النتاج وقلة ذات اليد ؟ لكن ما كان يوازن من حجم المردود لدى السكان هو عائد الكسب والانتاج الرعوي. لقد مثلت المواشي من أغنام، وماعز، وأبقار، وإبل، موردا أساسيا في الحياة الاقتصادية للسكان. فإقبالهم على هذا النمط الانتاجي مرده يعود بالأساس الى قدرة المواشي على تحمل الرعي في البيداء التبادلية رغم قلة التساقطات المطرية وإمكانية تكاثرها وتضاعف أعدادها بفضل خشاش الارض وأنواع من النباتات التي تحافظ على نموها رغم قلة الماء، زيادة على استغلال الرعاة للمسارح وبضفاف واد ام الربيع وأراضي الغابة وهو ما لم يكن يكلف الفلاحين كبير أعباء. فقد كان يكفي الدفع بالقطعان الى تلك المراتع مع تكليف راع

³⁹⁵ خ.م.ر : كناش 172 ص 113 . ملخص رسالة من كافة قواد بني عمير بتاريخ 16 محرم 1308 هـ
* ظلت المساحات الشاسعة لأراضي ببني عمير و بني موسى على هذا الحال الى أن شرعت فرنسا إبان الحماية بتنفيذ مشروع استصلاح الأراضي الفلاحية أعقبها بناءها لسد بين الويدان حيث تم امدادها بقنوات الري و استغلال ذلك لفائدة المعمرين .
³⁹⁶ حسب المعطيات التي تم استقاصها من عدد من الفلاحين ممن لا زالوا يعتمدون على الدواب في الحراثة ، فان المساحة التي يمكن ان يتم فلحها بالمحراث الخشبي بواسطة جمل و حصان قد تبلغ هكتارا الا ربعا في اليوم .

مقابل أجرة تحتسب بعدد الرؤوس الأغنام وحصوله على مقدار سنوي يصل الى مقدار الربع من عددها حسب الأعراف المتبعة.

إن إدراج مادة السمن من بين مواد المؤونة ودفعها بحجم معتبر، يبرهن على وفرة منتج المواشي قياسا مع الحبوب. فعندما طوّل عمال بني عمير بدفع مؤونة محلة سلطانية تم استثناء مادة الشعير من المؤونة بالرسالة التالية: « عمال بني عمير كافة وبعد، فنأمركم ان توجهوا صحبة نوابكم وحامله العلاف مؤونة المحلة السعيدة وقدرها خمسمائة شاة قاطعة ومائة وخمسة وعشرون قنطارا من السمن. وأما الشعير وقدره خمسمائة تليس فقد اسقطناه عنكم. »³⁹⁷ وبما ان المواشي تمثل مالا منقولا، فإن الجباة كانوا يلاقون صعوبة في تحصيل مردودها الجبائي. فقد كان بوسع عدد من السكان تهريب قطعانهم وإخفائها عن الانظار وسط الأجمات وبمنعرجات ضفاف نهر أم الربيع، كلما داهمتهم إحدى الصوكات أو الحركات المخزنية للإفلات من الأداء. ففي رد توصل به من المركز القائد محمد بن الطيب السرغيني المكلف باستخلاص المؤونة من بني عمير وبني موسى جاء فيه: « [...] وبعد، وصل كتابك مخبرا أنه بفور وصول أمرنا الشريف إليك بإزعاج بني موسى لشن الغارات على فساد بني عمير، أركبت إخوانك فعثروا على ثمانمائة رأس من الغنم لبعض الفساد المذكورين بجانب أم الربيع [...] وذكّرت أنك اتفقت مع عمال بني موسى على أن يربط كل بمحل يظن به انفلات الفساد»³⁹⁸. كما توصل القائد برسالة أخرى في نفس الموضوع: « وبعد، وصل كتابك مخبرا ان اخوانك عثروا على عدد من المواشي والرحائل والأمتعة لفساد بني عمير »³⁹⁹.

أما قواد بني عمي، فقد كانوا أنفسهم يواجهون صعوبات في استخلاص الواجبات كلما حل إبانها. فقد توصلوا بكتاب ردا على رسالتهم في الموضوع: « وبعد، وصل كتابكم عما أمرتم به من قبض الواجب من قبيلتكم ودفعه هناك، بأن جل أهل قبيلتكم افترق. فنزل أولاد يوسف بين بني معدان والبرابر، وأولاد ميمون ببني ملال، ولم يبق بالبلد إلا من ذكرتم من أولاد عبد الله وأولاد نجاع وأولاد بوعلي وهم مع ذلك متشوفون للهرب»⁴⁰⁰.

كان لحضور المحلة الخليفة بتادلا حدثا جعل كافة الوحدات القبلية تعيش لحظات عصيبة. وصارت الدواوير والقصور وسائر التجمعات السكنية هدفا "للجرايا" والشيوخ والامناء والقواد

³⁹⁷ خ.م.ر: كناش 353 ص 41 .

³⁹⁸ خ . م . ر : كناش 364 ص 160 مختصر رسالة بتاريخ 13 ذو القعدة عام 1302

³⁹⁹ خ . م . ر : كناش 364 ص 161 مختصر رسالة بتاريخ 13 ذو القعدة عام 1302

⁴⁰⁰ خ . م . ر : كناش 364 ص 75 مختصر رسالة بتاريخ 29 رمضان 1302

يتعقبون كل مصدر للجباية وتحصيل المونة. فكان من السكان من يؤدي ما يفرض عليه عن طواعية بينما كان آخرون يلوذون بقصورهم المحصنة تهربا من الدفع، ولم يكن أمام القواد غير تشديد الخناق عليهم وطلب المدد لشد عضدهم من طرف الفرق العسكرية بالمحلة حتى يوفى الغرض.

جاء في مختصر رسالة القائد المعطي بن الحسين الملاي الى المخزن المركزي ما يلي :
« [...] أن أولاد امبارك من إيالته وأولاد كنا وإخوان المعطي بن سعيد، لا زالوا على فسادهم متحصنين بقصرهم، وكلهم، ولاد موسى وأولاد بوبكر وغيرهم من جوارهم لإيالته في واجب الوظائف والكلف، اعتذروا بفسادهم وجسارتهم، وبأن الذي كان صالحا منهم شم رائحة الفساد منهم وتشوف لفعالهم...»⁴⁰¹ . وفي رسالة أخرى صار يطلب المدد والعون لمواجهة « جماعة أولاد امبارك من إيالته امتنعوا من إعطاء المونة وغيرها من الكلف للحركة طالبا مددا مخزانيا لشد عضده عليهم حتى يؤدوا»⁴⁰² .

المبحث الثاني، دوافع تعديد القواد بالسهل التادلي:

إن ما تم التطرق اليه من مهام المحلات الخلفية ووظائفها الجبائية لم تمله الا ضرورة منهجية في ان يكون توطئة لتعزيز فرضيتنا حول دوافع المخزن الى تعديد ممثليه المحليين بالاقليم. نقترحها كالاتي:

المطلب الاول، تفاقم حالات الفرار:

إن تقييم تهرب السكان من الأداءات وتصاعد حالات المواجهة بين السكان الملزمين وقوادهم، وقد باتت سلوكا يوميا خلال فترات الاستجباء، لم يفض من استنتاج الا من كونه صدى لازمة عميقة اخذت تشتد بين المخزن والسكان. وما إدراجنا للنصوص السابقة كنماذج وعينات لحالات كثيرة الا باندراجها في سياق حالة التوتر الاجتماعي بسبب التقدير وبلوغهم درجات من الفاقة والعوز باتت مظاهرها مهيمنة على الواقع الاجتماعي بالمنطقة. فقد بعث نقيب شرفاء بني ملال برسالة الى المركز متشكيا من تعسف قواد بني ملال « [...] وان سكانا منها يعتمرون الفرار من بلادهم »⁴⁰³ . وهذا بالضبط ما حدا بالمركز الى سلك خيارات جديدة في التدبير المحلي.

⁴⁰¹ خ.م. ر : كناش 172 ص 108 مختصر رسالة بتاريخ 8 محرم 1308

⁴⁰² خ.م. ر : كناش 172 ص 124 مختصر رسالة بتاريخ 18 محرم 1308

⁴⁰³ خ.م. ر : كناش 172 ص 111 مختصر رسالة بتاريخ 14 محرم 1308

فضغط الالزامات وتلاحق فرض الوظائف والكلف كان يقابل برفض السكان وتمنعهم اوتماطلهم، يقابله تشديد القواد واعتصار ذممهم لحملهم على الاداء بالإكراه، فتعقبه إما مواجهات مباشرة اويقابلون بالفرار. يتلوها تعزيز جهود القواد وشد عضدهم بقواد آخرين من الجوار. وهكذا تستمر حالة التوتر قائمة بين الطرفين: سكان طالهم ضغد مجحف من جهة وسلطة تتعقبهم من جهة اخرى. وحتى يمكن تخفيض حالة التوتر هاته والتقليل من نفقات تنقل الفرق العسكرية، اقتضى الحال تعديد ممثليه بالمجال السهلي وتقليص رقعة إيالاتهم قدر الامكان امعانا في ضبط الملزمين ومراقبتهم عن قرب ومحاصرة المتهربين منهم من جهة، وتخليصهم من جور عمال تبادوا في شططهم وعنفهم من جهة ثانية.

المطلب الثاني، معالجة المركز لازمة و دفعه بأعداد اضافية من ممثليه:

لقد كان لتولية قواد جدد إضافيين بلغ من كثافتهم حدا جعل الواحد منهم لا تتجاوز سلطته وحكمه على بضعة دواوير. ومن هنا كان على هؤلاء إذا ما رغبوا الاستمرار في مناصبهم القيادية أن يتدبروا أمرهم في تحصيل ما يحدد لهم من مقادير الواجبات الشرعية و من المئونة والكلف و سائر التوظيفات.

صحيح ان البعض منهم كان ميسور الحال. فطبيعة عملهم توفر لهم موارد اقتصادية، ولديهم مداخيل معتبرة من عوائد تلك الامتيازات الوظيفية كما هو حال القائد حدو الركيك بقصبة تادلة (سيتوفى خلال مواجهة عسكرية مع آيت سخمان في وقت لاحق) ففي مختصر رسالة منه مضمونها الآتي : «[...] أن رحبة الزرع ورحاب القصبة مسند اليه امرها من قديم، فمن فعل فعلا ذميما أجرى عليه الاحكام فمن رضي بذلك فذاك والا خرج من القصبة»⁴⁰⁴ وصحيح ايضا ان بعضهم كانت لديه املاك كثيرة و ثروات تسمح لهم بان يقوموا بالدفع نيابة عن بعض الاسر المتعاونة معهم في مجال الرعي ونظام الخماسة وخدمات أخرى، أو إقراض آخرين مقابل خدمات مستقبلية . بينما كانت فئة أخرى من قواد جدد لم يكن بمستطاعهم ذلك رغم ما كانوا يقدمونه من هدايا تزلفا لبعض رجال المخزن فيما يسمى بالملاقة⁴⁰⁵ كما أشار الى ذلك القبطان إيركمان⁴⁰⁶ .والحقيقة انه تحت ذريعة استخلاص الواجبات وقبض المئونة وفرض أشكال الوظائف والكلف، مثلت مدخلا واسعا للحكام في سلكهم سبل الجور وأساليب الضغط في حق محكوميههم.

⁴⁰⁴ خ.م. ر : كناش 172 ص 111 مختصر رسالة بتاريخ 11 محرم 1308

⁴⁰⁵ التوفيق احمد : (مرس) ص 486

⁴⁰⁶ J.Erckmann : op-cit p 222

وهذا بالضبط ما دفع المخزن في وقت لاحق على إلزامهم بحلف اليمين أمام الوزراء، والقرآن الكريم بين أيديهم بالأداء التالي: "أقسم بالله العظيم أن لا أتلقى من مستوطني ولوبيضة واحدة"⁴⁰⁷. وحتى نتبين أعداد هؤلاء القواد المولين على دواويرهم ندرج فيما يلي جداول من لوائح بأسماءهم و أسماء دواويرهم ووحداتهم السكانية المولين عليها ، تمكنا من الكشف عنها من خلال وثائق الارشيف المخزني ، مع التذكير ان تعييناتهم جملة كانت في سنة 1308 هـ :

جدول 18: لائحة بأسماء القواد المعينين على الفرق والدواوير ببني معدان

القبيلة	الفرقات او الدواوير	اسم القائد	التاريخ والمصدر
بني معدان	اولاد زنون. اولاد رحو. اولاد عبد الواحد. اولاد حمزة. ايت المحفوظ من ايت بوتاس	القائد حمادي بن ابراهيم المعداني	13 ذوالحجة 1308 كناش الخزانة الملكية رقم 151 بدون ترقيم.
	آيت بن احمد والخرارزة. اولاد يك والزعارة. آيت بن رحال وأولاد لحسن	الحسن بن العالية المعداني	14 ذوالحجة 1308 نفسه
	اولاد يوسف بن ابراهيم. اولاد عمران. ايت بوزيان. اولاد علي بوزيان. اولاد يعقوب.	امبارك بن العربي المعداني	14 ذوالحجة 1308 نفسه
	آيت الحاج. آيت بن قدور. آيت احمد بن موسى. آيت علي بن موسى. دكالة. عيساوة. الهوارة. اولاد عبو	صالح بن البصير المعداني	14 ذوالحجة 1308 نفسه
	اولاد عين الناس. اولاد سعيد بن موسى. اولاد بلعيد. النصف من اولاد عمر بن ساعدوهم. آيت بوطيب. آيت رحال. آيت عبد الحق	الحفيان بن منانة المعداني	14 ذوالحجة 1308 نفسه
	اولاد عمران او عامر. الخنادسة. اولاد صباح من اولاد اسماعيل	علال الغزاوني المعداني	14 ذوالحجة 1308 نفسه
	آيت الصالح الركيعات. اولاد رحال. اولاد احمد بن مسعود. القياصة. اولاد بيهيش من اولاد حمامة بن يوسف	حم بن الجيلالي الركيعي المعداني	14 ذوالحجة 1308 نفسه
	اولاد عرفة. المعازة. اولاد حمادي. اولاد حمامة بن الشلحة.	المعطي بن موسى المعداني	14 ذوالحجة 1308 نفسه
	اولاد عمار. اولاد موسى.	يعيش بن عبد الله العماري	24 رجب 1310 نفسه

⁴⁰⁷ E. Aubain : op-cit p 211

جدول 19 لائحة أسماء القواد المعينين على الفرق والدواوي بكطاية

التاريخ والمصدر	اسم القائد	الفرقات والدواوير	القبيلة
14 ذوالحجة 1308 نفسه	محمد بوكراع الكطايي	آيت بردوز من آيت احمد لحسن. آيت عيسى واحرارين. آيت الكدية.	كطاية
15 ذوالحجة 1308 نفسه	الحسين بن المعطي خيوب الاكطايي	آيت علي سودر. آيت شموز. آيت الشلحة من آيت يعلى. آيت محلي.	
14 ذوالحجة 1308 نفسه	العربي بن مح أعلى الرحيلي الاكطايي	آيت عصام وآيت حدو. آيت علي وآيت مرهون. آيت بو علي. آيت علي ورحمون. آيت عزيز. آيت حمادي	
15 ذوالحجة 1308 نفسه	محمد بن الصالح الشحم الاكطايي	آيت عبد الواسع. آيت تودريت من آيت الربع.	

جدول 20 لائحة أسماء القواد الموليين على قبائل آيت الربع الجيشية

ملاحظات	تاريخ التولية والمصدر	اسم القائد	الربع من القبيلة
- تمت توليته بعد وفاة والده حدو الركيك في وقعة آيت سخمان - بعد وفاته تولى مكانه القائد حم الخنيزي	26 جمادى الثانية 1308. كناش خ.م. ر. 151 بدون ترقيم	- صالح بن حدو الركيك - مح او علي - سعيد بن المعطي - علي بن الجيلالي الكطايي - سعيد بن محمد الكطايي - ابراهيم بن الحسن الخنيزي	كطاية
	26 جمادى الثانية 1308. كناش خ.م. ر. 151 بدون ترقيم	- محمد وجدات - بو عزة بن بخان السمكتي - محمد بن علي السمكتي	سمكت
- تولى مكان محمد بن العربي السعيدى المعداني بعد وفاته - توفي وولي مكانه اخوه العيشي بن عبد الله العماري - بلقاسم بن الميلودي مات في وقعة آيت سخمان - مات وتولى مكانه حمادي او مولود المعداني	26 جمادى الثانية 1308. كناش خ.م. ر. 151 بدون ترقيم	- محمد بن الجيلالي - بن قاسم - محمد بوجعود اليوسفي - احمد العماري - الجيلالي بن الحاج البزازي - - حميدة بورويس. الجيلالي بن الحسن اليوسفي صالح بن احمد السماعلي	بني معدان

ربع بني ملال	- صالح بن حد الملاي - حمادي بن قدور. - عبد السلام بن دح.	26 جمادى الثانية 1308. كناش خ.م.ر.151 بدون ترقيم	- تولى معه القيادة محمد بن ابراهيم الشركي ---
الغابة بالحوز الجنوبي لبنى ملال عن اولاد بوبكر وأولاد امبارك	- الجيلالي بن الحسن البوبكري - محمد بن المعطي المباركي	26 جمادى الثانية 1308. كناش خ.م.ر.151 بدون ترقيم	الجيلاني بن لحسن :تولى مكان المعطي بن الحسن بعد وفاته في وقعة آيت سخمان
قصبه بني ملال	- جابر بن فارحة. - صالح بن ادريس	26 جمادى الثانية 1308. كناش خ.م.ر.151 بدون ترقيم	---

جدول 21: لائحة الدواوير واسماء القواد الجدد

التاريخ والمصدر	اسم القائد	اسم الفرقة او الدوار	الحوز الشمالي لبني ملال
15 ذوالحجة 1308 نفس المصدر	محمد بن ابراهيم الملاي	اولاد خداهش. اولاد ادريس. اولاد عيسى. اولاد بلخير من شراكة	

جدول 22: أسماء قواد تادالا الرتمية

ملاحظات	التاريخ والمصدر	اسم القائد	القبيلة
- - توفي وتولى مكانه محمد بن محمد السربوت	5 محرم 1308. نفسه	- عبد القادر بن الشرقي. - المعطي ولد السربوت السماعلي - العربي بن بوشتي. - قدور السماعلي	السماعلة
تمت إضافة الملاحظة التالية على هامش الوثيقة: "منه للمخزن ولا دخل للعمال في إخوانه "	5 محرم 1308	- الشيخ عبد القادر بن المعطي	

	<p>26 جمادى الثانية عام .1308 نفسه</p>	<p>- الكبير بن محمد البومطيري - الجليلي بن مولود. - محمد بن محمد الصالحي. - الميلودي بن بوعزة الراتشدي. - صالح بن حمواوشي. - محمد بن العسري البتاوي. - الغزواني بن عبد السلام. - الراشدي البوزمري - سعيد بن محمد بن سعيد البتاوي. - الميلودي بن عزيز الراشدي الصبيحي. - محمد بن عب الشكراني. - محمد بن امبارك الشكراني.</p>	<p>بني زمور</p>
--	--	---	-----------------

إن تعدد توليات القواد في العقدين الاخيرين من المرحلة المدروسة لم يكن مقتصرًا في حقيقة الامر على الجانب السهلي فقط، فقد شمل الإجراء أيضا وكما سبقت الإشارة الجانب الجبلي أيضا وإن كان بوتيرة أقل. وبذلك دبت حركة نشيطة في صفوفهم، وشرعوا في تنفيذ مطالب المخزن، وتحول أغلبهم إلى جباة يستخلصون الضرائب ويجمعون المونة، وينفذون ما يؤمرون به. غير ان سلوكياتهم التسلطية إزاء السكان كانت في غالب الأحوال تتجاوز حدود المعقول، مستغلين منصبهم واحتمائهم بصفتهم القايدوية، ليس رغبة في تقويم حالة فساد، او حرصا منهم على مدافعة حدود إيالاتهم من غلواء التسبيب و اشتداد نعرات الصراعات بين الافخاذ والفرق، بقدر ما كان اهتمامهم يتزايد اكثر في التهافت على احتجان أسباب الثروة والابتزاز واستغلال النفوذ، يتخذونها مطية لمضاعفة أشكال التعسف والجور لتحقيق تلك الاهداف. فيترتب عن ذلك ما يدفع السكان الى إظهار تحركاتهم في ردود أفعال احتجاجية تصل أحيانا إلى حد المواجهة بين الطرفين، تصل أصداؤها الى المخزن المركزي . فماذا كان موقف السلطان من ذلك وما هي التدابير التي كان يسلكها قبل تفاقم الوضع المتسم اصلا بالهشاشة ؟ .

المبحث الثالث، شطط القواد وموقف المركز للحد منه:

المطلب الاول ، استرعاء المركز للظلمة من القواد و توبيخهم :

ورد في رسالة سلطانية موجهة الى مولاي الامين رئيس المحلة الخليفية بالزيدانية، ردا على ما أبلغ به من تصرفات القايد بوزكري العميري جاء فيها: « وبعد، وصل كتابك شارحا ما ارتكبه خديمتنا القايد بوزكري العميري مع دوار اولاد نجاع من إيالته نهبا وفتكا وفعلا غير مرضي، مع براءتهم من موجب ذلك لأدائهم ما عليهم. وعرفنا ما شرحته في ذلك، فقد أساء فيما فعل. وها نحن كتبنا له في ذلك باللوم والتوبيخ »⁴⁰⁸. وبالفعل توصل القايد المذكور على إثر ذلك بخطاب شديد اللهجة من التأنيب والتقرير في رسالة المولى الحسن جاء فيه: « القايد بوزكري العميري العبدلاوي، فقد بلغنا أنك لما توجهت لجمع المونة بالزيدانية، ركبت في عدد من إخوانك الى دوار اولاد نجاع من إيالتك وأخذت جل بهائمهم وأوقعت بنسائهم وذراريهم ما لا يرضاه الله ورسوله، مع أنهم أدوا واجبه وبرتت ذمتهم منه. وعليه فغير لائق بك ذلك ولا يسع عدم مجازاتك عنه من جنس العمل إن صح عنك، واردد ما أخذت لهم من الاموال. والمتعدي رهين عمله على كل حال »⁴⁰⁹.

نستشف من الرسالتين أن القايد المذكور وهو المعروف بصاحب الدار المشهورة بوقوعها على الطريق السلطاني، يرد كثيرا اسمها بهذه الصفة كموقع في المصادر التاريخية والوثائق المخزنية. ما يعني انه كان على قدر من الجاه والثروة. لكن كل ذلك لم يغنه في استغلال فترة الجباية وتحصيل المونة لفائدة المحلة الخليفية، ليقوم بنهب سكان الدواوير والفتك بهم وتشديد النكير عليهم حتى ينصاعوا لأداء أكثر مما هو متعين عليهم والاحتفاظ بذلك لنفسه. علما ان الدوار المعني في الرسالة معدود على القبائل الجيشية، الى جانب دوار آخر هو اولاد حسون الواقع بالقرب من الزيدانية يقومون بخدمتها والمدافعة عنها. وكان من المفروض ان لا تطاله أصلا عملية جمع المونة وهذا ربما كان من الاسباب التي دفعت بسكانه الى رفع شكايتهم الى رئيس المحلة بالزيدانية دون ترددهم في ذلك ولا خوف مما قد يواجهون به من طرف المشتكى به من انتقام، ما داموا يدركون أن السلطان سيحل بظهرانيهم، وعدله كفيل باسترجاع حقوقهم.

ويظهر كذلك نصا الرسالتين الموقف الصارم للسلطان حال أخذه علما بأي سلوك أو فعل ينافي القيم الدينية في رعاية قضايا الناس، كما أشار بذلك من أن فعل القايد "لا يرضاه الله ورسوله

⁴⁰⁸ خ . م . ر : كناش 353 ص 44 ، ملخص رسالة سلطانية بتاريخ شعبان سنة 1300

⁴⁰⁹ خ . م . ر : كناش 353 ص 44 ، ملخص رسالة سلطانية بتاريخ شعبان سنة 1300

" . فمسؤولية القائد لا تقوم فقط برأي المخزن على استتباب الامن وجباية الاموال، بل أيضا على ضمان حسن العلاقات بين القبائل والوفاء برعاية شؤونهم وحل مشاكلهم من فض للنزاعات اورد مظلمة وغير ذلك من تدبير لشؤون الناس، "فالعامل أو القائد الأمثل هو من لا يثير حوله الزوابع ولا تصل أخباره الى أسماع المخزن" 410 .

المطلب الثاني ، اجراءات أخرى ، عقابا او تترিকা :

ترد في بعض المصادر التاريخية ان السلطان الحسن الاول كان في احيان كثيرة يتمهل بل يتحفظ في الاستجابة لمطالب القبائل القاضية باستبدال عامل او قائد ابديا جورا و تعسفا ازاء السكان. فقد ذكر ابن اراهيم السباعي في مخطوطه البستان الجامع ما يلي: "[...] و كانت القبائل غالب عاداتها إذا أضر بهم العمال ، خرجوا عن امرهم ليستبدلوا غيرهم . والغالب اذا صدر منهم ذلك استبدلوا غيرهم. و كان السلطان مولانا الحسن قبل استقلاله بالأمر لا يرضى ذلك، ويراه مما يزيد العامة اغراء على الطيش و الجراءة حتى على الملك، لان ذلك ادى الى كون العامة هي التي تولي و تعزل ، وجعلت القضاء فيه لا لنفسها عدلت ام لم تعدل . فلما القت الامامة الية الزمام [...] كان من جملة ما صمم عليه ، ابطال تلك العادة لأنها إن لم تنحسم مادتها ترامت للزيادة وبسبب ذلك أعرض عن طيشهم 411 " . لكن بالرغم من ذلك لم يكن السلطان يتهاون في انزال اقصى العقوبات على كل من تلطخت سمعته و بلغ به الجور حدا يستوجب معه اقصى العقوبات.

كانت الشكايات تتوارد باستمرار على بنية وزير المظالم علي المسفيوي، تتضمن في الغالب ما يلاقيه المشتكون من تعديات القواد والعمال وسطوتهم على رقاب الناس. يتوصل بأهمها السلطان عن طريق الوزير ويتخذ في شأنها ما يناسب من إجراءات تصل أحيانا إلى إرسال مساخرية أو بعض خدام المخزن يقفون على الفصل فيها، ويكون من عواقبها أحيانا عزل القائد وتولية من يخلفه في المنصب. بل قد يصل الامر الى مصادرة أملاك بعض القواد اذا استوجب الامر في حقهم ذلك وسوقهم الى سجن مصباح بمراكش او الصويرة كما حصل للقائد عبد النبي العميري عقب اعتداء أهل تادلا على إدالة بعث بها السلطان سيدي محمد متوجهة الى قصبته 412 . لكن إجراء المصادرة لا يتم بشكل تعسفي او اعتباطي، فالحامل عليه لا بد له من مسوغ شرعي ومرجع قانوني. يركز في الغالب على واقعتين: إما بالعزل ثم بالاعتقال إن اقتضى نظر السلطان ذلك جزاء لما اقترفت ايديهم من افعال مشينة تلحق الضرر بسمعة المخزن، خاصة وان القناصل

410 العروي عبد الله : (مر.س) ص 221

411 السباعي بن ابراهيم : (مخ.س) ورقة 177

412 نفسه ورقة 298 .

الاوروبيين كانوا يترصدون الوقائع وينقلونها الى بلدانهم، او ما يلحق بسكان إبيالاتهم من تعديات ما يدفعهم الى التمرد او الاحتجاج. و إما في حالة وفاة أحدهم فتباشر في حق ما تخلف عنه من مال صامت او منقول وامتعة عملية إحصاء لها بحضور العدول، فتؤول الى نظر المخزن ليتصرف فيها بما يناسب الحال، ويسمى ذلك في الخطاب المخزني بالنتريك. أي إحصاء تركة الهالك من خدام المخزن والحاقيها بمال المخزن.

وإذا لم نتمكن من الوقوف على حالات من النموذج الاول لعدم تمكننا من الوقوف على وثائق لها علاقة بالموضوع، ما عدى ما استنتجناه من رسالة بعث بها ابن الطالب الى الوزير ابن ادريس يتشفعه في إطلاق سراح القائد بوعبيد: « وكن في عونك، فإنه طال مكثه في السجن، وكما تعلم امره ووقوفه أيام ولايته نصوح واقف خادماً [...] حتى صلحت الجبال والوطا من جوار تادلة، وإن وقع من السيد بوعبيد غلطا فانه تائب لله»⁴¹³ او من الامر السلطاني بحبس قواد آيت الربع وإيداعهم سجن مصباح عقابا لهم على تخلفهم عن مرافقة المحلة السلطانية الى سوس سنة 1299 هـ. بينما في حالة النموذج الثاني فقد تحصل بين أيدينا وثيقة أمكن إدراجها كنموذج لعملية تترك لاحد ممثلي المخزن بمنطقة غير بعيدة عن تادلا شغل منصب خليفة قائد وهي فطواكة. لكن قبل التطرق الى فحوى الوثيقة، لابد من طرح السؤال: ما هو السند القانوني او الشرعي الذي يعتمده المخزن في حيازة متروك القائد الهالك مع انه كان قد جمعه وعدده من مجهوده الشخصي؟ إن موضوع احتجان خدام الدولة للأموال واكتسابهم لأسباب الثروة والجاه وظهورهم على الناس وقد اغتنوا أيما اغتناء، لم يكن من الموضوعات التي تغافل عنها المؤرخ ابن خلدون وهو أعلم أهل زمانه بما تلحقه تعسفات أهل الدولة وتسلبهم على أموال الناس من ظلمات وإفساد للعمران. فقد ذكر ان أمراء الدولة " لا يسمحون بالتجافي عن أموال (أهل دولتهم)، لما يرون انه جزء من مالهم كما يرون أنه جزء من دولتهم، إذ لم يكتسب إلا بها، وفي ظل جاهها وأنه مستحق للإنفاق في المصالح"⁴¹⁴. وانطلاقاً من مبدأ التبرير الخلدوني في أحقية الدولة حيازة أموال خدامها الهالكين واستصفاء متروكهم كونهم إنما اكتسبوه من جاهها ومما منحتهم إياهم من مشروعية السطوة والظهور على الرعية، فإن الأمر لدى المخزن لم يكن مختلفاً من حيث المبدأ عما تحدث عنه ابن خلدون.

⁴¹³ م.و.م.ر.ح : رسالة مستقلة مسجلة تحت رقم 22982 بتاريخ 22 محرم 1261 موافق ل 31 يناير 1845
⁴¹⁴ ابن خلدون عبد الرحمن: المقدمة صص 351 و352

كما ينبغي التنبه هاهنا، بملاحظة المشرفي في توصيفه لتعسف القواد والعمال وتواطئ بعض خدام الدولة في حديثه عن خطة الترتيب بالقول: "وقد استحسنته العامة، لفرط ما كان يأخذ منهم قوادهم من فرض المال الكثير عليهم بكل شهر بل بكل جمعة، بأسباب يثبتونها وتكاليف مخزنية يوجبونها وعقوبة مالية يخترعونها، ثم يختصونها بجميعها لهم ولمن سعى في ولايتهم وأعانهم على ظلمهم وتعديهم وحسن مساوئهم من الوزراء وأكابر الدولة".⁴¹⁵

فالأموال المتحصلة من متروك القائد المتوفى وقد قام بخدمة الدولة مدة من الزمن وجمعها خلال ولايته، هي في الأصل أموال الدولة، ومن متاعها. فلا يجوز التصرف فيها كما لو كانت أملاكا خاصة، فلا مندوحة من مصادرتها واستعادتها منه قصرا.

والشاهد، أن ما أفصحت عنه رسالة مستقلة بعث بها السلطان الحسن الى قائد دمناط على إثر وفاة شيخ من شيوخ فطواكة ما يوضح ذلك جاء فيها: «وصيفنا الأرضى الطالب علي الدمناطي وبعد، فما تركه الشيخ ناصر اوحداو الفطواكي من الاملاك، فإن ما تركه منها أيام ولايته على إخوانه فهولجانب المخزن لا يباع ولا يدخل في ميراث. وقد أنعمنا به على ولده الحاج علي القائم مقامه يستعين بمستفاده على الخدمة. وأما ما كان له منها إرثا من آبائه واجداده او تملكه قبل الدخول في الولاية، فهو لورثته يقسم بينهم على فرائض الله وعلى يد الشرع»⁴¹⁶

ثم ألحقت رسالة القائد بأخرى توصل بها قضاة المدينة جاء في فحواها ما يلي: « نأمر من رفعت إليه قضية ميراث الشيخ ناصر اوحداو الفطواكي من القضاة، ان يقسم بينهم ما كان له إرثا عن ابيه اوجده او تملكه قبل الدخول في الولاية على فرائض الله تعالى، وأما ما تملكه بعد الدخول في الخدمة فلا يدخل في ميراث ولا يفوت بوجه من الوجوه عيناه وانعمنا به على ولده الحاج علي القائم مقامه وأذنا له في التصرف فيه وحوز مستفاده لنفسه يستعين به على الخدمة على ان الاصل لجانب المخزن»⁴¹⁷. ويظهر هنا مسوغ أحقية الدولة من المنظور المخزني في حيازة متروك المتوفين من خدامها وهم متولين على شؤون المخزن قيد حياتهم، واضحا لا لبس فيه ولا تأويل، لان الاصل يبقى دائما لجانبه والمتروك لعهدته يتصرف فيه وفق ما يراه ملائما. وبما ان المركز قد استخلف ابنه مكانه وثبته في نفس المنصب، فإن ما خلفه الهالك مما حازه وهو قائم على الخدمة قد آل اليه يستعين به على وجه الخدمة، لذلك يتم إحصاؤه وتسجيله بوثيقة عدلية بمحضر الشهود.

⁴¹⁵ المشرفي محمد : الحلل البهية خ2 ص 262 .

⁴¹⁶ م. و. م. ر. ح: رسالة مستقلة مسجلة تحت رقم A 17001.001 بتاريخ 23 ربيع الاول عام 1290 هـ.

⁴¹⁷ م. و. م. ر. ح: رسالة مستقلة مسجلة تحت رقم A 17001.002 بتاريخ 23 ربيع الاول عام 1290 هـ.

الفصل الثالث، الأمناء والشرفاء والمرابطون ،قنوات موازية في التمثيل المحلي.

- المبحث الاول، وسائل مادية و مفاهيم تنظيمية .
- المبحث الثاني، الأمناء ودورهم الاستجابي .
- المبحث الثالث، الأشراف العلويون .
- المبحث الرابع، المرابطون .
- المبحث الخامس ، رصد جوانب من وظائف محلة خليفية .

الفصل الثالث

الأمناء والشرفاء والمرابطون، قنوات موازية في التمثيل المحلي للمركز:

المبحث الاول، وسائل مادية و مفاهيم تنظيمية:

تفيدنا الوثائق فضلا عما افصحت عنه من تطور المظهر التمثيلي للمركز بالإقليم وكثافة الحضور المخزني الذي شهد طفرة نوعية من حيث التعديد في اتساق مطرد مع مستجدات ومتغيرات فرضت على المخزن اتخاذ اجراءات مناسبة تهم تدبير الشأن المحلي، حيث بدا جليا انه منذ بداية المنتصف الثاني للقرن 19 أصبح لتأثير الضغوط الاجنبية تجليات واضحة على مستويات شتى، تفيدنا بالتجاء المخزن لما اقتضته الضرورة في توسيع قاعدته التمثيلية في التدبير المجالي، وذلك بدفع فئة جديدة لمباشرة مهامها ضمن نسق الخدمات المخزنية. وتتجلى في الامناء الذين كانت تنحصر مهامهم فقط بالموائى وبالمدن الحضرية كما هو شأن مدينة دمنات. بالإضافة الى الایعاز للمرابطين والشرفاء على استثمار رأسمالهم الرمزي لدى العوام فيما يخدم مصالح المخزن.

وقبل التطرق الى هذا المبحث تتعين الاشارة اولا الى أن المخزن كان يتخذ بعض الادوات المادية والوسائل التدبيرية لدعم مجهوده الجبائي اخترنا منها نموذجين:

المطلب الاول،أمراس القصبه الزيدانية أداة لتخزين مقدرات الاقليم من الحبوب:

اشتهرت القصبه الزيدانية كمستودع لتخزين الحبوب بما توفر بها من اقبية ومستودعات كبرى. وإذا زاد فائض المدخول من القمح والشعير عن سعة تلك المستودعات، كان القائد المكلف بذلك يضطر الى الاستعانة بالأمراس المنتشرة بكثرة داخل أسوار القصبه وربما خارجها لتخزين الحبوب من القمح والشعير وهي على شكل مطامير* تم احتفارها لهذه الغاية. وحتى يتسنى لنا أخذ فكرة عن مستوى حجم ما كانت تتلقاه من كميات الحبوب إبان المواسم الجيدة لنستمع الى ملخص رسالة القائد الهرضة المكلف بتلقي وإحصاء وتخزين كل المدفوعات من الحبوب بالقصبه أبلغ فيها : « بوصول إبان دفع حبوب الاعشار والخديم صالح يأخذ نصفها ويدفع للمرس النصف. وقد طلب

منه بعض العامة إنهاء ذلك، طالبا أمر الخديم المذكور ببيان ما يدفعه من ذلك. فقد دفع في السنة الماضية 600 خرايب قمحا و500 شعيرا، والخير في هذه السنة موجود»⁴¹⁸.

وإذا عزلنا جانب الوشاية في الرسالة وهي ميزة كان يستفيد منها المركز في تتبع كل الوقائع من خلال حدوث حالات من عدم التوافق بين القواد، فإن حجم إيراد كمية من الحبوب بلغت 1100 خروبة من طرف قائد واحد، أي ما يعادل مائة طن من الحبوب⁴¹⁹.

المطلب الثاني، مفهوم شد العضد كما يراه المخزن :

نعثر في كثير من نصوص المراسلات الصادرة عن المخزن، دعوته لقائد ما إلى شد عضد قائد آخر خاصة في فترات الجباية. ويظهر فيها الأمر بشد العضد كوسيلة يعتمدها المركز لدعم قائد لآخر على أساس الدعم والمؤازرة بالقوة لإنفاذ أمر مخزني، دون اللجوء إلى استعمال العنف. وحتى يعطي المركز لهذا المفهوم معناه الاجرائي، فقد بادر إلى مراسلة أحد القواد بمنطقة سوس. على أن مضمونها وغاياتها ينسحبان على كافة ممثليه بباقي الأقاليم، ورد فيها ما يلي: «القائد احمد العبوبي، وصل كتابك معلما بأنك دفعت الكتاب الشريف لآيت باعمران بعد حلوك قبيلتهم وإجابتهم بالسمع والطاعة، طلب منك العمال شد عضدهم على عامتهم وابدوا لك ما ابدوه من شكايتهم، فتوقفت عن مساعدتهم لما شرحته، وغضضت الطرف لما من شريف جنابنا من إذن رجوته، وصار بالبال. واعلم أن شد العضد فيه تفصيل: فمن كان جل إخوانه معه يكون الدرك (الضغط) عليهم، ويكون المخزن انما هو بركة وإعانة فيشد عضده بالمخزن، وكذلك عكسه، فإن كان معه القليل ولكن الجوار يسمعون إليه وينهضون معه، فيشد عضده بالمخزن أيضا على الوجه الاول إعانة وبركة، بحيث لا تكون العمدة في شد العضد على المخزن. واما غير هاذين فيدافع ويسادد بينه وبين إخوانه وهذا الذي يكون عملا عليه فنبه أجفان يقظتك إليه وقم على ساق الجد والحزم فيه»⁴²⁰. ونفهم من ذلك أن المخزن لم يكن يروم من إعطاء الأمر بشد العضد إلا لفرض هيئته ومنح طابع الالتزام وإنفاذ القانون في مساعدة الطرف الذي يحتاج لشد العضد بما يحمله من معنى البركة والإعانة.

* عثرنا في نصوص وثائق ان المطامير بمدينة قلعة السراغنة إلى حدود العهد الحسني كانت تستغل أيضا لتخزين الزيتون ، يتم اعتصاره في وقت لاحق

⁴¹⁸ خ. م. ر. : كناش 468 ص 61 مختصر رسالة بتاريخ 18 ذو القعدة سنة 1308 هـ

⁴¹⁹ اشار القبطان الفرنسي ايركمان في كتابه المغرب الحديث ص 162 ان مقدار وزن الخروبة حوالي 210 لتر

⁴²⁰ خ. م. ر. : كناش 353 ص 16 .

وقد أبلغ في هذا الصدد القائد عبد النبي العميري المركز انه قام على ساق في دفع المونة لمولاي العباس بالزيدانية بعد توجيه قائد المائة الا ان إخوانه لم يلتفتوا له طالبا من كبير المحلة شد عضده فكان جواب السلطان « بالجوار»⁴²¹.

1- الامناء:

الامناء جمع أمين، و هو الشخص الموثوق به و المعروف عنه حفظ الامانة و العهد ، و قد تدرجت هذه الصفة على مستوى بناء العلاقات الاجتماعية حتى غدت مرادفة لامين حرفة معينة ينتخبه الحرفيون بالحواضر لحل مشاكلهم و فض المنازعات الخدمائية بينهم و بين الناس لرجاحة عقله و دماثة خلقه و خبرته المهنية. ومنذ القديم اتخذ أمناء الحنطات ساعدا أيما للمحتسب فيما يرجع الى طلب رأيه حول شؤون المهنة والمعرفة بأحوالها وأصحابها. ثم ارتقى مفهوم صفة الامين الى مستوى أعلى عندما ارتبطت توظيفه بخدمة المخزن، واصبحت مهمة لها وزنها داخل منظومة التدبير المخزني للقضايا المالية. و من ثمة أصبحت صفة الامناء تطلق على المكلفين بكل ما يتعلق بالحسابات المالية قبضا او صرفا دخلا او صائرا إما بالموائى و المراسي او بأبواب المدن و الاسواق و إما بالبنيات داخل دار المخزن حسب التعيين. ويرأسهم أمين الامناء و هو ما يعادل اليوم منصب وزير المالية.

المبحث الثاني، الأمناء ودورهم الاستجابي:

نستطيع التأكيد من خلال ما توفر لدينا من وثائق ومستندات ومراسلات مخزنية، أن عملية تعيين الامناء بالإقليم التادلي وتحديد المناطق السهلية منه لم تباشر الا في عهد السلطان المولى الحسن.

وبصرف النظر عما يمكن اعتباره إجراء غير معزول عن خيارات التدابير الاصلاحية التي قام بها السلطان لتعزيز جهود المغرب الاصلاحية. فإنها اندرجت ضمن عملية إصلاح متعددة الاهداف والمقاصد، منها ما يرمي الى تحسين قدرات المخزن لمواجهة التحديات المحدقة بالبلاد من جهة، ومنها ما يتصل باقتراحات قنصل الدول الاوروبية وتحديد النائب الانجليزي منهم، خاصة ما تعلق بالجانب الجبائي وتدقيق أنواع الضرائب والأمكاس، والطرق الحديثة في تحصيلها ومراقبة القائمين عليها. أدى الى إحداث نظام جديد في التحصيل أطلق عليه الترتيب، " لو بقي على أصله الذي أصله ابتداء من ضبط القبائل وما لدى كل بالحساب والتقييد، بحيث تجرى الوظائف والتكاليف على حسب حال كل قبيل، بحيث لا يبقى حيف ولا سبيل في ذلك للمزيد،

⁴²¹ خ م. ر : كناش 468 ص 59 ملخص رسالة بتاريخ 28 ذو القعدة 1308هـ.

ويحصل به الفرق للرعية وتنحسم مادة جور العمال بالكلية، فاستحسن ذلك⁴²². فجاء تعيين الامناء في هذا السياق. غايته من ذلك تحسين العمل الجبائي وتجويده متحصلاته، وتخفيف العبء عن السكان من جور العمال والقواد بمغالاتهم في التقدير الجبائي، وتدقيق الحصص المعينة على كل منطقة واهلها، واستجلاء كل لبس أو غموض يطال المقادير المجابة، كان ممثلوا المخزن لا يفصحون عنها بالدقة المتوخاة. وهذا ما سيشكل عنصر تنافر بين الامناء وهؤلاء. فكثرت بسببه الوشايات والمكاتبات ومحاولات الايقاع ببعضهم البعض. لكن بمقتضى خدمة المخزن كانت تلزم ممثليه بما يمتلكون من سلطة على مساعدة الامناء وتقديم يد العون لهم وشد عضدهم في استيفاء ما يفرض من واجبات. لكن هذا لم يكن يعني أن مهمة الجباية قد انتهى أمرها بالنسبة للقواد، أو أن الامناء الجدد سينتزعون منهم هذه الوظيفة. بل على العكس من ذلك ظلت فئتهم قائمة على تنفيذ هذه المهمة بينما كان عليهم أن ينخرطوا في عمل تنافسي وهو ما كان يستفيد منه المخزن المركزي. والواقع ان مهمة الامناء اقتصرت على الجباية فحسب دون ان يبلغ بهم الامر شأو التدخل في مهام القواد. بمعنى ان وظيفتهم ستكون بمثابة الرديف لعمل القواد، دون ان تمنعهم طبيعة عملهم بمكاتبه المركز عن كل ما يجري داخل نفوذهم الجبائي بل لا يتورعون في الابلاغ عن منافسيهم من القواد.

المطلب الاول، تعيين الأمين "الطاهر بن المعطي الشكدالي" نموذجاً:

يتم تعيين الامناء بظهير سلطاني وتحدد فيه منطقة الجباية وتنفيذ المهام. وعليه ان يتوفر على خاتم يدمغ به مكاتبته وقوائم الحسابات التي يرفعها الى المركز. وختم الامناء يتميز عن الذي يستعمله القواد. فهو مستطيل الشكل مثن الاضلاع يحمل وسطه اسم الامين تمييزاً عن غيره من الامناء.

وتطالعنا وثيقة من الارشيف المخزني تتضمن رسالة من الأمين الشكدالي بعث بها الى الوزير الصنهاجي على يد المولى عثمان رئيس المحلة الخليفية وهي لا تزال مرابطة بالزيدانية جاء فيها: «الفقيه العالم وزير سيدنا محمد الصنهاجي وبعد، فاعلم سيادتك أنني قدمت من حضرة العلية بالله بكتاب سيدنا الاعز لمولاي عثمان أن نعيد على واجب بني عمير وبني شكدال، ثم فتح سيدنا الخليفة كتاب سيدنا الذي صحبت له، وجد فيه بني شكدال ووقع السهو في الكتب على بني عمير لم يذكروا في الكتاب. وقاموا على الاميين الذين بالمحلة وأرادوا ان ينزعوا مني بني عمير،

⁴²² السباعي بن ابراهيم : (مخ.س) ص 416 .

والظهير الاول الذي من علي سيدنا به في الخدمة فيه بني عمير وبني شكдал. وأذن لي الخليفة بالكتاب هذا. ونطلب من الله ومنك ان تكتب للخليفة على ما في الظهير الاول»⁴²³.

ونلاحظ من فحوى الرسالة ان ظهير التعيين حدد بدقة مجال عمل الامين، وأن هناك مدافعة شديدة فيما بين الامناء في المنافسة على تغطيتهم مساحات جبائية واسعة في عملية التحصيل. لكن ما يثير الانتباه ومن خلال تفحص طريقة صياغة الرسالة ورداءة خطها وتعدد الاخطاء وتدني مستوى تعبيراتها، ينم عن عدم اشتراط توفر مستوى علمي او فقهي ولومن درجة أدنى لدى من يتولى هذه المهمة. عكس ما هو عليه الامر عند كتاب الدواوين. والراجح هنا ان تعيين الامناء شأنهم شأن القواد المنتسبين لقبائلهم كان يتم وفق شروط معينة منها اليسار والمكانة الاجتماعية وسط القبيلة والقدرة على العمل والتواصل مع المركز بالإخبار عما يقع ضمن اختصاصه. غير ان الملاحظ هنا، ان اعدادهم القليلة لم تكن تتناسب مع شساعة الاقليم ولا مع أعداد قبائل وفرقاته ودواويره. علما ان وجودهم كان منعزلا بالمجال الجبلي، لكن كان يقابلهم من يسمون "بشيوخ الربيع" * وهكذا ظل القواد هم الاداة الاكثر فاعلية في قبض الواجب والمونة ويبين الجدول التالي اعدادهم بالقبائل حسب ما تم استنتاجه من الوثائق المخزنية:

القبائل	عدد الامناء	المصدر	ملاحظات
بني موسى	02	ك. خ.م: 172 ص 36.90	
بني عمير	01	ك. خ.م: 172 ص 02.	كما كان يرافق المحلة الخليفية
بني زمور	01	ك. خ.م: 353 ص 83	المرابطة بالزيدانية أميين آخرين
ورديغة	01	ك. خ.م: 353 ص 90	

وبالعودة الى رسالة الامين الشكدالي، وبعد تتبع مآل الرد عنها، تبين انه تم فعلا الوقوف على تدارك السهو الحاصل بشأن بني عمير من خلال ملخص الرسالة التالية: « الأمين الطاهر بن المعطي الشكدالي بأن الكتاب الشريف لمولاي عثمان بتعيين من يقف معه على قبض الواجب من بني شكдал وبني عمير لم يلق فيه الا بني شكдал ووقع السهو على بني عمير طالبا استدراك ذلك له في كتاب آخر. قال مولانا يساعدا»⁴²⁴.

⁴²³ م. و.م. ر.ح: رسالة مستقلة مسجلة تحت عدد 28576 بتاريخ 22 شوال عام 1307. و تتعين الاشارة الى انه تم تصويب الاخطاء الواردة في الرسالة حتى يستقيم اللفظ دونما اي تدخل او تحوير يمس المعنى. ⁴²⁴ خ. م. ر: كناش 172 ص 02 بتاريخ 23 شوال 1307.

طفق الامين بعد ذلك مُجدا في قبض الواجب من بني عمير وبني شكداًل مخبرا المركز»
بأنهم قائمون على ساق، ويسر من دوار إخوانه بني شكداًل 22 فرسا. طالبا بيان أجرته من بني
عمير»⁴²⁵. نستشف من النص ملاحظتين اساسيتين:

- ان قبض الأمين من الواجب لم يكن فقط مالا ناضا، بل عينا أيضا لان المال بالبادية كان قليل
السيولة، فحتى المونة التي كان المخزن يفضل دفعها مالا كان أغلب السكان يدفعونها عينا من قمح
وشعير وسمن ودقيق.

- ان الأمين وهو لايزال حديث العهد بمهمته، يستفسر بيان أجرته عن عمله، وهي في الغالب كانت
تحتسب على قدر جزافي على نسبة مقدار ما يستجيبه. فما هي هذه النسبة وما تقسيماتها؟

المطلب الثاني، أجره الأمانة:

لم تكن مسألة المرتبات والأجرة ولا تحديد نسبتها وقيمتها مطروحة على المخزن إزاء ما
يقوم به القواد والعمال من مهام داخل إيالاتهم أو خارجها. لذلك فهم لا يعتبرون من فئة الموظفين
بالمفهوم المخزني للكلمة. فقد كان يكفيهم ما يتوصلون به من ظهير التولية وقبة وفرس وخاتم
وأحيانا "مكحلة" من النوع الحديث ليشرعوا في عملهم، وتغنيهم ثروتهم وأملاكهم وجاههم
وسط القبيلة عن اية أجره. وهذا في حد ذاته لم يكن إلا مطية تمكنوا تحت ذريعتها من ممارسة
اشكال من الابتزاز والتعديت، كما المحنا الى ذلك في موضوع شطط القواد. بينما يختلف الأمر
تماما لدى الأمانة، فهم وإن كانوا غير معدودين من جملة موظفي المخزن، ولا يتقاضون مرتبات
من مالية الدولة، فإن طبيعة عملهم وفترة ظهورهم التي تزامنت مع تزايد مطالب الانجليز لإصلاح
منظومة الضرائب، قد سمح لهم المخزن بتقاضي أجره عن عملهم بمقدار معين. «الأمينين علال
الموساوي والمعطي الشكدالي وصل كتابكم طالبين من جانبنا الشريف تعيين أجرتكما لتظهر
خدمتكما»⁴²⁶ ما يفسر ان مسألة أجره الأمانة لم تكن قارة ولا ثابتة فهي تتغير ارتفاعا وانخفاضا
حسب ما يحدده مؤشر مالية الدولة. إذ كانت العملية برمتها تحتسب على قاعدة نسبة معينة تقطع
لفائدتهم مما تحصل لديهم من مقادير الجباية والمئونة. ينتقل الأمين احيانا من مهمة القبض الى
مهمة التبليغ والاستخبار بأعداد الرؤوس من المواشي الموجودة بحوزة السكان خاصة منهم الاعيان

* عثرنا في رسالة لمحمد اوسعيد البراوي الى المركز تظهر وجود شيوخ الربيع بالجبل التادلي

⁴²⁵ خ. م. ر : كناش 172 ص 36 بتاريخ 19 ذو القعدة 1307هـ.

* الصفيحة في اللسان الدارج تعني حذوة الفرس .

⁴²⁶ خ.م.ر : كناش 694 ص 230 بتاريخ شوال 1311هـ . و نلاحظ انه الى هذا التاريخ المتأخر من العهد الحسني لازال الامناء يستفسرون عن مقدار اجرتهم .

من ذوي اليسار من ذلك على سبيل المثال: « أن بأن ما عند بوزكري بن ست من الغنم هو 500 رؤوس وناقتان ومن البقر 60. كما ان عند عبد الله الهاتني مثل ذلك»⁴²⁷.

ولما كانت تلك الاجرة يستخلصونها بأنفسهم مباشرة بعد القبض بمقدار نسبة مائوية من المتحصل، فإنهم كانوا في كثير من الاحوال يبالغون في تقدير الجبايات حتى يتسنى لهم الاستفادة من نسبة الاجرة المحددة منها، فأصبحت بذلك ظاهرة الاعتساف بينهم تتسلل الى سلوكياتهم بالندريج رغم كون سلطتهم التقديرية لم تكن من مستوى القهر كالتي لدى القواد والعمال. فقد اشكى قواد بني موسى « بأنهم لحقهم ضرر من الأمانة المكلفين بقبض الواجب لكونهم يطلبون في الالف ريال 57 ريالا وكذلك في ثمن الدفع زيادة على طلبهم شراء الاحبال لربط الخيل وثمان الصفيحة* والعلف وذلك لم يعهدوه»⁴²⁸. وعلى الرغم من أهمية المعلومة الواردة في الرسالة لا يمكن فهمها الا في سياق ما دأب عليه القواد بالوشاية عن منافسيهم، فإنها تعكس جانبا من تعسفات الامناء باختلافهم تكاليف تترتب عن عملهم. منها أداء مصاريف حبال الاحصنة وحنواتهم وغيرها. بل كانوا احيانا يستخلصون أجرتهم حتى لو لم يكلفهم الامر تنقلا ولا أتعابا. فقد جاء في رسالة الوصيف* محمد بن الحسن الحربي مشكيا من تصرفات نفس الامناء ما يلي: « أن عمال تادلة جادون في الدفع على يد الامنيين ويقبضون ريالا في المائة فتحصل لهم في واجب بني موسى 1800 ريالا مع ان القبائل يأتون بالدفع ولا كلفة على الامنيين»⁴²⁹.

ونتبين من خلال نصي الرسالتين أعلاه بشأن مقارنة نسبة تقاضي الامناء لأجرتهم إذا ما اعتبرنا ان موضوعها ينسحب على كافة أمانة الاقليم التادلي، ان نسبة ما يأخذونه عن جباية الاعشار والزكوات يصل ما بين 2 الى 5 بالمائة. و1 بالمائة بالنسبة للمتحصل من دفع المونة. لقد ساعدت بنية المخزن على المستوى المحلي وطبيعة علاقة ممثليه بالسكان القائمة في كثير من مظاهرها على الاشتطاط واستغلال النفوذ، على التجاء هؤلاء الامناء الى ابتداع أساليب ملتوية، تحذوهم فيها الرغبة الى الاثراء على حساب السكان الموظفة عليهم اشكال الضرائب والواجبات. منها جنوحهم الى التدليس والتلاعب في سومات المواشي القابلة للدفع وسعيهم الى تخفيض سعرها في عين المكان مقارنة مع سعر السوق المحلية حتى يتسنى لهم الحصول على عدد

⁴²⁷ خ. م. ر : كناش 172 ص 36 بتاريخ 11 ذو القعدة 1307 هـ

⁴²⁸ خ. م. ر : كناش 172 ص 55 بتاريخ 28 ذو القعدة 1307 هـ

* ترد عادة لفظة الوصيف على القواد التابعين للمركز المخزني وهم في الغالب يتبعون للقبائل الجبشية

⁴²⁹ خ. م. ر : كناش 172 ص 90 بتاريخ 24 ذو القعدة 1307 هـ

أكبر من المواشي يدفعون به الى ما يوافق مقدار الواجب المفروض، على اعتبار ان مقدار هذا الاخير أصبح يفرض جزافا دون الأخذ بقاعدة النصاب الشرعي.

وحتى نتبين واحدا من نماذج التدليس التي بات يسلكه بعض هؤلاء الامناء نستمتع الى رسالة القائد علال بن عبد النبي العميري: « [...] أنه توجه بخمسين من الخيل وخيل إخوانه لبني شكдал ونزلوا عليهم عشرة أيام، فدفعوا لهم 70 من البقر من حساب عشرة ريال للواحد فيجعل الأمناء ستة ريال للواحد، كما حاز منهم ستة عشر من الخيل بحساب خمسين ريالا ويحسب لها أربعين ريالا للواحد»⁴³⁰. ونستفيد من هذه المعطيات ان الامناء كانوا يلجئون الى تخفيض سعر المواشي أمام الملاء من الناس، حتى يتسنى لهم تحصيل مزيد من عدد الرؤوس ليتوافق والمقدار الذي المعين. كما يفيدنا النص ايضا ان غاية الأمناء من هكذا تلاعب بأسعار المواشي وإقدامهم على اعتماد سعر أقل مما هو معمول به في السوق أمام الملزمين ثم العودة الى إقرار سعر السوق المحلية عند الدفع النهائي هو حرصهم على أن يفضل بين أيديهم فارق مالي يحتفظون به لأنفسهم. وحسب النص فان اجمالي متحصل البقر بسعر الامين هو 420 ريال بينما سعره في السوق هو 700 ريال. والخيل 640 ريال بينما في السوق سعرها جملة هو 800 ريال. واذا كان مبلغ دفع بني شكдал من المواشي قد استوفى المبلغ المقرر لهم والمحدد في 1500 ريال بسعر السوق فان المبلغ الذي حدده الامين لم يتجاوز 1060 ريال. لذلك فان على بني شكдал ان يستكملوا ما بقي بذمتهم أي 440 ريال وهو المبلغ الذي سيؤول في النهاية الى "شكارة" الامين المذكور.

لكن بالرغم من كل هذا وذلك، لا ينبغي ان نفهم ان المخزن المركزي كان يترك الحبل على الغارب ولا يلقي بالا لمسألة أجور الامناء. فقد كتب السلطان الى قائد المحلة يحثه على مراقبة عمل الامناء ومحاسبتهم. ندرج نموذجا من بعضها: « مولاي عثمان عما أمر به من محاسبة الامينيين اللذين معه فيما حازاه أجره من بني عمير وبني موسى »⁴³¹.

وتجاوزا لكل التباس، سعى السلطان الى تحديد نسبة لهم معينة مقابل خدماتهم يقطعونها من مجموع ما يقبضون. ففي رسالته الى أمين المحلة الخليفة استقدم من دمناات كتب السلطان ما يلي: « أدنا للأمين المكي الصبان المراكشي الموجه مع المحلة السعيدة المصحوبة

⁴³⁰ خ.م. ر : كناش 172 ص 106 بتاريخ 08 محرم 1308 هـ.

⁴³¹ خ.م. ر : كناش 172 ص 135 بتاريخ 4 صفر 1308 هـ.

مع ولدنا مولاي العباس اصلحه الله في قبض ريالين إثنين عن مائة من جميع ما يدخل عليه لجانب المخزن من مال الواجب ممن يؤدي ذلك «⁴³².

وفي رسالة الأمين المشهوري المعين على قبائل بني خيران ووردية الى السلطان يقول فيها: « أنه فرض على أولاد ابحر 15000 ريالاً وهو واقف على قبضها. وأن سيدنا جعل له موزونتين للمثقال من هذا العدد. »⁴³³

يتضح من نص الرسالة ان الأمانة بالإقليم التادلي، كانت لهم سلطة تقديرية في تقويم وتحديد المقدار ما يدفعه المتوجب على كل فخذ او فرقة. لكن الاشارة المتعين توضيحها أكثر هي ما قرره السلطان بشأن مبلغ أجرة الأمين المشهوري وقدرها موزونتين عن كل مثقال. وبما ان النص يتضمن المبلغ بقيمة الريال وليس بالمثقال فإن البحث في مقايسة القيم النقدية في تلك الفترة وحتى نتمكن من الحصول على النسبة الحقيقية التي ستفضل للأمين من عملية قبض الواجب من فخذ ابحر بقبيلة وردية، قادنا الى تبين النتيجة من خلال عملية حسابية بالكيفية التالية:

يتعين بداية مراجعة رقم 15000 ريالاً الوارد في النص بحذف الرقم الاخير من العدد ليصير 1500 ريال كونه يمثل العدد الاصغر في وحدات النقد كما هو متعارف عليه في تسجيل الارقام قديماً. وبالتالي نلاحظ انه من غير المنطقي ان يكون متحصل الواجب من بني شكдал كما هو مبين في الرسالة اعلاه 1500 ريال وفخذ ابحر 15000 ريال. والحال ان المخزن كان يعتمد منهجية إحداث التوازن حتى على مستوى الجباية بين قبائل الاقليم. وعليه فإن نفس العدد يأتي متوافقاً بين الطرفين.

ومن اجل تحويل القيمة النقدية لموافقة سعر الريال مع المثقال فإن الامر اقتضى منا العودة الى ما سجله القبطان إيركمان سنة 1882 بهذا الخصوص وهو كالاتي :

- الريال = 10 مثقال.

- المثقال = 10 أواق

- الموزونة = 1/4 اوقية⁴³⁴

وبما ان المثقال الواحد تعادل قيمته 10 اواق، والاوقية الواحدة تساوي اربع موزونات. فإن المثقال يصير معادلاً ل 40 موزونة. وإذا احتسبنا قيمة الريال الواحد الذي هو 10 مثاقيل او 400

⁴³² خ.م.ر : كناش 161 ص 56 بتاريخ 6 رمضان 1308هـ

⁴³³ خ.م.ر : كناش 172 ص 59 بتاريخ 6 ذو الحجة 1307هـ.

⁴³⁴ J. Erckmann M op-cit p 162

موزونة، فإن الأجرة المعينة للأمين المشهوري يتم احتسابها كالاتي : 1500 ريال × 400 موزونة = 600.000 موزونة.

$$600.000 \div 400 = 1500 \text{ ريال.}$$

وبما ان 1500 ريال تعادل قيمتها 15000 مثقال، وان الامين يتقاضى موزونتين عن كل مثقال، فإن أجرته بلغت 30.000 موزونة اي ما يعادل 75 ريال. وإذا تم تحويلها عينا فإنها قد تعادل سبعة رؤوس من البقر وشاتان ونصف. أما النسبة المئوية فقد جاءت بالنتيجة الاتية :

$$30.000 \div 400 = 75.$$

$$600.000 \div 400 = 1500.$$

$$75 \div 1500 \times 100 = 5\% .$$

المطلب الثالث، علاقة الأمناء بالقواد:

كان التنافر وعدم الانسجام هو السمة الطاغية في علاقة الامناء بالقواد. فقد كثرت شكايات القواد بالأمناء وتعددت الوشائيات بهم والابلاغ عن سوء تصرفاتهم. ولم تكن ادعاءاتهم نابعة من نزوعات الورع أو طهرانية قيم التقوى اتصفوا بها، بقدر ما يدخل ذلك في إطار نوع من ردود سيكولوجية أطرت فعلهم، لما شعروا به من مضايقة الامناء لهم، وباتت منافستهم تهدد مداخلهم الشخصية. بل أصبح بعض الامناء يقدمون خدمات كانت من صميم عمل القواد. ففي رسالة سلطانية الى القائد محمد الحربيي يأمره بدفع مائة شاة من دفع وردیغة للأمين محمد المشهوري على وجه الحفظ والصيانة⁴³⁵.

وقد سعى المولى الحسن الى جعل عمل القواد والامناء متضافرا في خدمة المخزن وهوما تؤكده رسالته الى القائد ابن الحسن الحربيي: « فأنمرك ان توقف معك الامين الطالب العربي المشهوري على قبض الواجب من وردیغة، بحيث يكون كأحدكم في ذلك ويده ويدكم فيه واحدة »⁴³⁶. لكن بالرغم من ذلك لم يكن القواد يستطيعون إخفاء نفورهم من الامناء، وهوما حصل للأمين محمد بن العربي المشهوري عندما اعتقله القائد احمد المشهوري. الا ان السلطان دعم جانب الأمين موبخا القائد في مختصر الرسالة التالية: « [...] وقد أسأت في القبض عليه من غير إذن، مع أنه

⁴³⁵ خ. م. ر : كناش 353 ص 199 بتاريخ 1300 هـ

⁴³⁶ خ. م. ر : كناش 353 ص 91 بتاريخ 12 شعبان 1300 هـ

أمين مكلف بأمرنا الشريفة. وعليه سرحه بفور وصول قائد المائة وعشرة من الخيل الموجهين لك بقصد ذلك وادفع لهم سخاريهم»⁴³⁷.

ومن جانبهم، فإن الأمناء بدورهم لم تعدمهم رغبة في النيل من غرمائهم القواد، فقد بعث الأمين الطاهر الشكدالي برسالة الى المخزن المركزي يخبر فيها « أن قواد بني موسى قبضوا في الأعشار مالا له بال، وما دفعوا منه شيئا لبيت المال. كما قبضوا في الذعائر ما قبضوه ما بين 100 ريال و300 ريال. وما قصرنا من قلة المروءة. طالبا محاسبتهم ليستوفى منهم ذلك

« 438

وقد يخال المرء وهو يطالع نصوص هذه الرسائل، أن المخزن المركزي بعد أخذه علما بما يقع من تعسفات القواد وتلاعب بعض الأمناء بأرزاق الناس مستغلين مناصبهم وما عهد إليهم في الإئتمان على مصالح العامة والمخزن، أن المركز سيواجههم بما يستحقون من العقاب والتأديب من عزل أو سجن. إلا أن انشغالاته بقضايا كبرى، ورغبته في توسيع الوعاء الجبائي لتحصيل مزيد من الموارد المالية هو في أمس الحاجة إليها لتغطية مصاريف شؤون ودواليب الدولة، فضلا عما يراه من حصول نوع من المنافسة بين الفئتين، والوشاية ببعضهم البعض، من عامل إيجابي قد يكبح نهم الجميع. ناهيك عن طغيان سمة ثقافية وسلوكية في صفوف ممثليه الى المستوى الذي جعلهم يتذمرون حتى من المشروع السلطاني القاضي بإصلاح المنظومة الجبائية وإحداث ما سمي بالترتيب. كل ذلك جعله يغض الطرف مؤقتا عن خروقاتهم ما لم يتجاوز الأمر حدا معيناً، فيصير أشدهم ظلما وطغيانا وإثارة للانتباه طعمة للزجر والعقاب وربما بمصادرة الاملاك أو السجن.

وتجدر الإشارة بهذا الصدد أن عددا من هؤلاء ممن تقلب وتدرج في خدمة المخزن لمدة طويلة، قد اكتسبوا بفضل احتكاكهم الطويل بشؤون الحكم قدرا من الدهاء وخبرة في وسائل التدليس والتلاعب تمكنهم من الإفلات من مساءلات واستفسارات المركز والتحرز مما يشق عليهم القول. ففي وشاية القائد صالح بن حم العبدلي ضد القائد المكلف بأمراس القصبية الزيدانية بعث بها الى المركز يقول: «[...] أن الزرع الذي حازه من إخوانه اولاد عبد الله وأولاد سالم فعشر عبرات في كل خروبة، قد وجد وصيف سيدنا الهورضة يكتب له ب8 عبرات لكل خروبة بمحضر الأميين

⁴³⁷ خ. م. ر : كناش 353 ص 74 بتاريخ 08 شعبان 1300 هـ
⁴³⁸ خ. م. ر : كناش 172 ص 164 بتاريخ 22 صفر 1308 هـ

الموجهين. قال مولانا: يكتب له. ⁴³⁹ وعند استفساره حول النازلة، تعلل بالجواب التالي: « [...] عما بلغ عنه من حيازة الاغشار بعبرات 10 ودفعه بهذا 8، فإن المقصود بذلك التحرز من الكسر* إذا مكث طويلا في المطامير، او وقع فيه تذبذب، فلذا جعل خشية أن تحسب عليه خيانة. وأن قواد المائة يحوزون من إخوانهم بلا مكيال، فيحوزون لأنفسهم النصف. قال مولانا: لا يسمع له وبما قبض يدفع والكسر معلوم حكمه. ⁴⁴⁰ مع الإشارة الى أن لفظ "لا يسمع له" الوارد في الرسالة، يفهم منه أن تبرير القائد لمسألة الكسر الذي يظهر انه حاول تضخيم مقداره، هو كلام مردود. أما وشايته عن قواد الميئين، فالراجح أنهم قد يخضعون بدورهم للمسائلة عن سلوكهم وجشعهم، الا انه من المستبعد ان نتوقع من ردودهم غير اختلاق تبريرات يحسبونها مقنعة تنجيهم من العقاب من قبيل إدراج اسماء الشهود او التذرع بكيدية الإدعاء.

2- الشرفاء والمرابطون :

ليس من اليسير من الناحية النظرية، تقبل إدراج فئة الشرفاء والمرابطين القاطنون بالمجال التادلي ضمن ركب خدام المخزن وإلحاقهم بفئة القواد والعمال وخلفائهم، ومن تمة اعتبارهم من جملة ممثلي المخزن المحلي ينسحب عليهم ما ينسحب على باقي رجال المخزن من قوانين وجزاءات. فهم على أية حال فئة اجتماعية لها مكانتها لدى عموم الناس بما يقابلون به من مظاهر التوقير والاحترام، وكذلك من حظوة لدى الدوائر المخزنية العليا. لكن من ناحية أخرى، فإنه ليس من العسير إدراك أن وجود هذه الفئة ومصيرها مرتبط ليس فقط بالمشروفين وبالاتباع من عوام الناس. بل أيضا بالمخزن وبمباركته ورعايته وحمايته لهم، بما يسبغه عليهم السلطان من ظواهر التوقير والاحترام وحمل الناس على البرور بهم، مع تحريرهم من الوظائف والكلف عكس باقي العوام. فضلا عن تعزيز مكانتهم بين القبائل من خلال قبول شفاعاتهم لدى السلطان فيما ترتكبه القبائل والأفخاذ من أفعال تتنافى والنظام العام وهو ما ساهم دون شك في تمطيط نطاق إشعاعهم ومكانتهم عند القبائل والاتباع.

⁴³⁹ خ.م.ر : كناش 172 ص 152

* للتحقق من موضوع ما يلحق الحبوب من نقص في الوزن بعد تخزينه لمدد معينة تمت زيارة ميدانية لسوق الحبوب باولاد عياد، و بعد استفسار التجار حول هذه القضية، كان الجواب من اغلب المستخبرين ان القمح فعلا يطاله نقصا في الوزن إذا ما تم حساده و دراسه و تخزينه و لم يتيسر بالقدر الكافي او تعرضت للنخر او قضم الفئران لكن بنسبة قد لا تتجاوز 5 أو 6 كيلوغرامات عن القنطار الواحد ، أي بنسبة 6 بالمائة، بينما يحصل العكس اذا مستها الرطوبة في فصل الشتاء فان وزنها و كتلتها تتضخم . لذلك فان تبرير القائد الهورضة بخصمه لنسبة 30 بالمائة من مقدار مدخول القمح بحجة الكسر ، هو منطق مبالغ فيه جدا ما يحمل على الظن انها فرية منه و عمل مبيت ، ما جعل السلطان يأمره بالكف عن ذلك كون كسر القموح هو قانون فلاحى معلوم حكمه و شروطه. ⁴⁴⁰ خ.م.ر : كناش 172 ص 199.

هذا الارتباط المزدوج بالمخزن والسكان هو بالضبط ما سيشكل المحور الذي تتأسس عليه متانة الروابط بين المرابطين والشرفاء والمخزن وهو ما تمكنا من رصده في النزر اليسير من الوثائق والمراسلات المخزنية التي تمكنا من الاطلاع عليها.

المبحث الثالث، الأشراف العلويون:

مثل الاشراف العلويون حضورا وازنا بين قبائل الوسط التادلي شمل الجانب الشرقي لبني عمير والمنطقة الواقعة بالغرب من بني ملال. وقد منح انتسابهم الى آل البيت الى جانب الشرفاء الادارسة المستوطنين بمنطقة ايت عتاب وزيان ميزة تشريفية جعلتهم يحضون بمكانة مرموقة عن باقي العوام. واعتبارا لعامل حضورهم الاجتماعي المؤثر، فإن السلطان كان ينعم عليهم بمكرمة التحرير من الكلف وسائر توظيفات المخزن، فضلا عن تجديد ظهائر التوقير والاحترام بشكل مستمر خاصة عند كل تولية لسلطان جديد.

ترأس الشرفاء العلويون بالإقليم التادلي على العهد الحسني النقيب المولى العباس. وإذ لم يسعنا البحث في العثور على وثائق رسمية بالوقوف على تاريخ تعيين النقيب، فإن المراسلات المتبادلة بين المخزن والآخر بداية من فترة الثمانينيات من القرن التاسع عشر ترد باسمه بصفته نقيباً توضح طبيعة العلاقة التي كانت تربط بينه وبين المركز. فالنقيب بما يحظى به من تشریف وتوقير، ومن يقين لا تشوبه شائبة بتحدره من نسل سبط النبي سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام، ولمكانة علمية او كبرا في السن، فإنه يبقى هو المؤتمن على صون شجرة النسب للشرفاء العلويين بالاقليم ويتوسط لهم عند الضرورة لدى المخزن في قضايا معينة.

ونستنتج من استحداث هذه الصفة بالاقليم انها انما تمت على غرار باقي الاقاليم والحواضر فالنقيب هو من ينظم صفوف الشرفاء ويدبر امورهم ويراقبها⁴⁴¹. وهو من يضبط لائحة بأسماء الشرفاء وقاية لهم من اي امتزاج او تسرب قد يطال نسبهم من الدخلاء والادعاء. فما هو الحافز المادي والمعنوي الذي يمنح هؤلاء الشرفاء مكانة اجتماعية وامتيازات معينة بين العوام؟

مطلب الأول: الظهائر السلطانية:

تمثل الظهائر السلطانية من الناحية الاجرائية صفة الالزام والتنفيذ والعمل بمقتضى فحواها. وبذلك فهي تعتبر آلية هامة من آليات التدبير السلطاني لقضايا اقتصادية واجتماعية تدخل ضمن تصريف شؤون الحكم وتقنين الحياة العامة، فيتعين على المعنيين بخطابها سواء أكانوا من رجال

⁴⁴¹ العروي عبد الله (مرس)، ص 151 .

المخزن، او سلطات محلية، أو فئات اجتماعية بعينها أفرادا وجماعات، التقيد بفحواها، والعمل بمقتضاها كونها صادرة عن السلطان وتحمل توقيعه وطابعه الشريفين. وبذلك فهي تمنح لحاملها نوعا من الحصانة والوقاية من كل إجراء تديبيري يعم السكان، من قبيل المساهمة بحراك لجانب الجيش السلطاني او ما يفرض من واجبات وضرائب وأمكاس بقدر ما تكسب حائزها مكانة بين الناس.

وإذا كانت معاجم اللغة العربية قد اغفلت في حدود معرفتنا بلفظ الظهير من وجهة اصطلاحه كمفهوم لوثيقة تحمل بعدا توقيريا، فانها من جانب آخر خصصت تعريفا مستقيضا لمعناه اللغوي كما جاء في لسان العرب لابن منظور:

- الظهير هو العون، والظهير المعين

- استظهر به اي استعان به. واستظهر عليه بالأمر استعان.

- ظهرت به، افتخرت به.

- ظهرت عليه، قويت عليه.⁴⁴²

يتوصل الشرفاء من حين الى آخر بظواهر سلطانية تجدد لهم باستمرار لما اكتسبوه من مكانة وحظوة في محيطهم الاجتماعي، والاستظهار بها كلما استبدل قائد بأخر حتى يصير الجديد على بينة رسمية من صفتهم التشريفية أوحت بالمجال حركة مخزنية تطالب السكان بالكف والضرائب، فيجنبهم الاستظهار بما يحوزونه من ظواهر ما يفرض على باقي العوام.

ومن غير شك ان الشرفاء العلويين بتادلا كانت لديهم ظواهر شريفية يحوزها في الغالب نقيبهم. وبما انها تعفيهم من سائر الخدمات والكف، فإن بعض الاسر منهم كانت أحيانا تتعرض لمضايقات بعض اعوان المخزن، فينبيري النقيب للدفاع عنهم. فقد ذكر في رسالته الى السلطان، أن القائد صالح العميري ترامى على الشرفاء من اولاد سيدي ميمون، وقبض على اربعة منهم ظلما طالبا تسريحهم⁴⁴³. وقد أكد ذلك أيضا القائد المعطي الملالي بكون نفس القائد ترامى على الشرفاء من اولاد سيدي ميمون وقبض على اربعة منهم ظلما مع ما بيدهم من الظهير الشريف بالتوقيع والتعظيم ومن كونهم منحاشين اليه ومن إيالته. وفي رسالة أخرى أكد فيها النقيب المذكور انه «كلم

⁴⁴² ابن منظور : لسان العرب المجلد الرابع دار صادر بيروت صص 339، 340.

⁴⁴³ خ. م. ر : كناش 172 ص 106 مختصر رسالتين الاولى من النقيب و الثانية القائد المعطي بتاريخ 08 محرم 1308

القائد صالح عبداللوي بشأن تسريح الشرفاء الذين قبض عليهم، مضيفاً أنه لا مدخل للولادة قبله فيهم، إلا أنه لم يفعل»⁴⁴⁴.

كانت مسألة تحرير حاملي الظهائر الشريفة من الكلف وأنواع الضرائب من الإشكالات التي واجهها القواد بتادلاً، وكانت أحياناً مثار نزاعات بين الطرفين. والإشكال هنا يتعلق بالتشكيك في صحة صفة حائزه وكذا بمضمون فحوى الظهير. فقد حدث مرة أن وقع صدام وتبادل لإطلاق النار وسقوط قتلى وجرحى بسبب امتناع فئة من السكان عن أداء الواجب بحجة توفرهم على ظهائر التحرير من الكلف⁴⁴⁵.

بيد أن مهمة نقيب الشرفاء لم تكن مقتصرة فقط على الذود عن باقي إخوانه من الشرفاء، بل كان أيضاً يقوم بمهام إخبار المركز المخزني بما يجري تحت بصره من الوقائع ويبحث برسائله شأنه شأن باقي أعوان المخزن. منها ما أبلغ فيه من اعتزام بعض سكان بني ملال بالفرار من بلادهم لجور عمالهم عليهم⁴⁴⁶.

كما كان يراقب عن كثب ما يجري في صفوف القواد من أعمال تحصيل الجبايات والضرائب فقد أبلغ: « بأن القائد العربي بن عبد الله بعد أن أمر ما كان عند الكساب ابن الخطاب من البقر والغنم والابل للكساب الآخر المعين مكانه، وأجاب بأن القائد علال المراهي عنده أكثر من ذلك ولم يدفع شيئاً. وطلب توجيه كتاب شريف صحبة قائد المائة ينزل عليهم حتى يدفعوا ما عندهم»⁴⁴⁷.

وفضلاً عن ذلك كان يقوم بخدمات أخرى لفائدة المخزن من قبيل التوسط لدى الملزمين في طلب الأمان لهم عن تأخرهم في أداء الواجب. فراسل بذلك المركز: « بأن دواراً من بني معدان يسمى اولاد ايعيش حصل لهم الرعب والدهش لما سبق لهم من الأكل ووردوا عليه للمحلة طالبين كتاباً شريفاً لهم بالأمان بعد أن يؤدوا الواجب على التمام»⁴⁴⁸.

ونفهم من كل النصوص السالف ذكرها أن النقيب اضحى وعلى غرار الامناء والقواد منخرط ضمن آلية المخزن في مراقبة المجال على الأقل من زاوية الاخبار والاستخبار ويقدم خدماته للمخزن حتى لو لم يكن يتقاضى أجراً عن ذلك إلا أنه تبقى له الاستفادة من مزية التحرير

⁴⁴⁴ خ. م. ر : كناش 172 ص 106 مختصر رسالة النقيب م العباس بتاريخ 06 محرم 1308 .

⁴⁴⁵ خ. م. ر : كناش 172 ص 106 مختصر رسالة من القائد جابر الملاي حول امتناع شخص يدعى محمد صالح الملاي هو و باقي دوار من إخوانه مدعياً أن بيده ظهائر شريفة تحرره من الكلف ، فقام بينهم وبين القائد المعطي بالحسن و إخوانه من اولاد امبارك صدام سقط على إثره صرعى و جرحى .

⁴⁴⁶ خ. م. ر : كناش 172 ص 111 .

⁴⁴⁷ خ. م. ر : كناش 172 ص 113 بتاريخ 16 محرم 1308

⁴⁴⁸ خ. م. ر : كناش 172 ص 112 بتاريخ 14 محرم 1308 .

من الكلف وحضور الاستقبالات السلطانية عند مرور المحلة السلطانية بالاقليم. بل توجه له دعوات للمشاركة في مهام المحلة ف: « نقيب الشرفاء بعد امره بالنزول مع مولاي عثمان، أجاب بالامتثال، وانه تمهل في الطريق حتى استفاء ما دفعه بنوموسى وبنوعمير لعمالهم»⁴⁴⁹.

كان هذا حافزا لان يجعل منه قناة إخبارية موثوقة، وعينا إضافية تضبط منظارها على تحركات القواد وترصد تصرفاتهم وسلوكاتهم التي كان يطغى عليها التجاوز والتلاعب. فقد بعث بهذا الشأن برسالة الى المركز المخزني بكتاب ورد فيه: «أن عمال بني موسى وبني عمير قبضوا الواجب على التمام مضاعفا. متفقين على ذلك ومتعاقدين عليه. ولما عزم بعضهم على دفعه تعرض له العمال لما تعاقدوا عليه. ولم يدفع الواجب على التمام الا البدوي والنماوي»⁴⁵⁰.

يوضح استقراء النص جانب آخر من التفسير. وهو قدرة المخزن على تأطير المجال ومعرفته بكل ما يجري فيه ليس فقط على مستوى التحركات القبلية ودرجة استتباب الامن ورعاية الطرقات او العكس، بل أيضا تتبعه لما يجري بين صفوف القواد والعمال وأخذه علما بكل تفاصيل العمليات الجبائية وتحصيل ايراداتها المالية والعينية، من خلال قنوات موازية لا تقل أهمية عن القنوات الرسمية.

وكان أيضا من جملة الشرفاء المستفيدين من حيازة ظهائر سلطانية، شرفاء اولاد سيدي بلغيث. فقد جاء في رسالة رئيس المحلة الخليفة الى الوزير الصنهاجي ما يلي: « وبعد، فحملته الشرفاء اولاد سيدي أبي الغيث، وردوا علينا وتلاقوا معنا، وطلبوا منا إنهاء ما أصابهم من بني معدان من النهب، وساعدناهم على مطلبهم سيما وقد استظهروا بظهائر شريفة لمراعاتهم بالسلوك الحسن، فنحبك ان تنهي امرهم لمولانا»⁴⁵¹.

وكان الى جانب هؤلاء وأولئك، شرفاء آخرون يتمتعون بظهائر التوقير والاحترام والرعي الجميل والاعفاء من سائر الكلف منها المونة. من ضمنهم فئة منهم مستوطنة ببني موسى وردافراد منها على المحلة الخليفة للاستظهار ما بأيديهم من ظهائر في مختصر رسالة من الوزير الصنهاجي ردا على رئيس المحلة جاء فيها: «فحملته الشرفاء السملاليون القاطنون بين بني عياط والكراززة وردوا بظهائر سيدنا نصره الله ومكاتب نوابه بالإقرار على ما عهد لهم من التوقير

⁴⁴⁹خ. م. ر : كناش 172 ص 106 بتاريخ 08 محرم 1308

⁴⁵⁰خ. م. ر : كناش 172 ص 125 بتاريخ 20 محرم 1308

⁴⁵¹خ. م. ر : كناش 634 ص 32 بتاريخ 12 ذو الحجة عام 1308.

والاحترام والرعي الجميل المستدام، وقد اخبروا أنكم تعاهدونهم بذلك فاستمروا على ما أنتم عليه»⁴⁵².

المبحث الرابع، المرابطون :

لم يكد القرن التاسع عشر تصل به السنين الى نهايته، حتى كان الاقليم التادلي يطفح بأعداد من المرابطين، حواضره وقراه. منبثة زواياهم وأضرحتهم على امتداد جغرافيته الجبلية والسهلية. انتشار واسع في كل مكان، يظهر مدى تجذر البنية الذهنية في الاعتقاد بكرامات الاولياء والصلحاء بما يحوزه كل واحد من انواع البركة في وجدان عموم السكان. والسلطان ذاته كان "يحب الصالحين ويعتقدهم وكان زوارا لهم وباحثا عنهم"⁴⁵³.

فالحضور المرابطي بهذه الكثافة إنما يعبر عن امتزاج حقيقي للفعل الوظيفي الذي مارسه واضطلع به المرابطون داخل النسيج المجتمعي، بل أيضا على مستوى الحقل الديني كحالة روحية وثقافية تعلق بها الناس منذ ما يزيد عن ثلاثة قرون خلت.

والحال أن مكانتهم الروحية والاجتماعية وموقعهم البارز في صفوف القبائل شكل عنصر استقرار وصمام امان للفئات الاجتماعية الباحثة عن الطمأنينة من صروف تقلبات الأحوال.

وقد كان المخزن العلوي يدرك شأنه شأن السعديين من قبل، لما للمرابطين من قدرة على التأثير في السكان، واعتبار وجودهم عاملا مساعدا على الاستقرار والتوازن الاجتماعيين. فكان لايد من استقطابهم ودعمهم والانعام عليهم حتى يستمروا في ممارسة ادوارهم المعهودة ما دامت غير منافية للتوجه العام الذي يمضي عليه المخزن، ولا تخرج عن نطاق اهدافه الرامية الى مساعدته في تحمل جزء من أعباء التنظيم الاجتماعي والمساهمة الايجابية في حسن التدبير المجالي.

وبصرف النظر عن القيمة الاعتبارية التي يحظى بها المرابطون سواء من لدن المخزن او من السكان، فإنهم ليسوا على درجة واحدة من الثقل المعنوي والسياسي والاجتماعي لدى القبائل والمخزن على السواء.

كان جل أحياء مرابطي الاقليم التادلي وكذا حفدة الأموات منهم والقائمين على زواياهم ممن يتصلون ويرتبطون بمنظومة المخزن، يتم تمكينهم من ظهائر التوقير والاحترام مع تجديدها عقب

⁴⁵²خ. م. ر : كناش 634 ص 29 بتاريخ 06 ذو القعدة عام 1308

⁴⁵³ بو عشرين الحسن بن الطيب بن اليماني:التنبية المعرب عما عليه الان حال المغرب ط1دار نشر المعرفة1994 ص 39

كل تولية جديدة للسلطين. من قبيل ما عثرنا عليه من ظهائر لدى حفدة الولي الصالح أبي العباس أحمد الصغير المعروف بسيدي أحمد او علي من أهل سابك الواقع ضريحه بين بني ملال وفم العنصر⁴⁵⁴. ولدى مرابطي قرية فشتالة وكذا لحفدة سيدي عبد الحق بن عبد الرحمن بآيت عتاب. ولم يقتصر الامر في عناية السلطين العلويين بمرابطي المناطق المذكورة بل تعدوه الى القاطنين بالدير والجل. وقد تم الوقوف على نسخ من ظهائر التوقير تم ارسالها الى مرابطي اولاد سيدي محمد امبارك الزعري دفين بلاد زيان⁴⁵⁵، وكذا للمرابطين الحفدة من اولاد سيدي عبد الرحمن دفين آيت سري⁴⁵⁶، وحفدة سيدي علي بن ابراهيم⁴⁵⁷. وسنأتي على ادراج نماذج منه في فصل لاحق.

المطلب الاول، ظهائر سلطانية تقديرا لجانب النساء:

من الواضح ان حضور المرأة في الوثائق المخزنية يكاد يكون ضئيلا جدا، فباستثناء ورود بعض ملخصات من رسائل بالكنانيش تتعلق ببعض الشريقات أو نساء لهن مكانة اجتماعية ممن يتقدمن بطلبات لدى السلطان او يبعثن بنهائى التبريكات في مناسبات معينة، فإن أي دور لهن بارز على مستوى التدبير المحلي في العلاقة مع المخزن سواء المركزي او المحلي لم يكن له من أثر كبير. بل يبدوا نادرا جدا في الصنف المصدري المذكور. إلا ان ذلك لا يعني البتة ان دور النساء على المستوي العملي كان غير فعال، بل العكس من ذلك هو الصحيح. فقد طبعت النساء حضورهن بقوة في مجريات الاحداث وكثيرا ما عبرن عن موافقهن الى جانب ازواجهن ولفائدة قبائلهن حيث يظهرن في غالب الاحوال في نهاية مشهد الاحداث عقب انتهاء غارة مخزنية او شن معركة على قبيلة ما، منقذت لأزواجهن المعتقلين، من خلال تقدمهن بالعارات والتماس العفو لهم امام مدافع المحلة اوبين يدي السلطان. وقد وردت إشارات في المكاتبات السلطانية بهذا الخصوص، نقتطف منها النص التالي «...[...]. ثم لما خامر قلوب بني موسى ما خامر من الدهش والخيال وشاهدوا اشراف طلائع النكال عليهم والوبال طار اهل الجرائم منهم لصياصي الجبال ووجهوا لاعتابنا الشريفة الذبائح مع النساء والاطفال متوسلين في المجاوزة عنهم

⁴⁵⁴ تم إمداننا بمجموعة من الظهائر السلطانية يعود بعضها الى السلطان احمد المنصر الذهبي من طرف حفدة الولي مشكورين من بينهم : السيد عمر يبلغ من العمر 50 سنة و السيد عاقل يولد يبلغ من العمر حوالي 60 سنة .
⁴⁵⁵ خ. م. ر : كناش 353 ص 217 ، 19 رمضان 1300 هـ و تتضمن ظهيرا شريفا للحفدة معززا بكتاب من السلطان الى القائد موحى اوحم الزباني يستوصيه خيرا بحفدة الولي المذكور بالذود عنهم من كل من يجرد عيهم سيف العدا من القبائل او يقصدهم بمكروه ،
⁴⁵⁶ خ. م. ر : كناش 353 ص 100 ، بتاريخ 16 شعبان عام 1300 هـ ، وفيها نسخة من ظهير شريف لفائدة حفدة الولي توصل به واحد منهم يسمى سيدي علي الشافعي .
⁴⁵⁷ خ. م. ر : كناش 624 ص 60 ، بتاريخ فاتح جمادى الاولى عام 1314 هـ

[...]فقبلناها منهم وكفنا أكف العقوبة عنهم»⁴⁵⁸. ورعا من المخزن لقيمة المرأة وتقديرا منه لرمزية العرض واستكائة الرجال وهم يبعثون بنسائهم لطلب الشفاعة، كان في أغلب الاحوال يقبل منهم ذلك ويسرح المقبوض عليهم.

الحديث هنا تعلق بالنساء من العوام، فكيف تعامل المخزن المحلي والمركزي مع المرابطات من حاملات ظهائر التوقير والاحترام.

في رسالة بعث بها السلطان الى ممثلي المخزن محليون جاء فيها: « نأمر خدامنا الانجاد عمال بني موسى ان يستوصوا خيرا بحملته المقيدين بالطرة (العربي بن حمادي ومحمد بن حمادي وقدر بن احمد وعلال بن المعطي) من اولاد عريف من بني موسى، أن يكفوا عنهم يد المكروه والعدوى (العداء) ومن رامهم بسوء تناله بلوى، مراعاة لأخذهم بيد المرابطة المسنة الضريبة السيدة رقية بنت محمد من آل سيدي بلقاسم الصومعي⁴⁵⁹. »

وبما ان ظهائر التوقير كانت تعفي حاملها من الرجال من سائر الكلف والتوظيفات المخزنية، فإن الامر كان ينسحب ايضا على النساء المستفيدات من هذا الامتياز. فقد حاول قائد بني عمير ان يتجاهل إحدى النساء من بني شكдал رغم ما بيدها من ظهير، فقام بالنزول على خيام من دوارها، وألزمهم بدفع المونة والواجب. فتصدت له بكل حزم وقوة لمنعه من ذلك موجهة شكايتها الى السلطان في النازلة. فلنستمع الى مختصر رسالتها في الموضوع: « خُديجة الشكدالية بأن الخديم ابن عبد النبي العميري لم يمتثل ما أمر به من توقير إخوانها ورد ما أخذ منهم »⁴⁶⁰.

لم يقتصر الأمر منها على رفع شكايتها الى المخزن المركزي، بل قامت بعمل احتجاجي معبرة في انتفاضتها وبطريقتها الخاصة عن استبداد القواد وسلوكهم، معترضة عن افعالهم مصررة على إرباك عملهم. فقد جاء في رسالة علال العميري: « يطلب كف المرأة عريانة الرأس حتى يستخرج الواجب بسهولة»⁴⁶¹.

لقد اشتهر أمر خُديجة الشكدالية بين قواد بني عمير، ولم يعد أحد منهم بمستطاعه أن يمسه بسوء، خاصة بعد ان علموا برفعها شكاية الى المخزن. وقد بعث القائد المكلف بأمراس الزيدانية برسالة الى المركز يبلغ فيها الاتي: « بأن المرأة الشكدالية المجذوبة التي حرر لها مولانا ثمان

⁴⁵⁸ م. و. م. ر. ح. : رسالة سلطانية مستقلة تحت رقم 28660 بتاريخ 6 ذو الحجة من عام 1294 هـ

⁴⁵⁹ خ. م. ر. : كناش 364 ص 176 مختصر رسالة سلطانية بتاريخ 23 ذو القعدة عام 1302 هـ

⁴⁶⁰ خ. م. ر. : كناش 172 ص 02 مختصر رسالة بتاريخ 23 شوال عام 1307 هـ

⁴⁶¹ خ. م. ر. : كناش 172 ص 02 مختصر رسالة بتاريخ 23 شوال عام 1307 هـ

خيام من إخوانها سيئة الحال لا تلبس الا قفة»⁴⁶². فكان جواب السلطان بنفس المختصر ما يلي
: « تجرى على ما بيدها من الظهير » .

المطلب الثاني، مرابطو زاوية أبي الجعد:

من نافل القول، ان من بين المرابطين الذين نالوا اوفر قسط في تاريخ علاقة المجتمع المحلي بتادلا بالمرابطين منذ القرن الحادي عشر الهجري هم مرابط والزاوية الشرقاوية من حفدة الولي الصالح سيدي محمد الشرقي مؤسس الزاوية بأبي الجعد والمتوفى سنة 1602⁴⁶³. فما أهمية زاوية ابي الجعد من المنظور المخزني؟ وكيف كانت علاقة مرابط ابي الجعد بالمخزن خلال الفترة المدروسة؟

1- الزاوية الشرقاوية والمخزن، فترة النصف الثاني من القرن التاسع عشر :

شكل موقع الزاوية الشرقاوية مكانا وسطيا بين قبائل تادلا الرتمية بالشمال على مسافة غير بعيدة عن قبائل الشاوية من جهة، وبين الجنوب والوسط التادلي وقبائل الجبل الامازيغي ناحية الشرق من جهة ثانية، معبرا رئيسا لجل الحركات السلطانية منذ عهد السلطان المولى سليمان الى نهاية القرن. وقد حافظت الزاوية انطلاقا من هذه الفترة على علاقة متينة مع المخزن، وبات زعيمها لا يبارح ركاب المحلة السلطانية كلما اتجهت من اولى المنطقة الحوزية⁴⁶⁴. ورغم ما أصاب علاقة الزاوية بالمخزن من فتور عهد سيدي محمد بن عبد الله وبداية عهد المولى سليمان، الا انها ستعرف تحولا كبيرا في مسار علاقتهما مباشرة بعد حلول المرابط سيدي بن داوود على رأسها عهد السلطان المولى عبد الرحمن.

وسيرا على تقليد أسلافه، إتخذ السلطان الحسن الأول زاوية أبي الجعد مكانا لاستراحته أثناء عبور محلته المجال التادلي. بل قام في إحدى رحلاته بزيارة رسمية لأضرحة صلاحها صاغ أطوارها صاحب مراحل السفرات السلطانية وفق الترتيب التالي. استهلها اولا بزيارة ضريح محمد الشرقي ومعه أولاده عبد القادر والملقي، ثم سيدي صالح، فسيدي العربي، ثم سيدي بن داوود، تلت ذلك زيارة رجال الميعاد وانتهاء بضريح سيدي السايح⁴⁶⁵.

وحتى لا نذهب في ذكر أدوار الزاوية الشرقاوية مذهب الإفاضة فيما اضطلعت به من وظائف اجتماعية واقتصادية وسياسية. إذ أحاط بكل تفاصيل الموضوع صاحب مؤلف الزاوية

⁴⁶² خ. م. ر. : كناش 172 ص 57مختصر رسالة بتاريخ 21 شوال عام 1307هـ

⁴⁶³ بوكاري احمد : (مرس) ط 1 إصدار سنة 1985 ص 96 .

⁴⁶⁴ الرباطي الضعيف (م.س) صص 336 و 395

⁴⁶⁵ مجهول : (مخ.س) مسجل بالخزانة الملكية تحت رقم 12059 ، ص 38

الشرقاوية⁴⁶⁶، خاصة فيما يتعلق بتطور علاقتها مع المخزن منذ مرحلة التأسيس الى حدود مطلع القرن التاسع عشر. لكن كيف كانت هذه العلاقة في منتصفه الثاني؟

2 - علاقة المرابط سيدي بن داوود بالمخزن:

أحدث تنصيب سيدي بن داوود بن العربي، وهذا هو اسمه الشخصي أطلقته عليه والدته تيمنا بالولي الصالح سيدي بن داوود دفين الشاوية، على رأس الزاوية الشرقاوية تحولا نوعيا في مسار علاقة الزاوية بالمخزن. ارتسمت معالمه بارتباط وثيق مع المركز، كرس خلالها المرابط جانبا من حياته العملية في إسداء خدمات لما دعت اليه ضرورة المرحلة من الوقوف الى جانب الجهاز المحلي بالإقليم.

ورعا لمواقفه ومساعدته لممثلي المخزن المحليين، وتقديرا لمكانته الروحية والدينية بين القبائل، كان السلطان من جانبه يسبغ عليه من العطف والرضى، ومخاطبته في رسائله "بمحبنا المرابط الخير البركة" ما جعل من التماساته وطلباته للمخزن لا ترد ولا تصد. فقد كان في كثير من الأحيان يتوسط للأعيان ممن يأنسون لأنفسهم القدرة على امتطاء سهوة السلطة في الحصول على منصب قائد. وهذا أمر في غاية الأهمية، كون تزكية المرابط لأي شخص في طلب القيادة لهو مؤشر على تشبع المرابط بقيم المخزن وضمانة للعين المزكى في توظيف قدراته لحسن خدمة المخزن.

وكما سبقت الإشارة الى ذلك فان تزكيته لاحمد بن العربي لمنصب القيادة على اولاد ابحر الكبار والصغار ومحمد ولد السربوت على بني زمور قوبل بالموافقة من جانب المولى عبد الرحمن. وحينما تقدم بطلب لفائدة احد اعيان اولاد عبدون أجابه السلطان بالجواب التالي: « سيدي بن داوود بن العربي، وصل كتابك في شأن المعطي بن صالح العبدوني، وعرفنا مضمونه. فحيث لم يكن معه أحد من القبيلة وشاء الخدمة فله ذلك »⁴⁶⁷.

كان للمرابط عزائب كثيرة منتشرة في كل من الاقليم التادلي والسراغنة والشاوية. يشتغل بها عملة في الفلاحة والرعي. ورغم كونهم يخضعون لضريبة العشر والزكاة، فانهم كانوا احيانا يتعرضون لمضايقات من طرف قوادهم، ما يضطرهم الى الاستنجاد بالمرابط الذي يعمل بدوره الى رفع شكايات تظلم الى السلطان من سوء افعالهم.

⁴⁶⁶ بوكاري احمد : (مرس) ص 10

⁴⁶⁷ خ. م. ر. : كناش 353 ص 117 مختصر رسالة سلطانية الى المرابط .

ونتبين مستوى جبر خاطر المرابط عندما اشتكى الى السلطان من تعديت القائد عبد الله الهاتني ببني عمير على عماله ومصادرة مواشيهم ظلما. فلنستمع الى رسالة توبيخية إليه جاء فيها: « فإن صح ذلك عنك فإنه من العداء الذي لا يصدر إلا ممن لا ينظر في العواقب او عرف سطوة الله ترهقه إذا تحلى بالظلم وولع بالمثالب. فلتردد له بهائمه وكفاية العداء عن اولئك، فإن إشهدا الحرمت وبال على مرتكبيه في الحال والآت »⁴⁶⁸.

لم يقتصر الامر فقط على افحام المرابط لسلوك القواد امام السلطان فيما اقترفوه في حق عمال عزابه، بل كان أيضا ينتصر لإخوانه المرابطين من شرقاوة. فجوابا على إحدى رسائله بشأنهم، توصل برد سلطاني مفاده الاتي: « محبنا المرابط الخير البركة سيدي بن داوود بن العربي وبعد، وافى كتابك مخبرا بأن المرابطين شرقاوة النازلين بترماست من بني موسى وردوا عليك طالبين عدم هضم جانبهم وكف يد عمال بني موسى عنهم وتوجيه من ينزل عليهم حتى يفاصل جوارهم ما عليهم. وصار بالبل، ونحن كتبنا لعمال بني موسى في ذلك وأوصيناهم خيرا عليهم ووجهنا المخزني كما طلبت »⁴⁶⁹.

لم تكن ارتباطات المرابط بالمخزن ولا بأموره الخاصة عن القيام بواجباته إزاء المجتمع المحلي. فقد حافظ على رعاية وظائف الزاوية التقليدية من تعليم وإحسان الى الفقراء، وإطعام الطعام وقضاء حوائج الناس في مقابل ما يتسلمه من علاوات وهدايا وفتوحات وزيارات على غرار أسلافه المرابطين، فكانت تنمي موارد الزاوية وتزيد في مداخيلها. وظلت حسن سيرته مع المخزن ومكانته لدى المجتمع المحلي في مستوى مرموق الى ان توفاه الله عن عمر مديد وخلفه من بعده ابنه سيدي العربي الذي سار على نهج والده.

3 - المرابط سيدي العربي في خدمة المخزن الجبائية:

مثلت الجبائية وعمليات التحصيل الضريبي بكافة انواعها المتعددة من لدن المجتمع المحلي بالاقليم التادلي، عامل إرهاب لكاهل السكان ليس لأنها إجراء ملغ بطابع الإكراه والالزام فحسب، بقدر ما مثل خصائص الانتاج القائم على اقتصاد القلة والكفاف عنصرا طاعيا فيما يبديه السكان من تبرم وتأخير في الاداء. وتقديرا من السلطان لعدم كفاية المحاصيل من الحبوب والمواشي الواقع عليها النصاب الشرعي في أداء ما بذمة قبيلة وريغة وبني زمور والسماعة، بعد سنوات عجاف. فقد تم تأجيل عملية الدفع دامت 12 سنة. أي ما بين سنة 1288 هـ الى غاية 1300 هـ. لكن

⁴⁶⁸ خ.م.ر : كناش 353 ص 155 . مختصر رسالة سلطانية بتاريخ نهاية شعبان سنة 1300 هـ
⁴⁶⁹ خ.م.ر : كناش 353 ص 175 . مختصر رسالة سلطانية بتاريخ 22 ذو القعدة عام 1300 هـ

ابتداء من هذه السنة بات المخزن يطالب تلك القبائل بالدفع⁴⁷⁰، مقتصرًا في ذلك على ستة سنوات كدفعة أولى، على أن يتموا الباقي في القادم من السنوات.

أدت القبائل فعلا ما بذمتها خلال مرور المحلة السلطانية في هذه السنة. أما الباقي فقد كان موضوع مراسلات سلطانية الى قواد المنطقة يحثهم على استخلاص الباقي. وأمام ثقل المهمة على الجهاز المخزني المحلي، بالنظر الى حجم الأموال المتبقية في ذمة القبائل، فإن سند المرابط سيدي العربي لانجاح مطالب المركز أصبح ضروريا. فتوجه حينئذ الأمر السلطاني لخدام المخزن هناك من أجل الوقوف جنبا الى جنب مع المرابط لاستيفاء الواجب.

ففي رسالة سلطانية الى أحد خدام المخزن جاء فيها: « الحاج احمد بن الحافظي وبعد، وصل كتابك جوابا عما أمرناك به من التوجه بإخوانك لقبيلة ورديفة لقبض ما تخذل بذمتهم عن ستة أعوام، أخبرت أنك نزلت عليهم ومعك المرابط السيد العربي بن داوود طبق أمرنا الشريف، وأحضرتهم كبرائهم وأعيانهم وحملتهموهم على الأداء فورا وأذعنوا للدفع كلهم»⁴⁷¹ ظل المرابط الى جانب الحافظي يستنهضان عمالها في القيام بالمتعين عليهم بينما يبعثان الى المركز بالأموال المجابة وبتقارير عن سير العملية: « الحاج الحافظي والمرابط السيد العربي بن داوود، وبعد، وصل كتابكم معلمين بأنكم وجهتم ما قبض من واجب خدامنا ورديفة، وقدره ثلاثة وعشرون مائة ريال وثمانون ريالا[...].ولتقوموا على ساق في استيفاء الباقي»⁴⁷².

4- دور المرابط في موازنة العمل الجبائي للمحلة الاميرية الاخيرة:

الجبائية نظام مالي له شروط ومحددات يتعهد بها المخزن بالتنفيذ على ملزميها اما بمقتضى الواجبات الشرعية وإما بقوانين يستحدثها وفق تقلبات الظروف الاقتصادية والسياسية والاجتماعية. لذلك فإن تحقيقها يقع تحت طائلة الالتزام بإشراف الدولة وبتدبير عملي واجرائي ينفذه أعوانها المحليون. بيد ان العملية برمتها قد تطالها بعض الصعوبات والتعقيدات يكون عددا من الملزمين بها من افراد القبائل هم محركها الاساسي. لذلك كان المخزن في هذه المرحلة بالذات وحتى يتسنى له الحصول على أكبر قدر ممكن من الموارد الجبائية، ومن أجل تحقيق ذلك ان يلجأ الى عنصرين إضافيين لدعم ممثليه المحليين. أولهما دعم المحلة الاميرية بقيادة نجل السلطان المستقرة بالزيدانية بالدفع بمزيد من فرق العسكر وقواد الميئين لشد عضد ممثليه المحليون في استيفاء الواجب والدفع،

⁴⁷⁰خ.م.ر : كناش 353 ص 83 . مختصر رسالة سلطانية الى قواد تادالا الرمية بتاريخ 15 شعبان 1300 هـ

⁴⁷¹خ.م.ر : كناش 364 ص75 ، مختصر رسالة سلطانية بتاريخ 28 رمضان عام 1302 هـ

⁴⁷²خ.م.ر : كناش 364 نفس الصفحة ، مختصر رسالة جوابية من السلطان في نفس التاريخ اعلاه

وثانيها شد عضدها ومؤازرتها بمرابط الزاوية الشرقاوية طيلة فترة عملية الإستجابة بهدف توظيف مكانته الروحية ورأسماله الرمزي لاستنهاض القبائل وحملهم على الاداء. وقبل الحديث عن مهمة المرابط في هذا الشأن نقترح اعطاء لمحة موجزة عن تركيبة بنية المحلة، ومهامها الجبائية.

المبحث الخامس، رصد جوانب من وظائف محلة اميرية بالزيدانية:

حلت المحلة الخليفة بالقصبة الزيدانية في شهر رمضان المعظم عام 1308، الموافق لمنتصف شهر ابريل سنة 1891، يترأسها نجل السلطان المولى العباس وهو لا يزال صغير السن⁴⁷³، الى جانب المولى عثمان، وظلت هناك الى غاية شهر ذوالقعدة (يوليوز) من نفس السنة.

وحسب ما ورد في كناش مخزني يحمل رقم 634، مكنتنا مختصرات من رسائل متبادلة بين المحلة والمركز المخزني، من رصد أطوار نشاطات المحلة منذ نزولها بالقصبة الزيدانية الى ان أمر السلطان برحيلها في اتجاه مدينة فاس بعد مكوثها زهاء اربعة أشهر، فإن إقامتها بالقصبة المذكورة استهدف تحقيق عدة غايات أهمها: تمهيد ظروف ملائمة للمحلة السلطانية القادمة في الأثر على غرار ما اضطلعت به محلة المولى الامين سنة 1300هـ. استنهاض عمال وقواد كافة الإقليم التادلي من دير وسهل وجبل واستنفار قبائلهم لأداء ما ترتب عليهم من واجبات شرعية ومونة لفائدة جيش وعسكر المحلة. تنفيذ أوامر ذات طبيعة عسكرية سيبلغ المركز بها في وقت لاحق.

وحتى يتسنى للمحلة أداء وظيفتها على الوجه المطلوب، وتظهر في المجال التادلي وبين القبائل والسكان بمظهر القوة، وتعكس لديهم شعورا برغبة المخزن في تحقيق مراميها وما يتوخى منها، فقد تعين إرفاقها بفيلق من العسكر معزز بالخيل والسلاح وبمدفع⁴⁷⁴. يقوم بشؤونها قواد عهد اليهم الاشراف على مراقبة مداخل الحبوب بالأمراس المنتشرة بمحيط القصبة، وتنظيم تقيف نصب خيام وفود القبائل بقوادهم وضبط أمنها الخارجي. بينما انبرى كتبة الديوان بحفظ

⁴⁷³ خ. م. ر : كناش 634 ص 22 . في رسالة بعث بها قائد المحلة الى الوزير الصنهاجي بتاريخ 08 شوال رمضان 1308 يبلغه فيها

بما يلي : « وبعد ، فقد ذكر لي نجل سيدنا مولاي العباس حفظه الله أنه اعتراه عسر البول هذه الايام ، ولعل ذلك ما يصيب الانسان قرب البلوغ او بعده »

⁴⁷⁴ خ. م. ر : كناش 634 ص 39 . لم يكن للمدفع المصاحب للمحلة الخليفة من هدف حربي قط . بل كان استعماله لغاية رمزية ، وكذا لإعلان طقساته عن وقت صلاة المغرب . فقد ورد في رسالة قائد المحلة الى المركز جاء فيها: « و بعد ، فالمدفع الذي يكون بمحلة نجل مولانا حفظه الله للإعلام بالأوقات الليلية لم يرد الى الان »

الوارد من الرسائل وبصياغة الصادر منها الى المركز والى قواد القبائل. وقد تم تنبيه قائد المحلة على ضرورة التقيد بضوابط التراسل فيما يتعلق بتوخي الدقة في تحديد الوجهة المرسل اليها بالمركز بحسب نوعية مواضيع المكاتيب. وكان الى جانب كل هؤلاء رافق المحلة أمينين لهما خبرة في شؤون الحسابات المالية، هما المكي الصبان وبن شقرون. عهد اليهما بتدبير الصائر وتتبع عملية الاستجباء وتدقيق المتحصل منها وتسجيلها بكنائشات خاصة وتوجيهها الى العاصمة. وبما ان المحلة كانت تبدو كما لو كانت قرية صغيرة، تعج بعدد كبير من القائمين على شؤونها من مختلف الرتب وأنواع الاشغال، ويمتلى محيطها بوفود قادمة من مختلف انحاء الاقليم، فإن وجود قاض بها كان ضروريا توكل اليه مهمة فض النزاعات بمقتضى الاحكام الشرعية: « [...] القاضي الذي يكون بالمحلة لفصل ما عسى أن يحدث بها من القضايا الشرعية»⁴⁷⁵. بالاضافة الى وجود فقيه - تأسيا بما تجري به العادة خلال ظعن المحلة السلطانية- يواضب على قراءة القرآن بشكل مستمر: « فقد ختمنا السلكة بالقراءة باللوح فنحب أن تطالع علم مولانا لينعم على فقيها بما جرت به عادته الشريفة مع فقهاءنا في الختمة»⁴⁷⁶.

وبمجرد استقرار المحلة والتحاق المرابط سيدي العربي، تم الشروع ودون تأخير في مباشرة عملها. استهلته ببعث الرسائل الى كل ممثلي المخزن بالإقليم بمن فيهم آيت سخمان وآيت سري للقيام بما يتعين عليهم الوقوف عليه. فقد توصل بشانهم الوزير الصنهاجي برسالة من قائد المحلة المولى عثمان برسالة مفادها الاتي: « وبعد، وصل كتابك بأن سيدنا دام علاه امر خديمه القائد محمد بن حموزياني بالكلام معنا فيما يرجع لآيت سخمان وأن نقابل الوارد علينا من عنده بالبرور والاعتناء [...] كما أخبرت ان مكاتب عمال آيت سخمان بأداء الذعيرة وعمال آيت سري بأداء الواجب توافينا»⁴⁷⁷.

⁴⁷⁵ خ. م. ر : كناش 634 ص 9 ، بتاريخ 06 رمضان 1308 .

⁴⁷⁶ خ. م. ر : كناش 634 ص 26 ، بتاريخ 23 شوال 1308

⁴⁷⁷ خ. م. ر : كناش 634 ص 12 ، بتاريخ 16 رمضان 1308 وعلى هامش الرسالة وردت اسماء قواد ايت سري و ايت سخمان المعنيون بالنهوض للقيام بالواجب المخزني وهم : مح اوزين والحسين اليسراوي ومح اوسعيد ومحمد بن هم والقائد يخلف و حسين بن وسعة وزيد بن كامل و حدو علي السخماني ومحمد امبارك وحم اوبناصر وحم اوباسو ومحمد بن الباز و محمد و الزين و القائد ولد عائشة او علي السخماني .

صارت وفود القبائل تتوافد على المحلة بالملاقة على العادة⁴⁷⁸ وتتلقى التوجيهات وما يتعين عليهم القيام به وبالمقادير المعينة لكل واحد منهم والتوجه بها رأسا صوب الزيدانية، خاصة وأن الفترة صادفت بداية موسم الحصاد وجني المحاصيل، إذ يبدو أنها كانت جيدة وإلا ما أمكن للمحلة أساسا أن يكون لها من موجب للإقامة بالإقليم وقتئذ.

كان عليها أن تشرع بداية في جمع المونة لفائدة عسكر وجيش المحلة. واحترازا من حدوث أي عائق أمامها، فقد حرص المخزن المركزي على تأمين رصيد مالي لها يبقيه رئيسها على سبيل الاحتياط للعودة إليه عند الاقتضاء. وهو ما كان موضوع رسالة بعث بها المولى عثمان الى الوزير الصنهاجي حيث جاء رده عليه في الرسالة الجوابية التالية: « وبعد، وصل كتابك أخبرت ان الامين السيد المكي الصبان توجه الينا وبيده ستة آلاف ريال وريالان بقصد مونة المحلة السعيدة عند تعذر استيفائها من القبائل الصادر الامر الشريف لعمالها بالقيام بها، وان مولانا اعزه الله امره بحيازة خط يد العلافين، وامرني ان نكون من ذلك على بال، وأن لا يصرف شيء من القدر المذكور الا بعد تعذر قبض المونة تعذرا حقيقيا»⁴⁷⁹.

لم تكن مهمة المحلة بالأمر اليسير بكل تأكيد. فالعمل الجبائي كان من أصعب الأشغال التي تواجه القائمين على تحصيلها من قواد وأمناء ومساعدتهم. فقد كانت بعض الفرق والدواوير غير منقادة للعملية، بل أكثر من ذلك لم تكن تتردد في استعمال العنف لصد الجباة عنهم. وهكذا أبلغ قائد المحلة بحادث من هذا القبيل: « فقد أخبر خديم مولانا القائد الطاهر اليعيشي أن دوارا من إيالته يعرف بدوار أولاد ايوب تعاصى عليه جدا، ولم يطاوع على دفع شيء من كلفة المونة والواجب وطرد أهله المخازنية النازلين عليهم وجرحوا واحدا منهم»⁴⁸⁰.

وقد تواجه العملية نفس المصير بقبائل الشمال التادلي إذا لم تعزز بحضور مخزني كثيف. هذا ما ابلغ به المولى عثمان في كتابه الى الوزير الصنهاجي جاء فيه: « أنه ورد علينا عمال ورديغة برمتهم وتلاقوا معنا، وذكرنا لهم أمر المونة وأداء الواجب، فأجابوا بأن ذلك لا يحصل

⁴⁷⁸ عثرنا في الكناش اعلاه ص 12 على رسالة تشير الى حضور بعض قواد آيت سري و معهم هدية لملاقة قائد المحلة: «وبعد ورد علينا خدام سيدنا نصره الله آيت سري القائد محمد و الزين و القائد الحسين اليسراوي و محمد اوسعيد وتلاقوا ب6 شياه و 18 قوالب سكر و جلد واحد صغير من السمن »

⁴⁷⁹ خ.م. ر : كناش 634 ص 14 بتاريخ 23 رمضان عام 1308

⁴⁷⁹ خ.م. ر : كناش 634 ص 20 بتاريخ 11 شوال عام 1308

⁴⁸⁰ خ.م. ر : كناش 634 ص 26 بتاريخ 22 شوال عام 1308

لهم الا بوجود المدد المولوي المعتبر وسط إيالتهم. وأنهم كانوا بالحضرة الشريفة وقالوا ذلك وأعلمناك لتطالع علم مولانا»⁴⁸¹.

وأمام حالة من التلكؤ والتقاعس وأحيانا العصيان ابدتها بعض الدواوير وفرق القبائل في عدم تجاوبهم مع الجباة لما يطلبونه منهم من حصة المونة المقررة عليهم، فإن قائد المحلة كان مضطرا الى مكاتبة القواد من جوارهم لشد عضدهم ومساعدتهم في مهمتهم. وهكذا وجه في رسالته دعوة لكافة قواد بني عمير وبني موسى وكذا الى الوصيف الجليلي بن يعقوب: «وبعد فنأمركم بوجود مولانا نصره الله أن تشدوا عضد الخديم القائد علال الوكيل علي المتعاصين عليه من إخوانه على أداء الواجب من المونة والكلف المتعلقة بهم فقوموا على ساق الجد في ذلك»⁴⁸².

مطلب فريد، نماذج من تحفيزات المرابط في دعوة القبائل الى الاسراع في اداء الواجب ودفع المونة:

تطالعنا أول رسالة بشأن المرابط، ينهي فيها قائد المحلة للوزير الصنهاجي أنه: «قدم علينا (المرابط العربي بن داوود) وتلاقى معنا وربطه بالمحلة السعيدة وطلب منا الكتابة لكافة عمال بني عمير وأعيانهم ليقوموا ونستعجلهم لأداء الواجب عزمًا، وساعدناه على ذلك»⁴⁸³. ونزولا عند نداء المرابط ودعوة قائد المحلة، حل فعلا كافة قواد بني عمير بعين المكان وكان ذلك موضوع رسالة القائد الى الوزير: «وبعد كنا قدمنا الإعلام بمساعدة الفقيه المرابط السيد الحاج العربي بن داوود على استقدام عمال بني عمير لاستنهاضهم لأداء الواجب. فقد قدموا وكلموا في ذلك وقاموا على ساق، وكتب المرابط في شأن بني عمير وغيرهم.»⁴⁸⁴.

وإمعانا في تأكيده على ما يقدمه من خدمات لفائدة المخزن بعث المرابط برسالة الى المخزن المركزي يبلغ بما يلي: «[...] أما بنو عمير فقد كانوا قاموا بالواجب يؤدونه عاجلا لولا ان سيدنا كلف عمالهم بالربط على بني مسكين. وأما بنو زمور فقد وجهت لهم ولدي مرارا وكانوا هم وورديغة راجعين للسماعلة، فكتبنا لهم حتى تفرقوا ورجع كل واحد لمحله وسيقدمون ولاية بني زمور بعد العيد في قريب. وأما وريديغة فقد جردت لهم الكتابة البارحة مع أحد اولادي

⁴⁸¹ خ. م. ر. : كناش 353 ص 108 ملخص رسالة سلطانية بتاريخ 20 شعبان سنة 1300

⁴⁸² خ. م. ر. : كناش 634 ص 22 بتاريخ 15 شوال عام 1308

⁴⁸³ خ. م. ر. : كناش 353 ص 16 .

⁴⁸⁴ خ. م. ر. : كناش 353 ص 18 ملخص رسالة قائد المحلة بتاريخ 03 رمضان سنة 1300

وقرعتهم ووبختهم بما لا مزيد عليه [...] وقد جددت لعامة بني عمير بطائق بالقيام وعدم التراخي في هذه الساعة»⁴⁸⁵.

كان المرابط يساهم أيضا في أداء دوره الاجتماعي ويعمل على حل مشاكل الناس الملتجئين إليه من تعسف القواد، أو التوسط لدى المركز لقبيلة ما. فعندما تقدم الى المولى عثمان بقصد تهنئته بعيد الفطر أبلغه أن شخصان « [...] من أعيان قبيلة بني مسكين اشتكيا له من تعسفات قائد بني مسكين وطلبا منه إبلاغ الجناب الشريف ان يكف عن إذابتهم وأنهما عرقبا بثور على المدفع»⁴⁸⁶. والقائدان المعنيان هما ابن المودن وابن الطيب السراغنيين كانا قد وفدا على قائد بني مسكين بقصد شد عضده.

وفي وساطته لجماعة من سكان قبيلة بني زمور تقدم المرابط الى الوزير الصنهاجي برسالة ليطالع السلطان مضمناها، ورد فيها: « أن فرقة من بني زمور بيدهم طرف من المونة وهم يريدون الخروج من يد القائد الغزواني الصالحي لبعده عنهم، ويلتزمون على أنفسهم أن واجبههم يؤدونه على عجل»⁴⁸⁷.

وإذ نكتفي بما ادرجناه من نصوص نعتبرها كافية للجواب عما قدمه المرابط وسلفه سيدي بن داوود لفائدة المخزن من توظيفهما لمكانتهما الاعتبارية لدى القبائل وما كانا يلاقياه بعملهما من استحسان لدى المخزن، فإن خدمات المرابط الابن وعلى شاكلة والده كانت تقابل بمكافئات من طرف المخزن تشجيعا لسيرته وتفانيه، سيستفيد منها أيما استفادة. فعند وفاة والده بن داوود استمر في استغلال العزائب المنتشرة بالسراغنة وتادلا والشاوية، وظلت عائدات محاصيلها تؤول اليه وحده دون باقي إخوته من الورثة الذين يظهر أن إثنان منهم وهما عبد الرحمن ومحمد قد تضررا من ذلك ما دفعهما الى رفع ملتمس الى السلطان على يد أحد خدام المخزن جاء فيه « [...] بأن السيد العربي ولد سيدي بن داوود استولى على العزائب التي ترك والده بإيالة عمال الشاوية وابن المودن، ولم يترك لإخوانه شيئا منها، وحاز الظهير الشريف الذي كان وجه سيدنا بعد وفاة سيدي بن داوود، فلحقت المضرة أخويه سيدي عبد الرحمن وسيدي محمد، وقد كانا من والدهما في المحبة بمكانة. طالبا إبقاء العزائب التي بإيالة ابن المودن لهما. قال مولانا: **الظهار التي عندهم**

⁴⁸⁵ م. ر. : كناش 353 ص 19 ملخص رسالة بتاريخ الاسبوع الاول من شوال سنة 1300

⁴⁸⁶ خ. م. ر. : كناش 353 ص 17 مختصر رسالة بتاريخ 01 شوال سنة 1300 هـ

⁴⁸⁷ خ. م. ر. : كناش 353 ص 21 .

على ذلك ليظهر»⁴⁸⁸. أي دعوتهما الى الادلاء ما بحوزتهما من ظهائر حتى يتسنى تقييم الحالة واتخاذ المتعين.

إن ما يثير الانتباه بشأن عزائب المرابط الأب، انها كانت من الكبر والشساعة والانتشار بمقدورها جميعا ان تستوعب يدا عاملة بلغ تعدادها الآلاف، لندرك حجم الأموال والعائدات من ريع تلك العزائب وهي ترد عليه. ولتوضيح هذه الاشارة لنستمع الى مختصر رسالة بعث بها نفس المشتكيان اعلاه الى السلطان: « [...] بأن لهم عزائب عديدة نحو خمسة آلاف خيمة. ولما مات والدهم صار لا يعرفهم أحد، مع أن لهما عيالا كثيرا، يطلبان بقاء العزيز الذي بإيالة ابن المودن بأيديهما يستعينان به»⁴⁸⁹. وإذا احتسبنا معدل اربعة او خمسة افراد في كل خيمة فإن عدد الافراد الذين كانوا يعتاشون من العزائب قد يصل الى ما يفوق العشرين ألف نسمة، وهو عدد له دلالة واضحة. مع ان الموضوع لا زال يحتاج الى بحث ودراسة يتسنى بموجبها مقارنة ظاهرة عزائب مرابط الزاوية الشرقاوية اختلافا وائتلافا بنظيرتها من عزائب شريف وزان التي خضعت لكثير من الدراسات والتحليلات منها ما قاربه الاستاذ عبد الله العروي في أطروحته المقدمة بالسوربون، او ما قام به الراحل ادريس بن علي من القاء الضوء على ظاهرة الاقطاع وعلاقة السلطة بالمجتمع بمنطقة الغرب.

خاتمة:

تميز الربع الاخير من القرن التاسع عشر بتطور واضح في بنية الجهاز المخزني المحلي. فقد شغل حضوره مساحات شاسعة بمنطقة الجبل والدير. وتمكن السلطان الحسن الاول من ربط هذه المجالات الطرفية التي ظلت لزمان ليس بالقصير بعيدة عن متناول المخزن المركزي بألية التدبير المجالي كما يراها المخزن وأصبح بإمكان القيادات المحلية مسنودة بإدالات متمركزة بعدة نقط في الوسط الجبلي، تتبع أخبار المنطقة ورصد أحوال السكان وقضاياهم وإجراء الأحكام المخزنية بشكل تدريجي. كما ظهرت بعض المنافع من تزايد عائدات الاعشار والزكاوات وهي تجلب لبيت المال عن طواعية، في وقت لم يعد لمرابطي آل امهاوش المتطلعين منذ القديم للسلطة من مستقر ولا مأمّن لهم بالمجال السخماني امام مضايقات موحى اوسعيد وموحى اوحموالزياني عقب واقعة المولى سرور غير محسوبة العواقب. أما في الجانب السهلي فإن المخزن أظهر آلية جديدة في التدبير المجالي والتعاطي بشكل مباشر مع قضايا الاستجباء وتحصيل المؤن ويتعلق

⁴⁸⁸ خ. م. ر. : كناش 172 ص 79 ملخص رسالة المشتكيان من ابناء سيدي بن داوود بتاريخ 14 ذو الحجة 1307 .

⁴⁸⁹ خ. م. ر. : كناش 172 ص 79 .

هذه المرة بتسيير محلات خليفية بلغ عددها خلال العشرية الاولى من القرن الرابع عشر الهجري ثلاث محلات، تستقر بالقصبة الزيدانية طيلة فترات مواسم الحصاد وجني المحاصيل بينما كان المرابط سيدي بنداوود وخلفه من بعده يستنهض القبائل لأداء الواجب وحتمها على الاسراع في دفع المئونة للجيش والعسكر. فضلا عن تجريد محلات سلطانية اتخذت من المجال التادلي معبرا أثيرا لها من وإلى العاصمتين فاس ومراكش.

أما على مستوى حضور الجهاز المخزني، فإنه لم يكد القرن التاسع عشر يصل الى نهايته حتى كانت القبيلة الواحدة يتقاسم نفوذها الترابي عدة قواد ليس إمعانا في الضبط الامني ولا بغاية وقف الصراعات بين الافخاذ وحسم مادة النزاع بينها بقدر ما كان للجانب المالي والجبائي النصيب الاكبر في الغاية من تعديدهم.

بيد أن هؤلاء جميعا لم يتمكن ولا واحدا منهم أن يحظى بالقوة والمكانة المميزة لدى الدوائر المركزية تؤهله لان يكون في المستوى والحجم والقوة التي حظي بها القائدان الكبيران الزياني واليسراوي، ليس لخلو قبائل السهل من زعامات فقد تظهر هنا وهناك، بل لأن المخزن وقبل فترة الحماية، صار يميل بثقله أكثر من أي وقت مضى لجانب المناطق الطرفية بالدير والجبل، بهدف إعادة إدماج قبائلها ضمن النسق التدبيري المخزني، والعمل على استنهاض قبائلها للعب دورها التاريخي لدعم مالية الدولة على غرار قبائل السهل في مواجهة تحديات الضغوط الاجنبية. ولن يتأتى ذلك الا بدعم مركزي عززه بتمركز إيدالات عسكرية بالقصبات، وبتوسيع قاعدة الجهاز المحلي المخزني، بينما توارى الدور العسكري القصبة التادلية، واقتصر أمر إدالتها على شد عضد القواد لتيسير عمليات التحصيل الجبائي.

الباب الرابع، من مرجعيات التدبير المخزني لبعض قضايا المجتمع المحلي، الشفاعة والفصال نموذجاً وموقفه من ظاهرة اللفوف

الفصل الاول ، الشفاعة ودورها في حل قضايا خلافية بين السلطة والمجتمع المحلي

الفصل الثاني ، الفصال وصيغته التحكيمية في تدبير الخلافات .

الفصل الثالث ، ظاهرة اللفوف بتادلاً وموقف المخزن .

الفصل الاول ، الشفاعة و دورها في حلحلة ازمات التوتر بين السلطة والمجتمع المحلي

- المبحث الاول ، الشفاعة بين طقوس التماسها و طرق تحصيلها و اختيار المتشفعين.
- المبحث الثاني، أسباب رفض المخزن طلبا لشفاعة .

الفصل الأول

الشفاعة و دورها في حل قضايا بين السلطة والمجتمع المحلي

تنتمي الشفاعة ضمن إطارها الشرعي الى الحقل الديني. وهي التوسط للغير لدفع مضرة او جلب منفعة مشروعة. وترتبط بالشفيع وهو من يتحلى بصفات دينية وروحية مخصوصة كما لدى شفيع الامة رسول الله صلى الله عليه وسلم وهي الشفاعة العظمى، او بتزكية من الله عز وجل تمنح للشفيع أهلية الاستشفاع لمن يطلبها خليلا كان او صديقا تقربا وتزلفا بين يدي الله للتجاوز عن الآثام يوم الحساب. وبما ان الشفاعة لها مكانة روحية وتنتسب في مضمونها الى الوازع الديني، فإنها ارتبطت بالضرورة بقيمتي العفو والعقاب.

ولأن الباب يظل مواربا امام طلب الصفح والعفو لكل من ارتكب خطيئة اوجاء بفعل شنيع، فان الشفاعة تبقى هي طوق النجاة الذي يوصل المذنب والمسيء لأبواب الرحمة والصفح، لكنها تبقى مشروطة بالتماسها ممن له الاهلية الشرعية في ذلك. على ان طلب الاستشفاع قد ينتقل من مقصده الأخرى الى ما يرتبط بشؤون دنوية. لان الخطيئة في النهاية هي خروج عن الشرع، والصفح والعفو يستمدان مشروعيتهما من نفس الحقل لمن يكتسب الاهلية لذلك، والاهلية نفسها لا تخرج عن نطاق الحقل الديني.

المبحث الاول، الشفاعة و طرق تحصيلها:

وإذ ندرج الشفاعة وطلب الاستشفاع في دراستنا لأشكال التدبير المخزني، فلان وظيفتها بدت واضحة كمظهر تدبيري ما فتأ المخزن يسلكه لتجاوز قضايا يواجهها مع المجتمع المحلي، وتظهر قيمتها في الوثائق المخزنية كمفتاح لحل اشكالات طارئة يطغى عليها جانب المواجهة بين المخزن و القبائل، يعود الحسم فيها الى الفصل بين حدين متقابلين: إما عقاب مشروع أو عفو مشروط.

فما هي الشفاعة وما وظيفتها؟ ومن يضطلع بوظيفة الشفاعة؟ ومتى يستشفع لدى السلطان؟ ثم من هم الوسطاء الذين يتشفعون للناس لدى السلطان؟ ولماذي تقبل الشفاعة؟ ثم ما هي الآثار الاجتماعية والسياسية المترتبة عن عدم تحقق قبول الشفاعة؟

المطلب الاول، الشفاعة لغة واصطلاحاً:

ورد اللفظ عند ابن منظور كالآتي:

- شَفَع : خلاف الوثر
- وَشَفَع لي، يشفع شفاعة. وَتَشَفَّع : طلب
- وَالمشَفَّع بكسر الفاء هو الذي يقبل الشفاعة وَالمشَفَّع بفتح الفاء هو الذي يقبل شفاعته
- وَالشفيع الشافع وَالجميع شفعاء، وَاستشفع بفلان على فلان وَتشفع له، فشفعه فيه. وَاسشفع طلب منه الشفاعة اي قال له كن لي شافعاً.
- وَالشفاعة: كلام الشفيع للملك في حاجة يسألها لغيره.
- تشفع به الى السلطان: جعله شفيعه عنده، توصل به اليه.
- وَشفع إليه: في معنى طلب إليه
- وَالشافع: الطالب لغيره، يتشفع به الى المطلوب. يقال تشفعت بفلان الى فلان فشفعني فيه، وَاسم الطالب الشفيع⁴⁹⁰.

بالمشرق، يعرف حلمي عبد الوهاب بأن الشفاعة في جوهرها انما تعني التوسط عند ذي مُلك او سلطان⁴⁹¹.

كما أنها ليست مخصوصة فقط "بدرئ المفاصد، وإنما هي شاملة لتشمل جلب المصالح ايضاً في الدنيا وفي الأمور المشروعة أو أمور الآخرة"⁴⁹².

بينما في المغرب، يرى عبد الله العروي أنها سلطة يمارسها الشرفاء كحق يتوارثونه وتميزهم عن غيرهم وهي سلطة مطلقة من طينة الخوارق لا تحتاج الى برهان حسي⁴⁹³.

ومهما يكن من أمر، فإن ما يهمنا من مقصد الشفاعة كما ورد لفظها في المصادر التقليدية والوثائق المخزنية، هو وظيفتها الإجرائية في الأمور الدنيوية، تتصل بقضايا لها علاقة بالشأن العام لا يضطلع بها الا السلطان وحده. فالشفاعة وإن كانت ذات ملمح ديني فإنها تشكل إحدى وسائل التدبير المخزني للحياة الاجتماعية المحلية لتشمل الأفراد والجماعات. لها وظيفة اجتماعية يتم بموجب قبولها إيقاع حلول ما تسنمه هؤلاء من انحرافات عن التوجه العام للدولة انعكاساً لواقع سياسي أو اجتماعي أو اقتصادي.

⁴⁹⁰ ابن منظور لسان العرب صفحة 2289 .

⁴⁹¹ حلمي عبد الوهاب محمد : ولاة واولياء السلطة والمتصوفة في اسلام العصر الوسيط ، الشبكة العربية للأبحاث والنشر

ط1 بيروت 2009 ص 108 .

⁴⁹² ابن عثيمين : شرح العقيدة الواسطية ص 169 .

⁴⁹³ العروي عبد الله (مر.س) ص 127.

المطلب الثاني، شفاعة السلطان:

السلطان هو أمير المؤمنين، وسليل الدوحة النبوية الشريفة. يتبوأ المكانة الأعلى في النسق الشرفاوي. وبما أن أهل المغرب يرتبطون بالنموذج النبوي⁴⁹⁴ وأن كل مسلم يتشوف الى شفاعة الرسول صلى الله عليه وسلم، فإن السلطان بما يمثله من استمرارية عقب الرسول الكريم، فإنه يتحلى ضمنا بسلطة ومشروعية الشفاعة. ولما كانت سلطته الدينية مطلقة، فهو أيضا يمثل سلطة سياسية⁴⁹⁵، فتنقل الشفاعة تبعا لهذا المنطق فيما يرتبط بأمور دنيوية الى مؤسسة السلطان.

ويمكن القول ان الشفاعة أحيانا تصبح وسيلة ومدخلا لقضاء مآرب ومنافع للناس كما ذكر ذلك العالم الفذ لحسن اليوسي زمن المولى اسماعيل: "ثم لما رأني الناس أطلع الى السلطان لبعض الأحيان جعلوا يتعلقون بي طلبا للشفاعة"⁴⁹⁶.

وحسب الوثائق المخزنية المتيسرة لدينا ووفق سياقات الوقائع الواردة بالمصادر التاريخية، فإنها تبقى وسيلة من الوسائل التي يأمل المستشفعون التماسها من السلطان للتجاوز عما قاموا به من افعال تتنافى مع الشرع. فمن ارتكب جرما او اتى بفعل يخالف مقتضيات الشرع كالزيف او محاولة الخروج عن سلطة الحاكم او الجماعة فإنه يستوجب في حقه حكم رادع. والمخالفون في هذه الحالة وقد اصبحوا تحت رحمة سلطة القانون يلجؤون في العادة الى طلب الشفاعة للتجاوز عن أفعالهم. ومن امثلة ذلك ان تمردات القبائل او أجزاء منها، إما بسبب ضغوطات جبائية أو احتجاجا على سلطة قائد او لأسباب اخرى، فإنها تمثل من وجهة نظر المخزن مساسا بالنظام العام وخروجاً عن السنة والجماعة، ومن ثمة فإن مسلكها ذاك يعتبر مفسدة وإخلالا بالشرع، تلزم مرتكبيها العقاب. ولن يحول بينهم وبين إنفاذ جزاء ما اقترفوه غير التماس الشفاعة لدى السلطان. وقبولها منه يجنبهم تشديد النكير.

المطلب الثالث، أشكال طلب الشفاعة:

لطلب الشفاعة طقوسا معينة تأخذ أشكلا متعددة حسب ما نعثر عليه في الوثائق المخزنية

من جملتها:

1. التعركية:

التعركية مدلول استمد جذر لفظه من فعل عرقب. والعرقوب اسم لوتر او عصب بالقوائم الخلفية للبهيمة. ودلالاتها تعود لطقس معروف في ثقافة المجتمع المغربي، تتم من حيث الشكل بتقديم

⁴⁹⁴ العروي عبد الله نفسه ص 94

⁴⁹³ العروي عبد الله : نفسه ص 95

⁴⁹⁶ اليوسي رسائل ج 1 ص 161 - 176

فرد او جماعة وبيدهم ثور او جمل حسب الاعراف والعادات المتبعه، أمام عتبة دار المخزن او ضريح او مسجد او بموضع يجتمع به القوم، فيتم قطع عرقوب الذبيحة من إحدى قوائمها الخلفيتين قبل عقرها، و إهراق دمها بالمكان وأمام الناس لغاية يطلبها المعرقبون إما طلباً للصفح او التجاوز عن جريرة او التماس الحماية والامان او الانحياش الى قبيلة المستقبلين، الى غير ذلك من القضايا الاجتماعية التي تكون الذبيحة وسيلتها و مفتاحها الرمزي. وقد عرف المختار السوسي التعركية كالاتي: " التعركييات اي الذبائح التي تقطع عراقيبها، وهي عبارة عن تقديم هدايا الاستسلام، وتكون عادة بقرا او جمالا يذبحها المستسلمون امام الغالبيين⁴⁹⁷ . ومن حيث المضمون فهي تعبر عن رمزية تقديم العار بنوع من التذلل والمسكنة طلباً للعفو والصفح والتجاوز. و احيانا تكون التعركية وسيلة لطلب التكفل و انحياش جماعة او فرد لقبيلة او فخذ استجابة بها لضمان امنهم و حمايتهم والعيش بين ظهرانيمهم. حتى اذا ما قوبلت تعركيبتهم بالرضى و الاستحسان رعى لحفظ ماء وجه المتقدمين بها فانه يتعين على المتعهدين صونا لكرامتهم و شرفهم و ذمتهم الوفاء بتحقيق طلب الصفح او برعاية المعرقيين و الالتزام بما قطعوه على انفسهم. على ان العادة جرت بضرورة قبول ذبيحة "التعركية/العار"، كون رفضها يمثل استعلاء واستكباراً لن يأتي ردها بعواقب سليمة* . وهذا ما برر به الاخباريون هزيمة ظيان، "حينما بعث البربر اليه بنسائهم وولدانهم " للشفاعة معرقيين أمام محلة المولى سليمان، الا ان بعض مستشاريه أشاروا عليه بعدم قبول شفاعتهم، فجر ذلك هزيمة تاريخية على جيشه.⁴⁹⁸

2. التطارح الجماعي بين عجلات المدافع:

هي وسيلة يلجأ إليها السكان في اغلب الاحيان الذين أصابهم قهر السلطة ووقع على قبيلتهم التغلب المخزني بعد تمردهم او عصيانهم لطلب العفو والصفح⁴⁹⁹ على ما فعله افراد قبيلتهم. والمدفع كما هو معروف له رمزية القوة ومصدر للنار والهدم لا يتوفر كسلاح الا لدى المخزن. كما ان النساء بما يمثلنه من عرض وصون للنسل، وهن يبنين عن ازواجهن من المتمردين ممن سيطالهم العقاب والتنكيل، في إسماع صوتهن لطلب الشفاعة والصفح الى السلطان. انهن يمثلن في واقع الامر الطرف المستضعف في كل الاحوال فلا يؤاخذن بجريرة ما اقترفه ازواجهن

⁴⁹⁷ السوسي المختار : المعسول ج 20 ص 18

* احيانا يلجأ المستجارون في حالة رفضهم العار الى المحاولة كسره وتجاوزه من خلال مقابلته بذبيحة مضادة تفاديا لعواقب الرفض.
⁴⁹⁸ الناصري خالد : (م.س) ج 8 ، ص 134 ، 137. و في ذلك يقول صاحب الجيش العرمرم : « كان السلطان الحازم سيدي محمد بن عبد الله لا يرد الشفاعة في مثل هذا المقام و ربما دس الى من يظهر ذلك صورة حتى يكون نهوضه عن عز و ذلك من حسن سياسته »

⁴⁹⁹ يرد الاخبار بهذه العملية في المكاتبات السلطانية يبيعت بها الى الافاق عقب كل حركة الى القبائل المتمردة.

المنهزمون» . نعثر لنموذج من ذلك في رسالة الزياني الى المركز» [...] أن آيت سخمان لما علموا التصدي اليهم بالجد والضغط، قدموا عليه نساء ورجالا، وعرقبوا عليه وعلى من معه من بني مكيلد وشقيرن وزيان، ولاذوا به يطلبون منه الوساطة بينهم وبين الجانب العالي بالله ⁵⁰⁰ . وفي أخرى « [...] وجهوا له الثيران والنساء على أن يتوسط لهم لدى مولانا ⁵⁰¹ »

وإذا كان أمر طلب الشفاعة هنا بعد قبولها من طرف السلطان بمقدورها ان تحسم الازمة بين الطرفين، فإن انتفاؤها وعدم استعمال آليتها الرمزية من طرف الثوار المتمردين قد تكون له عواقب جد قاسية عليهم. فلنستمع لنص الرسالة السلطانية بشأن ما وقع لمتبردي السماعلة صيف سنة 1300 هـ / 1883 م المتحصنين داخل أسوار بنيان لهم بالبراكسة بعد مواجهتهم المسلحة للمحلة السلطانية:

« [...] اقتحموا الخروج منه حيث ايفنوا بالهلاك على كل حال. فنشب من كل ناحية القتال، ولم ينج منهم الا القليل. فكانوا صرعى ما بين جريح وقتيل، وتركوا نسائهم وصبيانهم وأموالهم لما كان امرا أفضع وادهى لهم، وتفرقوا عراة شذر مذر [...] وهذه سنة الله فيمن بغى وحاد عن السنة والجماعة» ⁵⁰² . نهاية حزينة دون شك لهؤلاء العصاة غابت فيها وسيلة طلب الشفاعة فكانت المحصلة، ما حل بهم. فحتى بعد التجائهم في التوسط لهم إلى " [...] أهل الوجاهات من المرابطين يطلبون لهم الشفاعة فقبلها منهم وتولى عنهم" ⁵⁰³ . لكن أوانها كان قد فات وأجلها انصرم.

3- الاستشفاع لدى السلطان مباشرة:

تطالعنا بعض نصوص المكاتبات السلطانية الى عماله بالمدن الكبرى عقب كل حركة سلطانية، وهي أشبه ما تكون بتقارير مفصلة تتضمن بيانات ومعلومات دقيقة حول سير المحلة السلطانية وأحوال القبائل والوسائل التدبيرية التي سلكها السلطان بشأن قضايا تنظيمية وإجرائية تخص شؤون القبائل.

منها ما تعلق بنشاط المحلات التي تخيم بالإقليم التادلي الى حين مغادرة الموكب السلطاني. وتتضمن عادة وصفا لخوف جماعات من القبائل سبق أن تعاصت عن تنفيذ أوامر مخزنية أو طالتها حركات وصوكات موفدة من المحلة لحملهم على أداء الواجب تحت التهديد والوعيد. فنتقدم تلك

⁵⁰⁰ خ.م.ر : كناش 172 ص 158

⁵⁰¹ خ.م.ر : كناش 172 ص 148

⁵⁰² م . و . م . ح . ر . رسالة سلطانية مستقلة مسجلة تحت رقم 28668 ، تحمل تاريخ 26 رمضان عام 1300.

⁵⁰³ السباعي ابراهيم : (مخ.س) ، ورقة 314 .

الجماعات نساء وأطفالاً وشيوخاً أمام المحلة متطارحين طالبين العفو والشفاعة للتجاوز عنهم. وندرج فيما يلي نموذجاً من تلك المكاتبات وهي كثيرة: «[...] ثم لما خامر قلوب بني موسى ما خامر من الدهش والخبال وشاهدوا إشراف طلائع النكال عليهم الوبال، طال أهل الجرائم منهم لصياصي الجبال ووجهوا لأعتابنا الشريفة ذبائحهم من النساء والشيوخ والأطفال، متوسلين في المجاوزة عنهم بالصالحين وأهل الفضل والدين، ملتزمين التوبة والانابة والامتثال مذعنين للخدمة مع عاملهم في الحال والاستقبال، فقبلناها منهم وكفنا أكف العقوبة منهم»⁵⁰⁴

4- قنوات أخرى لطلب الشفاعة:

بما ان للشفاعة من المنظور الفقهي شروط يتعين التقيد بها، وهي تتأسس في المجمل على رضى الله، وان الشافع يجب ان يكون معروفاً بتقوى الله ومن أهل الفضل والاحسان فان المستشفع يستمد قوته فيما يتعلق بالأمور الدنوية من مقامه ومنزلته لدى السلطان. وإذا ما صرفنا النظر عن المستشفعين من فئة العمال والقواد فإن القبائل كانت تلجأ أحياناً الى رموز دينية في طلبها للشفاعة منها: الزوايا والمرابطون وحملة القرآن الكريم.

4.1- الزوايا:

مثلت الزوايا منذ العهد السعودي ملجأً وملاذاً آمناً لكل مستجير بحرمتها ومنتشفع بها افراداً وجماعات أو فراراً من القصاص أو غرباء أو "مسافرية" ممن تقطعت بهم السبل، أو كل ذي حاجة، خاصة منهم الفقراء والجياح في اوقات المسغبة والجوائح، وحتى من جموع القبائل خوفاً من العقاب الذي يتوقعونه من المخزن " زجراً لما ارتكبوه من الجفاء وتسنموه من العقوق " فيقابلون بالإحسان ويأمنون ويطعمون. فكانت الزوايا بتقديمها لهذه الخدمات الاحسانية تؤدي وظيفة من بين اهم وظائفها الاجتماعية. فحرمة الزاوية ومكانتها المقدسة لا يجوز بحال من الاحوال انتهاكها ولا الاعتداء على المستجيرين بها مهما ارتكبوا من الخطايا الى حين ايجاد التسويات المناسبة بعد تدخل المرابط، الذي يبقى ركناً اساسياً في المعادلة التوافقية التي ترضي جميع الاطراف. إنها إحالة على المقدس الذي لا يقوم بوظائفه الا داخل الزاوية ومن خلالها⁵⁰⁵، بما تحظى به من مظاهر الاجلال والتوقير ليس فقط لدى عموم الناس والاتباع والمريدين، بل أيضاً لدى السلطة الزمنية القائمة.

⁵⁰⁴ م . و . م . ح . ر . رسالة سلطانية مستقلة مسجلة تحت رقم 28660 تحمل تاريخ شهر محرم 1294
⁵⁰⁵ العروي عبد الله (مر.س) ص 190 .

وتتفاقم ظاهرة لجوء الناس الى مفر الزوايا المتواجدة بقبائلهم، زيادة على ما ذكرناه، حينما يواجهون بضغوط جبائية وإكراهات الكلف من طرف قوادهم ويعجزون عن الاداء ويقابلون بما يُكرهون عليه بعد رفض وتمنع. فان جيش المحلة السلطانية عند مرورها بمجالاتهم يشرع في إرغامهم على الاداء تحت طائلة الاكراه والقوة. في هذه الحالة لن يكون امامهم غير الاستحرام و" المزاوكة " بمقر زاويتهم.

وقد وقفنا على وقائع كثيرة ونماذج متعددة فيما ذكره الاخباريون عن حالات تحرم وتشفع القبائل بزواية مرابط ابي الجعد⁵⁰⁶ والمزاوكة* في مرابطي سيدي علي بن ابراهيم⁵⁰⁷. ونكتفي بهذا الصدد بادراج نموذج من نص مقتطف من رسالة سلطانية:

« [...] كانت فرقة منهم تسمى أولاد عياد أخبر عاملهم بانحرافهم عنه وعدم جريهم على المراد [...] ووردوا لحرم سيدي علي بن ابراهيم وزواياه مستحرمين، ثم وردوا على حضرتنا الشريفة متطارحين تائبين نائبين راغبين في التجاوز عن سيئاتهم ملتزمين الصلح والخدمة مع عاملهم فقبلنا توبتهم»⁵⁰⁸.

4. 2 - المرابطون:

للمرابطين مكانة خاصة ووضع اعتباري لدى السلطان. فهم من حفدة الجد المؤسس للزواية الموسومة سيرته بهالة من التعظيم والتوقير. ويزداد البعض منهم قربا من المخزن كلما كان اشعاع زاويتهم على قدر من الشساعة المجالية للجغرافيا البشرية، وعلى وفاق مع التصور الايديولوجي للمخزن⁵⁰⁹. ومن جملة هؤلاء المرابطين ممن كانت لهم حظوة لدى السلاطين العلويين، حفدة المرابط ابو عبيد الله الشرقي مؤسس زاوية ابي الجعد⁵¹⁰. فكانت مكانته تلك اشبه بمفتاح يدور في الاقفال المستعصية لحل المغالق التي تنسد في وجه المستجيرين والمتشفعين: « [...] فداس الجيش زروعهم (بني زمر) وشالت الخيل مواشيهم وضروعهم وتسابقت الايدي في اخذ رجالهم وسلبهم حتى افضى ذلك الى سلبهم من ثيابهم. ولما طفق ابطال الجيش يأخذون رجالهم ويشدون

⁵⁰⁶ الرباطي الضعيف : (م.س) ص 323

* لم يتمكن من ايجاد جذر للفظ المزاوكة و لا مبناه في اللغة العربية و يظهر في اعتقادنا ،إما ان مصدره اللغوي أمازيغي أو محرف عن لفظ زاوية مع تحول حرف الياء و تشديده الى ان صار كافا اعجمية كما في اللهجة البدوية و بذلك فربما يعود اصله الى المزاوية أي فعل اللجوء الى الزاوية لطلب الصفح

⁵⁰⁷ الرباطي الضعيف نفسه ص 332

⁵⁰⁸ م . و . م . ح . ر . رسالة سلطانية مستقلة مسجلة تحت رقم جمادى الاولى 1315 الموافق ل 1897/10/12

⁵⁰⁹ بالرغم من المكانة الاعتبارية لمرابطي آل امهاوش لدى كافة قبائل زيان و جنوب الاطلس المتوسط ، الا انهم لم ينالوا اية حظوة لدى السلاطين طيلة القرن التاسع عشر ، كونهم من الادعياء المتطلعين، وصفهم جل إخباريو المرحلة بالداجلة، و تزعموا ثورات و خاضوا مع اتباعهم حروبا هددت المخزن المركزي

⁵¹⁰ احمد بوكاري : الزاوية الشرقاوية اشعاعها الديني و العلمي ، ج1، مطبعة النجاح الجديدة الدار البيضاء 1985 ، ص 45

الوثاق وضاق بهم الارض وضاق الخناق لجأوا لزاوية سيدي بن داود فاستحرموا واستشفعوا به فعفي عنهم»⁵¹¹ .

وفي حركة السلطان عبد العزيز الى بني عمير « [...] التي تمردت عن أداء الواجب واستعصت [...] وجات على المدد الذي كان عندها حين وفاة سيدنا الوالد [...] وردت جماعات من لدنهم على جنابنا الشريف واستجارت بالمدافع حيث لم يكن ناصر من الله ولا دافع وتطارحوا بالعارات وتباروا في انهاء التوبة ابلى المباراة وطلبوا العفو عما فعلوا وقرروا ندمهم عليه ومنه تتصلوا وعنه انفصلوا، وتشفعوا من نفعنا لشفاعته لكبرته ومحبتة وديانته فشفعناه بعد ان شرطنا عليهم من القيام بواجب الطاعة ورد الحقوق»⁵¹²

4. 3 - حملة القرآن الكريم :

«خدامنا الانجاد قبيلة آيت الربع كافة وبعد، فقد وردت على حضرتنا العالية بالله حملة القرآن أهل الله من قبلكم الذين قدمتموهم بين يدي نجواكم شفعا، وقد شفعا وعرقبوا وتطارحوا على اكتافنا وتملقوا بأعطافنا واستعطفوا جنابنا»⁵¹³ . بهذه العبارات التقديمية خاطب السلطان المولى الحسن قبيلة آيت الربع الجياشة الذين تخلفوا عن مرافقة المحلة السلطانية الى أقاليم سوس، ردا على إيفادهم لمجموعة من حملة القرآن الكريم لالتماس الشفاعة وطلب العفور عما صدر منهم . لقد كانت القبائل تعي ما للقيمة المعنوية للطلبة وحملة القرآن لدى السلطان. فقد كانوا يلاحظون ذلك عند مرور المحلة السلطانية بمجالاتهم يرافقها الطلبة والحفاظ وهم يتلون سور كتاب الله وختمه مرات عديدة طيلة مدة سفر المحلة. ويقول ابراهيم السباعي بشأن الاهتمام الذي كان يوليه السلاطين العلويون للطلبة ما ذكره في البستان الجامع : "[...] من جملة حسناته (المولى عبد الرحمن) [...] انه كانت له طائفة من الطلبة يكرمهم ويكرهم على ملازمة انتساخ دلائل الخيرات حتى يجمع عددا منها"⁵¹⁴ .

وينتصب امامنا سؤال يطرح نفسه بهذا الخصوص، لماذا وقف اختيار قبيلة آيت الربع على حملة القرآن لطلب الشفاعة لهم دون سواهم، على غرار نقيب الشرفاء العلويين او المرابط سيدي بن داوود ممن يعتبرون اكثر قربا من دوائر المخزن مقارنة مع اولئك الطلبة المغمورين؟ وبما أنه ليس بمقدورنا الجزم بجواب قطعي عن سبب ذلك، الا ان التخمين في تفسير الامر، قد منحنا

⁵¹¹ السباعي محمد بن ابراهيم : مخطوط سابق ورقة 141-142

⁵¹² محمد بن الطيب اليمني بوعشرين : (مرس). اورد فيه رسالة السلطان عبد العزيز ،ص 56

⁵¹³ خ.م. ر: مختصر رسالة سلطانية كناش 353 ص 48

⁵¹⁴ السباعي بن ابراهيم : (مخ.س) ورقات 76-77

تصورا عما نحدسه من مدى تقدير النقيب او المرابط لطبيعة المخالفة المرتكبة وثقلها وخطورتها، وهو اجسهم من عدم وقوع طلبهم في صدر السلطان موقع القبول والاستحسان. وبما أن قضية آيت الربع ربما كانت أعسر عليهما وأثقل من ان تنال وساطتهم والتشفع لهم رضى السلطان، فإنهم ربما كانوا يستشرفون رأي المثل: " سبق السيف العَدَل". وهو ما حصل بالفعل، إذ تم على إثر ذلك الزج بقوادهم بسجن مصباح بمراكش مع إنزال غرامة مالية جسيمة على باقي القبيلة.

3- 4 توسط العمال والقواد لطلب الشفاعة:

تتجسد وظيفة القائد بشكل عام في تمثيل المخزن بمجال ايلته الجغرافية من منظور اداري وسلطوي. فهو من يقوم بتجميع الضرائب وفض النزاعات، ويجري الاحكام المخزنية ويرسل وينقل كل المعلومات التي تجري على سطح الحياة الاجتماعية. ولا يفوته تحري كل الاخبار والاحداث التي تجري بالجوار. إنها جملة وظائف يسعى جاهدا كل قائد بتنفيذها على أكمل وجه وتجسيدها على أوضح صورة بكل ما أوتي من سطوة ونفوذ، حفاظا على مركزه السياسي والاجتماعي ووضعه الاعتباري وسط قبيلته. فهل تقتصر مهام القائد على ذلك فقط وانحسار عمله في رعاية شؤون المخزن على المستوى المحلي، أم يتعين عليه أيضا بصفته ابن القبيلة وله امتدادات عائلية وعشائرية تسمح له من موقعه ذلك الاضطلاع بمهام لفائدة قبيلته؟ الجواب نعم، فمنصب القائد يؤهله بالضرورة لان يلعب دور الوسيط بين القبيلة والمخزن، بما لديه من مؤهلات وظيفية في التعبير عن مطالب السكان، ونقل معاناتهم والاكراهات المزممة ان لم نقل البنيوية، التي تحول دون قدرتهم أحيانا كثيرة بالوفاء بواجباتهم إزاء مطالب المخزن، أهمها التحصيل الضريبي.

لكن السؤال الذي يطرح نفسه هنا، هل يمكن اعتبار تشفعات القائد من حيث مدلولها الرمزي ووقعها المعنوي انها ترقى الى مستوى تشفعات المرابطين وزعماء الزوايا والشرفاء؟

ان المقارنة هنا لا تلزمنا في تحريك جانب المقايسة فيمن أيا منهم اوفر حظوة لدى المخزن، الا بما يثبتته الواقع وتفصح عنه الوثائق المخزنية. فالمؤكد ان وساطة القائد بصفته خديما للمخزن تبقى مفقودة لأي رمزية أخرى غير رمزية ما يؤشر عليه المضمون السياسي. وعليه، فإن وساطته تؤخذ بعين الاعتبار ليس فقط من جانبها الاجتماعي وما يتعلق بمطالب القبيلة والسكان فحسب، بقدر ما تراعي حدود المسافة بين وظيفة القايد كمثل محلي للمخزن يضطلع بقضايا سياسية وبين السلطان الذي تبقى له وحده السلطة التقديرية فيما يطرحه ممثلي المخزن من طلبات الاستشفاع .

فوساطات القواد، لا يمكن ادراجها الا ضمن نسقية التدبير السياسي العام للمخزن. لذلك يمكن القول أنه إلى جانب وظيفتهم المخزنية فهم أيضا يتوسطون تحت شروط يقدرونها لتحقيق

بعض مصالح قبائلهم. فمن خلالهم كان المخزن يتوصل بمطالب السكان، خاصة في قضايا مهمة من قبيل طلبات إطلاق سراح معتقلين أو تخفيض مقادير ضريبية مفروضة⁵¹⁵، أو التشفع لفرد أو لجماعة يتوقع انزال العقاب عليهم.

ففي رسالة بعث بها أحمد بن القايد الى مولاي عبد الرحمن على إثر مسغبة ضربت الحوز بما فيه تادلا جاء فيها: « [...] ولا يسئل سيدنا عما هو فيه الحوز من غلاء الزرع والاسعار وغير ذلك. وقد فر جلهم لبلاد تامسنا وبلاد ورديفة وقت الربيع ليلتقطوا معاش انفسهم وقد ضعفت الناس واشتد عليهم البأس ولحقهم الضرر وضاق الامر ولا حول ولا قوة الا بالله [...] والمرغوب من الله ثم من كمال فضل سيدنا ان يعين المسلمين بزرع السفن ويؤكد على التجار في توجيهه للحوز وأن ينبه علينا مولانا»⁵¹⁶. وغاية القائد من توجيه طلبه للسلطان هو تنبيهه للتجار المستوردين للحبوب من الخارج⁵¹⁷ بمراعاتهم لظرف الازمة الاقتصادية التي يمر بها السكان وأن لا يسعوا في بيع الزرع للناس انتهازا لفرصة جني الأرباح، بل لفت عنايتهم لضرورة البيع بأثمنة معقولة. ويتقدم القواد المتشفعون الى السلطان إما بواسطة المکتوب وفق النظام الاداري المتبع كما في النماذج التالية:

- «الحاج الكبير الوردیغي متشفعا في تسريح خمسة أناس من إخوانه سماهم بسجن مصباح»⁵¹⁸

- «القايد محمد بن عبد الله الهنتيفي بأنه كان تشفع لسيدنا تسريح اخيه المقبوض عليه وان كان سبب قبضه هو العدة التي ضاعت للعسكر [...] قال مولانا يسرح»⁵¹⁹. وفي رسالة سلطانية الى عمال الافاق جاء فيها:

- « [...] وعلى إثره أخبر خديما القايد محمد احموا الزياني انهم اتوا اليه متطارحين عليه [...] رغبة اليه في الشفاعة وجنوحا الى الجد في مطالبهم [...] فرأينا حينئذ أن نقبلهم ونأمن على من لم يحضر منهم وقعة الغدر»⁵²⁰. وإما بالتشفع المباشر، كما في النص التالي :

⁵¹⁵ محمد شقير : التحكم السياسي في المجال القروي المغربي ، المجلة المغربية لعلم الاجتماع السياسي العدد 7-8- الصادر سنة

1988، ص 98

⁵¹⁶ م. و. م. ر. ح. : محفظة 47- Th ملخص رسالة مستقلة غير مرقمة تحمل تاريخ 22 رمضان 1266

⁵¹⁷ أكد في هذا الشأن صاحب مخطوط الابتسام ان المغرب كان يستورد القمح من بلاد مصر و افريقية و الموسك .

⁵¹⁸ خ. م. ر. : مختصر رسالة سلطانية كناش 172 ص 90

⁵¹⁹ خ. م. ر. : مختصر رسالة سلطانية كناش 172 ص 182

⁵²⁰ م. و. م. ر. ح. : مقتطف من رسالة حسنية مستقلة مسجلة تحت رقم 28675 بتاريخ 7 صفر 1308 هـ

- «خدامنا آيت عطا، فاذا بكم الآن صدر منكم ما صدر من التكاثر عن خدمتنا الشريفة» [...] فاذا بعاملكم خديمنا القايد حمو ويخلف تشفع فيكم لدينا وتطرح على حواشينا في الإبقاء عليكم وأن لا نهتك عليكم بين القبائل سترًا فشفعناه فيكم رعاية لخدمتكم السالفة»⁵²¹.

المبحث الثاني، جوانب من أسباب رفض المخزن التماس الشفاعة:

ما هي الاسباب التي كانت تدفع أحيانا المخزن الى عدم قبول التماس الشفاعة؟ وما انعكاسات ذلك على طالبيها؟

إن ما ينبغي التأكيد عليه بداية، هو ان القبائل عند انكسارها امام قوة المخزن يتحول ادراكها بمآل حالها الى وعي بضرورة تحفيز ذكائها الاجتماعي في سلك طرق اخرى تحفظ كيانها وتؤكد على خضوعها مجددا. لكن تمردا على أية حال كان يدخل ضمن لحظة تاريخية عبرت بموجبها عن رد فعل لابلاغ صوتها، وإثارة الانتباه لما كان يلحق السكان من ممثلي المخزن من الجور والتعسف والظلم. يصل بها الامر أحيانا الى مهاجمة قائد واغتياله كما حصل للقائد زيدوح. لكنها تدرك أيضا أن ما سيجنبها العقاب عن فعلها اذا ما تجاوز حدودا معقولة هو الالتجاء الجماعي للاحتماء بالرموز* المشار اليها سابقا لقناعتهم بقدرتها على تحصينهم عما قد يلحقهم من عقاب المخزن، و اقدمهم على استرضاء السلطان و طلب عفوه و شفاعته بالتطرح على أعتابه الشريفة إذا ما وجدوا لذلك سبيلا. من هنا تبرز وظيفة الوساطات في إطار دورها لتحقيق التوازنات، بأن تحمل على عاتقها وزر هذه المهمة الاجتماعية والتشفع لدى السلطان⁵²². وهي خصيصة لا تخلو من دلالة دينية و"رمزية تيولوجية" تسمح في التجاوز عن اجتراح القبائل لأفعال دنيوية وأن النظر فيها يبقى خارج نطاق الجزاءات القانونية.

بيد أن تقدير المخزن لحجم الفعل المرتكب، وخياراته التدبيرية لقضايا سياسية وأمنية وتقييمه لما يعرض عليه من تشفعات وجهاء ورموز دينية للتجاوز عن قضايا من مستويات معينة، يبقى كل ذلك مرهونا بنتيجة تقليب النظر، ومحكوما بما تقتضيه الضرورات السياسية، " التي هي جبر القلوب، واستيلاف الشارد وتسكين المرتاب، وارضاء الولي ومراضات العدو"⁵²³. ولما كان النظر السلطاني، يراعي في جوانب أخرى تقدير حجم العواقب وعدم اقتناعه بالتبريرات وما يعرض أمامه من قبل المتشفعين من أعتذارات، وتجنبنا لأي تساهل يبيده المخزن ما قد يدفع قبائل

⁵²¹ خ. م. ر: مختصر من رسالة سلطانية الى قبيلة آيت عطا نومالو. كناش 353 ص 108

* تتعدت الرموز عادة في الدراسات السوسيوولوجية انها عبارة عن نواقل للمعنى .

⁵²² يتحدث العالم الحسن اليوسي في الجزء الاول من رسائله بنوع من الاسى والضيق عندما اصبح طلبته يتخلفون عن مجالسه

العلمية ويحضرون مجالس اخرى لعدم مجارته لهم و رفضه قيامه بواساطته لهم لدى السلطان.

⁵²³ الزياتي ابوالقاسم : مخطوط الروضة السليمانية ورقة 210

أخرى الى التجاسر ويشجعهم على توسيع نطاق التمرد والعصيان، فتنضاف الى ازمة الترددي، اسباب اخرى تهدد الاستقرار الهش الذي وسم الوضع العام خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر. فلا غرو ان ينحو خيار المخزن في " انتهاز الفرصة عند تأتيها والعمل بالحزم والأخذ بالحذر وإمضاء العزيمة عند تحقيق الظفر"⁵²⁴. ويكفينا مؤشرا سياسيا للتدليل على ذلك ما استخلصناه من النصين التاليين بالوقوف على تغافل المخزن عن ملتزمات التشفع عندما كان يرفضها رفضا قاطعا اذا ما تبين له ان ملتسمي الشفاعة أكانوا أفرادا او جماعات قد ارتكبوا من "الجفاء والعقوق" ما تخطوا به الحدود المعقولة لقبول العفو والتجاوز عنهم :

النص الاول:

« وغدروا عاملهم وهو ولد محمد بن الصغير السريغيني وأكلوا محلته [...] وصار يستغيث بخروج السلطان اليه بعد ان دفعوا للسلطان مالا على يد سيدي العربي عندما عيد مع السلطان بمراكش ورغب (تشفع) في ورديغة فلم يقبل منه شفاعة في الباطن وأما في الظاهر فقبل رغبته [...] وحين قطع السلطان واد العبيد نام بفسطاطه نحو ساعة ونصف وفي هذا الوقت الذي نام فيه ذهبت المحال لقبائل ورديغة [...] وفي مقدار تلك الساعة والنصف انتكلت ورديغة ولم تبق لهم باقية ونهبوا مالهم وخيامهم [...] وجاء الخبر للسلطان وسيدي العربي معه، وكان يظن انه قبل شفاعته»⁵²⁵.

النص الثاني (مقتطف من مرجع)⁵²⁶ :

" ظهر قائد التمرد الطاهر بن سليمان ملتفا بغطاء سيدي علي بن ابراهيم رفقة الشرفاء ومقدمي الزاوية الذين جاؤوا به بأمر من السلطان وقالوا لبا احماذ:

- أسيدي دون إطالة كلام، إنه مذنب، لكنه كان مدفوعا من أهل السوء من قبيلته وقد استجار بحمانا وبجدنا الذي تحترمه أنت أيضا فلا يحق لك الان ان تنتقم منه إنه في حمانا. فأجاب الوزير:

- [...] بالتأكيد، فأنا مثلكم احترم سيدي علي بن براهيم، لكن ماذا تعتقدون انه كان سيفعل سيدي علي بن ابراهيم، لو واجه في حياته متمردا مثل الطاهر ؟ إنه كان سيقوده حتما بيده الى المخزن لينال عقابه، ولهذا اقول لكم لا تسامح مع هذا... فأزِيلوا عنه هذا الغطاء الشريف الذي لن يحميه من أي شيء. وهذا ما تم بالفعل حيث جلد هذا الشقي بعنف حتى كادت روحه تزهق".

⁵²⁴ الزباني ابو القاسم نفسه وكذلك الصفحة .

⁵²⁵ الرباطي الضعيف: (م.س) ص 395 .

⁵²⁶ ارنو لويس : زمن المحلات السلطانية ، ترجمة محمد ناجي بن عمر ، افريقية الشرق 2002 ص ص 92-93

وإذا ما اعتمدنا منهجية المقارنة بين النصين الأخيرين والنصوص التي قبلهما من حيث المقابلة بين دواعي قبول الشفاعة، وبين مبررات رفضها فإنه يحق لنا القول، إن إدراك البعد السياسي الذي يبني على تقدير المخزن لحجم السلوكات القبلية وثقل وطأة تمرداتها على النظام العام، وما تفضي إليه نتائج ذلك على طبيعة قرار الحسم في ملتزمات العفو والشفاعة، فإنه يجدر التنويه بالوقوف على الاستنتاجين التاليين:

* - تحصل الشفاعة إذا اقتصر فعل التمرد والعصيان على حدود دنيا من العنف كالفرار الجماعي تنصلاً من أداء الضرائب، أو التمتع من أداء الخدمات والكلف المخزنية أو من قبيل عدم الامتثال لممثلي المخزن ومواجهتهم أثناء حركاتهم الجبائية والتسخيرية، وهو ما يكتسي حسب ادبيات الخطاب المخزني صبغة " العقوق والتخلف عن الحقوق "، مع اشتراط الوفاء بالتزام القبائل بعدم العود أو المساس استقبالا بالأمن، وعدم مشاركتها في أي فعل شنيع كالذي ارتكبه آيت سخمان فيما يسمى بحادثة الغدر.

* - أن رفض الشفاعة والإعراض عن قبولها تفسره عادة حدة الجرم وخطورة التمرد الذي اقترفه الجناة، وصل إلى مستوى معين من تهديد الاستقرار وما خلف أثره من عواقب وتداعيات تمس بهيبة السلطة الزمنية.

والجدير بالإشارة، انه استرعت انتباهنا ونحن نتابع فصول المتمرد الطاهر الرحماني كما أوردها لويس أرنو على لسان كهل محارب عاصر المرحلة، حصول تقارب كبير في سرد المعلومات تكاد تصل حد الانتساح مع ما ورد في رسالة السلطان عبد العزيز حول الموضوع ادرجها المؤرخ عبد الرحمن بن زيدان في مؤلفه العز والصولة، شأن ذلك شأن ما تمت ملاحظته من تماثل في بعض المعلومات وردت على لسان مخبر أرنو سبق أن ضمنها دوفوكو في مؤلفه التعرف على المغرب. وقد أثرنا ان ندرج مقتطف مما جاء في الرسالة السلطانية «[...] واتضح أمره بالتجائه لزاوية سيدي علي بن ابراهيم بقبيلة تادلة، وورد أهل الزاوية معلمين به راغبين في التجاوز عن ذنبه، فأمرناهم بالاتيان به بعد أن بينا لهم معنى الحرم ومن يجار به ومن لا يجار، وما فعله هذا الفتان مما لو كان الشيخ حيا و علمه لنفذ فيه حكم الله وما جاره»⁵²⁷.

وهنا لا بد من توضيح معطى تاريخي يجدر الوقوف عليه. ذلك أن المخزن ورعيا منه لمصالح مرابطي وشرفاء الزوايا بالإقليم التادلي، وحرصا منه على استدامة تسخيرهم لفائدته،

⁵²⁷ ابن زيدان عبد الرحمن : العز و الصولة في معالم نظم الدولة ج. 1 ،المطبعة الملكية الرباط 1962. ص259

بمنحهم هامشا يتسع لتدبير قضايا وشؤون اجتماعية للقبائل الواقعة ضمن جغرافيتهم الروحية، فإنه لم يفت السلطان عبد العزيز أن يجبر خاطر شرفاء زاوية سيدي علي بن ابراهيم، الذين ربما شعروا بضيم وضرر معنوي من جراء ما لحق بهم من تجاهل المخزن في طلبهم الشفاعة للمتمرد الطاهر الرحماني شتاء عام 1896. فبادر في صيف نفس السنة، بالإنعام عليهم بكتاب بمثابة ظهير شريف ليتمسكوا به، وجهه الى كافة قواد الإقليم التادلي يدعوهم فيه الى إيلاء زاوية سيدي علي بن ابراهيم بما تستحقه من التوقير والاحترام. مع ما تخلل خطاب الكتاب من تكثيف قوي لمعاني التعظيم والتبجيل والاجلال في حق مرابطي الزاوية، ودعوته لرعاية كل متحرم ومستجير بزوايتهم. ونفهم من ذلك، ربما أنها التفاتة تقوم مقام جبر الضرر وردّ الإعتبار لمرابطي الزاوية، ورغبة المخزن في تعزيز مكانتهم بين القبائل، جاء فيه :

« قواد تادلة كافة، وبعد، فقد علمتم ما كانت عليه زاوية سيدي علي بن ابراهيم آل الكنز عند أسلافنا الكرام المنعمين في دار السلام من التوقير والإحترام. وإلحاقها بملاحق الاجلال والإعظام. وحمى من التجأ إليها أوبها استجار. وكونها من الزوايا العظيمة الكبار، وقد زدناهم تعظيما واحتراما وتبجيلا وإكراما. نأمركم بزيادة تعظيمها أكثر مما كنتم تعظمونها، وتبجيلها أكثر مما كنتم تبجلونها، وتراعاوا حرمتها أكثر مما كنتم تراعونها، وتكفوا أيدي العداة عن أهلها، فإنها زاوية من زوايانا العظيمة وكل من استجار بها في حرم الله الحصين. وإذا قرأتم كتابنا الشريف هذا ردوه لهم يتمسكون به والسلام.»⁵²⁸

⁵²⁸ خ . م . ر . كناش 241 ص 60 رسالة سلطانية تحمل تاريخ، جمادى الاولى عام 1314 . و هو نص غميس حملتنا الصدفة فقط على كشفه أثناء التحري الوثائقي بالخرانة الملكية بالرباط .

الفصل الثاني، الفصل وصيغته التحكيمية في تدبير الخلافات

- المبحث الاول، الفصل بين العرف و الخطاب المخزني .

- المبحث الثاني، الفصل تحت إشراف المخزن .

- المبحث الثالث، الفصل بين القبائل .

- المبحث الرابع، الفصل بين الجماعات :

الفصل الثاني

الفصل وصيغته التحكيمية في تدبير الخلافات

المبحث الاول، الفصل بين العرف و الخطاب المخزني :

المطلب الاول ، في التعريف بالفصل :

ينتمي الفصل⁵²⁹ باعتباره أحد آليات تدبير الخلافات إلى الحقل العرفي. يتم توظيفه لما يحققه من حلول توافقية وتسويات رضائية، تحمل الفرقاء على المصالحة وحسم مادة النزاع بينهم. وبصرف النظر عن طبيعة النزاع وأسباب الشقاق ولا بدرجة الانصاف ومستويات الحلول فإن خياره تبقى له وظيفة تصالحية تعمل على تخفيف حدة التوتر الاجتماعي وتقليص نزوعات العداة بين الفرقاء.

وقبل التطرق الى دراسة موضوع هذا الخيار التدبيري الذي يحث عليه المخزن لحل قضايا خلافية و صراعات تحدث بين الجماعات وحتى بين القبائل، فان الضرورة المنهجية تقتضي اولا تفكيك اللفظ لغة واصطلاحا :

جاء في لسان العرب لابن منظور في التعريف لكلمة الفصل ما يلي :

- الفصل هو الفطام، قال تعالى وحمله وفصاله ثلاثون شهرا (الآية)⁵³⁰.

- وفصل المولود عن الرضاع بفصله فصلا وفصالا وافتصله فطمه.

- الفصل، الحاجز بين الشئيين فصل بينهما. يفصل فصلا من فصل وفصل الشيء فانفصل أي

قطعه فانقطع⁵³¹.

وإذا كان معنى اللفظ في اللغة بكسر حرف الفاء يقترب كثيرا من حيث رسم لفظ الفصل بتسكين الفاء في اللسان الدارج اذا ما سلمنا أنهما يشتركان في معنى واحد، أي إحداث الفصل بين المكونين وفك الارتباط بينهما، فإن الثاني - اذا ما أفلحنا في ضبط معناه الفيلولوجي- فإنه يحمل

⁵²⁹ تحدث عبد الله العروي عن موضوع الفصل بشكل مقتضب في سياق التعريف بوظائف الزاوية في اطروحاته (الاصول الاجتماعية والثقافية ص 192) اما في كتابه استبانة ، طرح سؤالا حول امكانية المخزن فرض تطبيق الشرع على القبائل مؤكدا في نفس الوقت على دور الفصل والمصالحة في اطار الجماعة وما يعنيه ذلك في التدبير السياسي (استبانة ص ص 101-102)

⁵³⁰ سورة الاحقاف الآية : 14

⁵³¹ ابن منظور لسان العرب المجلد الحادي عشر ص 521

معاني ومضامين متباينة عن الأول، وهو ما سنحاول توضيحه بناء على مدلولاته الواردة في النصوص الوثائقية. إذ تأتي صيغته المعبر عنها كوسيلة تقارب واتصال أبعد ما يكون عن معنى القطع والانفصال كما ترسخ قيم الائتلاف أقوى مما يرمي به الاختلاف.

صحيح ان الفصل يقصد به فصل قضية متنازع بشأنها والحسم فيها برضى الطرفين لكن مقاصده لا تتحقق بواسطة الإكراه ولا تحت السطوة، ففعاليته على هذا المستوى تبقى مقرونة باتصال اجتماعي في زمن كان الارتباط العضوي بالقبيلة مستمرا.

فمصطلح الفصل وفق ما يفهم منه في تراثنا الثقافي هو وسيلة تعبر عن خيار إجرائي وتدبير توافقي وتصالحي يستهدف من خلاله الطرف الذي أخذ على عاتقه تحمل الوساطة في التسوية سواء أكان مرابطا او ممثلا عن المخزن أوهما معا، تحقيق المصالحة والتوافق بين طرفين متنازعين دون الالتجاء إلى الأحكام القضائية ولا إلى المقتضيات الفقهية والشرعية لكن مع الأخذ بعين الاعتبار عدم تجاهلها كليا أو تجاوزها⁵³². وتكمن فعالية هذا الاجراء في خاصيتين اثنتين:

الخاصية الاولى: تكريس مبدأ التوافق والمصالحة بين الاطراف المتنازعة بمقتضى آليات العرف المحلي، والتراضي على حكم الفصل الذي يشهد عليه ويشارك في رسم خطوطه مرابط الزاوية أو ممثل عن المخزن المحلي.

الخاصية الثانية : رغبة المخزن بعد أن يكون قد أخذ علما بالنازلة وهي في الغالب تكون من حجم قبلي، في احتواء الصراعات والنزاعات التي تنشب بين طرفين قد تدفع حالات الانتقام والثأر فيها الى تأجيج أسباب النزاع، ما ينجم عنه توسيع قاعدة الصراع ربما سيطال اطرافا من القبيلة الواحدة أو بين قبيلتين في واقع أممي يتسم أصلا بالهشاشة.

المطلب الثاني، مبدأ الفصل في النصوص الوثائقية :

لقد أمدتنا استقرارات لنصوص وثنائق مخزنية متعددة بخلاصات لوقائع ثنائية وجماعية واخرى من طبيعة قبلية كان فيها الفصل أحد الواجه التدبيرية التي سعى المخزن الى سلكها واتباعها لحل خلافات الاطراف المتنازعة. ما يدفع الى الاحتفاظ بقناعة راسخة تقوم على التحفظ على نتائج وخلاصات الدراسات الكولونيالية التي حاولت ولأسباب ايديولوجية وسياسية ان تخضع الواقع الاجتماعي للمغرب الى نظريات مستلهمة من دوافع استعمارية وليس العكس أي اخضاع نظريات علمية محايدة في تفسير الواقع الاجتماعي.

⁵³² العروي عبد الله (مر.س) الصفحة 192

والحقيقة ان القناعة لا ترقى الى الشك، في ان المخزن لم يكن يمانع قط في اعتماد نموذج الفصال كوسيلة تديرية بالرغم من كونها تنتمي الى حقل التوافقات العرفية. الا ان قيمته الاجتماعية تزداد ترسخا، بقدر تواضع الناس عليه كون العمل به يحقق السلم الاجتماعي ويخفف من أسباب التوتر.

فالفصال بما هو صيغة تحكيمية عرفية تستطيع نجاعته أن تحقق أهدافا يتغياها المخزن، ولا يتوانى في دعوة ممثليه المحليين بمعية مرابطي الزوايا الى توسله في التأليف بين الفرقاء، لينتصب ذلك شاهدا ودليلا قاطعا على تبني مؤسسة المخزن لمرجعيات عرفية بقصد ايجاد حلول توافقية ليست بديلا للشرع ولا تجاوزا له بقدر ما تعزز مقاصده وتكرس روحه⁵³³.

إن تناول المعطيات التاريخية التي أمدتنا بها الوثائق المخزنية، مكنتنا من الوقوف على أهمية الأخذ بإجرائية خيار الفصال كآلية يشجع عليها المخزن، وارتأينا من خلال ذلك إدراج نصوص من الوثائق نفسها مع التمييز من الناحية الاجرائية بين الاتجاهات المتبعة في توظيف آلية الفصال فالواحد منها ينطوي على بعد حضوري يتم في حضان المخزن وتحت إشرافه المباشر، وآخر يحسم في إطار مجتمعي محلي أو قبلي بإشراف مرابط الزاوية وبتحفيز من المخزن.

المبحث الثاني، الفصال تحت إشراف المخزن:

مطلب فريد، نموذج من وثيقة:

نص الرسالة:

« من قواد الشاوية كافة الى القايد السيد ادريس بن العلام⁵³⁴ [...] وبعد، فوصل كتابك الأعز معلما أن يوم تاريخه بالأمس حل مولانا بأبي الجعد بقصد الإقامة يوما واحدا قاصدا الصخرة⁵³⁵ بحول الله بعد الفصال مع آيت سخمان على أحسن حال والتزامهم لهم حسب ما شرحته. فيالها من بشارة طربت لها الانفس وحمدنا الله وشكرناه على خاطر مولانا ورضاه عما ارتضاه.»⁵³⁶

إن سياق الفصال المدرج في نص الرسالة، لا يمكن فهمه الا باستحضار واقعة تاريخية ارتبطت بحركة سلطانية تم تجريدها نهاية سنة 1307 هـ الى الاقليم التادلي استهدفت اخضاع

⁵³³ يقول الناصري أن جلّ الاحكام الشرعية مبني على العرف . و ما كان مبنيا على العرف لا بد ان يطرد باطراده و ينعكس بانعكاسه. (الاستقصاء ج الاول ص 60).

⁵³⁴ ادريس بن العلام كان يشغل منصب قايد المشور على عهد السلطان الحسن الاول ثم تم اقراره لنفس المهمة في عهد المولى عبد العزيز

⁵³⁵ المقصود بها صخرة الدجاجة وهو موقع وسطي يفصل بين قبائل تادلة والشاوية كان السلاطين منذ عهد المولى سليمان يتخذونه مقاما لمحللاتهم ومنه كانت توجه الصوكات العسكرية الى كافة مناطق الجوار .

⁵³⁶ م . و . م . ر . ح : رسالة مستقلة مسجلة تحت رقم 21652 تحمل تاريخ ذو الحجة عام 1308

المجال السخمانى الذي طال بعهدده غياب الحضور المخزنى. فعلى غرار الخطة العسكرية التي اعتمدها سلفه المولى اسماعيل، تمكن السلطان من إحكام الطوق على القبيلة العصية وسد جميع المنافذ على متمرديها. وبذلك استنطاع العسكر النظامى والجيش القبلى من تقليص هامش تحرك محاربيها وسد المنافذ عن فرارها. فلم يبق لآيت سخمان بعد انهاء قواهم بحصار اقتصادى طويل الأمد، الا الخضوع واللجوء الى طقوس التعرّكبة على المدافع، وتقديم الذبائح لطلب الامان وعفو السلطان. في خضم هذا الحدث برزت على السطح قيمة الفصل كحل توافقى على مشهد ومرآى من كافة زعامات القبائل المشاركين في الحدث: بنى مكيلد وزيان وشقيرن وآيت اسحاق وآيت اسري ثم آيت الربع، فيما بين آيت سخمان والمخزن فقد أذعن السخمانيون لأداء قدر من المال وعددا من الخيل مقابل الصّح عنهم.

ويتبادر الى الذهن سؤال عن ما جدوى الخيار الذي التجأ إليه المخزن من موقعه كمنتصر لسلك حل توافقى مع قبيلة شبه مهزومة اقتترف جناتها فعلا شنيعا لا يمت الى قيم النخوة المغربيةى بصلة، وهو ما يسمى في المصادر التاريخية بواقعة الغدر بالمولى سرور؟

إن خيار الفصل هنا لا ينبغي فهمه أنه إجراء يقوم مقام الندية لتسوية حالة من نزاع بين الطرفين، فقد اشترط السلطان على القبيلة أداء مبلغ مالى فرض عليهم دية لفائدة أسر القتلى مع دفع مائتين من الخيل، وكان هذا الشرط التوافقى هو موضوع الفصل. لكنه كان يدرك لا محالة أن إذعان زعامات آيت سخمان بهذه التسوية لم يكن كافيا لوضع حد لتمردهم. ذلك أن أسبابه ظلت مستمرة وليس هناك ما يمنع إصرارهم على موقفهم الرافض للاندماج فى منظومة المخزن. فانتصار المخزن فى نزاعه مع القبيلة لم يكن حاسما بما فيه الكفاية ليتمكن بموجبه من تحييد نزوعات التمرد عن المخزن واستقلالية القبيلة، ولا القضاء على قياداتها المهدوية المحرّضة للجماعات القبلىة. والحال أن رغبة السلطان فى التعامل مع بنية قبلىة قائمة على نزوعات شبه استقلالية فى مجال جغرافى عسير الاختراق كان أمرا ضروريا فى ظل ضغوط أزمت معقدة ما فتأت دول اوربية تعمق شرخها وتنهك ما تبقى من قوة الدولة. فلم يعد من خيار أمام المخزن للتجاوز عن القبيلة والابقاء على علاقات الارتباط بينه وبين آيت سخمان غير الفصل كحل تدبيرى توافقى يجعل من الصلح وشيجة ومصلا يغذى مشيمة الاتصال.

المبحث الثالث، الفصل بين القبائل :

مطلب فريد ، نماذج من وثائق:

النص الأول:

« خدامنا الأرضين قبيلة ورديفة كافة وبعد، فقد بلغ لشريف علمنا ما وقع بينكم وبين الاعشاش من المضاربة وسفك الدماء [...] وإن كان بينكم وبينهم حقوق فما نحن وجهنا حامله المرابط الخير سيدي محمد بن سيدي بن داود الشرقاوي لا يقاع الفصل بينكم [...] لتكونوا عند إشارات من الوقوف على التناصف وعقد الصلح بينكم على الوجه المراد.»⁵³⁷

النص الثاني:

« خديمنا الأرضين القايد الجليلي بن المونذ والقاييد احمد بن الطيب* وبعد، فإن خلائفكم كتبوا لكم بأن تادلة ضربوا على أولاد بو علي من السراغنة، وسلبوا منهم السلاح، ثم ضربوا على أهل الغابة أيضا ونهبوا أموالا كثيرة وأنهم عزموا على مقابلتهم وسار بالبال، فقد أمرنا بتوجيه المرابط السيد الحاج محمد بن داود الشرقاوي مع قايد الرحا إليهم مصحوبين بمكاتبتنا الشريفة لقبيلة تادلة وقبيلتكم [...] وأمرنا الموجهين المذكورين بالوقوف في ذلك وإطفاء نار الفتنة بينهم بجعل الفصل بينهم في المنهوب على مقتضى الأعراف الجارية عندهم في ذلك»⁵³⁸.

لا يتسع المجال هنا للحديث عن ما آلت إليه الأوضاع القبلية بالإقليم التادلي غداة وفاة السلطان الحسن الاول، ولا عن هشاشة الضبط الأمني وتداعيات تقلص سيطرة المخزن على مجالاته التقليدية، إلا أن ما ينبغي التنويه به من خلال فحوى النصين هو التأكيد على معطيين أساسيين:

* المعطى الاول: أن القبائل التادلية باتت من القبائل الناعلة ولم تتمكن لا المحلات السلطانية ولا تكثيف حضور الجهاز المحلي من اقتلاع أسباب الصراعات القبلية خاصة وان انتقالها بين قبائل الجوار من الشاوية شمالا والسراغنة جنوبا ازدادت حدتها في هذه الظرفية الحرجة من تاريخ المغرب . فتقييم الوضع على هذا المستوى دفع بالسلطان عبد العزيز الى تنظيم حركة سنة 1315 هـ الى القبائل التادلية ومنها الى الاعشاش على التخوم الشمالية للإقليم التادلي⁵³⁹.

⁵³⁷ م . و . م . ر . ح : رسالة مستقلة مسجلة تحت رقم 21520 تحمل تاريخ 25 ذو الحجة عام 1320 الموافق 8 مارس 1903
⁵³⁸ م . و . م . ر . ح : رسالة مستقلة مسجلة تحت رقم 21658 تحمل تاريخ 24 ربيع الاول عام 1321 الموافق 04 يونيو 1903
⁵³⁹ م . و . م . ر . ح : رسالة مستقلة مسجلة تحت رقم 28682 بعث بها السلطان المولى عبد العزيز الى القايد عبد الله بن سعيد السلوي تحمل تاريخ 15 جمادى الاولى عام 1315 .

حيث عايش أحداثها الطبيب وايسجربر⁵⁴⁰. الا انه بالرغم من ذلك ظلت القبائل على حالها من التمرد.

* المعطى الثاني: أن مرابط الزاوية الشرقاوية بما كان يحظى به من مكانة روحية واجتماعية ونفوذ معنوي تخطى به حدود المجال التادلي الى مستوى جهوي شمل أيضا الشاوية ودكالة وحتى السراغنة⁵⁴¹. بل يمكن القول أن ثقل الزاوية الشرقاوية التاريخي وإشعاعها ضمن جغرافية المقدس المميز بأوشام التنوع الاثني والقبلي، جعل مرابطيها يدركون ومن خلال تجربة علاقتهم التاريخية مع المخزن، ان مصيرهم كمرابطين لا يمكن ان يتحدد الا في اطار منظومة المخزن والارتباط به، وأن وظيفتها في المجل لا تنفصل عن غايات ومنهج تدبيري يرسم معالمه المخزن المركزي لضمان الاستقرار الاجتماعي والسلم القبلي وهو بدون شك يتوافق مع تصور الزاوية ويحفظ لها مكتسباتها التاريخية لدى الطرفين المخزن والقبائل.

هذه الميزة بالضبط، هي ما جعلت المرابط في موقع أهله اجتماعيا للمناداة عليه لتقديم خدماته لمساعدة المخزن بشكل مباشر في تدبير الشؤون الاجتماعية، وتسخير مكانته كطرف محايد تتوقف نتائج التحكم والفصال على حضوره وإشرافه من طرف الجميع. وإذا ما احتيجت صلاحية هذه الخلاصات والاستنتاجات النظرية لدليل إجرائي يدعمها، فليس أنسب من اعتماد فحوى هذا النص يدعوا من خلاله السلطان المرابط الشرقاوي الى مباشرة وظيفته لإيقاع الفصال بين القبائل التادلية وجوارها من السراغنة والقيام بما يلزم من تخفيض مستويات العنف وتهدة النفوس.

ولا تتحدد مرجعية الفصال والتوافق عليه بين القبائل المتنازعة الى ما يأخذ به المرابط من حل او فيما يراه عين الصواب، فدوره لا يقوم هنا الا كواسطة لها مرجعية دينية وصلاحية وأحيانا ترقى وظيفته الى اقتراح حلول وتسويات الى جانب الجهاز المخزني المحلي بصفته شاهدا ومثبنا لعملية الصلح والتوافق، مع " إيقاع الاشهاد بذلك على أعيانهم"⁵⁴²..بينما تقدير حجم الاضرار وتقييم التعويضات سواء لهذا الطرف او ذلك فإن مرجعية تحديدها يؤول النظر فيها عمليا الى الأعراف السائدة والمتعامل بها لدى الطرفين.

⁵⁴⁰ وايسر جريبر فريديك : (مرس) ص 53 وما يليها.

⁵⁴¹ بوكاري أحمد (مرس) ج 2 ، ص ص 56،57،58

⁵⁴² نفس الرسالة السلطانية.

المبحث الرابع، الفصل بين الجماعات:

يجدر التنويه بداية أن المنطقة المعنية بموضوع الرسالة السلطانية المختصرة التي سندرجها كنموذج، تقع بعيدا عن الاقليم التادلي. إذ تشير انتماءات قوادها وأسماء قبائلها وفخذاتها أنها تقع بمطقة بالريف⁵⁴³. ورغم ما تفرضه ضرورة الالتزام بمنهجية التقيد الصارم بالحدود الجغرافية المرتبط بالإشكالية، إلا أن الفصل كخيار توافقي يبقى ضمن اهتمامات التدبير المخزني تنسحب إجرائيته حتى على المناطق الطرفية عن المركز تكريسا لمبدأ المصالحة في إطار العرف بين الفرقاء الاجتماعيين وذلك بإثارة ملاحظتين أساسيتين:

- أن الفصل من حيث المبدأ هو جزء من نظام تحكيمي يقوم على العرف، تتجاوز غاياته حدود التنوع الثقافي واللغوي الذي يميز ذهنية المجتمع القبلي. بل يحمل الاعتقاد أن التوسل به كان مألوفا و تتبناه كل القبائل بمن فيها الريفية النائية.

فنزوعات العنف على سبيل المثال التي أجهد موليراس نفسه لإظهار غلوائها في صفوف سكان المناطق الريفية وخاصة جبالة⁵⁴⁴. وكذا قانون الثأر الذي عده الباحث الامريكي دافيد هارث⁵⁴⁵ بمثابة مؤسسة توطر قيم الانتقام لدى المجتمع المحلي لورياغل، مبديا استنتاجه من أن حالة الفوضى والعنف المستشريين هناك إنما تمثل في نظره تبريرا للخروج عن طاعة المخزن، فإن كل تلك الملاحظات والاستنتاجات لا يمكن اعتبارها شاهدا يقوم على تفسير صائب يمكن الاطمئنان إليه بشأن تدبير المجتمع المحلي لأشكال العنف بوسائل أشد وقعا، دون أن تتوفر لديه أية مرجعية أخرى يمكن أن يتجاوز بها ظاهرة الثأر والانتقام.

- أن النصوص الوثائقية الرسمية ذات الصلة بالموضوع تمثل مصدرا لا غنى عنها لإثبات نجاعة ايقاع الفصل في بعده التوافقي لتسوية الخلافات والنزاعات، ويعكس في نفس الوقت مساهمة الحضور المخزني في إقراره والإشراف عليه لتحقيق التسويات بعيدا عن مظاهر العنف والثأر.

⁵⁴³ لم يكن بعد المسافة الفاصلة بين منطقة الريف وجبال الاطلس المتوسط حائلا ولا عائقا في حركة الاتصال بين المجاهدين بكتا المنطقتين فترة مقاومة الاحتلال الفرنسي قبل التهدة .

⁵⁴⁴ موليراس او كيبست : المغرب المجهول ، ترجمة عز الدين الخطابي ، مطبعة دار النجاح الجديدة 2007 ص ص 90 الى 139
⁵⁴⁵ إن الرد المنهجي ومستوى النقد اللذان ابداهما المؤرخ المغربي جرمان عياش ازاء طروحات كل من موليراس ودافيد هارث بشأن دحض آرائهما التعميمية في مؤلفه اصول حرب الريف بالصفحة 97 وما تلاها كان كافيا لا قناعا ان دراسة ميدانية لمجموعات بشرية وقلبية في علاقتها مع المخزن ، إذا ما افتقدت لما يدعمها ويعزز بناءها من مصادر ووثائق مخزنية لها مضمون تدبيري ، فإن فاعلية خلاصاتها تبقى هشّة وتماسكها المعرفي قابل للانحلال في غياب استحضار الموضوعية ازاء الفعل المخزني في تدبير الشؤون العامة للقبائل خاصة منها ما يتعلق بتجنبيه لظاهرة الثأر لحل الازمات بين الجماعات.

مطلب فريد ، رسالة مخزنية نموذجاً :

« القائد عبد الرحمان أو حازم الجزنائي وبعد، وصل كتابك بأن الخديم الزراري وجه لك أربعة من الخيل للنزول على اولاد يطو المتهمين، وانا أمرنا الشريف له بذلك فأنزلتهم عليهم ، فادلوا ببينة تشهد أن القتل ربي في بلاد السياح خارجا عن بلادهم، فكلفتهم إعطاء اليمين لبني توزين بأن لا يد لهم في هلاكه، فامتنع أولاد يطو من ذلك ومن مقابلتهم. وصار بالبال. المتهمون لا يسرحون، ومن لم يقبض منهم جد في القبض عليه، ثم فاصل القضية بالعرف بينهم او بالصلح، أورد أمرهما للشرع »⁵⁴⁶ .

يتحدث نص الرسالة هنا عن توجيه المخزن المركزي تعليماته لقائدين بمنطقة الريف، معززان بقوة مخزانية للنظر في واقعة اتهام قبيلة بني توزين لأولاد يطو من قبيلة كزناية بالريف عن حادثة قتل أحد افرادها، والوقوف على تحديد الجهة الفاعلة وايقاع الفصال بعد ذلك. وقد أدلى الطرف المتهم بالقتل ببينة لإبعاد شبهة الجريمة عنه بادعائهم ان الضحية قد شوهد خارج حدود منطقتهم أي في بلاد السياح وهي ربما ناحية يكثر فيها الغرباء خاصة من الإسبان. هذه البينة لم تكن كافية لإقناع رجال المخزن المكلفين بالتحقيق في النازلة رغم أن القاعدة الفقهية تؤكد أن البينة على من ادعى واليمين على من أنكر. وكان يتعين امام إشكالية عسر حلها في غياب دليل مادي وحجة شرعية الى اقناع المتهمين بأداء اليمين للمطالبين بدم الضحية، يدفعون عن أنفسهم بمقتضاه جنائية القتل وترفع عنهم شبهة الاتهام. غير ان اولاد يطو المتهمين امتنعوا عن أداء اليمين، بل أحجموا حتى عن مقابلة المدعين. أمام هذا الموقف لم يكن بدا من تحريك المخزن لآلية القوة بإعطاء امره لاعتقال كافة المتهمين على سبيل الاحتياط في انتظار الترتيب لحسم مادة النزاع، وذلك بإحدى الصيغتين التاليتين: إما بالتوافق على الفصال حسب الأعراف المتبعة وهو ما سيؤدي حتما الى تسوية المشكلة تقضي الى الصلح وتجنب الجماعتين العدا ويدرأ عنهم نزوعات الثأر، وإما بإحالة القضية على القضاء للنظر في النازلة من زاوية الفقه الشرعي.

هذا مجمل تحليل مضمون واقعة اتهام بالقتل والمطالبة بدم القتل كما هو مبين في الرسالة المخزنية. وتبقى بعض الملاحظات يتعين إثارتها حتى تكتمل لدينا صورة المشهد من خلال لملمة وكشف عن بعض المضمرات المتخفية بين السطور:

⁵⁴⁶ خ . م . ر : كناش 364 ص 171 ، ملخص رسالة سلطانية تحمل تاريخ 21 ذو القعدة 1302.

- يلاحظ من خلال استقراء نص الوثيقة ثقلا للحضور المخزني في منطقة تحادي مجالات لها حساسية خاصة، وتعرف توترا حذرا خاصة في جانب حدودها الشرقية حيث تعج منطقة وهران بفرق عسكرية استعمارية وفي شمالها تنشط حركة التهريب والإتجار في الاسلحة والبضائع بين بني توزين ومغامرين إسبان⁵⁴⁷. وقد عزز من مكانة الحضور المخزني آنذاك تجريد محلة سلطانية الى المنطقة سنة 1876 واعتقال قائدين كبيرين استبدا بالحكم هناك وأصبح سلوكهما مثار شبهة المخزن المركزي⁵⁴⁸.

- حرص المخزن من خلال تدبيره للشأن المحلي في موضوع المنازعات والصراعات التي تنشب عادة بين الاطراف بلجؤه الى اقرار الصلح والتراضي وايقاع حلول توافقية بحضور ممثليه كطرف محايد بين الجميع لكنهم في نفس الوقت يمثلون مرجعية الدولة في الاشهاد والاقرار على نتيجة الفصل وتنفيذ مقتضياته. والحلول والتسويات تأخذ في الغالب منحى محليا⁵⁴⁹ تنهل مرجعيته من صميم الاحكام العرفية التي يدعوا لها المخزن بالقدر الذي يجعل من مهمة الفصل مخرجا يفضي الى تسويات وتوافقات حسما لمادة النزاع في اطار الممكن، لكنه لا يمكن بأي حال من الاحوال ان يكون بديلا عن الشرع أو يحل محله.

والشاهد أن المخزن أمر برد القضية إذا ما تعذر حلها بالفصل وقوانين العرف المحلية الى الشرع الذي يبقى هو الإطار الرسمي للقضاء بالمغرب.

-أن مجموعة فرقة أولاد يطو المتهمين - وإن كان أمر شبهة اقتراهم للجناية من عدمه لا يعيننا في شيء - فإن رفضهم القاطع لأداء اليمين لتبرأة أنفسهم هي إشارة لها أكثر من دلالة وتشير أكثر من تساؤل.

فمن أجل فهم وتفسير رفض المتهمين أداء اليمين، يجدر الاستعانة في هذه الحالة بمقاربة أنثروبولوجية من أجل اختبار الصيغة الراضية لهذا الإجراء لكي يتسنى لنا فهم موقف أولاد يطو:

⁵⁴⁷ مولييراس او كيست : (مرس) ص ص 121-122

⁵⁴⁸ المشرفي محمد: (م.س) ج 2 . ص ص 126-127 .

⁵⁴⁹ استنتج جرمان عياش ، ان عقوبة الإعدام هي وحدها التي كان لا يجري العمل بها .مضيفا ان الريف عرف كاي مجتمع آخر صراعات داخلية ، لكنه عرف كاي مجتمع آخر كذلك كيف يجد سبيله الى مواجهتها كما انه كان يفرض عقوبته على الجرائم و الجنح و يرعى السلم الاجتماعي.(اصول حرب الريف ص 102) . اما على المستوى المحلي فقد تحصل بين ايدينا نسخة مصورة من عقد تكفل تم ابرامه في القرن التاسع عشر بين جماعات مستقرة بمنطقة سابق قرب مدينة بني ملال ، يتضمن بنودا تحدد الاحكام المتفق عليها بشأن الجنح و المخالفات التي يرتكبها الافراد ، و هي لا تخرج في اطارها العام عما هو معمول به بعدد من القبائل الديرية و الجبلية بالاقليم .

- إن مشهد شخص يكون في محط اتهام وهو يقوم بأداء اليمين، وغالبا ما يكون بمسجد أو بضريح ولي موليا وجهه باتجاه القبلة، بحضور الملا من الناس والشهود بمن فيهم "اجماعة" والمطالبين بحق دم القتل بالإضافة الى ممثلي المخزن، لحدث في غاية الإحراج والإثارة، لما قد يلحق بحالف اليمين في المعتقد الشعبي من العار والهوان بصرف النظر عن بواطن نواياه، أكان صادقا أم أداه يمينا غموصا، ويظل هذا الحدث معرة له بين الناس تلاحقه أمدا طويلا، كما عليه ان يبقى متوجسا من تتبع أعين الآخرين له وتوقعهم لمصيره المحتوم. وتظل مشاعره متلبسة من تشفي غرمائه وسائر محيطه الاجتماعي لما ستلحقه من رزية ولعنة من الله أو من مرابط الزاوية. هذا التصور في المخيال الشعبي واستحكام ضغط تمثلاته في العلاقة بين الأفراد والجماعات وارتباط مفهوم أداء اليمين بالعرض والكرامة وحفظ المروءة هو بالضبط ما جعل أولاد يطويأنفون الخضوع لأداء اليمين ولا يرضون بديلا عن دفع التهمة عنهم بما قدموه من بينة مهما كان الثمن.

وحري بنا هنا أن نطرح سؤالا آخر في موضوع "البلاد" ماذا نفهم من قولهم خارج بلادهم؟

- نفهم من لفظة "البلاد" كما جاءت في صيغة النص أنها الارض التي تستوطن فيها جماعة أو قبيلة تستمد منها هويتها وينتسب أهلها إليها وعلى ترابها تتشكل حياتهم⁵⁵⁰. وحرمة الارض هي جزء من كيانهم، ومن ثمة فإن أي اعتداء يلحق بمسافر أو قافلة أو بغريب يتخذ من أرضهم طريقا للعبور فإن مسؤولية ما يلحقه من ضرر تبقى على كاهل القبيلة صاحبة الأرض، كون مجتمعها المحلي هو من يشغلها ويتحرك فيها. بينما في النص نجد ان الحادثة وقعت في "بلاد السياح" ويحيل معناها الى أرض محايدة أو مشتركة بين القبائل، ما نفهم من الدلالة العامة لسياق الحدث من الموقف التبريري لأولاد يطوأن المتابعة الجماعية تسقط عن الفخذ أو القبيلة ولا يأخذ بجريرة المتابعة فيها إلا بالمسؤولية الشخصية للمذنب.

وباختصار تتضح جدوى خيار الفصل في تحقيقه لغايات أمنية وحفظ التوازنات الاجتماعية من المنظور المخزني، ومن إنصاف وتسكين للخواطر لدى الجماعات والأفراد وهو وإن كان

⁵⁵⁰ في البوادي تحدث احيانا نزاعات بين الافراد و الجماعات حول الترامي على ارض ما متنازع بشأنها او بكسر حدودها إبان موسم الحرث. وحين يتعذر الفصل او التراضي بينهم يلجأ احيانا الى دعوة الطرف المعتدي او المدعي ان يحمل مقدارا من التراب ويضعه في "قُب" جلبابه او برنوصه ويؤمر بالتطواف به بحضور كافة "اجماعة" قدر حدود المساحة من الارض التي يدعي حيازتها او ملكيتها لكن هذا الخيار يبقى أيضا في حكم النادر ان لم يكن مستبعدا لأن ما ينسحب على صيغة التهيب من أداء اليمين هو نفسه ما ينسحب على حامل التراب فيما سيلحقه من العار والشنار. و يضحى ملقبا "بالحالف".

خيارا عرفيا توافقيا فإنه لم يُطرح بأي حال من الأحوال كبديل عن الشرع الاسلامي والقضاء
الفقهي بقدر ما تكمن فاعليته في أيقاع التسويات جبرا للضرر وتجاوزا للأحقاد.

الفصل الثالث، ظاهرة اللف بتادلا وموقف المخزن .

- المبحث الاول، اللف بتادلا محاولة في التّمذجة .
- المبحث الثاني، الدراسات الاجنبية وظاهرة اللف بتادلا .
- المبحث الثالث، صراعات قبلية بملح لفوفي ودور الجهاز المحلي .
- المبحث الرابع، ظاهرة اللف بالجبل التادلي من منظور وصفي أجنبي .
- المبحث الخامس، ظاهرة اللف بالمنطقة السهلية .

الفصل الثالث، ظاهرة اللف بتادلا وموقف المخزن

المبحث الاول، اللف بتادلا محاولة في النمذجة:

المطلب الاول، في التعريف باللف:

يعرف ابن منظور اللف بالحزب والطائفة ويقال كان بنوفلان لفا، وبنوفلان لقوم اخرين لفا إذا تحزبوا حزبين.

والقوف، الجماعات.

واللفيف، القوم يجتمعون من قبائل شتى ليس أصلهم واحد⁵⁵¹.

ويفهم من هذا التعريف ان اللف نظام اجتماعي قديم عرفته المجتمعات القبلية كصيغة تحزبية وتضامنية تميز فيما بينها.

واللف كمعطى يحمل مدلولاً التضامن والتحالف، هو نظام عرفي يؤسس لعلاقات تآزرية فيما بين الجماعات والافخاذ ضمن القبيلة الواحدة أو فيما بين القبائل نفسها. إلا أن فعالية اللف تاريخياً لم تكن تظهر في غالب الأحوال وتبرز الى السطح الا كتحالقات حربية تفصح عن تجلياتها طبيعة العلاقات القائمة بين الوحدات المتنافسة والمتقابلة. فلا يمكن ان يظهر لفا واحداً ومنفرداً وسط جموع افخاذ وقبائل لا تعتمد. ما يفسر ان نظام اللف كإجراء تضامني يعتمد في مجال قبلي يتسع او يتقلص بصفته عرف سائد ومكون أساسي لما يلعبه من دور في إقامة التوازن الاجتماعي والقبلي، ويحفظ للمتعهدين به نوعاً من التكافؤ يحول دون هيمنة قبيل على آخر، بما يمثله من سند ودعم يتمكن بموجبه الوقوف بندية في حالة الاعتداء او التحاكم والتفاصل بين الأغيار.

بيد انه لا ينبغي ان نفهم من هذا ان اللف تأسس لغايات حربية او لنزعة تعبوية يتوخى منها شن الغارات وقطع السبل والتعدي على الغير، بل يمكن رد مضمونه الى التحرز القبلي وتمتين الروابط بين الجماعات تروم من خلاله تحقيق منافع لها او كما عبر عنه علي المحمدي من كون المصلحة المادية تمثل عاملاً أساسياً من العوامل المفسرة لانتظام وحدات اللف⁵⁵².

⁵⁵¹ ابن منظور جمال الدين : لسان العرب دار المعارف بيروت الصفحة 4054

⁵⁵² المحمدي علي : السلطة والمجتمع في المغرب نموذج ايت بمران . دار توبقال للنشر . 1989 الطبعة الاولى ص 50

المطلب الثاني، ظاهرة اللف في دراسة روبير مونتاني :

لقد تطرقت مجموعة من الابحاث والدراسات الاجنبية زمن الحماية لظاهرة اللف أهمها ما أنجزه روبير مونتاني عند دراسته لقبائل الاطلس الكبير الغربي وأقسام من الاطلس الصغير. خلص من خلالها الى استنتاجات مهمة حول ظاهرة اللف باعتباره نظام تحالفي يجمع بين المكونات البشرية المستوطنة ضمن إطار القبيلة، سواء اعتمد تقسيمها على نظام الأخماس أو الأرباع، أو على مستوى الافخاذ ضمن تاقيلت أو حتى على مستوى الموضوع. مؤكدا أن نظام اللف يمثل الأساس لضمان التوازن بين تلك الوحدات المتقابلة وأن بفضلها تعززت مكانة هذه الوحدات كونه يحول دون وقوع مخاطر الحرب⁵⁵³.

وقد توصل مونتاني إلى رسم خريطة تبيانية لتلك الوحدات أوضح من خلالها التقابلات الثنائية فيما بين الفخذات والوحدات المشمولة بأعراف اللف. وقد ظهرت على شكل رقع متناثرة ومتقاطعة مع بعضها البعض باللونين الابيض والاسود، معتمدا في ذلك حسب ما أكده على شهادات المخبرين من كبار السن التي تصل ذاكرتهم الى زمن السلطان المولى عبد الرحمان⁵⁵⁴، ودون حاجته الى ما يدعم اطروحته من وثائق رسمية ومستندات مصدرية كون دراسته ارتبطت بالحقل السوسيوولوجي. بل ذهب الى أبعد من ذلك في دراسته ليتخذ من نظام اللفوف بالجنوب المغربي مطية من بين عدة مطايا لتبرير أهدافه بطرحه جملة من الاسقاطات فسر من خلالها حسب منظوره عمق المأزق الاجتماعي والشروخ والتصدعات التي طالت الجماعات بالجنوب المغربي قبل الحماية، وهشاشة السلطة المخزنية وغياب سياسة مركزية تدفع في اتجاه احتواء الانشطارات المزمنة التي مثل اللف واحدا من تجلياتها.

وقد أورد مثالا على ذلك، أنه إذا ما تعرضت مجموعة ما منتظمة ضمن إطار اللف لتهديد من طرف مجموعة أخرى مقابلة جراء خلاف معين أو وقوع حالة إعتداء أدت الى قتل شخص ما، وإذا ما عجز المقدمون ورؤساء المجالس الصغرى عن معالجة القضية وفق الاعراف السائدة، فان المجموعات المعنية تتنادى الى لفوفها الحليفة باعتماد ما يسمى ب" تمارت" ولجؤهم الى إطلاق البارود إيذانا بالاستعداد للقتال. على إثر ذلك مباشرة تهب مجموعات مسلحة متحالفة لتنتشر على ترابها. مضيفا أنه في غالب الأحيان يهرع زعماء من خارج نطاق النزاع لمحاصرة الخلاف

⁵⁵³ Montagne Robert : les berbères et le makhzen dans le sud du Maroc . Edition Afrique orient p 185

⁵⁵⁴ Montagne Robert : op-cit pp 201,203,308

ورأب الصدع. لكن في حالة فشلهم فان الحرب تندلع بين الفريقين فيدوي البارود بين الاحراش والصخور لتنتهي الواقعة دون حسم وتبقى اصداؤها جعجة بلا طحين⁵⁵⁵.

ومهما يكن من أمر فإن الإستنتاج الذي يمكن أن نستخلصه من دراسة مونطاني حول النظام العرفي للـف، واثارته على سبيل المقارنة فيما توصلنا اليه من مخرجات وما يقابلها من عادات اللف التي نجدها لدى قبائل الدير والجبل التادليين تأسست على الملاحظات التالية:

- أنه بالرغم من الحذق والمهارة العلمية التي ميزت دراسة وغنى تفسيرات مونطاني السوسيوولوجية واطاراتها النظرية⁵⁵⁶. الا انها تظل في نفس الوقت ينظر اليها بعين الريبة والشك بما تلفعت به من مضامين وتبريرات ذات نزوعات اديولوجية ترتب لمنطق الاستعمار، وتجعل من المجتمع المحلي المنتظمة فيه عادات اللف مجتمع مفكك ومنقسم ويفتقد الى اي وازع وحدوي أو الى سلطة قوية تضمن وحدته واستمراره.

- أن النمطية الممنهجة في تكريس فكرة الانشطارات والانقسامات داخل المجتمع وإلباسه بلبوس الفوضى والتشردم التي نظرت لها الدراسات الاستعمارية من جملتها ما أنجزه مونطاني بإثارته لظاهرة اللف كإحدى مظاهر انقسامات المجتمع، لا تسعفنا في البناء عليها لتحقيق منهجية مقارنة بين حالة قبائل الجنوب وبين قبائل تادلة. ومن ثمة فإن التحليلات والتفسيرات كما تم التنظير لها من هذه الزاوية تبقى في كثير من مضانها حسب اعتقادنا غير ذات فعالية في اعتمادها كنموذج تفلح صلاحيتها في مساعدتنا على فهم وتفسير نظام اللف كما عرفته قبائل الدير والجبل بتادلة.

- أن الخصائص الجغرافية والسياقات التاريخية وتفاوت مستويات الحضور المخزني فيما بين المنطقتين كان لهما تأثير في تطور أدوار اللف وانعكاساته على المنطقتين خلال المنتصف الثاني من القرن التاسع عشر.

لقد كان من نتائج غياب المخزن عن مناطق الجنوب النائية عن الحاضرة السلطانية مراكش، وشغور قبائلها من سلطة المخزن قرابة ستين سنة ادى الى ظهور امغارات وزعامات استطاعت ان تحتجن لنفسها من الجاه ومن أموال السكان ومن عوائد غنائم حروبهم البينية⁵⁵⁷، ما مكنها من الاستفادة من تحالفات اللفوف باستغلال صراعاتها الثنائية وإذكاء الخلافات بينها لتعزيز سلطتهم. سيما وأن أشكال الروابط اللفية التقليدية بقبائل الاطلس الكبير الغربي اعترها

⁵⁵⁵ مقتبس من مؤلف نفس الباحث بتصرف ص 187
550 العروي عبد الله (مر.س) ص ص 232،233

⁵⁵⁷ Montagne Robert : cit-in pp 300,301,302

تفاوت على مستوى المجال اذ صارت قارة في قبائل حاحا بينما كان العكس لدى قبائل نفيس وكلاوة⁵⁵⁸.

- أن العوامل التاريخية التي تحكمت في إبراز دور اللوف كمعطى يدخل ضمن إطار دينامية القبائل وصراعاتها البيئية كما رصدها الباحث ليست كما هو عليه الحال بالنسبة لقبائل المجال التادلي. فاذا كانت فعلا بعض قبائله قد عرفت نظام اللوف، إلا ان آلياتها لم ترق الى المستوى الذي يفرضي إلى ظهور زعامات قوية بإمكانها منافسة المخزن، بقدر ما كان يتم احتواء تناقضاتها من طرف قواد أقوياء ينحدرون من أسر مخزنية عريقة تمت توليتهم وتقويتهم من طرف المخزن المركزي نفسه⁵⁵⁹. وبالتالي فإن وقوع القبائل التادلية على الطريق الرئيسية كان المخزن يوتر المرور بها وما تعرفه من حركة دؤوبة لا تنقطع للمحلات السلطانية ذهابا وإيابا بين العاصمتين مراكش وفاس ما يؤكد على كونها تدخل ضمن قبائل الطاعة⁵⁶⁰.

فالروابط اللفية وأشكال تحالفاتها الحربية كانت محدودة لا تطفو على السطح إلا بين الحين والآخر، ثم لا تلبث أن تخبو حسب الظروف ومستويات الحضور المخزني. إذ لم يكن يثير من جذوة الصراعات بين الافخاذ والفرق القبلية حسب ما تفيدنا به الوثائق غير تنافسية القواد وسلوكاتهم المطبوعة بالعنف طيلة فترة حكم السلطان عبد الرحمان بن هشام، لما كانوا يسعون إليه من إسداء خدمات مخزنية.

المطلب الثالث، مظهرات الف بالمناطق الديرية والجبلية التادلية :

في محاولة لفهم ظاهرة اللوف كبنية فوقية تؤسس لعلاقات تحالفية بين الفخذات والفرق والقبائل بالإقليم التادلي، وسعيا في تتبع مواقف المخزن منها ووسائله في تدبير صراعاتها، وارتباطا بالإشكالية العامة للبحث، تم الاعتماد على مصدرين أساسيين سنسعى من خلالهما الى اختبار فاعلية اللوف والخروج بتصوير وخلصات محددة، على ان لا نتجاوز في ذلك جغرافية المجال تجنبا للتعميم.

الأول منهما، يتعلق بنصوص مصدرية تظهر من خلالها اللوف كبنية محاربة. نصوص وإن كانت تعبر عن التوجه الرسمي للمخزن إلا أنها تؤكد في ذات الوقت على فاعلية اللوف

⁵⁵⁸ Montagne Robert : cit-in p 380

⁵⁵⁹ المقصود بهؤلاء نموذج قائدين تمكنا من مد سلطتهما بدعم من المخزن على كامل الاقليم التادلي زمن السلطان المولى عبد الرحمان بن هشام ويتعلق الامر هنا بالقائد احمد بن القايد ومحمد بن الطالب .

⁵⁶⁰ يقصد بقبائل الطاعة هنا القبائل الواقعة بالجنوب الشرقي للاقليم التادلي على ضفاف نهر واد العبيد منها : هنتيفة وايت مصاد وايت بوزيد وايت عطا وايت اعتاب . اما القبائل التي عرف انها تنظم ضمن تحالفات لفية وغير خاضعة لسلطة المخزن وظلت في حالة شغور فتقع على جانب الشمال الشرقي من الاقليم منها فرقات: آيت عدي كوسر و ايت عدي الشمال و ايت سخمان و ايت داوود او علي .بينما تم الحاق ايت سعيد او علي باتحادية ايت سري في وقت لاحق .

كمحرك لنشاطات حربية تحالفية ومظهرا من مظاهر السببية تهدد إرهاباتها الاستقرار والسلم القبلي. فلا مشاحة ان يقف منها المخزن موقف التحرز بل المناهض لها تجنباً لاتساع مساحاتها، فتستحيل الى تحالفات كبرى قد تجلب متاعب للمخزن ويترتب عنها تداعيات غير مرغوب فيها. ومن خلالها سنحاول استكشاف دور ممثلي المخزن المحليون في استغلال الوحدات اللفية لأغراض تبدو للوهلة الاولى وكأنها من اصطناع المخزن، باستهدافه تحجيم وتقليص قوة القبائل وخض شوكتها مقابل دعمه لنفود القواد. الا ان الواقع جعله يتدارك ما قد تصل اليه حدة العنف التنافسي الذي طبع العلاقات بين القواد.

أما ثاني المصدرين، فيعود لمؤلف تدخل انشغالاته ضمن الأدب الرحلي من انجاز الفرنسي دو سيكونزاك، الذي أنجزه خلال رحلته الاستكشافية للقبائل المستوطنة بالمناطق الجنوبية للأطلس المتوسط المتاخمة للأطراف الشمالية بالأطلس الاوسط الكبير في المدة المتراوحة بين سنتي 1904 و1905. استطاع من خلاله أن ينجز خطاطات لعلاقات نسقية لمجموعة من الفخذات والفرق والقبائل المنتظمة ضمن إطار تحالفات لفية بقبائل الجبل التادلي. مرتكزا في ذلك على شهادات شخصيتين لهما وضع اعتباري لدى قبائل الجبل. ويتعلق الأمر بسيدي علي أمهاوش وسيدي احساين مرابط أحنصال. وهي روايات لا تدعمها أهمية تاريخية خاصة وأن الخطاطات المعتمدة تأسست على شهادة المخبرين المذكورين جاءت متقاربة نسبيا مع نصوص الوثيقتين المخزنيتين فجاءت معطياتها حسب ما ورد في كتابه " في قلب الأطلس، مهمة بالمغرب " على شكل لوائح بأسماء فخذات وفرق منتظمة داخل إطارات سياسية معزولة عن أي تصور تنظيري ولا تحيل على أية خلاصات أيديولوجية كما هو عليه حال الدراسات الكولونيالية اللاحقة، إلا انها بالرغم من ذلك تبقى مضمرة بهواجس استخبارية وتوصيفات ستُسنَد لاحقا الدراسات الاجنبية⁵⁶¹.

فكيف يمكن رصد الروابط اللفية وفعاليتها في تحريك التحالفات القبلية بالدير والجبل التادليين من خلال المصدرين المذكورين؟ وما هي الاستنتاجات الممكنة استخلاصها من قراءتنا للوثائق الرسمية والوقوف على خيار المنهج التدبيري الذي سلكه المخزن المركزي لتجاوز ما قد

⁵⁶¹ سعى ميشوبيلير وهو احد الاضلع المنظرة للمشروع الاستعماري بترأسه للبعثة العلمية بطنجة سنة 1904 الى اقام تصورات سياسية استعمارية بالحقل المعرفي والسوسولوجي في دراسته المجتمع المغربي واثارته لنظرية التقابل الثنائي لبنياته الاجتماعية و الاثنية والثقافية و اللغوية و البيئية و تمايز احكامه بين الشرع و العرف و حضور السلطة بمناطق المخزن و غيابه عن اخرى كونها سببية. كل ذلك مثل بالنسبة اليه و من تلاه من الدارسين الاجانب خاصة منهم مونطاني، مقدمات ومداخل رئيسة لفهم المجتمع المغربي، افرزت نتائجها ما سيعرف لاحقا بصدور الظهير البربري و ما تلاه من عواقب في تدبير الحماية لشؤون القضاء .

يترتب عن تطور التحالفات القبلية وحصره لأي إمكانية لانتساع نطاقها في ظل الازمات الناجمة في معظمها عن تأثير الضغوط الاجنبية حيث باتت أخطارها تحقق بالوضع العام خاصة الاجتماعي منه بداية من المنتصف الثاني للقرن التاسع عشر ؟

من الجلي أن البحث في نظام اللف الذي كان سائدا في عدد من الاقسام والوحدات القبلية بالمجال التادلي، ومحاولة الكشف عن آلياته الاجتماعية والسياسية، وسبل التحري في اشكال تعاقده و مرجعيات أعرافه المتحكمة في تغذيته واستمراره فيما بين تلك الوحدات، يبدوا في واقع الأمر غاية في الصعوبة والتعقيد، لما يكتنف جوانبه من غموض وضبابية.

علما أن إثارته كموضوع معرفية محسوبة على حقل السوسولوجيا، يحتاج الى منهجية محددة تتخذ من الميدان قاعدة لها، بالإضافة الى أدوات مفاهيمية يسمح التوسل بها في استكناه مواطن ظاهرة اللف كما تم رصدها بالمناطق الطرفية من تادلا ، فضلا عما تتطلبه تفاصيلها من دقة في الملاحظة والمتابعة والمراقبة تمنح نتائج وخلاصاته مصداقية علمية ومخرجات منطقية. ويعود مرد تلك الصعوبات في اعتقادنا الى مجموعة من العوامل والحيثيات نعدها تبريرا وفتت حائلا لم تسعفنا في الاحاطة بكل جوانبه من جملتها:

أولا، من حيث البحث الاستوغرافي :

من الملاحظ أن المصادر التاريخية التقليدية ومؤلفات الإخباريين في حدود معرفتنا، قد غابت في متونها إشارات حول أعراف اللف ونظامه لدى القبائل التادلية ولم تأت على ذكر اشكال تحالفات وتضامانات القبائل، لاعتبارات تتعلق إما بنظرة المؤرخين تجاه القبائل وهي نظرة " تهيب واحتقار"⁵⁶². وإما لكون هذا الصنف من الإنتظامات الاجتماعية لم يأخذ باهتمامهم نظرا لاقتصار العمل به على قبائل الجبل المعدودة ضمن المناطق الطرفية والنائية عن متناول معارفهم.

وإذا ما استثنينا ما أورده المؤرخ المشرفي من معلومات هامة حول عادة اللف بقبائل الريف وموقف المخزن منها⁵⁶³، فإن باقي المصادر قد أغفلت الحديث عن عادات وأنظمة اللف، ما فوت اية امكانية للحصول على معطيات تاريخية قد تسعفنا في توسيع مداركنا حول الموضوع.

⁵⁶² المودن عبد الرحمان : (مر.س) ص 136 .

⁵⁶³ المشرفي محمد بن محمد : (م.س)، ج 2 ، ص ص 127-128-129 .

ثانيا، من حيث الفاصل الزمني :

أن ظاهرة اللف أصبحت اليوم في حكم الماضي وقد تجاوزتها الاحداث ولم تعد فاعليتها قائمة، فأحرى ان يكون لها من جدوى ، بل يمكن التأكيد أن شحناتها العصبية قد أفرغت من محتواها . فاللف كنظام اجتماعي يستمد سيرورته وحيويته من طبيعة النظام القبلي، يقترب بالحضور القوي للمقوم الوجودي لمفهوم القبيلة. وهذا الاخير انما يقوم على وازع العصبية بالمفهوم الخلدوني فيذكر أن « من هذا الباب، **الولاء والحلف**، إذ نعمة كل أحد على أهل ولائه و**حلفه** للألفة التي تلحق النفس من اهتضام جارها أو قريبتها أو نسيبها بوجه من وجوه النسب وذلك لأجل **اللحمة** الحاصلة من الولاء مثل لحمة النسب »⁵⁶⁴. ومن ثمة فإن العصبية كمحرك لظاهرة اللف في حدود مجالها الضيق قد انتفت مفاعيلها اليوم أمام تطور مؤسسات الدولة. وبالتالي فإن الطابع الاجرائي لللف لم يعد له من جدوى بالقدر الذي كانت تدعوا الضرورة والحاجة اليه فترة القرن التاسع عشر.

ثالثا، من حيث حمولة اللف في الخطاب المخزني:

- ان الوثائق الرسمية والمراسلات المخزنية، باعتبارها الوسيلة الاساس التي اعتمدها في دراسة اشكالية اللف، هي في حقيقة الامر لا تفصح في خطابها عن أية مدلولات عن معنى ومقاصد عوائد اللف، ولا تشفي غليلنا في رصد تفاصيلها وإدراك مضمونها، فهي لا تعدوا أن تكون إلا إشارات ترد في المراسلات الرسمية كمضامين لوقائع إخبارية حول نزوعات تحالفية حربية، تستجيب بموجبها الوحدات القبلية لنداءات ودعوات استنهاضيه تقفز الى سطح الاحداث بين الفينة والاخرى تبعا لظروف محددة واستجابة لوقائع معينة⁵⁶⁵.

المبحث الثاني، الدراسات الاجنبية وظاهرة اللف بتادالا:

المطلب الاول، نموذج من دراسة منوغرافية:

ان الدراسات والأبحاث المنوغرافية المنجزة من طرف الاجانب على عهد الحماية وحتى ما قبلها التي شملت بعض أجزاء المجال التادالي خاصة الجبلي منه تعد من القلة بمكان. ونتصور لو تحققت بالزخم والقدر الكافيين مثل ما ميز نظيراتها بمجالات أخرى في المغرب، خاصة بمنطقة الريف ومناطق الاطلس الكبير الغربي، بما حظيت به من سبق منهجي وعمق معرفي، كان بمقدورها ان تميط اللثام عن كثير من المعطيات والمعلومات، من جملة ظاهرة اللفوف وأثرها

⁵⁶⁴ ابن خلدون عبد الرحمن : المقدمة ، ص 161 .

⁵⁶⁵ نستشف في كثير من المراسلات الصادرة عن المخزن المركزي رفضه الشديد لكل تحالف قبلي يقوم على نظام لفي .

على مستوى العلاقات النسقية بين الوحدات القبلية من جهة وعلاقة العاملة منها به بالمخزن من جهة اخرى⁵⁶⁶.

صحيح أن الرحالة دي سيكونزاك تطرق لنظام اللف في كتابه "في قلب المغرب" عند زيارته لقبائل المنطقة الفاصلة بين الاطلس المتوسط والاطلس الكبير الاوسط، وتمكن من رسم جداول بأسماء لعديد الفرق والفخذات المنتظمة ضمنه، لكن اقتصر الامر فقط على هذا العمل دون ان يتعداه للمدى الذي يستوجبه تحليل الظاهرة كما هو الشأن عند مونتاني.

ولحسن الحظ، تمكنا من خلال البحوث المكتبية بمؤسسة أرشيف المغرب، من العثور عن طريق الصدفة، على منوغرافية تتعلق بقبيلة أم البخت. وقد تم الاطلاع عليها ضمن مجموعة مستندات مركز الدراسات الادارية العليا حول افريقيا وآسيا بمجلد يحمل عن طريق الخطأ عنوان "منوغرافية حول منطقة آيت عطا النكور لتزارين وتغالت" لمؤلفه Saint bon يحمل رقم 224⁵⁶⁷.

فبعد تفحص صفحاته الأولى تبين أن الأمر يتعلق بدراسة منوغرافية تم إنجازها مباشرة بعد الاحتلال الفرنسي للدير التادلي، لمؤلفها الفرنسي SAINCIHS، خصصها حول قبيلة أم البخت ولا علاقة لفحواها بالعنوان الاول. والجدير بالملاحظة انه عند اطلعنا على كتاب اعراف قبائل زيان لمؤلفه روبير اسبينيون سنوات الاربعينيات من القرن العشرين، تبين انه يكاد يكون نسخة طبق الأصل لمنوغرافية أم البخت المشار اليها مع تعديلات طفيفة جدا على مستوى الشكل، حتى بدت كل تفاصيل الحياة وخصوصية المجتمع المحلي لام البخت كما لو تم إسقاطها وتعميمها على كافة قبائل زيان⁵⁶⁸.

⁵⁶⁶ من جملة الدراسات و الأبحاث والتقارير الاجنبية التي اولت اهتماما بالإقليم التادلي وتمكننا من الاطلاع عليها لا تتجاوز عدد اصابع اليد منها :

- Rapport sur une mission chez les Ntifa , par : Henri basset, les archives berbères volumes II fascicule 2 1917 publication du comité d'études berbères rabat .

- LA ZAOUIA d'Ahnçal d'apprêt les notices de Ar Spilmanann : archives marocaines volumes : VX VII paris 1927 .

- Note sur les Amhaouche et les Ahnçal ; Michaux bellaire , Archves Berberes volume ii fascicule 3 rabat 1917.

- Le sultan Moulay Ismail et les Berberes Sanhaja du Maroc central de la Chappelle .archives Marocaines volume vxv III paris 1931.

- La montagne Berbere les ait Oumalou et les pays Zayan de Said Guennoun : Edition Oumnia Rabat 1933.

- Les saints de l'Atlas , H Ernest Guelner

⁵⁶⁷ C.H.E.A.M : centre des hautes Etudes d'Afrique et d'Asies modernes. étude sur les droits coutumiers de la tribu berbère des Ait oum el bekht . effectue par Cdt Sanchis .

⁵⁶⁸ روبير اسبينيون اعراف قبائل زيان، ترجمه الى العربية محمد اوراغ، منشورات المعهد الملكي ت أ 2007

وقد تمكن الفرنسي شانشير من خلال معاشته للمجتمع المحلي لقبيلة أم البخت من رصد اشكال الانتظام الاجتماعي بالقبيلة انطلاقا من وحداتها الصغرى التي هي الاسرة فالعظم ثم الدوار او مجموعة دواوير منضوية ضمن الفرقة او المشيخة البالغ عدد خيامها في المجموع ما بين 300 و350 خيمة ويطلق عليها ايضا اسم الخمس او الربع داخل نطاق الوحدة الكبرى وهي القبيلة. وقد شكل موقع " الجماعة " كوحدة جماعية ضمن الاطار العام المحدد لهذه التقسيمات، احد اهم البنيات الرئيسية في المكون القبلي بما تمثل قيمتها "القانونية" ودورها الفعال ضمن النسق العلائقي داخل شبكة "الجماعات" من انسجام وترابط يتزعمها شيخ يمثلها في الاجتماعات الكبرى للقبيلة المنعقدة عموما اما بالمسجد او بالسوق⁵⁶⁹.

وحسب الدراسة، فإن شيخ الفرقة يلعب دورا مهما في عمليات تفاوضية مع شيخ فرقة أخرى في حالة وقوع نزاع، ويسعى لحل بعض المشاكل الطارئة التي تحدث عادة بين الافراد من كلتا الفرقتين. لكن صاحب الدراسة لم يأت بذكر عن ظاهرة اللف لدى قبيلة ام البخت، الا انه اكد ان الفرق داخل القبيلة تلجا عادة الى عقد تحالفات مع فرق أخرى وحتى بين القبيلة نفسها وبين قبائل اخرى بواسطة ما يسمى "بتادا" او "طاطا" بما يحمله اللفظ من معنى تيمولوجي يرمز الى عملية رضاة تشاركية بين الافراد وكانهم يتناولون غذاء الحليب من أم واحدة فيصبحوا على إثره إخوة.

فهو طقس جماعي يتم بين جماعتين ترغبان في عقد حلف بينهما. فيجتمع أعضاؤها على مائدة الطعام ويشبكون ايديهم مع بعضهم البعض فوق صحن الطعام، فيقول الواحد منهم: "هذا اداد الله بيني وبينكم". او يلجأون الى تجميع بلاغي من فردة رجل واحدة من كافة أعضاء الجماعتين أو الفرقتين ويضعونها في سلهام، ثم يقع سحب عفوي لكل فردة من البلاغي ليرتديها كيف ما اتفق كل شخص من الفرقتين المتناظرتين. وينسحب نفس الامر عندما ترغب القبيلة في عقد حلف مع قبيلة أخرى. يبقى الاختلاف فقط في عدد ما يطرح من البلاغي. إذ يعمد الطرفان الى وضع مجموعتين من البلاغي عن رجل واحدة وتمثل كل فردة بلغة دوارا عن كلتا القبيلتين المتقابلتين. ثم يقع سحب كل بلغة من المجموعتين لتسلم لكل دوار على حدته، فيلتزم بذلك بنظام "تادا" تجاه كافة دواوير القبيلة الاخرى⁵⁷⁰.

⁵⁶⁹ Cdt Sanchis : étude sur les droits coutumiers de la tribu berbère des Ait oum el bekht C.H.E.A.M , n° 224 ,PP ,11.12.13

⁵⁷⁰ Cdt Sanchis : op-cit p19

المطلب الثاني، اللف من منظور مخزني :

ما من شك ان البحث في موضوع نظام اللف بما هو نظام عرفي اعتمدته مجموعة من الفرق والقبائل والقبائل خاصة الناطقة منها باللغة الامازيغية المستقرة بالجبل، يدخل ضمن الحقل المعرفي السوسولوجي. الا ان مقاربتنا للظاهرة يرتبط اساسا بما تفصح عنه الوثيقة المخزنية في علاقته مع القبائل.

فدينامية المجتمع المحلي في عموم قبائل الطاعة بالإقليم التادلي وجواره بالجبل والدير تتميز ببنية مزدوجة ومتناقضة ترتسم ملامحها في توتر العلاقة بينها وبين المخزن من ناحية وبين أشكال العلاقة فيما بين القبائل نفسها بما تعنيه من تضامن اوتنافر وصراع بين الاقسام والوحدات القبلية المتجاورة من ناحية اخرى.

فخلال قراءة نصوص وثائق مخزنية تمكننا من تبيين بعضا من ملامح تلك العلاقة. فهومن جهة مجتمع يكابد وطأة الكلف والتسخيرات المخزنية ويتحمل عبء الوظائف والالتزامات الضريبية مع ابدائه لمظاهر الطاعة على مضض فيما يفرض عليه من أوجه تلك الأعباء، لكنه من جانب آخر، يسعى للالتفاف حول مكونه القبلي بروابطه السلالية وأعرافه ومعتقداته المميزة لهويته. التقاف، يجعل من الانتظامات الاجتماعية لفرقه ومشيوخه متراسا تلتزم بالوقوف خلفه لتضمن استقرارها وتحقق لها توازنات في علاقتها مع الجوار⁵⁷¹.

بيد ان هذه الازدواجية وهي تقف على حافتي نقيض، بين التنافر والتآزر، لم تكن غائبة عن اهتمام التدبير المخزني. اذ كان يأخذها بعين الاعتبار في تناوله للشأن العام. فحتى يتمكن من كسب قوة حضوره بالمجال ومن استمرار رمزية هيئته، لم يكن له من خيار غير دعم ادواته المحلية ووسائله المتعددة ليتمكن من استيفاء شروط متطلباته وإلزاماته تحت طائلة الاحكام المخزنية بضغطها المتعددة، وحمل القبائل على الاذعان، طالما ظلت في متناول إدراك اليد والسلطة. فسعى بذلك الى تقوية نفوذ ممثليه بالوسط السكاني ومدعم بالوسائل الممكنة من الرجال والسلاح إذا ما احتيج لهما، غايته إنفاذ الأحكام بإشراف وتوجيه من المركز. فأضحى من مهام جهازه المحلي الأساسية ليس فقط جباية المال وضمان الأمن بقدر ما سعى أفراداه الى كسر شوكة

⁵⁷¹ ما نعنيه بالمجتمع المحلي هنا هو المستقر بمجال الطاعة من سهل و جبل ، علما ان نظام اللف يعمل به في قبائل الجبل أكثر مما هو منتشر في قبائل السهل - ان لم يكن منعما بمضمونه المعتمد لدى قبائل الجبل و الدير - ، تناله الاحكام و يؤدي الواجبات و ينصاع للوظائف و الكلف و يساهم بافراده و فرسانه من قبائله النائية في الحركات الجيشية .

كل قوة صاعدة من القبائل والعمل على اختراق وتفنتيت كل تحالف من شأن تعاضمه ان يهدد سلطة المخزن ذاته ⁵⁷².

وعلى النقيض من ذلك كان المجتمع القبلي رغم ما يبديه من مظاهر الطاعة، يعبر دوما عن معاندته لتجاوزات القواد، ومكابرتة المضمرة والمعلنة لأصناف جورهم واستبدادهم ولن يتأت له ذلك الا بتقوية بنائه الاجتماعي وتمتين روابطه العرفية ونظمه التعاقدية.

لكن القبائل التادلية ليست كلها على مقياس متساو، ولا تستقر في مجال جغرافي متشابه. كما ان اطراف كل قبيلة لا تلتئم حول نواة صلبة تخضع لمشيئتها وفق تدبير مشترك، بل على العكس من ذلك نجد القبيلة بما هي واقع سكاني تشغل حيزا ترابيا وتحمل هوية تستمدها من اسمها ومن انحدارها في النسب من جد مشترك، وهميا كان أو حقيقيا قد صارت مقسمة الى وحدات وفرق ومشیخات، فاكنتبت كل واحدة منها شخصية لها مميزة، تحمل اسما معيناً وتستقر داخل حدودها المكانية في ارتباط ببيئتها ومحيطها الطبيعي.

واذا كان من غير اليسير ضبط العوامل والازمنة التاريخية المحايطة للإنشطار والانقسامات التي عرفتها تلك الوحدات، - مع انها ظلت مرتبطة بالحركة الطبيعية للدفاع البشري- إلا أنه يمكن رد دوافع الوحدات المنشطرة برغبتها في إعادة ترتيب وإنتاج علاقات تحالفية واصطناع أشكال تضامنية إما بداخل القبيلة وحتى من خارجها، ليس لمنافحة المخزن المحلي فحسب، بل غايتها أيضا الحفاظ على كيانها واستقلالها في مواجهة كل تهديد محتمل يأتي من الجوار.

فعلاقة التجاور بين الفخذات والفرق او المشیخات تبقى في حد ذاتها هاجسا ينطوي على مخاطر أمنية. كون النزاعات بين الاقسام المتجاورة تنشأ في الغالب جراء حزازات قديمة، إما ناجمة عن الرغبة في تصفية تركة خلافات حدودية تولدت عن عواقب الانشطار، وإما عن اعتداء ومحاولة التوسع لاحد الجانبين على حساب الجانب الآخر، أو عن تعديتات تنجم في الغالب عقب سنوات الجفاف والقحوط حيث تنشط عمليات سرقة المواشي المباغطة تحت جنح الظلام أو التهديد بالسلاح. زيادة على تراكم حالات متعددة من الخلافا ساهمت في تأجيج أسباب التنافر والصراع. كل ذلك يصير دافعا موضوعيا في إبداء مجموعات الفرق المنتشرة ضمن مجال القبيلة رغبتها في ربط علاقات أحلاف وتضامن فيما بينها وبين نظيراتها المتقابلة. وقد يحدث أن تدبير الواحدة منها ظهرها للفرقة المجاورة للأسباب أعلاه فتمد أو اصر التقارب مع التي تفصلها

⁵⁷² العروي عبد الله : مرجع سابق ص 255 . يشير المؤرخ في هذا الصدد أن القواد الكبار في النصف الثاني من القرن التاسع عشر كانوا يعملون بوعي او بدونه على تصفية المؤسسة القبلية، مساهمين بذلك في تسهيل إخضاعها من طرف المخزن . مضيفا انهم تحولوا الى رموز لانهباء القبائل و تقلص وظائفها كنتيجة حتمية لصراعهم المرير ضد السلطة المركزية .

عن نديتها. وقد ترتقي الى تحالفات ذات سمة احترايبية اذا ما بلغت العلاقات بين الجوار الى مستوى من العداة يفضي الى استعمال العنف.

المبحث الثالث، صراعات قبلية بلمح لفوفي ودور الجهاز المحلي :

المطلب الاول، اوجه من التضامانات القبلية :

تفيدنا الوثائق المخزنية عن حدوث نزاعات فيما بين القبائل بل داخل القبيلة الواحدة نفسها في حركة مستمرة لا تكاد تفتقر لأسباب متعددة. لكنها عموما تصطبغ بطابع العنف كما ترد في الوثائق، أما نتيجة لأعمال نهب وسرقة المواشي وإما عن ردود افعال جراء تعديات، وإما بتحريض من ممثلي المخزن المتنافسين فيما بينهم، يؤلبون فرقة على اخرى او يدعمون هاته على حساب تلك.

فعلى سبيل المثال تخبرنا الوثائق عن حدوث صراعات بين بني معدان وأيت عبد اللولي، وبين بني عمير وبني معدان، وبين بني موسى و قبيلة ارفالة، وبين هنتيفة وايت اعباب الى غير ذلك من الامثلة .

والظاهر ان وتيرة الصراعات القبلية المدعومة بتضامن قبائل اخرى قد ازدادت حدتها منذ المنتصف الثاني للقرن التاسع عشر. وهي تعكس الى حد ما الوهن العسكري الذي بدت ملامحه تظهر على المخزن مباشرة بعد هزيمة معركة اسلي سنة 1844. فبدت الحركات المخزنية المحلية تواجه بالعنف وعدم الانصياع. ففي رسالة وجهها القايد احمد بالقائيد عامل السراغنة الى السلطان في اعقاب قيادته لحركة جبائية لاستيفاء الواجبات من قبائل الدير الشمالي لتادلا يبلغه فيها عن الصعوبات التي واجهها في حركته حتى من طرف القبائل الجيشية بقوله : « [...] هذه مدة من نحو عشرة ايام ونحن بالقصبة الكوشية وفي كل يوم نركب المحلة نحوزروع الفاسدين من ايت اسري...وقد ابدلنا مجهودا، لكن سيدنا ما وجدنا لايت الربع مستقرا على حال، فمنهم من يتكلم على ايت اسري ويحضهم على عدم الدفع، ويغريهم على ضرب المحلة بالبارود. ومنهم من يطلب منا الرحيل أمامهم. ولا يضبطون أمرا، وكل واحد منهم يقول أنا رئيس الوقت. كما يعلم سيدنا حال تادلا لما بينهم من المشاحنة. »⁵⁷³

يتضح من هذا مدى التضامن الذي أبداه ربع بني معدان الناطق اهله باللسان العربي مع الاقسام الجنوبية من أيت اسري ذات اللسان الامازيغي ضدا على السلطة المخزنية. رغم كونها

⁵⁷³ م. و. م. ر. ح : محفظة 47 TH ، رسالة مستقلة غير مرقمة بتاريخ 20 جمادى الثانية 1262 الموافق ل 05يونيه 1847

قبيلة جياشة تحظى بامتياز الاعفاء من الكلف ومن استغلال اراضي المخزن. ما يحمل على الاعتقاد ان المصلحة الاقتصادية والاتفاقات الخفية لتبادل المنافع بين الطرفين جعل الاولى في موقف من يزود عن الثانية بغاية عرقلة مهمة المخزن المحلي⁵⁷⁴.

المطلب الثاني، جانب من اوجه الصراعات والتضامات القبلية ذات طابع لفوفي (مصدر وثائقي نموذجي):

وإذا كان النص اعلاه يعبر عن تضامن تلقائي بين القبيلتين فان أشكال من التضامن أخرى ستظهر لنا في النص الثاني ابطالها وهم من ممثلي المخزن نفسه. ففي نص رسالة احمد بن محمد ولد زيدوح احد شيوخ قبيلة بني موسى الى نجل خليفة السلطان على تادلة يعبر فيها عن شكايته بتحالف محمد بن الطالب قائد هنتيفة مع عبد الله بن أدادس قايد ايت الربع ووقوفهما الى جانب بني عمير ضد فخذته بقبيلة بني موسى: « [...] وكنت قد قدمت كتابا لسيدنا قبل هذا اخبرته مما يفعل ولد بن الطالب وعبوين أدادس، وقد بعث لعبد ألف مثقال أعطى نصفه للبعض من بني عمير ونصفه لإخوانه واشتغلوا بالفساد، وأعلمت سيدنا بأن نهضت للحركة أيضا ونزلت بطرف قبيلتنا بني موسى وبقي الرجال المذكوران جادان في فساد أهل تادلة، فقام عبّ واولاده وجميع من تبعه من أهل ايت الربع زيادة على بني عمير وقمنا نحن وتلاقينا في فلاة من الارض ووقعت معركة كبيرة بيننا وبينهم.»⁵⁷⁵

يبدوا الصراع بين هذه الاطراف وقد تم تأجيجه والنفخ في ناره من طرف زعامات السلطة المحلية للسهل التادلي، بل أصبح بمقدور زعامات الجبل أن تحشد إمكاناتها المادية من أجل توسيع نطاقات نفوذها بالسهل. وقد عبر عن ذلك ابن اسماعيل، خليفة بني موسى والحليف الرئيس للقائد احمد بلقايد في رسالة الى نجل السلطان حول الفتنة التي احدثها هؤلاء جميعا بالمنطقة جاء فيها « [...] سيدنا اهل تاديلة كانوا همدين خمدين⁵⁷⁶ وبعد ذلك تاقدموا ولد زيدوح من الجبال هبطوا عند بني موسى هما الاولين [...] وهبط عند آيت الربع كذلك وعملوا في تدبيلة هرج كثير»⁵⁷⁷

⁵⁷⁴ لقد راکمت قبائل ايت الربع الجياشة من التجاوزات و عدم الانضباط لشروط نظام القبائل الجيشية ، ما دفع بالسلطان الى تجريد حركة عسكرية تحت قيادة نجله الخليفة بمؤازرة من قبيلة آيت سعيد فنكل بها و عولمت في التاديب باقسي درجات العقاب : « [...] فساد ايت الربع طغوا و بغوا و سعوا في الارض بالفساد و بدلوا نعمة الله كفرا [...] قوم بغاة و البغاة قدم الشرع قتالهم على قتال النصارى .. » ر.م. /م.و.م.ر: مسجلة تحت رقم 30045 بتاريخ 20 صفر 1271

⁵⁷⁵ م.و.م. ر.ح : محفظة 47 TH ، رسالة مستقلة بتاريخ 13 رجب عام 1268

⁵⁷⁶ حافظنا على صياغة الرسالة بصيغتها الاصلية وبأخطائها الاملائية ويرجح كثيرا من خلال الخط وتعابيرها العامية و كما سبقت الإشارة انه تم انجازها من طرف الخليفة نفسه او أحد الطلبة .

⁵⁷⁷ م. و. م. ر. ح : محفظة 47 TH رسالة مستقلة غير مرقمة وبدون تاريخ من الخليفة المذكور الى خليفة السلطان

بينما نجد في رسالة اخرى صادرة عن المركز الى قواد بني موسى جاء فيها « قواد بني موسى كافة، وبعد وافا جوابكم عما امرتم به من النزول مع الخديم بن الطيب على فساد بني عمير بامثالكم أمرنا الشريف بالسمع والطاعة ونزل كل واحد منكم بالمحل الذي بينتم وبذلك يحصل الغرض ويتمكن من التضييق بهم.»⁵⁷⁸

وقد حاولنا من خلال طرح هذه النماذج الثلاثة حيث تظهر مدى الصراعات المنتشبة داخل المجتمع القبلي بالسهل التادلي تذكيا أحيانا تضامانات من طبيعة منفعية، وأخرى تنشأ عن حزازات ومنافسات بين الممثلين المحليين للمخزن، وثالثة توضح لنا تأليب المخزن نفسه لقبيلة على قبيلة اخرى من اجل حملها على اداء ما ترتب عليها من واجبات والزامات، كما يبدوا من خلالها سطوة ممثلي المخزن المحليون بإذكائهم لا أشكال العنف والابتزاز المضاعف للسكان، اي استمالتهم لجانبهم بالعطاء من اجل الموالة والتحزب لتسخيرهم في اثاره الفتن والتصادم مع قبائل الجوار، ليعودوا في موسم الحصاد لا ثقال كاهلهم بالجبايات والتعسف في احتجان الاموال وكأنهم بذلك ينتكرون لوظيفتهم الاساسية المتعين عليهم شغلها انسجاما مع مضامين ظهائر التعيين المسلمة اليهم.

ويمكن هنا طرح سؤال لفهم هذا السلوك الاستنفاري والتنافري الذي يبديه أفراد الجهاز المخزني: هل كانوا يسعون بتصرفهم ذلك الى تنفيذ توجيهات رسمية من المركز، اي العمل قدر المستطاع على كسر شوكة القبائل والحيلولة دون حصول تحالفات قبلية من شأن تنامي قوتها ان يخلق متاعب للمركز؟ أم أن المضاعفات المترتبة عن هزيمة ايسلي وظهور حالة من الوهن في تشديد السيطرة على القبائل فتح المجال أمام القواد ز ممثلي الخزن محليا الى نهج تدبير تسلطي لتقوية مركزهم، فتمتزج حالة التدبير هاته في تداخل مريب بين منظور أحادي للقواد في مقاربة أمن مجالهم وبين إمهال مركزي حتى تنجلي الامور⁵⁷⁹.

إن استشراف مظاهر العنف وتراكم الضغائن وسط القبائل سنتحول في واقع الامر الى ما يشبه التميرين السيكلوجي لدى السكان سيرتقي بهم في ظروف تاريخية معينة لان يسلكوا به طريق الانتفاض والتمرد على المخزن ذاته.

وحفاظا على التماسك المنهجي الذي نتوخى من خلاله ربط سلوكات القواد وتطلعاتهم الشخصية بطفوح نظام اللوفوية من كموهه وظهوره على سطح الاحداث، فإننا ارتاينا إدراج نص

⁵⁷⁸ خ . م . ر : مختصر رسالة من المخزن المركزي كناش 364ص 160 بتاريخ 13 قعدة عام 1302
⁵⁷⁹ حالة التدبير هاته سيتم تجاوزها على العهد الحسنى بانتهاجه سياسة اكثر تمركزا وتحكما في المجال التادلي .

وثيقة رسمية فترة حكم قائدين بارزين هما احمد بلقايد بصفته عامل على اقليم السراغنة وقائد حركات جبائية بالاقليم التادلي ومحمد بن الطالب قائد هنتيفة القوي لاختبار مدى قدرة هؤلاء في استنفار بنية اللغوف وايقاظ النزوعات الحربية لدى القبائل من خلال رسالة قمنا بتقسيم نصها الى فقرات ثلاث سنحاول من خلال كل فقرة ما استطعنا توضيحه واستجلاء بواطنه وتحليل المعطيات في ارتباطها بالعناصر المحركة للوقائع .

الشرط الاول من الرسالة 580 :

« [...] يعلم نصره الله ان خديم اعتابه الشريفة القايد محمد بن الطالب حدث بين لفه من جبالة البربر وهم آيت بوزيد⁵⁸¹، وامزيغ⁵⁸²، واصحة⁵⁸³، ولف آيت مصاد⁵⁸⁴ وهم عطة⁵⁸⁵ وغيرهم، قتال مرارا وطلب إمداده بقبائل دمنات⁵⁸⁶ فأمرنا الخليفة به بإعانتته، فأعانه بمائة فارس وأربعمائة رام، فاستزاده، ففرض له الفين بين فارس ورماة، ثم طلب قدومه عليه بنفسه فساعدناه. إلا أن

⁵⁸⁰ م. و. م. ر. ح : رسالة خليفية مستقلة مسجلة تحت رقم 22032 بتاريخ 7 رمضان عام 1264 هـ

⁵⁸¹ آيت بوزيد قبيلة يتحدث سكانها اللغة الامازيغية تستوطن مجالا يحاذي الدير التادلي جنوب مدينة بني ملال يقع على جنوبها واد العبيد ومن ناحية الشرق قبيلة آيت عطا نومالو ، ويجاورها من ناحية الغرب قبيلتي آيت اعتاب وايت اعياض تحدث عنها شارل دوفوكو بنوع من الاعجاب كون سكانها ينشطون ببراعة في العمل الزراعي حيث يتخذون من المدرجات مساحات لفلح الارض والغراسية (وفي الاسواق يحضرون الفواكه والخضر ويشترىها آيت عطا . ويمكنهم تجهيز 1000 رجل و 300 فارس : التعرف على المغرب ص 97)

⁵⁸² أمزيغ : يقع المجال الترابي لفرقة آيت مازيغ بالمنطقة الجبلية الفاصلة بين الاطلس المتوسط والاطلس الكبير المركزي يتحدث سكانها بلسان امازيغي ، تجاورها من ناحية الغرب قبيلة آيت عطا نومالو ومن الجنوب قبيلة آيت نصاد لم تكن بها كثافة سكانية كبيرة الا ان موقعها بمجال تنسم تضاريسه بالوعورة والمسالك الصعبة مكنها من الحفاظ على بنياتها التقليدية وحرصهم على قيم نظمهم العرفية ويتجلى ذلك في انتشار المخازن الجماعية التي لا زالت اثارها بادية بما ترمز اليه من تماسك اجتماعي.

⁵⁸³ اصحا : اسم آيت اصح نلاحظ تغييره الى آيت ايشا ولا نعلم سبب ذلك الا بما نعتقد ان تداوله على مستوى الكتابة قد عرف بعض التحريف من ait icha الى آيت aitcha ومهما يكن من امر فان الاسم الاصلي حسب ما ورد في الوثيقة المخزنية هو آيت اصحا وقد تطرق دو سيكونزك في مؤلفه في قلب المغرب حول اصل التسمية بناء على ما امده به مخبرون محليون ، وارجعها الى واقعة اسطورية زمن سيدي سعيد احنصال وتتعلق في معناها بالصحة البدنية (ص 501). تقع فخذة آيت اسحاق بالمجال الجغرافي الفاصل بين الاطلس المتوسط والاطلس الكبير يحدها من جهة الجنوب قبائل آيت مصاد وايت اعتاب ومن جهة الشمال آيت عبيد كوسر وفرقة آيت داود اوعلي من آيت سخمان ومن ناحية الغرب قبيلة آيت عطا نومالو وايت بوزيد وبني عياط يخترقها واد العبيد وواد احنصال ، تنشأ على ضفافهما زراعات خفيفة على مساحات ضيقة وتنسم طبوغرافيتها بصعوبة المسالك وحدة المرتفعات

⁵⁸⁴ ينتشر سكان قبيلة آيت مصاد على امتداد مناطق جبلية واسعة تنسم بحددة قسماتها الطبوغرافية وارتفاعات جبلية . وبالرغم من وجود مساحات وزراعية يستغلها السكان النشيطون ويضمنون بها عيشهم اليومي الا ان نمط انتاجهم الاقتصادي يغلب عليه الطابع الرعوي شأنهم شأن باقي القبائل المجاورة. تحاديها من جهة الجنوب قبيلة هنتيفة وهسكورة ومن الشمال فخذة آيت اصحا وهما يشكلان قبيلة واحدة ، ومن ناحية غرب آيت اعتاب وايت عطا نومالو ومن ناحية الشرق آيت امحمد .

⁵⁸⁵ قبيلة آيت عطة وتنسب لقبائل آيت عطة الجنوب الشرقي قدم قسم منها الى المنطقة الوسطى الفاصلة بين قبائل آيت اعتاب وايت بوزيد والقسم الشمالي لقبائل بني ملال وجنوب آيت سخمان .

⁵⁸⁶ دمنات ،مركز حضري كان له شأن كبير ومازال في القسم الجنوبي من اقليم ازليل .تأسست كمدينة منذ عهود قديمة وتميزت بمواصفات عمرانية ومعمارية عريقة كما اشتهرت باسوارها ، ومساجد ها، واحياءها ،و ارباضها، و اسواقها، فسارت موطناً لعدة اثنيات امازيغية وعربية ويهودية وعناصر اخرى قدمت من الافاق .الا ان تنوعها الثقافي و الاثني لم يمنع سكانها في التعبير عن رغبتهم في تدبر شؤونهم المحلية تحت حكم زعامة منبثقة من رحم بيئتهم القبلية . فيعد خضوع المدينة و احوازها طيلة المنتصف الاول للقرن التاسع عشر لسلطة قواد كبار من السراغنة من جملتهم القايد محمد بن الجيلالي السراغني ولاه السلطان مولاي سليمان ثم تولى الحكم من بعده على كافة قبائل السراغنة ودمنات ابنه احمد بن القايد .وبقيت خاضعة في تقسيمها كوحدة جبائية لايالة السراغنة شأنها شأن الاقليم التادلي . الا أن الذهنية المحلية و المزاج القبلي لم يعد يحتمل حكاما من خارج مجالهم ،فشكل ذلك لدى السكان دافعا لاحتجاجهم ورفضهم لقواد من خارج قبائل دمنات ، ما حتم على المخزن المركزي تولية قائد له صلة بالمنطقة وهو الطالب علي اوحودو ثم من بعده ابنه الجيلالي الذي سلك فيها بسيرة المستبد الجائر . و هو نفس الاجراء الذي طال ايضا قبيلة هنتيفة على عهد المولى عبد الرحمان. حيث انفصلت عن ايالة السراغنة و تم تعيين قائد ينتمي لنفس القبيلة .

أمرناه ألا يزيد إلا بجهل يغلب على ظنه السلامة فيه، وأمددناه بمدفعين ومهرازاً⁵⁸⁷ كبيراً وما يكفي لذلك من الإقامة⁵⁸⁸ والطبجية⁵⁸⁹، فلم يفتق بذلك كله، وطلب خمسمائة مارس من خيل المخزن وثلاثمائة من خيل زمران وستمائة رام منهم .» .

تنتقل الرسالة وهي على شكل تقرير إخباري من ديباجة افتتاحية مقتضبة قبل ان تنتقل بعجالة إلى ما يعثور المنطقة الجبلية بالجنوب الشرقي بالأقليم التادلي من اختلالات أمنية أدت الى نشوب صراعات بين مجموعتين من القبائل استتفر كل طرف منها لفة ضد لف الطرف المعادي فتفاقت المواجهة بينهما الى مستوى التداعي لحرب لفوفية كبرى. كما يظهر بجلاء ان العنصر المؤثر في مشهد الصراع فضلا عن التحالف اللفوفي هو حضور القائد محمد بن الطالب ومن خلفه لفوف ايت بوزيد وآت مازيغ وآيت اصحا. ومحمد بن الطالب هذا سبقت توليته من طرف السلطان عبد الرحمان بن هشام قائدا على هنتيفة وهي قبيلة طاعة، تقع على الغرب من دمنات وتحادي قبائل السراغنة من جهة الجنوب، اذ كانت تحت حكم القائد احمد بن القايد السراغني قبل ان تنفصل عن ايلته سنة 1260هـ وقد آل تدبير شؤونها المحلية لقائدها الجديد.

ورغم ان الرسالة لم تفصح عن الاسباب المباشرة للنزاعات القبلية المتكررة، الا انه يفهم من ذلك ان التدافع القبلي الذي بدأت مؤشرات تظهر بداية من المنتصف الثاني للقرن التاسع عشر، غدا سمة بارزة في تاريخ المجتمع المحلي التادلي ارتقى في ضراوته وشراسة عنفه الى مستويات من التحالفات اللفوفية ما يفسر نوعا من هشاشة الحضور المركزي بالمجال وتركه الباب مواربا امام ظهور زعامات قايدوية محلية تحتجن اسباب القوة والنفوذ لا يميزها عن صفة الأمغار بالجنوب المغربي الا الولاء للمخزن المركزي وما يتوفرون عليه من ظواهر التولية. واذا كان ابن الطالب يمثل نموذجا للقائد الكبير زمن السلطان مولاي عبد الرحمان فإنما كان يستمد قوته من دعم السلطان. فقد بعث برسالة الى خليفته على الاقليم سيدي محمد، يستوصيه به خيرا : « ولدنا الأبر الأرضى سيدي محمد، وبعد فإن قبيلة هنتيفة من أكبر قبائل الدير وأقواها شوكة، ولم يضبط امرهم ويحسم مادة الفساد منهم ومن جوارهم الا ابراهيم بن الطالب. وقد اقتنى

⁵⁸⁷ المهراز : هو مدفع من نحاس من حجم متوسط و سمي بذلك لانه مصنوع من معدن النحاس الاصفر و يظهر في هيئته و كأنه مهراز . يوضع عادة على قاعدة خشبية . يعهد لاستخدامه وتوجيه فوهته وتحديد مسافة وصول مقذوفاته الى معلم له كفاءة وتجربة يسمى بالطبجي . لكن هذا المدفع لم يكن استعماله في الغالب بغرض القتل وحصد الارواح بقدر ما كانت غايته اخافة القبائل المتمردة ودفعها الى الاستسلام .

⁵⁸⁸ الإقامة : هي كل المواد والعناصر الكيماوية التي تدخل في الاستعمالات الحربية بالمدافع ، من بارود وحبية وملح وكبريت .
⁵⁸⁹ الطبجية : جمع طبجي ، و هم المهندسون او المعلمون المتخصصون في استعمال وتوجيه وصيانة المدافع الحربية ، لهم ارتباط وثيق بهذه الآلات سواء اثناء نقلها او تخزينها . وخلال فترة تحديث و إصلاح نظام الجيش المغربي التقليدي على عهد السلطانين سيدي محمد ومولاي الحسن تم ارسال بعثات طلابية الى الخارج من اجل الحصول على تكوين عسكري والاستفادة من استعمالات المدافع و غيرها من علوم الخرائط والطبوغرافيا و صيانة آلاتهم الحربية المتنوعة .

ولده الطالب محمد اثره وحفظ رسوم الخدمة بعده وهو والده قبله خدما مع بالقايد الخدمة الحسنة مع حذرهما منه على عادة البربر في الحذر [...] ويكفيه شاهدا على حزمه وضبطه سكون قبيلته مع تزلزل جيرانها فلا بد تستوصي به خيرا»⁵⁹⁰.

هذه المكانة التي حظي بها القائد المذكور لدى المخزن المركزي هي بالضبط ما جعلته يتقدم بطلب شد عضده من طرف خليفة السلطان من اجل مده بقوة ضاربة تمكنه من التغلب على اللغوف المناوئة لتلك الموالية له. واذا ما تمكنا من إحصاء حجم هذه القوة فإنها ستظهر من الضخامة والكبر حسب ما يتبين من الجدول اسفله :

جدول 23 يرصد حجم القوة الموضوعه رهن إشارة القايد محمد بن الطالب لمواجهة اللغوف المناوئة له

عتاد المخزن	العدد	الدعم البشري
المدافع	02	- الطبخية والمعلمين المرافقين لهم
لمهارس الكبيرة	01	
الإقامة	كور وبارود	
المجموع	03	--

دعم قبلي

دعم دمناات	العدد	الدعم المعنوي
فرسان ورماة	2000	- القايد علي وحدوالدمنااتي من اجل الاعانة وشحد الهمم
الفرسان	100	
الرماة	400	
المجموع	2500	--

⁵⁹⁰ و.م.م.ر.ح : رسالة مستقلة المسجلة تحت : رسالة مستقلة مسجلة تحت رقم 19302 من السلطان مولاي عبد الرحمان الى نجله وخليفته سيدي محمد

الدعم العسكري الذي طلبه القايد محمد بن الطالب وأعرض المخزن عن تلبيته :

العدد	عسكر المخزن
500	فرسان
جيش زمران	
300	فرسان
600	رماة
1400	المجموع

إن حجم القوات العسكرية والأعددة الحربية التي تم إعدادها لخوض حرب على القبائل الموالية للقايد محمد بن الطالب تفوق من حيث العدد قوة القبائل المناوئة والمتداعية دوما الى لفوفها والمتحصنة بجبالها. ولنا ان نتصور كيف سيكون عليه حال المعركة اذا ما نشبت بين الطرفين بهذا الكم من التحشيد لجانب صفوف القايد النتيفي والبالغ عددها ثلاثة مدافع والفان وخمسائة ما بين فارس ورام واذا ما أضيف اليه عدد القواد من فرسان المخزن وقبيلة زمران غير الملتحقة بالميدان فان المجموع سيصل الى نحو ثلاثة آلاف وستمائة محارب فضلا عن أعداد المحاربين والرماة من لفوف قبائله، فانه لا شك ستكون معركة كبرى تتحول اطوارها الى اكتساح شامل لايت مصاد وايت عطا نومالو ما قد ينجم عنه اعادة رسم خريطة النفوذ الترابي لابن الطالب وتوسيع سلطته على امتداد عمق الجبل الصنهاجي.

هذا ما كان يأمله قائد هنتيفة ويخطط له وإلحاحه في شد عضده لمواجهة أعدائه من قبائل الجوار وهو المعروف باعتداده بنفسه وبحماية قبيلته وبمكانته لدى المخزن المركزي. لكن كيف كان رد المخزن على خطة بن الطالب الرامية الى اشعال حرب من هذا الحجم لا طائل من ورائها بل قد تؤول نتائجها الى أحد الاحتمالين :

- إما ان المعركة ستسفر عن انتصار القايد فتزداد قوة مكانته لدى القبائل وقد يتضاعف بطشه واستبداده وهو ما سيخل بقاعدة التوازنات القبلية التي يسعى المخزن على رعيها والحفاظ عليها وبذلك فان هذا الاحتمال يلزم تقادي تحقيقه وحدثه بكل الوسائل⁵⁹¹. خاصة إذا ما علمنا ان هذا القائد نفسه سينتهد على المخزن في وقت لاحق.

⁵⁹¹ اعتداد القايد احمد بن الطالب بنفسه و بعصبيته القبلية كان من بين الدوافع التي ستجعله في وقت لاحق يتمرد على سلطة المخزن ويتم اعتقاله لكن رغم ذلك تم تعيينه في وقت لاحق عاملا على مدينة فاس .

- وإما أن المعركة اذا ما حدثت قد يتسع محيطها ويشتد أوارها لتشمل فخذات وفرق من قبائل الجوار خاصة السهلية منها المعادية لابن الطالب مع احتمال ان تدور الدائرة على جيشه المدعوم من المخزن فتصبح هيبة هذا الاخير على المحك وهذا الاحتمال أيضا ينبغي الاخذ به للتصدي له والحيلولة دون تحققه.

المطلب الثالث، دور المخزن في حفظ التوازن و تبصره في تقييم الوقائع :
الشطر الاخير من الوثيقة :

« [...] فلم نساعده خوفا من وقوع كرة عليهم لان هؤلاء الذين يتقاتلون في رؤوس الجبال كلهم من رؤوس الفساد، وابن الطالب انما قام نصره **للفه** منهم كما قام ابن القايد نصره **للف** الآخر بأمثال ابن اسماعيل وغيره من دير تادلة. ونحن نخشى من وقوع هزيمة على المخزن في السهل ومع قبائل الطاعة. ففي الوعر ومع قبائل الفساد يتأكد الخوف عندنا وابن الطالب لم يقنع ولن يلتفت لهذا كله ولم يعمر عينه ما امددناه به، ولا قرت به ولا طابت نفسه ولا اقر حتى يضعفه وانما اراد ان يدخل المخزن في هذا ويوقعه في محذور.. »⁵⁹².

لقد أدرك المخزن عدم فاعلية وجدوى تدخله لجانب ابن الطالب او الانتصار للفه، كون كل اللوف المتنازعة معها هم في الأصل ينتمون لقبائل جبلية لا تنالها أحكام المخزن اذ تم وصفهم "بالفساد"، ولفظ الفساد في الخطاب المخزني له مدلول يحمل معنى التنطع والخروج عن سلطة المخزن، بمعنى أنهم ليسوا من الفخذات والفرق المؤتمن جانبيها حتى لو كتب الانتصار لابن الطالب فإنه من الصعب التكهن بقدرته على إخضاع الطرف المغلوب وإحاقهم بقبائل الطاعة.

ويتبرر هذا الموقف لدى المخزن بإرجاع أسباب النزاع ليس لأغراض تؤول منفعتها لصالح المخزن من تطويع وإخضاع رغم أنه كان يتوق لذلك، وإلا ما ساير خليفة السلطان خطة القائد في البداية، بقدر ما تأكد لديه أن دوافعها إنما تعود إلى حمية التعصب القبلي، وأن انتصار القائدين المتنازعين للوففهما ما هو إلا رغبة منهما في تقوية النفوذ وإحكام السيطرة.

ومن المعلوم، أن أحمد بالقايد كان له موقف عدائي تجاه بن الطالب بسبب خروج قبيلة هذا الاخير من تحت سيطرته، وهو ما أدى به الى عقد تحالف سياسي واحترابي مع بن اسماعيل خليفته على قبائل بني موسى فلم يتخلف هذا الأخير في حشد أنصاره من فخذات بني موسى ومن بني

⁵⁹² و.م.م.ر.ح: نفس الرسالة .

اعياط حتى من وحدات من آيت اعتاب رغم تبعيتها لابن الطالب، لتتوسع بذلك دائرة الصراع وينفرط زمام الامور من بين ايدي هذا الأخير.

فما السبيل الذي سلكه المخزن لتفادي "وقوع المحذور" وما هي الكيفية التي تناول بها تجنبها لنذر واقعة هي في واقع الامر ليست أكثر من مغامرة أمنية تهيمن عليها نزوعات التحالف اللفوفي، وبالتالي تفادي تأجيج نعرتها أو على الأقل إبقائها في حدود كمونها؟
لنستمع الى النص الأخير من الرسالة:

«[...] وقد عاينا ابن القايد وأمرناه بكف ابن اسماعيل ولإن كنت أعلم أنه لا ينتهي ولا يكفه، وسننهاه ولا نقصر، واعتذرنا لابن الطالب عن الخيل التي طلب فيما يسألها عنها، وقلنا له ان خيل المخزن مفرقة في قبائل الحوز، وموجهة في وجوه الخدمة، وأن زمران لف الصراغنة ولا خير لكم في قدومهم عليكم، اذ من الجائز أن يجروا لكم هزيمة ويرجعوا عليكم، ونحن لا نوجه لكم الا من تحقق نصحه لكم، الى غير ذلك مما يطول ذكره...»⁵⁹³

لا تخفي سطور هذه الفقرة تهيب المخزن من تداعيات أي حرب تندلع بين الفرق المتناحرة ولفوفها المتضامنة، بل حتى عدم يقينه من تحقيق انتصار لصالحه لذلك تأكد حزمه في منعها وابقاء القائدين المتنافسين ومن خلفهما لفوف الفرق المتحاربة على مسافة واحدة مع حرصه على ابقاء فعل التوازن قائما بين الجميع كشرط يمكن من استمرار التنافس والتنافس دون ان يصل الى مستوى من تحشيد اللفوف وظهورها كقوة منافسة للمخزن في المجال» والمخزن يأبى ذلك ولا يرضاه لمشاركة الغير له في الحكومة. «⁵⁹⁴

لقد استمر التنافس بين القائدين المذكورين واستمر معهما الصراع بين القبائل وفرقهم المالية لهما، وتواترت تقاريرهما الى المخزن المركزي بشأن تطور نزاعهما على امتداد رقعة الاقليم التادلي فكانت أقرب إلى الوشائيات وتبادل التهم واللقاء اللوم على بعضهما البعض بالتقصير في خدمة المخزن أكثر منها رسائل تروم الوقوف على قضايا أعمق وأهم. إلا ان الصراع المستحكم بينهما كان دائما يخفي وراءه نزوعات تحالفية بالسهل التادلي وتقاطبات لفوفية بالدير والجبيل .

⁵⁹³ و.م.ر.ح: نفس الرسالة .

⁵⁹⁴ المشرفي محمد بن محمد (م.س) ج2، ص129

وإذا كنا لم نعثر في رسائل كلا القائدين كما سبقت الإشارة، عما يفيد من دوافع تحالفات الفرق والقبائل في إطار انتظام اللوف بين جماعاتها، ولا أسباب الصراعات حول القضايا المحلية، إلا أننا نفهم ان تفاهم مظاهر الاستعداد بين الطرفين واستعداد كل واحد منهما لحشد لوفه ضد الآخر، إنما تحكمت فيها عوامل سياسية ناجمة عن ظرفية عامة مرتبطة بانهماك المخزن في التصدي لقضايا كبرى خارجية وداخلية، ما سمح بتقوية بنية الظاهرة القاعدية على هذا العهد، وبتوسيع نفوذ هذين الندين في استخلاص الجبايات وضمان الأمن الطريقي والتغطية الاستعلامية لتشمل كافة المجال التادلي انطلاقاً من حدوده الجنوبية والجنوبية الشرقية، الى قبائل الوسط لبني عمير وآيت الربع، إلى قبائل الدير بالشمال الشرقي، إلى حدود قبيلة ورديفة على تخوم الشاوية. وكان من الطبيعي أن تتشب بينهما خلافات وصدامات، مسنودان بقواعدهما القبلية "أحزاباً" ولفوفاً، وباتت تلك الجماعات والفرق كأنما تحركها الرغبة في محاربة رمزية المخزن الكامنة في شخص القائد المنافس، وعلى النقيض من ذلك فإن ممثلاً المخزن المحلي كأنما يحاربان التحالفات والتحزبات اللوفية الكامنة بالجماعات. وهكذا تنتقل هذه الصراعات كبقع الزيت من ناحية الى أخرى أينما حل وارتحل القائدان وهما يشغلان قطبان متعارضان على امتداد التراب التادلي.

محمد بن الطالب النتفي	احمد بن القايد عامل السراغنة
عبد الله بن اداس ⁵⁹⁵ : على آيت الربع احمد ولد زيدوح ⁵⁹⁶ : قسم من بني موسى الغرب ويصل نفوذه الى هرفالة	محمد بن اسماعيل الموسوي على الجانب الشرقي من بني موسى وقسم من بني عمير وتصل حركته الى آيت سري

ففي رسالة وجهها احمد بن القايد الى السلطان يشتكى فيها من سلوكات عب بن اداس وحليفه ولد زيدوح بشأن عرفلتهما لمهام حركته الجبائية جاء فيها «... فليكن في علم سيدنا اننا لازلنا ببلد تادلة عند بن اسماعيل مدة من نحو 20 يوماً...» [فلما عين عبوبن اداس ذلك اغتاض

⁵⁹⁵ هو عبد الله بن اداس سيصبح قائدا على العهد الحسني انضوت تحت حكمه كافة قبيلة ايت الربع الجيشية .
⁵⁹⁶ احمد ولد زيدوح كان في صراع دائم مع بن اسماعيل الموسوي . ورغم رسائل المخزن التي كانت تدعو ممثليه الى ايت زيدوح ما يستحقونه من التوفير (رسالة جوابية من القايد محمد بن الطالب نحتفظ بنسخة منها) صادرة عن مديرية الوثائق الملكية محفظة TH -47 الا انه سيتم اغتياله من طرف بعض التوار من بني عمير فباتت بعد هذه الاخيرة عرضة للقصاص من طرف محلة سيدي محمد اثناء عبوره الاقليم . وعلى العهد الحسني نصادف رسالة سلطانية الى القايد بن المدن يدعوه فيها الى ترحيل اولاد زيدوح مؤرخة في 14 جمادى الاولى 1301 جاء فيها : « ولما تواترت الشكايات بأولاد زيدوح وانهم لا يزدادون الا اغواء وفسادا اقتضى نظرنا الشريف العلي بالله توجيههم لذيك تغريبا لهم وابعادا » وفي رسالة اخرى الى قواد بني موسى كافة جاء فيها : « وبعد وافى كتابكم مشنكين بتمادي اولاد زيدوح على الخوض في القبيلة والوسوسة باغراء كبيرهم ... فقد امرنا بترحيلهم لبلاد السراغنة ابعادا لهم وتغريبا وقطعا لفسادهم البتة » م. و. م. 1.00.1 ص 74.

لما هومصر عليه، امر اخوانه ومن معه من فاسدي بني عمير وبني موسى [...] ولم تنقطع مكاتباته بينه وبين الفاسد ولد زيدوح وقلبه والعياذ بالله مصر على الضغن والحقد والحسد»⁵⁹⁷.

ويبدو أن الصراع بين القائدين أخذ ابعادا تتجاوز التنافس على النفوذ والتناكب على تحقيق طموحاتهما الشخصية بالتقرب من دوائر المخزن، الى صراع إثني تفسرهما مواقف كل جانب تجاه الجانب الآخر. ففي نفس هذا السياق تخبرنا رسالة وجهها محمد بن اسماعيل الموساوي الى المخزن المركزي يقول فيها: «..فاعلم سيدنا ان البربر آيت يسري وغيرهم من البرابر الفاسدين توجهوا نحوآيت الربع[...]...» وأما نحن سيدنا، فلا نفتري على الله كذبا إن قلت قلوبنا صافين من ناحية البرابر، أسلافنا أعداء مع أسلافهم منذ جاوروهم وكذا والله أعلم كل قبيلة من غيرنا»⁵⁹⁸

ولعل ما يمكن ان نلمسه من هذا النص هو ما كان يطغى على ذهنية وموقف خليفة بني موسى من نزعة التناصر والتحزب الاثني بإشارته لجموع قبائل الدير والجبل "بالبرابر" جملة، مع أن كل واحدة منها تتميز بأسمائها دون أن يخفي عداؤه لها. رغم يقينه بأن المخزن المركزي يقف على مسافة واحدة بين الجميع يفسره استدراكه للأمر في ختام رسالته بقوله: « [...] وأنت سيدنا لنا ولهم ولغيرنا تراقب الله في جميع خلقه وأبو الجميع»⁵⁹⁹

المطلب الرابع، محاولة في التحليل :

وحرى بنا القول، إن إدراج هذه النصوص رغم طولها إنما اقتضته ضرورة منهجية البحث بقصد التعرف على بعض تفاصيل من حياة المجتمع المحلي فيما اعترى مسيرته التاريخية من وقائع واحداث، وتقربنا في نفس الوقت من رصد ظاهرة اللف كبنية اجتماعية تضامنية تتحول الى مظهر احترابي سعى ممثلو المخزن المحليون الى توظيفه لغايات سياسية وطموحات شخصية طفحت الى السطح في ظرفية تاريخية متأزمة، وبدت الجماعات من جهتها وكأنها تأخذ المبادرة للذود عن نفسها وتصفى حساباتها مع المخزن المحلي.

لقد مكنتنا بالفعل من الخروج بخلاصات يتعين توضيحها استنادا على ما تبرزه من معطيات نجملها في مستويين.

- المستوى الاول :

⁵⁹⁷ م . و . م . ر . ح : محفظة 47- TH رسالة مستقلة غير مسجلة مؤرخة في 24 جمادى الاولى 1262
⁵⁹⁸ م . و . م . ر . ح : محفظة 47- TH رسالة مستقلة مؤرخة في 15 جمادى الاولى عام 1263 الموافق ل 13/ 05/ 1847
⁵⁹⁹ نفسها

ينبني خطاب الوثيقة على مرجعية تاريخية موضوعه مجتمع محلي تقوم بنيته الفوقية على اسس الحراية تعززها طموحات قايدوية تتلقى دعما من المركز. كما يفصح عن علاقات المخزن بقبائل الدير الجنوبي لتادلة واشكال تديره للازمات والخلافات بين القبائل في ظرفية حاسمة تنذر بارهاصات لتحولات تاريخية وان كانت تسير بخطوات مترنحة.

فاذا كنا لم نصادف من تفصيل لتلك الاحداث التاريخية والوقائع الاجتماعية في المصادر التقليدية لإخباريي المنتصف الثاني من القرن التاسع عشر لما لم تنله لديهم من اهتمام، بل كثيرا ما نلاحظ تنكب المثقفين الحضريين وانشغالهم عما يجري في البوادي النائية رغم إدراكهم ان الخير كله يأتي منها والشر كله يصدر عنها⁶⁰⁰. فان رسائل ممثلي المخزن تنتصب شاهدا على تطور الاحداث وتفصح ليس عن دينامية وتحرك الوحدات القبلية بالإقليم التادلي وما إليه من دير وجبل واشتغالها المستمر لشحذ طاقاتها وارتمائها في أتون صراعات وحروب لا تنتهي كما قد يعتقد في الظاهر، بقدر ما تسعفنا في الخروج بخلصات عن الواقع القبلي من منظور بنية اجتماعية طالها الانهاك والترهل، بسبب استنزاف قوتها المحاربة وفائضها الانتاجي وتحميلها اعباء الكلف المخزنية المرهقة من ناحية، وإقحام قواها البشرية من طرف القواد في دورات من العنف والتناحر ليس لها من نتيجة الا بما تحدثه من تهشيم لنظام اللفوف وتفتيت التحالفات القائمة على اشكال التضامن في بعده الافقي، وتحويل الفرق الى اطارات من النفير الحربي يساهم دون شك في توسيع فتق النسيج القبلي. لقد باتت لفوفها مجرد تحالفات تميل مواقفها حيث ما مالت مواقف ممثلوا المخزن المحلي.

- المستوى الثاني :

أن صياغة الخطاب المحلي يتم وفق تصور كل قائد وحاكم محلي، وهو بذلك انما يجهد نفسه لينال حظوة المخزن المركزي ويبذل كل ما في وسعه إظهار تجسيده الحضور المخزني بايالهته، إلا انها تتم بأدوات من صميم الفعل القبلي وبمنطق مشروعية العنف الذي يذهب الى حد حز الرؤوس وزج الناس في السجون. وعندما تقل حيلة القائد وتعوزه وسائله الذاتية يلقي بشكواه الى المخزن المركزي ويطلبه بشد عضده بمئات الفرسان والرماة للنيل من الفساد.

لقد بات واضحا من فحوى النصوص المدرجة أعلاه وأخرى لم ندرجها تسير مضامينها في نفس الاتجاه. علما ان المخزن المركزي لم يكن غافلا عن تحركات ممثليه، بل كان يدرك كل

⁶⁰⁰ تعتبر البوادي مصدرا مهما من مصادر مداخل بيت المال من الجبايات والضرائب . بينما كانت هذه القبائل نفسها تهدد في تمردياتها حتى امن العواصم السلطانية خاصة فاس ومراكش .

التفاصيل والجزئيات التي تمور ليس فقط بالإقليم التادلي، بل في عموم البلاد، ما يؤشر أن الوقائع المتحدث عنها تمثل عينة لنموذج ملموس لواقع تاريخي متشابه شهده المغرب خلال المنتصف الثاني من القرن التاسع عشر. فلا هي بالطائرة ولا بالعابرة او المعزولة، بل كانت تعكس تجليات بنية مجتمعية تقوم على العصبية وعقد التحالفات ستعرف طريقها الى التلاشي.

المبحث الرابع، ظاهرة اللف بالجبل التادلي من منظور وصفي أجنبي :

الحقيقة ان ظاهرة اللف من المنظور السوسولوجي أصبحت اليوم في حكم الماضي كما سبقت الاشارة إلى ذلك. ولا يسعنا الحديث عنها الا كتجليات تاريخية، وفيما خطه بعض الأجانب ممن دونوا مشاهداتهم حول حياة السكان في وسطهم القبلي، صادفهم في رحلاتهم ومن ضمنهم الماركيز دوسيكونزاك⁶⁰¹.

اعتمد هذا الرحالة فيما سجله من ملاحظات حول انتظام جماعات القبائل المستوطنة بالمنطقة الفاصلة بين الكتلتين الجبليتين للأطلس المتوسط والاطلس الاوسط الكبير وترسيم اسماء فخذاتها وفرقاتها ضمن قوائم وجداول، على شهادات شخصيتين أصلاء من ابناء المنطقة، ولهما نفوذ روحي واعتبار معنوي لدى المجتمع المحلي لتلك القبائل. وهما سيدي احساين احنصال، لديه موقف متوازن تجاه المخزن. وعلي امهاوش وينتمي لاسرة عرفت لدى الاخباريين تحت اسم الدجاجة نسبة الى مواقفهم من المخزن كأدعياء وصفه الرحالة بالشخص الأكثر ثراء بالأطلس⁶⁰².

لقد جاءت شهادة الرحلين بشأن ظاهرة اللف كواقع اجتماعي لدى القبائل الاطلسية منها آيت سخمان وآيت عبيدي وآيت إيشقيرن وآيت مساض وآيت ويرا وغيرها على قدر من المصادقية منحنتنا تصورا عاما عن الاطارات السياسية التي تنتظم فيها المجموعات.

وإذ اقتصرنا ملاحظات الرحالة على مشاهد من حياة المجتمع القبلي دون ان ينفذ بنا الى العمق لتفسير ما تقوم عليه البنيات القبلية، وهذا امر طبيعي نتلمس عذره للرحالة كون الأدب الرحلي غاياته الوصف والاستكشاف. بينما حاول الارتقاء بأوصافه ليلاصم مظاهر عيش السكان وأنماط حياتهم في الكسب والانتاج وعلاقتهم بالمكان. ورصد دور الجماعة والأغار في تدبير شؤون الفخذات. كما لامست تحرياته السريعة بعض عاداتهم وتقاليدهم ومعتقداتهم وتدينهم وأماكن

⁶⁰¹ De Segonzac : Au cœur de l'Atlas. mission du Maroc Emil Arose paris 1910

⁶⁰² De Segonzac :OP-CIT P 498

عباداتهم، وعلاقات السكان بالجوار وحيويتهم في الدود عن حدودهم ومواقفهم من المخزن⁶⁰³. فضلا عما سجله من أهبة رجال القبائل ويقتظتهم، وحرصهم على حمل السلاح وارتفاع سعر الخفراء الى غير ذلك من الاوصاف.

وأما ما دونه حول التحالفات اللفية فلم تكن في اعتقادنا الا مظهرا خارجيا يفسر الانشطارات والانقسامات التي ميزت تلك الفخذات وبلوغها في بعض الاحيان الى مستويات من العداء والتناحر. رغم كون تلك الفرق المتحاربة تنتمي من حيث النسب الى جد مشترك كما هو عليه حال ايت داود او علي وآيت سعيد او علي. في وقت نعثر على فخذات أخرى وقد غيرت من تحالفاتها قياسا مع ما كانت عليه في السابق حسب ما جاء في المراسلات المخزنية زمانئذ من قبيل انحياز تحالف ايت اعتاب السهل الى جانب لف ايت مصاد وتحالف هنتيفة مع ايت مصاد الجبل وانقسام هذه الاخيرة الى لفين يضم الاول آيت امحد وآيت اصحا رغم ان الفخدة الاخيرة كانت موالية لقبيلتي هنتيفة وآيت بوزيد. أما اللف الثاني فيضم فخذتي ايت اتفركن وايت واكوديد الجبليتين⁶⁰⁴ في حين انشطر عظم ايت تاكلا عن قبيلة هنتيفة وأصبح الى جانب ايت مصاد المنافسين التقليديين لهنتيفة.

وإذا لم يكن بوسعنا تحديد العناصر المتحركة في دينامية حركية اللفوف وفي عقد تحالفات بين هذا الطرف وذاك، الا ان العوامل الجغرافية والبيئية من جهة والتدافعات السياسية من جهة اخرى تبقى من بين التأثيرات الحاسمة في بلورة نزوعات قبائل الجبل الطرفية في الحفاظ على استقلالها ومنافحتها لأي اختراق لسلطة المخزن لمجالها القصي، مع احتفاظ فخذاتها بهوياتها واسمائها في تدبير حياتها العامة في اطار انتظامها المحلي بواسطة الجماعة وزعيمها الامغار دون ان يمنعها انتسابها القبلي الى عقد تحالف لفي مع فخذ مجاور ينتسب الى قبيلة أخرى.

وباستثناء ايت سعيد او علي المتاخمة لايت اسري التي تم دمجها بقوة السلاح من طرف القايد موحى وسعيد، فان جل قبائل ايت سخمان الطرفية ظلت شبه غائبة عن تدخل المخزن ، تدير شؤونها بنفسها رغم محاولاته المخزن الخض من شوكة لفوفها، وبقيت بنياتها القبلية التقليدية تنفادي كل تدخل مخزني.

لقد تحولت بفعل تراجع المخزن المباغت، قبائل الجنوب الشرقي لتادلا نهاية العشرية الاخيرة من القرن التاسع عشر من قبائل طاعة الى قبائل سبية، ومكنت تجارب لفوف فرقها

⁶⁰³ De Segonzac :OP-CIT pp65-67

⁶⁰⁴ De Segonzac :OP-CIT p502

وتمرسها في خوض المعارك والحروب تحت قيادات مخزنية بداية المنتصف الاول من نفس القرن من اعادة انتاج تجربة القبيلة المنافحة عن استقلاليتها.

المبحث الخامس، ظاهرة اللف بالمنطقة السهلية :

التحول المشار اليه اعلاه هو بالضبط ما نصادفه في تجربة قبائل الشمال التادلي حيث عمت أسباب التمرد، وطفقت وحداتها تتنادى لتحالفات لفية مع قبائل جنوب الشاوية لمحاصرة غريمتها الاعشاش بعد ان انحلت مظاهر الحضور المخزني في ظرف تاريخي دقيق. ولم يعد من منطوق سياسي اوتدبيري يوجه الحياة العامة الا منطوق العنف. ورغم المخاطر الجمة التي غدت محدقة بالواقع الاجتماعي والسياسي للمجتمع واستنزاف قواه الاقتصادية، اذ بلغت حد النفاد، فان المخزن الجديد نهاية القرن التاسع عشر لم يتمكن من تجاوز انماطه التقليدية في تدبير سياسته الجبائية والسيطرة على مكامن الرفض لحمل السكان على التجاوب مع مطالبه لسداد التكاليف المخزنية*، فلم يكن لديه من خيار آخر غير الدعوة لتحشيد قبائل ضد أخرى حتى اذا أنهكت قواها تجرد لها محلة كبرى لاستصفاء مقدراتها.

إنها دورة نمطية في التدبير لم تكد تغادر اساليبها التقليدية لكنها في نفس الوقت كانت تترك اوشاما من التنافر والاحقاد على الجسم القبلي لا تلبث ان تتضح صورها وتنعكس اثارها على الواقع الاجتماعي المحلي. اذ بمجرد مغادرة المحلة العزيزية لموقعها بصخرة الدجاجة تستيقظ من جديد نعرات الصراع وتنتشر حالات الانتقام والثأر.

وحتى نعطي لهذا التعليل بعده الإجرائي، فقد توخينا إدراج نصين لرسالتين صادرتين عن المخزن المركزي تتأرجح بينهما دوافع التضامن والتحزبات اللفوفية بالشمال التادلي بين النتيجة والسبب. إلا ان ما يثير الاستغراب هو ظهور اللف في مجال قبلي غير جبلي، يتحدث سكانه اللغة العربية⁶⁰⁵، جاء في النص الاول منهما الآتي :

« خدامنا الارضين قواد قبيلة ورديفة كافة وبني منصور وكبرائهم واعيانهم، وبعد، فغير خاف انكم عندنا من جملة جيوشنا المنصورة لما عهد منكم من صدق المحبة تأسيا بطريقة اسلافكم المأثورة ولا يخفاكم ما صدر من قبيلة الاعشاش من الزيف والفساد والعتووالعناد وقد اقتضى نظرنا العالي بالله تخييمكم عليهم بقصد التضييق عليهم والأخذ بمخنفهم حتى يرجعوا للجادة ويؤدوا ما ترتب بدمتهم من الحقوق، وعليه فنأمركم بالنهوض حلة ومحلة والنزول عليهم صحبة

* سيحاول المخزن في وقت لاحق تدارك هذه المعضلة باستحداث نظام ترتيب جديد ولو انه لقي نفس مصير الاول .
⁶⁰⁵ الناصري خالد : (م.س) ج 4 ص 67

ابن عمنا مولاي بوبكر بن الشريف وخديمنا القايد المهدي الجراري. التضييق عليهم من كل جانب حتى نأمركم بما يكون عليه العمل بحول الله فلتقوموا على ساق الجد ولتكونوا عند ما يراد منكم فيه اصلحكم الله ورضي عنكم وبارك في زروعكم وضروعكم والسلام متم ربيع عام 1314 وبمثله لقواد ابن خيران وقواد زعير»⁶⁰⁶.

من دون شك ان كافة العمال والاعيان وزعماء الحرب ونوايب قبائل بني خيران وزعير وغيرها من قبائل الجوار سيهبون لتنفيذ الامر السلطاني ويقومون بمحاصرة قبيلة الاعشاش ويطوقونها من كل جانب. ولنا ان نتصور مقدار وتعدد المناوشات التي ستحصل فيما بين افراد القبيلة المستهدفة والمحاصرين المدعومين بقوة مخزنية في انتظار قدوم المحلة السلطانية خريف السنة الموالية لتنفيذ الوعد السلطاني في حق القبيلة المتمردة⁶⁰⁷.

«[...]قبيلة الاعشاش الذين ارتكب كبيرهم وصغيرهم مثن الطغيان وطاش سهام النظر في أمرهم ووجهنا سرايا من جيوشنا المنصورة اليهم فأحدقت بهم من كل ناحية احداق الهالة بالقمر فهدموا ديارهم وحرقوا مداشرهم وتركوها حصيرا كان تغني بالأمس»⁶⁰⁸ ورغم المبالغات والغلو الذي ابداه الطبيب الفرنسي حول وقائع ما حل بالأعشاش⁶⁰⁹ في وصفه لأعمال السلب والنهب التي حاقت بالقبيلة، واختلاط الامر عليه في وجهة المحلة الا ان تسجيله لعدد من الوقائع جاءت في عمومها مطابقة للخطاب المخزني⁶¹⁰.

وهدفنا من إدراج النص أعلاه ليس إثارة واقعة الأعشاش في حد ذاتها، فهي لا تقع ضمن المجال التبادلي رغم مساهمة قبائله الشمالية في الحملة العسكرية الى جانب محلة السلطان بقدر ما استلقت انتباهنا عن ما يترتب عن هشاشة الحضور المخزني الذي يعقب رحيل المحلة ومعاودة اندلاع الصراع وظهور اشكال التضامن فيما بين القبائل المجاورة وابقاظهم لنعرات العداوات القبلية تذكرنا بعض ملامحها بما عرفته المنطقة فترة وفاة السلطان المولى اسماعيل. فامتزج عنصر الطاعة بالسبية، وامتدت حالات التطاحن الى تنادي القبائل لإحياء أعراف التحالفات، وخوف لفوفها الى نجدة بعضها البعض.

⁶⁰⁶ خ.م.ر : كناش 241 ص 60 .

⁶⁰⁷ واسجرير فريديريك : مرجع سابق ، ص

⁶⁰⁸ م . و . م . ح . ر 47 th رسالة مستقلة من السلطان عبد العزيز الى القايد عبد الله بن سعيد السلاوي مسجلة تحت رقم 28682

بتاريخ 15 جمادى الاولى 1215

⁶⁰⁹ لمزيد من التفصيل طالع كتاب التنبيه العرب عما عليه الان حال المغرب السفر الاول من تأليف ابن اليماتي الطيب بوعشرين ص

54 وما إليها

⁶¹⁰ واسجرير فريديريك نفس المرجع ص ص 53-54-55

اتضحت تجليات ذلك مما ورد بنص الرسالة السلطانية الثانية: « خدامنا الارضين قبيلة ورديفة⁶¹¹ كافة وفقكم الله وبعد فقد بلغ لشريف علمنا ما وقع بينكم وبين الاعشاش من المضاربة وسفك الدماء حتى ادى الحال بكم الى طلب اللفوف من الشاوية كأنكم فوضى، اوليس عليكم وعليهم أحكام جارية وهذا مما يوجب عليكم المعاقبة؟. فعلى تقدير ان لوكان الظلم من الاعشاش كان الواجب عليكم رفع الشكاية بهم لحضرتنا العالية بالله، وأما مضاربتكم معهم فإنما فيها إحياء عرف الفتنة والفساد، ذلك لا يعد فعالة بخير. وعليه فنأمركم ان تكفوا عن ذلك وتجلسوا عند حدكم وتمنعوا عامتكم عن الطيش والظلم، والمصالحة عن جواركم وكلفتكم عن الصلاح والطاعة والامتثال. وكان بينكم وبينهم حقوق، ها نحن وجهنا حامله المرابط الخير السيد محمد بن سيدي بن داود الشرقاوي للوقوف عليها وتحقيقها وإيقاع الفصل بينكم، مع البحث عن الفريق الظالم وسبب الواقع في القضية. وإن بلغنا عنكم بعد هذا طيش أو تحريف فساد فلا تلمن إلا أنفسكم والله يلهمكم رشدكم»⁶¹²

يحمل هنا خطاب الرسالة أشد عبارات الوعد والوعيد، والتهديد لقبيلة ورديفة وسكانها. ليس لأنهم تحركوا بهدف الإيقاع بالاعشاش، بقدر إقدامها على الاستعانة بلفوف قبائل الشاوية ورغبتهم في توسيع رقعة الصراع. ما يؤكد أن المخزن المركزي كان له موقف صارم من ظاهرة التحالفات القبليّة، كونها مدعاة "إحياء عرف الفتنة والفساد". وما من شك ان السلطان لم يكن يحكم بواسطة عماله وجنده وجباته بل كان يحكم ايضا "بواسطة الرسالة والظهير"⁶¹³. اذ نلاحظ ان المرابط وهو يحمل رسالة من أجل حسم مادة النزاع بين القبيلتين، كانت تمثل دعما رسميا له فضلا عن قيمته الاعتبارية لدى القبائل.

لقد كان للمتغيرات التاريخية المتسارعة التي اعقبت وفاة السلطان مولى الحسن، وتراجع عدد تجريدات المحلات السلطانية، وطول أمد غيابها عن المجال التادلي بما يزيد عن أربعة أو خمسة أعوام، وتواتر حركات التمرد والفورات القبليّة في جهات مختلفة أخطرها ما حدث بالشمال الشرقي للبلاد بزعمامة الفاتان الزرهوني، ولم يعد بمقدور الرسالة المخزنية وحدها أن تحسم في قضايا بنيوية ولا بإيفاد الحركات والمحلات وقد بدت قواها او هن من ان تستعيد المبادرة للحد من اسباب الفوضى. لكن بالرغم من ذلك حافظ المخزن على ثبات ملحوظ في تدبير الأحداث المستجدة

⁶¹¹ م . و . م . ح . ر : محفظة th 47 رسالة مستقلة مسجلة تحت رقم 21520 من السلطان عبد العزيز بتاريخ 25 حجة عام 1320

⁶¹² نلاحظ كثيرا في بعض الرسائل الصادرة عن المخزن المركزي ورود لفظة والله يلهمكم رشدكم، في إشارة تعبيرية عن عدم رضاه بصيغة تحذيرية

⁶¹³ المودن عبد الرحمان: (مرس) ص 243

وان كانت غير مفارقة لواقع تقليدي كان عليه ان يباشر تدبيرها بالوسائل التقليدية أيضا. وهذا ما دعاه الى الاستعانة بالمرابط للتوسط في حل النزاع بين الاطراف المتنازعة واللجوء الى التحكيم والتناصف والصلح بأقل تكلفة.

استنتاجات حول ظاهرة اللف في العلاقة مع المخزن :

انه من المفيد الخروج باستنتاجات حول ظاهرة اللف والعلاقة مع المخزن المحلي وسبل تدبيره للخلافات بين الفرقاء من القبائل نجملها بالاتي:

1. أن مفهوم اللف في الخطاب المخزني لم يكن غير تعبير عن تحالفات وتضامن بين الفرق والقبائل في صيغتهما المحاربة عمل قدر الامكان على تبديد مضمونها وتقادي انتشارها بين عموم قبائل الدير والجبل، فان لم تسعفه الوسائل لتحقيق ذلك فان ممثليه كان بمقدورهم استنزاف قوتها ويجعلها في حالة استنفار دائم يشغلها عن الانصراف الى تدبير شؤونها المحلية والاعتناء بمقدراتها الانتاجية.

2. أن اللف من منظور قبلي هو نظام اجتماعي عريق يدخل ضمن اطار الإنتظامات القبلية. تعزز وظيفته من مكانة القبيلة ويساهم في استقرار المجموعات السكانية ويدعم العلاقات السلمية فيما بين الفرق المتقابلة على قاعدة تحقيق التوازنات وتكافؤ القوى، ويحول دون وقوع اختلالات او تجاوزات لقبائل الجوار من شأنها ان تهدد الاستقرار القبلي ونظام العيش المشترك، بما ينطوي عليه من قوانين والتزامات وواجبات تذهب الى حد عقد عادة التآخي او ما يسمى ب"تاضا" فيما بين الوحدات القبلية. وما كان لبنيته المحاربة ان تطفو على السطح بالمجالين التادليين الدير والقبلي لولا ما اعترى تلك التوازنات من تشويش وتأليب فرق على أخرى سعى القواد المحليون على إثارتها وإيقاظها من كمونها.

3. أن تدبير المخزن المركزي للنزاعات والخلافات بين ممثليه المحليين كان في المجمل يروم الحفاظ على التوازنات القبلية، وان يجعل من حضوره بالمجال عاملا حاسما في توجيه الاحداث والتحكم في القوى المتصارعة دون ان يحسم في نتيجة التغلب لأي طرف.

واكتفاؤنا بهذه الخلاصات، لتعليل المواقف المتباينة لكل الاطراف المتحركة داخل حقل الحدث التاريخي بقبائل الدير الجنوبي والجنوب الشرقي للاقليم التادلي، كما هي مستخرجة من الوثيقة المخزنية، إنما تفصح في واقع الامر، عن عمق الازمة التي بات يتخبط فيها المجتمع المحلي كما باقي مناطق المغرب، جراء الضغوط الاجنبية وتأثيرها على المقاربات التدبيرية للمخزن بالبلاد، وفي نفس الوقت يعكس خطابها موقف المخزن المركزي في تدبيره للخلافات

القبيلية كان فيها اللف احد تمظهراتها، لايعني ذلك ان الظاهرة اقتصر اعتمادها فقط على القبائل المشار إليها بالوثيقة دون غيرها من مناطق المجال التادلي. اذ يبقى السؤال مطروحا: هل يمكن الحديث عن تحالفات بين القبائل وفرقها من طبيعة لفوفية بقبائل أخرى مستوطنة بالمجال ؟

خلاصة الفصل

إثارتنا لموضوع اللفوف بقبائل الاقليم التادلي وما اليه من قبائل الدير والجبل، ومناقشة الظاهرة في ارتباطها مع ظرفية تاريخية اتسمت بصراعات قبلية وتجاذبات بين ممثلي المخزن واحتدام المنافسة بينهم، مع ادراج وتحليل النصوص الوثائقية المسامنة للأحداث والوقائع، لم تكن الغاية منه طرح الظاهرة من منظورها السوسيوولوجي ولا هدفه رصد موقعها ضمن نسقية الإنتظامات الاجتماعية لدى قبائل المجال المدروس. بقدر ما توخينا اثارته من منظور الخطاب المخزني من خلال ما تلزمنا به الاشكالية من ضرورة التقيد بالمضمون الوثائقي. الا أنه في التحليل وان لم نذهب به الى المدى الذي يمنحه كافة الإحاطات المعرفية بالشكل المرضي فإنه مكننا في المجمل بالخروج بالاستنتاجات التالية:

- خلافا لما خلص إليه روبري مونطاني في إثارته لأشكال التضامانات اللفية بالجنوب المغربي، فإن فعالية اللف بالاقليم التادلي لم تتجاوز نطاقات محدودة. كما لم تظهر من جراء الظاهرة زعامات كبرى ولا أمغارات أقوياء كما هو حال الجنوب حيث انتهز هؤلاء فرصة غياب المخزن عن مناطقهم ردحا من الزمن وأسسوا لأنفسهم قيادات مستقلة سمحت لهم لاحقا بإمكانية الانضواء تحت لواء المخزن. بينما لم تظهر من أمغارات المنطقة التادلية أية طموحات سياسية ولا قدرات سلطوية تمنحهم التفوق على مجموعاتهم القبلية و تمكنهم من جمع ثروات و التحكم في رقاب الناس وهذا بالضبط ما كان يدفع بالانظمة المؤسسية لقبائل الجبل التادلي الى الحيلولة دون استقواء زعاماتها وانفرادهم بالسلطة ما عدى من يُدعم من طرف المركز المخزني، زيادة على ما كان يفرضه نموذج قواد الجنوب التادلي من استنزاف جهد باقي الفخذات والفرق. إذ كان لنهوض ممثلي المخزن بالدير التادلي بهذه المهمة وتمكينهم من السلاح والجند ما مكن من الابقاء على اللفوف ضمن إطارات جغرافية ضيقة في حدود بيئة اجتماعية يقوم نمط إنتاجها على اقتصاد الكفاف وإنتاج القلة وبقيت في ضوء النموذج التادلي دون أي أفق سياسي أو تنافسي بالمجال. وقد أكد على ذلك الباحث إرنست كيلنير عند دراسته لقبائل الاطلس المتوسط سنوات الستينيات

من القرن العشرين حيث أوضح ان المظهر الانقسامى لدى المجتمع المحلى لقبائل الجبل كانت تحول دون ظهور تفاوتات طبقية في المجتمع⁶¹⁴.

- أن المخزن المركزي رغم موقفه الراض لأشكال التضامانات اللفية وتحزبات الفرق والمشixات وانحياشها لبعضها البعض في حالة اندلاع الصراعات، لم تكن غايته من ذلك محاربتها أو منع عرفها ما دامت الواقعة منها داخل قبائل الطاعة تؤدي واجباتها للدولة ولا تقطع السبل أو تهدد أمن ايلات الجوار، بل يمكن القول إن ظهور اللفوف في الوثائق المخزنية بمظهر المتحالف مع هذا القائد ضد ذاك أو بصيغة مستقلة بالشمال، ولا حتى فيما أورده الماركيز الرحالة من تصنيفات لفوفية ذات علاقات و ارتباطات نسقية بين الفخذات وفرق قبائل الاطلس، فإنها تبقى في جوهرها حركة اجتماعية تعبر عن دينامية العرف في النظام القبلي ومستويات استجابته لأداء وظيفته وتفاعله مع حيوية وحاجيات الجماعات الى أشكال التضامن والتكافل في بعده الافقي. بينما تنشط اللفوفية عادة بملحها الحربي وتزداد حدتها واستنفار بنيتها المحاربة بمناطق الجبل الطرفية كلما أناخت جيوش السلطان بكلكها على مجالاتهم، وهو ما حصل خلال الحركة السلطانية لايت سخمان سنة 1307 هجرية . بينما تتراجع وتمسي في حكم الكمون كلما خف الحضور المخزني وغابت حركاته وتباعدت شروط التحكم في مجالهم، ومن ثمة فان وظيفتها تظل مقتصرة على حفظ التوازنات المحلية وتبقى لزعاماتها مرجعية حل النزاعات بالوسائل التقليدية التي تطمئن لها الصيغة القبلية.

خاتمة:

تطرقنا في الفصلين الاولين لمرجعين مهمين في الحياة الاجتماعية والثقافية للمجتمع المغربي وهما الشفاعة والفصال. فالاولى ذات طابع ديني وشرعي اعتمدها المخزن المركزي كخطوة تسمح بإشاعة حالة من الانفراج وحلحلة بعض الازمات المترتبة عن ضغوطات وإكراهات تحملتها القبائل تراوحت مفاعيلها بين السبب والنتيجة، فكان لا بد من معالجتها وتديبرها وفق منطق العفو والصفح. والثاني ذو صيغة عرفية يتواضع عليه الناس ولا يمانع المخزن بالأخذ به ويدعو اليه كآلية لتديبر الخلافات، ما دامت مقتضياته لا تتنافى مع الشرع بقدر ما يساهم في التخفيف من التوتر الاجتماعي وفق منطق التسويات التي ترضي المتنازعين.

⁶¹⁴ Genler Ernest : Les Saints de l'Atlas , traduction Paul coatalen, Edition Bouchene 2003
PP19,20,21,22,23..

أما الفصل الثالث، فقد رمنا من خلاله الخروج بنمذجة لظاهرة اللفوفية بالإقليم التادلي، ومدى تميزها واختلافها كظاهرة تضامن قبلية عما هي عليه بالجنوب المغربي حسب ما وردت في خلاصات الباحثين الأجانب. فكثافة الحضور المخزني بالإقليم التادلي، كونه مع مغيرا وممرا حيويا دائم الحركة للمحلات السلطانية والحركات المخزنية، فضلا عن حضور جهاز تمثيلي محلي يشغله قواد أقوى بالدير والسهل كان يحول دون ظهور زعامات قبلية بإمكانها ان تقوي من الظاهرة اللفية. وبالتالي فإن المخزن كان دائما يتحرز من ظهورها وبروزها في صيغتها المحاربة. لكن بالرغم من ذلك فقد اتضح ان الظاهرة تبقى كامنة ما لم يأجج من بروزها تنافس قواد المخزن أنفسهم، بل يمكن القول ان تأليب المخزن المركزي لقبيلة ضد أخرى كما هو حال دعوته لورديغة لمحاصرة الاعشاش كان يخلف او شاما من التنافر بينها ويدعوها للتنادي لأحلاف ذات نفس احترابي حال مغادرة الحركة للمجال. يقع ذلك في حالة حدوث ما يعتري المخزن من وهن أحيانا، لكن هل سينسحب نفس الامر بشأن الخيارات والصيغ التدبيرية التي انتهجها الحسن الاول في الاقليم التادلي وهو ينتقل طاعنا بمحلته عبر المجال ؟ هذا ما سنتعرف عليه بعد أن نفتح الباب الموالي.

الباب الخامس

المحلة الحسنية بتادلا في حركتها العاشرة وتدبيرها لقضايا محلية بالإقليم

الفصل الاول، المحلة السلطانية بالاقليم التادلي ، تجسيد للفعل الحضوري لسلطة الدولة.

الفصل الثاني، منهجية المحلة في تنفيذ خطاظة برنامج عملها التدييري بالمجال

الفصل الاول، المحلة السلطانية بالاقليم التادلي، تجسيد للفعل الحضوري لسلطة الدولة

- المبحث الاول، الحركة السلطانية بين الكتابات المغربية وملاحظات الاجانب .
- المبحث الثاني ، مبررات الدراسة و مصادرها .
- المبحث الثالث، رمزية حضور المحلة السلطانية كمركز لسلطة الدولة .
- المبحث الرابع، المحلة السلطانية العاشرة على مشارف تادلا .

الفصل الأول

المحلة السلطانية بالإقليم، تجسيد للفعل الحضوري لسلطة الدولة:

المبحث الأول، الحركة السلطانية⁶¹⁵ بين الكتابات المغربية وملاحظات الاجانب:

يفيض لفظ المحلة السلطانية في متون المصادر التاريخية التقليدية⁶¹⁶، بكل معاني المهابة والفاخرة في وصفها للموكب السلطاني وهو يتنقل عبر مجالات البلاد وربوعها، مجلا برموز الفاخرة الملوكية، حافلا ومحاطا في مسير ركبه المتهادي بكل أركان الدولة. من صدر أعظم ووزراء وكبار قواد العسكر، وجيوش القبائل الحوزية والغربية، ومشاورية وأرباب الحناطي والدواوين ورؤساء التنظيمات العسكرية طبجية ومهندسين، إلى جانب شرفاء ومرابطين، وقضاة، وفقهاء، وأدباء مقربون، ومؤقتون يحددون أوقات الصلوات، وطلبة يتلون القرآن الكريم ويختمون سلكاته عدة مرات طيلة مدة ظعن المحلة، فضلا عن الأعيان ووجهاء الدولة. هذا ما دأبت عليه الكتابات المصدرية التقليدية. فكيف كان وصف وموقف الاجانب من المحلات؟

نعثر في أوصاف بعض الرحالة وكتابات الأجانب حول المحلات السلطانية على تعبيرات عاطفية محقونة بمشاعر الثقافة الأوروبية نحو عالم الشرق وغرائبيته، لكنها كانت تفضي في الغالب الى مجانية الحقيقة التاريخية. فقد امتزجت مشاهداتهم تلك بتمثلاتهم فظهرت الحركات السلطانية وكأنها حملة عنف واجتياح، تمد عند تحركها أذرعا الأخطبوطية في كل اتجاه. هدفها الاستيلاء على معاش الناس والتكيل بالمتعاصين، وهم يساقون سجناء حفاة عراة، مشدودين لبعضهم البعض بسلاسل من حديد⁶¹⁷. وهكذا اعتبر شارل دوفوكو المحلة السلطانية، جيشا يقوده السلطان بغرض فرض ضرائب حرب على القبائل واخضاعها بالقوة، مسجلا أنها مجرد عملية مالية⁶¹⁸.

اما الصحفي الانجليزي والتر هاريس الذي حل بالمغرب فيما بعد، فلم يخرج بدوره عن هذا التصور. ففي كتابه "المغرب الذي كان"، تطالعنا منذ البداية حكايته عن المحلة السلطانية بقوله: "

⁶¹⁵ لا نرى من اختلاف في منطوق اللفظ بين الحركة السلطانية و المحلة السلطانية ما دام المدلول هو الظعن و التنقل السلطاني عبر الجهات و الاقاليم

⁶¹⁶ جل المصادر التقليدية منذ العهد السعودي إلى نهاية القرن التاسع عشر ومستهل القرن العشرين تناولت موضوع المحلات السلطانية كون حركتها و رمزيتها ارتبطت بالتاريخ السلطاني ، من جملتها مناهل الصفا للفشتالي، والمثاني للقادري والدولة السعيدة للرباطي والروضة السليمانية للزياني والجيش العرمم للكنسوسي، والبستان الجامع للسباعي والحلل البهية للمشرقي، والإتحاف لابن زيان وغيرها.

⁶¹⁷ وايسجرير فردريك: (مر.س)، ص: 53 و 54.

⁶¹⁸ دوفو كو شارل : مصدر سابق ص 86

[...] ما إن تحط المحلة الرحال بمنطقة ما، حتى تصير أشبه بالجراد الصحراوي، فلا تترك فيها أثرا لعبور كائن إنساني. ولا يتم الاكتفاء بسحب المؤن من الناس بمسوخ قانوني، بل يتعدى الأمر ذلك بحصول الوزراء والمحيط السلطاني على الهدايا والأموال، بينما يسطو كل جندي في المخيم على ممتلكات الرعايا لحسابه الخاص⁶¹⁹.

وعلى النقيض من هؤلاء نجد القبطان الذي رافق السلطان في عدد من الحركات، قد تحرى بعضا من الموضوعية في وصف تحركها وانتشارها بالمجال. صحيح أنه لم يغفل استعمال جند المحلة لجانب من القوة العسكرية خلال بعض أطوار رحلاتها في التحصيل الجبائي، إلا أن عنفهم لم يكن يذهب بهم إلى حد إنزال الخراب بالناس. مؤكدا في هذا السياق وحسب ملاحظاته ان مناوشات جند المحلة مع بعض الفرق القبلية لا تسفر في العادة الا على نزر قليل من القتلى، ما جعله يتساءل هل هي فعلا جولات معارك أم تسلية محاربين. فقد لاحظ ان الفرق المتحاربة تندفع لإخافة بعضها البعض بالأسلحة النارية دون ان يبلغوا مستويات من الرغبة في القتل والتنكيل بخصومهم⁶²⁰.

وبصرف النظر عما نبه إليه بعض المؤرخين المغاربة من كون المحلات السلطانية يحق اعتبارها مؤشرا على نوع من الضعف البنيوي⁶²¹. وإذا كان هذا التوصيف له ما يبرره من زاوية التقييم الشامل للوضع العام الذي سار إليه حال المغرب نهاية القرن التاسع عشر، وقد تكالبت عليه قوى أجنبية أفلحت في إنهاكه اقتصاديا واجتماعيا، الا انه بالرغم من ذلك فإن السلطان الحسن الأول طفق يجوب الجهات والاقاليم بمحلاته لإعادة ترميم التصدعات الاجتماعية والقبلية المترتبة عن الاثار الوخيمة التي ألحقتها تلك القوى بالبلاد، و محاولته التخفيف من آثار ضغوطها على الاقل بما يدعم صمود المخزن اطول مدة ممكنة و عمله على استعادة هيبة السلطان من خلال حضور مباشر للمخزن المركزي، لحمل السكان على الانضباط الامني والوفاء بالتزاماتهم تجاه بلدهم خاصة في جانبها الضريبي .

وسنحاول في هذا الفصل التطرق إلى جوانب من تدبير المجال التادلي من خلال نموذج حضور محلة سلطانية بالإقليم، وتعاطيها مع قضايا المجتمع المحلي وتتبع مراحلها منذ حلولها بتادلا إلى حين مغادرتها.

⁶¹⁹ والتر هاريس : المغرب الذي كان، ص 3 .

⁶²⁰ J. Erckmann. OP. cit pp275.

⁶²¹ العروي عبد الله (مر.س) ص 168.

لقد وقع اختيارنا على رصد أطوار المحلة السلطانية الحسنية في رحلتها العاشرة تم تجريدها انطلاقا من مدينة مراكش بتاريخ منتصف رجب من سنة 1300 هـ الموافق لشهر مايو 1883 م. وتجدر الإشارة في هذا الصدد ان نظام السياسة التدبيرية لشؤون المغرب على العهد العلوي تميزت بحالة فريدة. ويتعلق الامر بوجود ثلاثة عواصم بالمملكة الشريفة، وكان يتعين على السلاطين خاصة منهم المولى سليمان وعبد الرحمن بن هشام والحسن الاول ان يتنقلوا بشكل مستمر ودائم بين هذه العواصم الثلاث فاس ومكناس ثم مراكش. وعند السفر يتم استخلاف خليفة جد مقرب من السلطان لتدبير شؤون العاصمة مؤقتا الى حين عودته. هذا الواقع التدبيري وإن كان له ما يبرره من أسباب أمنية وسياسية ورمزية أيضا، فانه لا محالة يعكس ما كان يطبع المجتمع المغربي من خصوصيات تاريخية وجهوية، لم يتمكن أغلب الدارسين الاجانب من استحضارها ولا تبين بنياتها بالشكل الامثل.

المبحث الثاني، مبررات الدراسة ومصادرها:

ما هو الحامل على اهتمامنا بدراسة أطوار تحرك المحلة السلطانية بالمجال التادلي وتحديدنا في رحلتها العاشرة؟ ثم ما هو الجديد الذي سيضيفه البحث من معلومات، علما أن جل الكتابات التقليدية قد تطرقت إلى العديد من الرحلات السلطانية، وهي تبدو في متونها كما لو كانت تسير على نهج نمطي؟ ألا تكفينا شهادات الأجانب عن بعض نماذجها، خاصة منهم القبطان إيركمان الذي رافق هذه المحلة بالذات وسابقتها الى بلاد سوس، وكذا شارل دوفوكو الذي تزامن حلوله بالإقليم التادلي مع مغادرة المحلة لقبائل تادالا الرتمية في اتجاه قبيلة زعير وزمور الشلح ثم إلى مكناس؟.

قد تبدو هذه الأسئلة على قدر من المعقولية. لكن الأمر سيختلف إذا ما علمنا ان هذه الحركة لم ترد وقائعها في كتابات الإخباريين بما يسمح بالخروج بتصوير عام عن علاقة المخزن المركزي والمجتمع من خلال التدبير المباشر لقضاياها محليا، بالقدر الذي تظهر فيه تلك التساؤلات وكأنها تحمل في طياتها حافزا يستنفر إجابات مستمدة ليس بالضرورة من المصادر التاريخية التقليدية، بل من الوثائق الرسمية للأرشيف المخزني.

والحقيقة أن مبررات تناول أطوار المحلة السلطانية لعام 1300 هـ الموافق لسنة 1883 م، حدتنا فيها محاولة منا قدر الاستطاعة سد فراغ مطبق ألفيناه في جل الكتابات التاريخية التقليدية التي عاصر مؤرخوها هذه الفترة التاريخية. فبعد التحري وتصفح تأليف الإخباريين، إنطلاقا من مخطوط البستان الجامع لابن ابراهيم السباعي وقد دأب على مرافقته لعدد من المحلات السلطانية،

لم يذكر من تاريخ أطوارها إلا وقعة السماعلة⁶²². وعند مطالعتنا للجزء الثاني من كتاب إتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس الذي خصصه عبد الرحمن ابن زيدان لترجمة سيرة السلطان الحسن الاول، لم يورد بشأن المحلة أكثر من إشارة لم تزد عما ذكره " ولم يزل مقيما بمراكش إلى أن دخلت سنة ثلاثمائة وألف وفيه نهض قاصدا عاصمة سلفه المكناسية وهذه الحركة العاشرة، وكان مروره على قبيلة الرحامنة فزمران، ثم قبائل تادلا، وأوقع بالسماعلة منها، ثم نهض لقبيلة زعير"⁶²³.

أما المؤرخ خالد الناصري فلم يأت على ذكرها بالمرّة في مؤلفه الاستقصاء، إذ انتقل في سرد الأحداث من سنة 1299 إلى سنة 1302.⁶²⁴ بينما لم يذكر المشرفي عنها أي شيء في كتابه الحلل البهية.

وإذا كانت الوثائق الرسمية للأرشيف المخزني تمثل الوسيلة الأساس لملاء ذلك الفراغ الذي واجهناه في المصادر التقليدية فقد رما توسيع معرفتنا التاريخية حول تنقل هذه المحلة عبر ربوع المجال التادلي بدعمها بشهادات الرحالة الاجانب على اعتبار ان مشاهداتهم قد تحمل ملاحظات معينة وتحليلات مختلفة من موقع ثقافتهم الاوروبية التي كانت تنظر الى المجتمع المغربي بمنظار غرابية الشرق. فكان من ضمن ما تم تفحص كتاباتهم تعود الى أحد الضباط الأجانب ممن رافق المحلة السلطانية إلى إقليم سوس ثم تابع مرافقتها بصفته مؤطرا عسكريا، من مراكش إلى مدينة مكناس، وهو كما سبقت الإشارة اليه القبطان، ايركمان قام خلالها بتسجيل مشاهداته واستطاع تحديد معالم الطريق السلطانية على خريطة الاقليم في مؤلفه "المغرب الحديث". غير أنه اكتفى فقط هو الآخر بسرد أحداث ووقائع معركة السماعلة بالشمال التادلي دون الادلاء بأية معلومات أخرى عدى ما كان يسجله من ملاحظات حول كيفية تحرك العسكر وطريقة مجابهته وتكتيكة المتبع في تعامله مع تمرد البراكسة من قبيلة السماعلة.

وقد حاولنا استجلاء بعض الغموض الذي اكتنف مواقف السكان والقبائل إزاء المحلة السلطانية وتأثير حضورها بالمجال على وضعيتهم العامة خاصة فيما يمت بصلة لواقعهم الاقتصادي، باعتماد على ما سجله الرحالة الفرنسي شارل دوفوكو في مؤلفه التعرف على المغرب، من منطلق ما عرف عنه من دقة في الملاحظة والتحليل السوسولوجي للمجتمعات

⁶²² السباعي بن ابراهيم: (مخ.س)، ورقة: 313.

⁶²³ زيدان ابن عبد الرحمان: (م.س)، ج 11، ص: 258.

⁶²⁴ الناصري خالد(م.س)، ج 9، ص: 179.

المحلية التي مر بها، لا اعتقادنا أنها قد تغني البحث، كون مروره بالمنطقة كان حديث العهد بمرور المحلة السلطانية. غير أننا واجهنا فيما تناوله من قضايا وانطباعات حول الموضوع وبعد المقارنة بما جاء في الوثائق كثيرا من المغالطات والانحرافات عن الحقائق. بل وقفنا على صيغة من التحاملات والتصورات تؤكد ان لا علاقة لها بالمسار الواقعي لمجرى تاريخ الحدث. ومن ثمة تبين لنا مدى صحة شهادة جرمان عياش في حق الرحالة: "من أنه كان يصلي ويعمل ليهب المغرب للمسيح وفرنسا في آن واحد"⁶²⁵.

ومن غير شك أن دوفوكو قد أغنى كثيرا الحقل المعرفي لسوسيولوجيا المجتمع القبلي لمغرب ما قبل الاستعمار، ولديه قدرة فائقة على تحليل كثير من النظم والبنى الاجتماعية للقبائل التي صادفها في طريقه، منها تمييزه لمناطق العرف والسيبة عما يقابلها من قبائل الشرع والمخزن، فضلا عن دقته الشديدة في تسجيل بعض الوقائع ووصفه لمورفولوجيا السطح الجغرافي للأماكن والمواقع والانهار وغيرها. إلا أن كل ذلك لم تكن له من غاية في حقيقة الأمر غير خدمة عمل استخباري لفائدة المشروع الاستعماري الفرنسي ما أفقد انتاجه الفكري على المدى البعيد طابعه الحيادي بمحاولته إفحام ما هو إيديولوجي على واقع بلد انبرى لتحليل خصائصه الاجتماعية والسياسية خدمة لأهدافه ليس إلا.

ودون الدخول في تفاصيل فيما أورده من هذا القبيل عن الاقليم التادلي على غرار ما ادعاه: "هنا لا سلطان ولا مخزن، لا أحد آخر غير الله وسيدي بنداود" وتصنيفه للإقليم التادلي ضمن المناطق السائبة⁶²⁶ الى غير ذلك. ورغم تحفظنا المبدئي عن مضمون تصنيفاته تلك وقد سار على نهجها كثير من الدارسين الاجانب فترة الحماية، ويفهم من خلاصاتها ان المغرب على هذا العهد كان ينقسم منطقتين، واحدة تعرف حضورا للمثلي المخزن وتؤدي ما يفرض عليها من واجبات وكلف وتوظيفات وتعرف حالة من الانضباط الامني وتيسير في المسالك الطرقية، بينما الثانية صنف من المناطق السائبة قبائلها، اي انها خارجة عن طوع سلطة المخزن ولا تخضع لتدبيراته ولا لنظمه الجبائية، اما مسالكها الطرقية فتبقى خاضعة لنظام الزطاطة وتستفيد فرقا القبلية من عوائد الخفر ورسوم المرور. والحال ان هذا التقسيم لا يقوم على قاعدة ثابتة ومطلقة. وتكفي ملاحظة الرحالة التي ابداهها حول الاقليم التادلي من كونه يدخل ضمن المناطق السائبة مؤشرا على

⁶²⁵ جرمان عياش: دراسات في تاريخ الغرب: تعريب محمد الأمين البزاز وعبد العزيز التلمساني خلو، الطبعة الأولى، مطبعة النجاح الجديدة البيضاء 1986، ص: 13.

⁶²⁶ دوفوكو شارل: (م.س): ص 70 وما يليها.

عدم صلاحية استنتاجته وهشاشة صمودها امام الواقع التاريخي. ونكتفي فيما ذكره عن العمل الجبائي للحركة لنذكر مضمون أهدافه المبطنة: "عند اقترابه (الحسن الاول) من المدينة (بني ملال) تخلى عن المدينة كل من كان معارضا وتراجع إلى الجبل، بقي حزب السلطان في مكانه فأرسل وفدا ليؤكد للسلطان إخلاص سكان القسبة، فكان جواب السلطان أن فرض 50.000 فرنك على سكان بني ملال⁶²⁷. (اي عشرة الاف ريال) *

وتُلخص هذه المعلومة المدسوسة المجانبية للواقع، مدى تعمد دوفوكو استغلال سياقات تاريخية لتوظيفها وتسخيرها لتبرير مشروع كان يبيت له بلده فرنسا، من خلال رغبته في البرهنة على أن السياب والمتمردين على سلطة الدولة قد نجوا بأموالهم وأنفسهم من سطوة المحلة بالفرار إلى الجبل. والجبل بالنسبة له يُرمز إليه بالملاذ الآمن من غلواء الشرع، بينما كان جزاء من بقى من الموالين للمخزن وقد شدد عليهم النكير والزامهم بدفع مبلغ ما فرض عليهم من المال وقدره ما أشار إليه.

ولعله بات من الضروري تنفيذ كل هذه المزاعم ووضع تلك الواقعة التاريخية في إطارها المعقول، والشروع في تتبع أطوار عبور المحلة للإقليم التادلي والوقوف على المنهجية الدقيقة التي اتبعها السلطان في تدبير شؤون الإقليم وما إليه من قبائل الدير والجبل. إلا أنه قبل ذلك نرى أنه من اللازم ابداء بعض الملاحظات المنهجية التي بالرغم مما قد يعترها من نواقص فإنه لا مندوحة من الإشارة إليها:

- أن تتبع مسار وأطوار الرحلة السلطانية المذكورة تم الاعتماد فيهما أساسا على ما تضمنه كناش الخزانة الملكية بالرباط ويحمل رقم 353 ويضم 1617 من خلاصات رسائل صادرة عن السلطان إلى جهات مختلفة من البلاد عن سنة 1300هـ، ومنها تم اعتماد المراسلات التي همت شؤون الحركة السلطانية وهي تنتقل بالمجال التادلي.

- اعتبارا لكون محتوى الكناش الذي استقيناه منه جل المعطيات، يمثل المصدر الأكثر دقة وأهمية في تتبع أطوار المحلة، بعد أن تأكد لدينا أن جل المصادر التاريخية الأخرى لم تأت بذكر حول الموضوع إلا بأقل القليل، ليس إهمالا من أصحابها أو إغفالا لأهميتها التاريخية، بقدر

⁶²⁷دوفوكو شارل: (م.س)، ص: 85.

*من المفارقة، أن قسما كبيرا من أفراد المجتمع المغربي خاصة بالبوادي لا زالوا يتعاملون الى اليوم من حيث الخطاب المتداول في احتساب النقد بالريال و ما يقابله من فرنك فرنسي، فيقال 200 ريال و تقابلها 1000 فرنك . بينما المتداول في المدن تعد با 10 درهم. فهل يمكن الحديث عن استمرار بعضا من ذهنيات التخاطب المجتمعي فيما يربطه من اتصال مع رواسب القرن التاسع عشر ؟

ما قد يعزى السبب إلى عدم اطلاعهم على ما كان يجري داخل أروقة دواوين المراسلات الصادر منها والوارد وعدم أخذهم علما لما كان يجري تحت القبة السلطانية.

- بما أن محتوى الكناش المذكور يمثل المصدر الأكثر أهمية ودقة، فإن ميزته مكنتنا من اهتبال فرصة إعادة قراءة تاريخ المحلات السلطانية، ليست كما ارتسمت في مخيلات الباحثين الأجانب كحركات جبائية يستغلها المخزن لأثقال كاهل السكان بمزيد من الضرائب والكلف المرهقة، بقدر ما كانت وكما سنوضح ذلك حركة تحمل مشروعا تديبيريا دقيقا لشؤون الإقليم تراعى فيه الجوانب السياسية والاقتصادية والاجتماعية والدينية.

- لما كانت المراسلات المخزنية تمثل في حقيقة الأمر تعبيراً عن الخطاب الرسمي للدولة، فإنه لا يجب أن يعزب عن أذهاننا أنها تمثل في ذات الوقت حداً فاصلاً بين دقة معطياتها وكثافة منسوب تعاملها مع الأحداث وبين تراجع غير متوقع في صبيب وزخم المعطيات التاريخية حول الحركة لدى الإخباريين، الأمر الذي يفسر أن قضايا البوادي لم تكن تأخذ بكبير اهتمام المؤرخين السائرين في ركابها.

المبحث الثالث، رمزية حضور المحلة السلطانية كمركز لسلطة الدولة:

وإذ نتناول الجانب البارز في تاريخ هذه المحلة من خلال ما أفصحت عنه الوثائق والمراسلات المواكبة لشؤونها ومسيرها وهي تجوب المجال التادلي بما تحمله من رموز الفخامة الملوكية، محاطة بنظام مخزني بسيط في شكله معقد في مضمونه، مجللة بمعاني القوة والسلطة، دافعة بإشعاع حضورها على مدى الافق القبلي، فإن سؤالاً له صلة بالموضوع تبادر إلى ذهننا: ففي أعقاب التحولات التاريخية التي شهدتها بلادنا، وعلى إثر المتغيرات التي طالت أساليب الحكم منذ القرن السابع عشر، هل لازال في الإمكان تبني فكرة استمرار وصلاحيّة مقولة ابن خلدون: "والدولة في مركزها أشد مما يكون في الطرف والنطاق وإذا انتهت إلى النطاق الذي هو الغاية عجزت واقصرت مما وراءه"⁶²⁸ ؟

والحال، أنه طيلة القرن التاسع عشر، ظلت الحركات السلطانية دؤوبة على تنقلاتها وتحل في ورودها المتتالي مجالات وسطية وطرفية على السواء، وصارت في حركاتها وديناميتها أشبه بعاصمة سلطانية متنقلة تفرض هيبتها على القبائل وتباشر الأحكام المخزنية

⁶²⁸ ابن خلدون عبد الرحمن: المقدمة، ص، 203.

* لا نروم من ذلك التناول على المؤرخ ابن خلدون فقيمه العلمية و الفكرية اسمى من أن تطالها مراجعات نقدية من باحث مغمور، لكن الامر يتعلق باستفسار منهجي ليس الا ، رغم ان الموضوع لازال قابلا للنقاش.

وتنظم تعاقدات بين الزعامات القبلية والمخزن وتعيد ترتيب الحالة الامنية وتريح الناس من جور بعض العمال وتعين آخرين بدلا عنهم الى غير ذلك مما تحققه من غايات*. صحيح أنه لم يكن لدى المخزن الوسائل التقنية والبشرية لشغل كل المناطق الطرفية، وصحيح أيضا، أنه كان بمجرد رحيل المحلة عن المجال إلا وتعود القبائل إلى نموذجها التمردى أو على الأقل تبدي رغبتها في الحفاظ على استقلالها، لكن بالمقابل، لا تلبث المحلة أن تبادر بالعودة من جديد لتفرض سطوتها وتشغل بوجودها الحيز المجالي. وهوما يؤكد الارتفاع الطردى لعدد المحلات السلطانية طيلة القرن ما قبل المنصرم. لذلك يمكن في اعتقادنا صياغة هذه المعادلة السياسية وفق المنطق التالي :

المحلة السلطانية تمثل عند الظعن مركزا للدولة — المجال الطرفي يصير موطننا للمحلة السلطانية — المجال الطرفي يصير تبعا لذلك مركزا للدولة — المركز والطرف يصيران جسما متحدا بما يرمز اليه حضور المحلة.

المبحث الرابع، المحلة السلطانية العاشرة على مشارف تادالا :

غادرت الحركة⁶²⁹ السلطانية مراكش يوم سابع رجب من سنة 1300 هـ⁶³⁰ وفي مستهل شهر شعبان الموافق لشهر يونيو من سنة 1883، خيمت بالدشرة على مسافة غير بعيدة عن الضفة اليسرى لواد العبيد.

وتخضع عملية تخييم المحلة لنظام خاص وثابت⁶³¹. فبعد اختيار مكان المقام يتم نصب خيمة السلطان وتكون في العادة على مرتفع وسط الموقع الفسيح، وهي على شكل قبة ضخمة فخيمة يعلوها جامور مذهب يعكس اشعة الشمس. تنصب بجوارها خيام اصغر حجما مخصصة لحريم السلطان بعد ذلك تتم إحاطة مجموع الخيام بستار من قماش يبلغ علوه نحو من ثلاثة أمتار ويسمى بالأفراك⁶³². ينفتح بابه على جهة القبلة وتمتد أمامه مساحة مستطيلة رحبة تمثل المشور

⁶²⁹ يؤدي لفظ الحركة السلطانية والمحلة السلطانية إلى نفس المعنى مادامت قيادتها الفعلية تنتظم تحت إشراف سلطاني، بينما تنتظم محلات أخرى تحت مسمى خليفة وهي التي يقودها أحد خلفاء السلطان وأخريات تتم تحت قيادة أحد الشرفاء المقربين من المركز أو العمال. أما حركات الفرق العسكرية المتفرعة عن المحلة أو ما يسمى بالسوكات فمهمتها إما تكون بغاية حماية المحلة أو فرض الأمن أو للقيام بأعمال المداهمة و مطاردة الفرار من أداء الضرائب. اما الحركات الجبائية التي يقودها في العادة قائد محلي فمهمتها في الغالب لا تحمل أي مدلول عسكري أو امني .

⁶³⁰ السباعي بن ابراهيم: (مخ.س)، ورقة: 312.

⁶³¹ لمزيد من توسيع المعرفة بنظام و ترتيب خروج المحلة السلطانية و تفاصيل تحركها ، يطالع مؤلف الاتحاف الجزء 2 و العز و الصولة لابن زيدان ج 1 ، ص 215 و ما يليها .

⁶³² الأفراك أو لفراك بالكاف المعجمة، اسم مشتق حسب استنتاجنا الشخصي من لفظة الفُراق حسب ما هو متداول في اللسان الدارج مع انتقال حرف القاف الى الكاف الاعجمية ، و هو الحاجز الذي يفرق بين مكانين أو موضعين ويعني هنا حاجز من ثوب مقوى أو

ضربت على جنباتها خيام صغيرة مخصصة لدواوين الوزراء والكتاب وسائر موظفي المخزن. وعلى مدخلها تصطف أنواع المدافع في تقابل وترتيب منتظم موجهة فوهاتنا نحو القبلة ويطلق بعضها بين الحين والآخر طلقات مدوية لإعلان أوقات الصلاة خاصة المغرب والعشاء والفجر. وكان عدد الموظفين والخدم وأرباب الحناطي والقائمين على خدمة السلطان كبيرا جدا تشغل خيامهم باقي الفضاء الخارجي المحيط بالأفراك. تحيط بها جميعا خيام الجيش المخزني وسائر قواد كيش القبائل وأعيانها المرافقين للمحلة.

وعلى مقربة من المخيم السلطاني وحاشيته يعسكر قبائله سائر العسكر النظامي على شكل دائرة من الخيام تتوسطها خيمة مميزة يشغلها العلق أو وزير الحرب.

وعلى هامش المساحة الفاصلة بين المخيمين تقام سوق تعرض فيها سلع ومصنوعات يدوية ومنتجات الطعام و اعلاف المواشي و تعرف رواجاً تجارياً مهماً ترتاده سائر القبائل المجاورة.

وغير بعيد من كل هذا التجمع البشري والعسكري تحط خيام فرق من فرق المشاة و

الفرسان الذين اختارتهم القبائل النائية وقدمتهم للنياحة عنها في كل تحرك عسكري.⁶³³

وفور استقرار المحلة تدب في دواوين الوزراء حركة نشطة ويشرع كتابها بإشراف رؤسائهم من الوزراء في مباشرة عملهم الدؤوب من صياغة الرسائل والمكاتبات الصادرة توجيهاً من طرف السلطان، التي يتعين على قائد المشور التحقق من وجهتها قبل إرسالها بواسطة الرقاصين والمساخرية، بعد ان تكون قد أمهرت بالتوقيع الشريف إلى مختلف جهات البلاد وخاصة إلى العمال والقواد وكافة الشرفاء والمرابطين والأعيان بالإقليم للقيام بما يلزمهم من الوقوف في اتباع مراسيم استقبال المحلة كما جرت بذلك العادة.

المطلب الاول، خطة عمل المحلة وأهمية اختيار التوقيت:

تطالعنا جل الكتابات المصدرية التقليدية وحتى الأجنبية منها، في حديثها عن مسير المحلة السلطانية وتنقلها من مكان إلى آخر وكأنها لا تتغيا من وراء ذلك إلا إبراز وظيفتها المخزنية في عبور المجال وجباية الضرائب وتسكين تمردات القبائل واعتقال من تصادفه في طريقها من العصاة أو المتمصلين من أداء الواجب حتى ليبدو للقارئ من خلاصات تتبعه لتنقلاتها أن ما تباشره سوكاتها من أعمال هي محمولة على الصدفة أو على أبعد تقدير انها إنما جردت لوجهتها

ما شابهه، يسند بقوائم خشبية و لا يتعدى علوه متران او ثلاثة امتار ليحجب حرمة الإقامة السلطانية. و قد فصل القول في ذلك عبد الرحمن بن زيدان في المصدر الاخير اعلاه .

⁶³³ تم استقاء كل هذه المعلومات من مشاهدات الطبيب الفرنسي فردريك وايسجرير عن المحلة العزيزية المخيمة بصخرة الدجاجة على الحدود الفاصلة بين الإقليم التادلي والشاوية سنة 1315هـ.

الا لتنفيذ وعيد المخزن لإخضاع قبيلة متمرده أو إنزال عقاب بمن خالف أحكام المخزن. والحال أن ما نصادفه من نصوص المراسلات السلطانية وتتبعنا لكرنولوجية تنقل المحلة، اتضح لنا بما لا يدع مجالاً للشك من أن السلطان كان يتبع خطة عمل مضبوطة أو ما يسمى اليوم "بخارطة طريق" ممنهجة يقوم بتحقيقها بمقتضى البرنامج المحدد سلفاً ووفق مسار ومحطات توقف المحلة بالمجال. ويعني هذا أن الحركة السلطانية العاشرة قد سلكت في المجال التادلي مسلكاً تديبيرياً منتظماً تداخلت فيه شؤون سياسية ودبلوماسية ودينية واقتصادية وعسكرية واجتماعية، فلم تك المحلة تغادر المجال التادلي حتى كانت أشغال أجندها قد اكتملت واستوفى تنفيذ محتوياتها بالتمام.

وقبل انطلاق المحلة من حيث المبدأ كان أول عنصر يأخذه المخزن بعين الاعتبار هو توقيت السفر. فقد جرت العادة أن لا يشرع في تحرك المحلة إلا في مستهل فصل الصيف⁶³⁴ للاعتبارات التالية:

- أن هذا التوقيت يعرف اعتدالاً في مستويات درجة الحرارة، فلا يحتاج خلاله مرافقي المحلة كثيراً من الملابس والأغطية ولا حتى من السعرات الحرارية، وقد يكلف عكس هذا التوقيت القبائل المرافقة الكثير من العناء والضنك لا قبل لهم به.
- أن هذا الظرف من السنة يعرف فيه صيب الأنهار كواد العبيد وأم الربيع تراجعاً يساعد تناقص منسوب مياهها العسكر والجيش وباقي القوات والقبائل المرافقة في اجتيازها بأحمالهم وأثقالهم ودوابهم ومواشيهم بسهولة ويسر عبر مشارع معلومة.
- يصادف اختيار هذا التوقيت موسم الحصاد وجني المحاصيل الزراعية، وهي مناسبة سانحة لتحصيل الزكوات والأعشار من القبائل وجمع المؤن لتزويد الجيش والعسكر ومرافقي المحلة بما يحتاجونه من غذاء، وعلف لمطاياهم ودوابهم مع اغتنام هذه الفرصة لتهديد المتهربين من بعض فرق ودواوير القبائل بإتلاف مزارعهم إذا ما صدر منهم ما يخالف الأحكام أو يخرق العوائد.

المطلب الثاني، تمهيدات أولية تسبق انطلاق المحلة :

قبل هذا التاريخ بقليل بعث السلطان بمحلة خليفية إلى الإقليم التادلي تحت قيادة مولاي الأمين صحبة محمد البوعصامي⁶³⁵ حيث استقر بالقبصة الزيدانية وشرع في تحصيل الواجبات

⁶³⁴ تم استيقاء هذه المعلومات من مؤلف القبطان إركمان، بمصدره السابق ص: 276.

⁶³⁵ السباعي بن إبراهيم: (مخ.س)، ورقة 311.

وجمع المؤن استعدادا لقدم المحلة السلطانية. وقد أوكلت له فضلا عن ذلك مهمة اعتقال شخصين يقال لهما الدريويش وبوعزة حمادي كان يتزعا حركة تمرد وتسببهما في عرقلة العمل الجبائي بأولاد حسون شمال تادلا. "فبقائهم على حالهم لا تتم معه استقامه [...] وإن استيفاء الواجب لا يتم بدون القبض على أولئك، فما لبثوا أن أوقع بهما وبه تيسر غرم ما على تادلا من الواجب" 636.

لقد كان هدف الحركة الخليفة واستقرارها بعض الوقت بالقصبة الزيدانية هو التمهيد لممرور الحركة السلطانية بعد أن يكون قائدها قد قطع شوطا في استخلاص الأموال الجبائية وجمع المؤنة، واستنهض القبائل والاعيان لاستقبال السلطان وفق العادات المتبعة.

وقد جرت العادة قبل اعتزام السلطان النهوض بمحلته مكاتبة العمال وقواد القبائل التي يحتمل المرور بطريقهم الوقوف على ساق الجد بإجراء تحري حول المسالك الطرقية التي ستمر منها المحلة والابلاغ بكل تفاصيل طبيعتها ومراحلها، وقد جاء في رسالة سلطانية إلى القائد موحى اوحمو الزيداني ما يلي: « وبعد، فنأمرك أن تتفاوض مع ابن عمنا سيدي محمد الأمراني بما يبصره من أمور القبيلة وأحوالها وما يتوقف عليه الأمر في المراحل وبعدها والسهل من الطريق ووعرها وكل ما يعود صلاحه على المحلة السعيدة في ابتعادها واقتربها فإن أهل مكة أدري بشعابها» 637.

كما بعث برسالة مماثلة إلى الشريف محمد الأمراني لنفس الغاية، وبعد وصول تقرير هذا الأخير إلى السلطان في الموضوع مبديا اقتراحه حول الطريق المتعين المرور منها، كان جواب السلطان كالاتي « [...] واختبرت قصبة بوجعد 3 طرق، بوجعد وقصبة تادلة وآيت هودي على زاوية آيت إسحاق، فاخترنا خديمنا القائد موحى واعيان القبائل كلهم الطريق الاسماعيلية المارة من قصبة تادلة على تباينوت لكونها سهلة لا وعر فيها، كثيرة الماء قريبة من مكناس، متتحية عن خيام بني مكيلد، بخلاف طريق آيت هودي المارة على الجبل فيها وعر لا تسلكه الروام إلا بمشقة، وأن جميع القبائل اتفقوا على عدم التقصير في دفع المؤنة وصار ذلك بالبال... وأما ما ذكرت في شأن الطريق الاسماعيلية الواقع الاختيار عليها فقد علمناه وما اختاره الله تعالى وكان من عنده سبحانه يمضيه» 638.

636 السباعي بن ابراهيم: نفسه، ص: 312.

637 خ.م.ر: مختصر رسالة سلطانية بتاريخ 4 شعبان 1300، كناش 353، ص: 58.

638 خ.م.ر: مختصر رسالة سلطانية الشريف محمد الأمراني: بتاريخ 18 شعبان 1300، ص: 58.

ونستشف من الرسالة، طرح ممثلي المخزن لعدة خيارات واقتراحات للمسالك والطرق المفترض مرور الموكب منها، وقد روعي في ذلك قصر المسافة وسهولة الطريق ووفرة المياه وهي ضرورية لسقاية الركب والدواب. لكن السؤال الذي يطرح نفسه هنا : ألم يكن السلطان على دراية وافية بالمسالك الطرقية الرابطة بين فاس ومراكش بالرغم من أن مسارها كان أثيرا لديه وكرر المرور منه عدة مرات منذ توليه الحكم؟

والجواب نعم، كانت لديه كامل المعرفة بذلك، فقد دأب في بداية كل سفرة على ايفاد المهندسين من ذوي الخبرة والتجربة لاختبار الطريق ومسافاتها وتحديد المراحل ومواقع التوقف وغير ذلك، إلا أنه في اعتقادنا أن الغاية من تلك المراسلات هو الاعلان الرسمي باعترام مرور المحلة بين القبائل وحت العمال والقواد على استنهاضها والاعداد لها بما يليق من ترتيبات الاستقبال والإجراء على العوائد فقد بعث السلطان برسالة الى الشريف محمد الأمراني ردا على جوابه جاء فيها: « [...] وصل كتابك بأنك دفعت مكاتبنا الشريفة لاعيان آيت ومالو وقرأوها وفرحوا بمرورنا ببلادهم، وحيث شاهدت منهم ذلك اخترت جماعة من أهل الحل والعقد من أعيان بني مجيلد وزيان واشقرن وكلمتهم بالقدوم على حضرتنا الشريفة وأجابوا بالامتثال »⁶³⁹، هذا من جهة، ومن جهة أخرى عدم الافصاح عن ما وقف عليه رأي السلطان في اختيار الطريق الذي ستسلكه المحلة، لأن ذلك يبقى في طي الكتمان ولا يتم اعتماد الاختيار النهائي للطريق الذي ستسلكه المحلة ولا وقت الرحيل إلا في آخر لحظة وهو ما نفهمه من قول السلطان حول الطريق الاسماعيلية "وما اختاره الله يمضيه"⁶⁴⁰.

تطالعنا اول رسالة يبعث بها السلطان الى المرابط سيدي بن داوود جاء فيها : «سيدي بن داوود بن العربي وبعد، فقد خيمنا بعون الله على شاطئ واد العبيد من هذه العدو التي ببلاد تادالا، واصدرنا امرنا الشريف لخدامنا بني زمور بان ينهضوا خيلا ورماة على حد الصائم ويلاقوا ركابنا السعيد بطرف بلادهم فلتشدد نطاق عزمهم على ذلك وايقظ جفن سنتهم عما يراد منهم هناك كما هو معروف فيك والمعهود منك »⁶⁴¹ كما بعث السلطان بابن عمه مولاي عبد المالك بن محمد بن الزيزون الى قبيلة بني زمور قصد التخميم وسطها بحضور كافة عمالها وقواد آيت سري⁶⁴².

⁶³⁹ خ. م. ر. : كناش 353 ص 105 ملخص رسالة سلطانية بتاريخ 18 شعبان عام 1300هـ.

⁶⁴⁰ دوفو شارل: نفس المصدر، ص 87، وقد ذكر أن قائد المنطقة أساء تقدير صعوبة قطع الوادي وأبلغ السلطان بإمكانية العبور إلا أن الأمر كان خلاف ذلك فعوقب، والراجح أنه تم عزله وتعيين مكانه على أولاد موسى القائد العربي بن عبد الله الحمري، كناش 353، ص: 38.

⁶⁴¹ خ.م.ر. : كناش 353 ص 6 ، مختصر رسالة سلطانية بتاريخ 14 رجب سنة 1300هـ.

⁶⁴² خ. م. ر. : كناش 353 ص 06 ملخص رسالة سلطانية بتاريخ 14 رجب عام 1300هـ.

الفصل الثاني، المحلة السلطانية على مسار تنفيذ خطاطة برنامج عملها التدبيري بالمجال

- المبحث الاول، تسوية حالة تعاصي بني عمير وحسم قضية آيت الربع .
- المبحث الثاني، استنهاض قبائل الشمال التادلي لدفع متأخرات الواجب .
- المبحث الثالث، استنهاض قبائل بني عمير لدفع مئونة العسكر .
- المبحث الرابع، عزل قواد وتولية آخـرين .
- المبحث الخامس، ظهائر التوقير لصلحاء الأطلس والدير .
- المبحث السادس، التحكيم والفصل في المنازعات .
- المبحث السابع، الأمر بصيد الأسود .
- المبحث الثامن ، واقعة السماعلة .

الفصل الثاني

المحلة السلطانية على مسار تنفيذ خطاظة برنامج عملها التدبيري بالمجال .

اجتازت المحلة السلطانية واد العبيد بصعوبة شديدة وعتت كبير، اذ كان صبيب النهر لا زال لم يخف بعد. ووجدت في استقبالها على العادة العمال و القواد وشرفاء الإقليم والمرابطون وأعيان القبائل واهل الحل والعقد من قبائل الجبل وكل الفرق العسكرية والجيشية المرابطة بالقصبة الزيدانية تحت قيادة المولى الأمين إلى جانب نقيب شرفاء تادلا وسيدي بنداوود وغيرهم و قد اصطفوا على الضابط المعهود لتحية الجناب السلطاني .

كما خف في هذه الاثناء قواد آيت الربع لملاقة السلطان على الطريق الجنوبي لتادلا رغم بعدها عن مدينة بني ملال بمسافة ليست يسيرة، لغاية في أنفسهم. إلا أن السلطان فور أخذه علما بذلك أمرهم بالعودة ادراجهم إلى قصبتهم في رسالة اليهم مقتضبة جاء فيها: «عمال بني ملال كافة نأمركم أن تنهضوا من المحلة وتنزلوا لبلادكم بقصد النظر في مصالحكم وما يتعين عليكم مما لا بد منه والتأهب لملاقة ركبنا السعيد عند حلولنا بترابكم»⁶⁴³.

المبحث الاول، تسوية حالة تعاصي بني عمير وحسم قضية آيت الربع :

عرجت المحلة يسارا لتأخذ طريقها الى القصبة الزيدانية بهدف تفقد السلطان شؤون المحلة الخليفية واتخاذ ما يلزم في حق قبيلة بني عمير عما صدر منها من تجافي وعصيان من عدم وفاء بعض فخذاتها من أداء الواجب المترتب عليهم. وتحسبا من القبيلة بما ينتظرها من جراء صنيعها بادرت الى ايفاد جماعة من الطلبة معرقبين على المدفع طالبين شفاعة السلطان والصفح عما اقترفوه. وتقديرا من الجناب السلطاني لخضوعهم والتماسهم الشفاعة وإبدائهم الطاعة لأداء ما تخلد في ذمتهم كان رده عليهم في رسالته جاء فيها: « قبيلة بني عمير كافة وأخص منهم عمالهم وأعيانهم وفقكم الله وبعد، فقد ورد على حضرتنا العالية بالله من وجهتموهم شفعاء فيكم لدينا من الطلبة تطلبون تأمينكم من إجهاز الحَلْبَة ومعهم ما أصحبتموهم من العقير تأكيدا في أخذ يد الأمن ومصاحبتها بين أخبية وظفر، فقد عقروا على شريف المدافع بعد ما احترموا فيها نيابة عنكم تحقيقا لما املتموه من هاتيك المطامع. وها نحن حققناها لكم وفيكم شفعاهاهم وألناهم مرغوبكم وبالجميل قابلناهم وأمنا عليكم،

⁶⁴³ خ.م.ر: كناش 353 ص 38 ،مختصر رسالة سلطانية إلى عمال آيت الربع بتاريخ 28 رجب 1300هـ.

بشرط أداء الواجب الذي حرمه الله وأداء الحقوق المتعلقة بكم كما أمر الله، قصدا الى تطهير صحائفكم ورجس التبعات وأخذًا بحجبكم عن الوقوع في مهاوي الآفات»⁶⁴⁴

لم تمكث المحلة طويلا في طريقها من الزيدانية الى بني ملال، فقد كان القصد الحلول بظاهاها ظهرا او عصرا حتى يتسنى للاهالي استقبال المحلة بما يفرضه الواجب وقد اصطفوا صغارا وكبارا لمشاهدة الموكب بغبطة وهو يحل بين ظهرانينهم. لكن نفر منهم كانوا يدركون ان حلول المحلة بينهم سيكون لها ما بعدها هم عمال آيت الربع.

فقد توصلوا قبل هذا التاريخ من السلطان برسالة توبيخ وتأييب في حقهم عما سبق لهم من فعل أظهره و تخاذل أبدوه امام امر سلطاني كان يقضي بمرافقتهم للمحلة التي قادها السلطان بنفسه الى بلاد السوس في السنة المنصرمة ولم يلق منهم تجاوبا و لا تلبية لدعوته. فلنستمع الى مختصر منها: «[...] وحاصله قد اطلقتم عنان الفساد وأرخيتم عنان البغي والعناد وأطلقتم الرسن وضربتم في ببداء المخالفة بعطن. فكيف رأيكم فيما صدر منكم مع كونكم تدعون مخزنا ولم تعملوا بموجب ذلك، إذ ما قمتم لما تقوم به سائر الناس وأحرى ان يقوم به من يدعي أنه مخزن. فما بالكم لم تحركوا لسوس وقد كتبنا لكم بها وسط جيوشنا الموفورة بالله وأمرناكم بها حيث كان ذلك المحل بعيدا [...] ولكن حرمتم من أجرها وتباعدتم عن الفوز بذخرها [...] وحاصله قد تعلقت بكم حقوق، فإن انتم اديتموها وتداركتم رتق خرقها فعليكم الامان [...] وقد وظفنا عليكم في مقابلتها تكفيرا لما ارتكبتموه وتطهيرا لصحائفكم ورجس المخالفة اربعين الف ريال. عشرة آلاف لكل ربع من أرباعكم»⁶⁴⁵

من المعلوم أن واقعة آيت الربع في مخالفتهم للأمر السلطاني بشأن عدم التحاقهم بحركة سوس معروفة وليس من المفيد تكرارها. كما ان ما حل بقوادها من اعتقال وما فرض على وحدات آيت الربع من غرامة مالية يقتسمون أداءها، وبتقدم القائد المعطي بالتماس إلى السلطان يستعطفه أداء نصفها مواشي والنصف الآخر مالا ناضا، فلم يقبل منه ذلك واقتصر الأمر على دفع الثلث فقط مواشي والباقي أموالا⁶⁴⁶. كل ذلك سبق التنويه اليه في دراسات سابقة⁶⁴⁷. لكن السؤال الذي غاب جوابه حول النازلة، هو لماذا تخلفت القبائل الربعية عن الالتحاق بركب الحركة السلطانية مع أنهم يعتبرون من القبائل الجياشة ولديهم امتياز استغلال أراضي المخزن

⁶⁴⁴ خ.م.ر: كناش 353 ص 30، مختصر رسالة سلطانية إلى كافة بني عمير بتاريخ 28 رجب 1300هـ.

⁶⁴⁵ خ.م.ر: كناش 353 ص 48 ملخص رسالة سلطانية بتاريخ متم شعبان عام 1300هـ.

⁶⁴⁶ خ.م.ر: كناش 353، ص: 39.

⁶⁴⁷ بوسلام البشير: تاريخ قبيلة بني ملال، مطبعة المعارف الجديدة 1998، ص: 220.

ويعفون من أداء الكلف ودفع المؤنة إلا ما يلزمه به الواجب من زكاة وأعشار، مقابل مشاركتهم في كل الحروب السلطانية وتنفيذ ما يؤمرون به،» حيث كان وصف الخدمة قائما بكم تحركون للفليحة ومغران وحركتكم في وقعة الحاج عبد القادر محيي الدين ونحوها من الحروب العظام كحركة بهراوة* وتطوان «⁶⁴⁸.

ولما كانت الاجابة عن السؤال المطروح تقتضي اعتماد ما يسنده من براهين وأدلة مصدرية من وثائق أو شهادات المؤرخين، فإن كل ذلك لم نتوفى في الحصول عليه إلا من إشارة مقتضبة وعامة وردت في كتاب الاتحاف في جزءه الثاني، مكنتنا على الأقل من تكوين فكرة عن سياق تخلف آيت الربع، والظرفية التاريخية المحيطة بالنازلة. يقول النص " ولما طرق سمع القواد ورؤساء الاجناد والقبائل ما هم به المرتمج (السلطان الحسن الاول) من الحركة للقطر السوسي، طلبوا لقيه والمثول بين يديه، قرروا له ما يعانیه أهل ذلك القطر من الشدة والاضطراب والفاقة، وتفاحش الغلاء والقحط الواقع بتلك النواحي. وشرحوا له الأضرار التي تلحق الجيوش، والاحطار التي ترتكبه في هذه الأسفار، والتزموا بأداء ما يستفيد به بيت المال في هذه الحركة من أموالهم الخاصة بهم والخالصة لهم"⁶⁴⁹. لم يقبل السلطان تحجج ممثلوا القبائل و الاجناد بما ابدوه من اعدار. فرحلة الجنوب كانت لها اهمية قصوى لدى السلطان و كان يستهدف من ورائها تحقيق غايات كبرى لها علاقة بسيدة الدولة على اقاليم الجنوب فضلا عن إحداث تعيينات جديدة في صفوف عمال الاقليم. ومن غير المستبعد أن يكون عمال آيت الربع من جملة رؤساء القبائل الجيشية الذين مثلوا أمام السلطان. كما أنه ليس من المستبعد كذلك ان يكون تهيب الجميع من السفر الى القطر السوسي وما حل به في تلك السنة من مسغبة وقلة في الزاد، ما جعل السلطان يبحث عن حل لتجاوز الازمة، فاستقر الرأي على الاستعانة بخدمة سفينة لحمل الزرع الى الجنوب. و هو ما تم بالفعل الا انها اختفت بحمولتها اثناء ابحارها في المحيط امام ساحل ابفني على إثر عاصفة بحرية. وقد أثر ذلك على مؤونة الجيش ومعنوياتهم، وهلك عدد من الخيول وفر

⁶⁴⁸ خ.م.ر: كناش 353، ص: 48

* لفظ بهراوة ربما يقصد بها الجنرال الفرنسي الذي واجه الجيش المغربي في معركة ايسلي و كان يظهر بعضا صغيرة مزينة دأب قادة الاستعمار على الظهور بها. و التسمية غالبا لا يقصد بها غير التقليل من شأن الجنرال لدى العامة و الانتقاص منه بنعته ببهراوة كناية عن عصاته كما هو حال لفظ بوحمارة.

⁶⁴⁹ زيدان بن عبد الرحمن: (م.س)، ج II، ص 247 و 248.

أفراد من نواب القبائل. " ورجع في الحين لما وجد هناك من المسغبة وشدة الغلاء وعدم وجود ما يشتري البتة، حتى ضاع من الكراع ما له بال من خيل وبغال وجمال" ⁶⁵⁰.

لم يكن تقاعس آيت الربع وعدم انضباطهم في تلبية دعوة المخزن للمشاركة في حركة السوس حالة استثنائية. فإذا ما تباعدنا القهقري عن تاريخ هذه النازلة وخلال حفرياتنا في الوثائق المخزنية بالأرشيف المخزني لتتبع سلوكات آيت الربع في علاقتهم مع المخزن، عثرنا على عدد غير قليل من الرسائل المخزنية تتضمن تقارير عن انحرافاتهم وزيغهم رغم وضعيتهم القانونية قبائل جيشية. منها ما كان يحصل من توتر وتنافر بينهم وبين قائد الجباية في بلاد تادلا زمن احمد بن القائد عامل السراغنة، جاء في إحداها ما يلي: « لكن سيدنا ما وجدنا لآيت الربع مستقر على حال، فمنهم من يتكلم على آيت سري ويحفظهم على عدم الدفع ويغريهم على ضرب المحلة بالبارود، ومنهم من يطلب منا الرحيل أمامهم، ولا يضبطون أمرا وكل واحد منهم بقول أنا رئيس الوقت وما وجدنا فيهم كبيرا لقلة عقولهم [...] وما قصرت معهم سيدنا في شيء. وقد أعطيت لهم الكسوة والخيل والمكاويل وما يزيد على خمسة عشر مائة مثقال دراهم فلم نحصل منهم على طائل وما وجدنا حيلة إلا الدوران معهم على قدر عقولهم » ⁶⁵¹.

إن الوضعية القانونية لآيت الربع وتصنيف المخزن أيهم من القبائل الجيشية ودورهم في تعمير السهل التادلي الفاصل بين أم الربيع والجبل السخماني، وانتدابهم لمهمة محاصرة قبائل الجبل ومنعها من استغلال المراعي التادلية، كل ذلك كان يلزمهم بضرورة صون وظيفتهم، ووازع يدعوهم إلى الحفاظ على مكانتهم بين القبائل. صحيح أنهم لم يتخلفوا عن نداءات المخزن في المشاركة في حروب الشمال المغربي، وصد حركة الأمير عبد القادر الجزائري، لكن سيرتهم مع المخزن لم تكن على ما يرام. فقد بلغ بهم التجافي والانحراف حدا جعل السلطان المولى عبد الرحمن يدعو إلى تجريد حركة إليهم ترأسها الأمير سيدي محمد بمشاركة قبيلة آيت سعيد لردعهم وإعادتهم إلى جادة الصواب. ففي رسالة وجهها آنذاك السلطان إلى قبيلة آيت سعيد جاء فيها: « [...] نخبركم الآن أن تنهضوا بجد واجتهاد لفساد آيت الربع، فإنهم طغوا وبغوا وسعوا في الأرض بالفساد وبدلوا نعمة الله كفرا وظلما. واسيناهم بالسلاح وغيره، وعاملناهم معاملة من يرتجى صلاحه، فلم يزداهم ذلك إلا طغيانا وكفرا وتماديا على الفساد وشرا. وكانوا يقولون البرابر هم الفساد يفعلون كذا ويفعلون كذا ونحن نريد ردعهم عن فسادهم، فتبين الآن كذبهم وفجورهم، ولم يسلم من

⁶⁵⁰ السباعي بن اراهيم : (مخ.س) ص 310 .

⁶⁵¹ م.وم: محفظة Th-47 رسالة غير مرقمة من القائد أحمد بن القائد إلى السلطان مولاي عبد الرحمان بتاريخ 20 جمادى الثانية

إذابتهم قريب ولا بعيد. وكلما وعظوا في الفساد يقولون هل من مزيد. فهم قوم بغات، والبغات قدم الشرع قتالهم على قتال النصارى. فبورود كتابنا هذا اليكم إنهضوا لهم نهوض حزم وجد وانهبوا أموالهم وكلوا متعاهم وكل شيء لهم فهو لكم، وها محلتنا السعيدة من جهة، وانتم من جهتكم»⁶⁵². نستشف من هذا الخطاب مدى الاستياء الذي تركه سلوكهم في نفس السلطان المولى عبد الرحمن، والقسوة الشديدة التي ووجهوا بها الى المستوى الذي اصبح قتالهم يقدم على النصارى. ومهما يكن من أمر، فإن وزر مخالفة آيت الربع لأوامر السلطان الحسن الاول تحمله في المقام الأول عمالهم الأربعة فتم الزج بهم في سجن مصباح بمراكش، بينما أخلى سبيل من اعتقل معهم من بني ملال. فقد وجه السلطان رسالة الى شقيقه المولى عثمان والحاج أحمد امالك المكلف بالسجناء يقول فيها: « نأمر أخاننا الأرضى مولاي عثمان أن سرح جميع بني ملال الذين بالسجن عدا عمالهم الذين متولين عليهم الآن. يدفع لأخينا مولاي المامون مائتي ريال سخرته ولا تلزمهم كلفة سواها»⁶⁵³.

وبذلك تكون قضية آيت الربع قد فصل فيها السلطان قبل أن يباشر الفصل في قضية أخرى لا تقل أهمية.

المبحث الثاني، استنهاض قبائل الشمال التادلي لدفع متأخرات الواجب⁶⁵⁴ :

من المعلوم أن عملية التحصيل الجبائي الموكله لعمال ورديغة وبني زمور والسماعة كانت تسير وفق الشروط التقليدية المعتادة نمطيا. وهي احتساب مقادير الانتاج الفلاحي من محصول الزرع والكسب، واستخراج المقادير المقررة وفق النصاب الشرعي. غير أن تظافر الأزمات الاقتصادية، والضغوط الأجنبية، والانتكاسات المالية وتداعي القيم النقدية، دفع المخزن إلى تغيير نمط احتساب الجباية على القبائل، وأصبح يفرض على كل واحدة منها مبلغا من المال الناض يحدد مقداره سلفا، بصرف النظر عن حجم الانتاج من الزرع والقمح، كثيرا كان أم قليلا، بل كان التقدير يقوم على قاعدة وسائل الانتاج من اراضي قابلة للفلاح ورؤوس المواشي.⁶⁵⁵

⁶⁵² م.و.م رسالة سلطانية إلى قواد آيت سعيد بتاريخ 20 صفر عام 1271، مسجلة تحت رقم 30045.

⁶⁵³ خ.م.ر: كناش 353، ص: 53. ومقدار السخرة المقدره كانت لفائدة الشريف مولاي المأمون والراجح أنها كانت من أداء المتولين الجدد من القواد الأربعة. اما بشأن آيت الربع فتوجد في حوزتنا رسائل أخرى تتحدث عن نفس سلوكياتهم.

⁶⁵⁴ يقصد بالواجب الذي يرد كثيرا في المراسلات المخزنية تحديدا العشر و الزكاة.

⁶⁵⁵ للتعرف أكثر على أنماط احتساب الجبايات على قبائل المغرب، انظر كتاب دراسات في تاريخ المغرب لجرمان عياش، من ص: 90 وما يليها.

وبما أن المخزن إلى حدود نهاية القرن التاسع كان يساوي القبائل التادلية في دفع الواجب ويحدد لكل منها ما تستوجبه من الدفع على غرار من بالجوار.

ومن خلال تفحصنا لمقدار المبلغ المفروض بشكل متساو تقريبا وهو ما بين 4500 ريال و5000 ريال عن كل قبيلة. وهذا المقدار هو بالضبط ما قدمته قبيلة آيت يسري فترة مرور هذه المحلة بالذات، فالخمسائة رأس من البقر التي ألزمت بدفعها تماثل المبلغ المذكور إذا ما احتسبنا 10ريالات للرأس.

إلا أن الوضعية الجبائية لقبائل بني زمور وورديغة والسمايلة وبني خيران كانت أعقد واصعب من ذلك بكثير. فقد عاشت هذه القبائل سنوات عجاف وتأثرت سلبا مقدراتها الانتاجية، ما دفع المخزن إلى إرجاء تحصيل ما تخلد بذمتهم من متأخرات الواجب إلى حين استقرار الوضع الاقتصادي وتحسن الانتاج في السنة الجيدة.

اهتبل السلطان فرصة تحسن الانتاج بالشمال التادلي، وأصبحت المطالبة بدفع المتأخرات أمرا مناسبا وضروريا. إلا أن مبلغ المستحقات كان كبيرا قد يصعب على ممثلي المخزن تحصيله دون دعم ومساندة. لذلك كان وقت مرور المحلة السلطانية الظرف الأمثل والمناسبة الأكثر ملاءمة للقيام بذلك. وبذلك يمكن القول أن هذه القضية أخذت نصيبا مهما من برنامج المحلة السلطانية.

ففي رسالة بعث بها السلطان إلى بني زمور وبمثلاها إلى كافة القبائل الرتمية حسب ما ورد بهامش الرسالة، جاء فيها:

« قبيلة بن زمور كافة نخص منهم العمال وبعد، فقد ترتب عليكم من قبل الواجب عن عام ثمانية وثمانين وما بعده إلى عام تاريخه، ثلاثة وخمسون ألف ريال وتسعمائة ريال وثمانية وأربعون ريال ونصف ريال، واقتضى نظرنا الشريف الاقتصار الآن على قبض نصف هذا العدد منكم وهو ستة وعشرون ألف ريال وتسعمائة ريال وأربعة وستون ريالا وأمهالكم في دفع النصف الآخر إلى غير هذا الوقت رفقا بكم وتوسعة عليكم »⁶⁵⁶.

ولما كان نفس الخطاب قد تم توجيهه إلى كافة قبائل الجوار كما هو مذيّل في أسفل الرسالة (كذلك جميعها، قبيلة بني زمور وعمالها بمثل ذلك، قبيلة بني خيران وقبيلة السمايلة) وقد جاء في محتواه: « قبيلة وورديغة وعمالهم كافة وبعد، فقد قدمنا لكم أمرنا الشريف بأن تدفعوا ما تخلد بذمتكم من الواجب وغيره كما وجهنا لكم من الأمانة والقواد تسهيلا عليكم ورفقا بكم قبل أن تدهمكم

⁶⁵⁶ خ.م.ر: ملخص رسالة السلطان إلى بني زمور وعمالها بتاريخ 15 شعبان 1300، كناش 353، ص: 83.

المحلة السعيدة فيعظم الأمر بالمؤونة المستدامة عليكم مدة نزولها...»⁶⁵⁷، فإننا سنتناول النص الأول كنموذج ونقوم بعملية احتساب مقدار الواجب المفروض عليهم لتتأكد من تناسبه مع باقي واجب القبائل الأخرى. يتبين لنا من خلال نص الرسالة أن قبيلة بني زمور لم تقم بدفع واجب الزكاة والأعشار لمدة 12 سنة أي منذ سنة 1288هـ إلى غاية سنة 1300 هـ. فتراكم عليها خلال هذه المدة من الواجب الذي حدده المخزن بناء على تقدير جزافي 53948 ريالاً والمعدل السنوي هو قسمة هذا العدد على 12 سنة. وقد ظهر للسلطان أن عملية تحصيل كل المستحقات عن المدة المذكورة أمر صعب على القبيلة. لذلك طالبها بدفع نصف المبلغ عن ستة سنوات وتأجيل دفع الباقي إلى وقت لاحق فيكون الحساب هو: $26974 \div 6 = 4496$ ريالاً وهو معدل المقدار السنوي.

لقد سعى السلطان إلى تخفيف عبء الدفع الجبائي عن المدة المقررة، وألزم القبائل بدفع نصفه فقط هذا العام. بيد أنه لم يكن متساهلاً في أي تماطل أو تسويق قد تبديه القبائل حيال ما أمر به. فقد أبدى نوعاً من الصرامة في خطابه التالي بعد أن بلغه تراخي هذه القبائل في الاستجابة الفورية لدعوته وهو ما نفهمه من رسالته إلى كل تلك القبائل :

« [...] فإذا به ظهر من خلكم أنكم لم تفهموا ذلك، وعليه فقوموا على ساق بأداء ذلك عاجلاً [...] فقد بينا وبلغنا فانظروا في أمركم بما هو الأصلح لكم وافعلوا لرؤوسكم ما ترون فيه نفعكم »⁶⁵⁸

المبحث الثالث، استنهاض قبائل بني عمير لدفع مؤونة العسكر.

لم تكن مسألة المطالبة بدفع المؤونة لإطعام العسكر والجيوش القبلية المرافقة للمحلة من العسر لأن تدرج ضمن البرنامج السلطاني. ذلك أن تجميع المؤمن لإعالة الجيش كانت من الضروريات المفروضة على القبائل والمسلم بها، فاختيار توقيت تجريد الحملات في الأغلب الأعم كان يصادف موسم الحصاد. وتحصيل المؤونة كان أمراً محتملاً رغم أن مقاديرها المعينة على كل قبيلة لم يكن بالأمر الهين عليها، بل ربما فاقت في ثقلها ما يفرض عليها من واجب الزكاة والأعشار. وكان يحدث هذا عادة زمن المحلات الخليفية كما هو شأن محلة ابن عم السلطان مولاي الأمين سنة 1300هـ، أو محلة نجله بالزيدانية سنة 1307/1308، إذ كان عبء وحدة ضغطها يحمل السكان على إبداء رد فعل مبطن. هذا إذا كان المخزن حاضراً بقوة ويشغل حيزاً بالمجال. أما إذا تعلق الأمر بدعوة القواد دون سند إضافي فقد كانت بعض الدواوير منهم تلوذ بالفرار تحت

⁶⁵⁷ خ.م.ر: كناش 353، ص: 168.

⁶⁵⁸ خ.م.ر: نفس الرسالة السابقة

جنح الظلام إما الى مجاهل الفيافي او الانحياش الى إيالة قائد من الجوار لذلك كان تقاعس عدد من فخذات ودواوير القبائل وتناقلهم في الاداء يمثل في حقيقة الامر مظهرا من مظاهر الرفض والتمنع، لولا أن يبادر المخزن في تشديد الخناق عليهم ولا يتورع عن إسناد ممثليه المحليون بقوة ضافية لمساعدتهم في استيفاء المونة. حصل ذلك على سبيل النمذجة لقبائل بني عمير وبني موسى في فترة إقامة المحلة الخليفية للمولى عثمان حيث أخبر في رسالته الى المركز ما يلي: « كنا أعلمنا بتأخير عمال بني موسى وبني عمير من تادلا عن دفع المونة للمحلة [...] ولا زال لم يظهر منهم أثر. ولما شعرنا بانحلال البعض من قواد الأراحي الجيشية والعسكرية من عدم المونة، كتبنا للعمال عليها وأظهرنا لهم التشديد بنزول بعض المخازنية وقواد الميئين على العمال للمونة [...] وشيء خير من لا شيء»⁶⁵⁹. ويظهر من ذلك أن تأخر تحصيل مونة الجند من العسكر والجيش كان يحدث نوعا من التذمر والإرباك في صفوفهم.

لكن يختلف الأمر عند مرور المحلة السلطانية، فيكون حجم المونة المطلوبة أكبر والدفع أسرع، ففي رسالة وجهها السلطان إلى كافة عمال بني عمير جاء فيها « [...] وبعد، فنأمركم أن توجهوا صحبة نوابكم وحامله العلاف مونة المحلة السعيدة وقدرها خمسمائة شاة قاطعة، وخمسة وعشرون قنطارا من السمن. وأما الشعير وقدره خمسمائة تليس فقد اسقطناه عنكم فليعجل كل عامل منكم بتوجيه منابه في ذلك »،⁶⁶⁰.

ويتضح أن حجم المونة التي حصلت عليها المحلة من بني عمير والمقدرة في 500 شاة و125 قنطار من السمن قد لا تكفي لإعالة الجيش أكثر من أسبوع. بتقدير 6 أو 7 آلاف جندي نظامي كان يرافق المحلة، وإذا لم يتدارك الأمر في حينه فإن المشاة وباقي الجند قد يواجهون صعوبة في التغذية لذلك كانت الرسائل السلطانية تصل تباعا إلى قواد القبائل الأمامية بشكل استباقي لاستنهاضها وتعبئتها لجمع ما يلزم من المونة لفائدة المحلة.

على أن القواد كانوا ملزمين في أن باستخراج المونة وكذا الواجب من الزكاة والاعشار يقدرونها تقديرا على كل من نابه من حصصها. وإذا تعذر الامر علي الملزمين فإن القائد كان يضطر الى تنفيذ امر الاعتقال في حقهم ولا يسرحوا الا بعد الدفع. ففي رسالة من السلطان الى مولاي الامين قائد المحلة الخليفية بالزيدانية يبلغه: بان كتابه وصل ومعه المساجين الاربعة من أعيان إخوان خديمنا القائد محمد الوكيلي مبينا أسماءهم وأنسابهم، قبضت عليهم رهنا في الخمسمائة

⁶⁵⁹ خ. م. ر : كناش 634 ص 11 مختصر رسالة قائد المحلة بتاريخ 14 رمضان 1308 هـ

⁶⁶⁰ خ. م. ر : كناش 353 ص 41 مختصر رسالة سلطانية بتاريخ 28 رجب عام 1300 هـ

ريالا، والستة والعشرين ريالاً الباقية على الخديم المذكور لكامل ما نابه حسبما قدمت الاعلام به وعرفنا ذلك. فقد وصلوا وسلسلوا حتى يسرحوا لموجهه»⁶⁶¹

ظل فرض المؤنة على القبائل قائماً طيلة ما تبقى من سنوات القرن التاسع عشر. بل امتد إلى فترة توقيع الحماية. ولفظ المؤنة وإن كان يحيل على معنى الاطعام ومساهمة القبائل في إعالة الجيش والعسكر المرافق للمحلة، فإنه في نفس الوقت كانت تجري علي مقاديرها عملية تخصيصية. كل حصة تمثل قسطاً يحتسب ضمن مرتبات الجند. ففي شهادة القبطان إيركمان الذي كان يرافق هذه المحلة، أشار إلى أن مرتبات الجيش تنقسم إلى مؤونة عينية وإلى أجرة نقدية. وهكذا كان قائد المائة على سبيل المثال يتقاضى 1.5 فرنك والفراس 40 سنتيم و15 سنتم للراجل⁶⁶². والمشاة ينالون أيضاً حصتهم عينا من الدقيق والسمن فضلا عن قدر من لحم الضأن لا يتجاوز مقداره لكل فرد ¼ كلف في اليوم. بينما كان قواد المائة زيادة على نيلهم قسطاً مضاعفاً من المؤنة كانوا يجلبون معهم مواداً يستهلكونها طيلة مدة الحركة وهي عبارة عن دقيق الشعير المحمص الذي يتم حصاده قبل اجتفافه بالحقول وهو ما يعرف لدى أهل البوادي ب (الزميطة) إضافة إلى مادة الخليج*، فضلا عن السكر والشاي.⁶⁶³ أما النوايب فإن قبائلهم كانت تتكفل بمقاديرها تموينهم.

وإذا كان قادة الفرق يتوفرون على حظ من الطعام يجلبونه معهم، فإن باقي المشاة كانوا يضطرون إلى انتهاب في غفلة من رؤسائهم ما يصادفونه أمامهم في الطريق من المواشي والمطامير أو أثناء الصوكات لسد رمقهم حسب إفادة القبطان. على أن الأمر بأدائها كان يقرن أحيانا بعملية تحفيز الملزمين بالاقْتصار على دفعها ليوم واحد في حالة ما إذا أدوا معها الواجبات من الزكاة والأعشار. بينما سيكون على كل من تأخر في أداء الواجب أو تماطل ملزماً بدفع نصيب من المؤنة يوميا وطيلة مدة إقامة المحلة [...] فمن

⁶⁶¹ خ. م. ر : كناش 353 ص 50 مختصر رسالة سلطانية بتاريخ مستهل شعبان عام 1300 هـ

⁶⁶² J. Erckmann : Op-Cit. P.271.

⁶⁶³ J. Erckmann : Op-Cit. P. .290

* الخليج ، مكون غذائي اشتهرت به المائدة المغربية منذ القديم .و يرجح كثيرا أنه من أصل اندلسي على غرار الحلوى المشبكة او طبق "البسطيلة المكون من لحم فراخ الحمام". و الاصل فيه انه غذاء قابل للتخزين في قلال الفخار لفترة طويلة. و هو عبارة عن قطع من لحم مجففة تفتت و تمزج بكميات من الزيت و التوابل المناسبة ، فيطبخ الى أن يستوي و يتبخر منه ما تبقى من الماء، ثم يحفظ ليستهلك بمقدار عند الحاجة . و بما أن اللفظ لا نعلم مصدره ، فإن اجتهادنا الشخصي إذا أصاب في تفسير المعنى ، فربما يقصد به اللحم الذي خُلِعَ منه العظم و الشحم تمييزاً عن القديد.

وجدته المحلة أدى فلا يطالب بشيء ولا يزد على يوم واحد في مؤنة المحلة، وغيره يقوم بواجب مؤونتها وحده حتى يؤدي، ولا يعينه غيره فيما أدى. «⁶⁶⁴.

المبحث الرابع، عزل قواد وتولية آخرين:

تعرضنا في المحطة الأولى من البرنامج السلطاني لقضية آيت الربع وعمالهم المتقاعسين عن الالتحاق بالركب السلطاني لسوس. وقد أرجأ السلطان أمر عزلهم وحبسهم إلى حين حلوله بالإقليم التادلي، ما يعني أن مسألة العزل والتولية كان مخطط لها سلفاً. باستثناء حالات طارئة يضطر فيها السلطان إلى عزل قائد تبين أنه أخل بواجباته كما حصل لقائد من بني موسى يدعى ولد اجليد، أعطى معلومات خاطئة حول إمكانية عبور مشرع الدشرة من واد العبيد في أمان، ثم تبين عند الشروع في اجتياز الوادي أن مياهه تسببت في مهلكة والحق غوره أضراراً بالأحمال من المدافع وزوام المحلة فكان جزاءه العقاب حسب إفادة شارل دوفوكو عن مخبريه⁶⁶⁵. وقد صادفنا نص رسالة سلطانية موجهة إلى القائد العربي بن عبد الله الموساوي جاء فيها: « وبعد، وصل كتابك ببيان أسماء من بقي عندهم متاع ولد اجليد فصار بالبال»⁶⁶⁶ ما يعني أن القائد قد تمت تنحيته من منصبه وخضعت ممتلكاته للمصادرة.

ويخضع كما هو معلوم نظام تولية القواد إلى عملية انتقاء دقيقة لاختيار من سيتولى المنصب المخزني، وتراعى فيه أهليته وكفاءته وإقدامه فضلاً عن مكانته الاجتماعية والاقتصادية وسط قبيلته.

لكن كل هذه الشروط لم تكن كافية لتبرير قبول اقتراح المترشح للمنصب. إذ كان المخزن تحذوه رغبة في توفر القائد المقترح من طرف أعيان قبيلته أو بواسطة مرابط أبي الجعد في أن يكون لتوليته عاملاً مساعداً في احتضان وامتصاص التوتر داخل إيالته وقادراً على تجسير العلاقة بين قبيلته والمخزن بشكل متزن. وأن تكون لديه نباهة في التدبير وتنفيذ الأوامر خاصة فيما يتعلق بأمور الجباية « فما نُصب العمال النصحاء إلا لاستخراج حق الله »⁶⁶⁷. فعندما وشى قائد من بني خيران بقائد من جواره طمعا في أن يسند إليه أمر إيالته كان الجواب السلطاني كالآتي: « القائد المرسلي الخيراني، وصل جوابك بحسن قيامك بالموجهين من قبلنا الشريف صحبة ابن عمنا الشريف وقرانتك كتابنا المعترز بالله على إخوانك وإجابتهم بالطاعة والامتثال، ومخبراً بعدم

⁶⁶⁴ خ.م.ر. مقتطف من رسالة السلطان إلى قبيلة ورديفة وعمالها بتاريخ الأول من رمضان عام 1300، كناش 353، ص: 168.

⁶⁶⁵ دو فوكو : نفس المصدر ص 87

⁶⁶⁶ خ. م. ر. : كناش 353 ص 75 .

⁶⁶⁷ خ. م. ر. : كناش 353، ص: 44.

ظهور أثر ولا ثمرة من خديمتنا القائد عبد الحق، طالبا إسناد إيلته لك فصار بالبال. وعليه فكل وراسه قد عين له رعيه وغرسه، فحيث تؤدي أنت جميع ما عليك بتمامه ولم يؤدوا هم يظهر حينذاك صحة قولك وعدم صدقه، ويعاقب كل بما يستحقه عزلا أو غيره»⁶⁶⁸

وعندما تتم تسمية القائد على قبيلته، يمنح له ظهير التولية يتضمن بداخله قرار التعيين، مع تحديد القبيلة أو الفرقة أو الفخذة المولى عليها. ثم يبعث رفقته ممثلا خاصا عن المخزن أو أحد قواد الجوار، وبحوزته رسالة سلطانية تتضمن بدورها تسمية قائدهم، من أجل إبلاغ أعيان ووجهاء القبيلة بقرار التعيين ودعوة الناس إلى مقابلته بالسمع والامتثال. ونسوق بهذا الصدد نموذجا من رسالة سلطانية في الموضوع وهي تماثل عموما باقي رسائل التوليات:

« خدامنا الانجاد قبيلة آيت حبيبي كافة من آيت سري وبعد، فقد ولينا عليكم أخاكم القائد محمد وسعيد واسندنا إليه النظر في أموركم. فنأمركم أن تسمعوا وتطيعوا فيما أولينا من الأمر والنهي في أمور خدمتنا الشريفة أسعده الله بكم وأسعده بكم ووفق الكل لرضاه»⁶⁶⁹.

جدول 24: لائحة بأسماء القواد الذين تمت توليتهم

اسم القائد	القبيلة أو الفخذ المولى عليه	تاريخ التولية	المصدر
العربي بن عبد الله الحمري	أولاد بوموسى	شعبان 1300	كناش 353 ص 38
صالح بن حدوالملاي	ربع بني ملال عن فخذ أولاد كناو	25 شعبان 1300	كناش 353 ص 61
جابر بن فارحة الملاي	ربع بني ملال عن حوز بني ملال	شعبان 1300	كناش 353 ص 61
المعطي الفناني السماعلي	السماعلة	16 شعبان 1300	كناش 353 ص 100
المصطفى بن لحسن	ربع بني ملال عن فخذ أولاد كناو	25 شعبان 1300	كناش 353 ص 100
أحمد بن صالح الحساني	قبيلة ورديفة عن فرقة بني حسان	6 شعبان 1300	ص 73
بوعزة أورش	قبيلة اشفيرن عن فرقة أولاد يعقوب او عيسى	23 شعبان 1300	كناش 353 ص 121
محمد بن بوعزة	قبيلة ايت اسحاق عن فرقة أزطوط	23 شعبان 1300	كناش 353 ص 121

⁶⁶⁸خ. م. ر: كناش 353، ص: 93 رسالة سلطانية بتاريخ 14 شعبان سنة 1300 هـ

⁶⁶⁹خ. م. ر: كناش 353، ص: 209 ملخص رسالة سلطانية إلى قبيلة آيت حبيبي بتاكزيرت، كناش.

مولود بن عمرو	قبيلة ايت اسحاق عن فرقة اسحاق عن فرق: ايت يعقوب واومانة، آيت اسماعيل آيت بواراهيم	23 شعبان 1300	كناش 353 ص 121
المرسلي الخيرياني	قبيلة بن خيران	منتصف شعبان 1300	كناش 353 ص 270

المبحث الخامس، ظواهر التوقير للصلحاء الأطلس والدير:

كان السلطان يولي أهمية كبرى للصلحاء والمرابطين ولم يفته في كل رحلة من رحلاته عبر تراب البلاد، القيام بزيارة أضرحة الأولياء وزواياهم وإغداقه العطاءات على حفدتهم والقيمين عليها.

ومن جملة الزوايا التي كان المولى الحسن يواظب على زيارتها، زاوية بن ساسي بإقليم الرحامنة وزاوية سدي رحال بالسراغنة، وزاوية الشرقاويين بأبي الجعد.

لقد شغل في واقع الأمر المرابطون ومن استخلف من حفدتهم، وظيفة اجتماعية لا تخلو من قيمة وأهمية. فقد كانت مقار زواياهم مقصدا للناس والأتباع وكل من يعتقد في بركتهم. ولم يقتصر الأمر على مناطق السهل رغم أن زواياهم كانت تعرف حركة أقوى، وتزايداً في الأتباع أكبر، وانفتاحاً على ما أبعد من مجالها أكثر من مناطق الجبل.

لكن زوايا وأضرحة المناطق الجبلية لم تكن أقل عدداً من مناطق السهل. فأهميتها الروحية لدى السكان وصفتهم الحيادية وانتشارها بالجبل والدير التادليين لم يكن إلا تعبيراً عن ضرورتهم الاجتماعية، وما تلعبه وظيفتهم من دور في تخفيض مظاهر التوتر الاجتماعي واستفادة السكان من إشعاعهم الديني والروحي في تحقيق جملة من التوازنات السياسية، من الوساطة بين القبائل وحلحلة المشاكل الاجتماعية والسيكولوجية للأفراد والجماعات.

إن اضطلاع الأولياء وزواياهم بهذه المهام كان من شأنه أن يحظى باهتمام المخزن، بل كان عليه أن يدعمهم ويشجعهم، كون عملية استقطاب واستمالة القبائل الطرفية بالجبل إلى الطاعة وانخراطها ضمن منظومته، لا بد أن يمر بالأضرحة والأولياء وحفدتهم مما يوليه من عناية بهم والإغداق عليهم من الكرم السلطاني.

وقد مثل منح ظواهر التوقير والاحترام وتحرير المنتسبين لهذه الفئة من الكلف وسائر الوظائف، دليلاً قوياً على درجة الاعتبار التي أولاها السلطان لهذه الفئة. ومن جانبهم لم يدخر المرابطون جهداً في خدمة المخزن وإبداء النصيحة كلما سمحت الظروف بذلك.

ونستشف من رسالة مرابط فشتالة سيدي عبد الحق الجزولي بأيت عبد اللولي من آيت سري إلى السلطان ما يؤكد ذلك، جاء فيها: « بأنه لازال على المعهود من محبته وخدمته في جانب السلطان، وأنه لم يأل جهدا في إرشاد أولئك القبائل (آيت سخمان) لضرب الفئة الفاسدة والتضييق بهم وقطع معاملتهم، وان اقتضى نظر السلطان إظهار البشاشة والرضى لأولئك القبائل فإن فيه مصلحة »⁶⁷⁰

لقد احتل موضوع الأولياء جانبا من برنامج السلطان. فبادر إلى توقيع ظهائر للحفدة والمنتسبين لهم من مستوطني الجبل والدير. ومن جملة من حظي بذلك، مرابطون من أولاد سيدي علي بن عبد الرحمن دفين آيت سري.⁶⁷¹ ومرابطون من أولاد الشيخ سيدي محمد بن امبارك الزعري دفين بلاد زيان⁶⁷² وقد ورد ذكر هذا الأخير في مؤلف كباء العنبر مع تحديد مكان مدفنه الواقع قرب ضريح الشيخ ابي يعزى⁶⁷³.

إن أبرز ما تضمنته الظهائر السلطانية لحفدة المرابطين، ما احتواه نموذج لظهير مرابطي آيت سري. فضلا عن تضمنيه لمظاهر التوقير والاحترام والحمل على كاهل المبرة فقد حظوا بالامتياز التالي: « وأسقطنا عنهم ما يطالب به العوام من التكاليف المخزنية والوظائف السلطانية، فلا يطالبون منها بقليل ولا كثير ولا جليل ولا حقير ولا يسام جانبهم بمكروه في وجه من الوجوه مراعاة لنسبتهم للولي المذكور »⁶⁷⁴.

وقد استفاد أيضا مرابطو زاوية سرفان بعمق الجبل الزياني بتجديد ظهير لهم. ارتأينا إدراج نصه إبرازا لهذه الوثيقة التاريخية والوقوف على صيغة الخطاب المضمن بها « جددنا بحول الله وعزته الظاهرة، وصولته القاهرة، لحملة المرابطين عمار زاوية سرفان من جوف جبل زيان حفدة ولي الله المتبرك به البلاد والعباد، سيدي محمد بن عبد الله إمام العباد، بمقتضى ظهير سيدنا الوالد جدد الله عليه من الرحمات الطارق والتالد، وأقررناهم على ما عهد من التحرير والتوقير والتعظيم والتعزيز والترقي على مراقي العناية، والبرور والمراعاة بالرعي الجميل الشهور والدهور، حتى لا تخرق عليهم العادات ولا يسامون بضيم ولا هضم سائر الاوقات

⁶⁷⁰ خ.م.ر: كناش 172، ص: 113.

⁶⁷¹ خ.م.ر: يوجد نص الظهير الشريف بالصفحة 100 من كناش 353.

⁶⁷² خ.م.ر: كناش 253، ص: 217.

⁶⁷³ المنصور أحمد: مصدر سابق، ص: 177.

⁶⁷⁴ خ.م.ر: كناش 353 ص 100 مقتطف من ظهير شريف صادر بتاريخ 16 شعبان 1300هـ.

والساعات. وعليه ولأجله نأمر الواقف عليه والواصل إليه خدام خِدْمنا الشريفة وولاية أوامرنا العالية بالله المنيفة ان يعمل عامله منتضيا لحدده سائرا على رسمه واقفا عند حده « 675 .

كما انعم السلطان بظهير على مجموعة من المرابطين الحنصاليين القاطنين بأعلى واد درنة والحاquem بزمره المنعم عليهم بأردية التوقير والاحترام هذا نصه: « يستفاد من هذا الرقيم الكريم العالي القدر المنيع الحريم المعتر بالله العلي العظيم، اننا بالعون الالاهي والتأييد غير المتناهي، الحقنا حملته المرابطين الحنصاليين قُطان واد درنة سفح جبل آيت سري من بلاد تادالا بإخوانهم وبني عمهم المنتشرين في الأقطار في التوقير والاحترام، وجعلناهم مثلهم في التحرير ورفعة الأقدار، وقد ادخلناهم في عموم ظهيرنا الشريف الذي بيدهم، فهم فيه من جملتهم. لهم ما لهم وعليهم ما عليهم إن كانوا منهم وشملتهم تلك الظهائر « 676 .

إن إصدار كل هذه الظهائر الشريفة لمرابطي المناطق الديرية والجبلية، تعكس من جانب آخر مدى ارتباط هؤلاء المرابطون بالمخزن الذي كان يتأمل منهم الحرص على إبقاء اواصر التلاقي والانصهار ضمن منظومته الايديولوجية الثابتة بعيدا عن كل تأثير سياسي أو الانقياد لحركة دعوية لا زالت ملامح نشاطاتها المهدوية تخيم على سماء الجبل التادالي 677 .

المبحث السادس، التحكيم 678 والفصل في المنازعات :

تعد وظيفة التحكيم في حياة المجتمع المغربي شكلا من أشكال إقامة العدل وطلب الإنصاف لحل الخلافات والصراعات التي تحدث بين الناس جماعات كانت أم أفرادا يتقدمون به إلى من يتحلى بالورع، والانصاف، ورجاحة العقل والحيادية. مع ارتضائهم لنتيجة التحكيم دون أن يسلكوا مسلك القضاء والشرع. وقد كان الشرفاء والمرابطون والصلاح وشيوخ القبائل وزعمائها أهم القنوات التي كان يلجأ إليها المتنازعون.

من هذا المنطلق وعلى مستوى أعلى، مثلت وظيفة التحكيم السلطاني وكما سبقت الإشارة الى ذلك في فصل سابق، عنصرا بالغ الأهمية في حل النزاعات من مستوى اجتماعي اوسياسي أوقبلي تكون قد بلغت درجة من التعقيد والاحتقان انسدت أمامها كل أسباب الانفراج وأوجه

675 خ.م.ر: كناش 353 ص 205 ظهير شريف صادر بتاريخ 13 رمضان 1300هـ.

676 خ.م.ر: كناش 353 ص 93 . و صدر الظهير بتاريخ 14 من شعبان عام 1300 هـ
677 ظلت حركة الادعاء من آل امهاوش بالجبل الصنهاجي بالاطلس المتوسط نشطة منذ عهد المولى اليزيد و تنقلت في تبعيتها من الناصرية الى الدرقاوية و تسببت حركتهم في تحريض و تأليب سكان الجبل ضد المخزن ، و لم تكن توسم تلك الحركة في المصادر التاريخية الا بالدجل .

678 لمزيد من الاطلاع على وظيفة التحكيم السلطاني: راجع مؤلف جرمان عياش، مصدر سابق، من ص: 145 إلى 164.

الحلول، إلا بما يفرضه خيار التشوف إلى التحكيم السلطاني والتطلع إلى انصافه و عدله وبما يتحقق تحت ناظريه من دواعي مراعاة المصلحة العامة وقيم العدل والإنصاف.

وقد كان من بين القضايا التي أرجأ الحسم فيها الى حين طرحها من طرف المتنازعين أمام أنظار السلطان بمحلته وهي بالمجال التادلي. ما حدث من شجار ونزاع بين قبيلة آيت هودي والقائد موحى أوحمو استعمل فيها أفراد من القبيلة العنف والسلاح ضد فرقة عسكرية كان يرأسها القائد في مهمة مخزنية الى مدينة مكناس.

ولما كانت أسباب النزاع قد استفحلت وسمحت للبغضاء في أن تكبر وتتفشى أسباب الحقد والتنافر بين الفريقين، وهي أسباب لم تكن تخرج عن دوامة الصراعات القبلية والرغبة في استقلال القبيلة عن سلطة القائد الذي لم يتورع عن تمطيط نفوذه ليشمل المناطق من شمال آيت سري منها آيت هودي، ومهاجمتها إياه لم تكن الا تعبيراً عن رفض القبيلة الخضوع لسلطته، فإن تواجد المحلة بالإقليم التادلي كان مناسبة لعرض الطرفين قضيتهم بين يدي السلطان، وهوما كان على علم به وأخر الفصل فيه إلى حين حوله بين ظهرانهم.

المطلب الاول، اطوار انعقاد المجلس التحكيمي:

وحتى نأخذ فكرة عن ما صدر عن نتيجة التحكيم السلطاني والفصل في النازلة، فقد انعقد مجلس بالقبة السلطانية يوم سابع رمضان من سنة 1300 هـ بحضور الفرقاء والشهود للوقوف على توثيق عقد الصلح بينهما وفق الترتيب التالي :

- الحضور من الشرفاء والمرابطين: الشريف محمد الامراني⁶⁷⁹ . والمرابط محمد بن المدني الناصري.

- الحضور من جانب المخزن: القائد محمد بن الطالب اليوسي⁶⁸⁰، والقائد عمر بن الحسن الزمراني والقائد المعطي الشاوي والقائد محمد بن المهدي الدكالي البوزراري والقائد عبد الرحمن المسفيوي والقائد علي المزوشي.

- الحضور من جانب آيت هودي وهم الاعيان: الحاج مزوغ بن عبد الرحمن وعبد العزيز بن امبارك ورح بن علي الخامسييني والحسن بن امبارك من آيت موسى ولحسن بن محمد من آيت

⁶⁷⁹ سيكلف لاحقا من طرف السلطان بالمرابطة بإدالة قرب ملوية لمحاصرة آيت سخمان من جهة الشرق
⁶⁸⁰ تم اغتيال هذا القائد من طرف مهاجمين من ايت يفلمان على حين غرة إذ لم يأخذ حذره منهم شهر محرم سنة 1308 ، و نترك رسالة المولى رشيد الى السلطان تتحدث عن الواقعة : بأن ايت يفلمان و من تحزب معهم من القبائل أحاطوا بالقصر الذي وصله خديم سيدنا محمد الطالب اليوسي و هو طُط فدخلوا عليه اليه و قتلوه شر قتلة و حملوا رأسه للخديم محمد احم الزياني بعد التمثيل بجثته ...و أن بعض الاعراب الصباح قدموا بالطنابير و المزامير التي سلبوا للعسكر يتمسخرون بها في مداشرهم (كناش 172 ص 110)لكن سيؤدون ثمنا غاليا عن فعلتهم في حركة سلطانية الى تافيلالت

داوود أناصر ومحمد بن حدويدعى ولد يط ورخ من آيت عبد الرزاق وعلا بن محمد الحديديوي واحمد بن قدور الملالي.

- من جانب المتظلم موحى اوحم الزياني : نفسه.

وبعد تداول موضوع الشكاية فيما بين الحضور ومناقشة اسباب وحيثيات النزاع المنتشب بين الطرفين تم حسم القضية والفصل فيها حقنا للداء والصفح عما سلف، والاقرار على بنود الاتفاق والالتزام بمقتضاها⁶⁸¹. وهو كالاتي :

- توظيف ألف ريال على قبيلة آيت هودي تسلم للقائد موحى وحم الزياني "رفنا لما خرقتا وصلحا عما اسلفوا". أدوه حالا

- تعاطي عهد الإخاء و"الود تبارءا لما سلف كله بالابراء التام الشامل المطلق العام".

- التحمل بدرك(بضبط) من له، القائد بإيالته والجماعة بقبيلتهم، تحملا لازما لهم.

- إن صدر من العامل المذكور او من إيالته ما يؤذن بنقض ما أبرم من الصلح المذكور فيؤخذ به ويكون دركه وعهدته راجعة إليه.

- إن صدر من القوم الآخرين خلاف لما تعاهدوا عليه من ذلك او من إخوانهم فتؤاخذ هذه الجماعة أحدثوه واحيوه مما سلف بإعطائهم خمسة آلاف ريالا ذعيرة لبيت المال من غير توان ولا إمهال، كما يعطي ذلك فريق القائد المذكور إن نقضوا ذلك الاخاء برضى كل هؤلاء وهؤلاء من غير مطال.

- الالتزام بشد عضد بعضهم بعضا فيما يؤول الى الخدمة السلطانية والوامر المخزنية، وأن يكونوا فيها يدا واحدة ونفسا متحدة بحيث لا ينحرفون عنها ولا يخرجون عن الطاعة والاقنتال بحال.

حصل التحكيم وانحلت عقدة الخلاف وأذعن الطرفان لشروطه والتزاموا التقيد به، وأبرم على إثره العقد الصلحي بصياغة القاضي عبد الواحد بن المواز بخط العدلين محمد المسطاري المكناسي والشريف محمد بن احمد العراقي من طلبه الحديث مع تركية محتواه بظهير سلطاني ثم توقيعه وإصداره بتاريخ 8 رمضان عام 1300هـ.

يتبين من خلال بنود العقد الصلحي بين طرفي النزاع ،وبصرف النظر عن نقط التسوية التي شملتهم، فإن المركز تمكن من اهتبال هذه الفرصة لدفع قبيلة آيت هودي الى الالتزام بشد

⁶⁸¹ خ.م.ر: كناش 353، ص: 193 نص العقد المبرم بين موحى وأحموا لزياني وآيت هودي ، تم استخراج نسخة منه.

عضد القائد وتسهيل مأموريته في كل ما يتعلق بالأمر المخزانية، وعدم جنوحهم مرة أخرى الى خيار النزاع المسلح.

المطلب الثاني، رد المظالم :

كان السلطان يخصص جزءا من وقته للاطلاع على قضايا الناس وشكاياتهم المعروضة أمامه، يفصل فيها، وينصف المظلوم من الظالم، ولم يكن يتردد في توجيه اللوم والتوبيخ للقواد المستبدين والمقصودين في الغالب بجورهم وظلمهم في الشكايات.

ومن جملة ما بلغه من تعسفات هؤلاء القواد، ما وقفنا عليه من رد سلطاني على رسالة قائد المحلة الخليفة بالزيدانية حول ما أبلغ به هذا الاخير السلطان من تعديت القائد بوزكري العميري جاء فيها : مولاي الأمين وبعد، وصل كتابك شارحا ما ارتكبه خديمنا القائد بوزكري العبدلوي مع دوار أولاد نجاع من إيالته نهبا وفتكا وفعلا غير مرضي، مع براءتهم من موجب ذلك لأدائهم ما عليهم [...] فقد اساء فيما فعل وها نحن كتبنا له في ذلك باللوم والتوبيخ والرد، فإن فعل فاعلمنا. « 682

وفي رد سلطاني على شكاية المرابط سيدي بن داوود عن تظلمه بشأن هضم نصيبه في حصة ماء ساقية، كان يستفيد منها عزيبه الذي بالسراغنة جاء فيه : « سيدي بن داوود، وبعد، فقد أجاب العسولي عن قضية النوبة من ماء "كانيو" المنفذة لك بأنه لم يكن على بال من ذلك والان ها هو تخلى لك عنها وفق أمرنا» 683

كما بعث برسالة الى القائد جابر بن فارحة الملالي يستفسره عن تظلم احد سكان المدينة منه : « وبعد، فقد اشتكى على حضرتنا العالية بالله كبور بن قدور الملالي الحمداني من إيالتك أنه كان يتمخزن معك برسم الحركة، فعمدت اليه وأخذت فرسه من غير ان يعرف لذلك موجبا، وعليه فنأمرك ان تخبر بالواقع على وجهه وموجب ذلك» 684 .

وبما أن المجال لا يتسع للتطرق لكل القضايا، فإنه تم فقط طرح نماذج من وقائع عكست صداها نصوص الوثائق المخزنية، سمح لنا الاطلاع عليها بالوقوف على سير التدبير السلطاني لشؤون الاقليم التادلي وحرصه على تحقيق ما تم الاعداد له من برنامج خريطة الطريق طيلة سير المحلة.

682 ح.م.ر. ملخص رسالة سلطانية إلى المولى الأمين كناش 353، ص: 44.

683 خ. م. ر. : كناش 353 ص 75 ملخص رسالة سلطانية الى المرابط بتاريخ 7 شعبان 1300هـ.

684 خ. م. ر. : كناش 353 ص 86 ملخص رسالة سلطانية الى المرابط بتاريخ 10 شعبان 1300هـ.

المبحث السابع، الأمر بصيد الأسود:

اشتهر أسد بلادنا بأسد الأطلس، كون بينته المفضلة التي نشأ عليها هي جبال الأطلس المتوسط وربما انتشر نسله الى ابعد من ذلك. لكنه اشتهر أيضا بانعزاله ونادرا ما كان يشاهد خاصة أمام تناقص أعداده، فكان يزيد من ابتعاده وتواريه عن الانظار تزايد نشاط الحركة السكانية بالمناطق المأهولة، فتأخرت منه أعدادا قليلة بالجبل إلى حدود البدايات الاولى من القرن العشرين. غير أن المصادر التاريخية لم تهتم كثيرا بحيوان الأسد. وإذا ما استثنينا ما جاء من روايات الزيات في ترجماته عن صلحاء تادالا من بينهم أبو عبد الحليم الصديني وأبو يعقوب يوسف بن علي المؤذن وقدرتهم على الثبات عندما يداهمهم الاسد، فلا يولونه الادبار، بل يصمدون امام رهبتة، فلا يجراً على إذابتهم⁶⁸⁵، فإنه وبعد تصفحنا لعدد من المصادر، والبحث في نصوص الإخباريين ومتون التأليف التقليدية لم نعثر على ما يفيد من إشارات حول أماكن تواجده وتكاثره وطرق تعامل الناس لدرء مخاطره، رغم أن نوعه متميز عن باقي الضواري، إلا ما عثرنا عليه من إشارات عابرة في بعض مصادر التأليف الرحلية للأجانب أو من إشارة محلية بكونه يوجد بالأففاص داخل القصر السلطاني⁶⁸⁶.

ومن تلك الإشارات القليلة جدا، ما سجله الأسير الأفرنجي مويط في رحلته زمن السلطانين المولى الرشيد واسماعيل⁶⁸⁷ في حديثه عن طريقة اصطياد الاسد ووضعه في القفص. بينما أكد فوكو "أن بغابات الجبل يوجد السبع والنمر"⁶⁸⁸، والمقصود بغابات الجبل تلك المساحات الشاسعة من جنوب الأطلس المتوسط المتاخمة للسهل التادالي.

لكن ما يثير الانتباه عند الحديث عن الاسد المغربي هو ما آل اليه امر انقراض نوعه من البراري لولا ما وقع من تدارك في انقاذ آخر أثر له.

وعموما فقد ارتبط حفظ ما تبقى منه من الاندثار الكلي بعاملين اثنين: ما كان يتم الاحتفاظ به إلى جانب الفهود داخل القصور السلطانية⁶⁸⁹. وما كان يقدم كهدايا للدول الأجنبية بواسطة قناصلها، وعلى الأرجح كان يتم الاحتفاظ به في حدائق حيوانات عواصمها.

⁶⁸⁵ ابن الزيات ابي يعقوب يوسف التادالي (م.س)صص 166و 168 .

⁶⁸⁶ السوسي المختار: (م.س) الجزء 20، 961، ص: 75.

⁶⁸⁷ مويط: رحلة الأسير مويط ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر. مركز الدراسات والبحوث العلمية الريصاني وزارة الثقافة، دار

المناهل للطباعة والنشر 19990، صص 45. 51 و 52.

⁶⁸⁸ دوفوكو شارل: (م.س) ص: 79.

⁶⁸⁹ J. Erckmann. OP- Cit. PP.224/225.

ما يهمننا من كل هذا، هو ما ظهر من رغبة السلطان أباها عند مرور محلته بالطريق المحاذية لحافة المنحدر الديري شمال مدينة بني ملال، وتتمثل في أمره باقتناص أسد وأشباله والموافاة بهم أحياء لدى المحلة. وهي وإن كانت عملية ليس من اليسير إنجازها، فقد لزم الأمر بعث رسالة سلطانية إلى عدد من شيوخ الرماة الأشداء المتمرسين ولكافة مقدميهم من قبيلة آيت سري، لحتهم على القيام بهذه المهمة على الوجه المطلوب جاء فيها: « نأمر خدامنا الأرضيين مقدمي الرماة بآيت يسري وهم : المقدم امبارك، وابن هم والمقدم مُحَاوِحا والمقدم الجليلي بتكزيرت والمقدم علي أوباسو بآيت حبيبي، ومقدم آيت سعيد، ومقدم آيت داود او علي وغيرهم من مقدمي رماة القبيلة المذكورة أن يصطادوا لعلي جنابنا النوع المسمى بالأسد من السباع المعروفة عند الناس بالسبع، وباللغة البربرية إزم في إبانه، فإن تأتي لهم ذلك يأتون به حيا فهو الأولى، وأشباله أي أولاده أحياء، ويقومون به لحضرتنا الشريفة أو يدفعونه لخدمنا القائد موحى أوحمو الزياني يوجههم لحضرتنا العالية بالله، ولكم منا عن ذلك ما تأملونه من جنابنا العالي بالله من الإحسان.»⁶⁹⁰ .

لقد جرت العادة وحسب الأعراف الدبلوماسية المتبعة فيما بين الدول خلال القرن التاسع عشر وما قبله، أن يكون من بين الهدايا المتبادلة ما يُرمز به من فخر، ويمثله من قيمة اعتبارية لدى الامم والدول. ففي خطوة دبلوماسية لتمتين العلاقات بين المملكة الشريفة والولايات المتحدة وتجديد الاتفاقيات المبرمة فيما بينهما، بعث السلطان المولى عبد الرحمن بعدد من الهدايا رفة القنصل الأمريكي الى بلده كان من بينها أسد تم اصطياده من الاطلس. وبذلك كانت امريكا تتلقى اول هدية في تاريخها من هذا النوع. ورغم حدة النقاشات و السجلات التي جرت بالكونغريس الأمريكي بشأن من يتحمل المصارف اليومية التي تتطلبها الاعتناء بالأسد المغربي البالغ قدرها دولارا واحدا في اليوم، هل الرئيس ام الدولة ؟ وبعد ان استقر رأي الجميع على تحمل الدولة بتكاليفه، فان الغبطة التي ابداهها الامريكيون بالهدية، جعلت السلطان يبعث بأسد آخر ولبوة وربما بأشبالهما⁶⁹¹ .

وفي سنة 1844 وبعد توقيع معاهدة صلح بين الايالة الشريفة والدولة الفرنسية في اعقاب معركة ايسلي وتهديدها للسواحل الاطلسية، بعث نفس السلطان سفارة الى فرنسا لتخفيف حدة التوتر و تزكية عقد الهدنة معها تحدث عنها مجهول في كتابه الابتسام بالقول : "[...] وفي احدى وستين بعد عقد المهادنة، بعث خديمه الحاج عبد القادر اشعاش عامله على ثغر تطوان

⁶⁹⁰ خ.م.ر. كناش 353، ص: 209 مختصر رسالة السلطان إلى رماة ومقدمي رحي قبيلة آيت سري بتاريخ 19 رمضان 1300.

⁶⁹¹ عبد الهادي التازي : تاريخ الولايات المتحدة في المصادر المغربية . مجلة المناهل عدد 12

الى طاغية الفرنسيين، فسافر مع جماعة من أعيان بلده تطوان وصحب معه وحوشا وخيلا وتحفا"692 .

بينما كان السلاطين ايضا يتوصلون بهدايا من هذا القبيل. ففي رحلته بين مراكش وفاس سنة 1308هـ، اسماها المؤلف المجهول في كتابه مراحل الحركات السلطانية، ب "حركة الفيل"693 تلقى خلالها السلطان المولى الحسن بعد مغادرته الاقليم التادلي ووصوله لقبائل زمور الشلح، هدايا من الدولة الانجليزية694، من جملتها "[...] فيل عليه كسى وحلي ووقع على رؤيته ازدحام عظيم"695. كما وصف محمد المشرفي استقبال السلطان لهدية الفيل من ملك انجلترا بالاتي : "بعد إتيانه من ارض الهند، فوصل والسلطان مخيم بسيدي علي الجراري من ارض زمور الشلح، فزين له بالسرج المنمق، وجيء به لمواجهة السلطان وهو بالسيوان [...] وحيث قابل السلطان، صار يقبل الارض بخرطومه بالتحية، فتعجب الناس منه [...] وفي أوائل ربيع النبوي (1309هـ/ نوفمبر 1891م) دخل السلطان فاسا والفيل أمامه على أحسن كيفية، وكان يوما مشهودا، أخرج كل من بالمدينة لرؤيته من رجال ونساء وولدان وشيوخ."696 اما الطيب اليماني بوعشرين فقد ذكر أن في ايام هذا السلطان دخل الفيل للمغرب ورأيناه بمكناس وفاس ثم مات عام احدى عشر وثلاثمائة قبيل وفاة السلطان.697

المبحث الثامن ، واقعة السماعلة:

نالت واقعة السماعلة في الرحلة السلطانية العاشرة اهتماما لدى الاخباريين المغاربة698 وحتى الاجانب وتحديددا منهم الضابط ايركمان699. ليس لأن المعركة قد تم حسمها بسرعة بالقضاء على المتمردين المتحصنين بقصرهم، وفرار الناجين منهم تحت جناح الظلام، بل لأنها مثلت نموذجا للمعارك السهلية المثالية التي يكسبها الجيش السلطاني باعتماد خطة الحصار واستعمال المدفعية. فنهايتها الدرامية زادت من حماسة الاخباريين بالثناء والإشادة بقوة المخزن الضاربة في قدرته على احتواء التمردات القبلية.

692 مجهول : مخطوط الایتسام ، ورقة 235

693 مجهول: كناشة سابقة، ورقة 23.

694 السباعي ابراهيم: (مخ.س)، ص، 400.

695 لا تعتبر انجلترا موطننا للفيل والراجح أنه قد تم جلبه من الهند التي كانت تحت الاستعمار الانجليزي

696 المشرفي محمد : (م.س) 2 صص 202,203

697 بوعشرين الحسن بن الطيب بن اليماني:(مر.س) ص41

698 السباعي ابراهيم: (م.س)ورقة 311

699 J.Erckmann. Op-Cit : PP.213.214.215.

فكما سبقت الإشارة في حديثنا عن إبقاء أمر وجهة المحلة السلطانية في دائرة الكتمان إلى آخر لحظة. ونفهم منذ البداية أن الوجهة السلطانية تقرر أن تكون عبر الطريق السلطانية المارة بقصبة تادلة على تباينوت في اتجاه مكناس⁷⁰⁰ "لإنها لا وعرف فيها" حسب مضمّن الرسالة السلطانية بتاريخ شهر شعبان إلى الشريف الأمراني المقيم بمحلة زيان. إلا أنه قبل ذلك أي في نهاية شهر رجب وجه السلطان رسالة إلى القائد موحي أوحمو يبلغه بالآتي: « نأمرك أن تنهض بحركة إياتك على حد الصائم، بالخيل الصحاح النفاة والرماة الأبطال الأتجاد وذوي الشجاعة. وتنزل بهم بنواحي بني زمور الى ان نأمرك بما يكون عليه عملك »⁷⁰¹.

ويظهر من الرسالة دعوة السلطان لموحي أوحمو إلى استنفار وتعبئة جند إدادته وفرسان ورماة من قبيلته على حد الصائم، أي من الشباب البالغين السن الشرعي الذين يسمح لهم بحمل السلاح والقيام بمهمات حربية.

والحقيقة أن هذه الدعوة، تستبطن مضمونا حريبا بكل تأكيد. لكن دون الإفصاح عن الوجهة المقصودة بها ولا طبيعة المهمة المتوخاة منها. فقد بقي الأمر مبهما ولم يكن من المتاح الاطلاع على غايته.

تابعت المحلة سيرها ببطئ وفق خط مسيرها المرسوم متنكبة السطح الديري، فخيمت بغرم العلام⁷⁰² قبل أن تأخذ طريقها المارة بمجال بني زمور لتحصيل ما أمرت به القبيلة من الوفاء بأداء مستحقاتها في متأخر الواجب عن ستة سنوات، لتخيم بتراب فخذة البراكسة من قبيلة السماعلة بيت القصيد.

كان الوقت صيفا شديد الحرارة والشهر شهر رمضان الفضيل، وسكان القبيلة لا حيلة لهم أمام ضغط جبائي لافكاك منه، والمحاصيل الزراعية على قلتها لازال أغلبها قائما في الحقول. لكن المحلة كانت قد دهمت أرضهم، ولم يعد أمر تأخير دفع الجباية قائما، فقد سبق السيف العدل. "توجه السلطان إليهم بالجيش والعسكر، ولما أيقنوا بالتوجه إليهم أخذوا في التمتع والحذر وتأهبوا لمقاتلة جيش السلطان[...]. فتقدم إليهم الجيش وهم في قصبتهم ومتحصنهم يقوده السلطان"⁷⁰³ بهذه العبارات قدم السباعي صورة عامة لنذر معركة كان قد أعد لها السلطان من منظور عزمه على إنزال العقاب بالتمنعين من هذا الفخذ عن أداء الواجب وقد اغتروا ببناء حصن

⁷⁰⁰ خ.م.ر: نفس الرسالة.

⁷⁰¹ خ.م.ر: مختصر رسالة سلطنة بتاريخ 28 رجب 1300، كناش 353، ص: 40.

⁷⁰² في رسالته الى قواد لآيت سري وآيت الربع امر السلطان بأمرهم ان ينزلوا بمونة المحلة بغرم العلام . كناش 353 ص 75

⁷⁰³ السباعي بن ابراهيم، (مخ.س)، ورقة 313.

لهم كانوا يعتقدون أنه سيكون مانعهم من سطوة المخزن. ومن غير المستبعد أنهم كانوا يجهلون ما تحدثه المدافع من قوة الهدم والتدمير.

كان القبطان إيركمان شاهدا على الحدث ومن موقعه العسكري وخبرته الحربية، تناول سير أطوار المعركة التي أبدى فيها الثوار المتحصنين داخل قصبتهم مواجهة وصد عنيفين أدى إلى مقتل 400 من الجند المشاة و50 من المدفعيين⁷⁰⁴.

لكن نهاية المعركة كانت مأساوية للثوار. فقد هدمت المدفعية حصنهم على رؤوسهم وتسللت النساء والأطفال والشيوخ عشاء بين الانقراض طلبا للنجدة والاستسلام، بعدها مباشرة، " تقدم أهل الوجاهات من المرابطين يطلبون لهم الشفاعة فقبلها السلطان منهم"⁷⁰⁵. وهكذا غادرت المحلة الاقليم على الضابط المألوف قاصدة قبيلة زعير بعد أن أتمت مهمتها وأكملت عملها المخصوص بالمجال التادلي.

خاتمة:

وقفنا من خلال تتبعنا لنموذج من تجريد محلة سلطانية بالمجال التادلي. وعلى دقة تنفيذها لبرنامج عملها تم إعداده سلفا، وعن كيفية مباشرة السلطان تدييره لعدة قضايا، منها ما هو اقتصادي وسياسي واجتماعي انطلاقا من قبة المحلة التي اصبحت و هي بداخل الاقليم التادلي تشد الاطراف إليها شدا بمثابة مركز الحكم في البلاد. وقد بينا أيضا كيف أن المحلة السلطانية رغم ما تداولته عنها كتابات الاجانب من الأوروبيين من كونها مجرد جولات عنف هدفها جمع أموال الضرائب وفرض الكلف واستنفاذ أرزاق الناس، وإنزالهم إلى مدارك الفقر والإفلاس، بينما الواقع كان خلاف ذلك. فقد كان تحركها يخضع لنظام محدد فيه الثابت الذي لا يزيغ عما اتبعه أسلاف السلطان، وفيه المتحول تجاوبا مع المتغيرات الظرفية وربما استقبالا قد تصبح جوهرية.

فالمجتمع التادلي لم يعرف طيلة مراحل وأطوار تحرك هذه المحلة أي ابتزاز في الاموال أو مساومة على الحريات. فرغم أن قبيلة السماعلة قد نالت من عقاب المخزن ما اعتبره جوابا على تجاسرها وخروجها عن الطاعة ورغم عدم استبعاد حدوث تجاوزات هنا وهناك من قبل الجند والعسكر، إلا أن برنامجها وأهدافها ظلا ثابتين على الضابط المرسوم، ولم تكن أشغال الجباية فيهما بخارجة عن نطاق المعقول.

⁷⁰⁴ J. Erckmann. OP- Cit. P

⁷⁰⁵ السباعي ابراهيم: نفسه، ورقة: 314.

وحتى يكون لهذا التقييم المختصر ما يبرره، فقد رمنا في الختام، الاستشهاد بملاحظة انفلتت من بين يدي دوفوكو لم يعر لمضمونها انتباها، بينما كانت الجواب المفند لكل ادعاء مجاني للحقيقة من كون مرور المحلات المخزنية إنما تترك الأرض قاعا صافيا.

فأسابيع فقط على مرور المحلة بالوسط الذي حل به الرحالة، وعند مغادرته القصبه التادلية قاصدا قصبه بني ملال، وبعد ان أجال ببصره متأملا السهل الممتد الاطراف فسيح الارحاء، تحده من جهة الشرق كتلة الدير الرمادية، سجل ملاحظته كما يلي:

" تُكوّن الدواوير صفيين طويلين يمتدان متوازيين مع قدم السلسلة الجبلية، وينتشران على شكل نقط سواء حتى الأفق، ترعى بجوار هذه القرى الإبل والثيران والضأن في شكل قطعان كثيرة"⁷⁰⁶.

أما والتر هاريس فنجده يناقض نفسه بشأن تشبيهه الحركة السلطانية عندما تحل بناحية ما، بجراد الصحراء، وان السكان يفرون أمامها الى مناطق نائية. فلا ندري كيف سيصمد على إقراره بهذا الانطباع ويزكيه بحجة، أمام ما سجله في نفس سياق حديثه عن المحلة بالقول: "تنشط التجارة مع الحركة ويتم عرض سلع متنوعة ويقبل على شرائها الأهالي"⁷⁰⁷.

⁷⁰⁶ دوفوكو شارل : مصدر سابق ص 79
⁷⁰⁷ والتر هاريس : مرجع سابق، ص 3

الباب السادس

قراءة وثائقية في تاريخ الحركة السلطانية على آيت سخمان،
محاولة في التحليل و التركيب.

الفصل الاول، محلة سلطانية بنفس عسكري واتجاهات تدبيرية متعددة

الاهداف والابعاد.

الفصل الثاني، السلطة المخزنية و قبائل آيت سخمان من الاحتواء الى

التطويع .

الفصل الثالث، نتائج الحركة بين الحصيلة والتقييم .

الفصل الأول ، محلة سلطانية بنفس عسكري واتجاهات تديرية متعددة الاهداف والابعاد.

- المبحث الاول، في اختيار الاداة المصدرية .
- المبحث الثاني، سياقات الحملة العسكرية على آيت سخمان .
- المبحث الثالث، الإعتداد والتهيئ للحملة .
- المبحث الرابع، خطة مخزنية تم اتباعها اتبعها على مستوى التكتيك العسكري .
- المبحث الخامس المركز السلطاني والتشكيلات العسكرية بجبهة الشمال السخماني.

الفصل الأول

محلة سلطانية بنفس عسكري واتجاهات تديرية متعددة الاهداف والابعاد :

تم الحديث في الفصلين السابقين من الباب الاخير، عن تعدد وظائف المحلة السلطانية خلال مسار رحلتها صيف 1882 م وكثافة حضورها و ما يعنيه ذلك من دلالات السطوة و فرض هيبه الدولة بقصد ربط الطرفي بالمركزي، و كذا الغايات المتوخاة من تجريدها وهي تجوب المجال التادلي، ومدى اضطلاعها بمهام تديرية متعددة ومتنوعة وفق برنامج محدد ومسطر مسبقا، يتم تنفيذه حسب سياقات معينة، وبمقتضى ما تمليه الامكانيات و تفرضه الخيارات السياسية التي يتبعها المخزن في تعاطيه لقضايا المجتمع المحلي التادلي. الا ان اختيارنا هذه المرة وقع بالدراسة والبحث حول محلة سلطانية اختلفت اهدافها وغاياتها و ابعادها عن سابقتها. محلة وان كان تجريدها يندرج دائما ضمن الاطار العام للتصور المخزني في التعاطي لتدبير شؤون البلاد والمجتمع، الا ان مقصدها كان بهدف مختلف، بل يمكن القول ان حلولها بالاقليم التادلي وإقامتها بقرية اغرم العلام قرابة شهر من سنة 1308 هـ لم تكن لها من غاية أساسية الا تجريد حملة عسكرية على ايت سخمان. فقد اخذ المخزن على عاتقه تنفيذ وعده بانزال العقاب في حق القبيلة، تأديبا لها على تمادي بعض سكانها في التنطع، بما اقترفوه من فعل لا يتناسب مع اعراف وقيم المجتمع المحلي اجمعت كل المصادر التاريخية التقليدية المعاصرة بتسميته "بوقعة الغدر". أي إقدام جماعة من القبيلة على قتل شريف أعزل هو ابن عم السلطان وجماعة من مرافقيه غيلة وسط حلثهم بعد ان أمنوه واستضافوه.

وتسعدنا الإشارة للتتويه بداية، ان تناولنا للحملة العسكرية " التاديبية " حسب ما يسمه بها مأثور الخطاب الرسمي، وقد باشرها المخزن المركزي ضد قبيلة طرفية عسية، اقترف اهله سلوكا غير معتاد، لا نستهدف من إثارتها بالدراسة والتحليل من زاوية سردية ولا تناولها ضمن نطاق ما يعرف بالتاريخ الحدتي الضيق، بقدر ما سنحاول مقاربة هذه الدراسة المتواضعة باختبار نموذج مختلف في التدبير المخزني لقضايا المجتمع المحلي. ويتعلق الامر بنشاط عسكري ضد قبيلة مستقرة بمنطقة قسية ووعدة، انخرط فيه الجيش السلطاني ومحاربي القبائل التادلية من خلال دراسة وتحليل تقارير ومراسلات مخزنية حسب تواترها وورودها من ساحات المعارك.

لكن قبل ذلك نود التطرق إلى ملاحظتين أساسيتين:

وتتعلق الاولى، بمحاولة قدر المستطاع ، بعث نوع من الحيوية في تاريخ الاحداث التي عرفتها هذه المحطة التاريخية من خلال تحليل الوثائق وجعل نصوصها تنطق بالوقائع و تجيب عن مجموعة تساؤلات .

أما الثانية، فتتعلق بطبيعة الادوات المنهجية نفسها التي رمنا اعتمادها في هذه الدراسة ثم المنهجية التي اتبعناها في تناول النصوص المختارة والمناسبة كما وردت من مصدرها.

المبحث الاول، في اختيار الاداة المصدرية:

اعتمدنا في هذه الدراسة بشكل اساسي على ما ورد بالكنائش التالية:

- كناش رقم 172 من ملخص للرسائل والتقارير الصادرة والواردة على المخزن المركزي تناولت مجموعة من المعطيات والاحداث تتعلق بأطوار الحملة العسكرية. يضم الكناش كما سبقت الاشارة الى ذلك بين دفتيه خلاصات لمكاتيب سلطانية مجاب عنها على يد الوزير محمد الصنهاجي حيث بدأ التقييد فيه يوم الاربعاء 15 شوال 1307 هـ، وهو تاريخ اول رسالة بينما سجل تاريخ آخر رسالة في يوم 05 جمادى الثانية 1308 هـ ، وبلغ عددها 5027 مراسلة في 136 ورقة.

- كناش رقم 162، ويتضمن خلاصات لمكاتيب سلطانية في المدة المتراوحة بين سنتي 1307 هـ و1308 هـ موجهة الى قبائل الحياينة والتسول ووجدة وكروان وبني مكيلد واستنهاض كافة قبائل تادلا سهلا وديرا وجبلا للتخيم بالقصبة الزيدانية وبما يلزمها في مؤونة المحلة السلطانية استعدادا للحملة العسكرية. وتحمل اولى رسائله تاريخ 23 ربيع الثاني 1307 هـ وآخرها في 08 محرم 1308 هـ في 43 ورقة.

- كناش 468، ويتضمن خلاصات لمكاتيب سلطانية عن المدة المترواحة بين سنتي 1308 هـ و1309 هـ في 5304 مراسلة خطت على 183 ورقة. انطلق التقييد فيه بتاريخ 5 شوال 1308 هـ واختم باخر رسالة مؤرخة في فاتح جمادى الثانية 1309 هـ. ويلاحظ هنا ان الخط الزمني الرابط بين الكنائش الثلاثة اعلاه بقى متصلا دون انقطاع، ساعد البحث الى حد كبير في ربط الاحداث بنصوص وملخصات رسائلها مما أثرى كثيرا هذه الدراسة.

- كناش رقم 694، وبه خلاصات المكاتيب السلطانية الصادرة عن سنة 1311 هـ اولها يحمل تاريخ 10 شعبان وآخرها رسالة مؤرخة في اوائل رمضان من نفس السنة اي اسابيع قليلة قبل وفاة السلطان.

تحمل هذه الكنانيش التوقيع السلطاني ضمن ملخصات الرسائل، إذ يتخلل مختصر كثير من نصوص المكاتيب الواردة من ممثلي المخزن الى المركز إشارات سلطانية يرتبط فحواها بموضوع الرسالة، فتأتي أغلبها إما توجيهها لفعل، أو مباركة لعمل، وأمر ما بالتنفيذ الى غير ذلك من القضايا حسب سياقات المواضيع والنوازل. ويشار كتابة الى ذلك داخل النص بلفظ: **قال مولانا.**

وبإدراجنا لعدد من نصوص تلك الرسائل والتقارير داخل المتن، وحتى يمكننا تبين الاشارات السلطانية داخل النص بوضوح فقد تعمدنا تشديد خطها بينط عريض نسبيا كوسيلة لتعميق فهمنا لسياقات الوقائع وموقف المخزن منها.

اما منهجيتنا التي سلكتها في متابعة قراءة الوثائق المساوقة لنشاط الحملة العسكرية، فقد حاولنا تفكيك خطابها و اعادة بناءه انسجاما مع السياقات العامة المؤطرة لمشروع الحملة، و العمل على ربط عناصره الجزئية بالاطار المهيكل للحدث التاريخي المدروس.

المبحث الثاني، سياقات الحملة العسكرية على آيت سخمان :

المطلب الاول، أسباب مباشرة :

نلمس في جل المصادر التاريخية بما فيها الوثائق المخزنية وهي تصف إقدام مجموعة من متمردى قبيلة آيت سخمان على اغتيال ابن عم السلطان المولى سرور، بقدر كبير من الامتعاض والاستنكار حتى تم نعت الحادث "بوقعة الغدر". ولفظ الغدر بما يحمله من معنى مناقض للوفاء بالعهد ولمكرمة النبل والإباء، فإنما قد أتى ليعبر في حدة وقعه وقساوته عن كل ما تأنفه قيم الأعراف وشيم الأخلاق البدوية بالمفهوم الخلدوني.

ففي رحلته التمهيدية لقبائل بني مكيد، عرج السلطان الحسن الأول في طريق عودته الى العاصمة مكناس على قبائل الجبل السخماني لمطالبتهم بأداء ما ترتب عليهم من واجبات شرعية كغيرهم من القبائل.

ورغم أن المقدار المتوجب عليهم لم يكن مجحفا ولا أداءه متعذرا على السكان، الا أن رمزيته ستكون مفتاحا يسمح بإعادة إدماج القبيلة في النسق الجبائي بعد غياب طويل، ومن تمة انخراطها كسائر القبائل في المساهمة بمجهود الدولة في مجابهة التحديات الخارجية المحدقة بالبلاد، وتكون مناسبة ايضا لتغيير نظرة ما عرف عن آيت سخمان في أدبيات الاخباريين منذ أمد " أنهم سكنوا الجبال وقنعوا بقليل العيش فرارا من الجيش."⁷⁰⁸

⁷⁰⁸ ادريس ابو العلاء : (مخ.س) ورقة 68.

تظاهر مخاطبو القبيلة ممن انتدبتهم للحديث باسمها بالموافقة على الأداء، ملتجئين حضور ممثل عن السلطان للوقوف على قبض الواجب.

استقدم على الفور ابن عم السلطان الشريف المولى سرور بن ادريس للقيام بهذه المهمة. وبعد حوله مع كوكبة من مرافقيه وسط جموع مضيفيهم من القبيلة، وخلافا للمتوقع تم الاجهاز عليهم بعد دسياسة دبروها بليل، فاتخذوا فيهم طعنا وترصيضا ولم ينج من غائلة أيديهم الا نزر قليل من الفرسان لم يكن الشريف من بينهم. أما أصحاب الفعلة، فقد تشتتوا شذر مذر تحت جنح الظلام فرارا الى تخوم الصحراء الشرقية.

لم يترك السلطان الحادث يمر دون أن ينزل العقاب بجماعات من القبيلة وكل من ساعدهم او تضامن معهم، بل كان من الطبيعي ان يكون رد الفعل قويا ومن جنس العمل والتنكيل فيمن اشتبه به في مساعدة الجناة. وعقب الحادث بعث السلطان الى خليفته بمكناس جاء في مقتطف منها: «وكتبتنا لسوانر جوارهم من قبائل الصحراء بضربهم وقتلهم اينما وجدوهم حتى لا تظلم سماء. ثم إن طانفة من آيت شقينر يقال لهم آيت يعقوب او عيسى بلغنا انهم حلفاء آيت سخمان وأنهم آووا طانفة منهم بأموالهم ومواسيهم وبعض متن الاعيان كأنهم منهم على قاعدة المستجير الولهان»⁷⁰⁹.

لم يكن وقع الحادث بالأمر الهين على السلطان ولا على قادة الجيش والمخزن ككل وكانهم أخذوا على حين غرة. ورغم أن رد الفعل كان سريعا بعد أن أوقع الجيش بآيت يعقوب او عيسى ونهب حلهم، بعد اطلاع السلطان على خبيثتهم⁷¹⁰، الا ان العزم تبث على معالجة القضية بما يقتضيه الامر من إعداد وتهيئ لحركة تأديبية حينما تحين الفرصة المؤاتية .

والحقيقة اننا لم نستطع فهم الدافع الذي حدى بأفراد القبيلة الى اقتراف فعل من مستوى اغتيال مبعوث السلطان رغم إدراكهم دون شك ان المخزن لن يتوانى في انزال عقاب صارم بالجناة، بل قد يجر ذلك وبالا على كل القبيلة ونكالا شديدين.

المطلب الثاني، أسباب غير مباشرة :

ارتبط سياق الحدث بطبيعة العلاقة المتوترة تاريخيا بين قبائل هذه المنطقة الطرفية والمخزن. فالمخزن من جانبه كان يصنفها من القبائل التي لا تنالها الاحكام. فهم لا يؤدون ما "حرم الله" من واجبات شرعية ولهم جولات من الحروب مع الجيوش السلطانية. ومن حينها

⁷⁰⁹ ابن زيدان عبد الرحمن : (م.س) ج 2 ص 301 مقتطف من رسالة سلطانية بتاريخ 20 ذو القعدة عام 1305هـ -
⁷¹⁰ الناصري خالد : (م.س) ج 9 ص 200.

قوبلوا بضرب حصار عليهم طويل الامد يمس في اهدافه الجوانب الأمنية والاقتصادية للحد من أي تطلع لديهم خارج نطاقهم الجبلي وحتى لا تصيب عدوى تنطعمهم باقي قبائل الجوار خاصة منها السهلية.

لم يكن هذا الاجراء الذي فرضه المخزن على آيت سخمان وباقي القبائل المجاورة الا تدبيراً مؤقتاً. فمن ناحية، توخى منه إضعاف القوى المحلية مع ما يترتب عن التضيق الإقتصادي من آثار قد يدفع بالسكان الى البحث عن منافذ تلحقهم بركب المخزن، ومن جانب آخر، إرجاء أي تدخل عسكري بالمنطقة في حالة العكس الى ان تحين الفرصة، سيما وانه يدرك من خلال تجاربه السابقة صعوبة تحقيق أي نصر حاسم بمنطقة عصية بشريا وتضاريسيا ما لم يهيئ الأسباب لذلك. أما من جانب الوحدات القبلية لآيت سخمان، فقد آثرت لنفسها الانكفاء على ذاتها، فانشغلت بتدبير حياتها العامة وفق نظمها وأعرافها القبلية. لكن دخولها في علاقات مع قبائل الجوار ساهم الى حد ما في امتصاص فعالية وضغط الحصار. ما جعل السكان يتأقلمون مع وضعهم وهوما يفسر استمرار حالهم على ما هم عليه دون ان يصدر منهم أي رد فعل عنيف لكسر الحصار. بل بالعكس من ذلك سمح غياب المخزن الطويل عن المنطقة بتمدد النفوذ الروحي للاسرة المرابطية من آل امهاوش الدرقية، المعروف عن زعاماتها بسلكهم سيرة أسلافهم المناوئة للمخزن، ليشمل مساحات واسعة بحوض واد العبيد حتى باتت المرتفعات الجبلية المحادية للدير التادلي يطلق عليها "جبل امهاوش"⁷¹¹. والحال ان المخزن لم يكن لديه شك في ان حادثة الغدر كانت بإغراء من المرابط علي بن المكي، « ثم إنهم آيت سخمان دخل فيهم شيطانهم المهاوشي ونفت في روعهم غدر من وجهناه إليهم»⁷¹².

حاول المخزن تثبيت حضوره بمجال المرابطين علي امهاوش وابوبكر امهاوش، وتمكن من تعيين قائدين مواليين من آيت يعقوب او عيسى، لكنهما وتحت ضغط الوازع العصبي للقبيلة، لم يبلغا بجهدهما ما كان يتوخاه المخزن «وكنا ولينا عليهم عاملين واعطوا يد الانقياد ظاهرا، وانه لم يبق منهم الا من كان للصلاح مسامرا»⁷¹³. في وقت أبدت القبيلة تمنعها الخضوع لاي قائد غير الذي ترضيه. وهوما أكده المرابط سيدي علي امهاوش نفسه في روايته للرحالة الفرنسي. فلنستمع لما قال : " إن آيت عيسى فرقة من آيت سخمان اختارت قائدا عليها المسمى "ادراطع"، اما المخزن فقد اختار لهم السيد اوباسو. وقد كان من مهام المولى سرور فضلا عما وعدت به

⁷¹¹ دوفوكو شارل : (م.س) ص 72

⁷¹² ابن زيدان عبد الرحمن : (م.س) ص 301

⁷¹³ ابن زيدان عبد الرحمن : نفسه ص 301 من رسالة سلطانية الى خليفته على فاس .

القبيلة من تسليمه بما التزمت به، تثبيت القائد أو باسو[...]وفي طريقه الى القبيلة عبر ممر تيغانيمين الذي يربط اغباله بملوية تصدوا بالنار على الوفد المخزني "714 .

كيف سيعالج المخزن هذا الموقف والتصرف، الذي بلغت به القبيلة درجة من الصد، كما لو أنها تعلن بذلك نوعاً من التحدي لسلطة الدولة، وتمس برمزية الوقار والاحترام الواجبين للجناب السلطاني؟ .

لا شك ان المخزن كانت لديه قدرة فائقة على امتصاص الرجات التي تحدثها القبائل بين الفينة والاخرى من حجم هذا الحادث « فأعظم من ذلك لا يهتم المخزن، ولا يشغله»⁷¹⁵ . ومعالجته كانت تقتضي تدبيره بنوع من التأنى والتدبر حسب ما درج عليه الخطاب الرسمي بإطلاق "الرسن*" للمتمردين وإمهالهم الى المدى الذي يستطيع بموجبه تحديد قوتهم ومساحات تحركهم، حتى يتسنى له انتهاز الفرصة المناسبة فيأخذ بمخنقهم وإعادتهم لجادة الصواب بعد أن يكون قد هياً لذلك ما تستوجبه الأسباب من ظروف مناسبة وإعداد للقوة العسكرية اللازمة، وتنظيمها عدة وعدداً.

المبحث الثالث، الإعداد والتهيئ للحملة :

المطلب الاول، رسائل استنهاضية للقبائل :

«خديمنا الارضى القائد محمد بن احمد بن الموزن السرخيني، فبوصوله اليك نأمرك أن تتأهب بجميع حركة إخوانكم السراغنة والقبائل التي الى نظركم وهم آيت مازيغ كافة وآيت مساض كافة بجميع فرقهم التي هي ارغش وآيت عبد الله وآيت خليفة وعرفة وآيت وكدير وآيت محمد، ثم آيت عتاب كافة وبني عياط كافة على حد الصائم للنهوض بها بقصد التخيم في المحل الذي سنعينه لكم ان شاء الله بعد ان تنتخب الحراك من وجوه القبائل المذكورة وأعيانها بالخييل الصحيحة النافعة والعدة السالمة والرماة الانجاد حتى لا يبقى الا من لا اعتداد به ولا فائدة فيه، لأنها إنما هي حركة للجار ولا كلفة فيها ولا بعد. ولتكونوا على جناح النهوض بحيث مهما ورد عليكم أمرنا الشريف به يجدكم الحال مهينين ميسرين بحول الله»⁷¹⁶ .

بهذا الخطاب الاستنهاضي وجه السلطان رسائل مماثلة لكافة قواد آيت سري وآيت ويرا وآيت بوزيد وآيت عطا نومالو وآيت هودي وآيت أم البخت وبني موسى وبني عمير وبني زمور

⁷¹⁴ De segonzac :ibid p 57

⁷¹⁵ خ.م.ر : كناش رقم 172 ص 110. في اشارة سلطانية حول حادث مماثل ذهب ضحيته الطالب اليوسي .

⁷¹⁶ خ.م.ر: كناش رقم 162 ص 59 . رسالة سلطانية بتتاريخ 20 جمادى الثانية 1307 هـ .

* الرسن هو جبل يستعمل مثل اللجام تقاد به المطايا .

ووردیغة وقادة القبائل الجیشیة لایت الربع بالاضافة الی القائدين البارزین، موحی اوحمو الزیانی ومحمد ولد عائشة السخمانی⁷¹⁷.

ویمدنا نموذج الرسالة بمعطیین أساسیین:

- استنهاض المخزن لكافة قواد القبائل السهلیة والدیریة والجبلیة والامر بانتظامهم فی حركات یكون لها نفس حربی تضم فرسانا بخیل صحاح نفاعة ورماة بعدتهم وكل من له القدرة علی حمل السلاح، علی ان تجتمع فی أماكن قریبة دون ان یلزمها هذا التحشید أیة كلف.

- عدم إفصاح الرسالة للقواد عن الغایة من إعداد وتهییئ هذه الحركات ولا بموعد تحركها، علی ان تبقى علی أهبة الاستعداد الی حین توصلهم بما یتعین علیهم العمل.

لم یقتصر الامر فی ذلك علی القبائل التادیلة وما إليها من قبائل الدير والجبلی، بل شمل الاستنهاض ایضا القبائل المستوطنة بالناحية الشرقیة لآیت سخمان. فقد ابلغ الشریف قائد المحلة المتمركزة بملویة انه «وجه المكاتب الشریفة لعمال بنی مكیلد وآیت بوفلمان وأجابوا بالسمع والطاعة»⁷¹⁸. كما أخبر قواد آیت حدیو «بوصول الكتاب الشریف إلیهم [...] وبأنهم عند الإمتثال ومهیئون للنزول بالمحل الذي امروا به»⁷¹⁹.

كانت الفترة الزمنية الفاصلة بین تاریخ رسائل استنهاض القبائل و بین حلول السلطان بمرکز غرم العلام كافیة لمنح القواد فرصة تحضير وإعداد ما یلزم حركاتهم من عدة ت وخیل واستنفار المحاربین من النوایب لاخذ اهبتهم وشد رحالهم لما هم مقبلون علیه.

علی ان المدد الحربی وما یحتاج الیه من العدة وآلات الحرب من بارود وخرطوس وبنادق فان المخزن كان یتكفل بذلك ویضعه فی الحسبان ویبدي استعداده لمد القبائل بما تحتاجه من ذلك. فقد بعث السلطان برسالة الی القواد ابن زاید والحسین وولد عائشة «ان ابن المودن توجه الیهم مقوما، وان احتاجوا بعدة لذلك یعلمونا»⁷²⁰

المطلب الثاني، المحلة السلطانية تستوطن تادالا :

ذكر مجهول فی كناشه الذي خصصه لوصف وتحديد مراحل سفرات السلطان الذي كان مرافقا للمحلة السلطانية حسب شهادته، ان السلطان امضى عید الاضحی بالرباط ثم رحل الی الاقليم التادلی مارا علی: « قبيلة زعیر بنی خیران علی ووردیغة علی بنی زمور علی ابي الجعد

⁷¹⁷ خ.م.ر. : نفسه صص 64، 65 و 66.

⁷¹⁸ خ.م.ر. : كناش 172 ص 6 بتاريخ 20 شوال 1307

⁷¹⁹ خ.م.ر. : نفسه ص 130 .

⁷²⁰ خ.م.ر. : كناش 172 ص 133.

على قصبة تادلة بآيت الربع، ثم نهض الى غرم العلام، وامر القبائل تنزل على آيت سخمان من كل جانب»⁷²¹.

المطلب الثالث، السلطان ومركزة القيادة بغرم العلام :

اختار السلطان الإقامة بمحلته بمركز غرم العلام بقدم الدير التادلي على النفوذ الترابي لايت سري. وقد جاء اختيار هذا الموضع مناسب جدا، بما يمثله من نقطة ارتكاز للاشراف المباشر على سير تحركات وهجومات القبائل من كل الجهات وهي تنفذ خطة الزحف على شكل كماشة تضيق بالتدرج لأحكام الطوق على المتمردين وإرغامهم على الاستسلام، بالقدر الذي يسمح موقعه الوسطي بتمكين المخبرين والرسل من حملة المكاتيب من الوصول لأهدافهم بأقل مسافة ممكنة. فحملة البريد من وإلى حركة ابن المذن ومحمد ولد عائشة بالجنوب بمستطاعهم التحرك بسرعة عبر مسالك وممرات سرية تصل بين آيت عبدي الجنوب عبر آيت سعيد او علي قبل النزول بين المنفرجات التالية للدير فإلى المحلة. بينما شكلت الطرقات والمسالك المؤدية الى الشمال السخماني حركة للرسل لا تنقطع.

كان التواصل عبر آلية التراسل بالمكاتيب السلطانية المبعوثة لقواد القبائل ووزير الحرب وكذا الوارد منها على المحلة، أحد أهم الوسائل التي مكنت المخزن المركزي من تتبع ادق تفاصيل ما يجري على أرض المعركة كما شكلت التوجيهات السلطانية العنصر الفاعل فيما يجري.

فبالرغم من أن قادة الحرب كانت لديهم هوامش للتحرك بما تكسبهم ساحة المعركة من ردود سريعة وقدرة على المبادرة ومن خيارات فيما يقدرونه ويسلكونه من تدبيرات حربية وتوقيتات هجومية ومناورات تكتيكية لإلحاق الهزيمة بالخصوم خاصة منهم المتحصنين بالمدامر والحصون، إلا ان التوجيهات الاساسية والاشراف الفعلي والمباشر كان يصدر من المركز باعتباره الجهة التي يؤول اليها تقدير الوضع العام وتقييمه من أوجهه العسكرية والسياسية، واتخاذ القرارات المناسبة بناء على محصلة الوقائع.

والجدير بالاشارة بهذا الخصوص، ان المركز كان يعدد من قنوات الإخبار ولا يقتصر فقط على ما يبعث به قادة الحرب. ففضلا عن هؤلاء نعثر في نصوص الوثائق ما يشير الى وجود جهات إخبارية متعددة. بدء من حملة البريد أنفسهم، إلى الشرفاء المرافقين للقبائل فإلى الوصفان من عبيد البخاري ثم وزير الحرب. وبذلك كان المركز يعدد من مصادر الاخبار ويتابع تفاصيل

⁷²¹ خ.م.ر : مجهول ، كناش عدد 12059 ص 10.

ما يجري ويدقق ما ترد عليه من معلومات ويتبين الصحيح منها من خلافه. فعندما كتب القائد محمد بن بوعزة السحاقي مخبرا بانطلاق هجومه على آيت سخمان وبأن: «إخوانه آيت اسحاق قاموا بخيلهم ورجلهم وربطوا على أعداء الله أغباله، وقد حل بهم وبال عظيم وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون، وقد صاروا في قفص الأسار وحبل الصغار يستغيثون ولا يغاثون. كان جواب السلطان» [...] لا أثر لما ذكر ولو كان بعضه لسمعناه لأننا أقرب إليهم منه»⁷²²

صحيح أن الظرف المكاني كان صعبا للغاية، والرقاصون والرسل كانوا يواجهون متاعب وضنكا في اجتياز المسالك والطرق الوعرة، بل كانت المكاتيب أحيانا تتعرض للتلغف والضياع أوتقع بين يدي المتمردين. مثل ما أبلغ به ابن المؤذن في رسالته: « [...] وأخبره الشريف الذي معهم ان الكتاب الشريف الذي توجه به لعلي بن يحيى* حازه زنديق منهم وصار يلعب به ووجه للفساد آيت عبيد وصار يقبض به الرشى من عندهم، ولم يلحق لابن يحيى المذكور الا في هذه الايام. إذ صار الشريف يتلطف حتى حازه ولكه ودفعه بل وجهه لعلي بن يحيى. قال مولانا يحدد له»⁷²³. إلا أن نظام التراسل حافظ على حيويته وشكل العنصر الأساس في ربط كل الجبهات بالمركز ما مكن المخزن من إحكام قدرته على تدبير مجريات المعارك وأخذة علما بكل التطورات والمستجدات على ارض الواقع. فكيف سارت الأحداث على مستوى كافة الجبهات؟.

المبحث الرابع، خطة المخزن التي اتبعتها في تكتيكة العسكري :

المطلب الاول، المجال السخماني وشساعة ميدان المعركة :

لا نعلم على وجه الدقة الهيئة التي اتخذتها المجموعات القبلية المحاربة وهي تأخذ أهيبتها استعدادا لمهاجمة متمردي ايت سخمان، ولا الخطط التي رسمها قادتها قبل اي تحرك عسكري، ولا حتى قوام بنيتها المحاربة. كل ذلك لم نتوصل الى تدقيقه، ما عدى ما أمكن الوقوف عليه من خلال ما تواتر من مكاتبات قادة الحركات الى المركز من ان ميدان المعركة لم يكن في مجال مغلق أو ضيق ولا ان مجرياتها ستكون في موضع واحد، بل على العكس من ذلك يمكن التأكيد ان مساحة المعركة بمفهومها المجالي كانت شاسعة جدا ومفتوحة على كل الاتجاهات. يفسر ذلك استهداف حركات القبائل للتجمعات السكنية للقبيلة على امتداد حوض واد العبيد بالجبل السخماني

⁷²² خ.م.ر : كناش 172 ص 128 بتاريخ 20 محرم 1308هـ

* قائد فرقة من آيت مرغاد على جبهة الجنوب الشرقي.

⁷²³ خ.م.ر : كناش 172 ص 150 .

انطلاقاً من الشمال بالحدود المتاخمة لشقيرن، الى الشمال الشرقي باوعار ملوية، الى الشرق بمحاذاة آيت حديدو، إلى الجنوب بآيت عبدي كوسر حيث تستقر ساكنتها بقصور تاسرافت وتينكرفت وتغزوت المنبوعة.

مواقع متعددة ومتفرقة شغلتها الفرق السخمانية، نرصد توزيعها كالاتي :

- تتحصن مجموعات سكانية بقصور ومداشر في كل من المسيد وأغبالة شمالا واعدلون شرقا وبوتفردة واحانبالوسط وتاسرافت وتغزوت جنوبا، بها قلاع مسورة بجدر طينية سميكة ذات اضلاع مربعة تعلوها ابراج موزعة على الاركان الاربعة للحصن، تطل منها فتحات ضيقة تمكن المتحصنين من رشق المهاجمين بما لديهم من بنادق تقليدية يدوية الصنع منها والمستوردة. داخل هذه الحصون تنتشر بيوت وغرف صغيرة للسكان ومخازن لجمع المون والحبوب والماء والتبن للمواشي. بينما تخصص باقي المساحات كمرابض للخيل والدواب وزرائب للمواشي. لها باب رئيسي يحكم اغلاقه ويسند من الداخل باعمدة خشبية يتعذر اقتحامه بسهولة.

- باقي الجماعات، ممن وجدهم الحال خارج القصور او من تعذر عليهم الاقامة بالمداشر، فقد اختارت الانتشار بخيامها برقعة النساء والاطفال وسائر الامتعة بأماكن منعزلة لكنها شديدة الوعورة ويصعب على الوحدات المهاجمة خاصة الفرسان بلوغها والنيل منها.

لا شك ان المخزن كان يدرك هذه الخبيصة ويقدر صعوبة اختراق المجال السخماني. كما كان لديه اطلاق كبير بمواضع المتمردين وطبيعة تحركاتهم. لذلك ذهب في خطته من اجل تجاوز عقبة شساعة الميدان الى احكام الطوق على كافة القبيلة وفروعها وسده جميع المنافذ. فيسهل على الحركات تنفيذ مهمتها. فالعبرة من حسم المعركة والنيل بالخصم يجب ان تكون بالكيف وليس بالكم. فكيف سار توزيع الفرق القبلية المحاربة بساحة المعركة؟ وما هي المعايير التي اعتمدها المخزن في هذا التوزيع ؟ وما موقع الجيش النظامي داخل المنظومة العسكرية للحركة ؟

المطلب الثاني، توزيع الفرق القبلية بالجنوب، والمعايير المعتمدة في ذلك :

تقع على الحدود المتاخمة لقبيلة آيت سخمان قبائل أخرى يجمعها مع بعضها تشابه كبير في الثقافة و اللغة وفي انماط العيش ووسائل الانتاج وايضا اواصر اجتماعية وارتباطات اقتصادية وتبادلات انتاجية ومنافعية موسمية ضمن قسما تضرارية صعبة. لكن بالرغم من ذلك فإن علاقات الجوار في عمومها لم تكن على وفاق تام مع آيت سخمان. سواء من جهة الجنوب حيث تمتد قبائل آيت مساو و آيت عتاب و آيت اصحا و آيت بوزيد، او من جهة الشرق حيث تستقر قبائل

آيت حديدوآيت يفلمان. إذ مثلت بالنسبة اليهم الحركة المخزنية وكانها مناسبة لتصفية حسابات قديمة معها «سيما وان بينهم وبينهم عداوة منذ زمان»⁷²⁴. فقد وردت على ابن المؤذن «جماعة من آيت اصحا جبالة مجاورين لآيت سخمان طالبين منه اطلاع العلم الشريف على ما هم عليه من المحبة في جانبه الشريف والخدمة معه»⁷²⁵.

اما جوار القبيلة من آيت عطا نومالو فقد ذكر ابن المؤذن «ان فرقة منهم وردت عليه شارحة للمشاحنة الواقعة بينهم حتى ادى ذلك الى البارود بينهم بسبب امهاوش، إذ قدم عندهم. وهذه الفرقة تسمى آيت عميرة ولهم عداوة زائدة مع السخماني[...]وقد التزموا الخدمة الشريفة» لم تكن علاقة التنافر بين آيت سخمان وجوارها من قبائل الجنوب والجنوب الشرقي الا حافظا للمخزن في ان يوكل مهمة إنزال حركة ابن المؤذن المتجمعة بالقصبة الزيدانية بمناطق الجنوب السخماني وأخذ مواقعهم هناك. أما بالمنطقة الوسطى بالجنوب والجنوب الشرقي بمحاذاة وادي انركي فقد اوكلت القيادة لقبائلها للقائد محمد ولد عائشة السخماني حيث تقع تحت إمرته فرق من آيت حديدو والموالين له من آيت عبدي كوسر وآيت داوود او علي.

وإذا كان المظهر الطوبوغرافي ليس غريبا عن هذه القبائل ولا مشهده يشكل عائقا سيكولوجيا لديهم وهم المدعومون معنويا من طرف المخزن، فان هذا الاخير وزيادة في التحوط شدد على «الاستعانة بكل من له خبرة بتلك البلاد وبأحوال فساد آيت سخمان»⁷²⁶

ارتحل ابن المؤذن من القصبة الزيدانية في وجهته الى الموقع المحدد له اوائل شهر محرم، في موكب قبلي قوامه فرسان ورماة وشباب على حد الصائم، تحدوهم الرغبة في مقاتلة آيت سخمان، وفي ذات الوقت ليس من المستبعد ان تكون لديهم رغبة في التهافت على الغنائم واقتناص كل فرصة سانحة للاستيلاء على كل ما تقع عليه ايديهم، دون ان يدور في خلد هم ان كسب المعركة لن يكون سهل المنال ولا مدتها ستكون أطول مما كانوا يعتقدون. لكن الاستفهام الذي يطرح نفسه امامنا، ونحن نتابع ذلك التحشيد القبلي على الارض الجنوبية للقبيلة والاستعدادات التي تبديها فرق ابن المؤذن ومحمد ولد عائشة لمهاجمة سكان القصور بهذه المنطقة النائية والاصرار على تشديد الحصار عليهم، هل سيأخذ كل هؤلاء السكان بجريرة وقعة الغدر وقعت احداثها في مكان بعيد عنهم اقتترفتها جماعة تستوطن بالشمال؟ أم ان موقفهم من المخزن لم يكن في عمقه مفارق لموقف كافة القبيلة؟

⁷²⁴ خ.م.ر : كناش 172 ص 130

⁷²⁵ خ.م.ر : كناش 172 ص 103 مختصر رسالة بتاريخ 02 محرم 1308

⁷²⁶ خ.م.ر : كناش 172 ص 107 .

والحال ان المخزن لم تكن لديه رغبة في ان يحول الحادث الى مطية للانتقام، ولا ان يجعل من سلوك الجناة مدعاة لحالة من رد الفعل ظرفية. بل على العكس من ذلك بإمكاننا تقدير أن الإنزال العسكري على آيت سخمان لا يعدوا أن يكون في ظاهره إلا تأديبا لهم حسب منطوق الخطاب المخزني، وعدم منحهم أية فرصة للإفلات من العقاب بالإطباق عليهم من كل الجهات والأخذ بمخنقهم، سيما وان ارتباطاتهم العشائرية وحمياتهم العصبية كانت تمنحهم فرصة التخفي بين السكان، وهو ما سيحصل في وقت لاحق بعد ضبط قاتل المولى سرور متخفيا بمنطقة الجنوب. بينما في باطنه لم يكن يتوخى من أهدافه ولا من تحقيق مراميه بأقل من إعادة إدماج القبيلة المتنطعة داخل النسق المخزني العام. وما اهتبال هذه الفرصة الا مناسبة لتأكيد هيبة المخزن وحمل القبيلة على انتظامها داخل إطاره التدبيري.

كان هذا بالجنوب السخماني، فهل سارت الامور على نفس المنوال بالشمال؟

المبحث الخامس المركز السلطاني والتشكيلات العسكرية بجهة الشمال:

المطلب الاول، مجال تضاريسي معقد وتدبير المخزن لإشكالية تنافر و توجس القبائل:

إذا كانت المنطقة الجنوبية الشاسعة الممتدة من وادي انركي والجبال المتراصة الواقعة على الحد الفاصل بين الاطلس الاوسط الكبير وجنوب الاطلس المتوسط، الى المرتفعات المتكبة على الدير جهة الغرب وصولا الى مداشر تاسرافت وتينكرفت بالوسط قد حسم في تأمين حشد فرق حركتها القبيلة، بعد اطمئنان المخزن الى حصول نوع من الانسجام في تركيبها القبلية، فإن تشكيلة الشمال كانت لها خصوصية من نوع آخر.

تتاخم الحدود الشمالية لايت سخمان وآيت عبدي المستهدفتان الرئيستان من الحركة، قبائل جبلية ناطقة باللسان الامازيغي تمتد على شكل مروحة من الغرب الى الشرق انطلاقا من ام البخت وآيت هودي الديرية الى آيت اسحاق مرورا بآيت سري وآيت ويرا ثم ايشقيرن الى بني مكيلد ثم آيت حديدو. وتشغل هذه القبائل بدورها مجالات جغرافية معقدة التضاريس تتخللها شواهد جبلية تزداد حدة كلما كان الاتجاه شرقا. ولا يخفف من حدة المشهد التضاريسي الوعر غير بروز نهريين كبيرين يتقاطعان على عتبة تفصل بين الحوض الاطلسي والحوض المتوسطي في ظاهرة تضاريسية فريدة، لكنهما يفترقان من حيث الاتجاه والمسير. اذ تتدفق الشبكة المائية لواد العبيد نحو الجنوب قبل ان ينحرف نحو الغرب مخترقا منحدرات الكتلة التضاريسية المائلة نحو الغرب، بينما ينحدر نهر ملوية في اتجاه الشرق مع تفرع شريط منه نحو مصبه بالبحر الابيض المتوسط سالكا المنحدرات الاطلسية المائلة نحو الشمال والشمال الشرقي.

هذا المشهد التضاريسي المتنوع، المثير للتهيب والحذر من الناحية العسكرية، لم يكن اقل تعقيدا من الوضع القبلي المركب خاصة في مجال موسوم بالهامشية وبهشاشة الحضور المخزني بقسم كبير منه. ما يفسر ان علاقة تلك القبائل بالمخزن لم تكن على نسق واحد. فرغم تذبذب تلك العلاقة بين التعاصي والولاء، ورغم ما يربط وحدات وفرقا منها من وشائج الاتصال مع المخزن المركزي عبر ممثليه من قيادات وحكام محليين، فان هذا الاخير كان على دراية واطلاع دقيق بما يمور وسط القبائل من ترددات، وبما تهجس به دواخلها من مواقف حيال حملته العسكرية. فكان لا بد من حلحلة التناقضات الحاصلة في مواقفها سواء فيما بينها وبينها وبين المخزن، باعتماد آلية التفاوض والعمل على استقطابها واستمالتها لجانبه.

المطلب الثاني ، تحركات مخزنية لضمان ولاء القبائل:

«لان آيت سري وآيت ويرا كانوا مدببون، وفرارهم أكثر من وقوفهم، كما أخبره بذلك أصحابه الذين يسلكون بلادهم»⁷²⁷ بهذه العبارات كتب القائد الجليلي الدمناطي الى المخزن المركزي متوجسا من موقف قبيلة آيت سري. في وقت توصل ايضا برسالة من القائد صالح الشقيرنى فيها « يحذر من الثقة بجميع البرابر لكونهم توافقوا كلهم مع آيت سخمان من غير فرق بين بني مكيلد وزيان وشقيرن وآيت اسحاق ومن أضيف اليهم. طالبا ان يكون مولانا من ذلك على بال»⁷²⁸ كما اكد القائد زايد الاحمدي «ان آيت شقيرن يتصارفون مع آيت سخمان ويبيعون لهم الزرع»⁷²⁹.

وعلى النقيض من ذلك اختلف الامر في الجانب الشرقي حيث أبلغ القائد علال بن يحيى المرغادي حامل راية آيت يفلمان « بنزول جماعات من القبيلتين بحركتهم خيلا ورماة في المحل المسمى بجبرتن مؤكدا انهم اعداء لايت سخمان»⁷³⁰. ولاحقا عند عبوره لممر تونفيت سيخبرنا الرحالة الفرنسي ان قبيلة آيت امحمد كانوا في صراع مع بني مكيلد⁷³¹.

ان هذا التباين في مواقف القبائل المجاورة لايت سخمان كانت تمليه بالدرجة الاولى مصالح ومنافع متبادلة يحتم على بعضها عدم الانخراط الكلي في مطاوعة إرادة المخزن ما يفسر

⁷²⁷ خ.م.ر : كناش 172 ص 107 مختصر رسالة بتاريخ 7 محرم 1308

⁷²⁸ خ.م.ر : كناش 172 ص 117 .

⁷²⁹ خ.م.ر : كناش 172 ص 125

⁷³⁰ خ.م.ر : كناش 172 ص 117

⁷³¹De segonzac :ibid p 62

اصراره على استمرار محاصرة قبائل المخزن لها. فقد وجه السلطان أمره «لايت هودي وغيرهم بمقاطعة آيت سخمان»⁷³².

وحتى يتمكن المركز من كسر حالة الترقب والتردد لدى القوى الفاعلة، سعى الى استمالتها بإيفاد القائد الجليلي الدمناتي الى آيت سري وآيت ويرا وآيت هودي وآيت يعقوب اوعيسى من أجل «استيلافهم وتأسيسهم واستجلابهم ما أمكنه»⁷³³

من جانبه وجه السلطان دعوته الى الزعامات القبلية لآيت هودي وآيت سري للالتحاق بمحلته وهوفي طريقه الى أبي الجعد، بهدف حثهم على الوقوف بجانب الحملة العسكرية، وكيفية انتظام محاربي قبائلهم وجعلهم رديفا للجيش السلطاني، والربط معه في الموقع المعين لهم. وهوما حصل فعلا.

وبالعودة الى رحلته التفاوضية الشاقة، تمكن قائد دمنات صحبة وفد مرافق له من ربط الاتصال بأعيان القبائل المتوجه اليها من جملتهم الشيخ عمر اليعقوبي من آيت هودي حاملا معه مكاتيب السلطان «وصلة واحسانا وكتب له ولجماعته بالاستيلاف والترغيب في صلاح المخزن»⁷³⁴. وبينما كان ينتقل بين القبائل ويغري زعاماتها بالتهيب والاستعداد للتضييق على آيت سخمان، واجه صعوبات تفاوضية في تدخلاته الدبلوماسية لحملهم على الاقتناع. فبعد أن «توجهوا لآيت يعقوب اوعيسى وجدوا أمامهم جماعة لآيت احمد اوعيسى وآيت اسحاق يطلبون من آيت يعقوب اوعيسى يكونوا معهم يدا واحدة، ولما وقف عليهم أصحاب الدمناتي وعرفوا بهم آيت هودي وعرفوا أنهم من قبل المخزن، أجابوا حينئذ من ورد عليهم من ذكر بأنهم لا يتوافقون معهم في شيء ولا يسلكون مسلكهم، قائلين لهم غدارة ومخادعون وقد سعوا في تشنيت أموالهم وأولادهم وورطوا إخوانهم في المهلكات. وقالوا مهما يحل سيدنا بأطرافهم يتعلقون بمن يأخذ بيدهم حتى يصلوا لسيدنا بأهلهم وأولادهم، فإن كانوا بين يديه يفعل معهم ما يشاء»⁷³⁵. أما بآيت سري فلم تكن مهمة وفد الدمناتي بأقل صعوبة مما واجهه بآيت يعقوب وعيسى حيث نفهم من جوابهم إنما كانوا يعبرون عن ضيم لحقهم من حركة سابقة. إذ اشترط عليهم آيت سري مقابل امتثالهم بالانخراط في الحملة العسكرية عدم مرور آيت الربع ببلادهم أثناء حركتهم «لما سبق بينهم من الضغائن». وقد وافق الدمناتي على هذا الشرط «بأن لا يمر على بلادهم

⁷³² خ.م.ر : كناش 172 ص 101

⁷³³ خ.م.ر : كناش 172 ص 107 مقتطف من مختصر رسالة سلطانية بتاريخ 7 محرم 1308

⁷³⁴ خ.م.ر : كناش 172 ص 106/107

⁷³⁵ خ.م.ر : كناش 172 نفسها .

ربعي لتطمأن نفوسهم «. والضغائن المتحدث عنها ارتبطت في المقام الاول بحدوث علاقة من التوتر بين هذه القبائل المتجاورة، آيت الربع وآيت سري، واشتداد حالة من الاحتقان ونزوعات العنف حيال بعضهما البعض، خاصة عقب حادثة الغدر حيث غدا إصرار المخزن على تشديد الحصار على آيت سخمان وما يجاورها من قبائل الدير امرا واقعا. ومن ثمة كان على سمكت وبني معدان ان يبذلا قصارى جهدهما في تنفيذ الامر المخزني والمبالغة في التضييق عليهم والحيلولة دون تحقيقهم لمنافع اقتصادية خاصة في مجال الرعي واستغلال الشريط الزراعي الضيق بقدم الدير والازغار جوار ام البخت. وتسعفنا في هذا التذكير وثيقتان من الارشيف المخزني توضحان أسباب وبواعث الضغائن والعداوات بين الطرفين:

- «عمال آيت الربع، بنزولهم على زرع الفساد آيت سري ووجهوا لهم بعض المرابطين يطلبون النهوض عنهم على أن يؤدوا لهم مالا، فلم يجيبوهم لذلك. ثم تحزبوا بالفساد آيت سخمان وتصدوا لضربهم، فوقعت الكرة على الفساد المذكورين بالقتل وقطع الرؤوس والأشجار وتخريب الحصون، ولا زالوا جادين في ذلك⁷³⁶.»

- «القائد محمد وجدات الربعي، بأن قبيلة آيت الربع اجتمعوا بالعمال والاعيان وجعلوا شيئا يستعينون به على المصالح المخزنية. والنزول والتضييق بآيت سري والفساد آيت سخمان حتى لا يبقوا لهم زراعا ولا مالا. ولما سمع البربر نزلوا على بوعدة ابخان وإخوانه بالرشوة وبذل الدراهم. فاجتمعوا واستنصروا بآيت سري وبني زمور. فغدروا أمراس آيت الربع، وحرقوا ونهبوا وقتلوا من بها من السكان الحارسين لها. وعدد القتلى من إخوانه 23. فنهض بإخوانه ودفع عليهم، فهزمهم من القصر وحاز خيمة بوعدة المذكور، وحاصروه حتى دفع لهم خمسة من الخيل بمعاينة الصادر والوارد لينجوا بمواشيهم وبهائمهم من الزروع. وأحال على استشهاد (شهادة) القائد الجليلي بن يعقوب وغيره⁷³⁷. وفي النص يمكن ان نستنبط منه فضلا عن العلاقة المتوترة بين الاطراف المذكورة، إشارة لا تترك مجالا للشك من أن هناك وسائل متعددة كان يسلكها سكان الجبل لكسر الحصار عليهم. وبالعودة الى القائد الدمناطي، فإنه لم يفته إبلاغ المخزن بمستجد طلب آيت سري ف «طير الاعلام بهذا ما دام أعيان هؤلاء القبائل بالحضرة

⁷³⁶ خ.م.ر : كناش رقم 154 ص 116 مختصر رسالة بتاريخ 6 رمضان 1306 هـ الموافق ل 1889/05/08.

⁷³⁷ خ.م.ر : كناش 154 ص 67 بتاريخ 12 شعبان 1306 هـ.

* تعاطي العهود بواسطة تبادل السلام كانت من العادات السائدة بين الافخاذ و القبائل بالجبل و يدخل ضمن عادة ما يعرف بالكسي .

السعيدة ليأمرهم سيدنا بالاتفاق وبتعاطي العهود بينهم على عاداتهم بالسلاهم* بأن لا يتأخر أحد منهم عن الآخر في عرض المخزن»⁷³⁸.

ومن جانبها عبرت قبائل آيت الربيع الجيشية عن كامل استعدادها للمشاركة في الحركة و«انهم قرأوا الكتاب الشريف وفرحوا به، وأنهم بالمرصاد لآيت سخمان في الطرقات ومواطن الظفر بهم. ذاكرين أن آيت سري وآيت ويرام معهم يدا واحدة، وقد حالوا بينهم وبينهم، عدى آيت سعيد وآيت عطا فهم مضافون لآيت الربيع»⁷³⁹.

كانت وفود القبائل وزعاماتها يتواردون تباعا أمام المحلة السلطانية لمقابلة السلطان والتعبير عن مساندتهم للمخزن، بينما لم يفتر عزم ممثلي المخزن الموفدين للقبائل في توجيه مزيد من زعاماتها لنفس الغاية. وهكذا كتب الجيلالي الدمناتي يعلم المركز «بتوجيه الشيخ عمر اليعقوبي صحبة عاملي آيت يعقوب وعيسى ومن معهم من جماعاتهم طالبا مقابلتهم بالجميل والتعجيل بهم ليرجعوا لقضاء المطلوب منهم ألفة واستئناسا لهم، والانعام على الشيخ المذكور بمكحلة رومية تمييزا له»⁷⁴⁰.

كان هذا يخص القسم الشمالي من القبيلة المستهدفة. فماذا عن ناحية الشمال الشرقي؟ قبل الجواب عن ذلك، تتعين الإشارة مبدئيا أنه حينما نتعرض لقبيلة ما بوصفها متمردة اولها موقف معادي لممثلي المخزن المحليون فإننا نعني بذلك ان كل القبيلة بكافة فخذاتها وفروعها ووحداتها انها جميعها تعيش نفس حالة التمرد. فهناك وحدات منها تخضع لنفوذ قيادات مخزنية بما تحظى لديها من قبول وما لها من أتباع ومصطنعين يساعدها في تنفيذ الاحكام المخزنية ضمن إطار عموم القبيلة.

ومن نافل القول في هذا الصدد، أن اختيار المخزن للقائد الجيلالي الدمناتي للقيام بمهمة تفاوضية لاقناع القبائل المذكورة في مشاركتها ومساندتها للحركة العسكرية ضد آيت سخمان بدلا من القائد الاقرب للمنطقة وهو موحى اوحمو الزباني لم يكن اختيارا اعتباطيا ولا محمولا على الصدفة. ذلك أنه كان على قناعة أن الأول منهما لم تكن له أية حزازات قديمة او علاقات متشنجة مع القبائل المقصودة، خلافا للثاني الذي ما برح ينظم حركات بإدالته لتلك القبائل قصد إرغامها على الازعان لسلطته وحملها على الانخراط في سلك المخزن. فضلا عن موقفه من آيت يعقوب

⁷³⁸ خ.م.ر : كناش 172 نفسها .

⁷³⁹ خ.م.ر : كناش 172 ص 105 .

⁷⁴⁰ خ.م.ر : كناش 172 ص 111 .

او عيسى حيث اجمعت المصادر الاخبارية ان مهاجمة القبيلة من طرف الجيش المخزني نكايه بهم على مؤازرتهم لآيت سخمان وإيوائهم لهم عقب وقعة الغدر، إنما كانت بإغراء من موحى اوحمو الزياني. بل كان يبدي تبرمه من إلحاقها بحركته وإشراكها ضمن فرقه القبيلة المحاربة، مؤكدا على ذلك في جوابه الى المركز حينما طلب منه الاستعانة بهم: « بأن القبائل المذكورة لا يخفى ما بينه وبينهم من العداوة التي أصلها خدمته لجانب المخزن ومحفته في الجانب العالي، وأنه لا تمكن مشاركتهم في حروب ولا قتال، إذ ربما يفضي ذلك بينه وبينهم الى ما لا يليق، سيما وهم على ما هم عليه من الخداع»⁷⁴¹. وإذا كان سبب العداوة بين الزياني وايت يعقوب او عيسى له مبررات ترتبط بما سبقت الاشارة اليه، فما هي دوافع الشقاق بين الاخير وآيت هودي؟ .

لا شك ان تنامي سلطة موحى اوحمو الزياني وطموحه الى توسيع مجال حكمه بالمنطقة بدأت تثير مخاوف آيت هودي وأم البخت، فقد حرصوا دوما على إبداء تمنعهم في الدخول تحت اي حاكم مخزني ما لم يكن من قبيلتهم. لذلك كانوا كثيرا ما يتجنبون مساعدته في استيلاء ما يفرض عليهم من جبايات مفضلين تسليمها لواحد من أشياخهم او أعيانهم يرتضونه لحملها الى المركز، وهو نفس الموقف الذي جوبه به محمد اوسعيد اليراي⁷⁴² بينما كان هولاء يتورع عن توظيف جند إدالته في النزول عليهم ومطالبتهم تحت طائلة الارغام بمستحقات المخزن الا ان إصرارهم على عرقلة تدخلاته لم يفتقر، مما اضطر الزياني الى رفع تقرير في الموضوع جاء فيه: « بأنه طالما عالج أمر آيت هودي فلم ينتج عنهم دواء، وما زادهم ذلك الا فسادا. وقد وفد عليه قوادهم وأعيان من جماعاتهم وطلبوا منه توجيه العسكر لقبيلتهم لقبض ما بقي من مال المخزن عندهم فساعدتهم، فلم يدفعوا شيئا، بعدما جلس العسكر عندهم نحو شهر. فرد العسكر لمحله وتركهم على حالهم. وذكر أن عاملهم القائد بوعدة بإعانتته على إكراههم على دفع مال المخزن، فلم يساعده خوفا من فرارهم لسخمان لمجاورتهم لهم وإنصاتهم لمضاربة آيت الربيع مع آيت اسري بعدما زاد عليهم فساد سخمان. ولم يظهر له رجل صالح سوى القائد بوعدة او عب»⁷⁴³.

⁷⁴¹ خ.م.ر : كناش 172 ص 150 مختصر رسالة بتاريخ 10 صفر 1308 هـ

⁷⁴² لمزيد من الاطلاع راجع نص رسالة سابقة من اعيان القبيلة الى السلطان مسجلة بمديرية الوثائق الملكية تحت عدد 23979 تحمل توقيع كلا من بوعدة بن عبدالله (اعب) و باسو بالحاج الهودي و محمد بن مزوغ الهودي و قد تم تعيينهم جميعا قوادا على القبيلة في وقت لاحق .

⁷⁴³ خ.م.ر : كناش 154 ص 120 مختصر رسالة بتاريخ 08 رمضان 1306 هـ

* وردت سيرة هذا الشريف المتمرد و علاقته المتوترة بموحى اوحمو في مؤلف كباء العنبر، صص 145 و 146

ونعثر في نص من رسالة أخرى للزياني ما يجسد مصداق ما وقع من اسباب تزايد توتر العلاقة بينه وبين آيت هودي، فيه ما يلي: « بأنه لما فرغ من قتال زيان المنحاشين لمولاي عبد الواحد* وأكل زرعهم، رحل ونزل على آيت هودي الذين كانوا منشغلين بالفساد مع آيت يعقوب اوعيسى وأيت سخمان وقد كانوا رحلوا آيت يعقوب اوعيسى من بلاد تادلا وانزلوهم بطرف بلاد آيت اسحاق وأيت احم اوعيسى. ولما نزل على آيت هودي وردوا عليه بالعارات طالبين منه المصالحة فشرط عليهم ضرب آيت يعقوب وعيسى وأيت سخمان، ثم رحل بمن معه ونزل على قصور المذكورين وحمل عليهم المدد السعيد بالمدافع فمات من اولئك 30 رجلا»⁷⁴⁴.

لقد بدا واضحا ان طبيعة العلاقة المعقدة بين الجهتين وما يغلب عليها من طابع المساومة والاكراه والضغط من جانب الزياني، لم تترك مجالا للمخزن أية إمكانية في اعتماده للقيام بما يلزم من عمل تفاوضي مع تلك القبائل. وبما أنه لم يسبق له ان دخل في نزاع مع اي من قبيلة آيت يفلمان ابني مكيلد كما عبر عن ذلك بنفسه للمخزن «بأن آيت يفلمان لم تقع له مخالطة معهم لأنهم في الصحراء»⁷⁴⁵، فإن المخزن رأى في هذه الخصيصة مناسبة لقيام الزياني بمهمة استمالة تلك القبائل. وإمعانا منه في استئناس آيت حديدو وجه الزياني « [...] كساوي لآعيان آيت حديدو صحبة مولاي علي بن الكبير بالامتثال وتوجيهه معه خيلا، وبأنه كان كتب لهم على الصلاح وضرب ظالمي أنفسهم، قال مولانا : **فليزد ويؤكد**»⁷⁴⁶.

⁷⁴⁴ خ.م.ر : كناش 172 ص 4 بتاريخ 21 شوال 1307 هـ

⁷⁴⁵ خ.م.ر : كناش 172 ص 6 بتاريخ 20 شوال 1307 هـ

* طوطو ارماس مجموعة قصور لا تبعد كثيرا عن مركز القصابي .

⁷⁴⁶ خ.م.ر : كناش 172 ص 112 بتاريخ 16 محرم 1308 هـ

الفصل الثاني ، السلطة المخزنية و قبائل آيت سخمان من الاحتواء الى التطويق

- المبحث الاول ، بشرق آيت سخمان قبائل ناغلة .
- المبحث الثاني، استكمال تطويق آيت سخمان وانطلاق المعارك .
- المبحث الثالث، عودة الى جبهة الشمال السخماني .
- المبحث الرابع، جبهة الشمال الشرقي لآيت سخمان .
- المبحث الخامس ، انحلال في جبهات القتال .
- المبحث السادس، حادثة بوتفرده تسرع بقرار حسن الانفصال .

الفصل الثاني

السلطة المخزنية و قبائل آيت سخمان من الاحتواء الى التطويع :

المبحث الاول ، شرق آيت سخمان قبائل ناغلة :

المطلب الاول، حركة دبلوماسية موازية لتخفيف حدة التوتر :

في رسالة بعث بها مولاي رشيد الخليفة على تافلات الى السلطان وهو في طريقه الى تادلا جاء فيها: «أن يفلمان ومن تخزب معهم من القبائل أحاطوا بالقصر الذي وصله خديم سيدنا محمد الطالب اليوسي وهو " طط *"، فدخلوا عليه وقتلوه شر قتلة وحملوا رأسه للخديم محمد احمو الزياني بعد التمثيل بجثته، ثم وقعت معركة بينهم وبين ولده بالقصابي فمات 100 من العسكر وغيره ودخلوها وغيرها من القصور فخربوها ونهبوا أموالها، وأن بعض أعراب الصباح قدموا بالطنابير والمزامير التي سلبوها للعسكر يتمسخرون بها في مداشرهم»⁷⁴⁷.

لم تكن لهذه الاحداث المأساوية وغير المتوقعة من تأثير على عزم السلطان في مواصلة حشد القوى القبالية بالناحية. فقد رد على الخليفة: « أن القائد اليوسي كان عضدا للمخزن أخذ الله بثأره، وأنه لم يأخذ رحمه الله بالحزم وإن كان لم يتوجه بقصد القتال والنضال لكن ذلك أجله مات في طاعة [...] فأعظم من ذلك لا يهيم المخزن، ولا يشغله سيما وهذه فلتة من الطالب محمد وزلقة والا فقد كان عنده ما يقاومهم به»⁷⁴⁸

لا نعرف على وجه التحديد دلالة إرسال متمردي آيت يفلمان رأس اليوسي الى القائد الزياني. الا ان هذا الاخير سبق له ان أبدى حذره من تقاوم الصراع بين القبيلة واليوسي في كتاب له الى المركز جاء فيه: « بأن القائد علي وابن يحيى المرغادي وأعيان آيت يافلمان كتبوا له بأنهم سمعوا ان ولد بن الطالب محمد عازم القدوم اليهم فحملوا المزراك* بعضهم بعضا بالاتفاق على ضربه بالبارود، وخشي إن وقع ذلك ان تعظم فتنته ويصعب أمر الفساد وآيت سخمان لانهم جوارهم واعلم بذلك والنظر لمولانا. قال مولانا: عن آيت يافلمان يبينهم ومن تبعهم من إخوانهم ولا بد لنحول بينهم وبينه ولا بد ويكون ذلك على يده»⁷⁴⁹.

⁷⁴⁷ خ.م.ر : كناش 172 ص 110 بتاريخ الخميس 11 محرم 1308 هـ

⁷⁴⁸ خ.م.ر : كناش 172 نفسها

⁷⁴⁹ خ.م.ر : كناش 172 ص 31 بتاريخ 08 ذو القعدة عام 1307 هـ

* المزراك قضيب حديدي يتم رفعه بين الجموع و يرمز به كرابطة و آلية لعقد اتفاق بين قبيلتين او فخذين على التضامن و التحالف في خوض معركة ضد عدو .

ورغبة منه في تخفيف حالة التوتر وتجاوز العداوة الواقعة بين قبيلة بني مكيلد والطالب اليوسي وتهدئة الوضع الأمني هناك قام بعملية تفاوضية مع القبيلة وعقد اتفاق يقضي بإعطاء الأولوية لما هو مقدم عليه المخزن من تأديب آيت سخمان. فبعث بتقرير الى السلطان جاء فيه : « بأن سبب الخلاف الواقع بين بني مكيلد هو ولد الطالب محمد اليوسي. ولما عاين ذلك أمن بني مكيلد وعقد الاخوة معهم ليتوصل لغرض سيدنا، فكانوا عوناً له على آيت يعقوب او عيسى »⁷⁵⁰.

لا يهمننا من إدراج نصوص هذه الرسائل، إثارة أحداث هي في الواقع بعيدة عن مجال دراستنا رغم ارتباطها بالموضوع، ولا انعكاس عواقبها استقبالا على قتلة القائد محمد اليوسي بعد تجريد حركة سلطانية الى تافلات سنة 1311 هـ⁷⁵¹. بقدر ما نسعى الى توضيح ملاحظة أساسية: - انه كلما ابتعدنا من المناطق الجبلية المتاخمة للدير التادلي وتوغلنا ناحية الشرق، كلما ازدادت حدة التوتر بين القبائل في علاقتها مع ممثلي المخزن خاصة منها المطلة على السفوح الشرقية للمرتفعات المطلة على الصحراء. وإذا كانت اسباب التوتر معروفة ولا يمكن فهمها الا بإصرار تلك القبائل على عدم التجاوب مع مطالب المخزن الجبائية، الشيء الذي حدا بالسلطان الى إلزامهم بدفع مقادير من الأموال الناضة خلال حركته الاخيرة خاصة منهم أعراب الصباح، أكثر بكثير مما فرضه على آيت سخمان بعد انتهاء حملة المخزن عليهم⁷⁵².

وحتى لا تنفرط جهوده الرامية لتمتين الجبهة الشرقية وتأمين ولائها، اوفد السلطان موحى اوحم لإعادة رتق ما انخرم في وسطها من اسباب العداوة لممثلي المخزن المحليين وزرع الثقة في نفوس أعيان القبائل واستمالتها لجانبه وما تصدع بينهم من اوجه العلاقة. فطفق الزياني يتنقل في تلك الأصقاع مبلغا المركز بنتائج جولته في مختصر رسالته: «بحثُ عن داء آيت يافلما*، كما أمر فتحقق عنده أن آيت علي اوبراهيم منهم فروا من خديم سيدنا لحسن اليحيوي من قلة عفته وانضافوا لفساد آيت سخمان، ثم أرسل لرجل منهم اسمه الشيخ عسوبين زروال فتفاوض معه في أمرهم، فاتفق معه على إخراج إخوانه المذكورين من آيت سخمان ويوليه سيدنا عليهم ففعل. وقد نزلوا الان ببلادهم بتونفيت. واجتمعت عليه قبيلة يفلما كلها، ووجدهم سامعين مطيعين لامر

⁷⁵⁰ خ.م.ر : كناش 172 ص 24 بتاريخ 03 ذو القعدة عام 1307 هـ

⁷⁵¹ للاطلاع على مزيد من تفاصيل معاقبة المخزن للفعلة بأيت يافلما ، طالع الاستقصاء للناصرى ج 9 ص 201.

⁷⁵² لمزيد من المعلومات حول هذه الحملة راجع مخطوط البستان الجامع لابن ابراهيم السباعي ص 364 و ما يليها .

مولانا. وقد وجه الرجل المذكور مع جماعة من إخوانه طالبا توليته عليهم والانعام عليه بالطابع والفرس والقبة لينزل بحركة إخوانه على آيت سخمان قال مولانا : **يساعد**»⁷⁵³.

المطلب الثاني، المخزن يفلح في مهمته التفاوضية:

على الرغم من التقارير والرسائل الواردة على المركز من قواد بعض القبائل المحذرة من تباين مواقفها وعدم تحمس بعض فرقها في مساعدة المخزن في التضييق على آيت سخمان، وهوما أكد عليه- بالإضافة الى صالح الشقيرني كما سلف ذكره- ، المولى عثمان قائد محلة الزيدانية من كون ولد عائشة او علي السخماني ذكر بشكل مفاجئ «أن إخوانه آيت داوود او علي انحرفوا عنه وصاروا مع فساد آيت سخمان يدا واحدة»⁷⁵⁴.

بالرغم من كل ذلك نجح هؤلاء القواد في استنفار كافة القوى الموالية بقبائل ناحية الشرق السخماني. وهكذا تمكن الشريف محمد الامراني قائد محلة ملوية بدوره من إقناع بني مكيلد في النهوض بمهمتهم لجانب المخزن ف « [...] أجابوا بالسمع والطاعة حسب ما ترد أجوبتهم بذلك على الحضرة الشريفة »⁷⁵⁵. مؤكدا على قيامه ب : «تنفيذ بما أمر به من استقدام آيت يفلمان ويزيل وحشتهم ونفرتهم ويهون عليهم ما اقتحموه من مصابهم ويقول لهم أن ذلك امر قدره الله ويتكفل لهم من الجنب الشريف بالخير إذا نفذوا ما تقدم لهم من الامر الشريف بضرب فساد سخمان ويعدهم ويمنيهم حتى يطمئنوا وتحصل لهم الثقة. مضيئا : [...] أن آيت يفلمان اجتمعوا لعقد الاخوة مع بني مكيلد الذين من جهة الزياتي وآيت عياش وآيت يحيى وآيت حديدو»⁷⁵⁶.

وبدورهم كتب أعيان آيت حديدو « بوصول الكتاب الشريف اليهم بالربط على أعداء الله آيت سخمان وفرحوا بكلام سيدنا وهم عند الامتثال وانهم مهياون للنزول في المحل الذي أمروا به بقصد الضرب والتضييق بالفساد سيما وان بينهم وبينهم عداوة من زمان »⁷⁵⁷.

بينما كتب القائد علال بن يحيى المرغادي «أن جماعة آيت يفلمان بنزولهم بحركتهم خيلا ورماة بقصد التضييق على أعداء الله آيت سخمان وفق الامتثال ولانهم أعداء لهم منذ صدر منهم ما صدر من الغدر وأنهم مهما أمروا بضربهم يفعلون»⁷⁵⁸.

⁷⁵³ خ.م.ر : كناش 172 ص 104 بتاريخ الاسبوع الاول من شهر محرم 1308 هـ
* تمثل آيت يفلمان اتحادية كبرى تضم عدة قبائل منها: آيت حديدو و آيت ازدك و آيت مرغاد و الصباح. و الراجح ان ما يرد من اسم القبيلة في المراسلات المخزنية يقصد به اعيان و زعامات القبيلة نفسها .

⁷⁵⁴ خ.م.ر : كناش 172 ص 101.

⁷⁵⁵ خ.م.ر : كناش 172 ص 6 بتاريخ 20 شوال 1307 هـ .

⁷⁵⁶ خ.م.ر : كناش 172 ص 118

⁷⁵⁷ خ.م.ر : كناش 172 ص 130 بتاريخ 22 محرم 1308 هـ .

⁷⁵⁸ خ.م.ر : كناش 172 ص 117.

بل ذهب الحال بالقائد الهاشمي السخماني الى ابداء اقتراحه على السلطان «بأنه إن اراد مولانا الدخول على البرابر فليكن من جانب بني مكيلد من ناحية يفلمان»⁷⁵⁹

كل هذه الجهود التي بذلها المخزن لتقوية حضوره واستمالة قبائل الشرق السخماني وجنوبه قد أثمرت نتائج ملموسة، واستطاع بذلك ان يحكم الطوق على القبيلة من الجهتين، مؤملا من ذلك في جعل زعاماتها وأعيانها في موقف من يدرك عواقب ما يتهدد أنفسهم وأموالهم ومساكنهم من مخاطر ستلحقهم إذا ما أصروا على مواجهة المخزن. إذ ترك الباب مواربا في إمكانية جنوحهم الى السلم والامان شريطة تسليم من تلطخت أيديهم بدماء ضحايا جريمة الغدر. فبعد التماس تقدم به لدى السلطان القائد محمد بن هم في «أن يكتب لهم سيدنا بالأمان عليهم وعلى اولادهم»⁷⁶⁰ فلم يمانع في ذلك مجيبا على طلبه بالقول: «يُكتب لهم»⁷⁶¹.

المبحث الثاني، استكمال تطويق آيت سخمان وانطلاق المعارك :

تم الحديث فيما سبق عن مستويات الاعداد المخزني في تهيئة القبائل وتحشيدتها للمشاركة في الحملة ضد آيت سخمان وإظهار هذه الاخيرة كامل استعدادها للمشاركة في التضيق عليها وتطويقها حتى لا تترك لفرارها فرصة التسلل الى التخوم الصحراوية عبر منافذ ومغازات الجنوب الشرقي. لكن هناك جبهة أخرى لا تقل أهمية في التخطيط العسكري للمخزن وربما اعتبرت أهم الجبهات موقعا وأصعبها مهمات وأعقدها تعددا على مستوى تشكيلتها الحربية وانتظاماتها القبليّة. الا وهي جبهة المنطقة الغربية لايت سخمان.

المطلب الاول، الجيش النظامي بالجبهة الغربية مؤازرا بقبائل تادلا السهلية والديرية والجبليّة:

مثل الجيش النظامي النواة الصلبة لهذه الحملة ويتكون قوامه من خيالة لهم دربة وخبرة عسكرية فضلا عن المشاة. معززا بآلات حربية عبارة عن مدافع معظمها متوسط الحجم ذات عجلات يسهل سحبها بهذه المنطقة الوعرة. ثم انضاف اليه فيلق آخر مكون من الف جندي تم استفادتهم من السراغنة وفق ما «أمر به المولى عثمان من تسراد 1000 من عسكر السراغنة وتوجيهه»⁷⁶².

⁷⁵⁹ خ.م.ر : كناش 172 ص 113.

⁷⁶⁰ خ.م.ر : كناش 172 ص 125 بتاريخ 21 محرم 1308 هـ.

⁷⁶¹ خ.م.ر : كناش 172 نفسها .

⁷⁶² خ.م.ر : كناش 172 ص 125 بتاريخ 24 محرم 1308 هـ .

انضمت تباعا على الفور الفرق القبلية للسهل التادلي التي كانت مرابضة بالقصبة الزيدانية الى جانب عسكر السراغنة النظامي تحت قيادة المولى عثمان. كل فرقة منها تتكون من فرسان ورماة يقودها قائد المائة ويقع تحت إمرته باقي مقدمي الفرقة. وحتى نتبين أعداد هؤلاء القواد المشاركين في الحملة العسكرية المتحققة بالجيش السلطاني نستعرض منها بداية نموذجا من رسالة سلطانية كتب بمثلها لكافة قواد السهل التادلي: «فنامرك أن تقوم على ساق الجد في جمع جموع خيل حركة إخوانك الصحاح وأهل النجدة والكفاح والنزول بها مع مولاي عثمان»⁷⁶³. وبمثلها توصل قواد آيت الربيع.

جدول 25: لائحة أسماء قواد قبائل تادلا الذين وجهت لهم رسائل مخزنية تدعوهم لاستنهاض فرقهم للمشاركة في الحركة ضد آيت سخمان

المصدر	القبيلة	القائد	القبيلة	القائد
كناش رقم 162 ص 65	السماعلة	عبد الله بن الشرقي	بني خيران	المرسلي الخيراني
	السماعلة	العربي بن بوشتي	بني خيران	محمد بن العباس
	السماعلة	محمد بن السربوت	ورديغة	احمد بن العربي المشهوري
	بني عمير	محمد بن محمد الوكيلى	ورديغة	محمد بن الشراذي
	بني عمير	محمد بن الماضي	الخلفية	محمد بن اليزيد
	بني عمير	محمد بن الفقيه	بني زمور	محمد بن محمد الصالحي
	بني عمير	علال بن عبد النبي	بني زمور	الجيلالي بن ميلود
	بني موسى	الصغير بن اسماعيل	بني زمور	محمد بن الكبير
	بني موسى	الشرقي بن البداوي	بني زمور	محمد بن عبد السلام الراشدي
	بني موسى	علال المراهي	بني زمور	محمد بن صالح الراشدي

صدر الامر السلطاني بانفصال الفرق المرابضة بالقصبة الزيدانية على أن تتوجه المجموعة الاولى بقيادة القائد ابن المؤذن ناحية آيت عبدي كوسر كما سبق الذكر والثانية للالتحاق

⁷⁶³ خ.م.ر : كناش 172 ص 65 بتاريخ 29 ذو القعدة 1307 هـ

بالجيش السلطاني بالشمال السخماني بقيادة المولى عثمان يتقدمها العسكر وتليه القبائل الجياشة
لآيت الربع ثم باقي الفرق.

وبينما كانت المحلة السلطانية تجتاز وادي ام الربيع في اتجاه مركز غرم العلام مرورا
بقصبة تادلة بتاريخ 20 محرم 1308 هـ اعطى السلطان للقائد موحى اوحمو « أمره بالصوكة
لاعداء الله، وأن العزم له بركات»⁷⁶⁴.

المطلب الثاني، أكرهات بنيوية و أخرى طارئة بالجبهة الجنوبية :

فور استقرار المحلة السلطانية بمركز غرم العلام في الاسبوع الثالث من شهر محرم
1308 هـ وعلى غرار ما أصدر به الامر لموحى اوحم، شرع السلطان في توجيه المكاتيب لكافة
قواد الحركات بجبهات القتال داعيا إياهم الى أخذ أهبتهم والشروع في مهاجمة المتمردين. فجاءت
أولى الأخبار عن هجوم حركة الجنوب، حيث أكد قادتتها، «[...] ولد عائشة السخماني وزايد
والحسين، بأن الكتاب الشريف وصلهم وعملوا ما تضمنه، وأنهم توجهوا يوم الثلاثاء بحركتهم
وضربوا على القصر الأول وتركوه معمرا بالرجال يضربونهم، وزادوا الى مدشر تاسرافت
فوجدوه معمرا كذلك. ويطلبون الإعانة بالمدد والمدفع. قال مولانا: «قد توجه لهم ابن المؤذن
بقصد ذلك مقوما، وإن احتاجوا بعده لذلك يعلمونا»⁷⁶⁵.

ونفهم من نص الرسالة ان الهجوم الاولي لمحاربي فرق آيت عبد اللولي وآيت سري
وآيت عبدي كوسر انطلق قبل التحاق محاربي قبائل آيت عطا وآيت بوزيد وآيت عياض بقيادة
ابن المؤذن المقوم بعتاد معتبر.

كانت المواجهة عنيفة جدا في اليوم الأول. أبان خلالها المتمردون عن مقاومة كبيرة في
الدفاع عن أنفسهم من داخل قصورهم. لكن حماسة واندفاع المهاجمين كانت أقوى من أن
تصددهم دفاعات أسوار القصور. وما لبثت تقارير قادة الحركة ترد تباعا على المركز محملة
ببيانات عن أطوار معركتهم وتوالي سقوط القصور بأيديهم والخسائر الناجمة عن احتدام الصراع
بين الطرفين.

وحتى نتبين مشاهد من طبيعة تلك المعارك نورد نماذج من مختصر رسائل قادة حركة
الجنوب ترصد جوانب من احتدام الصراع بين المتقاتلين:

- النص الاول:

⁷⁶⁴ خ.م.ر : كناش 172 ص 125 بتاريخ 20 محرم 1308 هـ
⁷⁶⁵ خ.م.ر : كناش 172 ص 133 بتاريخ 26 محرم 1308 هـ

«القائد يخلف بن مزوز بالزحف لاعداء الله بخيلهم ورجالهم ووصلوا للقصر المسمى تنكرفت ووجدوه مانعا لا ينفع فيه الا المدفع، فتعدوه لمدشر آخر يسمى تسرفت وهو مدشر كبير. وتعاركوا مع الفساد حتى وقع الفتح لهم بالمدشر المذكور. ودخلوه وحرقوه، وبقي فيه قصران بغير حريق، ولم يرجعوا عنهم الا حيث أدركهم العشي وقد مات من إخوانه وترصص منهم 53، ومات من خيلهم 8 وترصص من الخيل.12»⁷⁶⁶.

- النص الثاني:

«القائد حساين وسعات من آيت عبد اللولي، بأنهم دخلوا على تسرفت وفق ما به أمروا ومات فيه من الرجال القايد زايد، ورتصص 16 رجلا ومات 6 أفراس وترصص 8 أفراس»⁷⁶⁷.

- النص الثالث:

«القائد محمد ولد عائشة او علي بانهم دخلوا على تسرفت واحرقوا فيه عددا من الدور ومات من إخوانه 16 والجرحى 52 ومات من الخيل 5 وترصص*33»⁷⁶⁸

جدول 26 يرصد خسائر محاربي حركة الجنوب على قصور ومدشر تاسرافت

قائد الحركة	الخسائر البشرية	الخسائر المادية	المصدر
محمد ولد عائشة	16 من القتلى. 52 من الجرحى.	نفوق 5 من الخيل وترصيص 33.	كناش رقم 172 ص 136.
القائد يخلف بن مزوز اليسراوي	53 من أخوانه. وفاة القائد زايد اليسراوي.	نفوق 8 من الخيل وترصيص 12.	

توضح النصوص أعلاه حجم وقوة الصدامات بين المتحاربين، وشدة مدافعة المتحصنين بالمدشر عن أنفسهم وعوائلهم وأموالهم. ورغم أن الغلبة انتهت لصالح محاربي القبائل النائية

⁷⁶⁶ خ.م.ر : كناش 172 ص 136 بتاريخ 29 محرم 1308هـ.

⁷⁶⁷ خ.م.ر : كناش 172 نفس الصفحة .

⁷⁶⁸ خ.م.ر : كناش 172 . نفس الصفحة.

* يقصد بلفظ ترصص: أي تعرض خيل الفرسان لجروح بليغة بفعل إصابتها بالرصاص، و نفوقها يصبح في حكم المؤكد إذا ما بلغ الرصاص الى عظم الحصان .

* الكرنة في اللسان الدارج هي محل للجزارة. واللفظ يصعب تفكيكه لكن الراجح انه يحمل مدلولين: إما أنه يستدل به على المكان القصي بالسوق أي بطرفه او قرنه و قرن المكان هو القصي منه. و إما ان المواشي المعدة للذبح يتم إدخالها للمجزرة مقرونة الى بعضها البعض قبل ذبحها تباعا فسمي بالقرنة بتحويل حرف القاف كافا اعجمية.

بالنظر لتفوق أعدادهم وإحكامهم الحصار، إلا أن الخسائر كانت ثقيلة جدا في صفوفهم وربما يرجع ذلك الى قوة تحصنهم وتكافؤ السلاح المستعمل مع غياب أي أثر لاستعمال المدفعية.

وبدوره سجل مجهول صاحب كناشة مراحل سفرات السلطان وقد كان شاهدا حسب قوله على هذه المعارك، ملاحظاته حول ذلك بالقول: " ثم نهض سيدنا الى غرم العلام وأمر القبائل تنزل على آيت سخمان من كل جانب. نزول ولد عائشة او علي السخماني وآيت عبد اللولي وآيت سعيد فرقة من آيت سري بتتكرفت وتسمى تسرفت. وحضر صاحب الكناش يوم الصوكة بتتكرفت قبل نزول ابن المؤذن كأنهم جزارة الكرنة * . مات من الصديق معاينة ستة وأربعون ومجارحهم سبعون وماتت امرأة. ودخلوا عليهم وسط القصور حتى تقابضوا يدا بيد وسيروا مساجين ورؤوس قليلة." 769

عندما أدرك ابن المؤذن بحركته مدشر تاسرافت كانت الحرب لا زالت مستعرة، وقد ابدت بعض قصورها تمنعا كبيرا امام استماتة مدافعيها. بل تمكنوا من استجماع قواهم واخذوا يلودون بالقصور الاكثر منعة، ما صعب على المهاجمين اقتحام واختراق كافة الاسوار.

توالت أيام الحرب سجالا بالجبهة الجنوبية، وتزايدت معها أعداد القتلى والجرحى بين الطرفين. وعلى عادة الحروب التقليدية بين القبائل، وأمام تعقد تفاصيل مجريات المعارك خلال ساعات النهار الطويلة، دون أن تتمكن القبائل المهاجمة من حسم نتيجتها، أخذت تتسلل بين صفوف هذه الاخيرة ممن لديهم اواصر عصبوية مع آيت سخمان بعض الانحرافات والسلوكات المنافية للعهود التي قطعوها على انفسهم في "قضاء غرض المخزن". ففي تقريره المطول الى المركز أبلغ القائد ابن المؤذن : «باجتماع الفساد بقصر لهم جيد وسط القبائل المحيطة بهم. وما زالوا حائطين بهم بالقصر. ثم رأى بعض إخوان ولد عائشة يدخلون للقصر ويخرجون. وحيث بان له فيهم الغش توجه لمحل خزائنه للمبيت. فأخرجوهم، فاغتاظ لذلك ولد عائشة وما قصر مع المتسببين في إخراجهم. وقد تحقق أنهم قبضوا منهم 200 ريال وبغالا. وعلى كل حال فولد عائشة صالح ناصح وهذه الهفوة من إخوانه لا تقدح فيه.» 770 .

لم يحدث تواطؤ بعض محاربي فرقات القائد ولد عائشة أي تصدع في صفوفه. فقد استطاع الاخير بمعية ابن المؤذن من تدارك الموقف وواصل شحذ هم المحاربين في استمرارهم في محاصرة القصور المنيعه.

769 مجهول : كناشة بالخزانة الملكية مسجلة تحت رقم 12059
770 خ.م.ر : كناش 172 ص 138 بتاريخ 03 صفر 1308 هـ .

لكن رغم كل ذلك بدأت تظهر بعض الصعوبات أمام هذه الحركة ربما كانت من العوامل التي جعلت أي أفق في تحقيق نصر حاسم أمرا بعيد المنال، أهمها:

1، وعورة السطح التضاريسي :

ففي تقريره كتب ابن المؤذن ما يلي : « أنه كتب كتابه هذا يوم الجمعة عند رحيله من قصر اكرض نواضو الى قصر تاسرفت. وقد ركب ممن معه وجازوا تسرفت بنحو ساعة ونصف حتى أشرفوا على فساد آيت عدي، وعاینوا خيامهم ومحل سكناهم والجبل الذي اجتمعوا فيه، ووجدوا وعرا حائلا بينهم وبينهم.»⁷⁷¹.

2، انسحابات في صفوف القبائل وتلكؤ الباقي :

كان لطول امد الحرب التي قاربت الاسبوعين اي من يوم 26 محرم الى 08 صفر، تأثير كبير على معنويات المهاجمين خاصة وان المنطقة تعرف شحا في المياه وقلة في الزاد والكلأ وربما حتى شحا في الغنائم. ما دفع بعدد كبير من محاربي الفرق الناطقة بالأمازيغية الى الانسحاب في غفلة من قوادهم والعودة الى ديارهم. فقد أبلغ القائد ابن المؤذن بهذا الشأن « [...] بأن البرابر النازلين معه بعد أن كانوا في عدد كبير صاروا ينصرفون حتى لم يبق منهمك إلا أقل من النصف، وأنه حال بينه وبين الفساد وعر شديد منيع على الخيل والجولان بل حتى المسلك. وكل يوم يراود آيت عبد اللولي وآيت سعيد على الركوب للزحف فلا يساعد، ولا يركب معه الا طرف منهم [...] وأنه وجه من يتجسس على آيت حديدو وكم في حركتهم فوجد عددها نحو 150 من الرماة و8 من الخيل. وفهم من حالهم انهم إنما ينتظرون ما يطيش من الغنم والماشية ليخطفوه. وأنه بالغ في مراودة ولد عائشة على الرحيل لتزكات فتخوف »⁷⁷².

يلخص هنا تقرير ابن المؤذن حالة المحاربين ومعنوياتهم. فهم بين منسحب، « لان البرابر الذين معه نقصوا غاية لطول الايام وقلة الضبط »⁷⁷³، وباحث عن الغنائم او متقاعس « آيت حديدو قالوا له لا نخرج من هذا المكان ولم يظهر منهم صلاح »⁷⁷⁴ فقد سبق ان « بعث ولد عائشة اليهم بقصد التعاهد فلم يجد فيهم أحد يعتمد عليه من أهل الحل والعقد » فبدت هذه المعارك وكأنها بدون قضية ولا أفق قريب لحسمها. في حين اختفى آيت عدي وسط الاحراش وحالت الاوعار وشساعة المجال وصعوبة مسالكة دون احتوائهم من طرف الخصوم أو السيطرة عليهم.

⁷⁷¹ خ.م.ر : كناش 172 ص 144 بتاريخ 08 صفر 1308 هـ .

⁷⁷² خ.م.ر : كناش 172 ص 145 . بتاريخ 08 صفر 1308 هـ .

⁷⁷³ خ.م.ر : كناش 172 ص 150 . بتاريخ 10 صفر 1308 هـ .

⁷⁷⁴ خ.م.ر : كناش 172 نفس الصفحة .

* هو احد القادة من الطبقية .

لقد تمكن فعلا القائدان البارزان لحركة الجنوب من تدمير وإحراق جل قصور ودور تسرفت ما عدى قصر "اكرض نواضو" المنيع. صحيح أنه عندما اشتد الصراع وأخذت المواجهة تحتد بين الطرفين عزم السلطان على تعزيز الحركة بالمدافع والمدد، غير أنه بعد ان تحققت السيطرة على المداشر تم العدول عن ذلك فقد كتب محمد بن قدور المسعدي* «عما أعلموا به من أن مولانا كان أراد أن يوجه لهم عددا من المدفع ومددا من العسكر حتى بلغ سيدنا أنهم دخلوا قصور الفساد وأحرقوها وأخلوها واستخبرهم سيدنا هل الأمر كذلك من هدم القصور وتحريقها، بأن جميع قصورهم حرقوها وأخلوها عدى قصر إكرض نواضو* الذي كان حصنا منيعا لما فر منه أربابه [...] أما تاسرافت فهي قصبة كبيرة فيها عدد من الدور وقد حرقوا سقوفها وبقيت الحيطان واقفة»⁷⁷⁵

ويتأكد لدينا من التقريرين أن جل البنايات والقصور والحصون بتاسرافت قد تمت السيطرة عليها وحطم بعضها وأحرقت أخرى. وأن سكانها لانوا بالفرار الى المناطق الجبلية الوعرة. لكن كل ذلك لا يعن ان أمر المعركة قد حسم نهائيا لفائدة حركة الجنوب. فتحطيم القصور والدور لم يعني هزيمة آيت عبيدي فقد كانت لهم قدرة على المقاومة ولن يجدوا صعوبة تذكر في التجائم الى مناطق قصية سيما وأن الموسم كان خريفا لا زال يعرف اعتدالا ولطفا.

3- انفعال محاربو حركة الجنوب مع نتائج معارك الشمال:

لم تكن أسباب الوهن وتراجع حماس محاربي حركة الجنوب مقتصرة فقط على ما بدا من ارهاصات نشي بحصول تدبب واضح في صفوف قبائل الدير والجنوب السخماني، بقدر ما ارتبط أيضا بما كان يتواتر من أخبار وأصداء تصلهم بشأن المعارك المحتدمة بالشمال. و إذ نرجئ الحديث عن هذه الجبهة الى حين، فإنه من الأهمية بمكان إدراج مقتطف من تقرير ابن المؤذن حول ما بلغه عن واقعة حدثت بالشمال كان له وقع كبير على سير الاحداث ككل : «بأنه كان بنية الرحيل من قصور تسرفت لتغزوت، ومنها يقتحم مشقة الوعر حتى يتقرب للفساد كيفما أمكن. ولما عزم على الرحيل بلغه وقعة البارود من العسكر وآيت الربع [...] فكثرت المرجفون من آيت داوود أعلي الذين لهم الحمية في الفساد القيل والقال في محلته. ولأجل ذلك تأنى بتسرفت حتى يظهر للمحلة المذكورة أثرا للرجوع.»⁷⁷⁶

⁷⁷⁵ خ.م.ر : كناش 172 ص 149 بتاريخ 10 صفر 1308هـ.

* للاطلاع أكثر على اوصاف هذه الامكنة فترة الحقبة المدروسة راجع مؤلف Au cœur de l'atlas , mis de Segonzac ; pp 46,47, 48 :

⁷⁷⁶ خ.م.ر : كناش 172 ص 150 بتاريخ 10 صفر 1308 هـ.

كان حس الانتماء العصبوي وفورة الحمية معتملة بشدة في وجدان فرقة من آيت داوود أعلي إزاء إخوانهم آيت عبدي. فبقدر توأطئهم في عملية تسهيل هروبهم من القصور بعد أن اشتد بهم الحصار، بقدر ما أظهروا تشفيهم لما حل بآيت الربع. ما جعل ابن المؤذن يتهيّب مما سيحصل في القادم من الأيام، ويعدل عن متابعة تحركه في اتجاه الوسط للحاق بحركة الزباني والعسكر النظامي النازل بإزاء بوتفردة. مبررا في رسالته وعورة المسالك وشدة منعة قصور آيت سخمان ومخابئهم المحصنة بالقول: « [...] وأن بين محلته ومحلة العسكر مسافة بعيدة وفيها الوعر ويقربهم قصر عامر بأعداء الله يسمى عطاش وتحتة بقريب قصرا آخر يسمى أوجكال وهو عامر بالأعداد وفيه ذخائرهم وفي غاية الوعر وهو محل طريق محلته لبوتفردة ومنه للمحل الذي فيه العسكر. »⁷⁷⁷.

مكث ابن المؤذن شمال تاسرافت منتظرا وصول المدد والعون من المركز، مكتفيا بالابلاغ عن المسار المفترض مرور محلته منه لبلوغ أطراف الجيش السلطاني وتعزيز قوته من الجهة السفلى. ويظهر من رسالته أنه كان غير دقيق في التعريف بماهية بعض المواضع وربما غير ملم بتفاصيل ميدان المعركة، إذ يرجح كثيرا أنه كان يعتمد فقط على ما ينقله له الجواسيس والمخبرون. فنعتة على سبيل المثال أوجكال من كونه قصر في غاية الوعر، لم يكن في واقع الحال غير مخازن أوجكال وهي ذات غرف ضيقة متراسة ومتجاورة الى بعضها وقد احتقرت على واجهة جدار صخري بعلو شاهق وتفصلها مسافة معتبرة بين الاعلى والاسفل، وترتبط تلك الغرف بحافة إفريزية ضيقة للغاية على طول الجدار تؤدي لتلك الغرف المعلقة، ويكاد يستحيل على أية قوة محاربة اقتحامها أو النيل منها إلا بمساعدة دليل. وقد تمكن فعلا آيت سخمان اعتمادها كملاذ آمن يدخرون فيه أسلحتهم وأموالهم وزادهم ويحصنون فيه نساءهم وأطفالهم.

توقفت حركة قبائل الجنوب والوسط السخماني بقيادة ابن المؤذن بمعية القادة ولد عائشة وسعيد اليسراوي ويخلف بن مزوز ذاكرين « أنهم نزلوا بين تركات وتغزوت حيث الماء قال مولانا : يبقون فيه حتى يأمرهم »⁷⁷⁸

كان التعب وضيق نفس محاربي القبائل في مواصلة الحرب قد نال من الفرق المرافقة لحركة الجنوب. فقد أبلغ ابن المؤذن « أن القبائل التي معه وقع فيهم الفشل وفلوا وأن البربر في غاية

⁷⁷⁷ خ.م.ر : كناش 172 ص 150

⁷⁷⁸ خ.م.ر : كناش 172 ص 155

⁷⁷⁸ خ.م.ر : كناش 172 ص 149

الضيق على ما أخبر به الجواسيس التي ترد من عندهم والبرابر الذين معه نقصوا غاية لطول الأيام وقلة الضبط»⁷⁷⁹.

كل هذه العوامل التي تم رصدها وإعادة تحليل عناصرها الواردة بنصوص المراسلات المخزنية تعطي القناعة أنها ساهمت الى حد كبير في عدم اكتمال النتائج المتوقعة من حركة ابن المؤذن والدفع بفرق القبيلة المستهدفة من ناحية الجنوب الى الاستسلام. رغم أنها تمكنت إلى حد ما من إغلاق المنافذ عليهم للحيلولة دون تسربهم الى مناطق الصحراء الشاسعة ومن جانب آخر لا يمكن الجزم بفشل حركة الجنوب، كما ان خسائر أي طرف منهما لا تعد نجاحا للطرف الاخر. فنهاية النزاع ونتيجته لم تكن مبعثا للاعتزاز لأي منهما. إلا أن دوافع المحلة جاءت في سياق حدث وسم بالانحراف عن جادة القيم والأخلاق وكان لابد للمخزن من أن يعيد بموجب ردهه للجناة الى الأذهان تماسك قوته ويعيد أيضا ضبط علاقته بالمجتمع المحلي في إطار من التدبير المتوازن للحفاظ على وحدته ونظامه.

كان هذا عن حركة الجنوب، فكيف سار عليه حال حركات الشمال والشمال الشرقي؟ وما حجم التعقيدات التي واجهتهما؟

المبحث الثالث، عودة الى جبهة الشمال السخماني :

مثلت المنطقة الشمالية لآيت سخمان انطلاقا من أغبالة الى حدود منابع ملوية مرورا بواد العبيد نقطة ارتكاز للحملة العسكرية على القبيلة. فهي المنطقة التي شهدت وقعة الغدر، تستوطنها أشد فرق القبيلة حمية وشراسة في المدافعة عن كيانها بمجال عز من أن تناله الأحكام المخزنية. تمتد على شريطها مجموعات قبلية تتميز بتاريخها المشترك، تتقاسم فيما بينها أسباب العيش والمصير، متقاربة من حيث الذهنية والثقافة وتتحدث نفس اللغة وتدبر تقاليدها وأعرافها على نفس النمط القبلي التقليدي.

كان المخزن يدرك طبيعة الميولات التضامنية بين تلك القبائل الممتدة على شكل مروحة، وبإمكانية بروز نزوعات عصبية لديها في أية لحظة عند اشتداد المعارك. فالحماية بينها كانت لا تزال متقدمة في هذا الوسط الطرقي. فشرط تحقق اشتغال آلياتها يتكسر انطلاقا مما يمسى تهديدا للكيان القبلي ككل من خطر محقق. فرغم المشاحنات والتنافر القائم دوما بين وحدات تلك القبائل وحتى بين فخذاتها وفرقاتها، إلا أن أي خطر خارجي يهدد الكيانات القبلية المتزاحمة بالمجال، لا يمكنه إلا ان يكون محفزا لتحرك نعة الحماية القبلية وطفوح عصبيتها وتضامنها على

السطح. لذلك سعى المخزن منذ البداية وبوسائل وطرق شتى الى استقطاب تلك القبائل والدفع بزعاماتها وأعيانها وقوادها لضمان مواصلتها لجانبه، وهو ما حصل فعلا بعد ارتهان الاخيرة تحت وعد " الكلمة " وما أبدوه من التزام وعبروا عنه أمام المخزن من قناعة.

أمام كل ذلك وبعد أن اكتملت كل شروط الإعداد لحركة الشمال، وتهيأت الظروف المناسبة، أصدر السلطان أمره بانطلاق الحملة العسكرية. فكيف كان انتظامها بميدان المعارك؟ وكيف تم نشر القوى القبلية المحاربة ضمن قوة الجيش النظامي؟ هل يمكن الحديث عن بنية محاربة متجانسة وموحدة بين العسكر السلطاني والقبائل الرديفة؟ أم أن الظرف المكاني والواقع البشري سيفرضان منطقتا مختلفا تماما؟

المطلب الاول، الجيش النظامي و القبائل الرديفة:

لم يسعنا ما توفر لدينا من وثائق مخزنية، وما تحريناه بالارشيف المخزني في الوقوف على كيفية ترتيب التشكيلات العسكرية المكونة لجيش المخزن، وطريقة توزيع الفرق القبلية المحاربة استعدادا لخوض معركتها بمجال قصي ذي تضاريس معقدة وسطح وعر. لكن رغم ذلك أمكن أخذ فكرة يسيرة عن التصور العام لطريقة انتظام الجيش في مباشرته لمهمته، خاصة أنه أصبح في السنوات الاخيرة يستفيد من تأطير قباطنة وضباط أجنب منذ سنة 1877 عقب وصول بعثة فرنسية مكونة من اربعة ضباط وخمسة ضباط صف، بتعيين من الحاكم العام الفرنسي بالجزائر وهم حسب ما ورد في الحل البهية :

Payrne,journee,Linares,Erckman, Richert pennet,

Lamarque,Ahmed bouayad et Mansour ben brahim.⁷⁸⁰

صحيح ان الفرق العسكرية للجيش النظامي لم تكن تعدمها خبرة وتجربة في خوض المعارك بالمناطق الجبلية. فقد سبق ان واجهت لحظات عصيبة جدا بمضيق غياثة خلال رحلة السلطان الى وجدة سنة 1293⁷⁸¹، وبسوس سنة 1299 هـ وأخرى لا تقل خطورة وشراسة ببني مكيلد وآيت سخمان سنة 1305 هـ، وعودتها للتو من معارك مشابهة ناحية غمارة الجبلية. لكن معركة آيت سخمان الثانية بدت أكثر تعقيدا من سابقتها. فالسطح أشد وعورة ومن يقتحم مفازاتها عليه ان يكابد ويعاني الامرين. ثم أن الإعداد البشري لها أخذ وقتا أكبر. أما أرض المعركة فمساحتها شاسعة جدا، تفتح على ممرات وشعاب كثيرة، ومسالكها سرية لا يخبرها الا أبناء

⁷⁸⁰ المشرفي محمد : (م.س) ج 2 ص 130

⁷⁸¹ الناصري خالد : (م.س) ج 9 ص 158 و ما يليها .

المنطقة، بينما تنغلق في جوانب أخرى وتصطدم بارتفاعات شاهقة أو تهوي بغتة على حواف حادة. بينما المجموعات المستهدفة لم يكن لها مواقع قارة ولا ثابتة. فحتى المتحصنة منها بالقصور والحصون المنيعة كان بمقدورها الانسحاب في أية لحظة عند اشتداد الطوق عليها فيتشتت أفرادها وسط الغابات والأحراش أو يلوذون بفتن المرتفعات. كل هذه الخصائص والمعطيات المرتبطة بأرض المعركة وإصرار المجموعات المستهدفة على الصمود والمواجهة إستماتة في الدفاع عن نفسها وإجماع أفرادها على رأي واحد، كانت تنذر بأن المعركة سيطول أمدها وبات من الصعب التكهن بنتائجها.

والحال ان الجيش شكل نقطة ارتكاز بالمنطقة الشمالية لحوض واد العبيد وسعى الى التضيق على آيت عبيد انطلاقا من الجنوب الغربي لاغبالة، على ان يكون الزحف في اتجاه الشرق. والظاهر انه كان معززا بما يلزم من المدافع توضع على أسرة وكراريط و مهاريس بعجلات⁷⁸² يتم وضعها وترتيبها وفق المواقع المناسبة. إلى جانب اصطفا الخيالة بالجناحين دافعا بالمشاة والرماة في المقدمة، مع الحرص على إسناد أطرافه بفرق مدربة ومجهزة بالبنادق من النوع المسماة "السطاشية" تكلف بحماية ظهر المحاربين.

وعلى عادته المتبعة في خوض الحروب، فإن الجيش في هيئته العامة كان ينقسم الى فيالق وطوابير. كل فئة منها تخضع لأمره قائد الرحي وتجزأ بدورها الى كتيبات كل واحدة منها تؤول قيادتها لقائد المائة وهذه الاخيرة تنقسم إلى مجموعات صغيرة يزيد عدد أفرادها او ينقص عن العشرة تحت إمرة مقدم. بينما تدب غير بعيد من جهته الخلفية حركة تجارية يقتني فيها المحاربون من الباعة الأفاقيون، السلع والبضائع وسائر المواد الغذائية من لحوم ودقيق وحبوب وبشنة* وسمن وزيت وخليع. إنها السوق التي تمد الحركة بكل لوازم الغذاء للعسكر والمحاربين على حد سواء فضلا عن الأعلاف لدوابهم.

بيد أن انبناء قوام الجيش بهذه الكيفية، وأخذه لأهفته الهجومية، إنما في حقيقة الأمر يتخذ بذلك تشكيلا وهيئة كما لو كان سيخوض حربا نظامية مع جيش آخر يوازيه على هذا المستوى. والحال ان المعارك المرتقبة هي ضد محاربين مشتتين متفرقين جماعات يظهرون في مواقع معينة يهاجمون منها ثم يختفون، يكرون في أماكن يخبرونها ومنها يفرون للاعالي عندما يشعرون بخطر الهزيمة، ولهم قدرة فائقة على التعامل مع الواقع التضاريسي. هذه الميزة بدون شك ستعمل على إنهاك الجيش. لكن كل هذه المعطيات لم تكن غائبة عن التصور المخزني لما سيكون عليه حال

⁷⁸² خ.م.ر : كناش 172 ص 67

معارك الجبل وهو الذي راكم تجارب عديدة في هذا المضمار. فالجيش من جانبه على أية حال عليه ان ينتظم وفق القواعد والتقاليد التي ينتهجها ويسير عليها النظام العسكري، أما طرق التعامل مع الخصم فلم يكن له من خيار غير اتباع نفس وسائله من خلال إقحام المجموعات القبلية المحاربة الكثيرة العدد فرسانا ورماة ضمن منظومته العسكرية الرسمية التي تبقى في جميع الأحوال هي المتحكمة بزمام المبادرة.

المطلب الثاني، القبائل الجبشية و محاربو النوايب الرديفة:

أ - قبائل آيت الربيع :

مسنودة بقبائل الدير والجبل، منها آيت ويرا وآيت هودي وآيت يعقوب او عيسى وآيت امحمد، شكلت القبائل السهلية خاصة منها الجبشية، التي تمت دعوتها للمشاركة في الحملة تحت إمرة قائد حركتها الاعلى المولى عثمان، القسم الأكبر من المحاربين. يليه في الترتيب عدد لا يستهان به قادة الفرق، يؤطروهم قادة ما انفكوا يحضونهم على الاستماتة في القتال. فكانت بذلك بمثابة صمام أمان يقيم توازنا قبليا على ساحة المعركة، وتطرح نفسها كقبائل مخزن معنية تقليديا بتنفيذ الحصار المضروب على آيت سخمان. فلا مشاحة أن كثافة حضور هذه القبائل وتحرك محاربيها ضمن بنيتهم القبلية التقليدية ووفق علاقاتهم الانتمائية كان له فعالية ملحوظة في سير المعارك في حين كان لقبائل الدير والجبل وهي الاقل عددا الدور الحاسم والتأثير الأكبر في سير معارك هذه الحركة بالذات.

ب - قبائل الدير والجبل:

لا يتسع المجال هاهنا لتعداد مزايا الشجاعة والاقدام التي يتحلى بها محاربوا هذه المنطقة، وذودهم عن نصره بعضهم البعض وتفانيهم في الدفاع عن مجالهم وأهليهم. فهم أصحاب الارض ولهم جبلة من المنعة وصلابة المناقحة بقدر منعة موطنهم الجبلي. وسيرتهم الملحمية في هذا المجال قد أغنت كل معاني المقاومة والصمود غداة احتلال الاجنبي لأرضهم. لكن موقفهم هنا لا يجب ان نضعه الا ضمن إطار تاريخ العلاقات المحلية. فهم يخضعون كنظرائهم آيت الربيع لقادتهم المخزانيين لكنهم رغم ذلك يسايرون الواقع بما تمليه توجهاتهم، شأنهم في ذلك شأن طريقة تعاطيهم لشأن الجباية.

استعرت نار الحرب واشتد أوارها على جبهة الشمال منتصف الاسبوع الثالث من شهر محرم 1308 هـ ما يوافق بداية الثلث الاول من شهر شنتبر 1890م تزامنا مع انطلاق المعارك بالجنوب. وبدت القبائل هي الوحدات الاكثر تحركا وإقداما ضمن الانبناء الاستراتيجي العام

للحملة. ففي رسالة بعث بها القائد بن مزوز الوسعي مخبرا ببداية هجومه على مواقع آيت سخمان: «أنهم يوم تاريخ الكتاب وهو 25 محرم الموافق ليوم الاربعاء ينزل بالخييل والرماة على حد الصائم، وأن الفساد نازلون بأوجكال»⁷⁸³.

كما وصف صاحب كناشة مراحل السفرات الحسنية المرافق لهذه الحملة تطور المعارك من جانب الجيش السلطاني بقوله: «[...] نزل آيت ويرا فرقة من آيت سري ومعهم آيت امحمد فرقة من آيت سري ومعهم آيت هودي وآيت يعقوب او عيسى وزاد عليهم العلاف السيد محمد بن العربي الصغير بالعسكر والمدفع ومعهم آيت الربع»⁷⁸⁴.

يظهر النصان بكل وضوح مشاركة الفرق المرافقة للجيش السلطاني في الهجومات ضد المتمردين وأنها تبذل جهدا في التمكن منهم وإنهاء المعركة لجانب المخزن. لكن الواقع كان يخفي في حقيقة الامر ما ينبئ بما يخالف ذلك.

فهذا المزيج القبلي كان يعكس في جوهره تباعدا في الرأي وعدم تجانس في وحدة الكلمة وتهرب من الانصياع لأمر القيادة العليا فيما يتعلق بالخطط المعتمدة، وتنافر التنسيق في تنفيذ التكتيك العسكري. فكانت الفرق تتركب كل يوم وتخوض المعارك وتشن الهجوم تلو الاخر ثم تعود قبل مغيب الشمس الى رباط الجيش دون الحصول على أي تقدم ملموس.

عدم التجانس هذا بدا واضحا من نص التقرير الذي بعث به وزير الحرب والقائد الاعلى للحملة جاء في مختصره: « بوقوع الخلاف بين البربر الذين معه في المقام في محل الربط الذي هم فيه أو التحول لغيره، وذلك بعد الرجوع من حرب العدو. فأدى الخلاف المذكور الى كثرة اللغظ والهرج بينهم. فاتفق غالبهم على الانتقال لطرف بلاد آيت ويرا المحل الذي بعد عدوة الوادي بنح وساعة يسمى " أحنو". وطلبوا منه موافقتهم على ذلك فلم يساعدهم أولا. ولما رأى نهوض آيت ويرا من غير التفات لكلام كبرائهم، وتعذر سوق المحلة الذي يقتات منه العسكر، لم يمكنه إلا النهوض. فنهض ونزل بالمحل المذكور هو وآيت الربع وآيت يعقوب وعيسى. وأما آيت ويرا فتوجهوا لخيامهم زاعمين أنهم يقومون سوق المحلة ويجددون زادهم. نعم فخييلهم وكبرائهم بقوا معه في المحلة»⁷⁸⁵.

وتجنبنا لاتساع رقعة الخلاف في صفوف محاربي حركة العلاف، وحتى لا يرقى التنافر فيما بينهم الى ما يخشاه المخزن من قلبهم ظهر المجن وانفلات الامور، بعث السلطان بجواب الى

⁷⁸³ خ.م.ر : كناش 172 ص 132 .

⁷⁸⁴ مجهول نفس الكناشة و الصفحة .

⁷⁸⁵ خ.م.ر : كناش رقم 172 ص 144 بتاريخ 10 صفر 1308 هـ .

السيد محمد الصغير: « يأمره بالتلطف في النهوض للمحل الذي فيه محمد احم، ويمكن معه حتى يصفو أمر من ذكر له ويتقدم على الطريق الذي من جهته للحضرة العالية او المكث ثلاثة أيام دون مناوشة العدو»⁷⁸⁶

ظهر بكل جلاء مدى هشاشة البنية المحاربة لدى قبائل الدير والجبل. ولا ينبغي أن نفهم من ذلك انهم أنسوا لأنفسهم ضعفا واستكانة، أو تخاذلا أمام مواجهة الخصوم. بل لا يعزى ذلك إلا لظهور تناقضات في المواقف وتباينات في السرائر والنوايا. وهوما سيتوضح بشكل جلي من خلال ما ورد من تقارير لموحى اوحمو الزياني قائد حركة المنطقة الشرقية. فماذا عن هذه الحركة وما طبيعة الاكراهات التي واجهتها بدورها؟

المبحث الرابع، جبهة الشمال الشرقي لآيت سخمان :

إذا ما جاز لنا تصنيف الحركات العسكرية الثلاث المشار اليها اعلاه، بمعيار الجدية وقوة المواجهة، وأكثرها حركة، وأقواها اندفاعا وانصياعا لأوامر قيادتها، لأمكن القول أن الحركة الموكول لها الربط بجبهة الشمال الشرقي لآيت سخمان تحت قيادة حمو الزياني، المعروف بدهائه وإقدامه وقدرته على تدبير مهمته العسكرية على الوجه المطلوب وجرأته في المواقف المناسبة، أنها الأكثر تنظيما وانضباطا. لقد تبوأ فاعلا المكانة الأكثر أهمية ونجاعة في الحملة العسكرية برمتها على آيت سخمان.

انتدب المخزن المركزي القائد المذكور ليكون على رأس حركته المشكلة من إدالته المخزنية المكونة بالإضافة الى خيالة ومشاة وطبجية، المميزين "بكساويهم" الملونة وسروجهم المزركشة، من محاربي قبائل زيان وبني مكيلد وآيت يفلمان وآيت اسحاق.

وتأتي أهمية حركة هذه الجبهة من كون مجال تحركها يضم مركز أغباله بما يحمله من رمزية لدى اتباع سيدي علي امهاوش المتهم بالتحريض على اغتيال الشريف سرور، بل مثل واحدا من الرباطات التي كان ينزل فيها المرابط المذكور. مع الاشارة الى أن علاقة من التنافر الى حد العدا كانت مستحكمة بين هذا الاخير والزياني.

لقد بدت المواجهة بهذه الناحية وكأنها مناسبة لتصفية حساب بين ندين قويين وغريمين شرسين. الأول منهما يظهر متلفعا تحت عباءة مهدوية، لديه أنصار وأتباع، ويشمل إشعاع تأثيره أقساما شاسعة من الوحدات القبلية لحوض واد العبيد وتمتد من جنوب الاطلس المتوسط بما فيها قبائل آيت ويرا وآيت ا محمد وآيت سخمان واشقيرن وآيت احند وبني مكيلد ملوية الى تخوم

⁷⁸⁶ خ.م.ر : كناش 172 ص 146 .

مناطق الصحراء الشرقية. ويستمد مشروعيته من تاريخ أسلافه الذين كانت سيرتهم على غير وفاق مع المخزن. وثانيهما قائد مخزني متلهف للسلطة يستمد قوته من دعم المخزن ومن قاعدته القبليّة زيان وامتداداتها العشائرية وما اصطنعه من موالين وأتباع. امتدت سلطته لتطال مجال زيان وآيت سكوكو وآيت بوحساسن وآيت اسحاق وآيت هودي وأم البخت. ويحتج من المال والجاه والسطوة ما جعله مهابا بين القبائل ولا يستتفكف توسيع جغرافية نفوذه وإخضاعه للقبائل المجاورة تحت مبرر إنفاذ الاحكام المخزنية. إنه القائد الذي جعل نصب عينيه تحطيم أغباله وكسر معنويات آيت سخمان. فهل سارت الامور كما اشتهاها الزياني؟

نفهم من دراسة واستقراء عشرات النصوص والتقارير والمراسلات الصادرة والواردة أن خطة المخزن اقتضت انطلاق هجوم الحركات الثلاث المتمركزة في مواضعها المختارة بعناية ودقة مع تنسيق الجهود في تنظيم الهجومات والشروع في اكتساح المجال السخماني بنوع من التدرج بغاية إحكام الطوق على المتمردين على شكل كمانشة لبلوغ نقطة محددة تجمعهم في الاخير ببوتفردة.

وإذا سلمنا بتمكن حركة القائدين ابن المؤذن وولد عائشة من اجتياح المنطقة الجنوبية واستيلائها على مدشر وقصور تاسرافت، وترنوا للسيطرة على تاغزوت، ومن هناك تلتحم بحركة العلاف قرب أوجكال وقصور عطاش. فإن حركة العلاف بدورها باتت تتقدم ببطيء شديد من الشمال الغربي وتتجه من جنوب أغباله الى أحانو. بينما اخذت حركة موحى اوحم على عاتقها الزحف من رأس ملوية وسد منافذ واد العبيد والتوجه نزولا من الشمال الشرقي بعد السيطرة على قصور تاعدلونت ثم آيت عبدي والتوجه نحو أوجكال ثم بوتفردة بالوسط. كما اقتضت الخطة بأن يقع الهجوم على أغباله من محورين: واحد من جهة الغرب تشنه آيت هودي والثاني من جهة الشرق بقيادة الزياني. وهوما تم بالفعل، حيث انطلقت اولى المناوشات في وقتها المحدد بقيادة الزياني اوقع على إثرها رعبا شديدا في نفوس السكان وأحدث اختلالا كبيرا في صفوف مدافعي القرية. إذ يرجح أنها لم تكن على قدر من التحصين كما هو الحال بمداشر الجنوب وقد بعث القائد مُبلغا بهذا الهجوم: « أن الرماة بأغباله حاصروا الفساد، وخرجوا بالليل فارين. فلما أحس بهم الرماة أوقعوا الصياح للخيل وركبت إليهم ليلا، وبقيت أمواتهم صرعى في الطرقات حتى

وصلوا لواد العبيد في الليل قال مولانا: البلاء في محله، استأصلهم الله وجعلهم طعمة للجيش والقبائل»⁷⁸⁷.

وعلى المحور الغربي تمكن محاربو آيت هودي وأم البخت بدورهم من مهاجمة المساكن والدور المحيطة بمركز أغباله، وطردها سكانها حتى بلغوا المركز نفسه وأحاطوا به وحاصروه. هذا ما أبلغ به زعماء القبيلة في رسالتهم للمركز. بينما نعثر في رسالة الزياني ما يناقض ادعاءهم، ناسبا لنفسه ولمحاربيه حدث سبق في إحراق أغباله كما كتب به في معرض رسالته بكون: «[...] أم البخت من أنهم لما توجهوا لفساد آيت سخمان وجدوهم أدخلوا بلادهم فحرقوا ديارهم وأكلوا زروعهم وتبعوا آثارهم حتى وصلوا لأغباله فوقوا ثمة منتظرين ما يصدر لهم به الأمر الشريف. ذكروا أن القصور التي للفساد ما بقي معمرا فيها سوى أغباله وطيط أبلال وأفرد. وأما أهل البخت ما حرقوا قصورا ولا أكلوا زروعا ولا تبعوهم. وقد حل هو في بلادهم يوم الخميس ووقعت الصوكة لهم يوم الجمعة كما هو مذكور في غير هذا. وحرق أغباله وطيط أبلال وقع على يده هو، وكذلك أكل زروعهم قال مولانا: نعم هو كذلك»⁷⁸⁸.

ظلت إلى جانب الزياني قبائل ايشقيرن وبني مكيد وآيت اسحاق حيث كانوا يرابطون بمحلة الشريف الامراني. وبعد اعلام المركز لهم بنزولهم المحلة برأس ملوية بازاء أغباله نهضوا مع الزياني. وأكد بوعزة بن حموشقيرني ومحمد او عرفة المكيدي انهم حرقوا قصورا لآيت سخمان ونهبوا ما فيها و«أكلوا زرعهم من البشنة* والذرة»⁷⁸⁹.

كانت هذه الاخبار ومثلها من المعلومات تتوارد تباعا على المخزن، وكلها تؤكد على إحراق أغباله ونهب ديارها.

وإذا كانت الضرورة المنهجية تقتضي توسيع المعلومة التاريخية واقتفاء أثرها من وجهة نظر الطرف المستهدف، وإن كانت لا تأتي الا لماما وأحيانا بشكل عرضي، فإن ما تعين الوقوف عليه بصدد إحراق المركز المذكور ليس بأقل أهمية مما جاء على لسان المرابط أمهاوش نفسه في روايته للمركز الرحالة، "[...] أن السلطان بعد أن ألقى بمسؤولية قتل الشريف سرور على المرابط، نظم حركة في السنة الموالية من أجل إخضاع آيت عبدي ومن ثمة إلقاء القبض عليه.

⁷⁸⁷ خ.م.ر : كناش رقم 172 ص 130 .بتاريخ 22 محرم .

⁷⁸⁸ خ.م.ر : كناش رقم 172 ص 139

⁷⁸⁹ خ.م.ر : كناش رقم 172 ص 134

* البشنة من اصناف المنتجات الزراعية بالمنطقة ويقصد بها اما الذرة، او الدخن او ما يسمى "بايلان" و هو من الحبوب الغذائية شأنها شأن الشعير تستعمل حساء و علفا للمواشي.

وأن كل سكان أغباله لاذوا بالفرار وبقي وحيدا بمعية القائد اولباز و150 من الرماة. فعمد الى إحراق دور أغباله ثم التحق بالجبل لمدافعة المهاجمين لمدة شهر كامل".⁷⁹⁰

واصل الزياني مطاردة فلول الفرار من آيت سخمان وسط أوعار مجال آيت عبدي شرق أغباله، متعقبا فلول المتمردين بالمرتفعات والخوانق مسجلا ذلك في مختصر تقريره التالي: «انه مخيم هو ومن معه بواد العبيد، وزحف لأعداء الله آيت سخمان يوم الاربعاء، ووقعت الهزيمة عليهم حتى وصلوا لدواويرهم ووجدوهم متوغلين في اوعار الجبال وكهوف الاودية. وأنه لوكان عنده الرماة لاستأصل جميعهم، وإنما عنده الخيل، وقد بقيت أمواتهم بإزاء خيامهم وقد حصل عنده 13 من الأسارى وحز منهم 4 رؤوس. وأنه مات من جهة العسكر خمسة ومن القبائل عشرة. وأن البربر ليس من عادتهم حز الرؤوس. وقد نهب منهم 32 خيلا وعدة كثيرة. وقد استروح منهم الفشل والوهن حيث تقاتل معهم بأجدلان وقد تواعد مع جيرانه المرابطين للصوكة يوم الاربعاء فلم يجد منهم أحدا»⁷⁹¹.

لم نجد تفسيراً لما ادعاه الزياني من أن جيرانه المرابطين تخلفوا عن صوكة يوم الاربعاء رغم أن قائدين منهم اكدا في رسالة الى المركز عكس ذلك ويتعلق الامر ب: « ابن عمر اليوسفي المرابطي وابن الطيب المرابطي ومعهم إثنان، بتخييمهم مع محمد اوحم بواد العبيد، وصاكو معه يوم الاربعاء ووقعت الهزيمة على أعداء الله وتشتتوا في أوعار الجبال وتفرقت أمواتهم في الطرقات وحصل منهم أسارى». ⁷⁹² فهل كان يقصد من ذلك أن عدد المشاركين منهم كان قليلا وتلاشت أعدادهم وسط القبائل الاخرى؟ ام يعزى الامر الى ضعف في التواصل والتنسيق فيما بين الفرق المهاجمة وتفرقهم على أرض المعركة؟ ومهما يكن من أمر، فإن ظاهرة تقاعس بعض قبائل الدير والجبل وترددهم في القيام بسد المنافذ وتشديد الطوق على الخصوم قد تكرر ذكرها مرارا في تقارير الزياني، وكثيرا ما كان يبدي تدمره وحنقه من ذلك، بل ذهب به الامر الى حد اتهامهم بالتآمر والتواطؤ مع الأعداء.

المبحث الخامس، انحلال في جبهات القتال :

من نافل القول أن جل قبائل جنوب الاطلس المتوسط خاصة منها الواقعة بالجانب الاوسط والغربي قد شاركت في الحركة التأديبية لآيت سخمان وآيت عبدي الى جانب القبائل الديرية

⁷⁹⁰ De segonzac : idim p 56 .

⁷⁹¹ خ.م.ر : كناش رقم 172 ص 141 بتاريخ الجمعة 4 صفر 1308هـ.

⁷⁹² خ.م.ر : كناش رقم 172 نفس الصفحة .

والسهلية لتادلا. وقد شكلت كل فرقة منهم لبنة ضمن البناء العام المشكل للقوة العسكرية لحركة المخزن، وقد حدد موقعها ضمن الفرق المهاجمة في كل جبهة من جبهات القتال الثلاث. على ان تكون مساهمتها بمقدار معين من المجهود الحربي والمشاركة الفعالة في مساعدة المخزن على إعادة صياغة النظام والوحدة بين القبائل بمفهوم شمولي وعم. وفي نفس الوقت عليها ان تقف على مسافة واحدة بينها وبين الخصوم حتى لا ينخرم البناء ويختل توازنه. لذلك يتعين فهم سياق إشراك بعض الفرق القبلية التي تم إقحام بعضها بشكل رمزي كما هو عليه حال قبيلة آيت حديدو المشاركة فقط بثمانية فرسان. فلم يكن ذلك يهدف الا الى دعم هذا الاتجاه الذي سعى المخزن الى تحقيقه. لكن ذلك كان سيفاً ذو حدين.

المطلب الاول، مزيج قبلي محارب غير منسجم:

ظهرت جموع الفرق القبلية في كامل استعدادها ومعداتها الحربية التقليدية. فرسان يرتدون سلاهم وعمائم بيضاء، ومشاة نحيفو البنية وقد علا سحناتهم السمراء بقايا مما يثار من نقع الخيول والأفراس، وهم يتقدمون على هيئة جماعات غير منتظمة نحو خصومهم بساحات المعارك. مشهد بانورامي يمكن تخيل تفاصيله بوضوح، لكن ما غاب في الصورة كان هو الأكثر إثارة ومدعاة للدهشة. إنه قدرة المتمردين على الصمود والثبات رغم إدراكهم بأنهم لا قبل لهم في صد هذه الجموع من القبائل والعساكر التي حلت بترابهم. بيد ان عناصر أخرى تختفي خلف هذا المظهر، لا مندوحة من توضيحها واستجلاءها حتى نتبين بعضاً من مؤشرات ساهمت الى حد ما في صمود آيت سخمان.

فالجموع القبلية المتحدثة عنها تبقى في ظاهرها كتلة بشرية ذات نفس هجومي محارب، لكن من جانب آخر لا يمكن إغفال طبيعة بنيتها القبلية وتركيباتها الاجتماعية التي تؤلف جموعهم. كتلة طافحة بمزيج لغوي وتنوع ثقافي يبداوا انه متداخل بمعيار الحياة الطبيعية العامة، لكنه أمسى امام ضغط هذه الظرفية حاملا بين طياته مجموعة من التناقضات والاختلافات المتباينة⁷⁹³ لا يمكن تفسيرها الا كنتيجة حتمية لبروز الآثار الوخيمة المتراكمة التي غدا يعمقها الضغط الاجنبي على الواقع السياسي والاجتماعي للمجتمع المغربي خلال الفترة المدروسة⁷⁹⁴.

⁷⁹³ لا ينبغي أن نفهم من اللفظ نوعاً من التمييز الاثني والعرقى البغيض او استلهاما لتصورات إثنوكولونبالية كما كرس له بعض الدارسين الاجانب خلال مرحلة الحماية من أمثال هنري طيراس ، بقدر ما نقصد بها ، ذلك التنوع الثقافي واللغوي الذي بصم الخصوصية المغربية. فانصهرت بموجب ذلك في بوتقة واحدة تؤمن بالوحدة الوطنية و تكرر صيغة من الانسجام العام . و لعل هبة رجال قبائل الاطلس المتوسط لنجدة إخوانهم بالشاوية سنة 1907 من الاعتداء الكولونبالي الفرنسي خير دليل على ذلك .
⁷⁹⁴ يقول ع. العروي في توصيفه لمرحلة المنتصف الثاني من القرن 19 : " و مع ازدياد الضغوط تأثرت ردود الفعل ببعضها ببعض بشكل جعل المجتمع كله يات تحت وطأة المستجدات و الطوارئ " الأصول الاجتماعية و الثقافية للوطنية بالمغرب ص 322 .

وبما أن لكل حدث لابد أن تكون له استقبالا أهميته على سلم التعليل والتفسير، فإن استقراء لنصوص الوثائق المخزنية التي واكبت تلك الاحداث يوما بيوم مكننا من استخراج بعض مقتطفات من نصوص رسائل وردت من الجبهات الثلاث ثم البناء على معطياتها.

كتب المولى عثمان: « بأن ولد عائشة او علي السخمانى ذكر أن إخوانه آيت داوود او علي، انحرفوا عنه وصاروا مع فساد آيت سخمان يدا واحدة»⁷⁹⁵.

وفي رسالته الى المركز كتب الزيناني يعلم بحدوث ثغرات من جهة المحور المقابل لحركته بأغباله: « [...] وأنه لا يوجد من القبائل رابطا عليهم ولا ضربهم وأنهم يمجون في أوعار الجبال والادوية حيث لم يقع الربط والشد عليهم»⁷⁹⁶.

وفي رسالة أخرى نبه الى: « [...] وأما القبائل المجاورة لهم فإنهم يكذبون على الجانب العالي بالله، وينافقون، لانه لم يظهر أحد منهم. وأحال في صحة خبرهم على الحاملين لكتابه لانهم عاينوا ذلك [...] ولم يترك لهم ملجأ ولا مهربا وسدت الطرقات عليهم من جهته، لكنهم وجدوا فسحة من جهة جيرانهم لاوعار الجبال حيث لم يقع الربط عليهم منهم، ولا تصدوا لضربهم ولوأنهم قاموا لهم على ساق لقضي فيهم الغرض في الحين»⁷⁹⁷.

اما القائد بو عزة الشقيرني فقد كان أكثر وضوحا فيما اخبر به: « [...] وأن القبائل جيرانهم فإنهم وسعوا عليهم آمنين منهم، ولو ربطوا عليهم ونصحوا في قتالهم لقضي منهم الغرض»⁷⁹⁸.

وفي رسالة غير موقعة ولا تحمل صفة المرسل توصل بها المركز جاء فيه: « بأنهم زحفوا لأعداء الله بمحل وعر وتقاتلوا معهم. ولم يعنهم سوى آيت امحمد، لا غيرهم من آيت عبيدي وآيت يعقوب او عيسى وآيت هودي»⁷⁹⁹.

ومن جانبه بعث ابن المؤذن بكتاب يوضح مشقته في إقناع مرافقيه من قبائل الجبل في مواصلة الزحف: « [...] وما أمر به من الرحيل ومن معه لتزكات، بأنه قرأ الكتاب الشريف على

⁷⁹⁵ خ.م.ر : كناش 172 ص 101 .

⁷⁹⁶ خ.م.ر : كناش 172 ص 130.

⁷⁹⁷ خ.م.ر : كناش 172 ص 130.

⁷⁹¹ خ.م.ر : كناش 172 ص 134 بتاريخ 27 محرم 1308هـ.

⁷⁹² خ.م.ر : كناش 172 ص 134 بتاريخ 26 محرم 1308هـ.

من معه من البرابر فلم يظهر منهم انقياد الى الرحيل لذلك المحل، قائلين إن الفساد نازلون في رأس ذلك المحل وأرضه معطشة لا ماء فيها.»⁸⁰⁰

ونستخلص من نماذج النصوص المدرجة أنها تتقاسم فيما بينها معطين أساسيين:

- ان كل تحركات الحركات بالجهات الثلاث تبقى مشدودة بتوجيهات المركز وتخضع لأوامره بناء على تقييمه لحالة سير المعارك تأسيسا على ما ترد عليه من أخبار ومعلومات ومعاينات لحملة المكاتب.

- مكابدة قادة الحركات مشاق جمة في ضبط محاربي الفرق القبلية الجبلية وظهور حالات من التهاون والتقاعد والتردد، وعدم التماسك في مواقع الربط، بقدر ما أبانت مواقفهم مدى تساهلهم وإفساحهم المجال للخصوم بالفرار أو الانسحاب من أرض المعركة مما أضعف من جهود الحركات وربما أصاب محاربيها بالسخط والاحباط.

وبما أن المعطى الاخير لا يمكن تفسيره وتعليل مضمونه الا بما افصحت عنه نصوص الوثائق المخزنية، فإن الركون لأي استنتاج دون استحضار خلاصات ترتبط باستطلاع مواقف تلك الفرق، يبقى هشاً وضعيف الحجة. كما أن أي تأويل معاكس لا يجب ان يذهب بنا الى ما نفهم منه أن هؤلاء القادة انما كانوا فقط يبررون بادعاءاتهم تلك إخفاقهم في السيطرة على الموقف. غير أن تواتر وقوع اختلالات في صفوف المهاجمين وفي كل الجبهات، وحدوثها بصورة متكررة وفي وقائع متماثلة، ليدفعنا الامر الى طرح مجموعة من الاستفسارات:

- هل للمواقف المبهمة والمتذبذبة للفرق الجبلية والديرية المحاربة ضمن الحركات المخزنية، دوافع أملتها نزوعات الحمية العصبية بما أبدته من تضامن خفي لجانب إخوانهم آيت سخمان؟ وإذا كان الامر كذلك لماذا وافقوا من حيث المبدأ على المشاركة في هذه الحرب، وظلوا يشبهون سيوفهم ضدهم مع أن قلوبهم كانت تنبض بعكس ذلك؟

- هل كانت تلك القبائل تخشى فعلا على نفسها إذا ما وقعت هزيمة ساحقة على إخوانهم في أن يؤول مصيرهم جميعا الى دائرة حكم المخزن وتكون مقدمة لاحتوائهم ومن ثمة تفتيت منظومتهم القبلية التقليدية وانهيار زعاماتها، تاركين مكانتهم لقواد المخزن؟

وبغض النظر عن هذا وذاك، فإن محاربي الفرق المذكورة كان بمستطاعهم ان يشكوا سندا قويا للحركات الثلاثة بحكم دربتهم كفائتهم وخبرتهم بالمجال. بينما كان ظهورهم على مسرح الاحداث بالصورة التي عبرت عنها النصوص أعلاه، لم يعبر في جوهره الا عن حضور سلبي

رامت من خلاله الإسهاد على مشاركتها في الحرب دون أن يكون لذلك الحضور أثرا قويا لحسم المعارك. بينما قدمت الفرق السهلية وفي مقدمتها قبائل آيت الربع الجيشية نفسها العنصر الأبرز في المعارك وفي سقوط أكبر عدد من القتلى في قوادها ومحاربيها.

لقد أثبتت التجربة التاريخية خاصة في المعارك التي تجري في وسط قبائل الجبل مثل ما حصل في وقعة ظيان زمن المولى سليمان أن إشراك أكبر عدد من القبائل وما يحبل به مزيجها من تناقضات وهشاشة في الانسجام وتنافر في الرؤية والهدف، وما أظهرته من تباعد بين وحداتها وضعف في تماسك صفوف فرقها، كل ذلك مثل إرھاصا لما يمكن ان يحول دون تحقيق النتائج المتوخاة. وبما ان الواقعتين التاريخيتين، ظيان وحملة آيت سخمان لا تصح من وجهة المقارنة، كون سياقاتهما ونتائجهما جاءت مختلفة، إلا أن قاسمهما المشترك، هو ان البنيات القبلية الحاملة في مضمونها اوجها من التناقض والاختلاف على مستوى مواقف الفرق القبلية الجبلية المشاركة ظلت هي نفسها بالقدر الذي عبرت فيه عن استمرارية حيويتها.

وإذا كان لهذا التعليل من مبرر يدعمه، فليس من مقاربة أوضح مما يمكن إدراجه من واقعة حدثت في خضم حملة قتالية بقيادة العلاف محمد الصغير.

المطلب الثاني، حادثة بوتفردة وحركة عسكرية متسعة:

في مستهل الأسبوع الأول من شهر صفر، كان الأمر بتوجه الحركات الثلاث الى منطقة بوتفردة حيث تجمعت حشود من محاربي آيت سخمان قد حسم.

تقع بوتفردة بمجال قبيلة آيت عبيدي تحاديها تنوعات هضبية وسهل فسيح يفتح على مراعي "أزغار فال"، بينما لا تبعد عنها كثيرا من ناحية الجنوب تينكرفت، وأوحانو من جهة الغرب، ويفصل بين هذه الأخيرة وبوتفردة مجرى واد العبيد وبعض روافده. إلا أن مشهدها الطبيعي العام يغلب على سطحه غطاء نباتي كثيف ومساحات مشوجرة ومظهر طوبوغرافي تغطي عليه التواءات صخرية وتنوعات حادة يعيق وعرها تحركات الخيل والدواب وتعيق أنقال المدافع بفعل وجود وديان التفاقية عميقة الجريان، مياها تصير متقطعة وأحيانا تنحصر في فصل الخريف، حتى أطلق على نهر يحاذيها إسم "الواد العطاش". وعلى مسافة غير بعيدة تنتصب عاليا المآوي الآمنة لأوجكال.

لقد بات من شبه المؤكد ان بوتفردة كانت بيت القصيد بما اقتضت به خطة المخزن من إحكام الحصار على متمردي آيت سخمان، حتى يفضي بهم الامر الى الاستسلام. إلا ان التخمين يذهب بنا أن الموقع المذكور، ربما كان بمثابة فخ لحركة محمد الصغير.

فإدراكا من المتمردين لأهمية خصائصه الجغرافية المواتية لهم، انبروا الى استغلال الموقع في عملية استدرجية للعسكر لان تجري فيه المعركة الفاصلة بمخاتلتهم وأساليبهم في الكر والفر المرهقة، وعلى أرض يخبرونها هم، تسمح لهم بالانسحاب إذا ما داهمتهم غلبة أوجرت عليهم هزيمة* .

وهكذا «ركب ابن المؤذن ومن معه وجازوا تسرفت بنحو ساعة ونصف حتى أشرفوا على آيت عدي [...] ووجدوا وعرا حائلا بينهم وبينهم»⁸⁰¹ .

تزامن ذلك مع توجيه الامر المخزني للزياني «بالمفاوضة مع السيد محمد الصغير الموجه له مع القبائل والعسكر والمدافع للنزول ببوتفردة وكذا مع الخديم ابن المؤذن بحيث تكون النهضة واحدة»⁸⁰² .

أما قائد الجيش، وهو المركز المحوري للحملة، فقد بدا منفعلا تحت تأثير من يحيط به من محاربي قبائل آيت ويرا وآيت هودي وآيت عيسى، أكثر منه فاعلا ومتحكما بحركته العسكرية. مع الإشارة في هذا الصدد ان الفقيه ابن ابراهيم السباعي الذي كان يرافق المحلات السلطانية في كثير من المرات لم يخف ما تخلد في ذاكرته من انطباع حول سيرة هذا الاخير. فقد أورد شهادتين عنه في كتابه البستان الجامع، فنذكر في أولها حينما جاءه تكليف سلطاني بتنفيذ خطة الترتيب : "[...] وقد تكلف بذلك ناحية الحوز المسمى محمد الصغير وهو وإن جعل من كبار الجيش، ففيه خفة عقل وطيش"⁸⁰³ . والثانية، "[...] أن محمد الصغير* المنسوب لوزارة الحرب لما جعل له من أمر العسكر كله، فهو أميره وقائده وحاكمه وكبيره، وفيه من الطيش وخفة العقل ما ينافي ذلك"⁸⁰⁴ . ارتحل العلاف بإيعاز وضغط من قبائل الدير والجبل الى ناحية "أحانو" غير بعيد عن "أسيف ورين" المقصود على الأرجح في نص رسالة سابقة بعدوة الوادي، أي واد العبيد، قاصدا بوتفردة بمعية محاربي القبائل وهم في أتم استعداد وأهبة.

⁸⁰¹ خ.م.ر : كناش 172 مقتطف من رسالة سابقة ص 144 .

* سيطلق على هذا النوع من الخطط الحربية في أدبيات العمل العسكري المعاصرة مستهل القرن العشرين " بحرب العصابات"، وقد برع في خوضها ضد الاسبان المجاهد محمد بن عبد الكريم بمنطقة الريف قبل استسلامه للجنرال الفرنسي بيتان (سيرقى لاحقا برتبة ماريشال) على إثر تحالف عسكري غاشم مع الاسبان بعد لجوءهم الى استخدام وسائل حربية غير أخلاقية .

⁸⁰² خ.م.ر : كناش 172 ص 147 بتاريخ 8 صفر 1308هـ .

⁸⁰³ السباعي بن ابراهيم : (مخ.س) 317 ورقة .

* سيرف محمد الصغير و شقيقه الاكبر، الصدر الاعظم نهاية جد مأساوية و غير متوقعة بإغراء من الحاجب با حماد بداية حكم السلطان عبد العزيز . أورد سبب ذلك فيما ذكره محمد غريط بالقول : "فابتدأ أمره (باحماد) بالتصدي للوزيرين الاخوين الحاج المعطي الجامعي و ابي عبد الله الصغير ، وشمر للتحذير و التنفير منهما عن ساعد مغير ، لما اتهمهما به من الاتفاق مع ذوي الصرامة و التمييز على غدر السلطان مولاي عبد العزيز ، و الفتك بالقائمين بدعوته و رد البيعة لمولاي محمد". (فواصل الجمان ص 82).

⁸⁰⁴ السباعي بن ابراهيم : (م.س) ورقة 383 .

وتشير كل نصوص التقارير والمراسلات الصادرة عن الواردة على المركز المستقر بغرم العلام، أن السلطان كان يتابع كل تفاصيل ما يجري بالميدان، ويأخذ علما بكل ما يمور من وقائع وأحداث في وسط محاربي القبائل، ويصدر أوامره وتعليماته بناء على ما يتم تقييمه ويراه مناسبة "لقضاء غرض المخزن". وبما أن تحركات القواد وخطتهم الظرفية كانت تتخذ بناء على كل مستجد ومتغير على ارض المعركة، فإن التوجه العام الذي كان المركز يحرص عليه ويؤكد على التقيد به ويدعوا كل قادة الحرب والفرق القبلية المشاركة التمسك به، هو انتظامهم جميعا « على ترتيب كيفية الزحف ونهوض الجميع دفعة واحدة»⁸⁰⁵ حجكذ

كان هذا هو جوهر خطة المخزن التي تأسست عليها السياسة التدبيرية التي رسمها للايقاع بأيت سخمان وهي تقوم في بعدها على حصول نوع من الانسجام بين الوحدات القبلية المحاربة، وتوحيد جهودهم في انبناء صلب متوافق ومتماسك حتى يتحقق الهدف ويفضي الامر الى حسم مادة الصراع وإنهاء مهمة الحملة التي نجحت الى حد ما في تطويق آخر معقل للخصوم. فهل تقيد فعلا زعماء الحرب بما اوعز به السلطان وتمكنوا من الوفاء بما ذكروا به، ومن ثمة سارت الاحداث وفق الخطة المرسومة؟

المطلب الثالث، هجمة فاشلة تحت وقع التسرع والتدبير غير المنسجم:

تقدمت الحركات ببطئ حذر صوب بوتفردة. وكل واحدة منها تحمل على كاهلها مسؤولية تنفيذ ما توصلت به من المركز من تعليمات، سواء في كيفية الربط والتنسيق مع باقي الحركات، او من دفع قادتها لتحفيز وشحذ همم الفرق المحاربة، اوفي حسن التخابر والتواصل بين باقي القادة. وهكذا تخطى موحى اوحم مركز تاعدلونت ناحية الشرق، بينما تجاوز ابن المؤذن ومحمد ولد عائشة تاغزوت جنوبا، وباتت حركة العلاف على مقربة من الموضع المذكور تاركة خلفها أحانو غربا. وكان هم كل قائد حركة هو انضباط فرقه وانصياعها لإشارته، وحرصه الشديد بالتحكم في تحركاتهم. إذ لم يعد من الممكن لبنية محاربة طافحة بجملته من التناقضات طيلة مسارها وأثناء المواجهات لأن تخفي مظاهر تلك الخلافات. فباستثناء الزياني الذي بدا أكثر تحكما بمن تحت يده من المقاتلين، فإن حركة الجنوب بدت أقل انتظاما وتماسكا. اما العلاف فقد ظهر دوره باهتا وحزمه ليس ذا فاعلية أمام طغيان رأي ما يشير به قادة فرق الدير والجبل.

⁸⁰⁵ خ.م.ر : كناش 172 ص 147 .

فبعد أن شارف الجميع على الموضع المقصودة أو كادوا، لم يكن خلداهم منشغل بغير تنفيذ ما أمر به السلطان : « على أن يكون الزحف كل من جهته بعد التعالم»⁸⁰⁶.

التعاليم كما في الخطاب المخزني هو عمل إجرائي يلزم الجميع باعتماده كعنصر تواصلية مضبوط، يدفع الفرق المحاربة بعد الاشعار بتوقيت الهجوم على أن يكونوا على قلب رجل واحد، ويرمون عن سهم واحد، مهينين للتحرك وفق ما يشير ويجمع عليه كافة القادة. فهل اسعف الظرف المكاني والزمني في تحقيق ذلك؟ أم أن إكراهات ضاغطة ومستجدات الميدان ضاعفت من حدة الأزمة وأثرت على مجرى الأحداث؟

المبحث السادس، حادثة بوتفردة تُسرّع بقرار حسن الانفصال :

يجيز لنا القول بوصف ما حصل صبيحة يوم الهجوم على آيت سخمان بناحية بوتفردة بالحادثة. فهي وإن شهدت اصطداما بين خصمين وأفضت نتيجتها الى ارتداد في معنويات الجيش والفرق المحاربة وحدث ارتباك مفاجئ في صفوف المقاتلين ادى ثمنه عدد لا يستهان به من محاربي الفرق السهلية بسبب انفراد حركة العلاف بهجوم احادي الجانب دون غيرها من سائر الحركات الاخرى القادمة في الاثر. كل ذلك يثير نوعا من الريبة فيما حصل خلال ساعات من تلك الصبيحة، ما يجيز اعتبار أنها حادثة استثنائية ضمن قاعدة عامة عرفتها فصول مهمة المحلة وأطوار معاركها التي استمرت قرابة شهر.

المطلب الاول، تضامانات خفية تعكس الملمح الذهني العام لقبائل الجبل :

نستشعر من خلال الوقائع التي شهدتها اطوار معارك ايت سخمان نوعا من التضامن الخفي بين محاربي قبائل المخزن والقبيلة المستهدفة. وحتى نتمكن من الالمام أكثر بحيثيات ما حصل ندرج فيما يلي نماذج من نصوص تقارير ومراسلات وردت على المركز باسم قادة الحركات بما يفيدنا من الاقتراب أكثر في إبداء بعض الملاحظات:

النص الاول:

«احم الزياني عما أعلم به من اجتماع الفساد في محل واحد لاخلائهم القصور التي أحرقتم لهم، ولم يبق الا أن يأخذهم الله إن وقع ضربهم من كل القبائل. وأمر بالقيام في ذلك على ساق لتكون نهضته ونهضة القبائل المجاورة لهم والتي مع السيد محمد الصغير واحدة. بأن القصور التي أخلوها وأحرقت هي من بركة سيدنا. وأما الجوار فأيت حديدو لم تظهر منهم فائدة، ولو نصحوا لكفوا من جهتهم لان الفساد الان كلهم انكبوا لمجاورتهم [...] وأما غيرهم من القبائل الذين مع ابن

⁸⁰⁶ خ.م.ر : كناش 172 ص 134 .

خال سيدنا، فهم مخادعون ولو نصحوا لحل البلاء بأهله. ولأجله لا يشاركونهم في حروب ولا قتال. قال مولانا: نعم المدار عله هو، وإنما هم خيال. وأما ابن خال سيدنا ان اقتضى نظر سيدنا ان ينزل بالمحل الذي فيه الزياني. قال مولانا: نعم يكون ذلك حتى يرتب النزول عليهم الان بحول الله»⁸⁰⁷.

النص الثاني:

عن احم الزياني: «جوابا عن الكتاب الشريف الصادر له بمفاوضته السيد محمد الصغير والقبائل الذين معه وابن المؤذن على الزحف لأعداء الله، بأنه وجده الحال في الصوكة التي أخذهم الله بها، وأعلمه السيد محمد الصغير بما معه من العسكر والمدفع، وبأنه يبيت ليلته ببوتفردة. فرد له الجواب، فوجده لم يبيت ببوتفردة بل تعداه ونزل بأغبال نايت ايشو. وخلف ببوتفردة وراه من غير أن يعلمه. وتواعد معه على الصوكة كما ذكر صدره. فإذا بالقبائل الذين معه لما تحققوا بهلاك العدو وأصبحوا بالعسكر على خيام العدو، ولا أرسلوا إليه ولا تأنوا عيه حتى يلحقهم هو والقائد محمد بن المؤذن للمفاوضة المأمور بها ليزحف كل من ناحيته [...] وكان من حق الفقيه المذكور أن يشاوره ولا يخرج الصوكة حتى يراه بالعيان ويبقى جيش سيدنا مقوما سالما، والقبائل جميعا أمامه ويتحقق الصالح من ضده لأنه أدرى بمكرهم وخديعتهم وما لهم من اليد مع العدو.»⁸⁰⁸

النص الثالث :

عن محمد احم الزياني: «عما أمر به من المفاوضة مع السيد محمد الصغير مع القبائل والعسكر والمدافع للنزول ببوتفردة وكذا مع الخديم ابن المؤذن بحيث تكون النهضة واحدة. بأنه يوم وصوله لبوتفردة أعلمه بكتاب بذلك، وكان اليوم يوم الصوكة الذي أخذ الله فيه الفساد. فوجه له الجواب عن ذلك مع رجلين، ثم بلغه أنه نزل في غده بأغبال نايت يشو وترك ببوتفردة خلفه ونزل بإزاء العدو. وتحقق كل من مع الزياني من القبائل أن الوبال يحل بالعدو لوتقدموا إليهم دفعة. ثم أنهم عند طلوع الشمس بل الفجر أصبحوا عليهم بالعسكر والمدافع. وسمعوا ذلك عند الشروق، ووصل العسكر الى خيام العدو، ووقعت الهزيمة. فوجه من ينظر فوجد العدورجع لمحلته والفضل حل بتلك القبائل. قال مولانا: قد أحسنوا الظن فيمن اعتمدوهم وليس من الرأي في مثل هذا. وكان من حق السيد محمد أن لا يتقدم حتى يعلمه ويعلم ابن المؤذن ويخرج كل واحد من جهته ويبقى

⁸⁰⁷ خ.م.ر : كناش 172 ص 151 بتاريخ الاربعاء 9 صفر 1308هـ.

⁸⁰⁸ خ.م.ر : كناش 172 صص ، 147،148 .

جيش مولانا موقرا لأنهم أعرف بما لتلك القبائل من اليد مع الاعداء لمخالطتهم لهم في الكيل وغيره»⁸⁰⁹

النص الرابع :

كتب الزياني : « بأنه بعدما ورد عليه الامر الشريف، بالمفاوضة مع السيد محمد الصغير وغيره من رؤساء القبائل الذين معه، على ترتيب كيفية الزحف للفساد بحيث يكون نهوض الجميع دفعة واحدة، وجه له السيد محمد الصغير بوروده ونزوله ببوتفردة، وأعلمه بكون الزحف غد ذلك اليوم. فأجابه بالسمع والامتثال، وحيث وصل رسوله بالجواب لبوتفردة لم يجد فيه أحدا حتى كشف الغيب أنهم جازوا بوتفردة ونزلوا بإزاء خيام العدو. قال مولانا: " عن قوله بالامتثال ذلك شأنه وشأن أمثاله الخدام النصحاء. وعن قوله جازوا بوتفردة صحيح ذلك وقد استعجلوا والخير في الواقع، الجواد يكبو"، وبمجرد طلوع الفجر من غده لم يتأنوا لحظة حتى قدموا العسكر أولا للعدو والخديم أحم لا علم له، بل لا زال يرتب كيفية الزحف مع أهل الرأي والنجدة على القاعدة في القتال. وبينما هوفي ذلك إذ سمع البارود فغارت الخيل ووجدوا وقع ما وقع والعدو رجع لخيامه. وكان من حقه أن لا يتقدم للزحف حتى يتفاوض معه ومع الخديم ابن المؤذن كما أمر، ويكون الزحف على قواعده، وربما يظهر تأخير العسكر السعيد عن القتال وإبقاءه مذخرا مددا وراء الجميع. قال مولانا: نظر أصلحه الله **والحق معك لكون ما ذكرته هو الذي أمرنا به وكتبنا به لك وللخديمين ابن المؤذن وولد عائشة.** والذين تسببوا في هذه الهزيمة حيث تيقنوا جمع الجموع التي تستأصل إخوانهم أعداء الله لا تخفى على سيدنا خديعتهم ومكرهم. وأحم في قلق وغيظ من ذلك. قال مولانا: **أمر قدره الله ومن غشنا فليس منا، ذلك من جدّه وصدق نيته وحترارته التي لا تتركه يقبل ويسكت بما لا يؤول الى صلاح** »⁸¹⁰.

تختزل النصوص أعلاه وهي تعكس وجهة نظر القائد الميداني موحى اوحموالزياني جملة من المعطيات بشأن ما وقع لحركة الجيش ومن معه من القبائل المرافقه صباح ذلك اليوم من ملابس ادت الى وقوع الهزيمة عليه ويتمحور أهمها كالاتي :

- أن المكاتيب أكدت أوامر ووصايا السلطان لكافة قادة الحركات على ربط الاتصال فيما بينهم والاتفاق على كيفية الربط والتهيء للهجوم دفعة واحدة والتنسيق على مباشرة ذلك في توقيت واحد.

⁸⁰⁹ خ.م.ر : كناش 172 ص ، 147 .

⁸¹⁰ خ.م.ر : كناش 172 ص 148 بتاريخ الثلاثاء 8 صفر 1308 هـ .

- أن التعامل فيما بين كل القادة قد تم فعلا على أساس توقيت الهجوم على الخصوم وفي مكان معلوم، إلا أن العلاف خلف الموعد ولم يلتزم بما تم الاتفاق عليه.

- وقوع تسرع من طرف قائد الجيش وانفراده بالهجوم في غير المكان ولا التوقيت المعلومين أدى الى انتكاسة بل هزيمة غير متوقعة طالت جيش العلاف .

- أن موقف الزياني لم يكن على وفاق مع فرق قبائل الدير والجبل، إذ يرى في مشاركتها الى جانب الجيش مثلت عاملا سلبيا، بل اتهمها صراحة بالمكر والخداع والتواطؤ مع الخصوم لذلك هو يتحاشى مشاركتها في أية معركة. مؤكدا انه كان حريا بالجيش والعساكر ان يبقي القبائل أمامه وتحت أنظار قادته دون أن ينخرط في الهجوم صونا لقوته وحفاظا على مكانته ورمزيته.

- مساييرة السلطان لخطاب موحى اوحم من كون القبائل الصادر منها ما صدر هي مجرد خيال وسراب. مع إحالته في توصيف سلوكهم على حديث شريف بأن من غشنا فليس منا.

تبقى هذه أهم العناصر التي يمكن استخلاصها مما كتب به الزياني عن حادثة بوتفردة وما تحجج به من تبريرات لإبعاد مسؤولية فيما وقع عن نفسه وعن حركته.

وإذا ما سايرنا موحى اوحم بما أشار إليه من استفراد محمد الصغير بقرار الهجوم أحادي الجانب، دافعا بالجيش والقبائل المرافقة له دون تأن ولا التفات الى باقي القوى المحاربة القادمة من الجهات الاخرى ولا حتى انتظار اكتمال حضورها بالجهات المقابلة واصطفاف محاربيها على الضابط المعهود، فكيف لنا ان نسلم بما ادعاه من أن بعض الفرق المشاركة قد تواطأت مع الخصوم بحجة أنه الأعراف بمكائدهم وخداعهم وأن سيرتهم تلك هي من جرّت على الجيش الهزيمة؟

والواقع، أنه لم يتيسر لنا الحصول عن مزيد من وثائق ومراسلات من الأرشيف المخزني بإمكانها أن تمدنا بمعطيات ضافية خارج خطاب الزياني، باستثناء إشارة مقتضبة وردت من شاهد عيان وهو صاحب كناشة مراحل سفرات السلطان جاء فيها: " [...] نزول ما ذكرنا بمدشر بوتفردة وصابكوا للعدو، وخابوا آيت ويراء، وزادوا على العدو. وآيت الربع مات منهم عمالا. "811

بيد أن هذه الاشارة المقتضبة وهي ترمي بخيانة آيت ويراء لا يمكن اعتمادها قرينة تدفع الى تبني ادعاء الزياني. لكن مع ذلك تواجهنا مجموعة أسئلة حول النازلة:

لماذا كان موحى اوحمو يتفادى وبإصرار حسب ما أكده في عدد من مكاتباته إشراك قبائل الدير والجبل تحت قيادته في المعارك تجنباً للاحتكاك بهم؟ « [...] وأن القبائل المذكورة لا يخفى ما بينه

⁸¹¹ مجهول : خ.م.ر ، (م.س) ورقة 12.

وبينهم من العداوة التي أصلها خدمته لجانب المخزن [...] وأنه لا تمكنه مشاركتهم في حرب ولا قتال، إذ ربما يفضي ذلك بينه وبينهم الى ما لا يليق.»⁸¹²

ثم ما الحامل على إمعان الزباني في خلق مسافة من التباعد فيما بينه وبين تلك القبائل؟ هل نفهم من ذلك، أنه إنما كان يبتغي تعميق شرخ الفجوة بين المخزن وبينها طمعا في نيل ثقته ومن ثمة إطلاق يده وتوسيع نفوذ سلطته لتشمل كافة المنطقة الطرفية؟ أم أن تلك القبائل كانت فعلا تبدي تهاونا وتراخيا في تشديد الخناق على آيت سخمان لدوافع سبقت الإشارة إليها رعا لأهداف يتحقق من ورائها تبادل للمنافع والمصالح، وحرصا على إبقاء علاقات من حسن الجيرة لا يضمنها بالضرورة تغلب العلاف ولا قوة حركته، فهي على أية حال مرتحلة إن آجلا أم عاجلا؟

كما يطرح الحادث تساؤل آخر ذو بعد أشمل. هل كان من الضروري إشراك كل هذا الزخم القبلي الى جانب الجيش السلطاني؟ علما أن حضور الوازع القبلي قد يكون مفسدة لكثير من مهامه ويعيق أهدافه العسكرية الحيادية، ومن هنا يمكن اعتبار أن خيار السلطان المولى اسماعيل كان موفقا، تأسيا بتجربة سياسية وعسكرية ساعدية كانت تقضي بإنشاء جيش غير قبلي لا يدين بالولاء الا للدولة وللسلطان؟ أم أن جيشا بمزيج قبلي ينهزم في معركة او معركتين أهون شرا من مخاطر جيش "البواخر*" قد تذهب به طموحاته واستغلاله لضعف سلطان الوقت كما حدث زمن احمد الذهبي وعبد الله بن اسماعيل إلى الاستبداد و الفرقة قد يهدد كيان الدولة نفسها؟ و على النقيض من ذلك ألم يكتب مجهول في مؤلفه الابتسام عندما حاول السلطان المولى عبد الرحمن تحديث الجيش بعد وقعة ايسلي: "[...] وفي سنة 1263 زاد في جيش العسكر، ولكن لم يتم له نظامه لأنه من أخلاط الناس."⁸¹³

مهما يكن من أمر، فإن الزباني لم يخف انفعاله لما حدث لحركة محمد الصغير. بل هدد بالانتقام من تلك القبائل نفسها. وهو ما عبر عنه بكل أسى في رسالته الى السلطان: « بأنه وصل إلى الفقيه الصغير حيث وجد الهزيمة التي اخترعوها واستنبطوها لأنفسهم، وعمهم الفشل من أجلها عما هو كامن في صدورهم، حتى أنه لولا مراعاة الأدب مع الجناب العالي بالله لأوقع فيهم السبيل

⁸¹² مقتطف من نص رسالة سابقة من كناش 172 ص 150.

* استعاد الجيش البخاري دوره و ديناميته منذ عهد السلطان المولى عبد الرحمن و ظل قاداته يحتكرون اهم الوظائف الى حدود العشرية الاولى من القرن 20 . و كان من ابرز عبيد دار المخزن عائلة آل احمد بن امبارك خاصة منهم باحماد و شقيقاه (سيتوفون جميعا في اوقات متقاربة . انظر ج 20 من كتاب المعسول)، و محليا بقصبة تادلة اسرة الجيلالي بن يعقوب البخاري.

⁸¹³ ابو العلاء ادريس : (مخ.س) ورقة 216. مضييفا في نفس السياق : "وأراد أن يجعله على قانون الترك فلم يستقم له ذلك لتعذر وجود القانون بالمغرب"

من أجل ما حصل له من التحرق والتأسف والغیظ. قال مولانا: عن قوله لولا مراعاة، هو معلوم عندنا بالصبر والتأني والثبات والنظر في الأمور يتحاشى عنده في مثل ذلك. وعن قوله والتأسف، ذلك حصل لمن ليس هو وأخرى هو، ولكن تطهير ذلك بحول الله يكون على يده. فإن الفساد كان وقع بهم الظفر وحصل منهم الرؤوس والمساجين. ووجهوا له الثيران والنساء على أن يتوسط لهم لدى مولانا، فإذا بالمذكورين استبدوا برأيهم حتى وقعوا فيما وقعوا فيه [...] ولما قدم على السيد محمد الصغير والحالة ما ذكر، أن أشار عليه بأن يدخل لعنده خوفاً عليه من غدر الغادرين، ولاطفه على أن يبيت بموضعه وغدا تكون الصوكة في العاشرة. قال مولانا: نظر سده الله. فإذا به ما سمع بشيء من ذلك في الوقت المذكور ورحل بلا مشورته وبقي متأسفاً من رحيله وبأى وجه رحل؟ قال مولانا: ما كان من حقه ذلك. وقد أقام نهاراً وليلة، ولما تحقق برحيله ورحيل القبائل، رحل إلى تبادت ينتظر ما يأمر به مولانا. قال مولانا: الخير في الواقع ولا يكن في صدره حرج منه، فإنه خديم، ابن خديم، ابن خديم، وخيمتهم خيمة صلاح ونجاح، ولا يخزيه الله»⁸¹⁴.

يظهر من كل هذا وبصرف النظر عما يشي به خطاب الزباني من دلالات، فإنه أبدى كفاءة عالية وحنكة مشهود له بها طيلة أطوار حركاته على آيت سخمان. بل استطاع تحشيد قوى قبلية كانت إلى عهد قريب لا تظهر كثيراً من الود لجانب المخزن، من قبيل آيت يفلان وبني مكيلد وآيت حديدو، بقدر ما يمكن التأكيد أن حضوره كان طاغياً على مجريات الأحداث. حيث كانت القبائل تدرك مكانته العسكرية لدى وسطه القبلي وحظوته السياسية لدى المخزن على حد سواء. ما دفع بأعيان وكبراء آيت سخمان إلى طلب اعتماده في التوسط لهم لدى السلطان لإعلان خضوعهم وإنهاء ضغط الحملة.

المطلب الثاني، موقف العلاف محمد الصغير :

جسد الفقيه* محمد بن الصغير وزير الحرب وهو شقيق الصدر الأعظم العربي الجامعي، الحضور المخزني المباشر لأطوار هذه الحملة، بترأسه للجيش السلطاني وإشرافه المباشر على التنسيق بين الحركات العسكرية بالمجال السخماني وإبلاغ المركز بكل ما يمور بالساحة من أحداث ويستجد من وقائع. لقد مثل المصدر الأشد وثوقية و التوجه الرسمي الأكثر اعتداداً للمركز.

⁸¹⁴ خ.م.ر : كناش 172 ص 148 .

* لفظ الفقيه في الخطاب المخزني كان يطلق عادة على أفراد النخبة من المقربين لدائرة الحكم ممن كانت توكل اليهم مهمات إدارية أو عسكرية أو دبلوماسية أو جبائية .

وبما أن باقي الحركات الأخرى كانت تتحرك من زاوية و منظور قبليين . وتتبع في خطتها نفس أساليب آيت سخمان، أي بالطريقة التي لاحظها ابن خلون، " وأما الذي بالكر والفر فهو قتال العرب والبربر من أهل المغرب " ⁸¹⁵، فإن الجيش السلطاني بما هو جيش نظامي يتحرك وفق ايقاع مضبوط ، واصطفاف جنده خلف قيادة عليا، ولديه من الآلة العسكرية وأصناف المدافع أعداد معتبرة يشرف عليها رؤساء طبجية مدربون وقادة طوابير وآغاوات متمرسون ،جعل من محمد الصغير بحكم مكانته وصفته الرسمية و ثقل مسؤوليته ،المحور الأساس للحملة. فماذا كان موقفه مما حدث صبيحة ذلك اليوم؟

في جوابه المقتضب الى المركز نقرأ ما ورد فيه مختصرا بالكناش: « [...] عما نبه عليه بأن جميع المكاتيب الواردة عليه في شأن قتال الاعداء لا عمل عليها كلها، والعمل على ما تضمن **حسن الانفصال** كما بالكتاب المؤرخ في 5 صفر بالسمع والطاعة. وأنه على بصيرة من ذلك، وقد توجهت جماعة آيت ويرا للحضرة الشريفة صحبة أصحاب سيدنا وقد تأخر عاملهم وشيخهم لمقابلة إخوانهم وضبط أمورهم» ⁸¹⁶.

والحقيقة، أنه لم يكن بمستطاعنا القيام بقراءة تفسيرية لمضمون هذه الرسالة. نظرا لغياب معطيات أخرى بإمكانها سد ثغرات نحتاجها في التحليل. غير أن أهم معلومة أمكن تحصيلها في النص : هو أن جل الرسائل التي سبق ان توصل بها العلاف وما تضمنه من تعليمات وأوامر في خضم حركته الأخيرة و كانت تقضي بمواصلته القتال وتدعو الى التنسيق بين كافة الحركات الاخرى، قد جَبَّها كتاب يوم 5 صفر . إذ يستشف من الجواب أنه دُعي الى إنهاء الصراع او ما سمي في الخطاب المخزني **بحسن الانفصال**. لكن السؤال الجوهرى الذي كنا نطمح في ان يجيب عنه العلاف ولم يفعل، وهو ما الحامل والدافع له على تسرعه في الهجوم على الخصوم واستنقاده وحده بذلك دونما التفات الى مآزرة باقي الحركات؟ وبدورنا نطرح السؤال التالي: هل كان محمد الصغير متأكدا من كسب المعركة فلم تكن له من حاجة لمساعدة الاخرين، فيما سينسب له النصر وحده؟ أم إن قرار الهجوم كان بإيعاز من جماعة قبلية تلبست به بعد دسياسة دبورها بليل بهدف تجنيب غرمائهم (اخوانهم) هزيمة منكرة؟

لعل ارهاصات انتهاء الحملة كانت لها مقدمات. ويفيدنا الامر بطرح فرضيات يتعين الاجابة عن اسئلتها: ما موجب دعوة المركز إذن للقائد الأعلى للحملة الى وقف القتال ونزع فتيل

⁸¹⁵ ابن خلدون عبد الرحمن : المقدمة ص 335 . كما أشار بهذا الصدد بقوله: "فمن ولى العدو ظهره ، فقد أخل بالمصاف و بآتم الهزيمة إن وقعت ، و صار كأنه جرها على المسلمين و أمكن منهم عدوهم " .
⁸¹⁶ خ.م.ر : كناش 172 ص 149 .

الحرب؟ هل جاء بناء على نتائج تقييم المركز لحالة الصعوبات والمتاعب التي باتت تعيشها كلا من حركة ابن المؤذن المتقاعسة فرقتها، المتلكئ محاربوها في مواصلة هجوماتهم، بينما صارت حركة وزير الحرب تحت رحمة ضغط قبائل آيت ويرا ومن لف لفها المستبدة برأيها؟ أم أن هناك أخبار جديدة عن حالة من انفراج آخذه في التبلور والاختمار وهو ظهور بوادر باتت تلوح في الأفق وتتعلق بطلب آيت سخمان للصلح والأمان؟

والحاصل أن كلتا الفرضيتين تجدان مصداقا لهما. ففيما يتعلق بالتخمين الأول الذي يذهب برجحان عدم انضباط آيت ويرا لتوجيهات القائد الأعلى لحركة الجيش وظهورهم على مسرح الأحداث وكأن الحملة باتت تسير وفق مشيئتهم، هو بالضبط ما حذا بالمركز الى دعوة العلاف "الى التلطف في النهوض للمحل الذي فيه محمد احم ويمكث حتى يصفو أمر من ذكر له" ⁸¹⁷.

وفي جوابه الثاني حسب مختصر رسالته بالكناش وقد جاء بضمير الغائب نقرأ ما يلي :
« بأن محمد أحم نهض للزحف صباح يوم السبت ولم ينزل حتى وصل لرأس ملوية على العين. وأما آيت وري فلم يظهر منهم الا الصدق والمحبة وما هزمهم الا الخوف من محمد احم فاجأهم بجيوشه، وإلا فقد تحقق منهم الصدق والأمان. ونادوا على أن كل من تأخر منهم عن الرباط معه يعطي خمسين ريالاً ذعيرة، وكبرائهم وأشياخهم لا يفارقونه ليلاً ولا نهاراً. قال مولانا: عن آيت ويرا فليزد في بشاشتهم ومقابلتهم بالجميل وبكل ما يؤلفهم ويحببهم فإنهم صاروا لفا للمخزن ولولم يكن في هذا الوجه الا هذا لكان كافياً. فلا تقصر معهم ولا بد بكل ما أمكنك. » ⁸¹⁸.

لا مرأ أن النص جاء تضميناً لما سبق الحديث عنه من سوء العلاقة بين الزياني وقبائل الدير والجل، خاصة منهم آيت ويرا وآيت هودي وآيت يعقوب أو عيسى وما يكنه الزياني من عداء لهم، بينما لم يترك العلاف من سبيل للشك في كونهم مجدود ومخلصون في خدمة المخزن.

إلا ان ما يلزم التنويه اليه من خلال ما ورد من إشارات للسلطان بين ثنايا النصين المتعلقين بالجواب للزياني ومحمد الصغير وهي وإن بدت في ظاهرها تخالف بعضها البعض، الا ان الحقيقة تكمن في حرص المخزن على حسن تدبير الخلافات الحاصلة بين الزياني وبين العلاف. سيما وان هذا الاخير ظهر من إشارة سابقة للزياني انه ليس على وفاق معه، وكذا بين الزياني وآيت ويرا بدبلوماسية متوازنة. كما لا يمكن ان نفهم من جنوح السياسة التدبيرية المهادنة للمخزن

⁸¹⁷ مقتطف من رسالة سابقة ص 146 بتاريخ الاحد 6 صفر 1308

⁸¹⁸ خ.م.ر : كناش 172 نفسها .

في مثل هذه المواقف الا بتهدئة النفوس وجبر الخواطر، سيما وأن الجيش السلطاني كان لا يزال عالقا بين الاوعار تحيط به القبائل من كل جانب.

هذا ما تعلق بالتخمين الأول، أما الثاني فيجد تبريره في مراجعة ما أحدثته الحملة المخزية من ضغوط هائلة على المجموعات القبلية لآيت سخمان وآيت عدي. فقد تم إحراق مركز أغباله وعدد من القصور، وتدمير منازل ودور بمداشر كثيرة، بينما انثالت مجموعات سكانية الى حواشي مساكن فرق الداخل، وتحولت حياتهم بعد استقرار الى مصير مجهول، وبدأت أيام الحرب دموية وطويلة وكأنها تمضي بدون توقف. أمام كل هذا قدر زعماء وكبراء القبيلة حجم الكارثة التي بات يعيشها السكان، وتدبروا وتشاوروا فيما بينهم في واضحة النهار، فاستقر رأيهم في النهاية على ضرورة التقدم بطلب الصفح والأمان، سعيا منهم لإنهاء هذه المأساة التي جلبوها لأنفسهم ولأهلهم. لم يطل بهم البحث كثيرا عمن يتوسط لهم بذلك لدى المخزن. فقد بعث الزياني بهذا الشأن الى المركز يعلمه: « [...] أن آيت سخمان لما علموا التصدي اليهم بالجد والضغط، قدموا عليه نساء ورجالا، وعرقبوا عليه وعلى من معه من بني مكيلد وشقيرن وزيان، ولاندوا به يطلبون منه الوساطة بينهم وبين الجانب العالي بالله فيما يكون فيه صلاح أمرهم. فردهم لمحلهم حتى ينهي أمرهم لمولانا، ولعلاه النظر. فإن انقادوا لما يأمر به مولانا فذاك، وإلا فلا يبرح عنهم حتى يقضي غرض مولانا. قال مولانا: فقد رددنا له أمرهم وجعلنا له النظر في ذلك، فليشر بالرأي في ذلك فإنه محمود الإشارة»⁸¹⁹

كان لمبادرة التعركيية لآعيان القبيلة وما يرمز اليه طقسها من معنى الخضوع والرغبة في الاستسلام، مقدمة لانهاء أطوار حملة المخزن على القبيلة. فقد كان لقبولها من طرف المركز إشارة واضحة على ما أبداه فعلا من نية في حسن الانفصال.

والظاهر أن الزياني القائد الابرز في هذه الحملة لم يبد كثيرا من الحماس فيما خلص اليه كبراء القبيلة. مبديا توجسه الدائم منهم مما يصفهم به من طبائع تنطوي على سرائر المكائد والغدر. فحتى بعد حادثة بوتفردة كان عزمه قويا على الفساد حسب ما اعلم به ابن المودن⁸²⁰.

وفي رسالة ثانية حول نفس الموضوع اخبر الزياني: « بقدم كبراء آيت ويرة * بأعيان آيت سخمان وكبرائهم، منهم والباز متطارحين معرقبين مظهرين التوبة والإنابة. واستشير في

⁸¹⁹ خ.م.ر: كناش 172 ص 157 بتاريخ 14 صفر 1308هـ.

⁸²⁰ خ.م.ر: كناش 172 ص 158.

* يرد رسم اسم قبيلة آيت ويرا في نصوص الوثائق مرة بألف ممدودة و مرة بمقصورة و باخرى بتاء مربوطة فنكتبها حسب ما ترد به.

أمرهم لأنه أعرف بما انطوت عليه سرائرهم وأعلم بمكائدهم، بأنه لا علم له بهؤلاء القادمين ولا ما هم عليه إخوانهم ولا ما انطوت عليه ضمائرهم. غير أن جماعة منهم كانوا قدموا عليه مظهرين التوبة وطالبيين الوساطة. فأخروهم حتى يجاب من الحضرة الشريفة عما كتب به في شأنهم. ولكن قد وجه الآن على تلك الجماعة ولد عائشة او علي ليتفاوض معهم فيما فيه صلاح المخزن ويسوس أمر المفاوضات على أساس الصدق. قال مولانا: **يعجل ولا بد**»⁸²¹

بدون شك كان لتوجه أعيان وكبراء آيت سخمان وفي مقدمتهم "اولباز" المحارب الشرس ورفيق المرابط سيدي علي امهاوش بأغبالة كما اخبر ذلك في شهادته للرحالة الفرنسي، وتحت ضمانات آيت ويرا، تتقدمهم "عارات الذبائح"، لائذين متحرمين بمحلات المخزن، نساء ورجالا، متطارحين بين عجلات المدافع، متمسحين بفوهاتها النحاسية، لهوبمثابة الخلاص من ضغط محتهم دامت قرابة شهر.

وحتى نتبين جانبا مما كان يسلكه المخزن من طرق التدبير وخياراته السياسية في احتواء مثل هذه الازمات، هوما اتضح في وقت لاحق بإقدامه على إقرار محمد اولباز قائدا على آيت عيسى فرقة من آيت سخمان و ورود اسمه ضمن لائحة القواد المعينين الذين يحظون بتزكية قبائلهم وقبولا من طرف المخزن، رغم ما عرف عنه من مقاومته للحملة. بينما تمت مكافئة القائد السخمانى ولد عائشة او على و لائه ومجهوده وتفانيه في الخدمة بتوليته على باقي النصف الجنوبي للقبيلة⁸²².

⁸²¹ خ.م.ر : كناش رقم 172 ص 160 بتاريخ الاربعاء 16 صفر 1308هـ
⁸²² خ.م.ر : كناش 151 اوراقه غير مرقمة .

الفصل الثالث

الحركة العسكرية بين الحصيلة والتقييم:

المبحث الاول، انتهاء عملية الحملة:

تمدنا استقراءات الوثائق المخزنية، وهي ترصد وتتابع أطوار الحملة المخزنية على آيت سخمان، أن طول أمدها كان مرهقا لكلا الجانبين.

فالحركات الثلاث عانت كثيرا من مشاق التنقل والجولان وسط مجال جبلي به وعر تضاريسي شديد، معقد المسالك والمفازات، ناهيك عما كانت تواجهه الفرق المحاربة من إنهاك في تعقب الفرار عبر مضائق الاودية وارتفاعات الكهوف. وكان على هؤلاء المحاربين أن يتحملوا فترات من العطش ونقص من الثمرات والانفس بالقدر الذي قدم فيه عدد من قواد آيت الربع حياتهم ثمنا للهجمة المتسارعة ببوتفردة منهم: القائد حدو الركيك من ربع كطاية والقائد المعطي بن لحسن من ربع بني ملال والقائد محمد بن الجيلالي من ربع بني معدان كما قتل في حركة الجنوب القائد زايد اليسراوي⁸²³. بينما لم يستطع متمرّدو آيت سخمان المتحصنين بقصورهم ومداشرهم أن يصمدوا كثيرا أمام الهجومات القوية والمركزة لقبائل المخزن، فقد أخلوها وتركوها قاعا صفصفا تذرّو رمادها الرياح، وقتل منهم من قتل وسيق منهم الى سجن فاس من سيق. أما عامة الناس ممن تقطعت بهم السبل أمام اشتداد المعارك فلم يكن لهم من ملجأ غير الفرار الى أطراف القبائل بالشرق يتكفون هناك الدواوير. في حين ظل زعماء الحرب وأتباعهم يجوبون المجال لائذين بكل تحصين ينجيهم من تعقب العسكر والقبائل.

في هذه الاثناء كان المخزن المركزي يتابع كل تفاصيل المعارك وسير عمل الحركات. بيد أن هذه المتابعة على أهميتها لم تكن الا جزء يسيرا من المهام الكبرى التي يضطلع بها المخزن إزاء ما يجري بربوع البلاد. فقد كانت حركة الرسل والرقاصين لا تقتر أمام بنىقات المحلة السلطانية. يقصدونها من كل الاتجاهات حاملين في جراباتهم ذهابا إلى الآفاق وإيابا المكاتب والرسائل.

ومن خلال تفحصنا لما يزيد عن 5000 مختصر رسالة بكناش رقم 172 الذي يغطي مساحة زمنية ضيقة بما فيها فترة تجريد الحملة العسكرية، اتضح أن النشاط الاداري لكتابة بنىقات

⁸²³ خ.م.ر : كناش 151 اوراقه غير مرقمه .

الوزراء استمرت بزخمها المعهود، كما أن أحداث الحركة لم تكن عائقا ولا حائلا دون اهتمام المخزن في تعاطيه مع أدق تفاصيل الشؤون السياسية والدبلوماسية والاقتصادية ومتابعته لنشاط الجبايات والمصارف المالية والأوضاع الاجتماعية بالقبائل الى غير ذلك من سائر القضايا محليا وخارجيا.

ومن نماذج تلك القضايا التي رصدناها ضمن انشغالات المخزن وتدبر تحت الفسطاط السلطاني باغرم العلام نسوق نموذجين منها لنتبين مدى حجم وتنوع اهتمامات المخزن لما يطرح أمامه من واجبات، لنفهم أن طول مكثه بتادلا أصبحت معه الضرورة تقضي بمراجعته امكانية إنهاء الحملة ودخول السلطان الى العاصمة مراكش والتفرغ لمعالجة قضايا أهم تخص المجال الدبلوماسي والعلاقة مع الدول الاجنبية، أولاها:

«الامين الحاج عبد المجيد التازي، بأنه ادى الواجب المأمور به صحبة السفير الحاج المعطي فارحا لما قوبل من كبير دولة الطليان وإتحافه له بمجانة ذهبها ووجهها لشريف الحضرة صحبة السفير المذكور ليراها سيدنا والنظر لعلاه قال مولانا: **تعاين وترد له**»⁸²⁴

اما ثاني القضايا، هو ما كان جاريا على ساق بالعاصمة السلطانية مراكش من استعدادات وترتيبات لاستقبال السفير الانجليزي "وليام كيربي" الذي سيحل بالمدينة بقصد التباحث مع السلطان في قضية شركة "ماكينزي" بجنوب سوس⁸²⁵. فكان لزاما ان ترتحل المحلة في الوقت المناسب.

شارفت الحملة على نهايتها واستوفت غاياتها، وقدم أعيان وكبراء القبيلة على المحلة السلطانية متشفعين تائبين، وأمر السلطان القائد محمد احم الزياني بالرحيل شرقا الى تاعدلونت ثم أخذت المحلة أهبتها للرحيل نحو مراكش.

المبحث الثاني، الحصيلة:

يجدر التذكير بداية أن غاية المخزن من الحملة على آيت سخمان لم تكن تستهدف استئصال شأفة القبيلة او النيل من سكانها على سبيل الثأر والانتقام، بقدر ما كانت حركة تأديبية على حادثة مفتعلة وسمت بالغدر، فلم تكن غاياتها بأكثر مما ورد في إشارة السلطان في رسالة بعث بها الى الآفاق بعد انتهاء الحملة ب: **"محو من صحائفهم هذه الوصمة"**. فأى إجراء يذهب به الى أبعد من ذلك لم يكن يعجزه في شيء، خاصة وأن لقبائل المنطقة ذكرى وعبرة من واقعة

⁸²⁴ خ.م.ر: كناش 172 ص 132 بتاريخ 26 محرم 1308 هـ
⁸²⁵ المشرفي محمد (م.س) ج 2 ص 191.

تهجير آيت ايمور الى جبل سلفات ثم حوز مراکش: « وإلا نهضنا عنهم وعمرنا قصورهم المذكورة بالقبائل والمدد حتى لا تبقى لهم بحول الله باقية ولو طالت المدد، حتى نجعلهم طريقا في الطلوع للحوز والرجوع للغرب، حتى يأخذهم الله بعدله ويستأصلهم بقوته وحوله»⁸²⁶.

كما يجدر التنويه ايضا أن مجموع عدد القتلى والمجاريح والسجناء ممن وقع عليهم السبيل طيلة مراحل الحملة لا يمكن مقارنته بأي حال من الاحوال بعدد ضحايا القتل والتدمير الذي شهدته المنطقة خلال الحملة الفرنسية بعد مرور عشرين سنة بعد ذلك. إذ لم يكن جنرالاتها وضباطها يستنكفون إعطاء الأمر بإلقاء المتفجرات من طائراتهم على المداشر والاسواق، بل يمكن القول ان حركتي ابن المودن والزياني لم يكن بوسعهما ان تقدما على إحراق قصور تاسرافت ولا دور أغباله لو طلب سكانها الامان منذ البداية. فجل الرسائل التي تقارب مضامينها هذا المعطى تؤكد أن المخزن لم يتردد قط في قبول شفاعة كل من لم تتلخخ يدها بدماء المغدورين.

وبصرف النظر عن تعداد ما خلفته الحرب من آثار على المستوى الاجتماعي والاقتصادي بالمنطقة، فالحرب عموما لا تخلف الا مآسي وتجارب قاسية وجروحا عميقة يتطلب اندمالها أمدا وصبرا، ناهيك عن مصاريف الحملة والتكاليف الكبيرة التي تحملتها سائر القبائل المشاركة برجالها ومؤنها، فإن فرزا لنتائجها من منظور أهداف الحملة التي حددها المخزن تبقى مؤثراتها دالة على طبيعة الاطار العام الذي تحركت ضمنه في مباشرة تلك الاهداف وتفسر بموجبها التوجه التدبيري للدولة.

ومن جملة ما تحقق نورد بعضا من محصلتها:

المطلب الاول، اعتقال قاتل الشريف سرور :

في رسالته الى المركز كتب أحد قادة الفرق المخزنية عاشور المحمدي: « [...] أنهم قبضوا ولد هنية الذي قتل مولاي سرور ووجهه مع المساجين [...] وهم مخيمون مع الخديم احم الزياني»⁸²⁷.

لم يكن اعتقال القاتل وإرساله مكبلا بالأغلال الى المركز كافيا لإنهاء الحرب، فالحدث رغم رمزيته وطغيان مدلوله على ما كانت ترمي إليه الحملة من اعتقال أو تسليم كل من تلطخت ايديهم بدماء الضحايا، وهوالاتجاه الذي شرعن عنف المخزن إزاء القبيلة لتحقيق العدالة وإنفاذ القانون وإنزال العقاب بالمخيلين بالامن والنظام العامين، فإن المخزن في نفس الوقت كان يدرك أن

⁸²⁶ م.و.م.ر.ح: مقتطف من رسالة سلطانية مستقلة مسجلة تحت رقم 28675 بتاريخ 29 صفر 1308 هـ
⁸²⁷ خ.م.ر : كناش 172 ص 142 بتاريخ 5 صفر 1308 هـ

نواة التمرد لا زالت متقدة ولم ينتف بعد ما يؤججها، ومن تمة فعلى قاداته أن يعودوا لجادة الصواب ويعلموا الخضوع. أما وقد اشرفت الحملة الآن على نهايتها، وتهيأت كل الاسباب لأن تضع الحرب أوزارها، فإن كبراء وأعيان آيت سخمان لم يعد أمامهم من خيار آخر غير طلب الصفح والتماس الشفاعة وفق التقاليد المتبعة.

لكن تقدم هؤلاء الاعيان من ممثلي القبيلة بطلبهم ذاك لم يكن أيضا بالنسبة للمخزن كافيا لحصر أسباب التمرد وتغذيته ما دام إطاره السياسي والايديولوجي لم يتم احتواءه. فكيف السبيل الى ذلك؟

المطلب الثاني، تقدم المرابطان المهاوشيان بطلب الصفح و شروط المخزن:

تحدثت جل الكتابات التقليدية المعاصرة للمرحلة أن المرابط سيدي علي امهاوش كان له ضلع في حادثة الغدر، بل كانت تلك قناعة السلطان أيضا. وغني عن البيان، أن المرابط قد نأى بنفسه عن تورطه في الحادث حسب ما أدلى به للرحالة الفرنسي. لذلك كانت لديه القناعة، أن تقدمه بالتماس الشفاعة للسلطان وتبرئة نفسه مما حصل ستجد قبولا واستحسانا .

وقبل ذلك، نود في هذا الصدد توضيح ملاحظة جديرة بالإشارة، وتتعلق بإشكالية ورود اسم ابوبكر امهاوش في كل رسائل الارشيف المخزني المتعلقة بالمرابط المهاوشي بدلا من اسم علي امهاوش. ومنه يجوز أن نطرح السؤال الآتي: هل هما شقيقان أولهما قرابة من أسرة واحدة استبق الاول منهما الشفاعة بينما تأخر الثاني؟ أم أن الإسمان يحيلان معا على مرابط واحد وهو علي أمهاوش كما هو معروف ومشتهر بهذا الاسم حسب ما نعثر عليه في مؤلف كباء العنبر⁸²⁸ او ما نصادفه في الدراسات الأجنبية لدى كلا من ميشوبيلير⁸²⁹ وجورج سيلمان⁸³⁰ وأغسطين ليون كيوم⁸³¹؟

وما أوقعنا في هذا اللبس هو التشابه الكبير في وضعيتهما من حيث تقدمهما بملتمس الشفاعة وإبلاغهما بنفس تبرير تأخرهما عن ذلك بسبب الوشاة.

⁸²⁸ المنصوري احمد (م.س) صص 220/208

⁸²⁹ Michaux bellaire : Note sur les Amhaouches et les Ahnçals .Archives berberes. Volume II Fascicule 3 annee 1917, Rabat. Pages non numèrotées.

⁸³⁰ George Spillmann : Esquisse d'histoire religieuse du Maroc confreries et zaouias. Publication de la F.L.S.H Rabat , serie : les tresors de la bibliotheque N° 7 2011 pp,152.153.154.155.

⁸³¹ كيوم اغسطين ليون : البربر المغاربة و تهدئة الاطلس المركزي . ترجمة، ذ محمد العروصي، ط1 . 2016، ص 65.

وهكذا نعثر في كتاب بإسم أبو بكر امهاوش بعث به الى السلطان جاء فيه : « بأنه كان يريد القوم للاعتاب الشريفة، وما ثبطه عن ذلك الا الوشاة الذين بينهم، وأنه تائب، والتائب من الذنب كمن لا ذنب له، وأنه وصل للخديم ولد عائشة وعلي وأوقف عليه العار ليأخذ بيده ويوصله للأعتاب الشريفة، وأنه وجه للحضرة الشريفة هدية صحبة ولد أخيه وصهره وأصحابه. ويطلب أن يتوجه له بكتاب شريف بالأمان له ولمن تبعه من آيت سخمان قال مولانا مجهول غير معلم»⁸³².

تفصح الرسالة هنا بشكل واضح عن هوية طالب العفو، وإن ووجه بتجاهل في البداية. وأنه ما تأخر في ذلك الا بسبب الوشاة. والوشاة هنا نرجح كثيرا ان المقصود بهم هو محمد اوحم الزياني. لكن إعلان توبته لا يجب ان نفهم منها انه يقصد بها إقراره بتورطه فيما جرى، بل لا يحيل اللفظ في مضمونه غير التعبير عن الخضوع والاستسلام ومن معه. وحتى يكون لهذا التأويل ما يدعمه ندرج فيما يلي نصا آخر لابن المودن الذي لا يحتفظ بأية علاقة غير ودية مع المرابط المذكور : «بورود بوبكر امهاوش من آيت داوود أعلي وقائدهم ولد عائشة علي فلما رآه وتكلم معه ظهر له أن الشياطين هم الذين كانوا متلبسين به وهو رجل مسكين ولو اطلع على العلم الشريف وعرف ما يجب للناس خصوصا أهل النسبة مثله ما فارق الركاب الشريف. والآن قد وفقه الله ورجع وأتاب وإلى الله قد تاب [...] ومعه إثنان من آيت داوود اعلي وصاحب المرابط عارف باللسان العربي»⁸³³

بيد أن متابعتنا لهذا الاشكال، وبعد تمحيص وتدقيق أكثر في مختصر المراسلات، اتضح معه انها مرابطان منفصلان حسب ما ورد في إحداها على لسان نفس القائد جاء فيها: « [...] وأما الشيطانان المهاوشيان، فعلي المكي بأيت كوسر، فرقة من الفساد المجاورين لأنرك، وأما أبوبكر ففي وسط حلتهم»⁸³⁴

وأمام تعدد الرسائل الواردة من الميدان على المركز بشأن أبو بكر دون ان يظهر ما يماثلها في طلب العفو من لدن علي بن الكي، طرح أمامنا إشكالا آخر. أيا من المرابطين كان أكثر حضورا على مسرح الأحداث أبوبكر أم علي؟

⁸³² خ.م.ر : كناش 172 ص 157 بتاريخ 16 صفر 1308هـ.

⁸³³ خ.م.ر : كناش 172 ص 137

⁸³⁴ خ.م.ر : كناش 172 ص 138 .

* احميل لفظ امازيغي و يعني الضمانة، اي ان القبيلة تتحمل مسؤولية ضمان حياة المرابط و النيابة عنه فية غرامة يلزمها المخزن انه عرف قبلي يعرف ايضا بالتكفل .

الواقع، أن ما تحصل بأيدينا من رسائل بشأن المرابط الأول، لا يسعنا الا التخمين أن منزلته في الوسط السخماني وما اليه من القبائل كانت على قدر من الاهمية والتقدير. والمخزن بدوره كان يدرك وضعه الاعتباري لاتصاله بأسرة آل امهاوش لكنه في نفس الوقت لم يكن لديه الاطمئنان لصفته تلك. فعندما أبلغ ابن الموزن أن المرابط أبو بكر: « [...] أتوا به آيت داوود اعلي له بأحميل* [...] » وعقد معه حتى يأتيه أمان سيدنا له ويصحبه معه، رد السلطان بقوله: « حتى هؤلاء، أي فائدة ظهرت منهم الا الغدر. والحاصل الأمان يكتب له إن لم يكن باشر ولا أعان بما يزين للغدر، وإلا فلا. »⁸³⁵

ونفهم من ذلك ان شرط قبول الشفاعة من السلطان هوخلو ذمة المرابط من أية علاقة له بفعل الجريمة. ويتأكد ذلك من فحوى رسالة ولد عائشة اعلي يبلغ فيها: « أن آيت وري قدموا بكبراء آيت عبدي وعرقبوا على المدافع وأراد سيدي أن يشاور المذكورين على شرط معهم، بأن بوبكر أمهاوش ورد عليهم، وأوقف لهم العار، وقدموا به عند ابن الموزن، ويطلب الأمان من سيدنا له ولمن معه من آيت سخمان. قال مولانا: يقبل ويؤمن إن لم يكن من المباشرين ولا من أصحاب الفعلة »⁸³⁶

وإذا كانت حدود معرفتنا بالمرابط الأول لم تتجاوز الا ما صادفناه من ورود اسمه بشكل مفاجئ في المراسلات المخزنية السابقة، مع إشارات جد مقتضبة للقبطان كيوم عن مشاركته الجهاد ضد الاحتلال الفرنسي لحوض واد العبيد⁸³⁷، فإننا نجد في سيرة المرابط علي بن المكي مساحة واسعة وحضورا وازنا في الكتابات التاريخية والسوسولوجية المشار اليها أعلاه.

ويتصل هذا الاخير (1918/1844) من حيث النسب الشجري بالمرابط طلحة الذي عثرنا على ذكر له في رسالة مستقلة بمديرية الوثائق الملكية زمن السلطان المولى عبد الرحمن يتمكنه من اقتحام مدينة بني ملال بمعية أنصاره بهدف السيطرة عليها عنوة. ولم يتم إخراجها منها الا بمشقة بعد تجريد حركة مخزنية الى جانب فرق قبلية اخرى من بني موسى وآيت الربع وهنتيفة، وخوض معركة ضارية خلفت قتلى وجرحى ونفوق عدد من أفراس آيت الربع قبل استعادة المدينة من المرابط⁸³⁸.

⁸³⁵ خ.م.ر : كناش 172 ص 158

⁸³⁶ خ.م.ر : كناش 172 ص 159

⁸³⁷ كيوم اغسطين ليون كيوم : (مرس) ص 220

⁸³⁸ م. و . م . ر . ح : محفظة رقم 47- Th رسالة مستقلة سابقة ، بدون ترقيم بعث بها القائد محمد بن احمد الموساوي الى السلطان مولا عبد الرحمان مؤرخة بتاريخ 18 شوال سنة 1267 الموافق ل 16 غشت 1851

حظي علي امهاوش بنفوذ وإشعاع روحي بكافة حوض ملوية وجواره من تخوم الصحراء الشرقية. وطفق قبل الحماية وبعد فرضها بقليل ينتقل بدون كلل بين المداشر والقرى يشحذ الهمم، ويحض ليس فقط اتباعه من الطائفة الدرقاوية بل كافة سكان المنطقة على مقارعة العدو. ويذكر الرحالة الفرنسي أنه تمكن من الاتصال به وعقد معه جلسات واستمع لروايته وشهادته، وكيف أنه حاول بدوره طلب الصفح من السلطان وإيفاده لصديقه محمد اولباز معرقبا بأربعة رؤوس من الثيران أمام قائد الحركة الا ان الزياني كان له بالمرصاد⁸³⁹. مسجلا ان الرجل كانت لديه قراءة واعية بالواقع السياسي حتى قبل اجتياح قوات الاحتلال للجبل وذلك بدعوته للناس وكل من يصادفه، صائحا : " [...] اصنعوا البارود، وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة وخيل، فحرب الجهاد* قادمة." 840

كان بإمكان المهاوشيان أن يتقدما بين يدي السلطان، فيتم العفو عنهما واستقطابهما لما فيه "صلاح المخزن" لكنهما كانا أحذر من غراب، إذ اثناهما التوجس من دسائس منافسهما القوي على المنطقة مح الزياني فلم يذهبا في سعيهما للاستشفاع أبعد من الاماني والنوايا.

المطلب الثالث، إعادة إعمار مركز أغباله :

تباين موضوع إحراق مركز أغباله بين ما جاء في رواية الرحالة دوسيكونزاك على لسان المرابط أمهاوش من كونه هومن أمر بإحراق أغباله قبل التحاقه بالجبل رفقة اولباز وعدد من الرماة، وبين ما ورد في تقارير قادة الحركات العسكرية لما نسبوه لأنفسهم في القيام بذلك. ومهما يكن فليس من شأننا التدقيق في أي طرف منهما أقدم على إحراق المركز المذكور، فالحقيقة يصعب القبض عليها في ظل انتشار الحرب وتعدد الايدي وتداخل الاحداث. الا ان مراسلات المخزن التي اعقبت الحادث، أظهرت عزم المخزن على إعادة إعمارها وهوما أوعز به الى قواد المنطقة للقيام بما يلزم في ذلك.

فالقريه المذكورة بما لها من أهمية في الوسط القبلي باتت ضرورة إعمارها من الأهمية بمكان في حياة سكان المنطقة، وعاملا حيويا في إنعاش الاستقرار الاجتماعي والاقتصادي للمجتمع المحلي. وعليه أعطى السلطان أمره بإعادة بناء وإعمار أغباله، مكلفا قواد المنطقة في مباشرة

⁸³⁹ De segonzac : op-cit p 57.

⁸⁴⁰ De segonzac : op-cit p 60.

* تمت مقابلة لفظة "la guerre sainte" أو الحرب المقدسة، كما وردت عند الرحالة بكلمة "جهاد" كون معنى الاخير لم يكن متداولاً بالكثافة و الزخم التي يتداول بها اليوم كمفهوم ديني تتموقف منه الثقافة الغربية. و الراجع ان المرابط دعى الى الجهاد بدل حرب مقدسة.

العمل بذلك. ونستشف هذه المعطيات من مختصر جواب الزباني حول الموضوع جاء فيه :
« [...] وأما عمارة أغباله، فالزباني بعيد عنها وشقيرن لا يقدرن على عمارتها. نعم القائد سعيد
السخماني يعمرها بإخوانه وسيطيرون الإعلام بجوابهم بعد وروده».⁸⁴¹

المطلب الرابع، إنعامات سلطانية على المحاربين:

بعد أن وضعت الحرب أوزارها، وأمر السلطان برحيل المحلة صوب مراكش، كان على باقي الحركات وفرق القبائل أن تأخذ أهبتها للعودة من حيث أتوا. وقبل شدهم الرحال توصلت فرق النائبة منها بإنعامات سلطانية وبمكاتيب أدعية للجياشة. نسوق نموذجين منها في مختصر رسالتين جوابيتين: «ولد عائشة السخماني، بأنه وصله ما أنعم به مولانا على قبيلته 234 من الريال و3 بساسيط وفرحت القبيلة بذلك فرحا كبيرا»⁸⁴². أما قواد القبيلة الجياشة عن كتاب السلطان فكان كالاتي : «قواد آيت الربع وأعيانهم عن الكتاب الشريف الصادر لهم بأدعية سيدنا الصالحة لهم على ما لاقوه في زحفهم للفئة الضالة بأن من مات منهم مات مجاهدا في طاعة الله وطاعة سيدنا»⁸⁴³

المبحث الثالث، تقييم عام:

لا يتعين ان نتوقع من خلال تتبعنا لأطوار معارك الحملة التي سيرها المركز ضد آيت خمان انها ستسفر عن انتصار متوج، ولا ان نتصور أنه كان من نية المخزن سحق القبيلة وتشريد اهلها والعصف بمكوناتها، فالحملة عموما ينبغي فهمها في إطار السياسة التدييرية للمخزن اتجاه القبائل الناعلة و المتمردة التي يستوجب عقابها و اعادة ادماجها ضمن حكم ممثليه المحليون. لذلك سعى المخزن الى تحقيق حد معين من الضغط على القبيلة واخضاعها لإرادة الدولة.

المطلب الاول، الذعيرة شرط رمزي لطى صفحة الصراع:

عندما ابلى الزباني في رسالته الى المركز بورود جماعة من آيت سخمان طالبين منه الوساطة في التماس الصفح والشفاعة، وقبوله ذلك منهم على شروط شرطها عليهم والتزموا بها، كتب اليه السلطان أن يبينها. فما هي هذه الشروط التي فرضت على آيت سخمان وتم التوافق عليها؟

بعد الذي صار وتخلف من وقائع الحملة العسكرية، وقياسا بحجم خسائرها البشرية، وتقل تكاليفها ومدة الإعداد لها وإرهاق القبائل بأعباء وتحمل مشاق المشاركة فيها، وبعد إذعان آيت

⁸⁴¹ خ.م.ر : كناش 172 ص 164 بتاريخ 22 صفر 1304 هـ

⁸⁴² خ.م.ر : كناش 172 ص 149 .

⁸⁴³ خ.م.ر : كناش 172 ص 149

سخمان لأمر الواقع وتقدمهم بطلب الامان على أنفسهم وأهليهم، يخال المرئ ان المخزن لا محالة سيواجههم بفرض شروط مجحفة ومنهكة للقبيلة تعادل في حجم ضغطها ووقعها ما تحركت بسببه كل تلك الحشود القبلية والطوابير العسكرية. لكن رد المخزن كان خلاف ذلك.

لم يكن لدى هذا الاخير كما سبقت الاشارة الى ذلك أية رغبة في الانتقام من القبيلة والفتك بالسكان الذين أخذوا بجريرة جرم لم يقترفه عامتهم. وإدراكا منه أن القبيلة بهذا المجال الطرفي لا تعتاش الا على اقتصاد القلة ورضوا" بأقل العيش فرارا من الجيش". ناهيك عما أصاب اقتصادهم من تدني وتناقص بسبب الحصار المفروض عليهم منذ أمد. وحرصا من المخزن على التزام حدود متوازنة من التدبير يضمن حسن انتظام تسيير شؤون الاقليم التادلي، فإن الشروط التي فرضت على القبيلة لم تخرج عن سياق رمزي لا يثقل بها كاهل القبيلة وفي نفس الوقت تم وضعها في إطار شرعي "بمحو صحائفهم من الوصمة". « [...] وأمرناهم أن يؤدوا المائتين من الخيل التي استهلكوها وخمسين ألف ريال داخلا فيها الديات والذعائر»⁸⁴⁴. يظهر من ذلك بكل وضوح ان الشروط لم تتجاوز مبلغا يسيرا من المال وأعدادا من الافراس، تقابل في الغالب ما ترصص منها أثناء المعارك، بما في ذلك ديات القتلى والجرحى. ما عدى ذلك، لم تفرض أية شروط أخرى.

وإذا ما وضعنا المبلغ المذكور، وهو خمسين ألف ريال بالاضافة الى مائتين من الخيل (لا يتجاوز مجموع مبلغها عشرة آلاف ريال باحتساب 50 ريالا لكل فرس بسومة السوق المحلية آنذاك)، على مقياس المقارنة بما فرض على قبائل أخرى من ذعائر على مخالفات اقترفوها، فإنه لا ينبغي أن يرى ذلك الا من زاوية اعتباره مبلغا زهيدا في قيمته بالقياس حتى مع ما تم صرفه على حملته المدججة نفسها. فقد سبق أن فرض على آيت الربع أداء مبلغ أربعين الف ريال غرامة على تخلفهم عن ركب محلة سوس سنة 1299 هـ. بينما نعثر في مخطوط البستان الجامع مقادير ما ألزم به السلطان من غرامات أثناء رحلته الاخيرة الى تافلات على آيت يفلمان المتورطين في قتل الطالب محمد اليوسي ومعها قصور عرب الصباح وعلى قبائل آيت زدك (ميدلت) وغيرها، لأدركنا مدى مقاربة المخزن لطبيعة المأزق الذي باتت تتخبط فيه القبيلة. ونورد بهذا الصدد مقتظفا مما سجله صاحب المؤلف حول الموضوع على سبيل المقارنة ليس إلا: " [...] طفق (السلطان الحسن الاول) يوظف على كل فريق منهم قدر واجبه، بحيث يظهره من بعض الحقوق ولا يحجف به. فالزم فريق آيت زدك من المال مائة الف ريال، وأوجب على فريق آيت مرغاد مثل ذلك المعتاد وهومائة الف ريال أيضا، وعلى فريق آيت حديدو وعلى آيت سغروشن ستين الف ريال، والزم

⁸⁴⁴ م.و.م. الرباط : مقتظف من رسالة سلطانية مسجلة تحت رقم 28675 بتاريخ 29 صفر 1308هـ.

أعراب الصباح مائة ألف ريال، وعلى آيت عيسى مائة ألف ريال تمكينا للجميع للدخول في الطاعة»⁸⁴⁵.

فهل تحقق لدى المخزن بالرغم من كل ذلك، شرط ما عقده من صلح مع آيت سخمان وتنفيذهم ما التزموا به ؟

المطلب الثاني، مآل ما وظف على القبيلة :

تطالعنا الرسائل المخزنية بخصوص هذه النازلة بتعذر قدرة آيت سخمان على أداء ما استوجب عليهم من ذعيرة وديات. ليس تعنتا أو رفضا، بل ما اعترضهم في ذلك من عوائق اقتصادية وطبيعية دفعتهم الى تقديم التماس الى السلطان لاعفائهم من إتمام السداد.

والراجح ان المخزن كان يتفهم ما كانت تعانيه القبيلة من ضعف في الانتاج، وقلة في المردود والعوائد. ناهيك عما لاقته القبيلة من ضيق في المعاش بسبب فترات طويلة من الحصار، وما لحق مزرعاتهم من انتساف ومواشيهم من تلف وضياع جراء الحملة العسكرية. لكن ظهر عنصر آخر لا يقل أهمية جعل المخزن يتجاوب مع طلبهم فلم ير غضاضة في التجاوز عنهم.

فخلال موسم السنة الفلاحية نفسها، عرفت المناطق الجبلية للأطلس المتوسط فصل شتاء قاس، وتهاطل كثيف للثلوج أعاق حركتهم الانتاجية وعطل موسمهم الفلاحي، أعقبته موجة من الجراد لم تبق ولم تذر. فأجبر الحال أعدادا كبيرة من السكان على النزوح إلى المنطقة السهلية الأكثر اعتدالا بما بقي معهم من المواشي. فقد أبلغ في هذا الصدد الطالب الفيلاي، فقيه من آيت ويرا في رسالته الى المخزن جاء فيها : «بأن الله أهلك آيت سخمان بالثلج أولا وبالجراد ثانيا ووعيد سيدنا ثالثا. وإن كان للجناب الشريف غرض في استئصال هلاكهم فهذا أوانه. وإن اقتضى النظر الشريف العفوع عنهم فسيدينا أهل لذلك. قال مولانا : ما شاء الله ولا حول ولا قوة الا بالله»⁸⁴⁶.

وبمثلها عبر القائد اولباز المعين حديثا في رسالته الى المركز عن حالة القبيلة جاء فيها : «بأن إخوانه نفذ فيهم وعد سيدنا، ولم يبق لهم زرع ولا ضرع بسبب الجراد وغيره. طالبا من مولانا ينظر لهم بعين القبول والرضى. فما قبضه سيدنا فهو له وما تركه فهو له. طالبين أيضا الصفح والحلم والدعاء بخير. قال مولانا : يقبل عذرهم ويجابون لذلك.»⁸⁴⁷

⁸⁴⁵ السباعي بن ابراهيم : (م.س)ص 364.

⁸⁴⁶ خ.م.ر : كناش 468 ص 24 بتاريخ شهر شوال 1308هـ.

⁸⁴⁷ خ.م.ر : كناش 468 ص 24 بتاريخ 3 ذو الحجة 1308هـ.

* المال في الخطاب الدارج يقصد به رؤوس المواشي من الاغنام و الماعز.

دفعت الأفتين الطبيعيتين بعدد من سكان الجبل الى التماس المناطق الديرية بشمال آيت الربع، حيث دأبوا على عقد أوفاق ملتبسة مع قواد كطاية وسمكت. وبمجرد أخذه علما بذلك كتب القائد ابن المعطي الشكدالي من بني عمير مخبرا المخزن: «أن البرابر آيت سخمان أهبطهم الثلج من الجبل بأولادهم وأموالهم* ونزلوا عند إخوان الركيك* وبوعزة وجدات.»⁸⁴⁸

لم تسمح الظروف البيئية وعواقب المسغبة التي حلت بالمنطقة في تشديد المخزن وامعانه في مزيد من الضغط على القبيلة، عكس ما تم الاقرار به والاتفاق عليه حتى بعد رحيل المحلة السلطانية. فقد أبلغ الزياني انه حين «شدد عليهم، وتحققوا أن قبائل المخزن كلها تضربهم حسبما وقع عليه الاتفاق بمحضر أخيه والشبوكي بغرم العلام، طلبوا منه التوجه لشريف الاعتاب الشريفة ليأتوه بالأمر الشريف بذلك»⁸⁴⁹

وهوما حصل بالفعل. فعندما صار يطالبهم «بأداء الموظف عليهم استظهروا له بكتاب شريف بتأخير ذلك عنهم لضعفهم. فكف عن مد اليد فيهم من أجل ذلك»⁸⁵⁰.

وهكذا صارت جماعة من ممثلي القبيلة تطوف بالكتاب السلطاني على ممثلي المخزن المحليين لاطلاعهم بما تضمنه من تساهل بشأن ما وظف عليهم. أبلغ بذلك بوعزة الشقيرني: «بأن آيت سخمان وردوا عليه بكتاب شريف بالتوسعة عليهم فيما بذمتهم من المال»⁸⁵¹

خاتمة:

لابد من التأكيد في ختام هذا الفصل أن المقاربات التحليلية التي تم تناولها بشأن أحداث الحملة السلطانية على آيت سخمان مستهل سنة 1308هـ باعتماد وثائق مخزنية، وانطلاقا من وقائعها بأرض المعارك كما سجلها وأبلغ عنها قادة الحركات المخزنية، ظلت على أية حال غير مكتملة، بل لم تتمكن حتى من استيفاء أدنى خلاصاتها وأبعادها التاريخية والاجتماعية. لكن رغم ذلك يسمح الموقف بالخروج بنتيجة أساسية. وهي أن المخزن بايقاعه الحرب على القبيلة لم تكن لها من اهداف في المقام الاول غير تحقيق مكاسب سياسية اولا ثم أمنية ثانيا، مكنته نسبيا وحسب استقرارات الوثائق من استعادة رمزية هيئته وقوة حضوره بالمنطقة، وإلا ما خلصت القناعة بكبراء القبيلة وزعمائها في إدراكهم أن وقعة الغدر التي اقترفها بعضا من جناة القبيلة قد كلفتهم

* القائد صالح بن حدو الركيك هو ابن حدو الركيك قائد ربع كطاية تولى مكان والده بعد وفاة هذا الاخير بوقعة بوتفردة .

⁸⁴⁸ خ.م.ر : كناش 172 ص 268 بتاريخ 6 جمادى الثانية 1308هـ

⁸⁴⁹ خ.م.ر : كناش 468 ص 235 بتاريخ 15 ربيع الاول 1308هـ

⁸⁵⁰ خ.م.ر : كناش 468 نفس الصفحة السابقة و التاريخ .

⁸⁵¹ خ.م.ر : كناش 468 ص 239 بتاريخ 7 ربيع الثاني 1308هـ .

الكثير، ومن ثمة لم يعد لديهم من خيار لدفع سطوة الجيش ومحاربي القبائل عنهم الا طلب الصفح والتماس الشفاعة.

لكن السؤال الذي بقي معلقا لاستجلاء تقييم عام للبعد التاريخي للحدث هو: هل فعلا تمكن المخزن عقب كل ما جرى من إنهاء مظاهر التوتر وما ترسب من مشاعر الرفض لدى السكان إزاء المخزن؟ بمعنى آخر، هل أصبحت الاحكام المخزنية بعدئذ تجد طريقا لها للتنفيذ في الوسط السخماني؟ أم علينا طرح سؤال آخر بشكل مختلف: ما مدى صلابة الفرضية القائلة بأن زعماء التمرد إنما يعبرون في جوهر المسألة عن مطالب ملحة، ولا يبتغون من ذلك غير المشاركة في تدبير مجالهم القبلي وتكريس نوعا من الاستقلالية اعتادوا عليها منذ أمد بعيد؟⁸⁵² أم أن المسألة لها أبعاد أخرى أعقد من ذلك بكثير؟

والحقيقة، لا يمكن الجزم بأي جواب يميل لهذا الطرح أذالك. إلا ان المؤكد وحسب ما تواتر من رسائل مخزنية بعد ذلك، أظهرت أن ملامح التوتر استمرت قائمة وبادية على المزاج العام لسكان هذا المجال الطرفي. فلا الغرامات التزموا بالوفاء على سدادها كاملة، فمنذ البداية أخطر الزياني « [...] عن آيت سخمان الذين صرحوا بالامتناع من الذهاب إليه لتكميل شروط عقد صلحهم»⁸⁵³. مشيرا أنه بعد « [...] الذي فرض عليهم إن لم تظهر منهم ثمارة* فسطوة الله لهم بالمرصاد»⁸⁵⁴. ولا المرابطان استطاعا مقابلة السلطان. ولا المخزن سمح برفع الحصار المضروب على القبيلة. كل هذه المؤشرات توضح مدى استمرار حالة التوتر بالمنطقة، وشيوع حالة من الترقب والتأهب في صفوف محاربي آيت سخمان وقادة إدرات المخزن بالناحية على السواء.

والشاهد، ما تواتر من تقارير ومراسلات حكام الجبل خاصة منهم غدان الشقيرني والزياني وسعيد اليرايي تؤكد على استمرار مناوشات ومعارك هنا و هناك. كان من أهمها معركة أغزيف أوقع فيها محمد اسعيد* بأيت سخمان وتمكن على إثرها من إلحاق آيت سعيد او علي بإيالته آيت سري.⁸⁵⁵ كما ذكر القائد سعيد السخماني « أنه لا زال مع جماعات منهم في قتال. طالبا أمر

⁸⁵² العروي عبد الله (مرس) ص 217 .

⁸⁵³ خ.م.ر : كناش 172 ص 164.

⁸⁵⁴ خ.م.ر : كناش 172 نفسها .

* لفظ " ثمارة " في الدارج من القول يقصد به المروءة و الثبات على الموقف .

⁸⁵⁵ الملكي المالكي : مجلة تاريخ المغرب من إصدار جمعية الامتداد الثقافي العدد 5 سنة 1994 . في مقالة له تحت عنوان : مقاومة آيت سخمان للغزو الفرنسي بجنوب الاطلس المتوسط ص 40 و ما يليها .

عمال اشقيرون كافة وآيت اسحاق والزواني أن يضيقوا بهم وأن يعينوه على قبضهم إن ظفر بهم»⁸⁵⁶

ظلت حالة من عدم الاستقرار والاستنفار سمة بارزة ومهيمنة على حياة المجتمع المحلي طيلة السنوات التي تلت الحملة. وظهر خلالها ممثلوا المخزن المحليون قليلوا الحيلة في مواجهة حمية عصبية لا زالت متقدة وتبدي جماعات واسعة من الجبل السخماني تمنعا في الانخراط في تنفيذ الاحكام المخزنية. بل كان البعض من القواد من يتعاطف مع القبيلة ويحاول حمايتهم من شطط البعض الآخر. فقد ورد على المركز كتاب لموحى اوسعيد اليرايوي يشتكي فيه من تصرفات القائد محمد بن هم، جاء في ملخصه كما تمت صياغته بالكناش : «اسعيد اليرايوي واحم بناصر النسب ووالزين النسب بأنهم لما قدموا لبلادهم بالعسكر السعيد، وتركوا اشياخ الربيع وعادوا كلهم لامور المخزن. فبينما هم كذلك إذ قبضوا جماعة من آيت سخمان ثم قام الخديم بن هم اليرايوي وأراد أن يسرح ما بيده من المسجونين حتى وقفوا على القتال. وقد كان ابن هم يكذب على سيدنا. وكلما أرادوا إصلاح إخوانهم وإظهار خدمتهم يأبى ابن هم من أجل ذلك. وصار الخديم بناصر السخماني يقبض إخوانه وابن هم يسرحهم»⁸⁵⁷. بينما كان لابن هم رأيا آخر دافع به عن نفسه من خلال الرسالة التالية: «بأن الأغا زيدان اتفق مع مح اوسعيد ووجه أخاه لآيت سخمان. وأتى جماعة منهم لاكتيال الزرع بسوقهم فغدرهم هووالقائد زيدان وأخذوا 32 ثيران و4 بغال و7 حمر فقام جل القبيلة وأرادوا القتال»⁸⁵⁸

فهل كان لتصاعد وثيرة الصراع بالمنطقة مدعاة أوجبت على المخزن المركزي معاودة الكرة مرة أخرى لمهاجمة تلك القبائل وإنهاء مادة النزاع معها بشكل حاسم؟ نعثر على جوابا عن هذا السؤال بالايجاب في كثير من المصادر التاريخية الموكبة، أخذت عنها الدراسات الاجنبية دون تمحيص أوفرز للحقائق. فهل يمكن الركون الى خلاصاتها ومجاراتها بيقينية أم أن الوثائق المخزنية بإمكانها ان تقوم فيصلا بانتصابها شاهدا على سيرورة الأحداث، وتعبير عن ما عكسته تجليات الوقائع؟

* سيتعرض بعدها هذا القائد لمحاولة اغتيال من طرف احد قواد الميئين بإدالته مبلغا المركز بذلك : « وصل كتابك بأن عمر بن محمد الغيغائي من قواد المئين الذين مع زيدان الغيغائي اراد أن يطعمك سما فسلمك الله و صار بالبال . فلتوجهه لحضرتنا الشريفة بقصد ذلك في 14 شعبان 1311هـ كناش 694 ص65. »
⁸⁵⁶ خ.م.ر: كناش 468 ص 263.
⁸⁵⁷ خ.م.ر: كناش 468 ص 345
⁸⁵⁸ خ.م.ر: كناش 468 نفس الصفحة بتاريخ 3 جمادى 1309هـ

يتحدث المؤرخ احمد الناصري عن آخر سفرة للسلطان الحسن الاول بالقول: " خرج من
مراكش فاتح ذي القعدة غازيا قبائل البربر الذين بجبال فازاز لا سيما لآيت سخمان الذين غدروا
بأصحابه وابن عمه " 859

أما محمد المشرفي فقد ذكر : "وفي آخره خرج المولى الحسن من مراكش في فاتح ذي
القعدة من سنة إحدى عشر وثلاثمائة وألف يريد غزوات سخمان الفاتكين غدرا بابن عمه مولاي
سرور ومن معه من الرجال " 860

بينما لم يأت عبد الرحمن بن زيدان، في حديثه عن آخر رحلة سلطانية بأي حديث عن نية
للمولى الحسن غزو القبيلة المذكورة أو أي إشارة بالتهيي لذلك عند اجتياز السلطان بمحلته واد
العبيد ونزوله بدار ولد زيدوح ولا حتى عن اعتزاه المرور بتراب قبائل محددة، علما أنه مؤرخ
للدولة العلوية وتتوفر خزانته على ذخائر وربائد هائلة من الوثائق والرسائل المخزنية.

ويبقى ما ذكره الناصري والمشرفي أهم مستند تاريخي يمكن الاعتماد عليه في موضوع
رغبة السلطان في معاودة غزو آيت سخمان لما بعد الحملة السابقة. لكن هل شهادتهما بالرغم من
أهميتها كافية للإقرار بذلك، وجعل ما تحدثنا به أمرا محسوما يغنينا عن مزيد من التحريات
والتنقيب؟ ام علينا أن ننظر الى الموضوع من زاوية أخرى تسمح لنا بتوسيع مداركنا البحثية
وتمكننا من الوقوف على معطيات أخرى؟

والواقع انه من الصعب الصمود أمام معلومة أدلى بها مؤرخان كبيران من مستوى
المشرفي فأحرى الناصري الذي تقلب في دواليب إدارية مخزنية وخبر كثيرا من الوقائع على الاقل
مما طالعه وتناهى الى مسامعه. بيد أن المعلومة التاريخية مع ذلك تبقى حمالة أوجه، وملامسة
جوانب منها تقتضي التسلح بما يعزز الأخذ بها أو تركها بما توفر من أدلة وبراهين. لذلك سنحاول
تقليب أوجه النظر فيها لنخلص الى ما ستسفر عنه من نتائج :

أولا، أجوبة المركز على رسائل ممثليه المحليين بالقبيلة حول استمرار دوامة العنف :
أسابيع قليلة قبل الرحلة الاخيرة للسلطان أجاب المركز عن مجموعة من رسائل ممثليه
بالجبل السخماني والزياني نورد نماذج منها:

859 الناصري احمد : (م.س) ج 9 ص 206

860 المشرفي محمد : (م.س) ج 2 ص 215

- «محمد احم الزياني، وصل كتابك بأن آيت مشان حصروا على الخديم بوعزة الشقيرني مع ما معه من العسكر بقصر بإزاء القباب وصار بالبال. وقد صادف الحال توجه العسكر لصلة الرحم. وقد وجهنا عليه، والبعض حارك لسوس وغيره. وفي قريب يأتي ونوجهه لهم منه نحو الألف مع ما تيسر من الخيل.»⁸⁶¹

- «محمد احم الزياني، وصل كتابك بما يطلبه خدامنا قواد شقيرن وآيت اسحاق وإمدادهم بمدد من العسكر السعيد إعانة لهم على حسم مادة الفساد في تلك القبائل وصار بالبال، بحيث يرجع العسكر الحارك ومن هوفي صلة الرحم، تنفذ لهم ما فيه الكفاية إن شاء الله»⁸⁶².

- «علي الشقيرني والقائد بوعزة بن حم، وصل كتابكم بأن العسكر الذي وجهناه لكم من تافلات، تعرض له فساد شقيرن بواسطة فساد بني مكيد وشتتوه، ولم يصلكم منه الا القليل ولا زال محصورا بخنيفرة، وما نفعكم إلا عسكر الحريزي الذي هو عندكم من قبل وصار بالبال.»⁸⁶³

- «محمد احم الزياني، وصلت مكاتبك الأربعة، بما تطلبه من علي جنابنا من توجيه عدد من العسكر السعيد إليك، لفرار بعض ما عندك منه وعدم الاستغناء عنه في القيام بأمر خدمتنا الشريفة، وجلس كل فاسد عند حده وصار بالبال. أما ما ذكرته من الفرار فحقيقة ولذلك نقصنا لهم من المونة. الا أنه صادف الحال أن العسكر متوجه في صلة رحمه، وحين يرد تساعد على ما طلبته»⁸⁶⁴

- «محمد بن سعيد اليراي، وصل كتابك بأن جميع آيت الربع ومن معهم من فساد إخوانك آيت يسري تحزبوا على الفساد والإفساد، ونزلوا على زرع المدد بغرم العلم وعلى زرع قبيلتك بقصد إفساده وصار بالبال. فقد أمرناهم بالكف عن ذلك»⁸⁶⁵.

تأسيسا على ما سبق، فإننا نستشف من أجوبة المركز لممثليه بالجبل السخماني ومن بجواره من قبائل أخرى، عدة ملاحظات نقترح من بينها الآتي :

- أن المخزن بدت عليه حالة من الوهن أو ربما انشغالات بأمر أخرى جسام حدثت من قدرته في التعامل بالصرامة التي عهدت فيه طيلة العهد الحسني مع قضايا أمنية كما هو الحال لما يقع

⁸⁶¹ خ.م.ر : كناش 694 ص 66 بتاريخ 11 شعبان 1311 هـ

⁸⁶² خ.م.ر : كناش 694 نفس الصفحة

⁸⁶³ خ.م.ر : كناش 694 نفس الصفحة بتاريخ 15 شعبان 1311 هـ

⁸⁶⁴ خ.م.ر : كناش 694 ص 65 بتاريخ 15 شعبان 1311 هـ

⁸⁶⁵ م.ر : كناش 694 ص 144 بتاريخ 12 رمضان 1311 هـ

بالمجال السخماني، خاصة أن السلطان قد عاد لتوه من رحلته ما قبل الأخيرة لمناطق الصحراء الشرقية ولقصور تافلات، وما تعرض له الجيش من ضنك ومتاعب جمة عند اجتيازه لثنية الكلاوي. فتعذر عليه تلبية طلب الزياني في مده بوحداث عسكرية تعويضا عن فرار بعضا من بإدالة خنيفة بسبب نقص في التموين. وبما أن قسما من العسكر قد تم إرساله في مهمة الى السوس حسب جواب المركز، وكذا لصلة رحم الجند بأهلهم، فقد بدا من غير الممكن تعزيز قوة الزياني بما طلبه من قوة لدعم حضور المخزن بالمنطقة.

- نتحسس أيضا حالة من وهن المخزن، من خلال تطاول جماعات من آيت الربع وآيت سري على مخازن الحبوب التي تعود للمخزن ذاته بغرم العلام، وتحديهم للقائد القوي موحى اوسعيد اليرايوي. ومثل هذا السلوك لم يكن شائعا قبل فترة، وما اكتفاء المخزن بالكتابة لزعماء آيت الربع يأمرهم بالكف عن العبث بزراع المخزن الا دليلا على ان المركز ربما كان منشغلا بقضايا أهم.

- أن ما بين تاريخ هذه الاجوبة، وبين ارتحال المحلة الحسنية صوب مقصدها من فاصل زمني، لم يتم خلاله إرسال أي فرقة عسكرية إلى الزياني، باستثناء التي قدمت من تافلات وتمت الإغارة عليها وتشثيتها من طرف جماعات متمرده من شقيرن وبني مكيلد.

ثانيا، غياب أي تحشيد آخر للقبايل لغزوات سخمان :

جرت العادة كما هو معمول في السياسة التدبيرية للمخزن، بأن يأمر السلطان كافة قواد القبائل وأعيانها وشرفائها بأن يقوموا على ساق الجد والتهيء للتجمع في مواضع معينة من أجل قضاء "غرض المخزن". الا انه بعد تنقيب مضمّن في ملخصات الكنانيش المزامنة للفترة المذكورة لم نعثر على أية رسالة الى قواد الاقليم التادلي تخص هذا الموضوع.

وإذا افترضنا جدلا أن المخزن المركزي قد قرر هذه المرة الاستغناء عن الفرق القبيلية المحاربة مكتفيا بالجيش النظامي، فهل كان بمستطاع الجيش وحده غزو مجال شاسع ومعقد التضاريس، به متمرّدون لهم عقيدة حربية تتلاءم وطبيعة محيطهم البيئي، ولا يقفون من المواجهة الا بخيار الكر والفر، او الانسحاب الى صياصي الجبال إذا لم يأنسوا لنفسم قدرة على المواجهة؟. فضلا على ان قسما من العسكر كان قد أرسل بعضه لمهمات وسرح بعضه الاخر للاستراحة.

ثالثا، تحفظ المخزن في الاعلان عن برنامج رحلته الا في آخر لحظة:

كما جرت به عادة المخزن في مثل هذه المواقف وغيرها، لم يكن يفصح عن المسار الذي ستسلكه المحلة السلطانية ولا بالتدابير التي يخطط لها من رحلته الا بعد فترة وجيزة من ارتحال المحلة، بعد ان يكون قد أمر عماله وممثليه في أخذ أهبتهم مع قبائلهم وأعيانها بلقائه في مواضع

محددة وأمر السلطان لخدام المخزن المحليين اختبار الطريق التي سيسلكها مع الجند والقبائل المرافقة له. الا ان هذا المعطى ظل غائبا في المراسلات السلطانية، ولم نعثر في الوثائق على ما يفيد بهذا الخصوص.

رابعاً، الحالة الصحية للسلطان لا تسعف بشن حرب أخرى :

"وكان رحمه الله قد قدم من حركة تافيلالت وهو مريض مرضاً خفيفاً في الظاهر، ولكنه مزمّن في الباطن، فكان يتكلف معه الخروج للناس" ⁸⁶⁶. بهذه العبارات تحدث الناصري عن الحالة الصحية للسلطان قبل وفاته بدار ولد زيدوح من تادلا. كما أكد على ذلك المشرفي بقوله: " وكان ذلك منذ قدم لمراكش من سجلماسة وهو متشكياً متعللاً" ⁸⁶⁷.

فالعامل العسكري الذي يقوم به الجيش السلطاني بين الفينة والاخرى لغزو قبيلة او تمهيد مجموعات قبلية بربوع البلاد يستلزم في المقام الاول متابعة وإشراف سلطاني حثيث وربما من عين المكان، كما كان عليه الشأن على قبائل بني مكيلا وسوس وغيثاة ووجدة وغيرها، فبالأحرى الحرب على قبيلة آيت سخمان التي أخذت جهداً ووقتا وتكاليف معتبرة دون أن ينحسم أمرها بشكل كامل.

كل هذه العناصر مجتمعة استدللنا بها كمؤشرات توضح باللموس ان المخزن المركزي لم تكن لديه نية في خوض معركة أخرى ضد آيت سخمان على الأقل خلال رحلة أوبة السلطان من مراكش متم سنة 1311 هـ.

⁸⁶⁶ الناصري خالد : الاستقصاء ج 9 ص 206
⁸⁶⁷ محمد المشرفي : الحلل ابهية ج 2 ص ص 215، 216

خاتمة عامة

من الجلي ان من المزايا المنهجية في الدراسات والبحوث التاريخية اعتماد وثائق تاريخية لها مصداقية ووزن يعتد به في مقارنة قضايا المجتمع الاقتصادية والسياسية والاجتماعية على المستوى الشمولي فبالأحرى المحلي منه. بل يمكن القول ان الاهتمام بالقضايا المحلية أصبح ضرورة ملحة بإمكانها ان تجيب على اسئلة لا تنفصل عما يشغل الإطار العام للتاريخ الوطني إذ ليس هناك من قطيعة تفصل بين التاريخين ولا هوة تباعد بين المجتمع الواحد.

وإذا كان من المفيد من أجل النفاذ لجوانب من التاريخ المحلي والجهوي بما هو تاريخ تكمن بين طياته حركة من التدافع البشري والقبلي في ارتباط ببنية السلطة المحلية والمركزية باعتبارها تمثل إطارا للبنية ضمن صرح التاريخ العام، فإن التوسل بأدوات مصدرية يتمفصل خطابها مع زخم ومجريات الواقع المحلي، لم يكن اجدى وأجدر من اختيار وثائق الارشيف المخزني وما يتحصل منها بين يدي الباحث، ليس فقط لأنها ترصد جوانب من حياة المجتمع المحلي ويستجيب خطابها لمقتضيات المرحلة المدروسة وتفاعله مع القضايا المطروحة بما تكتسبه الدولة من قوة الفعل ومن نسق تدبيري للحفاظ على التوازن بحكم قوة الاشياء، بل لأنها وثائق يتميز مضمونها بالمصداقية ومن رصد لتفاصيل حياة المجتمع لا يسع من يتلمس معطياتها ويستنبط من مضامينها وتواتر وقائعها الا ان يشيد بها كثرات يعبر اولا عن المستوى الفكري والادبي الذي تحلت به النخب المغربية المباشرة لإنتاج خطابها وللمستوى الذهني والسياسي الذي انخرط فيه المركزي والمحلي في التعاطي لصيغ من التدبير يرمز في اساسه الى نموذج الدولة المغربية بخصوصياتها الثقافية وعوائدها التاريخية والتراثية.

لقد وقع الاختيار من محتوى وثائق الارشيف المخزني وبشكل حصري على ما تعالج به مضامينها من قضايا تهم الاقليم التادلي وكافة قبائله في ارتباطها بالمخزن من دير وجبل ناهيك عن السهل. وكانت تحذونا الرغبة من ذلك الى تجاوز إشكاليين أساسيين. أولهما، هو ما اعترى التاريخ المحلي من شح في المعلومات، ومن اقتضاب حد التفريط بالمصادر التاريخية التقليدية، وعدم كفاية محتواها في الاجابة عن مجموعة من الأسئلة ظلت معلقة، وترتبط في مجملها عن أسباب تمرد قبائل بعينها، هل لجبلة وسم بها مزاجها العام؟ أم لردود فعل دفاعا عن رغبتها في تحقيق نوع من الاستقلالية والتدبير الذاتي بعيدا عن شطط العمال وممثلي المخزن؟ ثم عن كيفية تعاطي السلطة

التدبيرية مع قضايا قبلية معقدة بعيدا عن نظرة المؤرخ التقليدي ذو ثقافة مدينية لا تنظر الى القبائل الا بمنظار التهيب والاستخفاف ؟ أما ثانيهما، فيتمثل في بعدين اثنين :

- تأصيل لتاريخ محلي تستطيع الوثائق المخزنية رغم خطابها الرسمي، من إعادة رسم خطوطه وفق إطار يراعي الخصوصية المحلية في التعاطي مع أشكال التدبير المخزني خارج إطار التصور الكولونيالي الذي باشرته أعين أجنبية وبمنظورها المتعالي المبيت ولأهداف لا تستجيب الا لغاياته، من خلال تحري دراسات حظيت فعلا بسبق علمي ومعرفي وبمنهجيات جديدة كانت بالنسبة للنخب المثقفة المغربية في حكم العدم، لكنها دراسات فرضت عنوة، مقتحمة بذلك حميمية المجتمع بقوة الاشياء وبدون رغبته. ودون أن يكون لها أي سند مستقبلي يدعم تنمية البلاد من قبيل إنشاء معاهد تعليمية قد تفيد نتائجها ومخرجاتها في تبني مشروعات حضارية ما عدى ما كان لاستثمارها من غايات دبرها الاستعمار بليل.

- مدى تحصيل المعلومة التاريخية من العناصر الفاعلة والمترابطة فيما بينها أي بين المخزن كسلطة فاعلة قائمة الذات وبين المجتمع كطرف منفعل لم تستطع الكتابات المصدرية التقليدية من الاحاطة بكثير منه وأحيانا تجانب وقائعها المحلية ولا توأكب سيرورتها.

إلا أن اختزال تاريخ الإقليم التادلي في تيمة التدبير المخزني لقضايا قبلية وتعاطيه لأعمال الجباية وتنفيذ السخرات وإخضاع قواه الفاعلة من زعامات قبلية وأعيان وحتى قواعد المجتمعية لنظام الحكم القايدوي الحريص على حفظ الامن وتيسير السبل وتنفيذ الاحكام، هو في اعتقادنا اختزال قد يرقى الى نوع من التعسف والشطط المتهافت إذا لم يأخذ البحث بعين الاعتبار طرح السؤال المنهجي الذي يروم تفكيك الاشكالات المطروحة ويعيد تحليل وتركيب التاريخ المحلي بمنطق قد لا يجاري أحيانا النص الوثائقي لكنه لا يزيغ عن الضوابط المنهجية من خلال الاستعانة بحقول معرفية موازية سوسولوجية واثروبولوجية واقتصادية تكميمية وغيرها.

ومن نافل القول، أن تناول مجتمع الإقليم التادلي بالدراسة والبحث باعتماد وسيلة ذات طابع مجهري وعينة من الوثائق كأداة مصدرية قدرنا ان بمستطاعها المساعدة على فهمنا لطبيعة التدبير المحلي وسيرة المخزن في علاقته بالمجموعات القبلية ذات التنوع الثقافي المتماهية مع خصائصها المحلية، تتحرك على مساحات جغرافية واسعة، يبقى خيارا له مدلوله على سلم مقارنة التاريخ الجهوي من منطلق التوجه بمسار البحث فيه لتفسير تلك العلاقة ورصد محدداتها من خلال ما تم تسطيره من مكتوب مخزني وما جسده خطابه الرسمي كمحدد رئيس في استكناه طبيعة تلك العلاقة وتدبير القضايا المحلية المتعددة.

والحقيقة أن التطور التاريخي لحضور المخزن بالإقليم التادلي وجواره من قبائل الدير والجبل، قد عرف مستويات متباينة بين القوة والوهن وترنحا بين النكوص والظهور أملتتها شروط تاريخية ارتبطت في مجملها بعوامل خارجية وبطبيعة الحكم المركزي نفسه في تقلباته بين الضعف والقوة وانعكاس ذلك على الواقع القبلي في تجلياته بين التمرد والخضوع منحت الخلاصات التالية :

1- ان المخزن المركزي نهج خطا تدبيريا لأحوال القبائل التادلية يوافق وضعه السياسي والعسكري، يزيد من ضغطه الامني ويفرض قوانينه الجبائية كلما أنس لنفسه استقرارا وقوة بل كان هذا الوضع يسمح له ولدوافع أمنية بتغييرات معينة على الخريطة السكانية، بجلب سكان من الأفاق لتعمير الأرض وخلق توازن اجتماعي وسياسي، (حالة آيت الربع) أو ببادر الى إجلاء المتمرد من القبائل وإبعادها لمناطق نائية عن المجال (حالة آيت ايمور)، ثم يعود في حالة الوهن مثل ما وقع بعد (وقعة ظيان وهزيمة ايسلي) ليهادن العصية منها بالجبل أو يجافها ويمهلها حيناً من الدهر حتى تحين فرصة التمكن منها. بينما ظل نموذج السياسي في تدبير المجال الواسع تحت نفوذ العامل او القائد الواحد يراوح مكانه الى حدود البدايات الاولى للعهد الرحماني.

2- أنه كان للقبائل مطالب لدى المركز، تعبر عنها أحيانا بالعنف والتمرد ضد جور العمال واشتطاطهم في ممارسة السلطة وأحيانا بالتعاصي أو التباطئ في تنفيذ الكلف ودفع الضرائب. فلا المجالس الجماعية كان بإمكانها ان تضطلع بدور الوسيط بينها وبين المركز، ولا ممثلوا المخزن التزموا بالوفاء في تقدير معاناة قبائلهم وبني جلدتهم من السكان من عواقب ثقل الضرائب ووزر الكلف بقدر وفائهم لتلبية أطماعهم الشخصية وإجهاد أنفسهم في احتجان الثروة وإظهار السطوة. فلم يكن لجموع تلك القبائل غير منفذين: انكفاء الديرية منها والجبالية عن ذاتها ويبقى وضعها حيال المخزن متذبذبا في ارتباط بين الحضور أو الشغور للسلطة. التجاء السهلية منها الى مرابط الزاوية يحظى ببركة مشهود بها وبرأسمال رمزي ديني واجتماعي يوفر للمستجيرين منهم حماية ويلتمس للمتعاصين فيهم شفاعاة.

3- أن التدبير المخزني للمجال، سيعرف تطورا نوعيا فرضه تحول تاريخي عرفته البلاد قاطبة غداة الاحتكاك المباشر مع الأجنبي واستمرار ابتزازاته وضغوطاته اللامتناهية طيلة النصف الاخير من القرن التاسع، فرضت على المخزن لأسباب سياسية واقتصادية أكثر منها أمنية، سلك سياسة تدبيرية رامت تقليص مساحة نفوذ الايالات وتعدد قياداتها. بل كانت مرحلة شهد فيها النسق التدبيري للمخزن ظهور قواد كبار على المستوى المحلي من بينهم أحمد بلقائد السراغني، ومحمد بن الطالب الهنتيفي، ثم فيما بعد موحى اوحم الزياتي وموحى او سعيد اليرايوي، فأعيد

إدماج قبائل ديرية وجبلية ضمن النسق الجبائي وتحول الثقل السياسي تدريجيا من السهل الى مناطق الجبل أخذت معه القصة التبادلية تفقد وظيفتها المحورية وتتخلى عن دورها العسكري لصالح مراكز عسكرية أخرى بالجبل. بينما تضاعفت مداخل الدولة بفعل ما أدته تجربة الاجراء الأخير من اختراق لمجموعات قبلية والاستفادة من مداخلها الجبائية كانت الى وقت قريب في حكم العدم قبل إجراء عملية تغيير السياسة التدبيرية بالمناطق الطرفية..

4- أن البنية القبلية خاصة منها المجموعات الجبلية ظلت وفيه لمنظومتها التقليدية ولم يطلها تغيير ذو فاعلية كبيرة طالما حافظت على مسافة من التباعد مع المخزن ولم تستطع قوة الاكراه التي لدى أسياد الجبل الهيمنة المطلقة على سائر فرقهم بسبب من تباين المواقف وتضارب المصالح.

5- أن المحلات السلطانية لم يكن دورها مقتصرًا فقط على تمهيد قبائل عسوية أو إلزامها بدفع متأخراتها من الاعشار والزكاوات، ولا فقط بتنفيذ برامج تدبيرية أعد لها بعناية مسبقا، بقدر ما لعبت أيضا دورا في شد المناطق الطرفية بالمركز. بل كان لاستقرارها لمدد متفاوتة من الزمن بالإقليم التادلي وتعدد حركات الذهاب والإياب والمرور عبر ترابه كان عاملا مهما في دعم حضور ممثليه المحليين ومراقبة سير شؤونهم الإدارية والتواصل مع أعيان القبائل والشرفاء والمرابطين.

وختاما لابد من التنويه بقيمة الارشيف المخزني كرسيد وثائقي، بما تحبل به مكنوناته من أهمية لا تقدر بثمن في اعتماده مصدر من مصادر البحث التاريخي بالجهة قادرا على إضاءة جوانب من حياة المجتمع المحلي وتفاعل قواه المؤثرة مع حركة التاريخ التي يظهر ان المخزن كان من بين أهم عناصرها.

الببليو غرافيا

بالإضافة الى القرآن الكريم وهو قول الله عز وجل، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وإلى ما تمت الإشارة إليه في الهوامش من وثائق ومراسلات مستقلة صادرة عن المخزن المركزي أو المحلي وأخرى مختصرة بالكنائش يشار إليها من مصدرها بالاحرف: خ.م.ر، أي الخزانة الملكية بالرباط، ثم ب : م.و.م.ر.ح وتعني مديرية الوثائق الملكية الرباط حسان، فإننا نورد مجموع المصادر والمراجع التي تم اعتمادها أيضا في البحث، وتوزع بين ما كتب منها باللغة العربية ومنها باللغة الفرنسية كالاتي :

I - المصادر باللغة العربية :

1- المخطوطات:

- الزياني أبو القاسم، الروضة السليمانية. وأوله "الحمد لله الذي خلق الانسان وفضله تفضيلا" وآخره، " فالحمد لله رب العالمين على خلافة هذا العدل الامين وفي عام 1239 توجه السلطان بجميع الجنود الى رباط الفتح ".

- أبوالعلاء ادريس، الابتسام عن دولة ابن هشام، أو ديوان العبر في أخبار الثالث عشر. وأوله "سبحان من يبدي ويعين ويحكم في خلقه ويعين وآخره مثنور سجل في ورقته الاخيرة رقم 280، "ودور كرة الارض معلوم بالهندسة وهو ثمانية آلاف فرسخ".

- السباعي محمد بن ابراهيم، البستان الجامع. في اول صفحة فأما بعد فقد أمرني من تجب طاعته ولا تجوز في الظاهر والباطن مخالفته وآخره هذا البستان مما طغى به لسان قلمه مبينا ما انطوى عليه قلبه وتجريه عذبة لسانه "

- السوسي علي، مشتهى العقول ومنتهى النقول وعناية الاستعانة في حكم التوظيف والمعونة، مكتبة مؤسسة الملك عبد العزيز الدار البيضاء. وأوله، "الحمد لله الذي أعز دينه وجعله في بروج العناية المشيدة"، وآخره مثنور، ورقته الاخيرة عدد 55 "كتب سعد بن ابي وقاص الى عمر بن الخطاب رضي الله عنهما".

- كناش بالخزانة الملكية بالرباط لمجهول: مراحل المحلات السلطانية مسجل تحت رقم 12059.

2 - المطبوعات:

- البيدق ابوبكر الصنهاجي، اخبار المهدي بن تومرت وبداية دولة الموحدين. دار المنصور للطباعة الرباط 1971

- ابن الزيات ابي يعقوب يوسف، التشوف الى رجال التصوف واخبار ابي العباس السبتي، تحقيق احمد التوفيق. منشورات كلية الاداب والعلوم الانسانية الرباط. سلسلة نصوص ووثائق رقم 4 مطبعة النجاح الجديدة الدار البيضاء. الطبعة الثالثة 2010.

- ابن القطان المراكشي، نظم الجمان لترتيب ما سلف من اخبار الزمان. تحقيق محمود علي مكي الطبعة الثانية، دار الغرب الاسلامي 1990.

- ابن خلدون عبد الرحمن، ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الاكبر دار الفكر بيروت، الطبعة الثالثة 1996.

- ابن خلدون عبد الرحمن، المقدمة دار الفكر بيروت. الطبعة الثالثة 1996

- ابن زيدان عبد الرحمن، اتحاف اعلام الناس بجمال اخبار حاضرة مكناس 5 اجزاء، تحقيق علي عمر الطبعة الاولى 2008. الناشر: مكتبة الثقافة الدينية القاهرة.

- ابن زيدان عبد الرحمن، العز والصولة في معالم نظم الدولة جزآن، المطبعة الملكية الرباط 1962.

- ابن منظور جمال الدين محمد بن مكرم، لسان العرب. دار المعارف بيروت

- أحمد المنصوري، كباء العنبر من عظماء زيان وأطلس البربر. تحقيق محمد بن لحسن، الطبعة الاولى، منشورات المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير 2004.

- الدمناتي أحمد نجيب، القول الجامع في تاريخ دمناات وما وقع فيها من الوقائع تحقيق ذ أحمد بن محمد عمالك، المطبعة والوراقة الوطنية.

- الزياني أبو القاسم، البستان الطريف في دولة اولاد مولاي الشريف، دراسة وتحقيق ذ، رشيد الزاوية عن مركز الدراسات والبحوث العلوية الريصاني، الطبعة الاولى، الشركة المغربية للطباعة والنشر الرباط 1992.

- السوسي المختار، المعسول، 20 ج، مطبعة النجاح الدار البيضاء 1961.

- الشريف الادريسي: المغرب وارض السودان، مأخوذ من نزهة المشتاق في اختراق الآفاق. تحقيق المستشرقان: R.DOZY et M.J.DE GOEJE. طبع في مدينة ليدين بمطبع بريل 1866.

- الضعيف محمد الرباطي، تاريخ الدولة السعيدة، تحقيق احمد العماري. الطبعة الاولى دار المآثورات الرباط 1986
- الطرطوشي ابوبكر محمد، سراج الملوك، تحقيق محمد فتحي ابوبكر، المجلد الاول الطبعة الاولى الدار المصرية اللبنانية 1994.
- الفشتالي عبد العزيز، مناهل الصفا في مآثر موالينا الشرفا تحقيق عبد الكريم كريم مطبوعات وزارة الوقاف والشؤون الاسلامية.
- ألكنسوسي محمد بن احمد، الجيش العرمرم في دولة اولاد مولانا علي السجلماسي في جزءان. تحقيق احمد بن يوسف الكنسوسي. المطبعة والوراقة الوطنية مراكش.
- المشرفي محمد، الحل البهية في ملوك الدولة العلوية وعد بعض مفاخرها غير المتناهية جزءان، تحقيق بوهليلة، الطبعة الاولى منشورات وزارة الاوقاف الرباط 2005.
- الناصري أحمد، الاستقصا في أخبار دول المغرب الاقصى 9 أجزاء تحقيق جعفر الناصري ومحمد الناصري دار الكتاب الدار البيضاء 1997
- الوزان حسن، وصف افريقيا تعريب محمد حجي ومحمد الاخضر الطبعة الثانية دار الغرب الاسلامي 1983 تونس.
- الوفراني محمد الصغير، نزهة الحادي بإخبار ملوك القرن الحادي، تصحيح هوداس ، وطبع بأنجي على يد بردين سنة 1888.
- بوعشرين الحسين بن اليماني، التنبيه المغرب عما عليه الآن حال المغرب، تصحيح محمد المنوني دار نشر المعرفة، الطبعة الاولى 1994 الرباط.
- غريط محمد، فواصل الجمان في انباء وزراء وكتاب الزمان، الطبعة الاولى المطبعة الجديدة فاس 1346هـ

II - المراجع باللغة العربية :

- ابن منصور عبد الوهاب، قبائل المغرب .الجزء الاول، المكتبة الملكية الرباط 1968.
- الانثروبولوجيا والتاريخ، ترجمة عبد الاحد السبتى وعبد اللطيف الفلق، دار توبقال للنشر ط2، 2007.

- التوفيق احمد، المجتمع المغربي في القرن التاسع عشر (اينولتان 1850-1912) منشورات كلية أ.ع.إ. الرباط، سلسلة رسائل واطروحات 63 رقم ط 3 2011.
- العروي عبد الله، الاصول الاجتماعية والثقافية للوطنية المغربية (1830-1912)، تعريب محمد حاتمي ومحمد جادور. المركز الثقافي العربي الدار البيضاء ط 1. 2016.
- العروي عبد الله، مجمل تاريخ المغرب 3 أجزاء منشورات دار توبقال ط 2، 2004.
- العروي عبد الله، مفهوم الدولة، المركز الثقافي العربي الدار البيضاء ط 10، 2014.
- المحمدي علي، السلطة والمجتمع في المغرب نموذج آيت باعمران، دار توبقال للنشر الطبعة الاولى.
- المنوني محمد، قبس من عطاء المخطوط المغربي: دار الفكر الإسلامي بيروت 1999. المجلد الأول الطبعة الأولى.
- المنوني محمد، مظاهر يقظة المغرب الجزء الاول منه. المدارس للنشر والتوزيع الدار البيضاء 1985
- المودن عبد الرحمن، البوادي المغربية قبل الاستعمار قبائل ايناون والمخزن بين القرن السادس عشر والتاسع عشر. منشورات كلية أ.ع.إ. الرباط سلسلة رسائل واطروحات رقم 25. 1994.
- بن الصغير خالد، المغرب وبريطانيا العظمى في القرن التاسع عشر (1856-1886) منشورات كلية أ.ع.إ. الرباط، سلسلة رسائل واطروحات رقم 34. 1997
- بنين احمد شوقي : في تقديمه لكتاب فهارس الخزانة الحسنية الجزء الاول المطبعة الملكية الرباط 2000
- بوسلام البشير، تاريخ قبيلة بني ملال، مطبعة المعارف الجديدة 1991 الرباط
- بوكاري أحمد : الزاوية الشرقاوية. جزءان، الطبعة الاولى مطبعة النجاح الجديدة 1989.
- جرمان عياش ، أصول حرب الريف ترجمة محمد الامين البزاز وعبد العزيز التمساني خلق مطبعة النجاح الجديدة الدار البيضاء 1989.
- جرمان عياش، دراسات في تاريخ المغرب، ترجمة محمد الامين البزاز وعبد العزيز التمساني خلق. الطبعة الاولى. مطبعة النجاح الجديدة الدار البيضاء . 1986.

- حجي محمد، الزاوية الدلائلية، مطبعة النجاح الجديدة 1988.
- حلمي عبد الوهاب محمد، ولاة وأولياء السلطة والمتصوفة في العصر الوسيط. الطبعة الاولى. الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت 2009.
- عبد الأحد السبتي، بين الزطاط وقاطع الطريق، دار توبقال 2009
- ملين محمد نبيل : السلطان الشريف، الجذور الدينية والسياسية للدولة المخزنية في المغرب. ترجمة عبد الحق الزموري وعادل عبد الله، منشورات المعهد الجامعي للبحث العلمي جامعة محمد الخامس، الرباط 2013.
- وقفات في تاريخ المغرب، دراسات مهدات للاستاذ ابراهيم بوطالب، منشورات كلية أ.ع.إ. الرباط سلسلة بحوث ودراسات رقم 27.
- III - المؤلفات الأجنبية المعربة :**
- دوفوكو شارل، التعرف على المغرب ترجمة محمد حجي ومحمد الاخضر.
- أنولويس، زمن المحلات السلطانية، ترجمة محمد ناجي بن عمر. افريقيا الشرق 2002
- ببيير بورديو، الرمز والسلطة، ترجمة عبد السلام بنعبد العالي. دار توبقال ط 3 الدار البيضاء 2007
- روبير اسبنيون، أعراف قبائل زيان، ترجمة محمد اوراخ، منشورات المعهد الملكي للثقافة. أ. 2007
- فرانسوا بيرجي، موحى اوحمو الزياتي، ترجمة محمد بوسته مطبعة انفوبرانت فاس ط1، 1999.
- كيوم ليون أوغسطين، البربر وتهدة الاطلس المركزي (1829-1933) ترجمة وتقديم الدكتور العروصي محمد. ط1 بني ملال 2016.
- ليفي بروفنسال ، مؤرخو الشرفاء، تعريب عبد القادر الخلافي. مطبوعات دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر الرباط 1977.
- مويط ، رحلة الاسير مويط، ترجمة محمد حجي ومحمد الاخضر عن وزارة الثقافة، دار المناهل للطباعة والنشر 1990.

- والتر هاريس، المغرب الذي كان، نسخة صوتية إلكترونية.

IV- الموسوعات التاريخية والمجلات:

- المجلة المغربية لعلم الاجتماع السياسي محور المجتمع والسلطة، عدد 8/7 مزدوج صيف 1988.

- المناهل، إصدار خاص باليوسي العدد الخامس عشر يوليوز 1979 عن وزارة الشؤون الثقافية الرباط.

- المناهل، عدد خاص بمؤرخي الدولة العلوية، عن وزارة الشؤون الثقافية الرباط، العدد 36 السنة الرابعة عشرة يوليوز 1987.

- مجلة تاريخ المغرب، ملف المقاومة الشعبية في الجنوب العدد الخامس السنة الرابعة عشرة نونبر 1994.

- مجلة ليكسوس الإلكترونية، ملف العدد الحركة الثقافية والعلمية بسوس خلال العهد السعودي. العدد السابع عشر اكتوبر 2017.

- معلمة المغرب.

- موسوعة، مذكرات من التراث المغربي.

V المراجع باللغة الفرنسية :

- LAOUST Emile, Contes berberes du Maroc.Publication F.L.S.H Rabat serie : Les trésors de la Bibliotheque,N°13.

- Ali - Bey El Abbassi, Les voyages d'ali bey en afrique et en asie tome premier impremerie didot l'aine paris.

- ARCHIVES Berberes ,Volume II- Fascicule 3 Annee 1917.publication du Comite d'Etudes Berberes de Rabat.

- ARCHIVES Marocaines, Volume XXVII.publication de la direction generale des affaires indigenes Paris 1927.

- CHATINIERES P: Dans le grand Atlas Marocain, Extraits du carnet de route d'un médecin d'assistance médicale indigène, 1912/1916 librairie plan , Paris

- DE LA CHAPPELLE François: le sultan moulay Ismail et les Berberes Sanhaja du Maroc central : archives Marocaines ,V X X III PARIS, 1928
- DE SEGONZAC Marquis, Au cœur de l'Atlas, Mission Au (1904/1905). Emile Larose Paris 1910.
- Documents vertes C.H.E.A.M, Archive du Maroc N° 224.Rabat.
- Documents vertes C.H.E.A.M, Archive du Maroc N° 45.Rabat
- ERCKMANN Jules, Le Maroc d'aujourd'hui, challamel aine paris 1885
- ETIENNE Richet, Voyage au Maoc Edition Ligran 2015.
- EUGENE Aubin, le Maroc moderne, librairie armand colin 1904 paris
- GUELNER Ernest, Les Saints deL'Atlas , traduction Paul Coatalen , edition bouchene 2003.
- LOTI pierre : AU MAROC , éditeur calmann levi.Paris
- MEZZINE Larbi : LE TATILALT, Contribution à l'histoire du Maroc aux XVII^e et XVIII^e siecles, publication F. L.S.H Rabat serie N°13.1987
- SPILLMANN Georges (Drague G), Esquisse d'Histoire religieuse du Maroc, Confreries et Zaouias ,Publication F. L.S.H.Rabat Série :Les Trésors de la Bibliothèque,N° 7 ,1^{er} édition 2011.
- .- MONTAGNE Robert, Les berberes et le Makhzen dans le sud du Mroc.Edition Afrique Orion
- .- THAREAUD Jerom et Jena, Marrakech ou Les Seigneurs de L'Atlas. dar al aman Rabat 2012.

ملحق الوثائق والمستندات

ملاحظات حول ملحق الوثائق

قمنا بإرفاق مجموعة يسيرة من نسخ لوثائق مستخرجة من الارشيف المخزني واخرى استلمناها من حفدة مرابط أهل سابق تم إدراج كلا او بعضا من مقتطفاتها بالبحث وذلك بغايتين :

1- مقابلتها اذا ما احتيج لذلك، مع ما ورد من نصوصها بالمتن. إدراكا منا ان الحصول على نسخ منها، قد يكلف المطلاع على البحث للغاية ذاتها، وقتا ومشقة السفر لاستخراجها من محفوظات وكنائش الارشيف المخزني، سواء بالخرانة الملكية أو بمديرية الوثائق الملكية بالرباط.

2- وضعها رهن إشارة الباحثين والطلبة المهتمين بوثائق الارشيف المخزني، قد تساعدهم في إغناء بحوثهم وتوسيع مجالات دراساتهم ومقاربة مواضيع أخرى لم نتوفق في التطرق اليها.

وسيالاحظ المطلاع على الوثائق، أنها تنقسم الى صنفين: الأول منها مستخرج من خزانات الارشيف المخزني بالرباط، وهي ذات طابع رسمي وخاضعة لنظام الارشفة المعمول به وفق الشروط والمعايير التي تسلكها اللجان العلمية المختصة. اما الصنف الثاني من الوثائق، فهي لم تخضع لنظام الارشفة، لكن تم ارفاقها بالملحق أولا، لأهمية مضمونها التاريخي وقيمتها التراثية، وثانيا لكونها تمثل مجموعة ظهائر سلطانية صادرة أغلبها لفائدة حفدة المرابط سيدي احمد او علي الملياني دفين سابق شمال مدينة بني ملال، تم الحصول عليها بمساعدة السيدين عمر وعاقلي مولود من حفدة الولي مشكورين ويعود أقدمها حسب ما تحصل منها لدينا الى السلطان احمد المنصور الذهبي، وآخرها الى السلطان محمد الخامس بن يوسف.

وقد تم إدراج وترتيب الوثائق بالملحق وفق التنظيم التالي:

- تم تصنيف الوثائق الى مجموعات حسب موضوعاتها العامة، وتوزيعها حسب مصدرها. استهلكت بالظهائر السلطانية، ثم بالمراسلات السلطانية، فالمراسلات الخليفة ثم مراسلات ممثلي المخزن المحليون بالإقليم التادلي.

- تم ترتيب الوثائق حسب تواريخها وتسلسلها الزمني من الأقدم إلى الأحدث.

- بجدول فهرس الوثائق، تم تخصيص خانة عنيت بإعطاء تعريف مقتضب عن موضوع الوثيقة.

- تم العمل على موافقة التواريخ الهجرية بما يناسبها من التاريخ الكريكوري حسب المعطيات التي قدمها الحاسوب.

فهرس الوثائق

الصفحة	المصدر	الميلادي	الهجري	موضوع الوثيقة	المجموعة الوثائقية	ر.ت	
3	عن حفدة الولي	-	-	ظهير السلطان السعدي احمد المنصور لآل سابع	ظهائر سلطانية	1	
4	عن حفدة الولي	-	-	ظهير السلطان السعدي احمد المنصور لآل سابع		2	
5	عن حفدة الولي	1727	1140	ظهير السلطان المولى عبد المالك بن اسماعيل لآل سابع		3	
6	عن حفدة الولي	1733	1146	ظهير السلطان المولى عبد الله بن اسماعيل لآل سابع		4	
7	عن حفدة الولي	1802	1217	ظهير المولى سليمان لآل سابع		5	
8	عن حفدة الولي	1852	1268	ظهير الخليفة سيد محمد بن عبد الرحمن لآل سابع		6	
9	عن حفدة الولي	1872	1289	ظهير السلطان سيد محمد بن عبد الرحمن لآل سابع		7	
10	عن حفدة الولي	1877	1294	ظهير السلطان الحسن بن محمد لآل سابع		8	
11	عن حفدة الولي	1924	1342	ظهير السلطان يوسف بن الحسن لآل سابع		9	
12	عن حفدة الولي	1935	1354	ظهير السلطان محمد بن يوسف بن الحسن لآل سابع		10	
13	عن حفدة الولي	1935	1353	ظهير السلطان محمد بن يوسف لحفدة المرابط عبد الحق بن عبد الرحمن بايت عتاب		11	
14	م.و.م.ر.	1845	1261	رسالة الى خليفته على تادلا حول هداية العيد		رسائل رحمانية	12
15	م.و.م.ر.	1845	1261	رسالة الى خليفته على تادلا حول اقتراح اسماء قائدين			13
16	م.و.م.ر.	1846	1262	رسالة الى خليفته حول القائد ابن الطلب النتيفي	14		
17	م.و.م.ر.	1855	1271	رسالة الى قبيلة آيت سعيد حول مساعدة خليفته على مقاتلة آيت الربع	15		
18	م.و.م.ر.	22/09/ 1845	20 رمضان 1261	رسالته الى السلطان حول توجيه حركته لمأزره ابن القايد بدائرة نفوذه الواصلة الى الجنوب التادلي	رسائل الخليفة محمد بن عبد الرحمن	16	
19	م.و.م.ر.	27/09/ 1845	25 رمضان 1261	- رسالته الى السلطان بشأن تزكية المرابط البجدي لقائدين علا بني زمور والاسماعلة.			

20	خ.م.ر. محفظة. 21/4 ك 4	26/11/ 1837	27 شعبان 1253	رسالته الى السلطان يعلم ان بني ملال نازلين قرب القصبة الكوشية يحرثون قرب بنائها وعلى مياهها.	رسائل مستقلة للقايد بو عبيد الملاي	17
21	خ.م.ر. محفظة. 21/4 ك 4	19/08/ 1839	8 جمادى 2 1255	رسالة الى السلطان يرد عن شكايات به ويطلب منه تكليف نظرائه من القواد اعتقال الجناة حيثما فروا		18
22	م.و.م.ر.	29/04/ 1846	3 جمادى 1262	رسالة اعيان آيت الربع الى السلطان حول محاربتهم ايت سري وانحياش الاخيريون لامهاوش		19
23	م.و.م.ر.	10/07/ 1851	11 رمضان 1265	رسالة محمد بن الطالب بشأن شكايته ضد ابن القائد والتماس ظهير في اسم مرابط فشتالة لما فيه نفع ضد البرابر وولد أهماوش.	مجموعة رسائل مستقلة لقواد تادالا بشأن آل امهاوش	20
24	م.و.م.ر.	16/08/ 1851	18 شوال 1267	رسالة القائد احمد بن محمد الموساوي الى السلطان بشأن حركة مخزنية لإخراج طلحة أمهاوش من مدينة بني ملال		22
25	م.و.م.ر.	7 ماي 1862	11 جمادى 1262	حول حركته الجبائية وتوزيع جند الحركة على القبائل لاستخلاص الدفع		23
26	م.و.م.ر.	4 يوليو 1846	10 رجب 1262	حول مواصلة عملية الاستجباء وقيامه بمصالحة ايت الربع ببني عمير ومواجهة نقص المياه بالمنطقة		24
27	م.و.م.ر.	ماي 1846	جمادى 1 1262	مواصلة عملية الاستجباء وتشكيه من عب أدادس وهو يغري بني عمير وبني موسى بتحررهم من الدفع		25
28	م.و.م.ر.	2 شتنبر 1846	11 رمضان 1262	مواصلته الاستجباء وتشكيه من عب أدادس رغم احسانه لايت الربع		26
29	م.و.م.ر.	9 شتنبر 1846	18 رمضان 1262	حول عدم علمه بما فعله خليفته ابن اسماعيل مه هرفالة ووشايته بابن الطالب		27
30	م.و.م.ر.	12 شتنبر 1846	20 رمضان 1262	مواصلته لآعمال الجباية وحلوله قرب ورديغة وتسلم الجند لسخاريهم ومونتهم	مجموعة رسائل مستقلة لابن القايد	28
31	م.و.م.ر.	12 شتنبر 1846	25 ربيع 1. 1263	بشأن امره لخليفته ابن اسماعيل على مهاجمة آيت سري		29
32	م.و.م.ر.	11 ابريل 1847	24 ربيع 2.	انه يريد التوجه لتادالا لموازرة ابن اسماعيل. وانه وجه ابن هذا الاخير الى		30

			1263	السلطان مصحوبة بهدية.	
33	م.و.م.ر.	6 يوليو 1847	21 جمادى 2 1263	بشان حركة جبائية واكله زرع قرب القصبه الكوشية واستخلافه مقادير من الدفع من سكان الجبل المتاخمين للدير	31
34	م.و.م.ر.	15 يونيو 1846	20 جمادى .2 1262	بشان موصلته الاستجباء وتشكيه من آيت الربع المتضامنين مع آيت سري	32
35	م.و.م.ر.	6 يونيو 1847	21 جمادى 2 1263	بشان حركة جبائية واكله زرع قرب القصبه الكوشية واستخلافه مقادير من الدفع من سكان الجبل المتاخمين للدير	33
36	م.و.م.ر.	8 ماي 1848	4 جمادى .2 1264	الابلاغ بمعركة كبيرة وقعت بين آيت الربع والبربر.	34
37	م.و.م.ر.	1 غشت 1850	22 رمضان 1266	الابلاغ بحركته الى تادلا ومده ب800 من الخيل من طرف خليفة السلطان . وابلغ بان العام عام مسغبة ويعاني اهل الحوز من الغلاء ويلتمس استيراد الزرع والرفق بالناس من غلاء التجار	35
38	م.و.م.ر.	31 يناير 1845	22 محرم 1261	رسالة الى الوزير ابن ادريس يلتمس الشفاعة للقائد بوعبيد الملاي	36
39	م.و.م.ر.	6 شتبر 1846	15 رمضان 1262	رسالته الى الوزير ابن ادريس باعتداء خليفة بني موسى على هداية السلطان وعلى اموال المرابط سيدي عبد الحق بن عبد الرحمن وترحيل هرفالة الى ايلته ووقوع معركة كبيرة بين هنتيفة وتادلا	37
40	م.و.م.ر.	11 شتبر 1846	20 رمضان 1262	تشكيه من ابن اسماعيل من احتفاظه ببعض هرفالة عنوة باياله.	38 مجموعة رسائل مستقلة
41	م.و.م.ر.	26 ماي 1847	10 جمادى .2 1263	حول تشكيه من ابن اسماعيل ومساعدته لهرفالة وايت عتاب في الزرع والفلح باياله.	39 للقايد محمد بن الطالب
42	م.و.م.ر.	26 ماي 1847	10 جمادى 1 1263	حول ابلاغه بالمساجين الذين لا زالوا تحت يده ويطلب ابقاء سجناء بني عياط وبني موسى بسجن مراكش	40

43	م.و.م.ر.	26 ابريل 1847	10 جمادى 1. 1263	حول شكايته بابن اسماعيل وحليفه ابن القايد في ارتكابهم لأعمال السرقة والنهب		41
44	م.و.م.ر.	21 مارس 1847	3 ربيع 2. 1263	الاخبار بمشاركته في حركة مخزنية الى جانب قائد دمنا علي احدو		42
45	م.و.م.ر.	28 اكتوبر 1848	تمم قعدة 1264	رسالة الى السلطان يلتمس شد عضده لقضاء غرض المخزن بتادلا.		43
46	م.و.م.ر.	20 دجنبر 1865	24 محرم 1265	رسالة الى الوزير الغربي بن المختار الجامعي يشتكي من ابن القايد ومبالغة تادلا في التعدي على إخوانه.		44
47	م.و.م.ر.	9 غشت 1849	20 رمضان 1265.	حول ابلاغه السلطان بمساعدة نجل السلطان له على حركته وان علي اوحدوكان متراخيا فيها		45
48	م.و.م.ر.	5 شتنبر 1849	17 شوال 1265.	حول توصله بكتبا التشریف لفائدة آيت زيدوح		46
49	م.و.م.ر.	2 غشت 1848	9 شعبان 1262	رسالة القائد المعطي بن خمليش حول امنتاله القبض على فرار ورديغة من الواجب اثناء حركة بن القايد	مجموعة رسائل مستقلة لقواد الشاوية بشأن أحوال قبائل تادلا الرتمية	47
50	م.و.م.ر.	9 غشت 1846	16 شعبان 1262	رسالة نفس القائد الى السلطان حول احصاء الامتعة المصادرة من الفرار		48
51	م.و.م.ر.	17 ماي 1849	24 جمادى 1266. 5	رسالة القائد العربي بن الجيلالي المعروفي حول النزاع بين ورديغة والسماعلة		49
52	م.و.م.ر.	20 يونيه 1849	29 رجب ب 1265	حول ابلاغه السلطان بتغلب السماعلة على بني خيران		50
53	م.و.م.ر.	7 فبراير 1850	24 ربيع 1.126 6	حول ابلاغه بتعدييات ورديغة على إخوانه		51
54	م.و.م.ر.	12 مارس 1852	20 جمادى 1268	رسالة القائد محمد بن الرشيد حول اعتزاه مع القايد احمد الموساوي. محاربة ورديغة		52
55	م.و.م.ر.	15 مارس	17 ربيع 1.	رسالة مشتركة لخلفان جوار دمنا الى خليفة السلطان يطلبون وده		53

		1846	.1262			
56	م.و.م.ر.	19 ماي 1846	23 جمادى .1262	رسالة عبد الله اداس الربيعي الى السلطان يبلغ انه لم يبيق اثرا لزرع البربر قرب بني ملال.	رسائل الخلفان	54
57	م.و.م.ر.	-	-	رسالة المرابط احمد الخضراوي الى نجل السلطان يبلغ ان وردبغة واولاد بحر الكبار والصغار يمثلون في الدفع		55
58	م.و.م.ر.	3 ماي 1852	13 رجب 1268	رسالة احمد بن زيدوح يشتكى من تحالف ابن الطالب وعب اداس ضده		56
59	م.و.م.ر.	28 غشت 1873	4 رجب 1290	رسالة مشتركة من قائدين بتادلا الرتمية الى خليفة السلطان على تادلا المولى عبد الله حول نزاع بين قبائل الشمال تادلي		57
60	م.و.م.ر.	12 شتنبر 1873	19 رجب 1290	الى السلطان الحسن الاول ينعيه والده وهو بوريقي ويقترح عليه توجيه الامر الى خليفة السلطان على تادلا بلزوم محلّه.	رسالة من الحاجب با حماد	58
61	م.و.م.ر.	21 ماي 1873	23 ربيع 1 1290	رسالة الى القائد علي الدمناطي بشأن احصاء متروك ناصر اوحدوالفتواكي	رسائل حسنية	59
62	م.و.م.ر.	21 ماي 1873	23 ربيع 1290	رسالة الى قاضي دمنات بشأن احصاء متروك ناصر اوحدوالفتواكي		60
63	م.و.م.ر.	12 شتنبر 1877	6 حجة 1294	رسالة الى محمد بن سعيد السلاوي بشأن مرور محلته بالقبائل التادلية		61
64	م.و.م.ر.	15 ماي 1879	23 ج.1 1296	رسالة الى محمد بن سعيد السلاوي بشأن مرور محلته بالقبائل التادلية		62
65	م.و.م.ر.	17 اكتوبر 1881	23 قعدة 1298	رسالة الى محمد بن سعيد السلاوي بشأن مرور محلته بالقبائل التادلية		63
66	م.و.م.ر.	31 يوليو 1883	26 رمضان 1300	رسالة الى محمد بن سعيد السلاوي بشأن مهاجمة السماعة		64
67	م.و.م.ر.	10 اكتوبر 1890	25 صفر 1308	رسالة الى محمد بن سعيد السلاوي بشأن حركة آيت سخمان		65
68	م.و.م.ر.	19 يونيه 1892	23 قعدة 1309	يشتكى فيها من اعتداءات ايت الربيع على آيت سري ومن تهاون قائد القصبية الجيلالي بن يعقوب واقتراح استبداله.		66

69	م.و.م.ر.	29 يونيو 1892	3 ذوالحجة 1309	شكاية قواد آيت هودي الى السلطان ضد موحى اوسعيد اليرايوي انهم كانوا سيية، ويتنازعون مع محمد احم الزيانوي.	رسائل القائد محمد اوسعيد اليرايوي	67
70	م.و.م.ر.	19 غشت 1893	6 صفر 1311	4 من قواد آيت ويرا يبلغون بتسيب قبيلتهم ويطلبون امدادهم بالسلاح		68
71	م.و.م.ر.	28 مارس 1894	21 رمضان 1311.	رسالة محمد اوسعيد الى السلطان عبد العزيز يبلغ بتضامن قاود سمكت مع المهاوشي		69
72	م.و.م.ر.	14 ابريل 1904	28 محرم 1322	تقرير محمد اوسعيد اليرايوي بشأن نتزاعه المسلح مع عدد من فخذات بني معدان.مع استثنائه فخذات اولاد ايعيش وسمكت وكطاية وبني ملال والزواير.		70
73	م.و.م.ر.	11 نونبر 1897	15 جمادى 2. 1315	رسالته الى القائد عبد الله بن سعيد السلواوي حول حركته الى تادالا.	رسائل عزيزية	71
74	م.و.م.ر.	25 مارس 1903	25 حجة 1320	رسالته الى قبيلة ورديفة وتوبيخهم على عقد تحالف لفي مع الشاوية ضد الاعشاش		72
75	م.و.م.ر.	20 يونيو 1903	24 ربيع 1. 1321	رسالته الى القائدين ابن الموزن واحمد بن الطيب حول ايفاده المرابط محمد بن داوود لعقد الصلح بين تادالا والسراغنة.		73
76	م.و.م.ر.	16 يوليو 1894	12 محرم 1312	نسخة من عقد بيعة قبائل بني ملال للسلطان عبد العزيز	نموذج من عقد بيعة	74
77	خ.م.ر.	7 شنتبر 1881	محرم 1299	نموذج من لائحة جند ادالة زيان المستفيدين من مونة المخزن، اعتمدها ايضا ابن زيدان في الاتحاف والمنصوري في كباء العنبر.	نماذج لمجموعة من رسائل	7775 770
78	خ.م.ر.	2 يوليوز 1882	شعبان 1302	نموذج لائحة الأغوات بعد استعراضهم من طرف موحى اوحمو الزيانوي		75
79	خ.م.ر.ك، ناش رقم 634	-	-	وثيقة نموذج من تقسيم إداري وجبائي لقبائل السهل التادالي ولائحة عمال آيت الربيع.		76
80	خ.م.ر.ك، ناش رقم 634	/04/19 1891 الى /09/15 1891	من رمضان 1308 الى صفر 1309	لائحة حسابية حول دخل المحلة الخليفية بالزيدانية		77

81	خ.م.ر.ك ناش رقم 353	22 ماي 1883	رجب 1300	رسالة توبيخ من السلطان الى آيت الربع لتقاعسهم عن الخدمة والزامهم ذعيرة عن ذلك	رسائل مختصرة بكنائش الخرانة الملكية	78
82	خ.م.ر.ك ناش رقم 353	11 يونيه 1883	5 شعبان 1300	بيان ما وطف على آيت الربع من ذعيرة		79
83	خ.م.ر.ك ناش رقم 353	17 يونيه 1883	11 شعبان 1300	رسالة سلطانية الى آيت الربع لإعادة تنظيم صفوفهم الجيشية وتعيين علال بن عب اداس قائد رحى.		80
84	خ.م.ر.ك ناش رقم 353	16 يونيه 1883	10 شعبان 1300	رسالة استنهاضية لقبائل الشمال التادلي لأداء ما تخلد بذمتهم عن متأخر 12 سنة.		81
85	خ.م.ر.ك ناش رقم 353	22 يونيه 1883	16 شعبان 1300	كتاب سلطاني بمتابة ظهير لفائدة حفدة سيدي علي بن عبد الرحمن دفين آيت سري		82
86	خ.م.ر.ك ناش رقم 353	26 يونيه 1883	20 شعبان 1300	- توضيح مفهوم شد العضد كما يراه المخزن - رسالة استرعاء لآيت عطا نومالو		83
87	خ.م.ر.ك ناش رقم 353	24 يوليوز 1883	19 رمضان 1300	رسالة سلطانية الى رماة تاكزيرت بأمرهم باصطياد أسد وأشباله وجلبهم أحياء للمحلة.		84
88	خ.م.ر.ك ناش رقم 353	7 غشت 1883	3 شوال 1300	رسالة السلطان الى القائد محمد بن سعيد السلاوي حول الحملة العسكرية ضد السماعلة		85
89	خ.م.ر. كناشة رقم 1205 9	-	-	تقرير لمجهول حول الحملة العسكرية على آيت سخمان.		86
90	خ.م.ر. كناش 151	1890	1308	لوائح تعيينات لقواد على قبائل السهل والدير والجبل التادلية		87
91	خ.م.ر. كناش 241 ص 60	8 اكتوبر 1896	1 جمادى 1314	كتاب بمتابة ظهير سلطاني لفائدة حفدة المرابط سيدي علي بن ابراهيم		88
92	خ.م.ر. كناش 624	اكتوبر 1897	جمادى 1315	لائحة بأسماء سجناء آيت الربع وبني موسى مقدمة لحركة عزيرية ترأسها مولاي حفيظ سنة		89

1315							
93	خ.م.ر. كناش 172 ص 144	23 شتنبر 1890	8 صفر 1308	- رسالة ابن المودن حول انتقال حركته صوب ايت عبدي - تقرير العلاف محمد الصغير بشأن وقوع خلاف داخل محلته.	الوار دة على المر كز		90
94	خ.م.ر. كناش 172 ص 148	25 شتنبر 1890	10 صفر 1308	- تقرير للزياني بشأن المفاوضة مع العلاف في الترتيب على كيفية الزحف على آيت سخمان - تقرير الزياني حول وقوع هزيمه على حركة العلاف			91
95	خ.م.ر. كناش 172 ص 157	1 اكتوبر 1890	16 صفر 1308	رسالة ابن المودن يخبر بورود ابوبكر امهاوش يطلب الصفح له ولاخوانه ايت سخمان.			92

فهرس الجداول

- جدول 1 تعداد سكان مدينتي بني ملال وقصبة تادلة لسنة..... 38
- جدول 2 يتضمن محصلة تعداد السكان سنة 1921 بقبايل آيت الربع..... 38
- جدول 3 تعداد سكان حسب ما أورده المركز الاستعلامي لدار ولد زيدوح لسنة..... 39
- جدول 4 تعداد سكان زاوية الشيخ واغرم العلام/ تاكزيرت لسنة 1921..... 40
- جدول 5 حول المحلات السلطانية التي مرت بالإقليم التادلي..... 112
- جدول 6 بياني يرصد قيمة المواد المصادرة من الفرار عينا ونقدا..... 133
- جدول 7 بمحصلة اعداد الفرار وأمتعتهم من ورديفة خلا أسبوع..... 135
- جدول 8 مختصر لتوضيح عدد أفراد الجيش والعسكر والمخصصات المالية التي يتلقونها من المركز عن مدة شهر واحد نموذجا:..... 187
- جدول 9قوائم بأسماء القواد الذين تم تعيينهم من طرف السلطان الحسن الأول على المناطق الجبلية الديرية. 196
- جدول 10 القسم الجنوبي من القبائل التادلية:..... 205
- جدول 11 عن القبيلة الديرية لأيت بوزيد..... 211
- جدول 12 عن القبيلة الديرية لأيت سري..... 212
- جدول 13 عن آيت هودي وأم البخت..... 212
- جدول 14 عن زيان وآيت سخمان:..... 212
- جدول 15 عن آيت عطا نومالو..... 212
- جدول 16: واجب المؤونة على كل قبيلة مياومة على مدى شهر مع تحويل المقادير إلة وحدة الكلغ 213
- جدول 17: واجب المؤونة على كل قبيلة..... 214
- جدول 18: لائحة بأسماء القواد المعينين على الفرق والدواوير ببني معدان..... 219
- جدول 19 لائحة اسماء القواد المعينين على الفرق والدواوير بكطاية..... 220
- جدول 20 لائحة أسماء القواد المولين على قبائل آيت الربع الجيشية..... 220
- جدول 21: لائحة الدواوير واسماء القواد الجدد..... 221
- جدول 22: أسماء قواد تادلا الرتمية..... 221
- جدول 23 يرصد حجم القوة الموضوعة رهن إشارة القايد محمد بن الطالب لمواجهة اللفوف المناوئة له..... 303
- جدول 24: لائحة بأسماء القواد الذين تمت توليتهم..... 344
- جدول 25: لائحة أسماء قواد قبائل تادلا الذين وجهت لهم رسائل مخزنية تدعوهم لاستنهاض فرقهم للمشاركة في الحركة ضد آيت سخمان..... 382
- جدول 26 يرصد خسائر محاربي حركة الجنوب على قصور ومدشر تاسرافت..... 384

فهرس الموضوعات

6.....	مقدمة.....
7.....	1. أهمية الموضوع :
9.....	2. دوافع اختيار موضوع البحث وتحديد فترة دراسته :
Erreur ! Signet non défini.	3. الإشكالية :
15.....	4. المصادر والمراجع المعتمدة في البحث:
16.....	- المراجع الاجنبية :
18.....	- المصادر و المراجع المغربية:.....
19.....	5. الجديد في الدراسة:
20.....	6. الهيكل العام للبحث :
الباب الأول: جوانب من كيفية تدبير المخزن للشأن التادلي خلال النصف الثاني	
21.....	من القرن 19 ، آليات ومقاربات
23.....	الفصل الأول: مميزات الاقليم الطبيعية :
23.....	المبحث الأول: لمحة عامة حول الإطار الجغرافي والتوطن القبلي:
27.....	المبحث الثاني، خصائص الاقليم المسالكية و النهرية و الديموغرافية :
26.....	المطلب الاول ، وظيفة المسلك وحيوية الاتصال :
29.....	* المطلب الثاني، أم الربيع، علامة فارقة بين مجالين :
28.....	*المطلب الثالث، السكان :
32.....	1. ديموغرافية المجال و العوامل المتحكمة في التطور السكاني :
35.....	2.التعداد الرسمي الاول على عهد الحماية :
42.....	الفصل الثاني: الإطار المصدري للبحث :
46.....	- المبحث الاول، مدلول لفظ الأرشيف المخزني:
48.....	- المبحث الثاني، المواد المصدرية التي تم التوصل بها :
48.....	* المطلب الاول ، الوثائق :

- 49..... * المطلب الثاني ، مميزات الوثائق :
- 50..... *المطلب الثالث ، عقود البيعة و الرسائل المستقلة :
- 49..... 1 - عقود البيعة:
- 49..... 2. الرسائل المستقلة :
- 50..... 1.2- الرسائل السلطانية والخليفة :
- 50..... 2.2 - رسائل ممثلي المخزن بالإقليم :
- 51..... **المبحث الثالث: الكنائش مكنز وثائقي :**
- 51..... *المطلب الاول ، الكنائش الخاصة:.....
- 51..... *المطلب الثاني، الكنائش المخزنية :
- 54..... *المطلب الثالث ، نظرة حول ما طوع من الكنائش :
- 59..... **المبحث الرابع ، المخطوطات :**
- 60..... **المبحث الخامس، مصادر الاستوغرافيا التقليدية:**.....
- 60..... **المبحث السادس، دراسات اجنبية حول بعض قبائل الاقليم ومشاهداتهم رحلية :**
- 65..... **الفصل الثالث: المراسلات المخزنية بين وسيلة للتواصل ووظيفة للتوجيه**
- 68..... **المبحث الاول، النخبة وإنشاء الخطاب:**.....
- 66..... *المطلب الاول ، ديوان الكتابة:
- 67..... * المطلب الثاني ، البنية :
- 70..... *المطلب الثالث، الرسالة الرسمية :
- 72..... * المطلب الرابع، انتظام شكل الرسالة :
- 73..... *المطلب الخامس، النظام التراتبي في التراسل :
- 76..... **المبحث الثاني، مواصفات وخصائص مطلوبة في الكتاب :**
- 74..... *المطلب الثاني: اختيارهم من بين النخب.....
- 75..... * المطلب الثاني: حفظ الأسرار.....
- 81..... **الفصل الرابع: آليات التراسل لدى قواد الاقليم التادلي :**
- 81..... **المبحث الاول ، كُتاب العمال والقواد:**
- 79..... **المطلب الاول ، اختيار الكتاب :**.....

- * المطلب الثاني ، تباين شكليات دباييج الكتاب مناطقيا : 83
- المبحث الثاني، الرقاص وصاحب البريد: 87
- * المطلب الاول، اطلالة تاريخية سريعة عن سعاة البريد : 85
- * المطلب الثاني، تطور جهاز البريد و علاقة ممثلي المخزن المحليون بالرقاصة : 87
- المبحث الثالث، الكاغيد واللك: 90
- خاتمة: 91
- الباب الثاني، مراحل تطور الجهاز المخزني المحلي : 92
- الفصل الأول، تطور الجهاز المخزني المحلي وآلياته في تدبير المجال التادلي : 94
- المبحث الاول، تادلا وجوارها الطرفي، وهيمنة البعد الامني في سياسات الدول المتعاقبة : 97
- *المطلب الاول، تواتر الحكم المحلي بتادلة : 95
- * المطلب الثاني، المجال التادلي من منظور مخزني : 96
- * المطلب الثالث، العصبية الصنهاجية هاجس أمني : 96
- المبحث الثاني، المخزن المحلي، مقارنة أولية : 97
- المبحث الثالث، تطور الحكم المخزني : 102
- *المطلب الاول، فترة الحكم الأميري: 100
- *المطلب الثاني، فترة الزعامات ذات النزوعات الاستقلالية ، اطلالة سريعة على واقع محلي غير مستق..... 102
- * المطلب الثالث : الحضور المخزني بتادلا بين عهدي محمد بن عبد الله و المولى سليمان : 103
- المبحث الرابع، المخزن في مواجهة العصبوية القبلية ونفوذ مرابط ابي الجعد: 106
- * المطلب الاول، تجديد الأطر والنخب الادارية: 104
- * المطلب الثاني، إعادة رسم حدود العلاقة بين المخزن ومرابط الزاوية الشرقاوية : 105
- *المطلب الثالث، تجدد مظاهر الأزمة : 107
- المبحث الخامس، تجريد محلات سلطانية : 110
- الفصل الثاني، التمثيل المخزني بالإقليم عهد السلطان المولى عبد الرحمن : 115
- المبحث الاول، استخلاف نجل السلطان محمد بن عبد الرحمن : 116
- المبحث الثاني، الجباية وسيرة قائدتين قويين: 116

- *المطلب الاول، سيرة القائد أحمد بن القايد و حركاته الجبائية: 116.....
- *المطلب الثاني، بيئة المجال ومضاعفة تكاليف الإستجباء: 124.....
- *المطلب الثالث، إعالة الحركة بين ضعف المدخول الجبائي وثقل الصائر: 124.....
- *المطلب الرابع، نظام السخرة : 125.....
- المبحث الثالث، تادلة العليا تحت آثار ضغط جبائي و صراعات قبلية مع ضعف حضور مخزني: 128.....**
- * المطلب الاول، ظاهرة الفُرَّار: 129
- *المطلب الثاني، صراعات قبلية وموقف المخزن : 133.....
- المبحث الرابع، الجنوب التادلي بين صراعات قبلية وموقف المخزن : 140**
- *المطلب الاول، هنتيفة تحت وطأة قائد قوي وصراعات بين قبائل الجنوب: 140.....
- أولاً، الموقع: 140
- ثانياً، دلالة الاسم : 140.....
- ثالثاً، دينامية القبيلة : 142.....
- رابعاً، الروابط الاجتماعية للقبيلة: 143.....
- المبحث الخامس، القايد محمد بن الطالب التنتيفي ودوره في تدبير الصراعات: 146**
- *المطلب الاول، علاقة بالمركز وسيرة في القبيلة 146.....
- *المطلب الثاني، طبيعة الصراعات وجوانب من أسبابها: 149.....
- *المطلب الثالث، موقف المخزن: 157.....
- *المطلب الرابع، السجناء وعلاقتهم بالقواد: 158.....
- *المطلب الخامس، نهاية ابن الطالب : 164.....
- الباب الثالث، المخزن المحلي في العهد الحسني وتدبير المجال : 175.....**
- الفصل الأول ، المخزن الحسني و تجديد إطارات التمثيل المحلي لتدبير المجال :... 175**
- المبحث الاول، قبائل طرفية بالجبل والدير التادليين واستحداث خيارات جديدة لتدبير قضاياها: 177**
- *المطلب الاول، الموقع الجغرافي للجبل والدير وخصائصهما الطبيعية: 176.....
- *المطلب الثاني، الوسط الطبيعي: 178
- *المطلب الثالث، السكان واقتصاد الجبل: 180.....

- *المطلب الرابع، الأصل ومسألة استمرار أسماء القبائل: 181.....
- المبحث الثاني، الجهاز المحلي في العهد الحسني : 183.....
- * المطلب الاول ، تعيين موحى اوحمو على قبائل زيان: 181.....
- 1- ظروف تولية موحى اوحم الزياتي : 182.....
- 2 - موحى وحمو بمؤهلات قيادية و وظائف متعددة: 182.....
- 2 . 1 - المستوى العسكري :..... 183.....
- 2 . 1.1 - تأمين وصول مؤن ومرتببات الجند : 184.....
- 2 . 1. 2 - مساهمته في حركة بني مكيلا و آيت سخمان : 187.....
- 2 . 2 . المستوى الأمني : 188.....
- *المطلب الثاني، تعيين موحى اوسعيد اليرايوي : 193.....
- *المطلب الثالث، تطور المداخل الجبائية بالجبيل الزياتي : 195.....
- المبحث الثالث، مآل الدور العسكري لقصبة تادلة في ظل بروز دور القاندين : 199.....
- الفصل الثاني، القبائل السهلية : تقسيم إداري ، و حضور مركزي تمثله محلات خليفية.**
- 203.....
- المبحث الاول، تقسيم إداري بمضمون قبلي وغايات جبائية : 203.....
- *المطلب الاول، طبيعة التقسيم:..... 203.....
- *المطلب الثاني، تجريد محلات خليفية بقصد الاستجاء واستقرارها لمدد متفاوتة بالقصبة الزيدانية : 208.....
- 1.1- محلة المولى الامين سنة 1300هـ: 208.....
- 2.1 - محلة المولى عثمان الاولى سنة 1307هـ : 208.....
- 1 . 3، محلة المولى عثمان الثانية سنة 1308/1307 : 209.....
- المبحث الثاني، دوافع تعديل القواد بالسهل التادلي: 215.....
- *المطلب الاول، تفاقم حالات الفرار :..... 215.....
- *المطلب الثاني ، معالجة المركز للازمة و دفعه بأعداد اضافية من ممثليه: 216.....
- المبحث الثالث، شطط القواد وموقف المركز للحد منه: 223.....
- *المطلب الاول ، استرعاء المركز للظلمة من القواد و توبيخهم : 221.....
- *المطلب الثاني، اجراءات أخرى، عقابا او تتركيا : 222.....

الفصل الثالث، الأمناء والشرفاء والمرابطون ،قنوات موازية في التمثيل المحلي :..... 227

المبحث الاول، وسائل مادية و مفاهيم تنظيمية : 228

*المطلب الاول،أمراس القصبة الزيدانية أداة لتخزين مقدرات الاقليم من الحبوب: 227

*المطلب الثاني ، مفهوم شد العضد كما يراه المخزن : 228

1 الأمناء :.: 229

المبحث الثاني، الأمناء ودورهم الاستجابي: 230

*المطلب الاول، تعيين الأمين "الطاهر بن المعطي الشكالي" نموذجا: 230

*المطلب الثاني، أجره الأمناء..... 232

المطلب الثالث، علاقة الأمناء بالقواد :..... 236

2 الشرفاء و المرابطون : 238

المبحث الثالث، الأشرف العلويون : 240

*مطلب فريد، الظهائر السلطانية: 239

- المبحث الرابع، المرابطون: 243

* المطلب الاول،ظهائر سلطانية تقديرا لجانب النساء : 244

*المطلب الثاني، مرابطو زاوية أبي الجعد:..... 246

1- الزاوية الشراوية والمخزن، منتصف الثاني من القرن التاسع عشر : 247

2 - علاقة المرابط سيدي بن داوود بالمخزن:..... 248

3 - المرابط سيدي العربي في خدمة المخزن الجبائي:..... 248

4 - دور المرابط في مؤازرة العمل الجبائي للمحلة الاميرية الاخيرة : 249

المبحث الخامس، رصد جوانب من وظائف محلة اميرية بالزيدانية:..... 251

*مطلب فريد، نماذج من تحفيزات المرابط في دعوة القبائل الى الاسراع اداء الواجب ودفع المئونة : 253

خاتمة: 256

الباب الرابع، من مرجعيات التدبير المخزني لبعض قضايا المجتمع المحلي،

الشفاعة والفصال نموذجا وموقفه من ظاهرة اللقوف..... 258

الفصل الأول، الشفاعة و دورها في حل قضايا بين السلطة والمجتمع المحلي 260

259.....	المبحث الأول: الشفاعة وطرق تحصيلها
259.....	*المطلب الاول ، الشفاعة لغة واصطلاحا :
260.....	*المطلب الثاني، شفاعة السلطان :
261.....	*المطلب الثالث ، أشكال طلب الشفاعة :
261.....	1- التعرؤية
262.....	2- التطارح الجماعي بين عجلات المدافع :
264.....	3- الاستشفاع لدى السلطان مباشرة :
264.....	4- قنوات أخرى لطلب الشفاعة :
264	4- 1- الزوايا :
265.....	4 . 2 - المرابطون :
266.....	4 . 3 - حملة القرآن الكريم :
267	4 . 4 توسط العمال والقواد لطلب الشفاعة:
269.....	المبحث الثاني، أسباب رفض المخزن التماس الشفاعة:
274	الفصل الثاني، الفصل وصيغته التحكيمية في تدبير الخلافات
274	المبحث الاول، الفصل بين العرف و الخطاب المخزني :
274.....	*المطلب الاول في التعريف بالفصال :
275.....	*المطلب الثاني، مبدأ الفصال في النصوص الوثائقية :
276	المبحث الثاني، الفصل تحت إشراف المخزن :
276.....	*مطلب فريد ، نماذج من وثائق :
278	المبحث الثالث، الفصل بين القبائل :
278	*مطلب فريد ، رسالة مخزنية نموذجاً :
280	المبحث الرابع، الفصل بين الجماعات :
281	*مطلب فريد ، رسالة مخزنية نموذجاً :
286	الفصل الثالث، ظاهرة اللف بتادلا وموقف المخزن
286	المبحث الاول، اللف بتادلا محاولة في النمذجة :

- *المطلب الاول،في التعريف باللف : 286.....
- *المطلب الثاني، ظاهرة اللف في دراسة روبير مونطاني : 287.....
- *المطلب الثالث، تمظهرات اللف بالمناطق الديرية والجبليّة التادلية : 289.....
- أولاً، من حيث البحث الاستوغرافي: 291.....
- ثانياً، من حيث الفاصل الزمني: 291.....
- ثالثاً، من حيث حمولة اللف في الخطاب المخزني: 292.....
- المبحث الثاني، الدراسات الاجنبية وظاهرة اللف بتادلا:**..... 292.....
- *المطلب الاول، نموذج من دراسة منوغرافية: 292.....
- * المطلب الثاني، اللف من منظور مخزني : 295.....
- المبحث الثالث، صراعات قبلية بملح لفوفي ودور الجهاز المحلي :** 297.....
- *المطلب الاول، اوجه من التضامات القبلية : 297.....
- * المطلب الثاني، جانب من اوجه الصراعات والتضامات القبلية ذات طابع لفوفي: 304.....
- *المطلب الرابع، محاولة في التحليل : 307.....
- المبحث الرابع، ظاهرة اللف بالجبيل التادلي من منظور وصفي أجنبي :** 309.....
- المبحث الخامس، ظاهرة اللف بالمنطقة السهلية :** 312.....
- استنتاجات حول الظاهرة في العلاقة مع المخزن: 314.....
- خاتمة:..... 317.....
- الباب الخامس، المحلة الحسنية بتادلا في حركتها العاشرة**..... 318.....
- الفصل الأول، المحلة السلطانية بالاقليم ، تجسيد للفعل الحضورى لسلطة الدولة :** . 320.....
- المبحث الاول، الحركة السلطانية بين الكتابات المغربية وملاحظات الاجانب :** 320.....
- المبحث الثاني ، مبررات الدراسة و مصادرها:**..... 323.....
- المبحث الثالث، رمزية حضور المحلة السلطانية كمركز لسلطة الدولة :** 327.....
- المبحث الرابع، المحلة السلطانية العاشرة على مشارف تادلا :** 328.....
- * المطلب الاول، خطة عمل المحلة وأهمية اختيار التوقيت : 329.....
- *المطلب الثاني ، تمهيدات أولية تسبق انطلاق المحلة : 331.....

333	الفصل الثاني، المحلة السلطانية على مسار تنفيذ خطاظة برنامج عملها التدبيري بالمجال .
333	المبحث الاول، تسوية حالة تعاصي بني عمير وحسم قضية آيت الربع :
337	المبحث الثاني، استنهاض قبائل الشمال التادلي لدفع متأخرات الواجب :
339	المبحث الثالث، استنهاض قبائل بني عمير لدفع منونة العسكر.
342	المبحث الرابع، عزل قواد وتولية آخرين :
344	المبحث الثالث: ظهائر التوقير والصلحاء الأطلس والدير
346	المبحث السادس، التحكيم والفصل في المنازعات :
347	* المطلب الاول، اطوار انعقاد المجلس التحكيمي:
349	*المطلب الثاني، رد المظالم :
350	المبحث السابع، الأمر بصيد الأسود:
353	المبحث الثامن ، واقعة السماعلة:
355	خاتمة:

الباب السادس: قراءة وثائقية في تاريخ الحركة السلطانية على آيت سخمان،

356	محاولة في التحليل و التركيب.
358	الفصل الأول : محلة سلطانية بنفس عسكري واتجاهات تدبيرية متعددة الاهداف والابعاد
359	المبحث الاول، في اختيار الاداة المصدرية :
360	المبحث الثاني، سياقات الحملة العسكرية على آيت سخمان :
360	*المطلب الاول، أسباب مباشرة :
361	*المطلب الثاني، أسباب غير مباشرة :
363	المبحث الثالث، الإعداد والتهيئ للحملة :
363	*المطلب الاول، رسائل استنهاضية للقبائل:
364	*المطلب الثاني، المحلة السلطانية تستوطن تادلا :
364	*المطلب الثالث، السلطان باغرم العلام ، مركز القيادة :

- 366.....المبحث الرابع، خطة المخزن التي اتبعتها في تكتيكه العسكري : 366
- *المطلب الاول، المجال السخماني وشساعة ميدان المعركة : 366
- *المطلب الثاني، توزيع الفرق القبلية بالجنوب، والمعايير المعتمدة في ذلك : 367
- 369.....المبحث الخامس المركز السلطاني والتشكيلات العسكرية بجهة الشمال : 369
- *المطلب الاول، مجال تضاريسي معقد و تدبير المخزن لإشكالية تنافر و توجس القبائل : 369
- المطلب الثاني ، تحركات مخزنية لضمان ولاء القبائل: 370
- 377.....الفصل الثاني، السلطة المخزنية و قبائل آيت سخمان من الاحتواء الى التطويق :...377
- المبحث الاول ، شرق آيت سخمان قبائل ناغلة : 377
- *المطلب الاول، حركة دبلوماسية موازية لتخفيف حدة التوتر : 377
- *المطلب الثاني، المخزن يفلح في مهمته التفاوضية: 380
- 380.....المبحث الثاني، استكمال تطويق آيت سخمان وانطلاق المعارك : 380
- المطلب الاول، الجيش النظامي بالجهة الغربية: 380
- *المطلب الثاني، أكرهات بنيوية و أخرى طارئة بالجهة الجنوبية : 382
1. وعودة السطح التضاريسي : 385
2. انسحابات في صفوف القبائل وتلكؤ الباقي : 386
3. انفعال محاربو حركة الجنوب مع نتائج معارك الشمال: 387
- 388.....المبحث الثالث، عودة الى جبهة الشمال السخماني : 388
- *المطلب الاول، الجيش النظامي والقبائل الرديفة: 389
- *المطلب الثاني، القبائل الجيشية والنوايب الرديفة: 391
- أ - قبائل آيت الربع: 391
- ب - قبائل الدير والجبل: 391
- 393.....المبحث الرابع، جبهة الشمال الشرقي لآيت سخمان : 393
- المبحث الخامس، انحلال في جبهات القتال : 397
- *المطلب الاول، مزيج قبلي محارب غير منسجم : 397
- *المطلب الثاني، حادثة بوتفردة وحركة عسكرية متسارعة : 400

403.....	*المطلب الثالث، هجمة فاشلة تحت وقع التسرع والتدبير غير المنسجم:
403.....	المبحث السادس، حادثة بوتفردة تسرع بقرار الانفصال :
403.....	*المطلب الاول، تضامانات خفية تعكس الملمح الذهني العام لقبائل الجبل:
409	*المطلب الثاني، موقف العلاف محمد الصغير:
414.....	الفصل الثالث، الحركة العسكرية بين الحصيلة والتقييم :
414	المبحث الاول، انتهاء عملية الحملة :
415	المبحث الثاني، الحصيلة :
416.....	*المطلب الاول، اعتقال قاتل الشريف سرور :
417.....	*المطلب الثاني، تقدم المرابطان المهاوشيان بطلب الصفح و شروط المخزن:
420	*المطلب الثالث، إعادة إعمار مركز أغباله:
421.....	*المطلب الرابع، انعامات سلطانية على المحاربين :
421	المبحث الثالث، تقييم عام :
421.....	*المطلب الاول، الذعيرة شرط رمزي لطى صفحة الصراع :
423	*المطلب الثاني، مآل ما وطف على القبيلة:
424	خاتمة:
431.....	خاتمة عامة.....
435.....	البيبليوغرافيا.....
442.....	ملحق الوثائق والمستندات
443	ملاحظات حول ملحق الوثائق.....
444	فهرس الوثائق.....
452	فهرس الجداول.....
454.....	فهرس الموضوعات.....

